خاتم النبيين

محمد صلى الله عليه وآله وسلم

ISBN 9953 - 0 - 0398 - X

دار الكتاب المصرى
٣٣ شارع قصر النيل ـ القاهرة ج.م.ع.
تلفون: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣٠١ ـ فاكسميلي: ٣٩٢٤٦٥٧(٢٠٢)
ص.ب.: ١٥٦ ـ عتبه ـ الرمز البريدي: ١١٥١١ ـ برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشرين

دار الكتاب اللبنانى
شارع مدام كوري ـ مقابل فندق البريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ ـ ٧٣٥٧٣٢ ـ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣(٩٦١١)
برقياً: داكلبان ـ ص.ب.: ١١/٨٣٣٠ ـ بيروت ـ لبنان
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

الطبعة الرابعة الجديدة والمتجددة
منقحة ومزيدة
١٤٢٧ هـ ـ ٢٠٠٦ م

Fourth Edition
A.D. 2006 - H. 1427

خاتم النبيين

محمد صلى الله عليه وآله وسلم

١

مجمع البيان الحديث

سميح عاطف الزين

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا

(الأحزاب: ٤٠)

* * *

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ
كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ

(محمد: ٢)

* * *

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ
أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ
وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ
وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ

(آل عمران: ١٤٤)

* * *

مُّحَمَّدٌ

رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ
تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا
سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ
شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ
يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا

(الفتح : ٢٩)

* * *

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم
مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا
بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ
أَحْمَدُ

(الصف : ٦)

المقدِّمة

تكامل محمد ﷺ الإنساني جعله رسولاً للإنسانية كافة

وتحققت البشارة. . . وأيَّةُ بشارة هي، ومتى كانتْ؟

إنها البشارةُ التي احتضنتها الكتبُ المقدَّسةُ كتاباً بعد كتاب، لِيَجِدَها المؤمنون بين أيديهم في أسفار الله تعالى إلى رسُله رسولًا بعد رسول، إلى أنْ عَهِدَ الله سبحانه بها إلى أحد أنبيائه المختارين، عيسى ابن مريم عليه السلام، لكي يُعلِنَها في الناس، من خلال التعاليم العلوية التي أنزلتْ على قلبه الشريف، صادعاً بها على رؤوس الأشهاد، ومثبتاً لها في جوهرة العقد من رسالته الكريمة، بقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾(١).

وها هو القرآن الكريم، بعد قرون في سلسلة الزمان، يحفظ تلك البشارة مصدِّقاً لها ولحاملها، تامةً كما أوحى بها العزيزُ الجليلُ، وكاملة كما أنطقَها لسانَ رسولِهِ الكريم السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وأعلنها حينئذٍ بذاته على أهل زمانه. .

أجل، لقد تحققت البشارة عندما بعث الله ـ تبارك وتعالى ـ من

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

قلب الجزيرة العربية، ومنذ نيّفٍ وأربعمائةٍ وألفِ عام، محمد بن عبد الله رسوله بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويشفيهم من أمراضهم العقائدية والنفسية والاجتماعية، وليزيل من عقولهم أوهام المعتقدات الضّالة، ويقتلع من قلوبهم أدران الوثنية الزائفة، فيرسي على الدهر القواعد الثابتة والنظم الكاملة للإنسانية بأسرها، ويقيم على مرّ العصور موازين الأعمال الصالحة وصروح الأخلاق الفاضلة للبشرية بأجمعها. وهو في ذلك كله، يحمل أمامهم شعلة العقيدة الإسلامية، ويرفع أبداً لواء الشريعة الحقة، ضارباً لهم المثل الأعلى بنفسه بما امتازَ به من المناقب، وكاشفاً أمام ناظريهم السبل القويمة في معارج التكامل التي تمكّن الإنسان من الوصول إلى قمة مراتب الإنسانية، فيفوز بالنجاح والسعادة في حياته الدنيا، ويضمن العاقبة الحسنى وجنة المأوى في حياته الآخرة.

تلك هي البشارة التي نُتوِّج بها عملنا ـ إن شاء الله تعالى ـ ونجعلها خاتمةً لكتابنا (قصص الأنبياء في القرآن الكريم)، بعدما آلينا على أنفسنا أن نقدِّم للقراء الأعزاء سيرة الرسول الكريم، وقصة حياة محمد الإنسان الصادق الأمين. وهو الإنسان الذي لم تنجب البشرية في تاريخها الطويل بصنوه، ولن ترهص[1] الحياة في مقبل أيامها بنظيره، ليكون وحده بعد اختياره، من بين الناس جميعاً، الإنسانَ الكامل، الذي ميّزه خالقه بشخصية فريدة، وخلقٍ عظيم، وإنسانية خالصة، والذي شاء ربُّهُ أن يجعله سيّدَ البرِية، مهما كبرتْ وتعاظمت قدرات الرجال، والمختارَ من بين الأنبياء والرسل ـ مهما تسامت

(١) ولن ترهص: ولم يثبت أن الحياة أنجبت مثيلًا له، ولن تنجب. وجاء في المنجد: أرهص الشيء أو رهصه: ثبته وأسسه، وأرهصه الله: جعله معدناً للخير.

مآثرهم، وتسامقت عزائمهم على مدى الدهر ـ ليكون خاتم النبيين.

وهكذا يُطِلُّ محَّمدٌ على الدنيا، ويعيش مثل كلِّ خلق الله من بني آدم.. ولكنه ـ منذ حداثته ـ ينفرد عنهم بسلوك خاص: فلا يحفل بسخيف عاداتهم، ولا يُقحم نفسه في سوء أفعالهم، بل يسير وفق نهج قويم، سُبلُهُ الحقائقُ المطلقة في الحياة والكون، وطُرُقُهُ السنن المستقيمةُ التي لا اعْوِجاج فيها ولا الْتِواء.

ويظل يعيش مع هذه الهداية الذاتية المنبعثة من أعماق نفسه، بتوجيهٍ خفيٍّ من لدن عليم خبير، حتى يُبعَثَ نبياً رسولًا، فتجتمع له عندئذٍ التربية الإنسانية، بالتربيةِ الرَّبَّانيَّةِ لكي يكونَ الرسول المبَشَّرَ به، والرسول المنتَظر من الناس، لكافة الناس، كما يبين العزيز الحكيم بقوله الكريم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[1].

وقد نتساءَلُ بالمناسبة: لماذا كانت البشارةُ بمحمدٍ على مرأى من الدنيا ومسمعها قبلَ بعثتهِ؟ وما هي قيمة تلك البشارة ومزِيَّتُها؟.

من الثابت أن الذي نقل تلك البشارة للإنسانية كان رسول الله الذي سبقه، السيدَ المسيح عيسى ابنَ مريمَ عليه السلام. ولكن لِمَ كان اختياره هو بالذات لهذا التكليف من دون سائر النبيِّين والمُرسلين؟. أَلِأَنَّهُ قد سبقه مباشرة في البعثة وحسب، أم لكي تكون للبشارة دلالاتٌ مميِّزةٌ لا تستقيم معانيها إلا مع المسيح عليه السلام؟.

أجل، إنَّها تلك الدلالات المميّزة، ولعلَّ أبرزَها ثلاثٌ:

الأولى: أن حامل البشارة قد تميَّز هو بخاصية لم تعرف لغيره من سائر بني آدم على الإطلاق، سواء أكانوا رُسُل الله إلى العباد، أم

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

كانوا أعلاماً في الفكر والعلم، أم عامة من الناس البسطاء العاديين.

فالتاريخ البشريّ، وعلى امتداده منذ بدء خلق آدم عليه السلام، يثبت أن السيد المسيح دون غيره، كان، مثل أبينا آدم عليه السلام، المولودَ الوحيد الذي كان حَمْلُه وولادتُه بصورة مغايرة لِخَلْق الآدميين أجمعين، وذلك لكي يستدل الناس، من خلال هذه الميزة الفريدة، على عظمة الخالق وقدرته، وعلى قيمة المخلوق ومكرُمته. وبهذه الميزة والمكرمة، حمل السيد المسيح عليه السلام تلك البشارة القيِّمة بالرسول الذي يأتي من بعده، لأنه هو وحده أيضاً ومن دون البشر جميعاً، مخصصٌ بميزة تكامُله الإنساني.

فكان للتطابق في الخاصيَّة التي تَفَرَّدَ بها كل منهما، أعظمُ جامع مشتركٍ للتكليف والتبشير...

والثانية: أن البشارة لم تتناول شأناً معيَّناً من شؤون الكون، ولا حَفِلَت بأمرٍ محدَّدٍ من أمور الناس والخلائق، بل اقتصرتْ على مشيئة الله تعالى بأن يختم رُسلَه الكرام في دنيا الأرض برسولٍ يكلِّفه بحملِ رسالة تامة وكاملة تشمل كل الشؤون، من بداية خلق الكون إلى نهايته، وتحتوي على جميع ما يمكن أن يعرض للبشر، وما يتعلق بحياتهم في الدارين...

وتبعاً لعظمة الرسالة تلك، التي سوف يحملها الرسولُ الذي يأتي من بعد عيسى عليه السلام، فقد وجب أن تعيِّن البشارةُ هذا الرسول بذاته، وتسَمِّيَهُ باسمه، بياناً للمكانة الخاصة التي له عند ربه، لأنه سبحانه قد رصده منذ الأزل ليكون النبيَّ الأميَّ الذي ستلقى على عاتقه الرسالة السماوية الخاتمة، والتي يكون حلالُها حلالًا إلى يوم القيامة، وحرامُها حراماً إلى يوم القيامة، لأنها تستوعب كلَّ شؤون الحياة في

الزمان والمكان، وتحقق كل مطالب الناس في أي عصرٍ ومصر.

والثالثة: أن البشارة قد جاءت بصيغة إعلام، وبمثابة تبشير وإنذار، خاطب بها المسيح عليه السلام بني إسرائيل خاصة لأنهم الشعب الوحيد المكابر المعاند، الذي أتعب موسى عليه السلام ومَن جاء بعده من الأوصياء والصُّلَحاء!. إذ قد سبق في علم الله ـ جلَّتْ قدرته ـ أن هذا الشعب الجاحد سوف يقفُ في وجه الرسالة، وسيمكُرُ بحاملها، ويعترض أبناؤه مجرى سيرها، فصدَع المسيح عليه السلام بأمرِ التبشيرِ بها إلى ذلك الشعب بالذات، ونَوّه ـ في ذات الوقت ـ بالقدرة الإلهية التي تربط بين عذاب الله الذي يصيب به من يشاء، وبين رحمته التي وَسِعَتْ كلَّ شيء. حيث لا تكون تلك الرحمة إلا للمتقين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكُتُبِه ورُسُلِه، ويقيمونَ الصلاةَ ويُؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله تعالى، وهم الذين يتَّبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.. وحيث يكون العذاب للذين يكفرون بآيات الله تعالى وبنعمه، ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (١).

وفي الحقيقة، فإن البشارة ـ وكما تدلُّ عليه نصوص القرآن الكريم ـ لا تقتصر على أمةٍ واحدة، ولا على شعبٍ معيَّن، بل هي تخاطب جميع المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، لأن الرسول المبشَّر به سيكون رسول الإنسانية بكاملها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾.

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ٢٢ و٢٣.

تلك هي بعضُ دلالاتِ البشارة ومزاياها. فقد كانت لا ترمي إلَّا للتأكيد على أن الإنسان ـ وهو الكائن الحيّ الأسمى في دنيا الأرض، الذي أهَّلَهُ خالقه بقدراتٍ وملكات خليقة بخلقه ـ قادر على الوصول إلى التكامل الإنساني.. وهذا التكامل هو الذي يجعل صاحبَهُ ذا مكانة خاصة تُمَكِّنه من أن يكون مختاراً لحمل الرسالة التي يبعثُهُ الله تعالى بها، كما هو الحال مع النبيين والمرسلين الذين جاؤوا على امتداد العمر البشري منذ آدم عليه السلام وحتى الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي سوف تدوم مُدَّة بقاءِ رسالتهِ إلى نهاية الكون، إلى اليوم الذي تتبدل فيه السماوات غير السماوات، والأرض غير الأرض.

وإنه لفي علم الله السابق ـ وهو وحده علَّام الغيوب الذي يعلم السرَّ وأخفى ـ أنه سوف يخلق محمد بن عبد الله من ذرية إبراهيم وإسماعيل ليكون الإنسان الذي لا يَحْفِل بشيءٍ إلا إذا كان حقاً، ولا يأبه لأمر إلا إذا كان خيراً، ولا يسلك طريقاً إلا إذا كان قويماً، ولا يأتي عملًا إلا إذا كان صالحاً، فكان الجدير بأخلاقه الإنسانية الكاملة تلك، أن يكون المُعَدَّ لِحملِ الرسالة المتكاملة، والصادعَ بالنبوَّة الأخيرة الخيِّرة، التي ترهص عن أسمح الشرائع وأشملها، وأعظم الرسالات وأكملها..

...وهكذا خُطَّت في اللوحِ المحفوظِ نبوَّتُه، وكُرِّسَتْ عند الله ـ تعالى ـ كرامتُه، وكانت من التنزيل في التوراة والإنجيل بشارتُه.

نعم هذه هي الحقيقةُ التي كانت في علم الله ـ تعالى ـ منذ الأزل. فمحمدٌ إنسانٌ كسائرِ الناس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1]. ولكنه إنسان في

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

منتهى الكمال، نزع نحو الكمال فأدركه، وأوصله ذلك الكمال إلى رضى ربِّه ورضوانه، فكان محطَّ رسالته في الهدى والفرقان.

وحَرِيٌّ بنا قبل أن نعرف الكمال المحمَّديّ، أن نعرف كيف يتحقق الكمال عند الإنسان، أي أن نفرِّق بين التكامل الإنساني الذي يَتمُّ بفعل الإنسان نفسه، وبين الكمال الرباني الذي يكون بإرادة الله ـ سبحانه ـ وصنعه.

فالإنسان منذ وُجِد على سطح الأرض، كان مدعوّاً دائماً لمواجهة الخيار الأكبر: إمَّا الاهتداء إلى الحقائق المطلقة التي إن عرفها وعمل بوحيها أمكَنَهُ التكامُل وبلوغ درجاته العليا، وبها يكون جديراً باستخلاف الله تعالى له على هذه الأرض.. وإما البقاء في النطاق البشري، دون الارتفاع إلى مرتبة الإنسان السامية، فلا يكون لوجوده أيةُ قيمة خاصة، ولا يكون له أيُّ اعتبار مميَّز، سوى أنه واحد من هؤلاء الأفراد الذين يأتون إلى هذه الدنيا، ويذهبون عنها دون أيِّ أثر يُذكر، أو ربما يتركون بعض الأثر في نطاقٍ محددٍ، أو في مجالٍ من المجالات الضيّقة...

وبما أن الخيار حاسمٌ، والمبادرة دائماً بيد الإنسان نفسه، فإن تقريرَ مصير ابنِ آدمَ نابعٌ دائماً من ذاته. فإن هو جعل غايتهُ الكمالَ وجَبَ عليه اعتمادُ تربيةٍ نفسيَّةٍ خاصة، وانتهاجُ سلوكٍ إنسانيٍّ خاص، لا بدَّ أن يكونا على أعلى درجة من الارتقاء والتسامي.. ولذلك فإنَّ الأمرَ يتناول الإنسانَ في جوهرِهِ وفي أعماقِهِ، بما يستحيل معه وضعُ مقاييس محددة تُعيّن ما في النفس الإنسانية سواء مما خلقَ الله تعالى فيها، أو مما قد تكتسبه في حياتها البشرية... على أنه يمكن التنويه

بخمس حقائق لا بد من إدراكها حتى يكون الإنسان على بيِّنة من أمره في ما يجب عليه عمله:

١ ـ **أولى هذه الحقائق**: مَعْرِفَةُ النفس التي هي محلّ الثواب والعقاب. ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق الجسد من سلالة من طين. ثم أحياه بواسطة الروح، فصار التكوين قائماً بالجسد والروح معاً.. ولكن، هل الجسد والروح هما الإنسان، أم أن هنالك عطاءً ثالثاً لا يمكن بدونه أن يكتمل الخلق الإنساني؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما هو هذا العطاء بل وما هي أهميته؟

إن الله ـ تبارك وتعالى ـ بعد أن كوَّن آدمَ من جسدٍ ونفخ فيه من روحه، ألهمَهُ ـ أوجَدَ فيه ـ عنصراً ثالثاً قادراً على تلقّي العلم والمعرفة بدليل قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[1] وعلى إعادة بثّ ما يتلقّى، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[2] وهذا العنصر هو النفس.. أجل إنها النفس: العنصر الثالث الذي به يكتمل تكوين كل كائن بشري.

وهنا تأتي الآية الكريمة لتدل الإنسان على خلق النفس وتكوينها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾[3]. وهكذا صرنا نعرف أن خلق الإنسان وكماله قد تمَّا في الأصل:

ـ بأن خلق الله تعالى الجسد، بكامل أعضائه وأجزائه، ومكوِّناته من تراب (من صلصالٍ كالفخار)..

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الشمس، الآية: ٧.

ـ ثم نفخ ـ سبحانه ـ فيه من روحه فدبَّت به الحركة، وصار كائناً حياً.

ـ ثم أوجد في هذا الكائن الحي ملكة العلم والمعرفة حتى تكون لديه قابلية الربط بين المعلومات جميعها التي يتلقّاها، ويتكَوَّن عنده الإدراكُ والتمييزُ، اللذان على أساسهما تقوم حرية الاختيار لدى الإنسان بين الفجور والتقوى، وبين التزكية والدس[1] (دسَّ: أعمل المكر والعداوة).

وكل ذلك طبقاً لمنطوق الآية الكريمة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2].

قد أفلح من زكَّاها: عن طريق الإيمان، والعقل الذي هو إحدى ملكات النفس، وذلك بالنيات الحسنة والأعمال الصالحة، والصفات الحميدة، والسيرة المستقيمة..

وقد خاب من دسَّاها: عن طريق الكفر واتباع الأهواء التي تغلب على العقل، والانطواء على النيات الخبيثة، والتمرغ في حمأة الأعمال الفاسدة..

أي أن الخالق الكريم قد ألهم النفس استعدادها للتقوى، واستعدادها للفجور، فعرَّفها طريق الطاعة والمعصية، وكلفها وأطلقها وترك لها الخيار لأن التكليف يثبت بالاختيار. ولو شاء الله سبحانه

---

(١) الدسّ: إدخال الشيء بالشيء بضرب من الإكراه؛ والدسُّ في النفس: إدخالها في المعاصي، وحملها على ارتكاب الذنوب كرهاً عنها.

(٢) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

وتعالى لسوَّى بين الناس بالمنزلة بأن خلقهم جميعاً في الجنة، ولكنه شاء لهم التكليف لاستحقاق الثواب على أعمالهم بفعل الطاعة، وترك المعصية، لقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[1] أي بيّنا له طريق الطاعة وطريق المعصية. وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآيات الكريمة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2] يدعو ربه قائلًا: «اللهمَّ آتِ نفسيَ تقواها أنت وليّها ومولاها، وزكِّها وأنت خير من زكَّاها».

فيكون الإنسان إذن في حقيقته كائناً من جسد وروح ونفس، والنفس تتكوَّن من تداخل الروح بالجسد...

ويقيناً إن النفس تفارق الجسد أثناء النوم، وتبقى فيه الروح. ويكون بين الروح والنفس شُعاع كشُعاع الشمس، يَربط بين عودة النفس، أو عدم عودتها، أي بين حياة هذه النفس وموتها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]. ويُوَضِّح ذلك ابنُ عباس والإمامُ الباقر رضي الله عنهما فقد قالا: «ما من إنسانٍ ينام إلّا وتصعد نفسُه إلى سماء الله، وتبقى روحه في بدنه، ويَصير بينهما شعاعٌ كشُعاع الشمس، فإذا أَذِنَ الله ببقاء النفس خرجت الروح من الجسد، وأجابت النفس»..

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

---

(١) سورة البلد، الآية: ١٠.

(٢) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣.

يتفكَّرون بقدرة الله ـ تعالى ـ كيف يتوفَّى الأنفس حين موتها، وكيف يتوفاها عند منامِها. .

وبناءً على هذا الفهم يكون الجسد عبارة عن ثوب يلبسه الإنسان في الدنيا ثم يخلعه عند الموت، فيبلى وينتهي إلى تراب. . . أمَّا الرُّوح، فهو سرٌّ من أسرار الله عزَّ وجلَّ لا يعلمه إلا هو. وهو سر الحياة، ومحرِّك الجسد، بل وباعث الحياة، وموقظ الشعور بها، وبدونه تنعدم الحياة. وقد عجزَتْ عن فهم ذلك السِّرّ وإدراكه العقولُ النيِّرة، وبقي اللُّغزَ الكبيرَ دون حلّ. . ليعلم الإنسان أنه لم يؤتَ من العلم إلَّا قليلًا، تماماً كما نَصَّ عليه القرآن الكريم حيث قال الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا﴾(١).

أما النَّفسُ فهي التي تتجلَّى في العقل وما ينتج عنه من فكرٍ وإرادة، وفي الفؤاد أو القلب وما يعتمل به من مشاعر وأحاسيس، وعنها جميعها ينبثق الإدراك والتمييز، وعليها تترتَّبُ تصرُّفات الإنسان من نيةٍ وقولٍ وفعلٍ، لتكون النفس، في نهاية المطاف، محلَّ الثواب والعقاب. .

ولعلَّ الإنسان عندما يعرف حقيقة تكوينه هذه، التي أراده الله ـ سبحانه ـ عليها، يمكنه أن يختار الحقائق الأخرى التي تقوده إلى التكامُل. . .

٢ ـ **وثانية الحقائق**: أن الكمال لا يُخلَق مع الإنسان منذ ولادته، بل يعود أمر تحقيقِهِ إليه نفسه في مسيرة حياته. والكمال الذي

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

وَجَب أن يسعى له، يكمن في تقويم النفس ـ أي الكمال النفسي ـ إذ ليس للكمال الجسميِّ أي وزن في مجال التقويم الخُلُقي وفي ميزان الحق والعدل والثواب والعقاب.. ومما لا شك فيه أن الإنسان إنما يتكامل في هذه الحياة بصورة تدريجية تصاعدية، فينتقل من مرتبة إلى أخرى من مراتب الكمال، بحسب قابليته وقدرته على هذا الانتقال، حتى يصل إلى حالة تكاملية معيَّنة لا يعود بمقدوره تجاوزها. ولذا فإنه يكون مستحيلاً عليه بلوغُ الكمال بصورته النهائية، وفي آخر مرتبةٍ من مراتبه إلا أن يشاء الله تعالى له ذلك، كما في حالة المعصومين من الأنبياء وعباد الله الصالحين، فهؤلاء يصلون إلى الكمال الإنساني برعاية خاصة من ربهم، من أجل القيام بأدوارٍ في هذه الحياة، يكونون مرصودين لها، في علم الله العليم الحكيم.

فالإنسانُ مدْعُوٌّ في الحقيقة لأن يتكامل في هذه الحياة، وتكامله لا يتعلَّق بسنِّه ولا بغناه أو بفقره، كما لا علاقة له بمركزه أو أسرته، ولا بإرْثٍ ولا بأَبٍ ولا أُمٍّ، فضلاً عن أنَّه لا يرتبط ببيئةٍ ولا بعصرٍ ولا بمصر ـ وإن كانت تشكل أحياناً عوامل مؤثرة عليه ـ بل هو ملَكَةٌ رفيعةٌ، يحمل الإنسان نفسه عليها، فيدرّبها على جلائل الأعمال، ويحلّيها بأفضل المزايا، ويُصبّرها على الاستمرار في خطَّةٍ حكيمة وفق سبيل قويم، حتى يتسنَّى له أن يقهر النَّفس الأمَّارة بالسُّوء ويقيم على أنقاضها نفساً شريفة لا تهفو إلَّا إلى تحقيق أسمى المُثُل العليا في الحياة. وقديماً قال الشاعر:

يا خادمَ الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلبُ الربحَ مما فيه خسرانُ
أقبلْ على النفسِ فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

ولو أخذنا الإنسان في معترك الحياة، لوجدناه محل فتنة واختبار، وغالباً ما تُفرض عليه مواجهةُ ظروف قد تكون قاسية صعبة، أو قد تكون رضيّة هنيئة.. ولكن لا يمكن لظرفٍ من هذه الظروف أن يشكِّل معوِّقات في طريق الإنسان إذا كان الكمال رائده..

فالظروفُ الحرِجةُ لا تمنعه من الحفاظ على مبدئه الذي اعتنقه، ولا تحول بينه وبين النهج القويم الذي اتَّبعهُ.. كما أنّ يُسْرَ الحياة، وإقبال الدنيا على الإنسان، وإمداده بأموالٍ وبَنين، لا يمكن أن تشكِّل كلها عائقاً في طريق الإنسان للتكامل ولا أن تكون سبباً لضلالٍ أو غواية، بل على خلاف ذلك تماماً، فقد تكون تلك الأمور بمثابة الإمدادات، والإمكانات التي تتيح له العون على تحقيق مُثُلِه العليا وغاياته السامية، إذا كان حقاً يترسَّمُ الطريق المستقيم الذي اختاره لنفسه..

٣ ـ وثالثة الحقائق: أن التكامل عند الإنسان لا يخضع لمفهوم مطلق، ولا يمكن أن تكون له مقاييس محدَّدة وثابتة يجري من خلالها تطبيقُهُ على جميع الناس، بل العكس هو الصحيح. فإن هذا التكامل يكون نسبياً طالما أنه يتعلَّق بنفس الإنسان، ولذلك فهو يختلف من فرد إلى فرد، ومن جماعة إلى أخرى. فقد نجده عند الإنسان العادي البسيط، كما نجده عند أهل العلم والمعرِفة، بحيث يكون لكلٍّ مفهومه الخاص بتكامله النفسيّ، وبما يتَّفِق مع تركيبه النفسانيّ وتكوينه الجسدي... من هنا كان الاختلاف في المفهوم وفي الأسلوب، طبقاً للاختلاف بين أبناء البشر، إذ فيهم القوي والضعيف، والجميل والبشع، والقادر والعاجز، والفطن والساذج، إلى غير ذلك من الحالات التي تتنوَّع عند الأفراد، والتي تنجم في الواقع عن العوامل الذاتية، أو تتأثَّر بالعوامل الوراثية والمجتمعية، أو بعوامل أخرى

عديدة تلتصق بحياة كل فرد من الناس، وتشكِّل له الشخصية المستقلَّة المتميزة عن غيرها من الشخصيات. ولو لم يكن الناس كذلك، لكانوا على نسقٍ واحدٍ من الخَلْق والخُلُق، ولَتوحَّدتِ المقاييس كلها، ولكانت الحياة على خلاف ما هي عليه، كما نعهدها ونعرفها، في مفارقاتها العجيبة الغريبة بالنسبة لاختلاف أحوال الناس.

إذن، فبسبب هذا الاختلاف، كانت لكلِّ فردٍ نظرتُه الخاصةُ إلى الحياة، وكان له مسلكُه الخاص في التَّصرُّف، فتَحَتَّمَ أن يكون له مفهومه الخاص للتكامل..

هذا، مع الإشارة إلى أن مدار بحثنا هو الفرد الذي ينشد التكامل.. أما الفرد الذي قَعَدَ به العزمُ عن هذا المطلب السامي، ونأى عن أصالة الإنسان فيه، فإنه لا يعنينا منه، إلا القدر الذي نبتغي له به الخلاص من الضياع، بُغيةَ أن يحرّر نفسه من العبودية التي قيَّدها بها، وأملًا بأن يبدأ من جديد رحلةَ التكامل التي ترفعه إلى مرتبة الإنسان.

٤ ـ **ورابعة الحقائق**: الاختلاف في النظرة والمسلك إلى التكامل، ونتائجه الإيجابية على صعيد التقدم والرقيّ في مجالات الحياة العامة..

فعن هذا الاختلاف انبثق التنوُّع في الأفكار، والتعدُّد في الأساليب والوسائل، والوفرةُ في المكتشفات والمخترعات التي أدَّت إلى عمارة الأرض، وإلى نشوء الحضارات والمدنيات لدى الأمم والشعوب.. مع التأكيد على الفارق الواضح ما بين الحضارة والمدنيَّة!

فالحضارةُ مجموعةُ مفاهيم نابعة من وجهة النظر إلى الكون والحياة والإنسان. أما المدنية فهي الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي تستعمل في شؤون الحياة. ومن هنا كانت الحضارات متميِّزةً عن

بعضها البعض، طبقاً لوجهة نظر كل أمة، ووفْقاً للعقلية السائدة في المحيط الجغرافي الذي تعيش فيه الأمة. فكانت للمصريّين مثلاً حضارتهم، وللهند أو الصين حضارتهما، وكانت أيضاً الحضارة الغربية، والحضارة الإسلامية. وفي كلٍّ من هذه الحضارات قيَمٌ معيَّنة مختلفة في نظرتها للإنسان، وللحياة، ولمَا بعد الحياة، وهي التي جعلت لكلٍ منها طابعها الخاص الذي قامت عليه وعُرِفتْ به. وهذا بخلاف المدنية، التي يمكن لأشكالها المادية أن تتجانس وتتقارب، سواء في الشرق أم في الغرب، وأن تتلاقى على أكثر من صعيد وفي أكثر من مجال، بحيث تصير تلك الأشكال مقبولةً عند سائر الناس، ويصير استعمالها شائعاً في غالبية البيئات والمجتمعات. فما يلبسه الغربي أو يأكله، قد يلبسه الشرقي أيضاً ويأكله.. والأدوات والآلات وأنماط العيش المادية على اختلافها، هي أشكال مدنية عالمية لا يُراعى في أخذها شرقٌ ولا غربٌ ولا جنسٌ ولا لون، لأنها ليستْ ناشئة عن الحضارة ولا تتعلَّق بها.

نستخلص من ذلك أن الجهد البشري قد يكون في مضمار الحضارة، التي إذا توافقت مع القيم والمُثُل العليا، تؤمِّن السعادة والطمأنينة، وتحقق العدالة للناس، شرط أن تقوم على أوامر الله ـ تعالى ـ ونواهيه... أو قد يكون الجهد البشري في مجالات المدنية التي تنشىء الوسائل والأدوات والأجهزة على اختلاف أشكالها وأنواعها ـ وتكون قابلة للاستعمال من قبل جميع الناس.

هذه الأعمال الحضارية والمدنية هي بعضُ سُبُل التكامل لمريديها، ولباذلي قصارى جهودهم العقلية والنفسية والجسدية لتحقيقها..

٥ ـ أمَّا خامسة الحقائق: التي نحن بصددها، وأهمها، فهي أن التكامل لا يكون إلا عند إنسان صحيح النفس سليم الطويَّة نقيّ السريرة. فمن حيث المظهر المادي الخارجي، خلق الله ـ تعالى ـ الإنسان في أحسن تقويم حتى كان مثالًا رائعاً في الخلق... إذ ليس أجمل ولا أروع من صورة هذا الكائن، الماثل بجسده الكامل الأجزاء، التامِّ الأوصاف. فهو تعبيرٌ خالصٌ عن الصورة التي أراده خالقه عليها، وجعله فيها، وقد صرَّح القرآنُ الكريمُ بحُسن صُنْع الله ـ تبارك وتعالى ـ في مجال خلق الإنسان حيث قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾(١).

وحيثُ قال جَلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٢).

ولكن هذا الإنسان، لم يُدرك هذا الحُسْنَ فيه، ولا حَمِدَ الله ربَّه عليه، ولا عمل بما تستأهله هذه النِّعمةُ لديه، فأتاه العتابُ والإنذارُ من ربه الكريم على هذا الضلال بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾(٣).

فالإنسان بعد أن خلقه الله تعالى سويّاً، عدلًا، لم يُدرك قيمة الشاكلة الجميلة التي خُلِقَ عليها، فاغْتَرَّ بنفسه وخُدِعَ بها، ثم اغترَّ بربِّه وتجرّأ عليه.

وقد جاء هذا الاغترار من نفسه ـ حُكماً ـ، لأنه لم يعمل

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.

(٢) سورة التين، الآية: ٤.

(٣) سورة الانفطار، الآيات: ٦ ـ ٨.

ليجعلها نفساً تتكامل، بل على العكس غلبت عليه نفسه الأمّارة بالسوء، حتى صارَ من الذين في قلوبهم مرضٌ، كما وصفهم ربُّ العالمين.. فقد أنعم الله ـ عز وجل ـ على النفس ـ أي نفس بشرية ـ بالوجود وغَمَرها بالنِّعَم، فانصرَفَتْ عنه إلى إنكاره واتِّباع غواية الشيطان! وذلك أن للنفس أمراضَها وعاهاتِها، كما أن للجسد أمراضَه وعاهاتِهِ، مع الفارق المهمّ، وهو أن أمراض النفس أشدُّ إيلاماً وأصعبُ معالجةً من أمراض الجسد. فالوصفات التي يعطيها الأطباء، والعمليات الجراحية التي يقومون بها، من شأنها معالجة الأجساد وشفاؤها إذا صدق تشخيصُ المرض، وصحَّتْ معرفتُه، وبالشروط التي تجعل التشخيص أو الجراحة صحيحين. في حين أن الوصفات لمعالجة النفس قلَّما تكون نافعةً، إلا إذا تعرَّفنا على هذه النفس منذ البداية، ووجدنا لديها القابليَّةَ والاستعدادَ للشِّفاء. لأنه لا شيء أكثرُ تعقيداً أو أشدُّ غُموضاً من نفس الإِنسان، إذ هي في حال صحَّتها ومرضها تتأثَّرُ بمختلفِ العوامل التي تكمن فيها أو تحيط بها، ولا شيء يخرج من ذاتية الإِنسان، أو يدخل فيها إلَّا ولهُ تأثيره على نفسه.

من هنا كان التلازم قائماً ما بين صلاح النفس وتكاملها، وبين فجور النفس وضِعتِها. فأمام الإِنسان دوماً الفوارق التي تفصل ما بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والصواب والخطأ. ويبقى على أيِّ إنسان، كائناً من كان، أن يختار بنفسه المسالك التي يَعْبُرُ فيها مسيرةَ حياته الأرضية، فإما أن ينطلقَ متكاملًا، وإما أن ينحدر مُتسافلًا. والغريب في أمر من يجرفهم تيّار التسافل أنهم لا يقفون عند حدود أنفسهم وحسب، بل كثيراً ما يتجاوزونها إلى جرِّ غيرهم من الضعفاء، وإلى ازدراء غيرهم من الناس، لاسيما وهم ينظرون إلى المؤمنين

والأتقياء والورعين نظرة استعلاء، ويتهمونهم بالتعلُّق بالأوهام الغيبية، ويَصِمونهم بالتَّخلُّف والرجعية، دون أن يعرفوا أنه ما من إنسانٍ إلَّا وله كيانٌ بذاته، مثلما له شأنٌ يغنيه عمَّن سواه، ومن خلاله تتكون شخصيته، وتبرز فعاله. أما الرجعية، التي يلجأون إليها، فإنها لا تحمل إلا معنى الرجوع عن نور الحقيقة إلى ظلمة الجاهلية الجهلاء، وهم ـ هؤلاء ـ أتباعُها ومريدوها!..

ونسأل هؤلاء الضالِّين والمضلِّلين: هل أشدُّ رجعيةً من إنكار مِنَنِ الخالق علينا، وتناسي ما منحنا من طاقات وملكات وقدرات؟. أم هل أكثر جهالة من جحود الجميل وكُفرِ النعمة؟ أم هل أفدح هبوطاً من ضلالة النفس وانحدارها في كل ما يخالف حقيقة الإنسان في جوهره وفطرته؟

إذن فصحةُ النفس وصلاحُها ـ وهما ما يعبَّر عنهما بزكاة النفس ـ أقوَمُ سُبُل الإنسان للارتقاء في معارج التكامل... ولعل العودة إلى النفس ومعرفتها على حقيقتها هما أول تلك السُّبل لتقويمها وشفائها من أمراضها.

ومن هنا كانت الحاجة ماسّةً إلى ظهور النبيين المرسلين، الذين هم في الحقيقة أطباء النفوس. وما أنزله الله سبحانه وتعالى عليهم لم يكن سوى أدوية لشفاء النفوس المريضة المنحرفة عن جادة الصواب، وقد قال تعالى بأن القرآن الكريم هو: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[1] للذين آمنوا. ونبَّه الناس إلى ما فيه من شفاءٍ بقوله المبين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] ثم أكَّد عليه بقوله العزيز: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وأما من ركب عناده، وبقي مصرّاً على استكباره وكفره وظلمه لنفسه، فإن هذا القرآن لا يشفيه ولا يزيده إلَّا خساراً..

أجل، إنَّهُ، ورأفةً بالعباد، بعث الله ـ تعالى ـ تلك الثلة المختارة من عباده الصالحين، بشرائع الهدى ومناهج الدين، لإصلاح النفوس الإنسانية المريضة وتهذيبها، وإعادتها إلى جادة الصواب وتقويمها. وقد فرضتِ الرسالاتُ السماوية على الإنسان أن يخضع كل يوم، ـ إن لم يكن كل ساعة ـ لمحاسبة نفسه محاسبة دقيقة على كل ما أدركت وميَّزتْ واختارتْ، أو على كل ما سعَتْ وباشَرتْ وعملتْ، فإن كان في عملها نقصان أُكمِل، وإن كان فيه شرٌّ بُدِّل. أما إذا جهل الإنسان هذا التقويمَ التهذيبيَّ اليوميَّ أو تجاهله، فإن إدراجه في لائحة الأنعام يكون أجْدَى، بل ربما كان الموت أجدر به كيلا يزداد غيّاً مع غيِّه وإثماً مع إثمه. وفي هذا يقول محمد ﷺ، مبيِّناً أهميَّة محاسبةِ الإنسان لنفسه في كل حين، وداعياً إياه للارتقاء والتكامل في كلِّ وقت: «من اسْتَوَى يَوْماه فهو مَغْبون، ومن كان غدُه شرّاً من يومه فهو ملعون، ومن لم يتفقد النقصان في عمله، كان النقصان في عقله، ومن كان النقصان في عمله وعقله فالموت خير له من حياته»[3]، وكفى بقوله ﷺ قولًا كريماً، وسيرةً هاديةً...

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٣) رواه الديلمي، كشف الخفاء، ج٢ ص٢٣٣.

نعم هذا هو قانون محمد عليه وعلى آله أفضلُ الصلاةِ والسلام، القانون الذي يصلح لأن يسري على كل إنسان، وفي كل وقت من أجل مجاهدة النفس وتقويمها، ولا يذهب فيه الجهد عبثاً، لأن مجاهدة النفس في سبيل صحَّتها تؤدي حتماً إلى رضى الله سبحانه وتعالى، إذ من خلال هذه النفس يكون الإيمان بحقيقة وجود الله، والطاعة لأوامره، والابتعادُ عن نواهيه. فمجاهدة النفس هي مثل الجهاد القتالي في سبيل الله والهداية إلى سبله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم». ولقد نُسب إليه ﷺ أنه قال لأصحابه حين الرجوع من الحرب: «انتهيتم من الجهاد الأصغر، وبقي عليكم الجهادُ الأكبر. فقيل: وما الجهادُ الأكبرُ يا رسول الله؟. قال: هو جهادُ النفس»[2].

تلك هي الحقائق الخمس التي رأينا أنها قد تغني الإنسان في مسار حياته الأرضية، والتي نخلص منها إلى النتيجة الحاسمة وهي: أن عبء التكامل يقع على عاتق الإنسان نفسه، أولًا وقبل كل شيء.. فهو، بالإيمان بالله وملائكته وكتُبه ورُسُلِهِ واليوم الآخر، وبمعرفته لنفسه، وبمجاهدة هذه النفس لتخليصها من أمراضها وتعقيداتها، تتوافر له تربيتان:

التربية الإلهية، والتربية الإنسانية، وبهما يستطيع السير على

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) وقد روي في الوسائل (م١١ ص١٢٢ و١٢٤) على النحو التالي: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فلما سألوه: وما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال ﷺ: «هو جهاد النفس»، وهو في فروع الكافي أيضاً.

طريق التكامل الذي من شأنه ـ إذا ما بلغ بعض ذراه ـ أن يرفعه إلى أعلى عليِّين. .

ولئن كانت التربية الإنسانية تنبع من ذات الإنسان ومن بيئته، وظروف حياته، فإن التربية الإلهية تأتي من خالق هذا الإنسان، تأتي في تعاليمَ هي أوامرُ ونواهٍ لا تحتاج إلى درس وتمحيص لتصبح وَصْفاتٍ صالحة. . وقد أتت هكذا فعلاً، عن طريق المبعوثين من الله تعالى الذين حملوا رسالاته إلى بني البشر. . وما كانت العزة الإلهية لتبعث هادياً إلا بعد إعدادِه، لأن المسؤولية التي يحملها مسؤولية جسيمة وعظيمة. فَمِنْ هذا الإعداد قولُه لنبيِّه موسى عليه السلام ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[1]. .

ولكن، ينبغي أن نلاحظ أنه على الرغم من هذا الإعداد المسبق فقد ثبت في التاريخ، أن أي نبي أو رسول لم يُبْعثْ إلَّا لِبَني قومه، ودون أن يحمل أحدٌ منهم تكليفاً لكافة الناس؛ بل ولقد نصَّ القرآنُ الكريمُ على هذه الحقيقة التي رافقت الأنبياء والمرسلين. فمن قوله عزَّ من قائل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2]. إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٦٩ و٧٠.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: ١٠٥ ـ ١٠٧.

أَمِينٌ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[2]. ومثل ذلك كان الخطابُ إلى لوطٍ، وشعيب وغيرهما من الرسل الكرام... فكلٌّ قد بعث في بني قومه إلَّا الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ فقد بعث لأهل الأرض جميعاً، بدليل ما خاطبه به ربه الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[3]... لِعَرَبِيِّهم وأعْجَمِيِّهم، أبْيَضِهِم وأَسْوَدِهِم، دانِيهم وقاصِيهم، لكافتهم في سائر أنحاء المعمورة..

والسؤال الذي يرِد هو: لماذا خصَّ الله سبحانه وتعالى محمداً بهذا الفضل الكبير، عندما بعثَهُ رسولًا وهادياً، وبشيراً ونذيراً إلى الناس كافة؟

إننا لو تعرَّفنا إلى محمدٍ صاحبِ الشخصية الإنسانية الكاملة، وإلى محمدٍ الرسولِ الَّذي أهَّله تكامُله الإنسانيُّ لحمل أكبر رسالة سماوية إلى الأرض وآخرها، لاهتدينا إلى الإجابة عن هذا السؤال...

فمَن هو محمد بن عبد الله؟

إنه ذلك الطفل الذي تربَّى يتيماً، محروماً من رعاية الأب كلِّها، ومن حنان الأم إلَّا أقلَّه، وعلى الرغم من ذلك لم يذلَّه اليتم ولم تَقْهَرْه قساوتُه، حتى أنه لم يكن عائقاً في درب تكامله، بل على العكس، فقد كان اليُتْمُ له زاداً روحيّاً، جعله في حياته الإنسانَ العطوفَ الرَّحيم، فاستحق يُتْمهُ أن يكون معلِّماً وموجِّهاً، لا ذُلّاً يُعانيه الطفلُ

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٥.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ١٤١ ـ ١٤٣.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

في إنسانيته، ولا مَدْعاةَ تعبيرٍ عن شفقة يتصدَّقُ بها ذوو الفضل عليه كما يجري عادةً لليتامَى والمساكين.

إنه ذلك الفتى الذي ابتعد عن الطَّيش، وترك اللهوَ واللعب وانصرف منذ مطلع تفتُّحه على الحياة إلى التَّفكُّر بالقِيَم والمُثل التي تُنمِّي مداركه، والبحث عن الطرق التي تقوِّي ملكة الخير في نفسه، وَتَلَمُّس السُّبل التي تفتح باب الحقيقة أمام عقله، حتى كانت فُتوَّتُه نسيج ذاته، تختلف فيه تماماً عن فُتوَّة أبناء الأرض كلِّهم.

إنه ذلك الشاب الذي قهر شظف العيش، وانتصر على مرارة الفقر والجوع، لا بِاتِّكاله على غيره، وإنما ببحثه الدائم عن الكسب الشريف، واجتناء الرزق الحلال من العمل اليدوي، والجُهد الشخصي، حتى صار مثال العاملين الشرفاء في كل زمان وكل مكان. لم يجذبه طيشُ الشباب ورعونتُه، ولا أغوته المحرَّمات ومفاسدها، أو زُخرف الدنيا وزينتها، بل هو أبداً الشاب الرصين، الفاضل، الذي دَيْدنُه الاستقامةُ، وناموسه الحلال والطهارة.

إنه ذلك الزوجُ والأبُ المثاليّ، تُلقي سنواتُ الشقاء والمكابدة أثقالَها عليه، ويُؤاتيه الوقت كي يُفيضُ عليه الله ـ تعالى ـ من نعمائه، فيصير غنياً بالمال، والزوجة والبنين، ولكن هل اكتفى بذلك؟ لا، والله.. إنه محمدٌ ذاتهُ، الذي يظلُّ على عهده مع نفسه، قائماً على تربية ذاته، لا تبهره حلاوة الدنيا وقد أقبلت عليه، ولا تَغُرّه الثروة وقد كثرت بين يديه، فكان مِثالَ الزَّوج الوفيّ، يقدِّس حرمة الزواج، ويصون حقوق المرأة، تماماً كما كان مثالَ الأب البار، يهذِّب بناتِهِ، ويقوم على تربيتهنَّ التربية الصالحة. بل وليس محمدٌ رجلًا عاديّاً، إذا أقبلتْ عليه السعادة من كل جانب ـ صحةً ومالًا وعائلةً ومكانةً ـ ينصرف عن هموم إصلاح مجتمعه، وما يعود يَحفِلُ بالصالح العام،

بل يكتفي بنطاقه الحياتي الخاص، أو يجتهد في المحافظة على هذا النطاق!.. لا، لم يكن محمد بن عبد الله من هذا النوع من الرجال عندما أقبلتْ عليه الدنيا، ولفَّته السعادة بفيضها.. وحاشَا للرسول المنتظر أن يأخذه شيءٌ من زخرف هذه الحياة الدنيا وغرورها..

لقد عاش محمدٌ في مجتمع جاهليّ، تتحكم فيه عاداتٌ وتقاليدُ قبلية، يَغلب عليها طابع الصلف والعناد والقساوة والجفاف، ويقيم أغلب عيشه على الغزو والسلب والاقتتال، وتنطوي مقومات حياته على أبشع ما عرف الإنسان في تاريخه من هدرٍ لقيمة الإنسان كما هو الحال في وأد البنات.. وكل هذا إلى جانب امتلاء المجتمع بالمفاسد ـ بأبشع مظاهرها ـ من تعاطي الفواحش والمنكرات، وأكل الربا والسحت، والْوُلُوغ في اللذائذ المادية والرغبات الجنسية...

في مثل تلك البيئة القاسية البعيدة عن طاعة الله عز وجل، عاش محمد بن عبد الله، وهو كارهٌ لواقع مجتمعه السيىء، مبتعدٌ عن كل عاداته وتقاليده المُخزِيَة..

ولكنَّ محمداً لم يقف عند حدود السلبية من موبِقات مجتمعه، ولا اكْتَفَى بِلَعْنِها وترذِيلها، بل انصرف إلى التفكير في ما يجب أن يعمله حتى يخلِّص أبناء قومه مما هم فيه من كُفرٍ وضلال ومفاسد..

.. ثم يترامى فكرُه إلى أبعد من حدودِ مجتمعه، واستئصال مساوئِه، بكثير.. فيتطلع إلى الإنسانية بأسرها، فيركن إلى التأمُّل والتفكُّر.. ويجذبه الكون بعوالمه، فيروح يتبصر بما يتناهى إليه الفكر.. ثم يقرِّر الانقطاع إلى الوحدة، والانفراد بالنفس، والرجوع إلى العقل، متأهِّباً للعمل الكبير.. علَّه يجد الحلول التي تجلب

الخلاص.. وفي غار حراء كان: انقطاعه، وخَلْوَتُه.. ليتأَمَّلَ ويراقب.. وينقِّب ويفتِّش..

وما عتَّم أن قادته فطرتُه السليمةُ، وبصيرته النافذة إلى معرفة حقائق الوجود، وإلى إدراك أسرار الحياة.. فكانت تلك المعرفة أولَ تمهيدٍ لاستقبال الوحي الإلٰهي في يومٍ مقبلٍ من الأيام.

نعم، إن محمد بن عبد الله ـ قبل أن ينزل عليه جبريل الأمين بالوحي من ربه ـ إنسانٌ يتدرَّجُ في مراقي الكمال من مراحل عمره. وهو يتزوَّد بحقائق الحياة، فتقوده تلك الحقائق إلى ما وراء هذه الحياة، فيعرف خالقه حقَّ معرفته.. ثم.. يصير على موعدٍ معه كي يمنحه الهدايةَ الكاملةَ والفضل الأكبر...

وإذا كان محمد قد استحقَّ هذا الفضل بذاته، ولذاته، فإن الشهادات التي تزكِّي هذا الفضل لأكبر دليل على استحقاقه لها:

فشهادات أبناء قومه مناقبه وصفاته تتوالى من كل صوب، بعد أن رأَوه يتفرَّدُ بخصال وفضائلَ لم يألفوها عند غيره. وشهادة زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بحقِّه لها قيمتُها، لأنها أقرب الناس إليه وأكثرهم معرفة به.. كما أن الشهادة العظمى بحقه تأتيه من ربه لأنه ـ سبحانه ـ هو السميعُ العليم بذات هذا الإنسان وكمال نفسه..

فهو عند أبناء قومه «الصادق الأمين» بعد اقتناعهم بأنه لا أحد فيهم على شاكلته لا في القول ولا في الفعل ولا في السلوك، حتى صار هذا اللقب علماً خاصاً به، لا يعرف به إلا هو، ولا يُنادى به غيره...

ولكن، كيف اتفق لأهل مكة، وفي ذلك المجتمع الجاهلي الضالّ، أن يعترفوا لواحدٍ منهم بهذه المزية، وأن يُقِرُّوا له ـ من

خلالها ـ بالرفعة عليهم، وهم، على ما هم عليه من الافتخار بأنفسهم، ومن التباهي بعرقيّتهم وبأسهم وتفوقهم على سائر قبائل العرب؟...

تُرى، هل كان محمد بن عبد الله، صاحب ثروة وغنى ـ وهو لم يعرفهما قبل زواجه من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ـ فأرادوا أن يتقرَّبوا إليه طمعاً في ماله؟. أم أنه كان القائد الحربيّ المرهوب الجانب حتى خافوا من بأسه وسطوته؟. أم أنه كان عرَّافاً بارعاً حتى تكون له حظوة عندهم؟. أم أنه كان شاعراً ينطق بلسانهم ويفاخر بأمجادهم، ويدافع عن فعالهم، حتى تكون له مكانة خاصة في نفوسهم؟. أم أنه تولى حُكمهم فَلَمسوا عَدْلَه ـ قبل بعثته ـ، أو تسلَّم مقاليد منصب كبير فأذعنوا إليه وتملَّقوه لينالوا رضى منصبه؟.

لا، لم يكن لمحمد شيء من ذلك. ومع ذلك اتفق أهل مكة ومن كان يأتيهم من العرب، على أنه «الصادق الأمين» الحَرِيُّ بأسمى آيات التقدير والاحترام والمحبة.

نعم، إن محمداً الإنسانَ ـ بسلوكه القويم، وقوله الصادق وعقله الراجح ـ امتلك قلوب الناس مِنْ حوله، وحاز تقديرهم وإعجابهم.

وبعد شهادة الناس له، تأتي شهادة زوجه خديجة رضي الله عنها. فإنه عندما بلغ الأربعين من عمره الشريف، متردّداً بين غار حِرَاء للتعبُّد وبين الخلوة بنفسه للتأمُّل والتفكُّر، ينزل عليه جبرائيل عليه السلام ـ وهو في وحدته ـ ويفجؤه الوحي ـ وهو في خَلْوَته ـ ويُلقِّنه أخوه الأمينُ أولَ آياتٍ يحملها إليه من ربِّه:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ

ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ويتلقى محمدٌ ﷺ الوحيَ، فترتعد فرائصه، ويرتجف جسده، ويرتاعُ قلبُه.. فيعود إلى بيته، لتلقاهُ زوجُه خديجة رضي الله عنها على تلك الحال من الاضطراب وهو يقول: زَمِّلُوني، دَثِّرُوني!!! فيروعها منظره غير المألوف؛ ولكنها لم تؤخذ ولم تتردد، بل تسارع إلى توفير كل ما يؤمِّن له الارتياح والاطمئنان، ثم تُقْبِلُ عليه مسرِّيةً، وتسأله عما أصابه، وكيف أتاه مثل هذا الانفعال؟! فيخبرها بما جرى له في غار حِراء. وتستمع خديجة رضي الله عنها إلى نبأ الوحي فترتاحُ نفسها، ويغتبطُ قلبُها ويهنأ بالها، وتحسُّ بأنها توشك أن تحلِّق في أجواء الإشراق والإيمان..

وكيف لا؟!..

فها هو ذا زوجُها محمد يفوز بالمكانة الرفيعة عند ربه ويكون ذلك النبيَّ المُنْتَظَر المُبَشَّرَ بِهِ من رُسُلِ الله في كُتُبِ الله ـ جل جلاله ـ.

أجل، لقد صدَّقت خديجة رضي الله عنها نبأ الوحي، وأدركت بفطرتها الصافية السليمة، جلال المسؤولية التي يُلقيها الله تعالى على عاتق هذا الزوج الكريم، فرأت نفسها تسجد مسبِّحةً بحمد ربِّها، موقنة بقدسيته.. ثم نهضتْ إلى قرب زوجها تسوّي بحنانها المألوف الأغطية التي تُدَثِّره وتُزَمِّلُه، ثم تركن بجانبه فتطوف بها الأفكار وهي تسائلها:

وهل أحد غير هذا الزوج أحقُّ بأن يكون موضع الرسالة؟..

وهل إنسان إلَّاه كفؤ للتغيير والتحويل في دنيا الناس؟

إنَّ خديجة رضي الله عنها تنطلق من الصفات التي تعرفها في

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

زوجها. والمرأة الحكيمة هي أكثر الناس معرفة بالزوج، فكيف إذا كانت هذه الزوجة خديجة بنت خويلد، تلك التي آمنت بالنبأ العظيم، وصدَّقت الوحي، فكان عليها أن تزيل القلق من نفس زوجها، وأن تطمئنه قائلة: «أبْشِرْ يا محمد! فلا والله لا يُخزيكَ الله أبداً. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَصْدُق الحديثَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ[1]، وتُكْسِبُ المعدوم، وتُعين على نوائب الدهر.. أبْشِرْ يا ابنَ عمي واثْبُتْ. فوالَّذي نفسُ خديجةَ بيدِهِ إِنِّي لأرجو أن تكونَ نَبيَّ هذه الأمَّة»..

فكان كلامها هذا الشهادة الثانية على رفعة محمد ﷺ وتميّزه عن سائر الناس..

وإنَّ لتلك الشهادة أثرها: فشهادةُ الزوجة العظيمة شهادةٌ عظيمةٌ بحد ذاتها، لأنها مبنيةٌ على واقع حياة زوجها العظيم، وعلى أفعاله العظيمة التي حفلت بها حياته، وعلى أعماله الجليلة التي أبرزت مزاياه الإنسانية..

نعم، هذه شهادة الناس من الخارج، وهذهِ شهادة الزوجة من الداخل... ولكنَّ الشهادة الأكبر والأجل والأعظم تأتي من الملأ الأعلى، وتتنزَّلُ من الله تبارك وتعالى وهو ـ جل جلاله ـ يخاطبُ نبيَّهُ بقوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

الله أكبرُ! فما أجَلَّها شهادةً من الله العليِّ الكبير، في الثناء على محمد ﷺ عبده ورسولِهِ.

---

(١) الكَلَّ: الضعيف، الثقيل.

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

وما أعظمهُ خُلُقاً ـ خُلُق محمدٍ ـ والله العزيز الحكيم هو الذي يضفي على خلقه صفة العظمة، ويجعله سمةً لنبيِّهِ في دنيا الخلق.

وحَسْبُها أن تكون شهادة من الله ـ جلَّت عظمته ـ حتى تقوم لها السماوات والأرض. إنها الشهادةُ التي تُقَوِّمُ الإنسانَ بذاته وصفاته، وتخلِّدُ على الزمان أنشودةَ العظمة، تغنّيها الشفاه وتصدح بها الحناجر وهي ترجِّع وتردد: يا محمَّد ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

نعم تلك هي الشهادات الكبرى التي تزكِّي محمداً الإنسان والنبيَّ المختار: شهادة من الناس، وشهادة من الزوجة، وشهادة من خالق الإنسان وبارىء الكون بأسره. فحقَّ لصاحبها أن يكون المصطفى من بين البشر، والمختار من دون سائر الناس لحمل الأمانة الكبرى التي يريدها الله ـ تعالى ـ منار هداية لكافة الناس.

وليس من باب المصادفة أن يكون أول التنزيل تركيزاً على العلم والمعرفة: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]. ولا من باب المصادفة أيضاً أن يليه التنزيل الثاني تأكيداً لأهميَّة العلم والمعرفة فيكون: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].. لأنه ليس من شيءٍ كالعلم يحتاج الإنسانُ إلى أن يلج أبوابه، وليس من شيءٍ كالمعرفة يفتقر المرءُ إلى السعي في طلبها، ولذا كان بدء الوحي على محمد ﷺ بالتركيز على العلم والمعرفة مقرونين بالخُلُق.. ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولَ ما خَلَق الله تعالى القَلَم، وقال له:

---

(١) سورة العلق، الآية: ١.

(٢) سورة القلم، الآيات: ١ ـ ٤.

اكتبْ. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن»[1]، ومن حديثه ﷺ أيضاً: «إنَّ لكل دينٍ خُلقاً، وخلقُ هذا الدين الحياء»[2].

ويتتابع الوحي من بعد ذلك على قلب محمد ﷺ لإكمال تربيته وتوجيهه، فيخاطبه الله سبحانه من عليائه في ثاني التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[3].

... وعلى ذلك النحو كانت تترى التربية من الملأ الأعلى، وهي تتدرج بمحمدٍ ﷺ من العلم بحقائق الكون والحياة، وبمعرفة أخبار الأمم والشعوب حتى تصل إلى إعداده النفسي الذي يمكِّنه من تلقّي القول الثقيل، الذي ينجم عنه العمل الجليل.

ولكن هذه الصلابة في التربية ـ تكليفه بالعبادة أكثر ساعات الليل ـ إنما هي تدريبٌ على تحمُّل الصعاب. فمن الصلاة (القيام والقعود والركوع والسجود) إلى تلاوة القرآن ثم إلى ترتيله، ثم إلى التفكّر في آيات الله تعالى وآلائه.. وكانت أقوى عوامل الصلابة تأتي من داخله، إذ كلَّما تلا محَّمدٌ القرآن ورتّله انبعَثتْ في نفسه الراحة وازداد الاطمئنان، خصوصاً في جو معارضة رسالته، وفي خضمِّ مقاومتها، وفي شدة العداوة التي يلاقيها في يومه من قومه، وقد أقبل الكلّ على التصدِّي له في دعوته، ومحاربته بشتى الوسائل والأساليب.

---

(١) أحمد بن حنبل، الجزء الخامس، ص٢١٧.

(٢) كنز العمال، ج٣ ص١٢١ و١٢٥، ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الحياء.

(٣) سورة المزمل، الآيات: ١ ـ ٥.

نعم، هذا هو محمد بن عبد الله، الإنسانُ والرَّسول. الإنسان الذي امتلك تلك الشخصية الفريدة التي تميَّزت بخصال نادرة، وحفلت بقيم وعطاءات جليلة، فكانت الشخصية التي تنمُّ عن اكتمال تكوينه، وعن سموّه وعظمته.

وهو الرسول الذي لم تكن لغيره المكرمة التي خصَّه الله تعالى بها عندما جعله رسولًا للناس كافة.

مما لا شك فيه، أن محمداً لو لم ينزل عليه الوحي ويخاطَب من ربه ـ تبارك وتعالى ـ على لسان أخيه جبريل عليه السلام، لكانت له القدرة على أن يقيم مجتمعاً إنسانياً رفيعاً. ولكن الله عزَّ وجلَّ أتمَّ عليه نعمته، فجعله نبياً ورسولًا كريماً، وبذلك اجتمعت له الفطرة الإنسانية العالية بالتربية الذاتية المثالية، ثم تلاقتا بالإعداد الرّباني السخيّ، فكان التكامل الإنساني، فالتأديب الإلهي الذي عَبَّرَ عنه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «لقد أدَّبني رَبِّي فأحسنَ تأديبي»[1].

أجل، لقد كانت الفطرة الإنسانية السليمة الصافية في محمد، مقدمة للرسالة الإلهية، وما كانت إحداهما لِتُغْنيَ عن الأخرى. فما كانت رسالة الإسلام بشموليتها من الكمال والتمام، لِتَنزِل على غير ذي نفس صافية، وعقل كامل، وفكر مدرك، وشخصية عالية توافرت جميعُها في نبيِّنا وسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وما كانت تلك السجايا والملكات، مهما بلغت من الكفاية بمغْنِيَةٍ عن تلك الرسالة الشاملة، فذاتية محمد لم تكن وحدها لتؤهله أن يعي الماضي بكل ما فيه، وأن يتدبَّر حاضره بكل ما يَحفِلُ به، ثم يتشوّف إلى

(١) البخاري، باب العلم، ص٣١.

مستقبلٍ كريم بكل ما سيكون عليه، بل كان انحصر اهتمامه ـ ربَّما ـ في حيِّز زمانه وفي نطاق بيئته. ولكنْ شاء الله العليّ الحكيم، أن يكمِّل ذاتية «محمد» بما منحه من الهِبات والعطايا، حتى يكون قادراً على تلَقِّي الوحي، وعلى تبليغ الرسالةِ الخاتمة إلى بني الأرض في أسمى معانيها وأرفع غاياتها، فبُعثَ في زمنٍ كان فيه للإنسان من النُّضجِ العقلي ما يُمكِّنه من استيعاب التعاليم المنزلة من خالقه، والعملَ بموجبها إنْ هو أرادَ تحقيق الإنسانية بأجلى صورها في الحياة الدنيوية، أو تطلَّع إلى الفوز العظيم في الحياة الآخرة!!.

وهكذا نرى أن محمداً ﷺ ـ بما هو فيه وعليه من الكفاءة النَّادرة، وبَعْد حمل أمانة الرسالة وتبليغها كاملة ـ رغم عُتُوّ جبابرة قريش ومن لفَّ لفَّهم من الكفار والمشركين ـ نراه يشكِّل بذاته وصفاته معجزةً كبرى، إذ المعجزة بحد ذاتها ليست سوى العمل الذي تضعف أمامه قدرة الإنسان الشخصية مهما بلغت من الرقيّ والعظمة. وما المركز الإنسانيُّ الرفيعُ الذي احتلَّه محمد بن عبد الله ﷺ بجهده الشخصيّ وتوفيق بارئه، إلا دليلٌ قاطع على بلوغ مرتبةٍ لا ينالها أحدٌ غيره من بني الإنسان!

وإذا كانت البشارةُ الأولى بالرسول محمدٍ قد حفلت بها التوراة، وحَفِل بها من بعدها الإنجيل حيث: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1] فإن إغفال هذه البشارة ومحاولة كتمانها وطمس معالمها، قد قامت بها عقول كثيرة، وعملت لها أيدٍ خفية متنوعة، ولا سيما الأيدي الإسرائيلية المزوِّرة التي أدخلَتْ كثيراً من

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

التحريف على الكتب السماوية كلها، وعلى تعاليمها الإلٰهية، ما عدا القرآن الكريم فإنها لم تستطع، ولن تستطيع أن تدخل عليه أيَّ تحريف، لأن الله حافظه بدليل قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١).

نعم إن العمل المنسَّق الدائب على إخفاء تلك البشارة قد كان من قِبَلِ أعداءِ الإنسانية الذين يحرِّفون الكتاب بأيديهم. أولئك المحرفون اصطدمت كل خططهم بالحقيقة التي ذاعت ولم تخفَ في زمانها على أحد.. ألا وهيَ بَعْث محمد بن عبد الله ﷺ نبيّاً ورسولًا، وخاتماً للأنبياء والمرسَلين. وإنَّ هذا البعثَ الذي صار مِلءَ سمعِ الدُّنيا وبَصَرِها، كان إيذاناً من رب العالمين للبشر أجمعين بوجوب اتباع هذا الرسول الأمين حتى يكون لهم الفلاح في الدنيا والآخرة، ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

ذلك هو العهد الواضح البيّن مِن الله العزيز الحكيم لليهود ـ

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦ و١٥٧.

بخاصة ـ لأنه جاء بعد دعاء موسى عليه السلام «ربنا إنا هدنا إليك»، وللناس بعامة ـ لأنه ينطوي على عذاب الله لمن يخالفون عهده.. وعلى رحمته الواسعة لمن يطيعونه ويعملون بعهده.. للذين يتقون ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته.. والذين يتبعون الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.. فهل بعدُ أكثرُ بياناً وتقريراً من هذا العهد يقطعه ربُّ العزة والجلال على نفسه ـ بالعذاب أو بالرحمة ـ للناس، لكل الناس، من كلّ الأمم والشعوب وذلك بالدعوة الصراح لاتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم الرسول، النبيّ الأمي؟!.. فهو الناموس الربّاني الذي يجب على الناس الاهتداء بنوره في دار الدنيا، لأنه يوصل كلَّ من يسير عليه إلى الطريق المستقيم يوم الحساب.. وهو أيضاً الإعلان عن الدعوة الحق للإيمان بمحمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وتأييده ونصرته واتباع القرآن الذي أنزل عليه.. وهما ـ والله ـ العهد الحقُّ، والدعوةُ الحقُّ يصدران عن الحق، وما على الناس إلَّا الاستجابة للحق!.. والعهد والدعوةُ من ربنا وخالقنا ـ سبحانه وتعالى ـ هما ما نستلهم في استجلاء حياةِ محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المحاولة المتواضعة أمام كمال الرسالة، وعظمة النبوة، وكلنا أملٌ بأن يمدَّنا الله تعالى بالتوفيق، حتى نوفّيَ خاتم النبيين بعضَ حقه من التقدير، وبأن يمنحنا قبساً من نور دعوتِهِ وهديِهِ اللذين يحملان الخيرَ للإنسانية جمعاء.

الفصل الأوّل

حياة الرسول الكريم قبل البعثة

البحث الأول

الواقع الجغرافي والاقتصادي ومعتقدات العرب قبل الإسلام

الواقع الجغرافي والاقتصادي

أرضُ العرب قبلَ الإِسلام بلادٌ واسعة تكادُ تبلغ مساحتُها مساحةَ رُبع القارَّة الأوروبية كلِّها، وهي تقع في الجنوب الغربي من قارَّة آسيا، وقد أطلق عليها جغرافيُّو العرب اسمَ جزيرة العرب، فجاء في معجم البلدان لياقوت الحمويّ: تسمَّى جزيرة العرب لأنَّ اللسانَ العربيَّ فيها شائع. على أن أكثر المؤرخين سمّوها شبه جزيرة العرب لأن البحار تحيط بها من ثلاث جهات: البحر الأحمر من الغرب، والمحيط الهندي من الجنوب، والخليج العربيّ من الشرق، في حين تؤلِّف اليابسة ناحيتها الشمالية، وهي الباديةُ الممتدة ما بين وادي الرافدَين والأراضي السورية.

هذه البلاد، ذات الرقعة الجغرافية الشاسعة، قسمها المسلمون إلى خمس مناطق رئيسية: الحجاز ويمتد من أيلة (العقبة) إلى اليمن، تهامة (الأرض المنخفضة على طول شاطىء البحر الأحمر)، اليمن، العروض (وهي تتصل بالبحرين شرقاً وبالحجاز غرباً وسميت بالعروض لاعتراضها بين اليمن ونجد، وتسمى أيضاً باليمامة)، وأخيراً نجد (وهو الجزء المرتفعُ الذي يمتدُّ من جبال الحجاز ويسير شرقاً إلى

صحراء البحرين، وهو مرتفع فسيح فيه صحارى وجبال). وقد تغلبت الصحراوية على أرضها، وسادَ الجفافُ جوَّها لإحاطتها بالسلاسل الجبلية التي تحول دون إشباع أجوائها برطوبة البحار المحيطة بها، إلَّا في بعض المناطق الجبلية، التي عرفت مناخاً معتدلًا، كما في صنعاء من اليمن.

وقد نَتَج من هذا الجفافِ قلَّةُ الأمطار، وعدمُ وجود الأنهار وينابيع المياه. بَيد أنَّ هناك بعض المجاري المائية في الأودية المتأتية عن المطر القليل الذي يَنزل خلالَ فترةٍ وجيزةٍ من العام، والتي لا تلبث أن تجفَّ لتجعلَ من تلك المجاري طرقاً يسلكها سكانُ شبه الجزيرة في بحثهم عن الكلأ والماء، أو مسالكَ للقوافل التجارية التي كانت تعبر في أماكن عديدة وتتوجه إلى شتى البلاد المجاورة.

إن هذا التكوينَ الجغرافيَّ، القاسيَ في طبيعته، كانت له آثاره البعيدة على اقتصاديات تلك البلاد، فكانت الزراعةُ قليلةً، والصناعة شِبْهَ معدومة، في حين عرفت بعضُ المناطق التجارةَ بشكل واسعٍ كما في اليمن ومكة المكرمة.

وبسبب نُدرة المطر، وقلَّة الخصب، اتَّجهت أنظار البدويِّ إلى الرَّعي والانتقالِ من مكانٍ إلى آخر بحثاً عن الكلأ والماء. ثم ساعد العربَ على الارتحال شيوعُ الأراضي وعدمُ امتلاكها، حيث كان لكل قبيلةٍ أن تُقيم في المكان الذي تختار، وطَوالَ المدة التي تريد. إلَّا أن هذه الحريَّةَ في امتلاك الأراضي لم تكن مطلقةً تماماً، بل كانت تَخضع لقوَّة القبيلة وقُدرتها على الاحتفاظ بالوَاحة التي اختارتها للإقامة، فإذا وَهَنَ عزمُها، وضعفت قُوَّتُها، صارتْ عرضةً للغزوِ من قبيلة أخرى،

ومن يُكتب لها النصرُ تصبح صاحبةَ الحق في الملكية. وهكذا كانت مواطنُ الماء والكلأ من أهمِّ العوامل الدافعة للاقتتال والغزوات بين القبائل، وغالباً ما كان يؤدِّي التناحرُ فيما بينها إلى التهجير والأسر، وإلى اسْتِلَابِ المواشي ومواردِ الرزق.

وإلى جانب الغزوات كانت الغاراتُ، تلك التي يَشنُّها المغيرون على الواحات المجاورة لمناطق تَوَاجُدِهم، حيث كانوا يَنهبون المحاصيلَ ويسوقونَ المواشيَ والقطعانَ، أو كانوا يأتون أصحابَ تلك الواحاتِ مُهدِّدين بالقوَّة، فإمَّا دفعُ جزيةٍ من المال، ومقابلها حمايةُ القبيلة من المُغيرين من أيَّة جهة أتَوْا، وإما جرُّ القبيلة إلى الويل والثبور وعظائم الأمور.

والغريب في أعراف ذلك المجتمع القَبَليّ أنَّه كان يعتبر الغزوات أو الغارات، أو فرض الجزية مصادرَ للكسب والارتزاق، يُقِرُّها الواقع وتفرضها ظروف العيش، حتى صارت بمثابة القانون السائد في مناطق البدو الرُّحَّل. بيد أنه كان إلى جانبها مصدرٌ آخر للكسب وهو حماية القوافل التجارية وإرشادها إلى الطرق التي تسلكها لقاءَ أُجور يدفعها أصحابها لأبناء القبائل التي تمر في جوارهم. وغالباً ما كانت هذه الأجور تخضع لقانون العرض والطلب.

هذا وقد كان بعض البدو الرُّحَّل، يحملون منتوجاتهم من الحليب والألبان والأوبار، لبيعها من ساكني المدن، وشراءِ ما يحتاجون إليه من السِّلَع التي كانت تُساعدُهم على العيش في البادية.

ولعلَّ أهم ما تميَّز به هؤلاء الأعراب، الذين كانت حياتهم تقوم على الرَّعي والارتحال، هو احتقارهم للزراعة واعتبارها عملًا غير جديرٍ بالاهتمام، في حين أن العملَ الرفيعَ في نظرهم هو الرّعي

بحريته وانطلاقه، حتى أن هذه النظرة انعكستْ على شِعْرِهم، فَحَفِلت قصائدُهم وأشعارُهم بمعاني الحرية، ولذَّة العيش في البادية الفسيحة، وتحقير من يرضى بالزراعة مورداً للرزق.

وإذا كانت تربيةُ المواشي، والنَّهب، وفرض الجزية، وأجور حماية القوافل التجارية هي مصادر الرزق الرئيسية لأهل البادية من العرب الرحَّل، فإن الأمر يختلف بالنسبة لأهل القرى، وسكَّان المدُن الذين كانوا يُقيمون في مناطق أخضب وأغنى، حيث يهطلُ المطر وتُخصبُ الأرض، مما جعلَ أهلَها ينصرفون إلى الزراعة ويعملون فيها. وليس بناء سَدِّ مأرب في اليمن إلَّا مثالًا لهذا العمل، الذي أريدَ به حصر مياه الأمطار والإفادة منها في الزراعة وسقي المواشي وريّ البساتين والحدائق، فكانت المزروعاتُ ـ تبعاً لذلك ـ قليلةً، بعضُها من الحبوب كالقمح في اليمن، والأرزّ في الحسا وعمان، والشعير والذرة في مناطق أخرى، وبعضها من الشجر كالنخيل والتين والزيتون، والكرمة والرّمان في المناطق الْمُخْصِبة، ولكن أكثر أشجارها انتشاراً كان النخيل والكرمة. فمن زراعة النخيل أنتجوا التمور بأنواع متعددة وجعلوها المادة الرئيسية للغذاء. ومن هذه الثمار استخرجوا دبساً ونبيذاً، كما هدتهم التجربة إلى استعمال بعض أجزاء النخلة في الطبابة والمداواة من بعض الأمراض، واستعملوا أوراقها للكتابة.

واشتهرت زراعة الكرمة لجني العنب، وصناعة الزبيب واستخراج الخمور. وغني عن البيان كم كان للخمرة من شأنٍ في الجاهلية، فلا يكاد يخلو شِعْرٌ من ذِكْرِ الخمرة والتَّغزُّل بلذتها، حتى أنها اقترنت بِغَزَلِ النساء...

وإلى جانب تلك المزروعات وُجِدَ في جنوبي شبه الجزيرة موردٌ طبيعي هام هو إنتاج التوابل والطُّيوب كالبَخور واللبان والقرفة. وهذه كلها كانت موضعَ اهتمام العالَم المتمدن، في تلك الحقبة من التاريخ، حتى أنها شكَّلت سبباً لاحتلالَ المناطق التي كثرت فيها ـ كما حصل في بلاد الهند مثلًا ـ وإن لم تعرف بلادُ العرب مثل هذا الاحتلال. وقد اتَّجر العرب بهذه المواد، وصارت البوادي والصحارى التي تنتج فيها، أماكن هامة للتصدير إلى البلدان المجاورة لأرض الجزيرة، كسورية ولبنان والعراق، وفلسطين، ومصر، ومن شواطىء هذه البلدان كانت تُنقل إلى مناطق اليونان والرومان في أوروبا.

وقد اعتبر العربُ التجارة مهنة شريفة، فكان معظم تجارهم من قادة القبائل وأسيادها، بل ولقد شاعت عند الكثيرين من سكان الحواضر، وباتت مورداً للغنى والثراء. ولعل أبرز البلدان التي عرف أهلها التجارة واتخذوها سبيلًا حيوياً للكسب والربح هي مكة المكرمة التي كان موقعها الجغرافي يساعدها على ذلك، إذ كانت ملتقى طرق القوافل التجارية إلى اليمن وإلى الحيرة والشام وإلى نجد وغيرها.

وكانت مكة تتصل بتجارة العالم عبر البحر الأحمر الواقعة قريباً منه، وعبر طرق القوافل المحاذية لهذا البحر ما بين اليمن وفلسطين. ولا ننسى أنه قد ساعد مكة على ازدهار الحياة فيها حكمةُ سيدها هاشم بن قصيّ بن كلاب ـ كما سنرى ـ فهو الذي سنَّ رِحْلَتي الشتاء والصيف، الأولى إلى اليمن والثانية إلى الشام، فسمَتْ مكانتها في أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها، واعتُبِرت العاصمة المعتَرف بها. ثم ساعد على هذا الازدهار أن هاشماً وإخوته أبناء عبد مناف عقدوا مع جيرانهم معاهدات أمنٍ وسلام. فعقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية

الرومانية ومع أمير الغساسنة، معاهدة حسن جوار ومودَّة، وحصل من الامبراطور نفسه على الإذن لقريش بأن تجوب بلاد الشام في أمن وطمأنينة. ثم عقد أخوه عبدُ شمس معاهدةً تجارية مع النجاشي، كما عقد أخواه الآخران، نوفلُ والمطلبُ حِلْفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن. وبذلك صار لمكة من اليسار، وصار لأهلها من المهارة في التجارة، ما جَعَلَ الأسواق تُنصَبُ فيما حولها لتصريف التجارة التي تأتيها من كل صوب، وهذا ما جعل أيضاً أهلها يبرعون في النَّسيئة[١] والربا وفي كل ما يتصل بالتجارة من أسباب المعاملات.

وإذا كان العرب قد عرفوا التجارة البرية بصورة مبكِّرة، فإن التجارة البحرية عندهم كانت متأخرة، ولم تُعرَف إلا في العصر الإغريقي، وبشكل خاص أيام الإسكندر المقدوني. وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام العربُ بنشاطٍ تجاري بحري واسع عبرَ مياه الخليج باتجاه نهر الفرات شمالًا حتى مدينة سلوقية. ولكنَّ هذا النشاط تراجع في مطلع القرن الأول قبل الميلاد بسبب تكثيف البطالسة[٢] لنشاطهم التجاري في مصر، وحصر سيطرتهم الاقتصادية في البحر الأحمر والمحيط الهندي؛ إلا أنه على الرغم من هذا التأخر، فقد عاد العرب إلى ممارسة التجارة البحرية بعد منتصف ذلك القرن، وفي القرن الثاني، بعدما أُنشئت الموانىء وازداد عددها.

هذا عن الزراعة والتجارة، فهل كانت للعرب قبل الإسلام معرفة بأمور الصناعة ومزاولتها؟

---

(١) النسيئة: البيع مع تأخير دفع الثمن.

(٢) البطالسة: ملوك مصر القدماء حوالي القرن الثالث قبل الميلاد. والنسبة إلى بطليموس.

حتى قيام الإِسلام، لم تكن الثَّروات المعدنية في شِبْهِ الجزيرة العربية قد اكتشفت. ولكن الأبحاثَ كانت قد دلَّت على وجود الذهب، ولاسيما في شمالي سبأ، فعرف العربُ هذا المعدن، سواء في مادته الخام، أو على شكل قطع معدنية، فزاولوا العمل به تصنيعاً ومبادلة، وصاروا يبادلونه بالفضة والنحاس مع الأماكن المجاورة لهم، خلال المقايضات التجارية. وكذلك عَثر المنقِّبون على بقايا من رصاص في المباني الأثرية في اليمن، وهي تشير إلى أنه كان يُصهر قديماً ثم يصب لتقوية أسس البناء.

هذا وقد اشتهرت في اليمن صناعة السيوف، وبعض أنواع النسيج، وقد دلَّت نصوص الجاهلية على أن صناعة النسيج قد بلغت مستوىً رفيعاً من المهارة.

ومما عرفه العرب أيضاً، بعض أنواع الأحجار الكريمة كالعقيق والزمرد وما إليهما..

وبالإِجمال يمكن القول بأن الصناعة لم تكن ذات شأنٍ كبير في حياة العرب الاقتصادية. ولعل مردَّ ذلك كان يكمن في احتقارهم العمل اليدوي، على الرغم من حاجتهم إلى السلع المصنوعة، وكثرة ذكرها في أشعارهم.

هذا مجمل لبعض الملامح العامة عن حياة العرب الاقتصادية، الزراعية منها والتجارية والصناعية، فكيف كانت معتقداتهم الدينية؟

المُعتَقَدَات الدِّينيَّة

مما لا شك فيه أن الباحثين في الغرب، قد اهتموا اهتماماً كبيراً بالمعتقدات الدينية، التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية قبل

ظهور الإسلام. وقد ذهبوا في ذلك مذاهب كثيرة، بعضها يميل إلى الاعتدال، وبعضها يغلب عليه التعصُّب لأسباب شتى، مما يفرض علينا الرجوع إلى التراث العربيِّ نستقرئه في هذا المجال خاصة. ولن ننسى أن القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، قد صوّرا لنا مذاهب العرب ومعتقداتهم الدينية أصدق تصوير، الأمر الذي جعل المؤرخين المسلمين يبحثون هذه الأمور بشكل واسع ومطوّل.

فلو رجعنا إلى الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» لوجدناه يفسِّر لنا كيفية ظهور الوثنية وعبادة الأصنام في شبه الجزيرة العربية، بعد أن عرفت ملة إبراهيم عليه السلام إذ يقول: «قبل أن نَشرعَ في ذكر مذاهب العرب نريد أن نذكر حكم البيت العتيق ـ حرسه الله ـ ونصل بذلك حكم البيوت المبنية في العالم، فإن منها ما بني على الدِّين الحق قبلةً للناس، ومنها ما بُني على الرأي الباطل فتنةً للناس. وقد ورد في التنزيل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. وقد اختلفت الروايات في أول مَنْ بَناه. فقيل إنَّ آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض متحيِّراً بين فقدان زوجته ووجدان توبته سارَ حتى وافى حواء بجبل الرحمة من عرفات ولقيها، ثم سار إلى أرض مكة وتضرَّع إلى الله تعالى لكي يأذن له في بناء يكون قبلةً لصلاته، ومطافاً لعبادته، كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور الذي هو مطاف الملائكة ومزارُ الروحانيين، فأنزل الله تعالى عليه مثالَ ذلك البيت على شكل سرادقَ من نور، فوضعه، فكان البيت، وكان يتوجه إليه ويطوف به.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

ثم لما توفي، تولى وصيُّه شيث عليه السلام بناءَ البيت من الحجر والطين على الشكل المذكور. ثم لما خرب بطوفان نوح عليه السلام، وامتدَّ الزمان حتى غيض[1] الماء، وقُضي الأمر، انتهت النبوَّة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي حمل زوجه هاجر إلى الموضع المبارك، فولدت إسماعيل عليه السلام هناك، فترعرع وشبَّ برعاية والدته، ثم كان مجيء إبراهيم عليه السلام لزيارة عائلته واجتماعه به على بناء البيت، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾[2]، فرفعا قواعد البيت على مقتضى إشارة الوحي، مراعيين فيها جميع المناسبات التي بينها وبين البيت المعمور، وشرَعا المناسك والمشاعر محفوظاً فيها جميع المناسبات التي بينها وبين الشرع الذي جاء به محمد عليه السلام. وتقبّل الله تعالى ذلك منهما، وبقي الشرف والتعظيم لهذا البيت الكريم إلى زماننا هذا وسيبقى إلى يوم القيامة دلالة على حسن القبول».

ثم يتابع الشهرستاني حديثه فيقول: «وأولُ من وَضع فيه الأصنام عمرو بنُ لحيّ بن عامر الخزاعي، فإنه لما سار بقومه إلى مكة استولى على أمر البيت، ثم سارَ إلى مدينة البلقاء بالشام، فرأى هناك قوماً يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، فقالوا: هذه أربابٌ اتَّخذناها على شكل الهياكل العلويَّة والأشخاص البشرية، نَستنصر بها فنُنصَر، ونَستسقي بها فنُسقىٰ، ونَستشفي بها فنُشفى. فأعجبه ذلك وطلب منهم صنماً من أصنامهم، فدفعوا إليه بهُبل، فسار به إلى مكة، ووضعه في الكعبة، وكان معه إساف ونائلة (صنمان على شكل زوجين) فدعا

---

(١) غيض: نقص.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

الناس إلى تعظيم هذه الأصنام والتقرُّب إليها والتوسُّل بها إلى الله تعالى. وكان ذلك إلى أن أظهر الله الإسلام، فأخرجت جميع الأصنام من الكعبة الشريفة وحُطِّمت».

هذه إحدى الروايات التي تفسِّر ظهور الوثنية عند العرب.

وهنالك روايات أخرى تُشبه في جوهرها روايةَ الشهرستاني. فقد أورد ابن الكلبي في كتابه الأصنام، روايةً تقول بأن نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، لما تكاثروا ضاقت بهم أم القرى ـ أي مكة ـ فبدأت العداوات والمنازعات والحروب بينهم. ونتيجةً لتلك الحروب أخرج البعضُ منهم الآخرين، فراحوا يتنقلون في البلاد سعياً للمعاش. وكان كلما رحلَ من مكة راحلٌ حملَ معه حجارة الحرم، تعظيماً له وحباً بمكة. فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمُّناً وتبرُّكاً، وهم بعد يُعظِّمون الكعبة ومكة ويحجُّون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل.

ثم تطوَّر الأمر بهؤلاء القوم إلى أن عبدوا ما استحبّوا ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيرَهُ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأممُ قبلَهم، وعبدوا أيضاً ما كان يعبد قومُ نوح على إرث ما بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن[1]، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس فيه.

وهكذا يتبين من هاتين الروايتين، وغيرهما من الروايات في

(١) البُدن: جمع البدنة، وهي الناقة أو البقرة السمينة.

التراث، أن العرب في الجاهلية، وقبل بُزوغ شمس الإسلام، كانوا في الغالبية الساحقة منهم على الوثنية.

وبالفعل كان العربُ في تلك الحقبة من تاريخهم يؤمنون بقوى غيبية، يُطْلِقون عليها اسم الآلهة. وكانت سائر الأمم قد سبقتهم إلى هذه التسمية، فالإغريق والرومان ـ أصحاب الحضارات المعروفة ـ كانوا على الوثنية وأطلقوا على أصنامهم أسماء مختلفة للآلهة. وكان الاعتقاد سائداً بأن سُكنى الآلهة في الكواكب، أو أنها موجودة في قوى الطبيعة، أو في مظاهر النبات، والجماد، والطير، والحيوان.. وبخلاف غيرهم، لم يكن إيمان العرب بتلك القوى الخفية ليمنع عنهم معرفةَ الله، بل على العكس، فقد أقرّوا بوجود الله، وبأنه الإلهُ الأعظمُ، وصانعُ الكون كله ومدبِّره. فكانوا يقسمون بالله، أو يناشدونه ـ سبحانه ـ بقولهم: اللَّهم؛ وعلى الرغم من ذلك وقعوا في الشِّرك، وعبدوا الأصنام لِتُقَرِّبهم إلى الله زلْفَى، بدليل قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1].

ولقد كان لكل قبيلة صنم أو وثن[2] وهو رمز الإله، وموضعُ العبادة والتقديس. وقد كانت الأصنام يطاف بها في مكة، فيشتريها

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٢) الصنم: ما اتخذ إلهاً من دون الله، والوثن ما لا صورة له. قال أهل اللغة: «ما اتخذوه من آلهة وكان على غير صورة فهو وثن. فإذا كان له صورة فهو صنم». وقيل في الفرق بين الوثن والصنم: «إن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة يُنحت ويعبد، والصنم هو الصورة بلا جثة». ومن العرب من جعل الوثن المنصوب صنماً. وقد روي عن الحسن عليه السلام أنه قال: «لم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلا وله صنم يعبدونه يسمى أنثى فلان. ومنه قول الله عز وجل: «إن يدعون من دونه إلَّا إناثاً».

أهل البادية ويخرجون بها إلى بيوتهم. ولعلَّ أهم أصنام العرب وأوثانهم كانت:

اللَّات: وهي صخرةٌ مربعة بيضاء قيل إنهم استقدموها من البتراء في الأردن، بُني عليها بيت للعبادة، ومقرها الطائف، كانت موضع عبادة عرب الحجاز وعرب الجنوب.

وكانت ثقيف تضاهي ببيت اللات هذا الكعبة المكرَّمة، وقد جعلت له ضحية وكسوة حتى صارت العرب تُكبِره، وإن ظلَّ إكباره بعيداً عن أن يصل إلى مكانة البيت العتيق.

وقد دام بيت اللات قائماً حتى نَصرَ الله ـ تعالى ـ دينه القويم، فأرسل النبيُّ ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، فهدماه وحطَّما صنمه.

العزّى: وقد عبدها آل غطفان. وهي شجرةٌ كانت بوادي نخلة شرقي مكة، وكان سدنتها من بني صرفة بن مرة. عظَّمتها معهم قريش، وقبائل غنى وباهلة.

وظلَّت العزَّى قائمة حتى انتصر الإِسلام، فقطعها خالد بن الوليد وهو يكفرها بقوله:

يا عُزَّ كفرانك لا سبحانك إني رأيتُ الله قد أهانك

مَنَاة: وهي أيضاً صخرة كبيرة منصوبةٌ على ساحل البحر، في موازاة ما بين مكة والمدينة، عبدَها الأوس والخزرج وأَزد شَنُوءَة. كانوا يحجّون إلى الكعبة في مكة، ويقفون مع الناس المواقف كلها دون أن يحلِقوا رؤوسهم، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا عندها، لأنهم لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك. وقدَّست تلك الصخرة أيضاً قبائل هذيل وخزاعة وغيرها.

وأبرز آلهة العرب الجنوبيين كانت:

ـ **سواع**: صنم هذيل وكنانة ومزينة، وهو حجر تعبده عشائر مضر، وقبائل سواع، ولذا كانت سدانته لبني صاهلة من هذيل.

ـ **يغوث**: صنم قبائل مذحج وهوازن، ومقامه في أنعم. قاتلهم عليه بنو غطيف ففروا إلى نجران.

ـ **يعوق**: صنم همدان وخولان، وقد أقاموا في مكان يسمَّى الأرحب.

ـ **نسر**: معبود حِمْيَر في أول الأمر، ثم قدَّسته فيما بعد بعض القبائل في المناطق الشمالية.

أما أصنام قريش فأبرزها

ـ **إساف ونائلة**: وقيل في الأسطورة إنهما كانا زَوجَين بغيا (مارسا مرةً الجماع) في الكعبة فَمُسِخا حجَرَين، فصارت قريشٌ تعبدهما بعدما وجدتهما في مكة. وكان موضع إساف إلى جانب الحجر الأسود من الكعبة الشريفة، بينما نائلة وضعت بإزاء الركن الجنوبي. وقد نقلتهما العرب قديماً إلى موضع زمزم، وكانوا ينحرون عندهما ويذبحون.

ـ **مناف**: وبه اشتهر اسم عبد مناف.

ـ **هُبَل**: وكان أهمَّ آلهة قريش، بل العرب كلها. وهو صنم على صورة إنسان نحت من عقيق أحمر، وقد كسرت يده اليمنى، فجعلت له قريش يداً بديلة من ذهب. وكانت تلبيةُ من نَسَكَ إلى هبل: «لبيك اللهم لبيك، إننا لقاح، حرمتنا على أسنة الرماح ويحسدنا الناس على النجاح».

ومن شدة تعظيمهم هبل، كان القرشيون لا يقدمون على أمر،

إلَّا إذا جاؤوا إليه واستقسموا عنده، سواء من أجل سفر، أو احتكام على شأن، أو إعلان نبأ هام. . . وعند هبل ضرب عبد المطلب، جدّ رسول الله ﷺ ـ بناء لمشورة بني قومه، وغلبة عاطفته عليه، كما سنرى ـ بالقداح عندما أراد أن يفتدي ولده عبد الله (أبا النبي ﷺ).

وهبل هذا كان موضع الضَّرَاعة والابتهال من مشركي قريش في حربهم مع المسلمين. باسمه كانوا ينادون طالبين أن ينصرهم، وكم ترددت منهم الصرخات ومنها صرخة أبي سفيان بن حرب بعد وقعة أحد: أعلُ هبل، ولكنها كانت صرخة الشرك التي لا بد أن تُدْحر ويُدَمَّر أهلوها الضالّون.

ويمكن أن يذكر أيضاً من أوثان العرب وأصنامها، بصورة سريعة: **الخُلَّصة** بأسفل مكة وكانوا يُلبسونها القلائد ويهدون إليها الشعير والحنطة ويصبّون عليها اللبن ويعلّقون بها بيض النعام. **وجهار** لهوازن بعكاظ. **والغلس** لطيء. **والسعيدة** في أُحُد، عبدتها قضاعة، وسدانتها في بني العجلان. **وذو اللبا** لعبد القيس. **والمحرق** لبكر بن وائل وسائر ربيعة. **وذريح** لكندة باليمن. **ومرحب** في حضرموت، وسادنه **ذو مرحب** نسبة له. **وذو الكفين** وكان لخزاعة ودوس، كسرهُ عمرو بن حممة وهو يقول:

يا ذا الكفين لست من تلادك ميلادنا أكبر من ميلادك

ولبيان كثرة الأصنام والأوثان عند العرب في الجاهلية، يكفي أن نشير إلى أنه كان في جوف الكعبة وفنائها ما يزيد على ثلاثمائة وستين صنماً.

تلك على الغالب كانت الآلهة التي يقدِّسُها عرب الجاهلية، وهي في جلّها من صخور أو أحجار أو أشجار. . فواعجباً لأولئك

الذين سوَّلت لهم أنفسهم أن يَعْزُوا الألوهية إلى مثل تلك **الجوامد**، وليس فيها ما يروع أو يفتن أضعف العقول. بل العجب كله أنهم استرسلوا في الأوهام حتى صورت لهم أحلامهم شتى الظنون. . . فقد كانوا يعتقدون مثلًا بأن للعزّى شيطانة تبدو في بعض الأوقات على صورة امرأة شَعِثَة ذات شعر كثيف يتدلى على الأكتاف. ولذلك أقاموا لها معبداً خاصاً يتولى السدانة فيه أربعة من شياطين الإِنس ماهرون بأساليب التدليس ومراسم العبادة المفتعلة التي ورثوها عن أسلافهم لأنها كانت تدُرُّ عليهم المال الوفير. وجعلوا حول ذلك المعبد فسحات تُلقى فيها لحوم الأضاحي من البُدن[1] التي كان يأتي بها أصحاب النذور للعزَّى بين آن وآن ليذبحوها عند صنمها أو شجرتها إذا برىء مريض أو عاد غائب أو وضعت أنثى أو تحققت أُمنية من أماني النساء وأشباه النساء من الرجال. وإذا لم يكن في مقدور بطون السَّدنة أن تَهضم كلّ لحوم تلك الجمال، فقد كان لا بد أن يتركوا بقيتها في العراء هي وروثها فتنتن ويملأ نتنُها الجوَّ حتى تأتي وحوش الجبال والفلوات المحيطة بتلك البقاع فتريح الناس منها بما تحمل منها بطونها الجائعة. ومع ذلك لم يكن لها انقطاع. ولولا هبوب الرياح وحرارة شمس الجزيرة المحْرِقة، لما ترك وباؤها أحداً ممن يعيشون في تلك الديار المجاورة.

وقد جعل عرب الجاهلية ـ كغيرهم من الشعوب ـ لتلك الآلهة المزعومة قدسية، وجعلوها موضعاً للعبادة لتوهُّمهم بأن تلك الأنصاب هي مقرٌّ للأرواح.

---

(١) البُدن: الجِمال التي يُضحَّى بها.

فلما جاء الإسلام، نبَّه القرآن الكريم إلى خطر هذا الوهم الأفَّاك الذي هو من عمل الشيطان، يزرعهُ في العقول والنفوس الضالّة وأُنْزِلَ كتابُ الله على الناس منبِّهاً وناهياً بالآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

ولقد تعرَّض ابن الكلبي في كتابه **الأصنام** لمعتقدات العرب الدينية، مشيراً إلى أنها معتقدات لا تدل على المنطق والموضوعية وإنما كانت العاطفة تلعب فيها دوراً كبيراً، فقال: «واشتهرت العرب بعبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتَّخذَ صنماً. ومن لم يقدر عليه، ولا على بناء البيت، نصب حجراً أمام الحرم، وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به تَطَوُّفه بالبيت. فكان الرجل إذا سافر، فنزل منزلًا، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربّاً، وجعل ثلاثةً أثافيَّ[2] لِقِدْره. وإذا ارتحل تركه. فإذا نزل منزلًا آخر فعل مثل ذلك. وكانوا ينحرون ويذبحون عند تلك الأحجار ويتقربون إليها».

ولما كانت الكعبة هي بيت الله العتيق، فقد اتخذ العرب تَيَمّناً بها بيوتاً لأصنامهم كانوا يسمونها كعبات يحجون إليها، مثل كعبة الطائف (بيت اللات)، وكعبة ذي الحلقة وهي الكعبة اليمانية. ولكن وعلى الرغم من ذلك، ظلَّت الكعبة في مكة أشهر كعبة عند العرب،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

(٢) الأثفية: الحجر يوضع عليه القدر للطبخ، وثالثة الأثافي قطعة من الحجارة يجعل إلى جنبيها أثفيَّتان ثم يوضع على تلك الأحجار الثلاثة القدر، وفي المثل «رماه الله بثالثة الأثافي» أي بداهية عظيمة ـ معجم البستان، م١، ص١٠، بيروت ١٩٢٧م.

وحولها أقامت القبائل أكثر أصنامها. وهكذا حافظت الكعبة الشريفة على مكانتها، وبقي العرب يعتبرونها حارسة لمعتقدهم الديني، فإليها يحجّون كل عام، ومن حولها يقيمون الشعائر.. وكان من شعائرهم الطواف حول البيت أسبوعاً، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف في عرفة، ومنها ينزلون إلى المزدلفة ثم إلى منى، حيث يبقون إلى ما قبل طلوع الشمس ثم يعودون إلى مزدلفة، إلا قريشاً فإنها لم تكن تقف في عرفات أو تخرج إلى مزدلفة، وهي تقول: لا نعظم من الحل ما عظم من الحرم، فبنى قصيّ المشعَر، وكان يسرج عليه ليهتدي به أهل عرفات إذا أتوا مزدلفة، فأبقاه الله مشعراً، وأقرَّ الوقوف عنده. وفي هذا الموقف في الجاهلية قال العامريّ:

فأقسم بالذي حجَّت قريش وموقف ذي الحجيج إلى إلال[1]

وقد كانت القبائل العربية تختلف في طوافها بأصنامها. ولكن طوافهم على الأغلب، كان سبعة أشواط. وبعضهم كان يطوف عارياً، وبعضهم مرتدياً الثياب. وكانوا يرمون الجمرات في منى.

ومن شعائرهم في الحج كانت التلبية، وهي تختلف من قبيلة إلى أخرى، وإن أشرك أكثرهم في تلبيته. فكان نُسك قريش لإساف: «لبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك، لا شَرِيكَ لَكَ إلَّا شريكٌ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَك».

والحجُّ عندهم كان في الأشهر الحُرُم وهي: رجب، ذو القعدة، ذو الحجة ومحرم. والحج إلى مكة كان في شهر ذي الحجة. ومن عاداتهم أنهم كانوا لا يُبيحون في هذه الأشهر دماً، ولا يشنّون حرباً.

---

(١) اسم لجبل عرفات.

وإذا صادف وحصلت أثناءها حرب، دُعيت حرب الفجَّار ـ مشتقة من الفجور ـ وعدّت انتهاكاً لحُرمة البيت الحرام. وقد قيل في لغة العرب: الفاجر هو الساقط عن الطريق، المائل عن القصد. والفجور معناه: شقُّ ستر الديانة أو شقٌّ للستر وخرقٌ للحجاب. ومن هنا كانت الحرب في الأشهر الحرم تعتبر فجوراً..

وقد كان لكل بيت من بيوت العبادة عند العرب سدنة (حجّاب). وكانت سدانة الكعبة في مكة لبني عبد الدار. وإلى جانب السدنة، قام أناسٌ اشتهروا في العرب بالكهَّان أو العرّافين وهم الذين كانوا يدَّعون معرفة الغيب. ومن هؤلاء من ذاع صيته وعمَّت أخباره، أمثال سطيح الذائبي، وشق بن مصعب الأنماري (من الرجال)، وكاهنة بني سعد، وكاهنة ذي الخلصة (من النساء)..

ومن عادات العرب التي تتعلَّق إلى حدٍّ كبير بالدِّين، أَنهم كانوا يغتسلون من الجنابة، ويُغسِّلون موتاهم، كما أن من معتقداتهم تكفين الموتَى والصلاة عليهم، حيث كانت تقوم هذه الصلاة على حمل الميت في سرير، ووقوف وليِّه عليه يذكر محاسنه ويثني عليه ثم يختتم ذلك بالقول: عليك رحمة الله.

ومن هنا كان معنى الصلاة في الجاهلية الدعاء. وفي ذلك قال شاعر جاهلي من بني كلب لأبيه:

أعمرُ: إن هلكتَ وكنتُ حيّاً فإني مكثرٌ لك من صلاتي

وقال راجز جاهلي متحدِّث عن الكَفَن:

وتُبّعاً قد أهلكتْ وذا يَزن وذا نواسٍ أهلكتْ وذا جَدَن
فحظُّهُ ممّا حوى وما خَزَنْ مسحَةُ كافورٍ وغُسْلٌ وكَفَنْ

هذه على الغالب كانت مظاهر الوثنية في معتقدات العرب الدينية. على أن الوثنية وإن كانت الديانة الكبرى في شبه الجزيرة إلا أن الكثير من سكانها كانوا على اتصال دائم بالأمم المجاورة لحدود الحجاز كاليمن وسوريا، وبخاصة قبيلة قريش التي كانت تستغل جوار البيت فتجوب البلاد للتجارة وغيرها في فصلي الشتاء والصيف من كل عام.

وكانت مكة من أوفر المدن الحجازية بوسائل العيش وأسباب الراحة، هذا فضلًا عن أن القرشيّين كانوا على اتصالٍ دائم ببلاد الحبشة للأغراض التجارية وغيرها. وهذا الاختلاط القائم على التجارة كان يزوّد أهل الحجاز بالمعلومات عن حضارة تلك البلدان وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها مما جعلهم يستفيدون منه في تحسين أوضاعهم إلى حد ما..

وكما استفاد عرب الحجاز من جيرانهم، استفاد كذلك عرب الحيرة من جيرانهم الفرس الذين كان لهم الإشراف على تلك البلاد وإدارتها ورعاية شؤونها. وكان ملك الفرس يختار أحياناً بعض العرب لإدارة بعض أعماله.

ويذهب بعض المؤلفين إلى أن عرب الحيرة قد تسربت إليهم بعض علوم اليونان وآدابها. وهم يعتمدون في ذلك على أن الحكومة الفارسية في عهد هرمز الأول أنشأت بعض المستعمرات وأقامتها على سواعد الأسرى الرومانيين، وكان من بين هؤلاء من تأثروا بالثقافة اليونانية وسبقوا الفرس أشواطاً بعيدة في الهندسة والطب وغيرها. وقد نزل هؤلاء الحيرة وامتزجوا بأهلها. ولا يستبعد بعض الباحثين أن

يكون هؤلاء المصدر الأول لانتشار الديانة المسيحية بين عرب الحيرة. وهذا يعني أنه إلى جانب تلك الوثنية التي عرفتها شبه الجزيرة قامت معتقدات أخرى مختلفة، كالصابئة والدهرية والحنيفية واليهودية والنصرانية. . .

الصابئة: وهم قلَّة، فقد عبدوا النجوم والكواكب، وأقام معظمهم في المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة، ولاسيما في حرّان ما بين النهرين.

ويعتبر ابن النديم أن جماعة منهم آمنت بإبراهيم عليه السلام وحملت الصحف التي أُنزلتْ عليه من الله سبحانه.

وفي الواقع تبدو معتقدات الصابئة أنها كانت مزيجاً غريباً من التوحيد، ومن عناصر خرافية تقوم في الشيء الكثير على التنجيم والسحر. فكانوا مثلًا يُعَظِّمونَ الجنَّ والشياطين، إضافة إلى الكواكب، ويجعلونها واسطة بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ، ويقدِّمون إليها القرابين.

وتدل بعض الأبحاث على أن تعظيم الجن وتقديسهم لم يكن من معتقدات الصابئة وحدهم، بل ومعتقدات كثير من العرب الذين أقروا بوجودهم وبقدرة ما يتمتعون به من قوى خارقة، مما وسَّع نشر الأساطير حول الجن. فلما جاء الإسلام، كان للجن سورة خاصة في القرآن الكريم لدحض ذلك الاعتقاد السخيف، وإبطال الوهم الذي سيطر على تلك العقول حتى أذهبها وجعلها تظن أن الجنَّ شركاء لله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.

الدَّهريون: وكانوا قِلَّةً أيضاً، فإنهم لم يدِينوا بإله ولم يتَّبِعوا ديناً معيَّناً، بل قامت عقيدتهم على أن الدهر هو الذي جاء بهم وهو يهلكهم.

فالصابئةُ، والدهرية، تمزج ما بين الوثنية والقوَى الخفيَّة الغريبة، فتؤمن الصابئة بالله وتجعل بينه وبين الشياطين نسباً، بينما يثقل الدهرُ على الدهريين، ويغلب طوله على عقولهم، فتراه وحده هو القادر الغالب. وهكذا تضرب كل منهما في وثنية من نوع خاص، تختلف عن عبادة الأصنام والأوثان لدى غيرهما من العرب المشركين.

الحنيفية[1]: وفي خضم تلك الوثنيات المتعددة، قام الأحناف الذين لم يستسيغوا أية وثنية منها، بل رأوا فيها ضروباً من الخرافات التي لا يقبلها عقل ولا يقرّها فكر، فراحوا يبحثون لهم عن دين يهديهم إلى الحق، حتى اهتدوا إلى ملَّةِ إبراهيمَ الخليل سلامُ الله عليه، فاتَّخذوها دِيناً وآمنوا بالله الواحد الأحد، وعبدوه ودَعَوا إلى عبادَته. وقد عُرِف هؤلاء الأحناف في أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية، وأوردت كتب التاريخ أسماء بعضهم أمثالَ قُسّ بن ساعِدَةَ الإيادِيِّ الذي كان يدعو الناس إلى عبادة الله في سوق عكاظ، وصِرَمَةَ بنِ أبي أسن، وهو من بني النجار، أخوال النبيّ ﷺ وكان سكنه في المدينة المنوَّرة. وفي مكة قام أيضاً عددٌ منهم كانوا يأخذون على بني قومهم ضيق الأفق في التفكير، والضياع بين زحام المعتقدات

---

(١) الحنيفية: دين إبراهيم عليه السلام، وكانت الدين الذي قام عليه شرع أجداد النبي محمد ﷺ.. وهي غير المذهب الذي أنشأه الإمام أبو حنيفة النعمان.

السخيفة، فحرَّموا على أنفسهم ما أحلَّه غيرهم، كالخمر والميسر والأزلام.. ومن الأحناف المكيِّين سلالة عبد المطلب بن هاشم ـ جدِّ الرسول الكريم ﷺ ـ وقيس بن عاصم التميمي.

وينوِّه بهؤلاء الأحناف ابنُ هشام في السيرة النبوية، حيث يقول: قال ابن إسحاق: «واجتمعت قريش يوماً في عيدٍ لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظِّمونه، ويخرُّون له سجُدَّاً، ويعكفون عنده، ويطوفون حوله، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً.. فخلص منهم أربعة نفر نجيّاً. ثم قال بعضهم لبعض: تَصادقوا، ولْيَكْتُمْ بعضُكم على بعض. قالوا: أجل. وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي. وعُبيد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبيرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، وكانت أمّه أميمة بنت عبد المطلِب. وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ. وزيد بن عمرو بن نفيل بن العزى بن عبد الله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عديّ بن كعب بن لؤي.

فقال بعضهم لبعض: «تَعلَمونَ والله ما قومُكم على شيء. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، وإنهم يعبدون حجراً، لا يَسمع ولا يُبصر، ولا يضرُّ ولا يَنفع. يا قوم الْتَمِسُوا لِأَنْفِسِكُم دِيناً فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم»[1].

فأمّا ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانيةِ، واتَّبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب. وأما عبيد الله بن جحش فأقام

(١) السيرة النبوية لابن هشام، م١، ص٢٣٨، طبعة مصر ١٩٣٦.

على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ـ فلما قدمها تنصَّرَ، وفارقَ الإسلامَ، كما فارقَ زوجته فظلَّت على إسلامها (لتكون واحدةً من أمهات المؤمنين كما سنرى).

وأما عثمان بن حويرث فقد ذهب إلى قيصر الروم، فتنصَّرَ وحسنت منزلتُهُ عنده..

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف لا يدخل في يهوديّةٍ ولا نصرانيّةٍ، وأبى إلَّا الحنيفية، فكان يقول: أعبدُ ربَّ إبراهيم. وقد أبان لقومه عيب ما هم عليه، ففارق ديانتَهم الخرقاءَ، معتزلًا الأوثان والميتة والدم وما ذُبحَ على الأنصاب، ونهى عن وأدِ البنات، وقد روي عنه أنه كان يقولُ: «الشاةُ خلقها اللّهُ وأنزلَ لها من السماء ماءً، وأنبتَ لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟! إنكاراً لذلك وإعظاماً له!». وأنه كان يقول للرجل إذا أرادَ أن يئِدَ ابنتهُ: «لا تقتلها أنا أكفيكها مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إنْ شِئتَ دفعتُها إليك، وإنْ شئتَ كفيتُكَ مؤونتَها»[1]، فإنْ لم يأخذها أبوها، بحث لها عن كفؤٍ فزوجها به..

قال الحافظ بن حجر: أخرج الفاكهي بسند له إلى عامر بن ربيعة، قال: لقيت زيدَ بن عمرو، وهو خارج من مكة يريد حراء، فقال: يا عامر، إني قد فارقت قومي، واتبعت ملة إبراهيم، وما كان يعبد إسماعيلُ من بعده، كان يصلّي إلى هذه البَنِيَّة (الكعبة)، وأنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل، ثم من ولد عبد المطلب، وما أرى أنّي أدركه،

(١) صحيح البخاري، ج٥، ص٥.

وأنا أؤمن به، وأصدقه، وأشهد أنه نبيٌّ، وسأخبرك بنعته حتى لا يخفى عليك، فوصفه بوصفه[1].

وقال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن أمّهِ أسماءَ بنتِ أبي بكر رضي الله عنه قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً، مسناً، ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش! والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري؛ ثم يقول: وعزّتك لو أعلم أيَّ الوجوه أحبَّ أن تعبدَ به لعبدتك به، ولكنّي لا أعلمه.. ثم يسجد على راحته، وقيل: لقد نزل فيه وفي سلمان وأبي ذرّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾[2].

رآه النبي ﷺ قبل النبوَّة، وسئل عنه بعدها، فقال: «يبعث يوم القيامة أمةً وحدَهُ»[3] وقال زيد بن عمرو بن نفيل ـ نفسُهُ ـ في فراق دين قومه، وما كان لقيَ منهم في ذلك:

أَربّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ ... أدينُ إذا تقسّمتِ الأُمورُ
عَزَلتُ الَّلاتَ والعُزَّى جميعاً ... كذلك يفعلُ الجَلْدُ الصَّبورُ
فلا العُزَّى أدِينُ ولا مَناةً ... ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولا هُبَلًا أدينُ وكان رَبّاً ... لنا في الدهر إذْ حِلمي يَسيرُ
عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ ... وفي الأيام يعرفُها البصيرُ
بأنَّ الله قد أَفْنَى رجالًا ... كثيراً كان شأنَهُمُ الفُجورُ

---

(١) الشيخ عبد الرحمن العك، موسوعة عظماء حول الرسول، ج٢، ص٨٤٠.
(٢) موسوعة عظماء حول الرسول، المصدر السابق، ص٩٠٥، سورة الزمر، الآية: ١٧.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج٣ ص٦٣ و٦٤.

وأبـقَـى آخـريـن بِـبِـرٍّ قـومٍ فيربلُ[1] منهُمُ الطفل الصغيرُ
وبينا المرءُ يفتُرُ شابَ يوماً كما يتروَّحُ الغصنُ المطيرُ[2]

وبعد هذا الإنكار لمعتقدات قومه، يتوجه زيد بن عمرو، بعد توبة نصوح، إلى عبادة الرحمٰن الحق، فيتابع قائلًا وهو يستغفر ربَّه:

ولـكـنْ أعـبُـدُ الـرحـمٰـنَ ربّـي لـيـغـفـرَ ذَنْـبـيَ الـربُّ الـغـفـورُ
فَتَقْوَى اللَّهِ ربِّكُمُ احفَظُوها متى ما تَحفَظُوها لا تَبُوروا
تَـرَى الأبـرارَ دارُهُـمُ جِـنـانٌ ولـلكُـفَّـارِ حـامـيـةٌ سَـعِـيـرُ
وخِزْيٌ في الحَياةِ وإنْ يَمُوتُوا يُلاقُوا ما تَضِيقُ بهِ الصُدورُ

وقد لقِيَ زيدٌ الكثير من العَنَتِ والعُنف من عمه الخطَّاب (والد عمر بن الخطاب) فسلَّط عليه شباناً لا يدعونه يدخل مكة، فنَزَحَ يطلب دين إبراهيم عليه السلام ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة والشام، وانتهى إلى راهب في أرضِ البَلْقاء، فسألَه عن الحنيفية فقال له: إنك لتطلب دِيناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أطلَّ زمان نبيٍّ يخرج من بلادك التي خرجتَ منها، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية فارجع إليه وصدّقه واتّبعه، وآمِنْ بما جاء به.

فعادَ سريعاً حتى توسَّط بلاد لَخم فعدوا عليه وقتلوه.

وهكذا يتبيَّنُ لنا كمْ شهدَتْ بلاد العرب من تنوُّعٍ في العقائد الدينيَّة: كعبادة للأصنام والأوثان، واعتناق للصابئة والدهرية

---

(١) ربل ربلًا القوم: كثروا أو كثرت أموالهم وأولادهم.
(٢) المطير: المشقوق، المكسور.

والحنيفية، وهذه الأخيرة أقربها إلى الدين الصحيح لأنها كانت على دين إبراهيم الخليل أبي الأنبياء عليهم السلام، وإن كان بعض رُوَّادها قد اعتنقوا النصرانية فيما بعد، مما يدل على أن النصرانية قد عرَفها العرب، كما أنهم عرفوا قبل ذلك اليهودية أيضاً في مناطق متفرقة من بلادهم، كما نرى مما يلي..

اليهودية: يُثبت التاريخ أنَّ بعضاً من اليهود قد عاشوا في اليمن والحجاز، ولكن من أين جاؤوا؟ ومتى؟ ولماذا؟..

تلك أسئلةٌ لا يقطع الجدلَ فيها يقين. ولكن يبدو أن عدداً من اليهود قد هاجروا إلى بلاد العرب من فلسطين هرباً من القتل الذي أوقعه فيهم قيصر الروم طيطوس، بعدما هدم هيكلهم في سنة ٧٠ للميلاد، أو بعد الداهية الدهياء التي حَلَّتْ بهم من قيصر الروم هدريان سنة ١٣٢ ميلادية.

فقد حدثت في هاتين السنتين موقعتان عظيمتان بين اليهود والقياصرة، وكان النصر فيهما لحكَّام روما، فرأى كثير من اليهود أنَّه لا مفرَّ من القتل والتعذيب على يد أولئك الحكَّام، إلا بالهرب من تلك البلاد إلى بلاد أخرى، فهاجر نفرٌ كبيرٌ إلى اليمن، وهاجر آخرون إلى الحجاز، حيث لا تطالهم يدُ القياصرة.

وبدأ اليهود حياتهم في اليمن، كما يبدأ كل شعب مهاجر، في الخدمة عند أسياد البلاد، وفي الزراعة، والحرفة. ولكن لم تمر سنوات قليلة حتى كانت لهم مكانة اقتصادية هامَّة، وصار لهم شأنٌ كبيرٌ في تلك البلاد، مما ساعدهم على الدعوة إلى دينهم، حتى وصلوا بهذه الدعوة إلى نشرها واعتناقها من قبل ملوك اليمن

والحميريين. وأول هؤلاء الملوك الذين اعتنقوا اليهودية هو ذو نواس الحِمْيري، وهو صاحب قصة الأخدود الذي أحرق فيه أهل نجران.

أما يهود الحجاز فكانوا أكثر عدداً من يهود اليمن، وأكثر تأثيراً على العرب في البقاع التي سكنوها في تلك المنطقة.

وأهم مواطنهم فيها، كانت الواحات الحجازية في يثرب وخيبر وتيماء ووادي القرى. وكانت أبرز عشائرهم وأظهرها قوةً وبأساً، تعيش في يثرب، وهي من بني قُرَيظة، وبني قَيْنُقاع، وبني النَّضِير. وقد انصرف يهود يثرب إلى معاطاة الزراعة والصناعة، مما أكسبهم قوةً اقتصادية وجعلهم يتبوأون مكان الصدارة بين القبائل التي جاورتهم. ولكنهم بعد أن حظوا بتلك المكانة، لم يتخلوا عن أساليب المكر والخداع وحبك المؤامرات ـ التي اشتهروا بها أينما حلُّوا ـ حتى يتمكَّنوا من إضعاف غيرهم والإفادة من هذا الضعف، من أجل تحويله قوةً في صالحهم.. وبمثل هذه الأساليب، أوغَلَ اليهود في يثرب، يحيكون المؤامرات، ويدبِّرون الخلافات بين القبائل المحيطة بهم، وكان أقواها: الأوس والخزرج. وبالفعل نجح اليهود في الوصول إلى الغاية التي سَعَوا إليها، ووقعت العداوات بين القبيلتين، وتأجَّجت نار العصبية فيهما، حتى وصلت إلى حروب عنيفة كادت تفتك بجمعهما. وظلَّ اليهود على دأبهم هذا، يُشعلون نار الفتنة بين الأوس والخزرج، وهؤلاء لا يفطنون إلى الشَّرَك الذي يُدَبَّر لهم، حتى حَلَّ الإسلام وآخَى الرسولُ الكريم بين القبيلتين، فوقفتا له ناصرَتَين...

ولكن هذه العصبيَّة التي أجّجها اليهود كرهاً للعرب، لم تكن قاصرة على أهل يثرب، بل إنَّ تعصُّب أهل خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى لم يقلَّ عنهم عداوةً وبغضاء...

ومما اشتهر به أيضاً يهود شبه الجزيرة، إتقانهم اللغة العربية وآدابها، حتى نبغَ منهم شعراء ما تزال آثارهم تشهد على طول باعهم بمعرفة تلك اللغة كالسَّمَوأل بن عادياء الذي ضُرِب به المثل في الوفاء والحفاظ على الأمانة. وقد صدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[1].. ولكن اليهود ـ على الرغم من حذقهم ومهارتهم في الاحتيال والتَّمَلُّق، وعلى الرغم من قدرتهم على التأثير في البيئة التي يعيشون فيها ـ لم يستطيعوا أن يستميلوا العرب إليهم، بل ظلَّ هؤلاء بعيدين عنهم، وعن دينهم... ولعلَّ الصفاء الذهني عند العربي الذي منحته إيَّاه الصحراءُ، قد أغناه بحصانة ضد الاحتيال والرياء، فقبع بعيداً عن أُناسٍ عُرف أنهم لا يطيبُ لهم عيشٌ إلا بمزاولة استغلال الآخرين... ولعلَّ اعتماد العربي على الشجاعة والمواجهة هو ما منعه أيضاً من مخالطة اليهود، بعدما عرف أن دأبهم التحيُّل وحَبْك الدَّسائس والمؤامرات...

تلك هي اليهوديَّة التي عرفها أبناء شبه الجزيرة العربية...

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أنه لو كان أبناء العرب في أيامنا، يتَّعِظُون بما سَنَّهُ لهم الأجداد ـ على الرغم من جاهليتهم ـ لكان بقدرتهم إفشال كافة المؤامرات، ودَحر جميع المخططات، التي يَحوكها اليهود وأمثالهم في العالم ضدّهم حتى يبقوهم مشتَّتين متفرقين، ولكان بإمكانهم ـ وقد توفَّرت لهم الطاقات البشرية،

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

والإمكانات المادية الهائلة ـ أن يبرزوا كأصحاب مواقف جادَّة في وجوه أعدائهم المتآمرين على وجودهم والطامعين في ثرواتهم وخيرات بلادهم، وكسادةٍ أقوياء لهم مساهمة في نشر العدل والسلام في العالم، ونصيبٌ بالمشاركة في إرساء قواعد المدنية الحديثة، والتعاون من أجل نفع الإنسانية وخيرها. . .

النصرانية: أما النصرانية فقد انتشرت في اليمن وفي شمالي شبه الجزيرة. . ولعلَّ سبب وجودها هنا وهناك، يعود إلى محاولة قياصرة الروم ـ الذين دخلوا في الدين المسيحي ـ نشر هذا الدين في أرجاء مختلفة من الأرض، إضافة إلى أسباب أخرى تتعلَّق بالأوضاع الخاصة في بعض المناطق من بلاد العرب. .

فقد بدأ انتشار الدين المسيحي في اليمن حوالي القرن السادس الميلادي، عندما بعث إليها النجاشي عاهل الحبشة، بجيش يقوده أرياط للانتقام من ذي نواس لما فعله بأهل نجران. فغزا أرياط اليمن ومَلكها باسم عاهل الحبشة، ثم ظلَّ على حُكمها حتى قتله أحد جنوده أبرهة الأشرم وتولى الأمر مكانه. وأبرهة هذا هو الذي بنى كنيسة القليس لصرف الناس عن تقديس الكعبة، حتى إذا أخفق قام بحملة على مكة لهدم البيت العتيق، فأخفق أيضاً، ولاقى هو وجيشه الموت الزؤام، كما سترى في متن هذا الكتاب. .

وقد عرفت النصرانية أيضاً عند عرب الحيرة الذين أنشأوا دولة المناذرة في تلك المنطقة التي تفصلهم عن المناطق التابعة لحكم الرومان.

وعلى الرغم من أن أهل الحيرة لم يكونوا كلهم على النصرانية،

فإن ملوك المناذرة أيضاً لم يكونوا كذلك. وقد قيل: إن آخر ملوكهم، النعمان بن المنذر اعتنق النصرانية، بينما قيل: إن امرأته هنداً هي التي دانت بالنصرانية، وكان تأثرها بتعاليمها شديداً إلى درجة أن أقامت ديراً للرهبانية ظل يعرف بدير هند إلى ما بعد القرون الأولى من تاريخ الإسلام.

وفي الوقت الذي كانت تخضع فيه الحيرة لحكم المناذرة في ظل الانتداب الفارسي، قامت دويلة أخرى في بلاد الشام تحت الانتداب الروماني هي دويلة الغساسنة. وقد امتد نفوذهم إلى حوران والبلقاء، بعد أن اتخذوا مدينة جلّق، قرب الشام، عاصمة لهم.

وكان من أبرز أمراء الغساسنة الحارث بن جبلة الذي عيّنه الامبراطور الروماني جوستنيان سنة ٥٢٩ ميلادية أميراً على جميع القبائل العربية في جهات سوريا، ومنحه لقب (فيلارك أو بطريرك)، وقد كان نصرانياً على مذهب اليعاقبة.

وظل حكم الغساسنة قائماً إلى أن غزا الفرس بلاد الروم، واستولوا على أورشليم (القدس) سنة ٦١٤ ميلادية، فانحط شأن الغساسنة. وكان آخر أمرائهم جبلة بن الأيهم الذي عاصر ظهور الإسلام. وقد ذكر بعض المؤرخين أنه ذهب إلى المدينة والتقى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأكرم وفادته. ولكن حصل أن وطأ رجل فزاري، على غير قصد منه، إزار جبلة، فما كان من الأمير الغسانيّ إلّا أن لطمه على رأسه، فشكاه إلى الخليفة. وأراد الخليفة أن يحاكم جبلة على فعلته، فلما أيقن ذلك فرَّ إلى القسطنطينية وبقي فيها حتى آخر حياته.. هذا في حين أن رواية اليعقوبي تقول بأن جبلة بن الأيهم طلب من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأخذ منه صدقة

أمواله كما يفعل مع المسلمين، إلَّا أن الخليفة أصر عليه أن يدفع الجزية، لأنَّ الصدقة هي فرض على المسلم، فما كان من جبلة إلَّا أن ارتحل مع ثلاثين ألفاً من أتباعه إلى بلاد الروم..

هذا وقد جاء في (تاريخ العرب قبل الإسلام) أن النساطرة (من النصرانية) أقاموا في الحيرة وجوارها، بينما انتشر اليعاقبة بين الغساسنة وقبائل الشام، وكانت نجران مركزاً لهم.

وجاء في سبب دخول النصرانية إلى نجران أن رجلًا صالحاً من أتباع عيسى عليه السلام يدعى قيميون كان قد هاجر من بلاد الروم إلى نجران، واستقر فيها ثم بدأ بنشر تعاليم النصرانية فاتبعه الناس هناك، وما زال عددهم يزداد حتى غلبوا على أتباع الوثنية.

هذا وإن بعض الجاليات الرومية كانت قد حملت رقيقاً إلى مكة، وكانت على النصرانية.

يضاف إلى ذلك، كما رأينا، أن أعلام الأحناف، وهم من أهل مكة، قد نزعوا إلى النصرانية، أمثال ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، ولكنهم كانوا قلَّة، حتى ذكرتهم المصادر التاريخية بأسمائهم...

ولكن مع ذلك فإنه يتبيَّن أن النصرانية لم تتوسَّع في أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية، لأنها لم تتمكن أن تستميل قلوب أبنائها، بل بقيت في أطرافها من الجنوب أو الشمال، حيث سلطة الروم وقوتهم، وحيث كان العرب محكومين لهم أو مضطرين لمسايرتهم والتعاون معهم..

تلك هي المعتقدات الدينية التي عرفها بعض العرب في

بلادهم التي عاشت الحرية بأجلى مظاهرها وأعمق معانيها، حتى بات العربي، في تلك الحقبة من تاريخه، يرفض أية فكرة تقيِّد حريَّته وتحدُّ من انطلاقته في صحراء شاسعة لا تعرف الأنظمة والقيود، ولا تقرّ بالقواعد ولا تعرف الضوابط. . . وإنه وإن كانت تلك النزعة قد تعمَّقت في نفس العربي، في جاهليته، إلى درجة جعلته يكره التسلُّط من أيّ مصدرٍ أتاه، فإنها أيضاً قد عطَّلَتْ مفاهيمه حول أهم القضايا الرئيسية التي واجهت العقل البشري منذ تفتُّحه على الوجود، كقضية البعث والحياة الآخرة والخلود والثواب والعقاب، وما إلى ذلك من القضايا التي لامست مشاعر الإنسان. وقد جعل الشهرستاني العرب في نظرتهم إلى هذه القضايا على ثلاث فئات:

١ ـ **الفئة الأولى**: التي أنكرت الخلق والبعث والإعادة فقالت: الدهر هو المُحْيِي والمُفْني، وفي أصحابها قال القرآن الكريم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾(١).

٢ ـ **الفئة الثانية**: التي أنكرت البعث والإعادة، فأقرت بالخالق وابتداء الخلق والإبداع، ولكنها أنكرت النشور، وفيها قال القرآن الكريم:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. وأجاب القرآن في الآية المباركة التالية: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

٣ ـ **الفئة الثالثة**: التي كانت تُنكِر الرسُل، وقد عبدَت الأصنام

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) سورة يس، الآيتان: ٧٨ و٧٩.

مع إقرارها بالخالق العظيم، وهي التي زعمت أن تلك الأصنام هي صاحبة الشفاعة لها عند الله في الدار الآخرة.

وقد أوردَ القرآن الكريم آيات عديدة حول عبادة الأصنام، وسمَّى أهمها عند العرب بأسمائها كاللات والعزى ومناة وغيرها.

وحول انقسام العرب في المعتقد الديني فِرَقاً، يقول المسعودي: «كانت العرب في جاهليتها فِرقاً: منهم الموَحِّد المُقِرُّ بخالقِهِ، المصدق بالبعث والنشور، موقناً بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي، كقس بن ساعدة الإيادي، وبحيرا الراهب.

«ومنهم من أقرَّ بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقرَّ بالبعث والإعادة وأنكر الرسُل، وعكف على عبادة الأصنام.

«ومنهم من أقرَّ بالخالق، وكذَّبَ بالرسُل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر.

«ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية، ومنهم المارُّ على عُنْجهِيَّتِه، الرّاكبُ لهمَجِيَّتِه. وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله».

ويبدو أن أهم شُبهات العرب كانت تقتصر على شُبهَتَين اثنتين هما:

إنكارُ البعث، وإنكار الرسُل.

ولذلك فإن القرآن الكريم ركَّزَ على هاتين القضيَّتين، وبيَّنَ للناس بالأدلَّة العقلية أن هذا الإنكار لا يستند إلى دليل بل هو مجرد قول، كما جاء ـ بما خصَّ إنكار البعث ـ في الآية الكريمة ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ

هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1] والآية الكريمة: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].. أنّا نبعث.. والجواب على هذه الشبهة بالآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3] وبالآية: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[4].

وعن شبهة تكذيب الرسُل فقد تحدَّث القرآن الكريم في أماكن كثيرة نختصرها بقول الله عزَّ من قائل: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾[5]. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[6].

أمّا شعراؤهم فقد عبَّروا عن هذا الشَّك بالبعث والرسل، فقال أحدهم:

يُخبِّرُنا الرسولُ بأنْ سَنَحْيا ... وكيفَ حياةُ أصداءٍ وهامِ؟

والأصداء والهام تتصل بتصورات العرب إذ يزعمون أنه إذا مات

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٥.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٦.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٥) سورة الحج، الآيات: ٤٢ ـ ٤٤.

(٦) سورة ق، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

إنسانٌ أو قُتل تأخذ روحُه صورة طائر يظل يصرخ على قبره مستوحشاً. وفي ذلك يقول الشاعر ذاكراً أصحاب الفيل:

سلَّطَ الطَّيرَ والمَنُونَ عليهم فَلَهَمْ في صَدَى المقابِرِ هامُ

والهام هو هذا الطائر، وواحدته الهامة[1]. وفي زعمهم أن الهامة تكون في أول الأمر صغيرة ثم تكبر حتى تصبح كالبوم. وفي زعمهم أيضاً أن الهامة تبقى عند ولد الميت مقيمة في ديارهم، لتعلم ما يكون بعده، فتخبره به. ويستدل على ذلك من قول الصلت بن أمية لبنيه:

هامي تخبِّرني بما تستشعرُ فتجنَّبوا الشنعاء والمكروها

ومن بعض خرافاتهم أن روح القتيل الذي لم يدرك ثأره تصيرُ هامةً، تزعق عند قبره وهي تصيح:

اسقوني!.. اسقوني!.. فإذا أُخِذَ بثأره طارت.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن الاعتقاد بهذه الأساطير واعتبرها خرافة، فلا صدى ولا هامة في دينه عليه وعلى آله الصلاة والسلام.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن العرب في نهاية العصر الجاهلي قد سئموا تلك الوثنيات والخرافات، ولم تستطع اليهودية ولا النصرانية أن تخلصهم من هذا السأم، الذي وصل إلى درجة القلق والحيرة بحثاً عن عقيدة صحيحة يدينون بها...

---

(١) ورد في المعاجم من معاني الهامة أنها طير من طيور الليل. أو طير صغير يألف المقابر. وأنها البومة. ولكل هذه المعاني صلة بمذاهب الجاهليين وأساطيرهم حول الروح والنفس. وقيل عن الصدى بأنه الهامة أو ذكَرُها، أو أنه طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلي.

ولذلك نجد في شعرهم ـ وما حفظ منه يشكل الدليل التاريخي على طرق حياتهم ومنهجية تفكيرهم، ومنه استقينا بعض ما أوردناه ـ ما يبين بصورة جليَّة أنهم وصلوا إلى حدِّ السخرية من آلهتهم، ومن معتقداتهم، ولذلك يقول الشاعر الكناني في سعد (صنم لبني كنانة):

أتيْنا إلى سَعْدٍ ليجمعَ شمْلَنا فشَتَّتَنَا سعدٌ فلا نحنُ من سَعْدِ
وهل سعدُ إلَّا صخرةٌ بِتَنُوفَةٍ[1] من الأرض لا تدعو لغيٍّ ولا رشْدِ

وقال شاعر في ذي الخُلُّصة (صنم لدوس وخثعم وبجيلة وباهلة):

لو كُنتَ يا ذا الخلص المَوْتُورَا مِثْلي وكان شَيْخُك المَقْبُورَا
لم تَنْهَ عن قَتْل العُداة زُورَا

والحادثة أن أبا هذا الشاعر قد قتل، فأراد الأخذ بثأره وأتى صنمه ـ ذا الخَلَصة أو الخُلُّصة ـ يستقسم عنده الأزلام فخرج السهم ـ مصادفة ـ ينهى عن الأخذ بالثأر، ولم يُعجبْ هذا الحُكمُ الشاعرَ فقال فيه أرجوزته تلك.

وهذا يظهر عدم اهتمام القبائل بالإله الذي تعبده، وكأن الأمر قد أضحى عادة بالنسبة إليها أكثر من عبادة.. فهي تروح وتغدو إليه في المناسبات والأعياد للاحتفال، دون أن تكنَّ له أيَّ تقديس.. ولن نسهوَ أيضاً عن ذكر حادثة بني حنيفة، الذين كان لهم إله من تمرٍ عبدوه زمناً طويلًا، فلما أصابتهم المجاعة أكلوه. وقد قال شاعرٌ من بني تميم في ذلك ساخراً من حنيفة:

---

(١) تنوفة: أرض لا ماء فيها ولا أنيس.

أكـلتْ حـنـيـفـةُ رَبَّـهـا زَمَـنَ الـتـقـحُّـم[1] والـمَـجَـاعـةْ
لـم يـحـذروا مـن ربّـهِـمْ سـوءَ الـعَـواقِـبِ والـتَّـبَـاعَـةْ[2]

وقد بلغ في حياة العرب الدينية، أن بعضهم أبَوا عبادة الأصنام، ولكنهم لم يُدركوا الطريق الذي يهديهم إلى الحق، ولم يعرفوا السبيل الذي يقودهم إلى الرشد، فتمنَّوا أن يبعث الله لهم نبيّاً، يدلّهم على طريق الهداية، وفي هذا يقول أمية بن أبي الصلت:

ألا نـبـيٌّ لـنـا مـنَّـا فـيُـخـبـرُنـا ما بعد غايتِنا مِنْ رأسِ مَجْرانا
وقد عَلِمْنا لو أنَّ العلمَ ينفعُنا أَنْ سوفَ تلحقُ أُولانا بأُخرانا
وقد عجبتُ وما بالموتِ من عجبٍ ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا

وقد قال النبيّ ﷺ في أميَّة: «كاد أمية يُسْلِم».

وخلاصة البحث في معتقدات العرب الدينية، أن تلك المعتقدات قامت على الوثنية وعبادة الأصنام مع الإقرار بحقيقة وجود الله؛ وقد اختلفت عادات العرب في عبادة الأوثان، وتفاوتت تقاليدهم في درجات تقديسها باختلاف المكانة التي كان لها في النفوس، والمهابة التي غُرست في العقول.

ولئن عرفتْ أرض العرب عقائد دينية غير الوثنية، كالصابئة، والحنيفية، والدهرية، وعرفت في الوقت نفسه اليهودية والنصرانية، إلَّا أن أَيّاً من تلك المعتقدات الدينية لم يستطع أن ينزع من نفوس

---

(١) التقحم: المجاعة.

(٢) التباعة: ما يترتب على الأمر من خير أو شر والشر هو الغالب.

العرب التشبُّث بالوثنية، إذ لم تقدِّم لهم معتقداتهم الاقتناع في ما تطمئن إليه نفوسهم الحائرة، السارحة في أجواء الحرية، والمُوغلة في التفلُّت من كل قيدٍ أو نظام، إلا نظام القبيلة الذي يحميها في حومة الصراع من أجل البقاء.

لذلك، كانت أجواء شبه الجزيرة العربية مهيَّأة لاستقبال عقيدة دينية تتركَّز عليها حقائق الحياة، وتزيل كل صراع قد يواجه الإنسان في حياته الدنيا، كما في حياته الآخرة.. إذْ كان الشعب العربي قد تأهب لإقامة دولة، بعد أن تيقظ لوجوده وشعر بمكانته كما شعر بالخطر على كيانه وبمواقع النقص عنده.

... كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء

البحث الثاني

النسب النبوي الشريف

وتستمرُّ الأجيالُ في التعاقُبِ منذ أيام إسماعيل، بعد أن رفعَ، هو وأبوه إبراهيم عليه السلام، قواعدَ البيت العتيق في مكَّةَ المكرمة. ويستقرُّ الحُكمُ في ذلك البلد الأمين لقبيلة جُرهُم أخوالِ أبناء إسماعيل، بعد أن غلبوا قبائل العماليق وأجلَوهم عنها، حتى يجيءَ عهدُ مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي.

ويَشيعُ في قوم جُرهُمَ ـ بعد استقرارهم في أرض مكة ـ البذخُ والترفُ، وتسودُ حياتَهم اللَّذائذُ الفانيةُ، وتَنتشرُ بينهم المُتَعُ الرخيصةُ، حتى تفترَ الهممُ، وتموت روح المواصلة على الكفاح، ويصير التراخي والركون إلى الراحة فيهم بمثابة العادة، فلم يعودوا يأبهون لنوائب الأيام وصِعابها، أو يتحسَّبون لعثرات الدهر ونكباته. وكل ذلك على خلاف ما تتطلبه ظروف الحياة في تلك الأرض القاسية.

ويرى سيِّدُهُم مضاض ما هم عليه من سوءٍ ورذيلةٍ وعدم اكتراث بأوضاعهم ومصالحهم، فينبّه ويحذّر من سوء مغبَّة ما يفعلون، ولكن القوم لا يَسمعون له ولا يرعوون، حتى بلغَ بهم السَّفَهُ أن غارَ ماءُ زمزم ولم يُكلِّفوا أنفسَهم عناءَ البحث والتنقيب عنه في باطنِ الأرض، وكأن مثل هذا النذير لا يَعنيهم بشيء.

ويخاف مضاض الجرهمي على كنوز الكعبة من استلاب القبائل المعادية، وعلى وجه الخصوص خزاعة التي كانت تتوثب إلى إقصاء جُرهُم وتولي المناصب في مكة، فيعمد إلى تعميق بئر زمزم، ويدفن في قعرها غزالتين (أو أسدين) من ذهب، وسيوفه الذهبية، وما كان في الكعبة من نذور العرب النفيسة، ثم يطمّها بالرمال حتى تذهبَ آثارها.

ويصدق ظن سيد جُرهُم فتدهم خزاعة مكة وتستولي عليها، بعد أن تطرد الجرهميّين منها، ثم تأتي بمضاربها وتقيم في البلد الحرام.

قصيّ بن كلاب

وتثبت الأمور لخزاعة، فتتولى شؤون الكعبة. وتتعاقب ولايتها عدة أجيال حتى يكون منتصف القرن الخامس الميلادي فيؤول أمر الكعبة إلى قصيّ بن كلاب الجد الرابع للنبي ﷺ[1]. ذلك أن كلاب بن مرة كان قد أولد من زوجته فاطمة بنت سعد الأزدي ولدين: زهرة وقصيّ. فلما توفي كلاب، وكان ابنه قصي ما يزال فطيماً، تزوجت أمه من ربيعة بن حرام، فارتحل بها إلى موطن قبيلته قضاعة على حدود بلاد الشام، وقد حملت معها طفلها في المهد زيداً ـ فلما بعدت به عن بلاده وأهله لقبته قصيّاً ـ بينما بقي أخوه زهرة بن كلاب في مكة.

وفي ديار ربيعة بن حرام راح قصي ينمو ويكبر، وهو لا يعرف أباً

(١) السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج٢، دار السيرة، بيروت، ط٤، ص٣٩.

له غير ربيعة، حتى كان يومٌ، عيَّرَهُ فيه أحد بني قضاعة بأنه ربيبٌ دخيلٌ على قومه، ولا تربطه بهم أية رابطة من أصل أو نسب، وهو يقول له: «لست منا، وإنما أنت فينا ملصق».. وعزَّ على الفتى الأمر، لأنه، وإن كان ما يزال في أول فتوته، إلَّا أنه قد رضع منذ الصغر ـ مثل غيره من أبناء العرب ـ ما للنسب في حياة العربي من أهمية وأثر، إذ يقوم عليه فخر القبيلة ورفعتها، وإلَّا فالوهن واللَّحاق بقبيلة أخرى أرفع نسباً وأقوى شكيمةً، لذلك لم يكن من قصيّ وهو يسمع بأنه لصيق إلَّا الإسراع إلى أمه، وهو دامع العينين، مهيض الجناح، كسير الخاطر. فتلقاه تلك الأم بلهفةٍ، وتسأله عما أصابه حتى أزرى به إلى هذه الحالة البائسة.. وبصوت ملؤه الحسرة، رَفع قصيٌّ رأسه من إطراقه، وأخبرها بالخلاف الذي حصل بينه وبين رجل قضاعة وما عيَّره به من لصوقٍ بزوجها ربيعة.. إلى أن سألها: ابنُ مَن أنا يا أماه؟.

ولم يخطر ببال فاطمة من قبل أن يسألها ابنها عن نسبه وهو في هذه السن المبكرة، بل كانت تعلم بأن هذا سيحصل، ولكن بعد أن يشبَّ ابنُها ويصلب عوده، أما وأن المحتوم قد وقع، فلم تجعل المفاجأة تربكها، بل تبتسم ـ على مضضٍ ـ في وجهه وهي تقول له:

ـ أنت من أعرق العرب نسباً، وأشرفهم حسباً يا بنيَّ. ورهطك أشرف من رهط الذي سبَّكَ وعيَّرَكَ، وآباؤك أشرف من آبائه، وإنما أنت من بني كعب بن لؤي جيران بيت الله الحرام في مكة، وبنو أعمامك وأخوك يعيشون هناك[1].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٠٩ (وكانت تعني بقولها أخاه زهرة بن كلاب، الذي بقي في مكة بينما ارتحلت هي مع زوجها ربيعة بن حرام إلى بلاد الشام، ومعها ابنها زيد بن كلاب).

قال الفتى: إذاً ربيعة ليس أبي؟

قالت الأم: بل هو مربيك، وحاضنك، وله الفضل في تنشئتك ورعايتك.

قال الفتى: ومن هو أبي، وأين يكون؟

قالت الأم: أبوك هو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وقد مات منذ كنت رضيعاً. أما أخوك زهرة ابن كلاب فهو بين ظهراني أهله وعشيرته، وقد خلّفتهُ شابّاً ينعم بالرجولة والكرامة..

وراح الفتى يردّد: أنا ابن كلاب بن مرة.. أنا ابن كلاب بن مرة. إذن فلا بدَّ أن يكون أصلي شريفاً، وهذا ما يجعلني أرغب عن ديار تبخسني حقي!!..

ولم تتركه أمه في شروده، فعادت تقول له:

ـ إنك والله لأكرم أباً ممن أساء إليك، وقومك بمكة آل الله وفي حرمه. ومن أين لأحدٍ أن يعيّرك بحسب أو نسب، أو أن يستهين بعشيرتك وقومك؟

وهدّأ الفتى من سَوْرَةِ غضبه، وجلس إلى أمّه لتقصَّ عليه من أخبار أبيه وبني قومه ما يفاخر به أترابَهُ، والرجال في بلاد العرب كلها، حتى إذ انتهت به المعرفة إلى ما يريد.. هبَّ وقد عزم الرحيل إلى مكة..

وعبثاً حاولت فاطمة أن تطيّب خاطر ابنها، وأن تردعه للعزوف عن رأيه، وأنها سوف تشكو الأمر إلى زوجها ربيعة حتى يكون له شأن

في هذا الأمر، إلَّا أنَّ الفتى الأشمّ كان قد انتهى في قرارة نفسه إلى ما عزم عليه، حتى أنَّ أمر السباب لم يعد يعنيه بشيء، بعد أن صار همُّهُ أن يذهب إلى أهله في مكة. .

وتعاودُ الأم إقناعه، محاولة هذه المرة ملامسة عواطفه، وهي تبدي له بأن زوجها ربيعة لن يرضى برحيله وفراقه، فهو عنده بمثابة الابن، وليس حضيناً كما يتوهّم قصيّ، ثم ألا يكون لحرص ربيعة عليه وحبه له، ونبله في معاملته أثر في نفسه حتى يتركه هكذا، وبدون أن ينتظر قدومه ليودعه على الأقل؟ ولكن هيهات لفاطمة أن تقنع ابنها وهو يصرّح لها بأنه بات يشعر بالغربة والوحشة في تلك الديار، وأنه لا يطيق البقاء بعد، بل إن مقامه بات يقلقه، وكأنه دعيٌّ بين قوم غرباء!.

وتدرك فاطمة عدم الجدوى من إصرارها على ثنيه عن عزمه فتقول له بحسرة:

ـ ولكن هل تسافر بلا زادٍ ولا رفيق؟ لا، يا بني، أنت لا تعرف الطريق إلى مكة، ولا الصعاب التي تعترضك في الصحراء الموحشة.

ويأتي جواب الفتى قاطعاً، فيقول لأمه:

ـ سيكون زادي الاعتزاز بالنفس، والحفاظ على الكرامة. أما رفيقي في دربي فسيكون العزم والأمل.

وتطيب نفس الأم لمشاعر ابنها، فترشده إلى ما يجب أن يفعل، وتوصيه أن يتبيَّن القوافل التي تغادر الشام إلى بلاد الحجاز فيذهب في ركب إحداها.

ويقوم الفتى، من فوره، يودّع أمّه وهو يُجهش بالبكاء مثل

الطفل الرضيع، فتضمّه أمّهُ إلى صدرها، والدموع تملأ مآقيها هي الأخرى، وقد أحسَّت بلوعة الفراق تكاد تدمي قلبها، إلَّا أنه سرعان ما انفلت منها، وانطلق كالسهم، فلم تجد إلَّا أن تدعو له بالسلامة، وأن يحالفه التوفيق في سفره، والنجاح في حياته. . وليس صعباً على فتًى مثل قصيّ، وملؤه الثقة بالنفس، وصدق العزيمة، أن يهتدي إلى قافلة مكة حيث أشارت أمّهُ إلى مكان تواجدها، فجاء ـ دون أي تردد ـ إلى كبيرها يسأله أن يعمل لديه بلا أجر لقاء نقله إلى مكة. . . ويستخبر الرجل من هذا الفتى الجريء والمقدام عما جاء به إلى بلاد الشام، وما حاجته لهذا السفر بلا رفيق ولا متاع، وما قصده في ديار مكة البعيدة؟. .

وبلا أدنى وجلٍ أو تردّد يخبر قصيٌّ الرجل عن نفسه، وعن نسبه، وإقامته في حضانة ربيعة بن حرام، وتوقه للعودة إلى العيش بين ظهراني أهله في مكة، بعد أن أحسَّ في نفسه ثقل الغربة عليه، فيُكبر فيه قائد القافلة هذه الهمة، مثلما يُكبر نسبَهُ وأصلَهُ، فيعده أن يحمله معه، بل وأن يبقيه إلى جانبه، فلا يطاله مكروه.

وأزفت الساعة، وسارت القافلة وقلبُ قصيّ ممتلئ بالشوق إلى رؤية أهله، من غير أن يحفل بوعورة المسالك، أو يعبأ بمشاق السفر، بل صار يجد الأيام طويلة، والليالي قاسية، ما دامت تفصله عن مكة.

ويصل قصيّ أخيراً إلى موطنه، ويهتدي إلى ذويه وأقاربه، فيعيش معهم على حلو الحياة ومرّها، ولكن من غير أن يتقاعس في طلب الكسب والعمل! صحيح أنه قد جاء خالي الوفاض، ولكنه لن يقبل أن يكونَ فقيراً، أو كَلًّا على غيره، فيذهب إلى رجل القافلة الذي

جاء به من بلاد الشام ويطلب إليه أن يعمل عنده، لكي يتدرب على التجارة والبيع . .

قصيٌّ مجمِّعُ قريش

وهكذا اندفع قصيٌّ في العمل، يتحرَّى عن كل صغيرة وكبيرة، ويجهد في التعلم واقتناص الأساليب حتى برع في فنون التجارة وجمع من المال ما يكفيه للمشاركة في القوافل والاتجار لحسابه، مما جعله محطَّ أنظار عشيرته، وموضع تقديرٍ وثقةٍ من أهل مكة جميعاً.

وكانت سدانة البيت في خزاعة، ويومئذٍ سيدها حُلَيْل بن حُبشيّة. فلما أراد قصيٌّ الزواج، وقد صار له من المال ما يكفي، ومن السمعة الطيبة ما يُغني، ذهب إلى حُليْل يخطب ابنته حُبَّى، فلقيه سيد خزاعة بالحفاوة والمكرمة، وزوّجه ابنته برضىً وقناعة.

وعاشت حبّى في البيت الزوجي على الوئام والسعادة، إذ اجتمع لها بعد هذا الزواج، رفعة الشأن في النسب، وعلو المكانة في الزواج، ولذلك فإنَّ أباها حُليلًا عندما تقدم به العمر، وأحسَّ بدنوِّ أجله، لم يجد خيراً منها، فأوصى لها بسدانة الكعبة، وفي يقينه أن من يتولَّى أمور البيت من بعده سيكون زوجَها قصيّاً، وإنه لأفضل الرجال، وأقدرهم على القيام بتلك المهمة. ولكنَّ حبّى اعتذرت عن قبول مفتاح البيت الحرام، لأن المهمة شاقة، مما دفع أباها لأن يوكل مفتاح باب الكعبة إلى أحد رجال خزاعة، واسمه أبو غبشان سليم بن عمرو. ولكن هذا الرجل تحوّل إلى السكر، ولم يردعه كون مفتاح الكعبة الشريفة في يده عن تهتكه وعربدته، بل ظل مدمناً معاقرة الخمرة، حتى وصَلَ به الحال إلى أن يعوزه الشراب، فلا يجد معه ما يبتاع به

خمْرَه، مما دفعَهُ لأن يأتي إلى قصيّ ويعرض عليه أن يعطيه المفتاح، فاشتراه منه بزّقٍ من خمر، بعد أن تشاور مع امرأته حبّى التي آثرت أن يتولى زوجها سدانة الكعبة، ويكون معه مفتاحها، حتى تبقى لها حُرمتها، وكرامتها... وبذلك يضرب المثل: «أخسر من صفقة أبي غبشان». وقال في ذلك بعضهم:

أبو غبشان أظلم من قصيٍّ وأظلم من بني فهر خزاعهْ
فلا تلِموا قُصيّاً في شراه ولوموا شيخكم إذ كان باعه[1]

وعمل قصيّ على تجميع بني قومه من بني كعب بن لؤي بعد أن جمع بطونهم وألَّف ما بينهم. فسماهم الناس «القرشيين» أي المتجمعين، لأن معنى التقرّش: التجمع، وهذا ما يشير إليه الشاعر بقوله:

قصيّ لعمري كان يدعى مجمّعاً به جمع الله القبائل من فِهر[2]

وبالفعل فإن الأخبار تروي أن القرشيين لم يُعرفوا بهذا الاسم قبل قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، وأن هذا الاسم قد غلب على من توالد من بني فهر بعد أن جمعهم قصيٌّ حول الحرم، وأسكنهم بجواره، وكانوا من قبل متفرقين في شعاب مكة وبطاحها.

ورأت خزاعة أن الأمور قد بدأت تفلت من يدها، وأن مكانتها سوف تذهب إن بقيت سدانة الكعبة لقصيّ، فلا يعود لها شرف القيام

---

(١) السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢، ص٣٩ عن: تاريخ اليعقوبي ج١، ص٢٣٩ و٢٤٠.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٢٩.

بمناصب الكعبة، فقامت مستنكرة تحاول انتزاع المفتاح من قصيّ[١] بالقوة. ولم يكن أمام قصيّ إلّا أن يستنفر بني قومه من قريش، وانحازت معه كنانة وقضاعة وغيرهما من القبائل التي رأت أنه أحكم المقيمين بمكة وأعظمهم قدراً، كما ثبت معه أخوه رزاح بن ربيعة بن حرام ـ من أمه ـ ومن معه من قومه من قضاعة[٢]. وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا، واقتتلوا قتالًا شديداً بالأبطح حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً. ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن لَيْث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة[٣]، فحكم لقصيّ، وأدانَ خزاعة بديَة القتلى من أصحابه.

وولي قصيٌّ البيتَ وأَمْرَ مكة، بعد أن انتزع هو وبنو قومه وحلفاؤهم مكانة خزاعة، مما وفَّر لقريش هيبة وسطوة على القبائل الأخرى، ولكنَّها ـ بالمقابل ـ دانت لقصيّ بالملك عليها، فكان أولَّ بني كعب ابن لؤي أصاب ملكاً أقرّ له به قومه، وقُلِّد جميع المناصب، واجتمعت له الحجابة[٤]، والسقاية[٥] والندوة[٦]، واللواء[٧] والقيادة. أَمّا وقد أصبح سيد القوم فقد فرض عليهم الرفادة[٨]، وذلك عندما

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج١ ص٢٣٩، البداية والنهاية لابن كثير ج٢ ص٢٠٥؛ عن ابن إسحاق.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص١٣٠.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الحجابة: أن يكون مفتاح البيت (الكعبة) بيده، فلا يدخله أحد إلَّا بإذنه.
(٥) السقاية: أن يجمع الماء ويسقي به الحجيج.
(٦) الندوة: الدار الذي يجتمع فيه كبراء القوم تحت أمرته للتشاور والقضاء، والحكم. وكان قصيّ أول من بنى دار الندوة وجعل بابها الكعبة.
(٧) اللواء: راية الحرب.
(٨) الرفادة: الطعام الذي يصنع للحجيج في موسم الحج.

قال لهم: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وأهل حرمِه، وإن الحاجَّ ضيف الله ومن زوار بيته، وهم أحق الأضياف بالكرامة. فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحجّ حتى يصدروا عنكم»[1].. فامتثلوا لأمره، فكانوا يُخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجاً، يدفعونه له، فيصنع طعاماً للناس، وجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام.

لقد حاز قصي الشرفَ في مكة، فصار سيدَها المطاع، فقطَّعَها أرباعاً، وأعطى لكل عشيرة رُبعاً، فاتسع عمرانها، وتزاحم الناس على الهجرة إليها، وكان ذلك ـ طبعاً ـ بفضل وجود البيت الحرام فيها أولًا، والمكانة التي أوصلها إليها قصيٌّ ثانياً، حتى صارت طريقاً للقوافل إلى الشرق لناحية اليمن، وإلى الغرب لناحية بلاد الشام.

وكان قصي قد ولد من زوجته حبى ستة أولاد، أربعة من الذكور وهم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي. وابنتين وهما: تَخْمُر وبَرّة[2]. وقد شرف ابنه عبد مناف في زمن أبيه، وذهب في هذا الاتجاه كل مذهب، لا يدانيه في مكانته بين القوم إلَّا أخواه عبد العزى وعبد قصيّ. وإن قصيّاً، على الرغم من ذلك، جعل إلى ابنه الأكبر عبد الدار كل ما كان بيده من أمر قومه.. فقد عاش قصيٌّ سيداً في قريش، وسيداً في العرب، لا تردُّ له كلمة، ولا يسفه له رأي، إلى أن صار شيخاً هرماً، ورقّ عظمه وشارف على الموت،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص١٣٧، محمد حسين هيكل، حياة محمد، الطبعة الثالثة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٥٨هـ، ص٩٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص١١٠.

فجمع أبناءه وقال لابنه عبد الدار: «أما والله يا بنيّ لأُلحِقنَّك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك: لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقدُ لقريش لواءُ حرب إلا بيدك، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا في دارك»[1]. وبذلك أولاه السدانة (الحجابة) واللواء والسقاية والرفادة والندوة.

ويتوفى الله ـ تعالى ـ قصيَّ بن كلاب فتؤول تلك المناصب إلى بِكْره عبد الدار، فيسير على نهج أبيه في إدارة شؤونها، لكي تظل للقبيلة مكانتها المرموقة بين العرب، وتحافظ الكعبة على عزِّها وتاريخها العريق. وكان يساعده في ذلك إخوته، وقد برز من بينهم عبد مناف الذي رأى فيه الناس فضلًا وعزة في النفس، وعلوّاً في الهمة، وزعيماً حكيماً في القوم، فالتفّت القلوب من حوله، وصارت القبيلة تتطلع إليه في كثير من شؤونها. ولكنه مع ذلك لم يأخذه طمع، أو تسوّل له نفس مطالبة أخيه المشاركة في المناصب، بل كان إلى جانبه خير معين، وخير مساعدٍ، من دون أن يألو جهداً في إدارة الشؤون ورعاية مصالح الناس مما زادهم إكباراً لخصاله الحميدة، ولاسيما ترفّعه عن طلب الحكم لنفسه.

اختلاف قريش وقيام الأحلاف

وتنقضي السنون وتدور الأيام، ويكبر أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف. ويظهر للملأ من قريش ولأهل مكة أن أبناء عبد مناف هم

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص١٣٦ و١٣٧.

أشرف في قومهم وأعظم مكانة، وأنهم أحق وأقدر على تولي المناصب، ورعاية شؤون الكعبة، فقامت بطون كثيرة من قريش تطالبهم بتسلُّم زمام الأمور وإدارة المناصب، وكانت طائفة مع بني عبد الدار، يرون أن لا يُنزَع منهم ما كان قصيّ جعله إليهم[١].

ودب الخلاف بين أبناء القبيلة الواحدة، وأدى هذا الخلاف إلى قيام حِلفين:

١ ـ **حلف المطيبين**: وقد عقده بنو عبد مناف[٢] مع بني أسد بن عبد العزى بن قصي، وبني زهرة بن كلاب، وبني تيم بن مرة بن كعب، وبني الحارث بن فِهرْ بن مالك بن النضر، وذلك بأن جاؤوا بجفنةٍ[٣] مملوءة طيباً إلى الكعبة وغمسوا أيديهم فيها، وقد أقسموا على الوفاء بالعهد، وحفظ الذمة ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسمّوا المطيبين.

٢ ـ **حلف الأحلاف**: وهو الذي عقده بنو عبد الدار[٤] مع بني مخزوم بن يقظة بن مرة، وبني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبني جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبني عدي بن كعب. وقد تعاهدوا في هذا الحلف على عدم التخلي عن أيّ منصب من مناصب الكعبة، أو السيادة على مكة وألَّا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً، فسمّوا الأحلاف.

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٨.

(٢) حياة محمد، المصدر السابق، ص٩٥.

(٣) الجفنة: القصعة الكبيرة.

(٤) المصدر السابق.

وتوشك قريش أن تقع في حرب قاتلة، لولا أن تداعى الشيوخ والعقلاء إلى الصلح، واتفق الرأي على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تظل الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار.

وارتضى الفريقان بعقد الصلح، إلى أن جاءت الأحداث وأعطت ـ بإذن الله ـ نسل عبد مناف ما يستحقون من المكانة في قريش والعرب.

هاشم بن عبد مناف

وكان عبد مناف بن قصي قد ولد أربعة أبناء وهم: عبد شمس والمطلب وعمرو، (وأمهم: عاتكة بنت مرة بن هلال)، ونوفل (وأمه: واقدة بنت عمرو المازنية). وكان عمرو أشدهم سداداً في الحكمة والرأي، وفي التآلف والإيثار، مما جعله سيداً في القوم. وقد عمل في التجارة فجلّى في مضمارها وصار ذا يسار وغنى، فتولى وحده ـ وبرضى إخوته ـ السقاية والرفادة، وكان مثل جده قصيٍّ يأخذ من أموال قريش خرجاً لإطعام الحجّاج منذ أول الموسم فإذا حضر الحجيج قام في بني قومه وقال:

«يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهلُ بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته، وهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فاجمعوا لهم ما تصنعون به طعاماً لأيامهم هذه التي لا بد لهم من الإقامة بها، فإنه والله لو كان مالي يَسع لذلك ما كلفتكموه»[1].

وتلك الخصال التي عُرف بها في القوم جعلتهم يطلقون عليه لقب «عمرو العلا».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص١٤٣.

ويأتي الزمان الذي يزدادُ فيه صاحب اللقب شرفاً.. ولذا لم يقف أمر «عمرو العلا» عند إطعام حجاج البيت الحرام، بل اتصل بِرُّه وكرمه بأهل مكة جميعاً. وكان ذلك عندما جاءت عليهم سنة جدب، وحاقت بهم الشدة، إلى أن كادت تُفقدهم سبلَ العيش، فتصدى رجل الجود والبرّ للنكبة، وراح يوزع الزاد على المكيين، ويقدم لهم المؤن التي تبعد عنهم غائلةَ الجوع والموت، فكان ينحر لهم الجمال، ويهشم لهم الخبز ويصنع لهم الثريد، ويطعم القاصي والداني حتى أجمع الناس على لقب أسمى له، فدعي «هاشماً» وفيه يقول الشاعر:

عمرو العلا هشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكة مُسنِتُون[1] عجافُ

بل ولقد غلب لقبه الجديد «هاشم» على كل اسم أو لقب سابق له فصار يُعرف به اسماً علماً، وإليه ينتسب بنو هاشم أو الهاشميون.. ولم تكن تلك الضائقة الكبرى التي حلَّت بمكة وأهليها هي وحدها التي جعلت هاشماً سيد مكة المطاع، ونبيل القوم وقائدهم، ولم تكن هي ظاهرته الأبرز في اهتماماته بشؤون الجماعة، بل لقد عمل على أن يكون لأهل مكة مجالات رحيبة في الاتصال بالعالم الخارجي، وتوفير الأموال وزيادة الثروات فاستنَّ رحلتي الشتاء والصيف: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام. فصارت لمكة وأهليها ـ فعلًا ـ مكانة مميزة في بقاع الحجاز الجافة، وغدت، أكثر من أي عهد مضى، ملتقى لطرق القوافل إلى اليمن، والحيرة، والشام، وإلى نجد. وباتت مركز الاتصال بتجارة العالم عن طريق البحر الأحمر (ميناء جدة) الواقع على مقربتها.

---

(١) مسنتون: مجدبون.

وبعد أن استقامت رحلات قريش التجارية إلى تلك الأمصار، فكَّر هاشم بتدعيم الروابط والعلاقات مع العالم الخارجي، وعقد معاهدات أمن وسلام مع حكام الدول المحيطة به، كما رأينا سابقاً[1]، وتلك المآثر لهاشم بن عبد مناف تدل على ما كان للرجل من دراية وحكمة، ومن بعد نظر في رعاية شؤون قريش، حتى جعل لهم السيادة على العرب، والصدارة لمكة في كل أنحاء شبه الجزيرة.

على أن ذلك الاهتمامَ الكبيرَ بالأمور العامة ومصالح الجماعة لم يحل دون مواظبته على نفس الدأب من الجد والعمل فظلَّ يقود قوافله التجارية بنفسه.

ويكون هاشم في رحلة له إلى الشام، وأثناء العودة ـ وقد أناخ بيثرب رحال جِماله طلباً للراحة ـ علم بأن امرأةً ذاتَ شرفٍ في قومها، وصاحبةَ تجارة واسعة في يثرب، عازفةٌ عن الزواج ما لم يوافق طالبُ يدها على أن يشترط لها بأن يكون أمرها بيدها، وحقها في اختيار الإقامة ببلدها.. فرغب في مقابلتها..

ويشاء الله تعالى، الذي يقلِّب القلوب كيف يشاء، أن يستهويَها عندما جلس يحادثها، وأن تستهويَه هي أيضاً، لا سيما بعدما عرفت مكانته في قومه، إذ رأت فيه أمير مكة الذي لا ينقصه كمال الخَلْق، ولا يعوزه حُسن الخُلق، فضلًا عما يتحلى به من الصفات التي كانت تتوسمها في الرجل الذي تريده زوجاً.. فتوافقا على الزواج، وتشهد يثرب الزواج المبارك ما بين هاشم بن عبد مناف وسلمى بنت عمرو

(١) حياة محمد، المصدر السابق، ص٥.

(أحد بني عدي بن النجار)، ثم يرتحل هاشم بعروسِهِ إلى بلده مكة، وقد لفَّتهما السعادة بأهدابها.

وأقامت سلمى في البيت الزوجي، هانئة، قريرة العين، إلى أن عاودها الحنين إلى يثرب، فلم يُنكر عليها زوجها رغبتها تلك، وهو يعرف طباعها، بل على العكس قام هو بنفسه يحملها إلى ديارها، وقد أودع في أحشائها جنيناً من صلبه. وهنالك في يثرب ولدت له ولداً، أسمته شيبة وكان ذلك في سنة ٤٩٧ ميلادية[١]، فصار لهاشم أربعة بنين وهم: أسد، وأبو صيفي، ونضلة، وشيبة، وخمس بنات وهن: الشفاء، وخالدة، وضعيفة، ورقية وجنة. وأقبلت سلمى على تربية ابنها وتنشئته بدراية وحكمة حتى غدا فتًى لا مثيل له بين أترابه في بهائه ونضارته، فكان مصدر سرور لأمّه، وسلواها في غياب أبيه الذي شغله اهتمامه بشؤون القوم، والقيام بأعباء الكعبة حتى ملأت عليه وقته وكيانه. ولكن تلك الاهتمامات رغم اجتماعها عليه لم تكن لتمنعه من تفقُّد زوجه وابنه بين فترةٍ وأخرى، وقضاء بضعة أيام للراحة بقربهما.

ويخرج هاشم في إحدى رحلات الصيف إلى غزة من بلاد فلسطين، فتفاجئه المنية، ويدفن هناك، مما جعل قريشاً تجزع لفقده، وتخاف على تجارتها، فيذهب أخوه عبد شمس إلى النجاشي ويجدِّد عهده مع القرشيين، كما يذهب أخوه نوفل إلى العراق ويوثق حلفهم مع كسرى..

---

(١) قيل: إن أمه سمّته «شيبة» لأنه ولد وفي رأسه شيبة (انظر ابن هشام ج١ ص١٣٧، ورحمة للعالمين ج١ ص٢٦).

المطّلب بن عبد مناف

وكان المطّلب بن عبد مناف بن قصي أصغرَ سناً من أخيه عبد شمس، ولكنه عندما كبر شرُف في بني قومه حتى سمَّته قريش «الفيض» لسماحته وفضله[1]، فكان من الطبيعي، وهو على تلك الشمائل، والصفات الذاتية، وعلى تلك المكانة المرموقة من بني قومه ألَّا تتغيَّرَ الأوضاع في مكة بعد تسلّمهِ مقاليد الأمور من بعد أخيه هاشم، بل تبقى لقريش سيادتها على العرب، ولمكة مكانتها على القرى.

وكما كان مؤملًا منه، فقد قام المطلب بدوره الريادي كاملًا، ولكنه لم ينس ـ وهو في غمرة المسؤوليات والأعباء ـ أن ابن أخيه شيبة ما يزال يعيش في يثرب، على الرغم من أنه بلغ حدَّ الفتوة، ولم يعد جائزاً بقاؤه بعيداً عن أهله، فقرر الذهاب ليأتي به إلى مكة، حيث مكانه الطبيعي بين أبناء عشيرته.

ولم يكن ليغيب عن أم الفتى ما للعصبية القبلية من سلطان على حياة الأبناء، إذ بمتقضاها تكون الولاية على الولد لجده من أبيه، أو لعمه، بعد وفاة الأب..

وها قد جاءها المطلب، عمُّ ابنها، يجالسها ويحادثها من غير أن يدعي المطالبة بحق الولاية على ابن أخيه بوجهها، وما ذلك ـ كما رأت ـ إلَّا حفاظاً على كرامتها وخاطرها، فهل تبادل الإحسان إلا بالإحسان؟!

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص١٤٤.

وإنه ـ واللَّهِ ـ لأمر جلَلٌ أن تقع هذه الأم المسكينة بين نارين: نار قلبها الذي سوف يتفطر ألماً ولوعةً على فراق فلذة كبدها الوحيد، ونار الذهاب للعيش في مكة لتبقى بقربه، وهي لم تتمكن من التأقلم في أجوائها في حياة زوجها، فكيف يمكنها الإقامة فيها من بعده؟! إذن فما عليها إلَّا أن تسلِّم أمرها لعلَّام الغيوب، وأن ترضخ لحكم الواقع.. وليذهب ابنها مع عمه، فهي لا تملك له إلَّا الدعاء بالسلامة، والحياة الطيبة..

وحانت ساعة الرحيل، ويشهد المطّلب وداع الأم لابنها، فتسيل عبراته مع عبراتها، إلَّا أن الواجب يدعوه ـ وهو أقوى من العواطف ـ فيردف ابن أخيه خلفه على بعيره، ويرتحل مبتعداً به عن يثرب، حتى يدخل مكة.

عبد المطلب بن هاشم

ولعلَّ ما كان مقدَّراً لهذا الفتى، هو الذي جعل أهل مكة يظنون بأن سيدهم قد ابتاع له عبداً، عندما رأوه خلفه، وهو يتهادى على بعيره، فراحوا يتصايحون: انظروا هذا عبد المطلب.. انظروا هذا عبد المطلب..

وراح العمّ يصرخ فيهم: ويحكم! إنه ابن أخي هاشم، وقد حملته معي من يثرب، ولكنْ غلبت صيحة القوم، وغلب معها اللقب على «شيبة» ابن هاشم.. ومع الأيام نسي الناس اسمه الحقيقي فدعي «عبد المطلب»..

وكان هاشم قد خلَّف وراءه ثروة كبيرة، وقد استأثر بها بعد موته أخوه نوفل من دون إخوته الآخرين. فلما عاد المطلب بابن أخيه،

سعى ليردَّ الأموال عليه، لأنه هو وارثها وصاحبها، ولا حقَّ لأحدٍ غيره بها، فأبى نوفل عليه ذلك الأمر، مصرّاً على الاحتفاظ بالمال، ومواصلة وضع يده عليه..

وأراد المطلبُ أن يقتله، أو يهدر دمه، ولكنَّ حرصَهُ على جمع شمل بني عبد مناف، وخوفَه أن تلوك الألسنةُ السمعة الطيبة التي يُحمدون بها، جعلاه يكظم غيظه، ويصبر على سوء فعل أخيه نوفل.. وكان عبد المطلب يومئذٍ في أول تفتُّحه ونضوجه. وكان يسمع ويرى كل شيء، فيؤلمه أشدَّ الإيلام أن يكون عمه قد آثر نفسه عليه، وسلبَ ثروة أبيه طمعاً وعنتاً.

وكان الفتى يشب. ولكنَّ استبداد عمه بإرثه لم يكن ليفارق مخيلته، ولم تفلح محاولاته لاسترداده، إذ كان كلما ذهب إليه مطالباً بحقه، لم يجد لديه آذاناً صاغية، مما دفعه لأن يستعدي عليه أخوالَه بيثرب.. وفي ليلةٍ دهماء جاء خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين من فرسان خزرج ورجالها الأشاوس لنصرة ابن أختهم. ولم يكن أمام شيوخ قريش إلَّا تهدئة خاطرهم، لأنهم ما جاؤوا إلَّا ليردّوا حقاً قد استلبه أحد أبناء قومهم. ودعي نوفل على عجل وأذعن إلى الحكم الصواب وسلّم الأموال إلى عبد المطلب، ولم يطل العهد به بعد ذلك، إذ هلك في محلة تدعى سلمان من ناحية العراق.

أما عبد المطلب وبعد أن أخذ ماله فقد عقد العزم على أن ينمِّيَه ويزيده لكي يكون وسيلته في خدمة أبناء قومه، ولا سيما المحتاجين منهم، فراح يعمل في التجارة، وبرع فيها كدأب آبائه في هذا الميدان الواسع، حتى استقامت له أمورها، ونجح فيها نجاحاً باهراً..

وليس غريباً أن يحبَّ الناسُ عبد المطلب، فالشجرة الطيبة لا تؤتي إلا ثماراً طيبة لأن أصلها ثابت وفرعها في السماء من لدن عزيز حكيم؛ فمِن قبلُ أحبَّ الناسُ آباءه وعمومته من أجل محتدهم[1] الطيب، وحسن معاملتهم، وما كانوا يتمتعون به من الحكمة، ورجاحة الرأي.. وها هي قريش، وقد مات المطلب ـ في محلة تدعى «ردهان» من أرض اليمن ـ لا ترى حق الولاية من بعده، في السقاية والرفادة إلَّا لابن أخيه عبد المطلب، فقلّدوه هذه الولاية إرثاً موروثاً..

وقام عبد المطلب بحق هذه الولاية، حافظاً للأمانة، باذلًا لقومه ما كان يبذله آباؤه لهم، وما كان بضنين على خدمة الكعبة الشريفة حتى بلغ فيهم حداً كبيراً من الشرف بل وفاق حبّهُم له كلَّ حب لآبائه، فصار أمره عظيماً فيهم، وفي العرب، لا سيما بعدما ذاع صيته، وتناقله الحجيج في البوادي والحضر..

ومع الأيام تبدأ معاناة عبد المطلب من أعباء السقاية والرفادة. فقد كان عليه أن يأتي بالماء من آبار عدة، ومتفرقة من حول مكة، حتى يملأ الأحواض لسقاية الحجاج في المواسم. ولم يكن له من معين في تلك المهمة الشاقة إلَّا ابنه الوحيد الحارث، الذي أرهقه هذا العمل إلى حدٍ كبير، مما جلب لنفس أبيه الغم، فصارت السقاية محوراً لتفكيره مثلما هي سبب لمعاناته..

وكانت قريش ترى بأم العين ما يعاني عبد المطلب وابنهُ، وعلى الرغم من مكانته في نفوسهم، وحبهم الذي يظهرونه له، بل وخوفهم

---

(١) محتدهم: أصلهم.

من سطوته وهيبته، إلا أنَّ أحداً لم يفكر يوماً في مساعدته على نقل الماء، أو بدرت منه أية بادرة لتخفيف همومه وأتعابه. أما من ناحيته، فقد كان على يقين أنه لو طلب إليهم ذلك ـ وهو سيدهم وصاحب الأمر والنهي فيهم ـ لما توانى الجميع، شيباً وشباناً، عن تلبية أوامره. ولكن أبت عليه عزة نفسه أن يستخدم الناس في السقاية، حتى لا يقال: إن ابن هاشم قصَّر في أداء واجباته، ولم يوف مناصبَهُ حقوقها..

وقدَّر، في تلك الغفلة من الناس عن أتعابه، أن الأبناءَ هم خير معينٍ للآباء، ولو وجدوا، لكان ذلك كافياً لإزالة الهموم عن كاهله. فانصرف تفكيره إلى الإنجاب وتكثير الأبناء ليكونوا سياجَ عمره، وصمام الأمان لحياته...

وراح هذا التفكير مع الوقت يقلقه، ويقض عليه مضاجعه، فلا ينام، ولا يقعد، إلَّا ويتراءى له الأبناء من حوله، يمنعونه من حمل الأثقال، ويردون عنه غوائل الزمان..

وكانت الكعبة ملاذ عبد المطلب، ولاسيما إذا حزبته الأيام بدهمائها، فيذهب إلى ركن من أركانها ليستروح في ظلها من حرِّ الشمس الوهاج عندما يخالط رمل الصحراء وينفذ إلى ثناياه، فيستلقي مطمئناً إلى جوار البيت الحرام، ويغرق في قيلولته مفارقاً الدنيا وهمومها.

ولكن هيهات أن تبقى له حتى هذه الهناءة القليلة، والأحلام قد بدأت تدهم سكينة نفسه في إغفاءتِهِ، وهي تحمل معها مشاغله في السقاية والقيام بأود الحجيج فتتراءى له وكأنه في اليقظة.

وظلت تلك الأحلام تلازمه إلى يوم جاءه هاتف في المنام يقول

له: احفر بئر زمزم.. وأنِسَ عبد المطلب لهذا الهاتف فهبَّ من نومه مستبشراً، وهو يردد: ولِمَ لا؟.. فلعلَّ في بئر زمزم التي عفت عليها السنون، وطمرتها الرمال في طيات الأرض ما يشفي غليل نفسه، ويؤمِّن مطلبه الغالي..

وظل الهاتف يعاوده، ويلحُّ عليه في حفر زمزم، وهو لا يدري ما يفعل، إلَّا أنه يعلم في أعماق نفسه أن في الأمر سراً علوياً، وأن فيه الخيرَ كل الخيرَ؛ وإلَّا فلمَ هذا الهاتف الذي لا يفارقه كلما كان في جوار الكعبة؟ ولكن ليس هذا ما يحيّره، بل إنَّ المشكلة تكمن بأنه لا يعرف مكان البئر، بعد أن مرّت أجيالٌ على عهد مضاض الجرهمي الذي طمرها.

وكان على عبد المطلب أن يسأل، فذهبَ إلى الطاعنين في السن، وإلى الرواة، وحَفَظَةِ أخبار العرب، يتقصَّى منهم خبر بئر زمزم. ولكنَّ جميع من التقاهم لم يفيدوه بشيء!... فكل ما عرف منهم أن بئر زمزم كانت في قلب مكة، ولا تبعد كثيراً عن الكعبة، مما يعني أنَّ أحداً لم يزد على علمه شيئاً، أو يعطه بارقة أمل في معرفة المكان الذي يجب أن يحفره.

ومع ذلك فقد عزم عبد المطلب على العمل فاتخذ من ناحية جبل الصفا هدفاً له وراح يحفر هناك، إلَّا أنه لم يجد في تلك الناحية إلَّا الجفاف، الذي يضرب في طول الرمال وعرضها، فلا رطوبة مياهٍ تبيّنُ للباحث طريقه.

وحاول البحث عند أقدام جبل المروة، وانتقل منه إلى عدة أماكن أخرى، وكلها بدون جدوى، حتى كلّت يداه وساعداه، وكاد

ظهره أن يحدودب. وزاد في شقائه أن ابنه الوحيد الحارث لم يكن يفارقه في عمله، بل كان يهبُّ معه قبل طلوع الفجر، ويظل إلى جانبه يزيح الرمال أو يضرب بالمعول إلى أن ينهكهما التعب، وحرُّ الشمس، فيتركان العمل إلى فجر الغد التالي..

وكان عبد المطلب يتأمَّل حالة وحيده الحارث، وما صار عليه من هزال: فقد ضمر بطنه، ودق عوده، وشحب لون وجهه من غير أن يبدي تذمراً أو شكاية، فيزداد على ولده غماً بغم، وحزناً بحزن، إلَّا أنه لا يريد أن يفقد الأمل في بحثه عن زمزم..

ويذهب سيد مكة كعادته إلى ركن الكعبة، وهو ينوء تحت أعبائه النفسية والجسدية، كي يلوذ بظلها، فيأخذه النوم، ويأتيه الهاتف عينه، ولكن بلهجة غليظة هذه المرة، وهو يصرخ فيه: قم يا عبد المطلب إلى زمزم..

ويهبُّ الرجلُ من نومه مذعوراً، ويلتفت حواليه فلا يجد أحداً، فيقعد مستلقياً إلى الركن، وقد أخذه التفكير إلى البعيد، وراح يطوف به في أحداث الأجيال الماضية حتى عبرت بذهنه قصة إساف ونائلة، وقد كانا زوجين، فبغيا في الكعبة ـ أعزَّها الله ـ فمسخهما ربُّ العالمين على مكانتهما، وقد جرى نقلهما في الماضي البعيد، من جوار الكعبة، إلَّا أن غلبة الجهل على أهل الشرك، وسفاهة أحلام أهل الكفر قد أنست الناس ما كان للمسخين من عبرةٍ إلهية، فأعادوهما واتخذوهما إلهين مثل سائر الأصنام والأوثان التي وضعت في جوف الكعبة وبجوارها...

ورأى عبد المطلب أن عبادة الناس لهذين الصنمين ـ إساف

ونائلة ـ ربما هي التي جعلت مضاض الجرهمي يفكر، بعد أن طمر بئر زمزم، أن ينقلهما إلى فوقها، فتحفظ بذلك الكنوز التي خبَّأها!. أو ربما أراد الناسُ إعادة المسخين إلى جوار الكعبة، ووضعهما بالقرب من زمزم بالذات لكي تجتمع معجزة الماء بهذا الوادي، غير ذي الزرع، مع معجزة المسخ، فتبقى العبرةُ مجسَّدةً، ويرى الناس دلالتها بأم العين.. إذن فلا بدَّ أن يكون مضاضٌ قد رجَّح مثل هذا الاحتمال، فتكون زمزم ـ على أقرب تقدير ـ تحت صنم إساف ونائلة، أو بجواره.. وبهذه الرؤية الفكرية غلب الظن على عبد المطلب بوجود البئر، وما عليه إلَّا أن يعاود البحث عن ضالّته المنشودة ـ الماء ـ في تلك الناحية بالذات.. وبالفعل، ومع الفجر، حمل عبد المطلب وابنه الحارث عدتهما، وانكبا على كشف الرمل والحفر عند الصنمين المسخين، إلَّا أن الأمرَ لم يكن أحسنَ مما سبق.. ومرَّتْ عدة أيام، وهما على تلك الحالة من التعب والجهد مما حمل عبد المطلب على الدخول إلى جوف الكعبة لمناجاة ربِّ هذا البيت، والاستغاثة به حتى يخلّصه وابنه من عذابهما..

وفي تلك الليلة بالذات نام عبد المطلب ملء جفونه، على غير ما كان عليه في المدة التي انصرمت، إلَّا أنه، وقبل طلوع الفجر، وجد نفسه يهبُّ من رقاده، ويذهب في هدأة الليل ليعاودَ عمله، من غير أن يوقظ ابنه إشفاقاً عليه من التعب الذي كاد يضنيه.. وانقضت ساعات وساعات حتى قارب الوقت الظهيرة وهو منكبٌّ على الحفر، دونما توقف أو أخذ قسط من الراحة، وكأنَّ مثل هذا العمل قد حمله، وهاجر به من هذه الحياة الدنيا إلى دنيا جديدة لا يرى فيها إلَّا حجيجاً يرتوي من ماءٍ رقراقٍ يشفي الغليل، وبهائم تروح وتأتي وهي تعبُّ من

هذا الماء. . . وهو ـ في ذلك ـ مستأنس، هانىء بهذه المشاهدة الرائعة! . .

ولمَّا أفاق الحارث هرع إلى مكان أبيه، وتقدم ليأخذ المعول منه، إلَّا أنه، وبردة فعل آلية، دفعه عنه بقوة، مما جعله يتقهقر ويقف واجماً، خائفاً على هذا الأب، وهو على تلك الحالة من الشرود، وكأنما لا يعنيه إلا ضربات معوله، واكتشاف المجهول الذي يغيض في الأرض! . . . وبين دهشة الحارث، واستغراقه في التأمل بأبيه، إذا به يتعثر ويسقط. . وكانت عثرة مباركة غطَّت وجهه بالوحل، فصرخ بملء صوته: أبي! إنه الماء. .إنه ماء زمزم يا أبي. .

ومن أين للأب أن يسمع، وروحه تهيم بين معولٍ وماءٍ ليس إلَّا، حتى كانت منه تلك الضربة الأم التي جعلت الماء ينبجس تحت قدميه، كما انبجس بين قدمي الرضيع إسماعيل عليه السلام منذ دهرٍ طويل، فيفيق، ويعود إليه وعيُهُ الدنيوي، ليرى معه في هذه الحفرة العميقة ولده الحارث، وهو ينظر إليه والهاً، فيقعد بجانبه، ثم يملأ كفَّهُ بالماء، ليغسل ما علق على وجهه من وحل، وهو يقول له:

هيا يا بنيَّ، اروِ ظمأ صدرك من ماء زمزم المبارك، فلا هموم، بعد اليوم، تثقل كاهلك، وتضني جسدك. . إيهِ يا بنيَّ، هاتِ هذا الوجه الصبيح لأغسلَه براحتيّ هاتين، فما أحبَّهُ وجهاً على قلبي، مرَّغته أوحالُ زمزم، فطِبت به عزاً ومكرمة. .

ويسترخي عبد المطلب وابنه الحارث على الوحل والماء وقد غمرتهما السعادة، ثم لا يلبثان أن يتوثّبا بهمة جديدة، ويعاودان العمل حتى ظهرت لهما البئر على قِدَمِها وعمقها، فحمدَا الله على ما وفّقهما

إليه وقد تأكد لهما أنها بئر زمزم حقاً، بمائها العذب، ومذاقه الطيب..

أجل، إنها بئر زمزم التي بقيت على مر التاريخ شاهداً على قصة إسماعيل الرضيع، وقد حمله أبوه إبراهيمُ الخليلُ وأمّه هاجر إلى وادٍ غير ذي زرع عند البيت المحرَّم، ليترك أهله في تلك الفلاة وحيدين إلَّا من رحمة الله تعالى. وتعطش الأم يومئذٍ، ويكاد الرضيع أن يموت من جوعٍ ومن عطش، فتسعى هاجَرُ وراء سراب يخادعها عند جبل الصفا وتهرول نحوه فلا تجده شيئاً، وتلتفت وراءها فيتراءى لها السراب عند صخرة المروة، فتركض مهرولة إليه.. وما يزال هذا السراب يجذبها ويشدها حتى أنهكت، بعد سبعة أشواط كانت تقطعها ذهاباً وإياباً ولكن دون أن تجدَ قطرةَ ماء. وتفيق من ذهولها، فتفطن إلى رضيعها الذي تركته وحده، فتركض إليه ملهوفة لتفاجئها رحمة الله عزَّ وجلَّ، وقد حلَّت ببركاتها السنيّة على هذا الطفل الرضيع، فجعلت الماء ينبع بين قدمَي إسماعيل.

أجل، إنها بئر زمزم التي حفظت الماء في باطن صحراء الحجاز، وبجوار الكعبة الشريفة، حتى يأتي اليوم الذي يكشف عنها عبد المطلب ويعيدها إلى سابق عهدها مورداً للسقاية.

أجل، إنها بئر زمزم التي يظل ماؤها، أبد الدهر، شراباً قراحاً، ومغتسلًا طهوراً للمسلمين، يؤمّونه في مواسم الحج والعمرة، ويحملون منه إلى مختلف البقاع التي جاؤوا منها، فيرتشف المؤمنون قطراتٍ منه طلباً للبركة والشفاء..

وإنها هي عينها بئر زمزم التي احتضنت في جوفها كنوز الكعبة الشريفة، بعد أن خبأها مضاض سيدُ جُرهُم في هذا المكان الأمين،

في البلد الأمين، ليأتي عبد المطلب، فيعثر عليها، ويعيدها إلى الكعبة التي أعزَّها الله في هذه الأرض.

وتناهى خبر زمزم إلى الناس، فجاءت قريش، كبيرها وصغيرها، تُكبِر عمل عبد المطلب وابنه، وما بذلاه من جهدٍ جبار في إحياء مكة من جديد بالماء القراح، والكل يهتف لهما هتاف الإعجاب والتقدير، بينما لا يرى عبد المطلب أيَّ فضل إلَّا للرب الكريم الذي شاءَ أن يعيد للبئر مكرمتها، ولمائها الطهور بركته، فيبقى مورداً عذباً إلى أزمانٍ لا يعلمها إلَّا اللَّهُ صاحبُ الشأن، العزيز الحكيم..

وحمل عبد المطلب الكنوز التي وجدَها في جوف زمزم، وانتحى بها إلى ركنه بجانب الكعبة، فتبعه الناس يتحلّقون من حوله، ثم لا تلبث أفواههم أن تبتلع هتافاتها، التي ما صدحت إلَّا توطئةً للمطامع التي تحبل بها نفوس رؤساء قريش، الذين لم يعجّلوا في الإتيان بتلك الجموع واندفاعها إلى الكعبة إلَّا ليمنعوا عبد المطلب عن أن يستأثر وحدَهُ بكنوز الكعبة الثمينة!.. لقد جاؤوا يريدون أن يأخذوا النصيب الأوفى من هذه الكنوز لأنَّ في ظنهم أن قريشاً أحقُّ العرب بالكعبة، وأقرب الناس مجاورةً لها، فلِمَ لا تكون كنوزُها كنوزَهم، وأموالُها أموالهم؟! ولِمَ لا يطالبون بأن توزع على شيوخ عشائرهم، فينال كل منهم حظَّهُ متساوياً مع حظ عبد المطلب؟!..

وهبَّ الرجلُ غاضباً في وجوه القوم، وقد حان الوقت ليفرغ ما في قلبه على هذه الطغمة من قريش، التي أعمتها الجهالة عن معرفة الحق، واستبدت بها الأطماع عن تقديس الكعبة، فجاءت تروم كنوزها غنيمةً سائغةً، لم تنفق في سبيلها نزراً من جهدٍ.

وراح عبد المطلب يعيّرهم بمواقفهم منه: فقد تناسوه وهو يشقى في أعمال السقاية، ولم يمدَّ أحدٌ منهم يدَ العون له ـ أو يشفق على ولده الوحيد ـ وهم يرونهما يجهدان في الحفر أياماً وليالي طويلة، لا سيما وأن غايته ـ كما يعرفونها حقَّ المعرفة ـ تأمين السقاية لحجاج البيت الحرام، كي تظل هذه العادة الشريفة قائمة على مدى الأزمان، ويحمدها الناس في كل بقاع الأرض، إلى أي جنسٍ انتموا، وعلى أي لون كانوا!

وبعدُ، أفلا يعلمون أن في أخلاق عبد المطلب ما يدفع عنه كل تهمة في طمع أو استئثار بمالٍ؟ فكيف إذا كان المالُ مالَ الكعبة؟! أم تناسوا أنه سيّدهم الذي يعمل بمكارم الأخلاق: «يقطع يد السارق، ويمنع من طواف العراة، ويوفي بالنذر، ويؤمن بالمعاد، ويحرّم الزنا، والخمر، ونكاحَ المحارم، وكان يأمرُ وُلْدَه بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيّات الأمور، وكان مجابَ الدعوة، وتَرَكَ الأصنام»[1]، فتلك خصال سيدهم عبد المطلب التي يقرّون بها... إذن، فبأي حقٍّ جاؤوا يطالبونَهُ أن يوزع عليهم كنوز الكعبة؟! لا، ليس لهم أدنى حقٍّ بشيءٍ منها، ولو طردهم من وجهه فإنَّ أحداً لا يلومنَّهُ على ذلك، ولكنَّ أخلاقه، وفضل زعامته عليهم غلّبا حِلمه على غضبه، فيظل على سماعه لهم، وتقبُّل جدالهم وهم يراوغون ويداهنون حتى أعياه التعب، فطلب أن يكفّوا عنه، ويعطوه بضعة أيام للتفكير..

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص٤، والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية)، ج١ ص٢١، ومسالك الحنفا، ص٤١ عن الملل والنحل للشهرستاني، وتاريخ الخميس ج١ ص٢٣٧.

ولم يكن عبد المطلب وهو الرجل الحصيف، وذو المراس والحنكة ليعوزه الرأي، فبعد أن عقد العزم على تنفيذ الخطة التي توصله للغاية التي يرومها، دعاهم للاجتماع في دار الندوة، ووقف فيهم قائلًا:

ـ يا معشر قريش! إن أموالَ الكعبة هي حق للكعبة. وأسياف مضاض الجرهمي ملكٌ للقوم. ولكني سأضع كلَّ ما وجدت في زمزم تحت القسمة، فأجعل للكعبة قدحين، ولقريشٍ قدحين، ولي قدحين، ومن خرجت قدحاه على جزء كان له، ومن تخلّفت قدحاه فلا شيء له. وإني لفاعل ذلك حتى لا تقول العرب بأنَّ ابن هاشم قد طمع على بني قومه، واستعدى عليهم بحقوق طالبوه بها ـ وإن كان لا حقَّ لكم بما تطلبون ـ.. فإن رضي جمعكم ذهبنا إلى الكعبة توّاً، وإلَّا فلا شأن لأحدكم في ما أفعل.

ولم توافق طروحات عبد المطلب أهواء أولئك الطامعين، ولكن هل لهم خيار إلَّا القبول؟ فنزلوا عند رأيه صاغرين. وذهبوا إلى الكعبة، فجاء صاحب القداح وضرب قداحه، فلم يكن لقريش ـ بتقدير العزيز الحكيم ـ أن تصيب قداحها، بينما كانت السيوف من نصيب عبد المطلب، وتمثالا الذهب من نصيب الكعبة.

لقد كانت الوسيلة، ولا شك، القداح.. ولكنَّ العدل الإلهي وحده الذي يُحق الحق ويُزهق الباطل. فخرجت قريش خاسرة، وكانت قد أمَّلت أن تصيب الثروة والأموال فتوزعها على ذوي الشأن فيها مكسباً سهلًا بلا عناء ولا جهد.. بينما ربح عبد المطلب لأنه أراد الحق، وكان مع الحق، وربحت الكعبة لأنها بيت الحق (تبارك وتعالى)...

ومنذ صباح اليوم التالي ذهب عبد المطلب إلى الصناعي فصهر الأسياف وجعلها باباً للكعبة، ثم ضرب التمثالين من الذهب حليةً لها، ثم باع المجوهرات وخصَّصَ ثمنها لإعادة بناء بئر زمزم، ولخدمة الحجيج فأيقنت قريش أنه لم يكن لسيّدها مطامع شخصية، وعادت إلى رضاها ـ مرغمةً ـ بعد أن كانت ساخطة حانقة.

واستقامت الأمور لسيد مكة بصورة مطلقة، فالقوم قد دانوا له بالسلطان، وهو لا يتوانى أبداً عن رعايتهم.. أمّا السقاية فلم تعد مصدر قلقه وماء زمزم يفيض بالبركة، فعظُم أمرُه في العرب، وعلت مكانته أكثر من السابق.. ولكنَّ أمراً واحداً ظل يشغل باله، وهو حاجته إلى البنين. إنه الهاجس الذي ظل يلازمه أبداً، ولم يفارقه طوال تلك المدة، وما عصف به من أحداث خلالها، بل ولقد تلبس هذا الأمر تلافيف قلبه، في تلك الفترة الحرجة بالذات يوم أنْ كان يشقى في البحث عن ماء زمزم ولا معين له ولا عضد إلا ولده الوحيد، فنذر حينها إن جاءه عشرة من الأبناء أن ينحر أحدهم عند الكعبة تقرباً إلى الله، وذلك على عادة العرب في ذلك الزمان، في تقديم القرابين عندما تتحقق لهم الأمنيات الكبرى..

وأخذت السنون تمرُّ، والأيام والشهور تكرُّ حتى كان لعبد المطلب ما أراد وتمنَّى. فقد تكاثر بنوه حتى صاروا عشرة ذكور، وست بنات. أما الذكور فهم: الحارث، والزبير، وحجّل (واسمه الغيداق) وضرار، والمقوِّم (واسمه عبد الكعبة) وأبو لهب واسمه (عبد العزى) والعباس، وحمزة، وأبو طالب (واسمه عبد مناف) وعبد الله. وأما البنات فهن: صفية، وأم حكيم ـ البيضاء ـ ، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرَّة. وقد باتوا قرة عين له، يملأون عليه الدنيا من حوله،

ويشغلون الحيّز الرحب من وجوده... بل صاروا بعدما شبّوا عضده في الملمات، وفخره في المحافل، وموضع اعتزازه بين أبناء العشائر والقبائل. فكان يحمد الله ـ تعالى ـ على ما أفاض عليه من نعمةٍ وفيرة، ومن فضلٍ جزيلٍ.

وبقي عليه الوفاءُ بالنذر، وهو الغصّة التي تحرقه، وترجح كفتها على كل طمأنينةٍ في حياته. ولكنَّ مثله لن يتناسى عهده مع ربه، ولن ينثني عن الوفاء بنذر قطعه على نفسه، حتى ولو كان الثمن ذبح ولدٍ من أولاده.

عبد الله بن عبد المطلب

وحان وقت الوفاء بالنذر..

فجمع عبد المطلب أبناءه ليطلعهم على سرِّه ويستشيرهم في أمره، فتكون التضحية التي يقدمون عليها، تضحيةَ رضى وقبول، لا تضحيةَ طاعة وقهر... ورغم هول الخبر على هؤلاء الأبناء، فقد وجد عبد المطلب في كل واحدٍ منهم ما يماثل ـ حقاً ـ ما وجده إبراهيم في ابنه إسماعيل عليه السلام، إذ وقفوا جميعاً نفس الموقف الذي يريده كل واحد لنفسه، وهو أن يكون الفداء بدلًا عن إخوته.. لا بل واحتدم بينهم الجدلُ في أروع مباراة عرفها الناس لهذا البيت الكريم، والتي تجعل منه مثالًا فريداً في التضحية والإيثار.. فجميع أفراده يتسابقون: كلٌّ واحدٍ منهم يقدم عنقه للنحر متمنياً أن ينال الحظوة عند الأب، فيختاره وحده من بين إخوته الآخرين.. إنهم أبناء عبد المطلب، فهم للعُلا يتوثبون، وعلى مشارف التاريخ يسمون ليقدِّموا للأبناء آياتٍ في الوفاء بعهد الآباء. ولله درّهم من جماعة قد خلت،

وخلّفت من ورائها أبناء المدنية والتقدم في عصرنا ـ وفي غيره ـ والذين يصدموننا كل يوم بأكثر من قصة تروي أخبار مروق الأبناء، وعقوق الآباء، وتكاذب الإخوان والأصدقاء، حتى لقد صار الابن يقتل أباه، والأخ يسلب أخاه، والصديق يخون صديقه، والناسُ تأكلُ الناس، والكل ينسى أن رصيده من العمل الصالح يتآكل يوماً بعد يوم، وإلى حفيرة في التراب، أو تابوتٍ من الخشب، سيؤول وإن طال الأجل!.. هكذا هي الحياة بين ماضٍ لأبناء عبد المطلب في الجاهلية، وبين حاضر لأبناء البشرية في عصر المدنية، والله أعلم بما يأتي به مقبل الأيام.

ولنعُد إلى عبد المطلب، هذا الأب الملتاع الذي لا تكفيه جراحات نفسه، والنذر يحزُّها حزّاً، فجاء أبناؤه يوقعونه في حرجٍ أكبرَ، وهم يتركون له أن يختار منهم من يسوقه إلى الذبح. وكيف له أن يؤثر واحداً على الآخر، والكل عزيز على قلبه.. إنه يعيش المأساة بكل معانيها، لأنه كيفما قلّب الأمر ومن أي وجه أتاه لا يجد له حلًّا.. ولكن عدالته بين أبنائه، وصدقه مع ربه جعلاه يتريث فترةً من الزمن علَّ ربَّهُ يحدثُ له أمراً.. ولكم كان يتمنى لو أنَّ أحداً يفتيه بأن يجعل نفسَهُ القربانَ شرط أن يفيَ ذلك بالنذر!.

وتطول الجلسات بين عبد المطلب وأبنائه، وتمتد الأحاديث والذكريات حتى تصل الليل بالنهار، وكأن أمر الذبح لم يعد يعني هؤلاء الأبناء بشيء ما دام كل واحد يؤمل أن يكون هو الذبيح. أما الأب فكان كلما مرَّ عليه الوقت مزَّقه الألم أكثر، وكوته اللوعة بأشدّ. وذاتَ ليلة، وقد رانَ السكون عليهم، إذا بهم ينصتون إلى زفرات أبيهم، وهو يحدّث نفسه ويقول:

«يا لله ما أصعب أن ينتزع الإنسان حبة قلبه، ولكن القضاء محتوم، والمقدَّر واقع، وليس إلَّا الصبر على البلاء»..

كان عبد المطلب في حالة مناجاة والدموع تتدحرج على خديه، مما لا يدع مجالًا للشك بأن أمنيته الوحيدة باتت أن يكون هو الذبيح، وأن يكون أبناؤه هم الذين ينحرونه على مذبح الفداء، فإذا بالدموع الحرَّى تملأ مآقيهم، فينكبّون عليه، يلثمون يديه ورجليه، ويقولون بلسان واحد:

ـ لا تبتئس يا أبانا، ستجدنا إن شاء الله من الصابرين.

ولكن بماذا يعزّي نفسه إلا أن يقول لهم بلهجة الأب العطوف:

ـ يا رياحين روحي، ويا حبات قلبي، أنتم والله أبنائي وعشيرتي. وإن الأمر، كما تعلمون، جليل. ولكن الاستسلام لمشيئة ربنا ـ تعالى ـ هو سبيلنا. وقد أشارَ عليَّ المخلصون بحلٍّ نحن عليه عازمون، فغداً سوف نأتي بالقداح[1]، ويأخذ كل واحد قدحه وعليه اسمه، وعند الكعبة وأمام مقام أبينا إبراهيم سوف تضرب القداح، فمن خرجت قدحه كان قرباناً لله ربنا، ورب آبائنا إسماعيل وإبراهيم، ورب الناس أجمعين!...

ولم يَنَمْ عبد المطلب في تلك الليلة، بل ولم يغمض لأحد جفن في ذلك البيت، لأنهم جميعاً ينتظرون تقديم ذبيحهم في الغد.. حتى إذا طلع الصباح، تفرّق أبناء عبد المطلب، كما أمرهم أبوهم، يدعون أهل مكة للذهاب إلى الكعبة، وحضور الاحتفال بوفاء عبد المطلب بنذره..

---

(١) القِدح: السهم وجمعها قِداح. والقَدَح: الكأس وجمعها أقداح.

وتسارع الناس، والتفّت الجماهير حول زعماء العشائر، وفي وسطهم جلس سيد القوم عبد المطلب، مطرقاً، كأنه لا يحس بوجود أحد من حوله.. لقد جاءت مكة كلها، بعدما عرفت بالخبر، لأنه لا حدث أكبر ولا احتفال أعظم عندها من ذبح عبد المطلب لأحد أبنائه.

وأزفت الساعة، وتقدم صاحب القداح فضربها، وها هي قدح عبد الله، أصغر أبناء عبد المطلب وأحبّهم إلى قلبه، هي التي تخرج دون قداح إخوته.

وسادَ الجموع هرجٌ ومرج، فتعالت هتافات، وقد راقها الحدث، تستعجل النحر، بينما انطلقت صيحات غيرها، تغطيها وتغلب عليها، وهي تستنكر وترفض، حتى اختلط كل شيء ببعضه، وامتزج اللغطُ بالنقاش، والغضب بالرضى، فلم يعد بين الناس أحد يعرف ما تريده هذه الجموع..

وفي خضمِّ هذه الحماسة والاحتدام، وقف عبد المطلب يشير بالهدوء والصمت، فوجم الجميع، وسكنت الحركات وتطلع الناسُ إليه يرقبون ما يريد، فإذا به يتقدم من ابنه عبد الله، فيدنيه إليه، ويشده إلى حضنه، ثم يعانقه طويلًا حتى لم يعد يطيق احتمال نفسه. ويسأله أن يغفر له، وأن يسامحه، علَّ في ذلك ما يواسيه مِن بعده.. ويجثو عبد الله على ركبتيه، ممتثلًا لأمر أبيه، وقد طأطأ رأسه إلى الأرض، مستسلماً لقضاء الله وقدره.. وتحين أقسى اللحظات وأشدها إيلاماً، والتي قد تدفع الإنسان إلى التردد أو العزوف عن مثل هذا العمل الجليل الذي يقدم عليه.. ولكن عبد المطلب بإيمانه القوي، وعزيمته الصادقة، يقوى على كل ما في نفسه من وهن وعذاب، فيدور من وراء ولده ويستلّ سكينه، وهو يهمّ بأن يهوي بها على رقبة ابنه، لولا

أنَّ صوتاً جهورياً، تكاد تهتز منه جنبات البوادي، قد صرخ في الناس لكي ينتبهوا من غفلتهم، ويحولوا بين عبد المطلب وابنه، فلا يطاله بالذبح!..

وكأنما كانت تلك الصرخة ـ وقد استقرت في الآذان ـ بمثابة النذير الذي أعاد الناس إلى دنيا اليقظة، فإذا بالجموع تتحرك مندفعة نحو عبد الله وتتحلق من حوله وهي تصرخ:

لا، لا للذبح! نعم، نعم للحياة!.

ومن بين ذلك الحشد الغاضب، الذي تبدل، بين لحظة وأخرى، من محتفل بالذبح، إلى ثائر ضد التضحية بالأبناء، انبرى أحد بني مخزوم، وهو عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة ليقف أمام عبد المطلب، وجهاً لوجه وهو يقول له:

ـ إيه يا سيد قريش، أو ما تدري ما أنت فاعله؟

فقال عبد المطلب بصوت خافت:

ـ نعم والله يا أخي، وما غيري بأدرى مني بما أصنع..

قال الرجل: لا يا سيد قريش، فإنك لا تعلم عاقبة ما تقدم عليه..

قال عبد المطلب: وكيف أيها الرجل وأنا أفعل ما أفعل وفاء بنذري الذي عاهدت ربي عليه؟!..

ـ قال المخزومي: إنه نذرك أنت يا عبد المطلب، ولكن ذبح ابنك لا يطالك وحدك، بل سوف تكون عواقبه وخيمة على العرب جميعاً، ولا يعرف مداها إلا الله!..

ـ قال عبد المطلب: ومتى كان الوفاء بالنذور ينذر بالشر المستطير، ويخزي الناذرين؟!.

ـ قال المخزومي: حاشا أن أنسب ذلك إلى سيد قريش. ولكنني أخشى إن فعلت وذبحت ابنك وفاء لنذر نذرته يوماً، أن تقوم هذه العادة في العرب، ولا يزال الرجل ينذر، ويأتي بولده فيذبحه، حتى نذهب بأبنائنا إلى القبور، ونحملهم على أكتافنا إلى الفناء، دونما فائدة ترجى، إلا ما رضيت به أحلام الآباء.. وما للناس احتمال على هذا الأمر الخطير!..

ولم يدرِ عبد المطلب بما يجيب، بل ظل مطرقاً، فتابع المخزومي يقول له:

ـ ثُمَّ إن ابنك عبد الله هو ابن أختنا، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وإن كان بدافع قرابتنا حميناه، وإن كان بدافع حرصنا على أبنائنا فلن ندعك تذبح هذا الفتى حتى نعذر فيه!..

ما أصعب ما يقوله المخزومي! إنه يضيف إلى ثقل هموم هذا الأب أثقالًا جديدة، فكأنما لا تكفيه مأساته بقتل أحد أبنائه على يديه، فجاء يحمّله أعباء الناس وأوزار الأجيال القادمة.. ولكن، ومهما بدا الأمر عظيماً فهل يستطيع عبد المطلب أن يخلَّ بعهده أمام ربه؟

وبشق النفس رفع عبد المطلب صوته، ليصرخ قائلًا:

ولكن يا شيخ مخزوم كيف أُرضي ربي؟

وتلاقت الصيحات من كل جانب وهي تجمع على أمر واحد: فداء عبد الله..

فهذا يقول: أنا أفدي الذبيح بمالي، وآخر غيره يقول: أنا أقدم

إبلي قرباناً بدلًا من عبد الله، وتتعالى الأصوات: بل نقدم السيوف والرماح، وكل السلاح بين يديك يا سيد مكة لتجدَ الوسيلة التي توفي بها نذرك، وتحفظ ابنك.

ومثل رجالات قريش، وقفت النساء يزغردن، ويبدين الاستعداد للتبرع بحلاهن وأساورهنَّ، أو ينذرْنَ الإقامة على خدمة الكعبة إن أعتق عبد المطلب ابنه، وخلَّى سبيله من الموت!..

ولكن أليس للشباب رأي، وأين هُمْ في هذه المعمعة؟

إنهم هنا يتحلقون حول عبد الله، ويضربون حوله طوقاً من أجسادهم فهو رفيق الطفولة، وعشير الفتوة، ولن يدعوا أحداً يمدُّ يده إليه بسوء.. إنهم لا يحتجّون على عبد المطلب وحده، بل وعلى سادة قريش جميعاً وهم يعلنون موقفهم قائلين:

ـ أعتقوا الأبناء من جور الآباء يا شيوخ الحكمة.. وحذارِ من غفلة عقولكم، فقوموا وسيحوا في البوادي والقرى لتأتونا بالفتيا إن كنتم عاجزين عنها ههنا.. أما نحن فإننا لن نسلّم لكم عبد الله، فإن أردتم ذبحه، فاذبحونا معه، ولكن انظروا كيف يكون بقاؤكم من بعدنا!...

إنها لثورة قرشية حقاً أشعل لهيبها المخزومي، فجاءت صواباً.. وإلَّا لما كانت كل تلك الاحتجاجات العفوية تنطلق من القلوب، لتزرع الرحمة والرفق بالإنسان، بعيداً عن أية قبلية أو عصبية.

وأذهلت انتفاضةُ الشباب شيوخ قريش، وقد وجدوا فيها جديداً لم يألفوه من قبل، وأملًا للمستقبل يحمل المجد للعرب والسؤدد، فنادى في القوم مناديهم:

ـ يا أهل مكة، يا أبناء القبائل والعشائر، إن عبد المطلب منّا جميعاً حيث تعلمون، وإنه لجدير بكم أن تشفقوا على ابنه، وأن تفدوه بالغالي والنفيس. وإن السماء لتبارك فداءكم، وفيه قوة جمعكم وتضامنكم، فانصرفوا الآن، وإن غداً لناظره قريب.

وأجابته الجموع:

ـ وعلام نذهب ولمّا تُخلّوا أَسْر الذبيح بعد؟!..

فقال الرجل:

ـ يا معشر أهل مكة، إن أمرنا اليوم صعب، وحسن التدبير لا نعدمُهُ.. تعودون إلى بيوتكم، والشيوخ من ورائكم يأتمرون، ولن يعجزهم الأمر الذي يحفظ على عبد الله حياته..

وتفرَّق الناس، وبقي الشيوخ إلى جانب الكعبة، وكأنهم يستجيرون برب هذا البيت كي يلهمهم الرأي السديد، بينما كان الشباب لا يزالون يتحلّقون حول عبد الله وإخوته حتى يأتيهم الخبر اليقين عن مصيره. وبالفعل فقد ورد البشير ليعلن لهم أن القوم قد أجمعوا على الذهاب إلى عرّافة في يثرب قد ذاع صيتها في الكهانة والحنكة تدلُّهم على ما يُفتدى به الذبيح، ويَحفَظُ على الناذر وفاءَهُ..

واندفع شيوخ مكة نحو يثرب، وقد أبى عبد المطلب ـ على رغم ضعفه ـ إلَّا أن يرافقهم. وراحوا يُغِذّون السير، وكأنهم يتسابقون مع الزمن: فقد تموت العرافة، أو قد يصيبها سوءٌ، ولمّا يصلوا إليها بعد!..

وعرفت يثرب بقدوم سادة مكة، وعلى رأسهم سيد القوم عبد المطلب، فجاء كبراؤها يستقبلونه ضيفاً عزيزاً، وكبيرَ قومٍ حلَّ في

ديارهم مكرماً. . ولكنه أبى الضيافة معتذراً، وما مراده إلَّا تلك العرافة في بلدهم علَّها تشير عليه بأمر يرجوه!. ويتفهَّم القوم مصابَهُ، فيعذرونه ويجنّدون أنفسهم لخدمته. .

وجيء بالعرافة يستفتونها في قضية الوفاء بنذر عبد المطلب. . وقد علمت ما للناس في مكة وفي يثرب من اهتمام بهذا الأمر، فاستمهلت إلى الغد لتبدي ما تراه!. . .

وباتت يثرب ساهرة ليلها مع الحدث، حتى طلع الصباح، فجلست العرّافة مترنحة في مقعدها، وقد تطلعت الأنظار واشرأبّت الأعناق إليها، وتلهفت النفوس لرأيها. . وبعد أن استقرت في مقامها راحت تسأل أهل مكة: كم الدية عندكم يا قوم؟

فأجاب عبد المطلب سريعاً: عشرة من الإبل.

قالت العرافة: إذن فارجعوا إلى دياركم ثم قرّبوا صاحبكم وعشرة من الإبل واضربوا القداح، فإن خرجت عليه فزيدوها مثلها، ثم ما تزالون تزيدون حتى يرضى ربكم. .

ويقيناً إن عبد المطلب كان أكثر الناس فرحاً بما رأت العرافة فقام يجزيها بالمال، ويقول لها:

ـ ليباركْ ربّنا خطاكِ، ولْيرافقْك حسن الطالع فيما تنوين، وفيما تُبدين.

وعاد عبد المطلب ورجالات قريش إلى مكة مستبشرين. وكان سيد القوم يكاد يطير فرحاً على راحلته، إذ مهما بلغت أعداد الإبل فإنها لا تساوي قطرة دم تنزل من نحر ولده عبد الله، ولا تعدلُ قولًا بأن عبد المطلب بن هاشم حنث بعهده مع الله، ولم يوف بنذره!. .

ووصلَ عبد المطلب ورفاقه مكة، وذاعَ الخبر سريعاً في أرجائها، فاندفع أهلها يجتمعون عند الكعبة. ولكن كان الأب الملهوف أسبقهم جميعاً، فقد ساق كل ما عنده من الإبل، وأوصى الناس بأن يأتوه بكل بائع للإبل، على أن يسوقها من فوره إلى الكعبة.. وعلى مرأى من تلك الجماهير المحتشدة، ضربت القداحُ فخرجت على عبد الله. فزاد عبد المطلب عشرة منها، فخرجت أيضاً على عبد الله، وما زال صاحب القداح يضرب قداحه، وعبد المطلب يدفع بالإبل عشرة بعد عشرة حتى بلغت المئة، فخرجت عندها على الإبل.

وتعالت الهتافات والزغاريدُ فرحاً: أبشر بالفوز يا عبد المطلب، فقد رضي ربك.

ولكنَّ عبد المطلب تمسك بجدار الكعبة، وعيناه مشرئبتان إلى السماء داعياً ربه، وهو يطلب أن تضرب القداح مرة ثانية وثالثة.. وكان له ما أراد خلافاً لرأي شيوخ قريش. ويشاء الله تعالى أن تخرج القداح في المرتين الأخريين على الإبل. فجثا عبد المطلب على ركبتيه وهو ما يزال متّكئاً على جدار الكعبة، بينما تدافع الناس، ولم يعد عندهم قدرة على الاصطبار، وهم يستلّون شفرات سيوفهم وخناجرهم، وطفقوا ذبحاً في الأعناق فداءً لعزيزٍ ابنِ عزيز.. ثم تُركت المائة من الإبل لا يُصدُّ عنها شبِعٌ ولا جائعٌ من الناس، أو الوحش أو الطير..

تلك كانت مجريات الأحداث التي شهدتها مكة في مدة زمنية قصيرة، وحفظها تاريخ شبه جزيرة العرب. ولذلك فإننا نتوقف عند

ثلاثة أحداث منها، لمَا قد يكون لها من دلائلَ مستقبلية:

ـ الحدث الأول هو وقوف التسلسل التاريخي في رئاسة قريش على عبد المطلب بن هاشم واختياره بأمر غيبي ـ لا علاقة للناس به ـ ليكون هو الباحث عن بئر زمزم واكتشافها بعد طمرها بأجيالٍ طويلة، لأن هذه البئر مرصودٌ دورُها من رب السماوات والأرض منذ عهد إسماعيل عليه السلام، ليكون ماؤها هو السبيل لبناء مكة، ومصدر السقاية لأهلها، ولحجيج البيت الحرام يقصدونه من أقطار الدنيا، وبسبب إعادة حفر بئر زمزم كان نذر عبد المطلب بن هاشم أن يذبح أحد أبنائه قربة لله تعالى، معاودة لرؤيا إبراهيم عليه السلام عندما أُمِرَ أن يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، في مكة الحرام، قرباناً لله تعالى.

ـ الحدث الثاني هو خروج القداح على عبد الله[1] من دون أبناء عبد المطلب الآخرين، لأنه سيكون له شأن عظيم تبدأ أماراته في قصة الوفاء بنذر أبيه.

ـ الحدث الثالث هو ثورة قريش، بشيوخها وشبّانها ونسائها، لتفدي عبد الله من الذبح، وهو أمر مستغرب حقاً، في تلك البيئة، التي تستبدُّ بها العقلية الجاهلية، فلا تعنيها بشيء قيمة الإنسان إن قُتل أو ذُبح، لما هي عليه من غِلظة في الطباع، وقساوة في العواطف، ما لم تكن إرادة سنِيّة علويّة هي التي دفعتها إلى هذه الثورة حتى يتذكَّر من يعقل، ويتفكَّر من يتعظ فيربط بين فداء إسماعيل عليه السلام، وفداء عبد الله بعد قرون من الزمان.

وتبرز أهمية تلك الأحداث في ما جاء التاريخ يثبته بعد حينٍ

---

(١) وأمُّهُ: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة.

قصيرٍ، حيث يظل عبد الله على قيد الحياة ثم يتزوج ويموت قبل ولادة الجنين الذي أودعه في أحشاء زوجته، ليكون خلفه هذا الولد الوحيد الذي يختاره الله العزيز الحكيم ويجعله وحدَه الكفؤَ والجديرَ بحمل الرسالة السماوية الأخيرة إلى بني البشر في الأرض.

أجل، إنه ومن خلال الأحداث التي تعاقبت منذ أيام إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وكان آخرها تلك التي اتصلت بعبد الله بن عبد المطلب في مكة، ليظهر تقدير الله، وهو ـ جلَّ جلالُهُ ـ يُعِدُّ كل شيء بمقدار، فيما يقوم من العلامات المميزة التي تدل على أن الإعداد لبعث نبيٍّ مكرَّم يجب أن تسبقه أحداث عظيمة في البيئة التي سيُبعث فيها، ولتكون تلك الأحداث بذاتها مقدماتٍ للمكانة التي سوف يتبوأها هذا النبي في مقبل الأيام، تماماً كما تجلَّت بالفعل في الأحداث التي سبقت ولادة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن هي إلا بضعُ سنوات بعد حادثة الفداء، ويبلغ عبد الله بن عبد المطلب سنَّ الرابعة والعشرين فيعرض عليه أبوه أن يختارَ فتاة يتزوجها. ولكن الفتى يترك للأب أن ينتقيَ هو الفتاة التي يراها، لأنه على يقين من أن هذا الأب يمتلك من الحكمة والتجربة ما يجعله يختار أفضل الصالحات في فتيات قريشٍ لتكون زوجة له... وسرعان ما تثبت صحة الرأي عند عبد الله، إذ ما كان لأبيه عبد المطلب أن يطيل بحثاً أو سؤالًا عن فتاة لابنه، فالكل في مكة يعرف أن آمنة بنت وهب قد تربت أحسن تربية، فشبت على الصفات الحميدة والخصال الكريمة، وعلى العفّة والشرف، فضلًا عما حباها الخالق من حُسن الخُلُقِ وجمال الخِلقة، وما هي عليه من الأصالة في النسب أباً وأماً، فأبوها سيد بني زهرة بن كلاب، وأمّها من ذات الطينة والنسب، فهي

زهرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب. ولأجل تلك المزايا في آمنة ولكرم محتدها، ذهب عبد المطلب يخطبها لابنه عبد الله. وتم اللقاء بين الفتاة والشاب فأعجبها وأعجبته، وتوافقا على الزواج..

ودُعيت قبائل العرب من باديةٍ وحضرٍ لتشهد أعظم عرسٍ في ديار مكة، يوم أن تزوج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب.

ودخلت آمنة بيت الزوجية، وقد تآلفت وعريسها، وربط الحبُّ بين قلبيهما، وكأنَّما هما حبيبان منذ حداثة العمر، وخيَّمت السعادة والهناءة على حياتهما. ولكن سرعان ما هيَّأ عبد الله نفسه، ولمَّا يمضِ على زواجهما سوى شهور معدودة، وسافر في تجارة إلى بلاد الشام، سعياً وراء العمل والكسب، لكي يؤمّن لأهله سُبُلَ العيش الكريم، والحياة الفاضلة.

ارتحل عبد الله عن زوجته والأمل يحدوه بأن يرجع إلى هذه الزوجة الودود، وقد أمَّن أسباب الرفاهية لها، ولوليدها المنتظر، الذي بدأت حياتُهُ في أحشائها منذ أن تزوجها. ولكن نصيبه من السعادة مع زوجه، بل ومن هذه الدنيا كلها كان مقدوراً. فقد ذهب والآمال العريضةُ تراوده، وعادَ من تلك الرحلة والمرض يلاحقه، فلا يتيح له إكمال الطريق والوصول إلى مكة، بل يُقْعِده في يثرب. ويشتدُّ عليه مرضه وهو عند أخواله من بني النجار، ثم لا يلبث أن يفارق الحياة بعيداً عن الزوجة والأهل، ويدفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة[1].

---

(١) الشيخ صفي الرحمن، الرحيق المختوم، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص٤٤.

هكذا هي الدنيا! تعطي، ولكنها تأخذ بالمقابل. فقد تَصوَّر الناسُ أن عبد الله بن عبد المطلب قد صفت له الأيام، فجعلت له شأناً تحدثت به الركبان في البوادي والقفار، يوم فدائه، ومنحته عزَّة شهدت له بها بلاد العرب قاطبةً يوم زواجه، فكان حرياً بالناس أن يحسدوه على ما نال من الشهرة. ولكن هيهات أن يدوم مجدٌ، أو تطول سعادة وقدر الله ـ تعالى ـ مقدور على عباده!... وها هو أجلُ عبد الله يأتي، فيُختطف، مفارقاً الدنيا وهو في ريعان الشباب، وذروة الشهرة.. فتبكيه زوجهُ آمنة بحرقة القلب، ودمعة العين.. وكيف لا؟!.

فإنها إن بكته، فهي تبكي الحبيب الذي أفاض عليها من قلبه حباً قلَّ مثيله.

وإن افتقدته، فهي تفتقد الزوج اللطيف الودود الذي زادت به شرفاً وعزة.

وإن جزعت عليه، فهي تجزع على شبابه الذي ذوى وهو في مقتبل العمر، وفي عزِّ النشاط والحيوية والرونق!.

بل ورثته هذه الزوجة لمّا بلغها نعيه، بأروع المراثي، قالت:

عفا جانبُ البطحاء مِنْ ابنِ هاشمٍ ... وجاورَ لحداً خارجاً في الغمائمِ[1]
دعتْهُ المنايا دعوة فأجابَها ... وما تركت في الناس مثلَ ابنِ هاشم
عشيّةَ راحوا يحملون سريرَه ... تعاوَرَهُ[2] أصحابُهُ في التزاحمِ

(١) الغمائم: من غمَّ يعني: كرب. الغمائم: أصوات الذعر.

(٢) تعاوره أصحابه: تناوبوا على حمله.

فإنْ تكُ غالَتْهُ المنايا وريبُها فقد كان معطاءً كثيرَ التراحُمِ[1]

كبيرةً كانت المصيبة على تلك الصبية آمنة عندما نُعي إليها زوجها، فأحسَّت أن نفسها هي التي تُنعى إليها. ولكم تمنَّت في تلك الساعة لو يأتيها الموت، ويحملها إلى زوجها في مثواه، حيث لا يكون بينهما فراق أبداً.

حقاً إن فاجعة الموت التي تدهم الإنسان هي أعظم النوائب التي تحل بذويه وأحبائه!.. ولكن أليس هو الأجل المحتوم الذي فرضَهُ الله تعالى على بني آدم، فلا رادَّ له ولا عاصم منه؟ وهو لا يفرق بين شباب وشيوخ، وبين صغار وكبار، فلكل أجله، فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون؟ بلى والله، وهو الحق..

والحقيقة أنه لا إنسان في هذه الحياة إلَّا قد يصيبه مكروه أو تحل به نائبة.. ولكنه يتأسَّى ـ عادةً ـ بمشاركة الآخرين له في آلامه، وبما يواسونه به في مصابه، ويبقى العزاءَ الأهم صبرُ الإنسان على البلاء، وقناعته بأن مثله كمثل سائر الناس، فالكل سواء في الموت، وليس وحده دون غيره مَن يحلُّ به هذا المصاب العظيم... ولكن وعلى الرغم من ذلك يَظل المكلوم ـ ولزمنٍ ـ أسير الشعور بأن المأساة كبيرة والخطب فادح، ولولا رحمة الله تعالى ونعمته عليه بالصبر والسلوان، بل وبالنسيان، لعاش من يفقد عزيزاً غالياً على قلبه، كلَّ حياته في شقاءٍ، لا يذوق طعم الراحة أبداً.. ولكنه العزيز الحكيم هو الذي يقدِّر الأقدار، ويسيّر الليل والنهار، فتخف الآلام مع سيرهما، وتستمر الحياة، ويتعاقب الأحياء والأموات.

---

(١) الرحيق المختوم، المصدر السابق، عن: طبقات ابن سعد ج١، ص٦٢.

أجل، لقد أصابَ الثُكْلُ آمنةَ بنتَ وهبٍ بفقدان زوجها، ولكنَّه خلَّف في أحشائها أمانة، وما عليها إلّا صونُ هذه الأمانة، والحفاظ عليها. وقد تكون هنالك كثيرات من النساء اللواتي لا يطقن ما أطاقت آمنة، وهي ما تزال في ريعان الصبا، وفي بدء الحياة الزوجية، لو كنَّ مكانها. ولكنَّ الخبير اللطيف هو الذي لطف بها وهوّن عليها، فهي، وإن أكثرت البكاءَ واشتدت بها اللوعة، إلَّا أنها آلت على نفسها أن تقوى على المصاب، وألَّا تدعه يهلكها لأن الأمل الذي تنتظره قد يكون فيه تعويضُها مما فات في حياتها.

وتعيش آمنة وحيدة في لياليها، فتتراءى لها ذكريات الماضي القريب والبعيد. ولعلَّ الشيطانَ رأى، من خلال تذكّرها، أن يحاول النفاذ إلى نفسها بوسوسته وهو يزيّن لها بأنها امرأة مثل سائر النساء، وما تزال في مقتبل العمر، وكثير من الأشراف في ديارها بل ومن كبراء قبائل العرب ـ يطمعون، ويتمنون لو تقبل الزواج منهم.. ولكن خسىء الشيطان وقبيله، فآمنة بنت وهب ليست كغيرها من النساء. ومجرد خاطرةٍ عارضةٍ من هذا القبيل إنّما تمجّها نفسها، بل وتزدري اللحظات التي تمرُّ بها.. إنها ليست من هذا الصنف الذي تساوره الرغبات، أو تراوده فكرة الزواج من جديد، لأن اختيارها أن تكون أمّاً، وأرملة وفيّةً هي من جلائل الأمور عندها.. أجل، إنها تتطلّع إلى غدٍ يؤمن لها عهد أمومةٍ قادمة عليها. وإنها تتشبّث بحياة ملؤها الإخلاص والوفاء للزوج الراحل، فكأنها لا تزال تلتصق به، ولو أنه صار في عالم آخر!.. وأما ما بقي مفقوداً من سعادتها، فسيكون مجرد ذكرى تعيشها، قبالةَ الأمانة التي خلَّفها عبد اللّه في أحشائها..

هذه الأمانة التي سوف تمنحها القوة التي تنتصر بها على كل يأس، وترفعها إلى مقام مسؤولية الأمومة. . .

إنه لجميل مثل هذا الوفاء الذي لا يتأتَّى إلَّا لإنسان عزيز النفس، عظيم الخُلُق، فحقيق بمثل هذا الإنسان أنْ يتسامى بهذا الوفاء على الآخرين الذين لا يقيمون للمعاني السامية اعتباراً، لاسيما وأنَّ القلَّة القليلة من الناس قد بقيت لديها الأصالة التي تجعلها تدرك قيمة المعاني السامية وتعمل بوحيها، وتسير على هديها. . تماماً كما هو الحال بالنسبة لآمنة، فإن قيمتها الخلقيَّةَ ليست رائدها وحسب، بل إنها صنو نفسها، فكان خليقاً بها أن تحمل اسمها، لأنها هي الأمينة على الوفاء، وهي الأمينة على الأمانة، وهي الآمنة المطمئنة إلى قضاء الله وقدره ـ تبارك وتعالى ـ.

ثم يا سبحان الله، ما هذه الحكمة الإلهية في آمنة بنت وهب بالذات؟

فهل هناك إلهام صادقٌ هو الذي دفَعَ أباها وهباً ـ يوم أن ولدت له تلك الطفلة ـ لكي يطلق عليها اسم آمنة؟ حتماً إنه الإلهام ممَّن خلق الأرض والسماوات العلا، ومن بيده تسيير الوجود كله، وقد نفث في روع وهب بن عبد مناف ـ سيد بني زهرة ـ أن يضفي على ابنته ذلك الاسم الذي يحمل معاني الأمن والسلام، لأنه ـ جلّت عظمته ـ وفي علمه السابق، قد أعد لهذه المولودة دوراً مميزاً، وذلك بأن تحمل، وتلدَ الإنسان الذي رصدَه ـ سبحانه ـ في الأصلاب الشامخة، لحمل أكبر دعوة للأمن والسلام في دنيا الأرض. . ولسوف يؤكد المستقبل القريب أن مولود آمنة هو حامل رسالة الإسلام، رسالة الأمن والسلام للإنسان. .

إذن، لم تكن مصادفة أن يكون لابنة وهب ـ يوم أن وُلدت ـ

اسم آمنة، بل إنه أمر الله تعالى، وعنده كل شيء مكتوبٌ ومقدّر..

إنه قضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقدره الذي يجعل الأحداث كلها تسير بمقتضى النواميس الكونية التي خلقها؛ فليس للمصادفة أي أثر في السنن الإلهية، لأنَّ المصادفة تبقى مجرد تصوّر من تصورات الناس الجاهلين بحقيقة الخلق، الذين لا يعرفون ماهية ربط الأسباب بالمسببات، بل يجعلون المصادفة قانوناً خاصاً بهم، كلما قصَّر إدراكهم عن تعليل الوقائع والأحداث، وعجزوا عن إدراك ما يشاء عالمُ الغيب والشهادة.. وأياً كانت القوانين التي يبتدعها البشر أو التصورات التي يظنونها، فإنها لا تغيّر شيئاً مما قضى به الله عز وجل، والشواهد كثيرة: إذ لم يكن خلق آدم عليه السلام من صلصالٍ كالفخّار مصادفة، ولم يكن مصادفةً خلق عيسى ابن مريم عليه السلام من دون أب، وبخلاف ما يقوم عليه نظام الإنجاب بين البشر.. ولم يكن مصادفة.. أن يكون أحفادُ إسماعيل عليه السلام من بني هاشم وبني زهرة في مكة.. ولذلك لم يكن مصادفة أن يُلهم الله سبحانه وتعالى وهباً سيد بني زهرة أن يُسمي ابنته آمنة حتى تكون الأمَّ التي تلد محمد بن عبد الله سليل بني هاشم الذي سيتولى مقاليد الدعوة لأمن الناس: أمنهم في النفوس، وأمنهم في العائلة، وأمنهم في المجتمع، بل ولأمانهم في الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة..

وإنه لقدر قضاه الله سبحانه وتعالى أن تحمل آمنة في الأيام التي يسميها العرب أيام التشريق، وهي التي تقع عادة ـ في حسبانهم ـ ما بين الحادي عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، أي في الأيام التي تعقب مباشرةً يوم عيد الأضحى الذي يحجُّ فيه الناس إلى بيت الله الحرام، وفي الوقت الذي كانوا ينشرون لحوم الأضاحي في الشمس

لكي تجفَّ، وتكون مؤونة لهم، فكأن حمل آمنة ما كان ليتم إلا في وقتٍ كله إشراق ونور يسطع في أرجاء جزيرة العرب كلها، وفي مواعيد مباركة لعبادة رب العالمين.

وإنه لقدرٌ قد أحكمه الله سبحانهُ وتعالى لكي يجعل آمنة تستشعر الأمنَ بعد مصابها بزوجها، وتُحسُّ بأن ما يريحها ويسرّي عنها هو هذا الجنين المبارك الذي يتحرك في أحشائها.. فهي كليّةً ـ بخلاف كل امرأة حامل ـ لم تتأثر جسدياً بحملها، ولم تشعر بثقل أو ضيق، ولا باضطرابات عصبية مما يرافق الحوامل في العادة والمألوف.. إذ إن معظم الحوامل يتعرضن للقيء، والاضطرابات النفسية أو ما يسمى الوحام، وكلّ ذلك ينتج من التبدلات التي يحدثها الحمل في المرأة ويظهر بتقلب شهيتها للطعام والشراب.

وآثار الحمل هذه التي تتحملها المرأة في تلك المرحلة الحرجة، يجب أن يأخذها أهلها، أو من حولها، بعين الاعتبار، وأن يعملوا ما بوسعهم للترويح عنها ريثما ترتاح من الآلام التي تكابدها في سبيل الأمومة.

أما آمنة بنت وهب فلم تُحِط نفسها بالأهل والأقارب، بل آثرت أن تكون شبه وحيدة، تلازمها فقط الجارية أم أيمن التي خلفها لها زوجها الراحل. لأنها، على كل حال ـ وكما شاء الله تعالى لها ـ لم تكن بحاجة قطّ لأية رعاية أو علاج ما دامت لم تستشعر باضطرابات الحمل أو تتأثر بعوارضه، لا بل كانت تجد أن حملها يزيدها يوماً بعد يوم ثقةً واطمئناناً، وأن جنينها هو أنيسها وباعث سلواها.

بل وأكثر من ذلك، فقد كان من المرتقب، أن يوهن المصابُ الأليمُ جسمَ آمنة ويؤدي بها إلى الإجهاض. ولكنها ـ والحمد لله ـ لم

تُصب بأذى لا من قريب ولا من بعيد، فظل حملها طبيعياً، بل وزادها قوةً وصلابةً كما ظهر في واقع حياتها.

وتمرُّ بضعة شهور، ويأتي على آمنة خطبٌ جَلَلٌ آخرُ، تعيش أحداثه وظروفه مع بني قومها جميعاً، وذلك عندما أراد أحد حكام اليمن غزو مكة، وهدم الكعبة الشريفة التي أعزَّها الله، كما سيجيء بعد قليلٍ إن شاء الله تعالى..

قصة أصحاب الأخدود

تروي كتب التاريخ، وتحكي أخبار السيرة[١] أنَّ تُبانَ أسعد أبا كرب بن زيد، وهو تبّع الآخر[٢] ـ لأن تُبَّع الأول كان زيد بن عمرو الذي يرجع بنسبه إلى يعرب بن قحطان[٣] ـ كان قد قدم يثرب، يريد إهلاكها، واستئصال أهلها، وقطع نخلها.. وبالفعل فقد وقع الاقتتال بينه وبين قبائلها من الأوس والخزرج. وبينا تُبَّعٌ على ذلك العزم من إخضاع يثرب، ذهب إليه حَبران من بني قريظة اليهود ناصحين له بعدم متابعة القتال، لأنه قد لا يؤمن عليه عاجلة العقوبة.

ودهش الملك متسائلًا عن سرّ ذلك، فقالا له:

«هي مهاجِرُ نبي يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون دارَه وقرارَه».

وكأن شيئاً خفياً أقنع ملك اليمن وهو يستمع إلى الحبرين، فأمر بوقف القتال من فوره، ثم أدناهما منه ليتزوَّد ممّا عندهما من علم

---

(١) المسعودي في مروج الذهب.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٢٠.

(٣) المصدر السابق، ص٢٢.

ومعرفة؛ ويبدو أنَّ تأثيرهما عليه كان قوياً، فتبعهما على دينهما، وحملهما معه بعد انصرافه عن يثرب، عائداً إلى اليمن. حتى إذا كان بين عُسْفان[١] وأمَجَ، جاءه جماعة من الهذليين يغرونه ببيت مكة لما فيه من الذهب والفضة والمعادن الثمينة (ويقال إن غاية الهذليين كانت ترمي إلى إهلاكه لما يعرفون ما للبيت من حرمة عند الله تعالى). ولكنَّ الحبرَيْن أشارا عليه بعدم التعرض لكعبة مكة لئلا يحصل له ما لا تحمد عقباه لما لهذا البيت من حرمة وقدسية تاريخية جعلت العرب تحج إليه لأنه البيت الذي بناه إبراهيم. ويشاءُ الله أن يبدّل ذلك الملك رأيه، فذهب إلى الكعبة وطاف حولها، ولم يكتفِ بذلك بل عهد قبل مغادرته مكة، إلى «جرهم» بتطهير البيت وكسوته: و«ألَّا يَقربوه بدمٍ أو ميتة ولا مثلاةٍ[٢]، وجعل له باباً ومفتاحاً»[٣].

وتعاقب من بعده على حكم اليمن عدة ملوك حتى آل الأمر إلى ذي نواس بن تُبان أسعد، فملّكوه عليهم واجتمعت عليه حِمْير وقبائل العرب (ودُعي بذي نواس لأنه كان له غديرتان من الشعر تنوسان أي تتحركان وتضطربان).

وكان ذو نواس ميالًا إلى دين موسى عليه السلام، راغباً عن الوثنية التي تورط فيها قومه. وقد أخذ هذا الدين عن اليهود الذين هاجروا إلى اليمن وأقاموا في ربوعها. وذو نواس الحِمْيري هذا، هو ـ فيما يذكر المؤرخون ـ صاحب الأخدود[٤].

---

(١) عسفان: واد على طريق مكة من يثرب.

(٢) المثلاة: خرقة الحيض.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٢٥.

(٤) حياة محمد، المصدر السابق، ص٧٤.

ومفاد قصة أصحاب الأخدود أن بني يهود قد وجدوا في هذا الملك الحميري ـ ذي نواس ـ ما يؤمن لهم المآرب والمطامع التي يريدونها. فراحوا يغدقون عليه الهدايا النفيسة، ويحيطونه بضروب من التملق والمداهنة إلى أن أمكنهم السيطرة عليه وتسييره وفق ما يشاؤون.. ومن المعروف في حياة اليهود أنهم لا ينفقون درهماً واحداً إلَّا إذا رأوا فيه تجارة رابحة، ولذلك، وبالدهاء والخبث أمكن لأحبارهم إقناع ذي نواس أن يدعو الناس إلى اعتناق اليهودية ولو بالقوة والبطش، وفي ظنهم أن ذلك يجعل لهم الحكم والسلطان في أنحاء البلاد التي يخضعها الملك الحميري لسيطرته، فيجنون من جرائه، بالإضافة إلى السلطة، الثروات الوافرة. وانصاع ذو نواس وأرسَلَ دُعاته إلى مختلف بقاع اليمن، وشبه جزيرة العرب حتى وصلت إلى أهل نجران ـ وهي بأوسط أرض العرب في ذلك الزمان ـ وكان هؤلاء قد اعتنقوا النصرانية على يد رجل يدعى قَيْمِيون، (جاء مهاجراً من بلاد الروم حتى استقرَّ بنجران)؛ ولم يقبل نصارى نجران بالتخلي عن دين السيد المسيح عليه السلام، الذي اعتنقوه عقيدة يؤمنون بها. وعادَ رُسُلُ ذي نواس خاوي الوفاض فثارت ثائرة أحبار اليهود، لأن مثل هذا الخبر، إن ذاع بين الناس، فلا بدَّ من أن يجعل جهودَهم تذهب أدراج الرياح، وتذهب جميع الخطط التي وضعوها لتحقيق مطامعهم. فراحوا يوغرون صدر ملكهم بالحقد على أهل نجران، ويدفعونه للانتقام منهم. وكان لهم ما أرادوا، إذ سرعان ما سار ذو نواس بجنوده إلى أهل نجران، يدعوهم إلى اليهودية، وإلَّا فالقتل.. وقاموا يشهرون القتال في وجهه، إلا أنهم غلبوا على أمرهم، فقُتل من قُتل، ووقع في الأسر من وقع. وعلى خلاف ما يفعله قادة الحروب ـ

عادة ـ في معاملة الأسرى، وعلى عكس ما تقره الشرائع السماوية والقوانين الوضعية من الرفق بالأسير، فإن الملك الحميري أبى على أولئك النصارى إلَّا التخلي عن دينهم والدخول في دينه، أو إحراقهم بالنار.

ولكنْ أنَّى للنيران أن تثني ذوي الإيمان الصادق عن إيمانهم، وأنَّى للظلم مهما بلغت قسوته، أن يجعل الإنسان يتنازل عن عقيدةٍ قد ترسَّخت في نفسه، فكيف بالعقيدة الدينية السليمة.. وهذا ما يجهله ذو نواس، إذ من أين له أن يعلم، وهو الذي تسيِّره الأهواء اليهودية والمطامع الشهوانية، ويطغى عليه الجهل، بأن تاريخ أتباع الديانات السماوية، وتاريخ النصرانية بالذات، ولاسيما في أيام انتشارها الأولى، كان حافلًا بالمآسي من بطش الحكام وظلمهم، الذين ارتكبوا أفظع الجرائم وأعتاها بحق هؤلاء الأتباع، دون أن يستطيعوا تغيير ما في نفوسهم... بل ولم تكن جرائم القتل والتعذيب إلَّا لتزيدهم إيماناً وثباتاً..

وسوف يأتي تاريخ الإسلام فيما بعد، ليكون شاهداً ـ بدوره ـ على الأحقاد التي ملأت نفوس قريش والمشركين على هذا الدين، وسجلًّا حافلًا بالعداوة التي انصبّت على محمد ﷺ وأتباعه ألواناً من الظلم والعذاب والأذى، من دون أن يغيّر ذلك شيئاً من الواقع.. فقد ظل المسلمون على إيمانهم بدينهم وبصدق نبيهم محمد ﷺ حتى قُتل منهم من قتل، وهُجِّر من بلده من هجِّر، وشرِّد من دياره وممتلكاته من شرِّد.

هذه هي حال أهل الحق مع أهل الباطل: فإما الشهادة وهي الفوز برضوان الله تعالى وجنّته، وإما النصر على أعداء الله وأعداء دين الله (سبحانه وتعالى) وهو عزُّ الدنيا.

وهذا ما حَصَلَ مع أهل نجران، فإنهم لمّا تشبثوا بإيمانهم، وعقيدتهم النصرانية، حفر لهم ذو نواس أخدوداً ـ أي حفرة مستطيلة في الأرض ـ وأوقد فيه النار ثم ألقى بهم في أتونه، حتى قيل إن عدد القتلى، والذين حُرِّقوا بالنار بلغ عشرين ألفاً.

لقد كان نصارى نجران شهداء الدين، وشهداءَ الحق. وقد نزلت الآيات القرآنية تمجّد شهادتهم، وتمنحهم لقب «المؤمنين»، وهو أسمى وسام يشرّف به الإنسان المتديّن، فقال الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

ولقد أمكن لأحد أهل نجران، واسمه دوس ذو ثعلبان، أن يفرَّ خفية عن أعين أولئك الظالمين، وقدِّر له أن ينجو حتى أتى قيصر الروم جوستنيان ـ وهو على دين النصرانية ـ فأخبره بالحدث الرهيب الذي حلَّ بنصارى نجران. ولما كانت بلاد الروم بعيدة عن اليمن، فقد كتب القيصر إلى النجاشي عاهل الحبشة يحثه على قتال ملك اليمن، وإزاحته عن الحكم، انتقاماً لأبناء دينهما النصراني.

وجهَّز النجاشي جيشاً من سبعين ألف رجل، وجعل على رأسهم رجلًا اسمه أرياط، الذي اتخذ له قادةً أشداءَ كان أقواهم بأساً وشكيمة أبرهة الحبشي[2]، ونزل الجيش بساحل اليمن، ثم التقى بذي

---

(١) سورة البروج، الآيات: ٤ ـ ٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٤٣.

نواس ومن معه من قبائل اليمن، ودارت الدائرة على ذي نواس فقُتل، ودخل أرياطُ اليمنَ فحكمها.

وقام أرياط حاكماً على اليمن عدة سنين حتى نازعَهُ أبرهة الحبشي، إلَّا أنَّه خوفاً من تفرّق الحبشة وهلاكهم في اليمن، فقد أرسل إلى أرياطَ أن يبارزه وجهاً لوجه، فأيُّهما أصابَ صاحبَهُ انصرف إليه جندُهُ. وأثناء المبارزة أرسل أرياط بحربةٍ حادةٍ علَّها تقتل عدوّه، إلَّا أنها أصابت وجه أبرهة فشرمته، ولذلك سمّي أبرهة الأشرم.. وكان من ورائه غلام له يدعى عَتْوَدة، سرعان ما عاجل أرياطَ بطعنةٍ من الخلف فقتله، وبذلك تحقق النصر لأبرهة، فاجتمع عليه جيش الحبشة في اليمن.

وأمكن لأبرهة الأشرم أن يمالىء النجاشي ملك الحبشة، حتى رضيَ عنه، وثبّته على حكم اليمن.

البحث الثالث

مولد محمد ﷺ وطفولته

عام الفيل

كان أبرهةُ الأشرم صاحبَ مطامع كبيرة، فزينت له نفسُهُ أن يبني كنيسةً في اليمن تضاهي البيتَ الحرام في مكة الذي تحجُّ إليه العربُ، ليس من اليمن وحدها، بل ومن شبه الجزيرة كلها، فيتحقق له بذلك مأربان: جعلُ البيت الذي يبنيه كعبةً يحجُّ إليها الناس، وصرفُ مكانة مكة التجارية إلى اليمن، فتترامى شهرته، وتزداد أمواله وثرواته.

وبالفعل فقد بنى أبرهة كنيسة القُلَيْس بصنعاء. وقد سميت «القُلَيْس» لارتفاع بنائها وعلوّها. وكان قد جمع لها أمهر البنائين، وأحذق الصناعيين، وأقدر الفنانين في زمانهِ، وجلب لها فاخر الأثاث حتى استوت صرحاً شامخاً لم يُرَ مثلُها في أرض العرب. فكتب إلى النجاشي: «إني قد بنيتُ لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنَ مثلُها لملك كان قبلك، ولست بمُنْتَهٍ حتى أصرف إليها حجَّ العرب»[(١)].

وأرسل أبرهةُ دعاتَهُ يطوفون في أرجاء بلاد العرب، يحثّون الناس على الحجِّ إلى القُلَيْس، البيت العظيم الذي بناه سيدُهُم، ليفاخر

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٤٤.

به جميع البيوتِ غيرَه. . . ولكنَّ أحداً من العرب، لا في اليمن ولا في نجد أو الحجاز، استجاب لدعوة ملك اليمن، بل على العكس فقد خطّأوه في الرأي، لأنهم لا يعتبرون حجَّهم مقبولًا إلَّا في كعبة مكة، في ذلك البيت العتيق الذي توارثوا حرمتَهُ وتقديسَهُ عبر الأزمان والأجيال. . وهذا أمر محقَّقٌ لأن بيتاً حراماً بناه النبيّون بأمر من رب العالمين، سيظل على مدى الدهر البيت الذي يشدُّ الناس إليه، فيأتونه حاجّين، مُلبِّين دعوة خالقهم العظيم. وكان من الطبيعي أن تظل نفوس العرب مشدودة إلى الكعبة الشريفة في مكة، وقد أكرمَها الله سبحانه وتعالى بأن جعلها بيتاً يعبدُ فيه الناسُ إلهاً واحداً أحداً لا شريك له، وزادها تشريفاً بدعاء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لتكون بيته المحرَّم الذي يقيم فيه الناسُ الصلاة متعبّدين للعلي العظيم، وليكون هذا البيت العتيق، وبهاتين الميزتين السنيّتين الكعبةَ التي تهوي إليها أفئدة الناس فيأتونها من كل فجٍّ عميق. وها هو دعاء إبراهيم عليه السلام ما يزال صداه يتردَّد، وسيبقى يتردَّد عبر الأثير، ويدوي في آفاق السماء إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، كما ورد في التنزيل الحكيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(١).

فإذا كان هذا شأن الكعبة في مكة المكرمة، التي أعزَّها ربُّ السماوات والأرض فأنَّى لبيت بناه أبرهة الأشرم، بل أنَّى لصروح يبنيها سائر البشر، مهما كانت كبيرة في المساحة، أو مزدانة بالذهب

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

والفضة، أو مجمّلةً بالزينة والنقوش والأثاث، أن تكونَ كبيتٍ هو لله سبحانه وتعالى، وقد جعله ليكون محجاً للمؤمنين، ومثوبةً لطالبي الرحمة والغفران من ربهم العظيم.

فتلك بيوت للناس، وهذا بيت لله..

ويا ليت أبرهة أقام بيتَهُ خالصاً لله، ولعبادة الله.. ولكنَّه أرادَه بيتاً لمجده الدنيوي، بل ومناوئاً لبيتٍ هو لله. فكان من عجيب أمره أن يفعل ذلك، وهو على دين النصرانية، وكان من مستغرب أمره ألَّا يعلم أن البيت العتيق في مكة، هو البيت الحرام، وأنه في البلد الحرام، وأنَّهُ محرَّمٌ على من يدخله أن يَقتل، أو يُهرق دماً، أو يثير أيَّ شيء يُعكِّر أمنه، أو يخدش قُدسَهُ.

وإذا كان التاريخ يشهد على تفاهة أبرهة الأشرم ويسفِّه أحلامَهُ، فإن الواقع اليوم يظهر لنا من أمثاله كثيرين، ويدين أعمالهم عندما يعمدون إلى إقامة البيوت الكبيرة باسم الدين، بينما هم ـ في حقيقة الأمر ـ لا يتوخّون إلَّا شهرة أو مجداً دنيوياً. أما النية الخالصة لله تعالى، فلا يعلمها إلَّا هو سبحانه.. وإنه لحقٌّ على المؤمنين، وواجب مقدس أن يقيموا المعابد الدينية، شرط أن تكون قربة لله تعالى، ونوال رضاه. أما أن تبنى أماكن العبادة من أجل السمعة والشهرة، ومن أجل وضع اللوحات الرخامية لكتابة اسم الباني والإشادة به، فهذا يقدّره الله ربُّ العالمين، وهو اللطيف الخبير، وهو أعلم بما في صدور العالمين..

وفشل أبرهة في تحقيق مآربه، إذ لم يحجّ العرب إلى «القليس» بل ولقد غضبوا وحنقوا لإقامتها. كما عبَّر عن هذا الغضب رجل من

النسأة[1] أحد بني فَقيم من كنانة، إذ استبدَّ به الطيش فذهب وأحدث في القليس، ولطَّخ أبوابها ومداخلها بالعذرة!..

وعلم أبرهة بالأمر، فاهتاج غيظه وغلى الدم في عروقه، وحلَفَ ليسيرنَّ إلى كعبة العرب في مكة ويهدمها، فلا يبقى لها أثر، وتنساها العرب وغيرهم... فركب في جيش لَجِب[2] ـ عدده ستون ألف جندي[3]، على ظهر فيل ضخم، كان يضعه في مقدمة الجيش ويعوّل عليه في هدم التحصينات واختراق الحواجز حتى غلبت شهرة هذا الفيل على شهرة صاحبه أبرهة.. وتناهت أخبار ذلك الغازي إلى بلاد نجد والحجاز فخاف الناس على مصيرهم، ومصير كعبتهم، مما جعل بعضهم يهبُّ لملاقاته ومحاربته. وكان أول من استنفر قومَهُ ومن استجاب له من العرب، أحد أشراف اليمن واسمه ذو نفر، ولكنَّ مقاومته لم تجدِ نفعاً، إذ سرعان ما غلبَهُ أبرهة على أمره، وأخذه أسيراً.. فقام له نُفَيْل بن حبيب الخثعمي، سيد قبيلتي خثعَمْ: شهران وناهس، وتبعه بعضُ القبائل فهزمهم أيضاً، وأخذ نُفيل بن حبيب أسيراً وجعله دليلًا له في أرض العرب. فما إن بلغ الطائف وأراد هدم صنمها اللات، وهو يحسبه الكعبة، حتى خرج إليه أهلها في سيدهم مسعود بن ثقيف يقدمون له الهدايا لاسترضائه، وصرفه عن «اللات»

---

(١) النسأة هم الذين كانوا ينسئون الشهور في الجاهلية أي يؤجّلونها أو يخلطونها، وكان آخرهم أبو تمامة جنادة بن عوف يحل الأشهر الحرم: رجباً وذا القعدة، وذا الحجة والمحرَّم، مكان الأشهر الحلّ. وفيها نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ﴾.

(٢) لجِب: ذو جلبة وكثرة.

(٣) الرحيق المختوم، المصدر السابق، ص٤٢.

لأنها ليست البيت الذي يقصد بمكة، وتدليلًا على صدقهم فقد أعطوه رجلًا اسمه أبو رغال ليكون دليله إلى كعبة مكة، ولكن، ما إن وصل أبرهة إلى المحلة التي تدعى «المغمَّس» على مقربة من مكة ونزل ليستريح فيها هو وجيشه حتى مات رجل الطائف أبو رغال فرجمت قبره العرب[1].

وبعث أبرهةُ جنودَهُ فاقتادوا المواشي من مراعيها، وفيها مئتا بعير لعبد المطلب بن هاشم، سيد قريش وكبيرها..

واجتمعت بطون قريش وكنانة وهذيل، وغيرها من أهل الحرم، ليتدبروا أمرهم؛ فرأى الشباب أن يقاتلوا الغازي الدخيل، ولكنَّ العقلاء والشيوخ رفضوا هذا الأمر لأنه لا طاقةَ لهم على مقاومة ذلك الجيش الكبير، فباتوا ينتظرون مترقبين... وكان أبرهة قد بعث أحد رجاله ويقال له حناطة الحِمْيري ليأتيَ سيِّدَ مكة، عبدَ المطّلب ويعلمه بأنَّ مَلِكه لم يأت لحربهم وقتالهم، وإنما جاء لهدم الكعبة، فإن امتنعوا عن مقاومته فلن يتعرض لهم بسوء. واستدعى عبدُ المطّلب من فوره بعضاً من أبنائه، وشيوخَ القبائل، ثم ذهبوا إلى ملك اليمن لمفاوضته؛ فلما دخلوا عليه، ورأى ما على سيد القوم من مهابةٍ وجلال، أعظمه وأكبره، ثم أجلسه إلى جانبه، وأمَرَ بترجمانٍ لينقل الحديث بين الرجلين.. وطال الجدال والنقاش ولكن بهدوء وروية، مما جعل عبد المطلب يرغب بنزول الملك عليه ضيفاً مكرّماً، ثم ينصرف وجيشه عن بلده الآمن، إلَّا أن أبرهة غضب لسماع أمر انصرافه عن مكة، مما اضطر عبد المطلب لأن يسأله أن يردَّ عليه وعلى بني قومه

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٤٩.

الإبلَ والمواشيَ التي استاقها جنوده.. عندها التفت أبرهة إلى الترجمان وقال له:

ـ قل لهذا الرجل بأنه أعجبني حين رأيته وزهدت فيه حين كلّمني. أيطلب مني مواشيَ، ويترك بيتاً هو دينه ودين آبائه وقد جئت لهدمه؟!.

وأجاب عبد المطلب بما لم يخطر على بال أبرهة الأشرم بقوله:

ـ يا هذا! قل لسيدك: «إني أنا ربُّ الإبل وعليّ واجبُ حمايتها، وإنّ للبيت ربَّاً يحميهِ ويمنعه».

فقال أبرهة: ما كان هذا البيت ليمتنع منّي.

قال عبد المطلب: أنت وذاك..

ولا ندري ما الذي دار من النقاش بين عبد المطلب وأبرهة بعدها.. ولكن ما يمكن الجزمُ به هو أن عبد المطلب أراد أن يبرِّىء ذمته أمام ربه في حرصه على البيت الحرام، ودفاعه عنه، فعرض على ملك اليمن أن ينزل ضيفاً عزيزاً عليه، وأن يعطيه من أموال تهامة ومكة ما يريد. ولكنَّ أبرهة أبى، وأصرَّ على عناده بهدم الكعبة؛ فحينئذٍ، ولمَّا لم يعد من جدوى في متابعة التفاوض[1]، خرج عبد المطلب مع جماعته وهو يبيّن ما هم عليه من العزة والكرامة، فأنشد بيتين من الشعر:

لنا نفوسٌ لِنَيْلِ المجدِ عاشقةٌ فإنْ تسلَّتْ أَسَلْناها على الإبِلِ
لا ينزِلُ المجدُ إلَّا في منازِلِنا كالنَّومِ ليس له مأْوىً سِوَى المُقَلِ

ثم انطلق سيّد قريش وجماعته، ليخبروا أهل مكة بما جرى

(١) لا جدوى عن: لا غنى عن. لا جدوى في: لا نفع في.

معهم. ونوديَ في الناس بالخروج إلى شعاب مكة، والاختباء في جبالها، تحرّزاً من بطش ذلك الجيش. بينما ذهب عبد المطلب يستعين برب البيت، فوقف يمسك بحلقتي باب الكعبة، وهو يدعو بقلب ملهوف، ويبتهل إلى الله أن يحمي بيته، وأهل مكة، ويهزم ذاك الملك الطاغية.

وكان مما قاله عبد المطلب وهو يتشبَّثُ، ويشدُّ بالحلقتين، مستغيثاً، مستجيراً:

لاهُمَّ[1] إن العبدَ يمنَعُ رحْلَهُ فامنعْ حَلالَكْ[2]
لا يغلِبَنَّ صليبُهُمُ ومِحالُهُم عدْواً مِحالَكْ[3]
لم أستمِعْ يوماً بأرجَسَ منهُمُ يَبغي قِتالَكْ
جَرُّوا جموعَ بلادِهِمْ والفيلَ كي يَسْبُوا عيالَكْ
قَصَدُوا حِماكَ بكَيْدِهِمْ جَهْلًا وما رَقَبُوا جَلالَكْ
إنْ كنتَ تاركَهُمْ وكعبَتَنا فَأَمْرٌ ما بَدا لكْ

وقبع أهل مكة في الشعاب ومشاعر الخوف والقلق تسيطر عليهم.. فهم وإن كانوا أهل قتال، إلَّا أنَّه لا قِبَلَ لهم بمواجهة هذا الجيش، الذي إن قاوموه، فقد لا يترك حجراً ولا مدراً، إلَّا هدمه، ولا يدع شيخاً ولا ولداً إلَّا قتله..

وحان الوقت، وما زال أبرهة الأشرم مصرّاً على عناده وضلاله،

---

(١) لاهُمَّ: أَلَّلهُمَّ (يا أللَّهُ).

(٢) حلالك: أي بيتك وقومك.

(٣) عدْواً: تجاوز الحدّ في الظلم؛ المحال: القوة والشدّة.

فدعا إليه بفرسه، ثم أمَرَ أن يسوقوا الفيل إلى مقدمةِ الجند ـ على نحو ما يفعل في حروبه، لينزلوا إلى الكعبة فيهدموها.. ولكنَّ المفاجأة التي لم تكن بالحسبان، عندما بلغ وادي محسر بين المزدلفة ومنى، وُقوفُ الفيل الكبير مسمَّراً في مكانه، وكأنه يعلن لهم أنه لا يريد التقدم ولو خطوةً واحدة بالاتجاه الذي يدفعونه إليه.. ولم يقف أمر الفيل عند ذلك الحدّ، بل برك على الأرض لا يرغب بحراك، مما جعل أبرهة يصيح في جنده ليعالجوا أمره بالسياط، فما كان من هذا الحيوان الأعجم، وقد ألهبَ جسمَهُ ضربُهم الشديد، إلَّا أن وقف على قوائمه، ثم استدار بجسمه إلى الوراء، ليسارع في الهرب بالاتجاه المعاكس للكعبة ـ أعزها الله ـ، وكانوا كلما وجَّهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك.. وبينا أبرهة وجنوده على تلك الحالة، وقد أذهلهم هذا الفيل، إذا بالمفاجأة الأدهى التي لم يكونوا ليتوقَّعوها، أو ليتوقعها أحدٌ من العالمين ـ تحلّ وبالًا عليهم: ـ عندما رأوا جماعات من الطيور، لا يدرون من أين أتت وكيف، تحلّق فوقهم بشكل منتظم، وكأنها السحاب المتقطع، حتى ملأت الجو، وهي ترميهم بحجارة صغيرة مثل العدس أو الحمّص، تنزل مثل السهام، فلا يصل حجر منها إلى رأس جندي أو بدنه إلَّا وخرقه، وجعل القيْح يسيل منه على الفور، ثم لا يلبث لحمه أن يأخذ بالتملّع، كما يتمزق الثوب البالي لمجرد اللمس..

لقد جاءت تلك الطيور تحمل الموت الزؤام، فراح جنود الضلال يتساقطون أفراداً وجماعات، دون أن تفلح محاولاتهم للهرب، لا بل كانوا كلما أمعنوا في الهربِ أشتاتاً لاحقهم البلاء

المبين، فلا يذر أحداً من غير أن يفتك به، ويحيله كتلة من اللحم المهترىء على الرمضاء..

وقد تحامل أبرهة ـ من شدة كيده ـ على آلامه، والأمل يحدوه بأن يعجّل بالرجوع على جواده ليبلغ صنعاء، حتى يجد من يداويه، وينجيه من هذا المصاب الجسيم الذي حلَّ به.. ولكن من أين له ذلك، وربُّ السماء فوقه، يرقبه من عليائه، فيأمر ملك الموت أن يسوق ذلك الكافرَ، وهو على عذابه حتى يصل إلى دياره، فيزهق نَفسَهُ الخبيثة مثل خبث لحمه الذي تمزَّق على جسده، ثم ليهوي صريعاً مخذولًا.. فإلى جهنم وبئس المصير..

تلك كانت قصة أبرهة الحبشي، عندما جاء يريد هدم البيت الحرام، وما حلَّ به وبجنوده من هلاك بحجارة من سجّيل، جعلَهمُ الله تعالى بها كعصف مأكول.. وهي القصة التي أرادَ البعض أن يؤوّل الخارقة الكبيرة التي حصلت فيها: على أن الطيور قد حملت معها مرض الجدري أو الحصبة، أو أن الحجارة من الطين كانت ملوثة بميكروبات قاتلة.. بينما في الحقيقة، لم تكن الطيرُ الأبابيل إلَّا جنداً من جنود الله تعالى، وآيةً من آياته العظمى، وأن الحجارة من سجّيل ما هي إلَّا حجارة عادية صغيرة، قد أودع فيها العلي القدير المادة الخارقة التي لا يستطيع العقل البشري أن يدرك كنهها، والتي تفتك من فورها بالجسم على النحو الذي يمزّقه أشلاءً ويؤدّي به حتماً إلى الفناء.. فلم يكن الحدث عادياً، كي تأتي معالجته عادية ووفقاً للسنن المألوفة التي يراها الناس كل يوم في حياتهم، بل كان حادثاً غير عادي، لأنه يُراد به هدم بيت الله تعالى، فكان لا بدَّ من معالجته بأسلوب غير عادي، وبسنّةٍ غير عادية، تخرج على مألوف البشر،

فكانت تلك الطير الأبابيل وما تحمل من حجارة من سجّيل، لتبيد الجيش الذي يريد هدم الكعبة ـ أعزَّها الله تعالى.

أجل، هكذا كان الحدث الذي أرادهُ الله تعالى برهاناً دامغاً لكي يُبقي بيته حرماً آمناً، وملاذاً للناس يقصدونه على الدوام للتخلص من أمراضهم النفسية ومن خطاياهم الدنيوية، شرط التوبة الصادقة، والنية الخالصة، وطلب المغفرة، والرضى والقبول من الباري عزَّ وجلَّ.

والقرآن الكريم، كتابُ الله العزيز، يحفظ حادث الفيل، في آياته البيّناتِ، ليحذّر الطغاة في كل زمان من أن يعتدوا على حرمات الله، وإلا فإن مصيرهم سيكون كمصير أصحاب الفيل، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

وقد شهد ذلك الحادثَ أهلُ مكة بأعينهم، وعلمته العربُ، وغير العرب. وقد انقضى بسرعة عجيبة، فنزل أهل مكة من الشعاب والجبال مطمئنين إلى حفظ الله ربهم لحياتهم، ولكعبتهم. وذهب عبد المطلب والشيوخ والعقلاء يطوفون حول البيت، وهم يعظِّمونه، ويحمدون ربَّهُ الذي حماه، وحماهم من كيد الطغاة الباغين.

وقد عظّمت العرب قريشاً بعد حادث أصحاب الفيل وقالوا: «هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم»[2].

---

(١) سورة الفيل، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٥٩.

ولقد كان من شهرة عام الفيل، الذي وقع سنة ٥٧٠ ميلادية، أن أرَّخ أهلُ مكة به، إلَّا أن ذلك كان لمدة من الزمن لا تتجاوز بضعَ عشرات من السنين، ليعودوا ويؤرخوا، بعد الهجرة النبوية، بتاريخ جديد ناصع يكتب المجد على صفحات الزمان بأحرف من نور الإيمان. . ومن شواهد عام الفيل التي تحمل دلالة خاصة ومميزة أن آمنة بنت وهب قد عايشت ذلك الحادث بكل مروِّعاته وروائعه، فهربت إلى الشعاب، وباتت في العراء، وأحسَّت بقدرة رب الكعبة الشريفة، وهو يدفع عنها، وعن أهل مكة جميعاً البلاء، فأوت إلى رحمة الله تعالى تنتظر الفرج والخلاص، وجنينها في الأحشاء يزيدها اطمئناناً، ووثوقاً بانتظاره عندما يطل على هذه الدنيا، وقد أشرفت مدة حمْلها على النهاية.

مولد محمد بن عبد الله ﷺ

اختلفت الروايات في تاريخ مولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فمنهم من يرى أن مولده كان يوم السابع عشر من شهر ربيع الأول عام الفيل (٥٧٠م). . ولكن المشهور عند أغلبية المسلمين أنه ولد يوم الإثنين الواقع فيه الثاني عشر من شهر ربيع الأول في عام الفيل (٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية). ففي ذلك اليوم المبارك أحست آمنة بنت وهب أنها على وشك الولادة، فقامت تحضِّر نفسها للأمل الموعود، ثم أرسلت جاريتها بركة (وتكنَّى أم أيمن) إلى دارة الشفاء، وهي لأم عبد الرحمن بن عوف، أشهر قابلات مكة يومئذٍ، كي تكون بجانبها ساعة الوضع. وجاءت أم عبد الرحمن على جناح السرعة لتجد آمنة على غير المألوف من عادة النساء في مثل تلك

الحالة، حيث تكون فترة الولادة أدقَّ وأحرج الفترات على الإطلاق في حياة الحامل، إذ إنها تعيش في صراع بين الموت والحياة لشدة الآلام التي تعاني. وكثيرات من النساء يُضْمِرْن في تلك اللحظات أنهن لن يحملن بعدُ أبداً، ولكنَّها الأمومة التي تنسيهنَّ كل كربٍ وشدة، فيعُدْنَ إلى الوظيفة التي أعدَّهنَّ الخالق العظيم لها، ويعاودن الحمل والإنجاب..

لقد دخلت أم عبد الرحمن على آمنة راكضة لاهثةً، فإذا بها أمام سيدة تجلس على فراشها هادئة، مستبشرة، يغطي وجهها الحبور، وتكتنف محيّاها الطمأنينة، فترمق أمَّ أيمن بنظرةِ غضبٍ ودهشةٍ، وهي تظن بها شتى الظنون، لولا أن أدركت آمنة ما يزعجها، فتداركت الموقفَ وهي تقول لها: أنا من أرسل في طلبك يا أم عبد الرحمن، وليس في الأمر مزاح أو مداعبة.. فيتضح الموقف لأمّ عبد الرحمن ويتأكد لها أنَّ آمنة على وشك الولادة، فتجلس بقربها. ولكن الدهشة ما تزال تأخذها، لأنها أمام امرأة لا يظهر عليها أثرٌ يدلُّ على أنها في ساعة الوضع..

وتسأل أم عبد الرحمن عن أمنية آمنة وهل ترغب بوليدٍ ذكرٍ أو أنثى؟ فتقول لها بلهجة مطمئنة واثقة: بل أراه في أحضاني ابناً حبيباً، سويَّ الخلق، كاملَ الوصف، بفضل الخالق العظيم يا خالة!.. ولا يدوم الحديث طويلًا بين السيدتين، إذ سرعان ما ترى أم عبد الرحمن أن أنظار آمنة قد تعلقت في السماء وهي تردّد: أعنِّي يا ألله، أعنِّي يا ربّاه..

ويخرج المولود مباركاً، نقيّاً، نظيفاً.. بلا ألم من الأم، ولا دم

نفاس.. وبلا بكاءٍ منه ولا صراخ، بل وكان مولده المبارك على غير المألوف من مواليد بني البشر، لأنه أطلَّ على هذه الحياة وقد تلقَّى الأرض بمساجده السبعة وسبّابته إلى السماء مقرّاً بالعهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم جميعاً وهم في عالم الذرّ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[1]، وموقناً بالميثاق الذي أخذه الله تعالى على النبيين وهم في صلب آدم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[2].

نعم لقد وُلِد محمد بن عبد الله ﷺ وفي ذاته الصلة التي تربط العبد بربه برابطة العروة الوثقى التي لا انفصام لها، وفي نفسه التعبّدُ والخشوع للملك القدوس العزيز الحكيم، تماماً كما هو الشأن مع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وسائر النبيين والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) من لدن آدم وحتى خاتم النبيين محمد بن عبد اللّه ﷺ.

أجل، هكذا خرج الوليد «محمد» إلى الدنيا، فكان من غير الطبيعي ألَّا تؤخذ مولّدته أم عبد الرحمن بهذا المشهد الفريد، الذي لم ترَ مثيلًا له في سابق عهدها من الولادات التي أجرتها، إذ وحدَه هذا

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧.

الطفل، ابن آمنة بنت وهب، مَن أطلَّ على الدنيا متلقياً الأرض بالسجود والخشوع. . ويزيد في رونق رؤيته على تلك الحالة هذا النور الذي يرافق مولده، وهو يغطي المكان كله، ويسري من هناك لينير الكعبة وجوانبها، ثم ينتشر ليصل إلى المدى الذي لا يعلمه إلَّا باعثُهُ سبحانَهُ وتعالى. .

وتتساءل أم عبد الرحمن في نفسها:

أيّ سرٍّ هذا الذي ترى، ويأخذ بالألباب؟

إنها ـ ولا ريب ـ لا تعرف له تفسيراً. .

أما آمنة، أم المولود، فلم يدهشها ما ترى، ولم تعجب لما يجري، فكأنها وهذا النور على الموعد، وهو لحظة ولادة ابنها. . وأما سرّه فربما تعلمه، وربما لا تعلمه، ولكنها على يقين بأن هذه اللحظات من حياتها إنما تحمل من الأمارات الحسية ما ينبىء عن شأنٍ عظيم لوليدها، ولسوف يكشفه مقبل الأيام، وحينما يشاءُ ربُّ الكون العظيم. . هذا هو يقين آمنة بنت وهب، ولذلك نراها تظل على رونقها وفي إشراقة وجهها، فلا تطلب إلَّا شيئاً واحداً وهو أن تضم وليدها إلى أحضانها، فتأخذه وتتأمل وجهه المضيء، ونفسها تسيل حناناً عليه ولهفة، ثم تتوجه بالحمد والشكر لربِّ السماوات والأرض على ما تكرَّم به من عطائه وفضله، وما به منَّ من نعمةٍ فيّاضةٍ من عليائه. .

أجل لقد «ولد الهدى والكائنات ضياء» في المحلة التي كانت تعرف باسم «سوق الليل» من «شعب بني هاشم، في الدار التي اشتراها محمد بن يوسف، أخو الحجاج، من ورثة عقيل بن أبي طالب (رحمه الله تعالى) بمائة ألف دينار ثم صيّرتها الخيزران، أم

الرشيد، مسجداً يصلي فيه الناس، ويزورونه، ويتبركون به»[1].

ومن هذا البيت المتواضع طار الخبر إلى عبد المطلب وهو عند الكعبة، فحمله على أجنحة الشوق، غير عابئ بدهشة الناس، وهم يرون ابن السبعين ونيّفٍ مندفعاً على تلك الحالة من العجلة والحيوية، إذ لم يكن همُّهُ الناس، وما قد يظنون به من الظنون في تلك اللحظات، بل همُّه الوصولُ إلى بيت آمنة، وضمُّ حفيده إلى قلبه.. وطابت نفسُ الشيخ الوقور برؤية حفيده، فاستكان إلى جانب آمنة هادئاً، هانىء البال، وكأنَّ الجزء الذي افتقده من قلبه يوم موت ابنه عبد اللّه قد عادَ إليه، ولكنه لم يلبث طويلًا في جلوسه، بل قام يحمل طفله إلى الكعبة، ليطوف به سبعة أشواط حولها، ثم يدخل به إلى جوفها، يعوّذه من كل هامّةٍ ولامّةٍ ويحمد الله رَبَّهُ على ما أعطاه، وهو يقول:

الحمد للَّهِ الذي أَعْطَانِي هذا الغُلَام الطيّبَ الأَرْدانِ
قَدْ سادَ في المَهْدِ عَلى الغِلْمانِ أُعيذُهُ بالبيتِ ذي الأركانِ[2]

وجلس عبد المطلب عند الكعبة، وقد بدا عليه الحبور بأعلى درجاته، فجاء أهل مكة يجتمعون إليه، ويقدمون له التهاني التي تعبّر عن مشاعرهم، وفرحهم لفرحه بحفيده..

وإنه لمن الإنصاف أن نقرّ لأهل مكة بصدق الشعور تجاه

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢، ص٦٨ عن: أصول الكافي، ج١، ص٢٦٤، وتاريخ الخميس ج١ ص١٩٨، والروض الآنف ج١ ص١٨٤، والمواهب اللدنية ج١ ص٢٥، وتاريخ الملوك والأمم، ج١ ص٥٧١، والكامل في التاريخ، ج١، ص٤٥٨، وأخبار مكة للأزرقي ج١ ص٤٣٣.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ هامش ص١٦٩.

شيخهم عبد المطلب، فالكل كان يعرف مقدار حرقته على ولده عبد اللّه، وها هم يرون كيف أن الحياة بانتصارها على الموت، تُحيي في هذا الشيخ الوقور ـ وفي كل إنسان عاش ظروفه ـ جذوة الأبوّة، فيجد في حفيده استمراراً لحياة أبيه الراحل. . ولا ضيرَ أن يكون هذا الجدُّ، وهو سيد القوم، وذو الوقار والمهابة، على مثل هذه السعادة، فمثل هذه الجذوة في النفس الإنسانية لا تفرق بين سيّدٍ أو وضيع، وبين كهلٍ أو شاب، لأنها تنبع من أعماق الإنسان، وتسري مع نبضات قلبه، لتؤكد أن نظام الحياة الذي أوجَده الخالق العظيم إنما يقوم على غريزة البقاء، التي لا تكون إلَّا بالخلف والأبناء، فإذا طرأ ما يخلُّ بالانتظام الطبيعي لمجرى الحياة، ثم حصَل ما يقوِّم الخلل، فإنَّ ردَّة الفعل في المشاعر الإنسانية تكون قوية، ولا بدَّ أن يعبّر عنها الإنسان بمظاهر الانفعال الذي يغلب عليه. . . ولذلك كان عبد المطلب في تلك الساعة من أسعدِ خلقِ الله تعالى. ولذلك لم يخامر أهلَ مكة أيُّ شكٍ بشأنه وهم يرونه على تلك الحالة من النشوة، بل لقد زادتهم حالتُه ثقةً به، واطمئناناً إلى مصيرهم، لأنها قد أحدثت فيه دفعاً جديداً، يقوى به على خدمة مصالحهم ورعايتها.

ويعود عبد المطلب بحفيده، ويجلس إلى أمّه يتحدثان ويتسامران، فتخبره بأنه رؤيا كانت تأتيها في المنام ويهتف بها هاتف وهو يقول لها: «يا آمنة إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع على الأرض فقولي: «أعيذه بالواحد من شرِّ كل حاسد»، ثم سمِّيه محمداً»[1]. وأنه كان يتراءى لها كلما عاودتها الرؤيا، بأنها ترى،

(١) المصدر السابق، ص١٦٦.

وهي تضع حملها، نوراً يشعُّ ويُضيء أرجاء مكة كلها، ومن ثَمَّ ينتشر هذا النور ليصل إلى بقاع بعيدة في الأرض..

وتسكت آمنة قليلًا ثم تعقب بقولها: وها إنني اليوم، وعندما وضعت ولدي جاء النور وغمر كل شيء من حولي.. أجل يا عمّاه، لقد رأيت النور نفسَهُ اليوم بأم العين، وإنه ـ والله ـ ليبهر الأبصار بضيائه البرّاق، فأرجو أن يكون أمارة خير في حياة ابني، بل وفي حياة أبناء عشيرته، وأهل مكة جميعاً.. ويستمع عبد المطلب إلى آمنة، فيقول لها:

ـ وأنا لا أُخفي عليكِ يا عمَّاه أنني طويت في نفسي رؤيا مماثلة.. فقد كنت أرى في المنام، وأنا أغفو بجوار الكعبة، كأن فيضاً من نورٍ يخرج من ظهري، فيغلب أشعة الشمس، وطرفاه يمتدان ما بين الأرض والسماء.. وتارة أخرى كنت أرى وكأنَّ شجرةً كثيفة الأغصان والأوراق ترتفع بجانب الكعبة، وتنبعث منها أنوار تتلألأ في الآفاق، فتنير الظلمات، وتنشر على الناس الرحمة والأمان...

واتّفقت رؤى الأم، مع رؤى الجد، وصدّقا بالرؤيا، فسمّيا وليدهما: محمداً.. وتحققت كلمة الله (تعالى) يومَ وُلد محمد بن عبد الله.

ولن نتوقف لمناقشة تلك الرؤى، لأن حياة أنبياء الله ـ عز وجل ـ وحاملي رسالاته إلى بني آدم، حافلة بالآيات الدّالة المبينة لمن شاء أن يذّكَّر أو أن يلقي السمع وهو شهيد. فإبراهيم الخليل عليه السلام جاءته الرؤيا بذبح ابنه إسماعيل، فصدّقها، ومضى طائعاً لا يثنيه شيءٌ عن إنفاذ أمر ربه تبارك وتعالى، لكي يتحقق وعد الله فيكون محمدٌ صلى الله عليه وآله وسلم

من نسل إسماعيل عليه السلام . . وأم موسى عليه السلام جاءتها الرؤيا أن ألقيهِ في اليمّ، فآمنت، ووضعت وليدها موسى بصندوق ثم ألقته في نهر النيل العظيم تصديقاً للرؤيا، ليتربى هذا الوليد في قصر فرعون بالذات ثم ليكون خلاص بني إسرائيل من ذلك الطاغية على يديه . . ويوسف الصديق عليه السلام قد رأى في المنام أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين. وقد تحققت رؤياه بعد أن صار عزيز مصر، وأعادَ الله إليه إخوتَهَ الأحدَ عشر وأمَّهُ وأباه من فلسطين بعد سنين عديدة من بعاده القسريّ عنهم . .

وهكذا هي رؤى الصدّيقين، وعلى وجه الخصوص الناس من المؤمنين الذين يختارهم الله (تعالى) . . . فهي دلالات سابقة على ما يشاء سبحانه وتعالى، وما سوف ينشأ في حياة الناس من أحداث هامة تكون السبيل لهداية النفوس وتغيير المجتمعات البشرية نحو الأفضل، تماماً كما هو الحال في رؤى آمنة وعبد المطلب التي لم تكن إلَّا تعبيراً عن البشارات التي حملتها الرسالات السماوية من قبل، وما أنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ في التوراة والإنجيل من وجوب اتباع النبي الأمي الذي يأتي من بعد موسى وعيسى عليهما السلام واسمه محمد أو أحمد . . وإن دلَّ هذا التنزيل من الله الحكيم على شيء، فإنما يدلُّ على الشأن العظيم لصاحب هذا الاسم، لأن لفظة «محمد» مأخوذة من الحمد، والتحميد فوق الحمد، فمعناه: المستغرق لجميع المحامد، لأن التحميد لا يستوجبه إلَّا المتولي على الأمر في الكمال. وهي صيغة تكريم وتفضيل لأنها تعني تجدُّدَ الحمد، وحدوثَه وقتاً بعد آخر. والحمد لا يكون إلَّا نتيجة لعمل خير، فيكون اسم «محمد» دالّاً على أنه عامل للخير دائماً وأبداً، وهو الخير الذي يقتضي ثناءً وحمداً دائميْن

مستمريْن. ولقد أكد القرآن الكريم هذه الصيغة بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[1].

فالصلاة من الله تعالى، ومن ملائكته المكرمين على النبي محمدٍ ﷺ تعني الثناء والرحمة، وهي أمرٌ إلى المؤمنين بأن يحمدوا هذا النبي، ويسلّموا عليه. وبذلك كان «محمدٌ» خيرَ خلق الله كلِّهم، بما استحقَّ لذاته، وبما تفضَّل ربُّه عليه من مكرمات جعلته خاتم النبيين.

«وفي سابع يوم لمولد محمدٍ ختنَهُ جدُّهُ عبد المطلب كما كان العرب يفعلون، وقيل: إنه وُلد مختوناً»[2] ـ وهو الأصح ـ؛ «وأمر عبد المطلب بجزور فنُحرت، ودعا رجالًا من قريش فحضروا وطَعِموا، فلما علموا منه أنه أسمى الطفل محمداً، سألوه لِم رغب عن أسماء آبائه؟ فقال: أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه»[3].

وكان من عادة أهل مكة أن يدفع أشرافُها مواليدهم إلى المراضع في البادية لمدة من الزمن، فينشأون في أجواء الطبيعة الفسيحة، ويتنشقون الهواء النقي، فيكتسبون الصحة السليمة، وتنطبع في أذهانهم لهجة اللغة العربية بصفائها، وفصاحةِ لسانها وجمالِ بلاغتها وبيانها. هذا فضلًا عن أنَّ الأمهات يتفرّغن لشأنِ أزواجهنّ، في وسطٍ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٢) انظر: زاد المعاد، ج١ ص٢٥.

(٣) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ص١٠٧.

كانت أنانية الرجل انعكاساً لقساوة البيئة، وجفاف الصحراء.. وذلك بخلاف أمهات اليوم، ولاسيما نساء الطبقة الغنية الموسرة، اللواتي لا يُرضعن أطفالَهنَّ إما حفاظاً على جمالهنَّ، وعدم تهدّل أجسامهن وترهُّلها من الرضاعة ـ كما هو الظن السائد ـ وإما لأن الأم تعمل خارج المنزل، وهي قد دخلت مجال الأعمال من بابها الواسع، وإما لأن حياة الأزياء وارتياد الصالونات وحضور الاحتفالات، ورحلات السفر تحول دون إرضاع الطفل. بل والأسوأ من ذلك إلقاء تبعة تربيته على عاتق المربيات والخدم، لتحلَّ رضاعة القنينة والحليب المجفف محل صدر الأم، فكان محتماً أن يتضاءل الحنان في قلوب الأمهات وأن تجفو طباعُ الأبناء. وتكون النتيجة، ـ كما نرى ـ عدم الاعتناء بالأطفال، وعدم الاهتمام بالأزواج، وبالتالي تفكُّك الأسرة، وانعدام الروابط العائلية، والانحراف الذي تتخبط فيه الأجيال.

أما آمنة فلم تكن تعنيها كل تلك الأمور بشيء، فهي فقيدة الزوج، وبعيدة عن مشاغل الأعمال، وليس في حياتها ما يدفعها إلى التماس المسرّات والظهور، ولكنها بحكم موروث العادات التي لا تستطيع أن تخرقها، كان عليها أن تقبل وتدفع بابنها إلى إحدى المراضع في البادية، لاسيما أن ابنها حفيد عبد المطلب سيد الأشراف، بل وسيد مكة بأسرها...

محمد الرضيع

ومضت بضعة شهور، وآمنة بنت وهب ترعى وليدها بين أحضانها، وترضعه من لبنها، وتحنو عليه بجوارحها وهي تهيّىء نفسها لتلك اللحظة الحرجة التي تأتي فيها المرضعة وتحمل هذا الوليد بعيداً

عنها.. وأخيراً جاء الموسم، وأقبلت مراضع بني سعد، لتأخذ الأطفال من مكة لقاء الأجور والعطايا التي تُدفع لهنَّ...

وكانت حليمةُ بنت أبي ذؤيب، قد جاءت هي الأخرى مع زوجها يلتمسان رضيعاً من أشراف القوم ولاسيما في هذا الموسم الذي كانت البادية قد تعرضت فيه للقحط والجفاف، وكانت دهماؤه على بيت هذه المرأةِ أقوى، فعانت وعائلتها من شدة الجوع ما يضني، حتى كانوا أحياناً لا يجدون ما يبلّون به الريق، أو يسدّون به الرمق.

وراحت أم أيمن ـ جارية آمنة ـ تفتش عن مرضعةٍ تحنو على الطفل بعطفها قبل لبن صدرها، فكانت المراضع تعزف عنها عندما تسمعُ كلمة «يتيم»، لأن اليتم ـ في نظرهنَّ ـ معناه الفقر، وعدم الحصول على المال والهدايا التي جئن من أجلها. فلم تشأ واحدة منهنَّ أن تستمر في محادثة أم أيمن لمجرد سماعها أن الطفل الذي تبحث عن مرضعة له هو يتيم، أو أن تكبِّد نفسها مشقة معرفة من هو هذا الرضيع الذي تُعرض عنه لمجرد يتمه.. ولو كنَّ يعلمن أن جدَّه هو عبد المطلب، شيخ قريش الذي يقري الضيف، ويمنع الحيف لكُنَّ تقاتلن على أم أيمن، وتسابقن إلى بيت الرضيع للحظوة به..

ويبدو أنَّ حليمة بنت أبي ذؤيب قد حاولت عبثاً أن تجد رضيعاً، فلم توفّق لأن ضعْفَ عودها، وهزالَ جسمها، وسوءَ الحالة التي تظهر عليها، قد صرفت الأنظار عنها، فأحسَّت باللوعة والأسى. ولكن من أين لها أن تدري بأن علَّام الغيوب هو الذي صرف الناس عنها لمظهرها، لأنه ـ سبحانه ـ قد أعدَّها لتكون مرضعاً لأكرم خلق الله كلهم.. فبينما هي تقبع مع زوجها، في إحدى الزوايا، يندبان

حظهما، ويتحسران على حالهما، والمرارة تأكلهما، إذا بامرأة تتقدم منهما، وتعرض عليهما أن تكون حليمة مرضعةً لطفل هو من سادةِ القوم أمّاً وأباً، وإن كان أبوه قد توفي، إلَّا أن جده هو سيد مكة والقوم طرّاً.. ولم تكن حليمة لتحتاج إلى كل هذا التعريف، والشرح عن الطفل، فقد أحسَّت عندما ذكرت أم أيمن اسمه «محمداً» أن نفسها تنازعها إليه قبل أن تراه، فراحت تحثها على مسارعة الخطى لتصل إلى البيت الشريف، والطفل الحبيب..

وتعرف آمنة من هذه المرأة التي دخلت عليها، أنها حليمة بنت أبي ذؤيب، وأنها زوجة الحارث بن عبد العزى من بني سعد بن بكر بن هوازن، وأنها وإن كانت تبدو امرأة نحيلةً فقيرة، إلَّا أن حديثها وكياستها يدلان على أنها إنسانة طيبة، رؤوفة، رحيمة. فاطمأنت إليها آمنة وأرسلت في طلب حميها عبد المطلب فجاء، وأقرَّها على أن تحمل حليمة السعدية حفيدهُ، وهو يقول لهذه المرأة: «أنا جده، أقوم مقام أبيه، فإن أردت أن ترضعيه دفعته إليك، وأعطيتك كفايتك»[1].

فقالت حليمة: واهٍ يا مولاي، إنه الشرف والله لي ولعائلتي أن أرضع ابنك. فإن دفعته إليَّ يا سيد قريش فتلك منى القلب، وسوف أكون خير مرضع، وخير أمٍّ لطفل نبيلٍ، ابنِ نبلاء.

وكانت حليمة قد جاءت على أتان قمراء، هزيلة، وزوجها على ناقةٍ مسنّة عجفاء، لا تكاد إحداهما تقوى على السير، فكانت

---

(١) البحار، ج١٥، ص٣٧٣.

مرضعات بني سعد تتقدم عليهما مسافات طويلة في الطريق، وهنَّ يرثين لحالهما.. أما الآن والركب عائد إلى مضارب بني سعد، فإن الحال قد تبدَّل، وتغير كل شيء بالنسبة إلى حليمة وزوجها، فهما يبدوان سعيديْن، فرحيْن، لما نالا وحصلا عليه. وأما هذه الأتان وتلك الناقة فكأنما دبَّتِ الحياة فيهما من جديد وهما تقطعان الركب، وتغُذّان السير بسرعة أذهلت النساء جميعاً، فكان بعضُهنَّ ينادي على حليمة قائلًا:

ـ ويحك يا ابنة أبي ذؤيب، انتظرينا، أليست هذه أتانَك التي كنتِ خرجتِ عليها؟!

وكانت حليمة تجيب: بلى والله إنها أتاني.. ولكن ما إن وضعتُ هذا اليتيمَ في حجري حتى شعرت بأني أخذت نسمةً مباركةً، فأقبل عليه ثدياي باللبن.. وما ركبت هذه الدابة إلَّا ووثبت بي كأنها لم تعرف عَجَفاً، وإنَّ ناقة زوجي لأحسن حالًا كما تَرَيْن!..

وبين ليلة وضحاها تبدلت الأحوال في بيت حليمة من الفقر والجوع والقهر إلى شعور بالأنس والرجاء وإلى كفايةٍ في المؤونة.. ثم تقبل الأيام، وتصدق المشاعر لدى عائلة الحارث بن عبد العزى، إذ منذ دخل الرضيع محمدٌ هذا البيت بدأ العسر يسحب أذياله، والفقر يلملم أطرافه من زواياه، فعمل الحارث في رعي الطروش والمواشي لشيوخ بني سعد، ثم اشترى نعاجاً له، فما إنْ جاء الموسم حتى ولدت توائم، وفاض الخير والبركة على بيته بآياتٍ قد تعمى على الناس أسرارُها.. بخلاف حليمة فإنه لم يكن ليخفى عليها وعلى عائلتها بأن تلك النعمة التي أدركوها إنما كانت مكرمة لهذا الرضيع،

فصار «محمد» الابنَ الغاليَ للعائلة كلها، وموضعَ الرعاية والعناية من جميع أفرادها. . فإن نامَ رانت على البيت السكينة، وإن أفاق سارعت الشيماء ـ بنت حليمة ـ تحضنه قبل أمها. أما ربُّ البيت فلا يهنأ له عيش عندما يرجع في المساء، قبل أن يحمل محمداً ويُشبع نفسَهُ منه شمّاً ولثْماً. وإنَّ ملاطفته ومداعبته ـ وهو يضحك له ـ كانت تبعد عنه أتعاب النهار، فينام هانئاً قرير العين.

ولم تكن عائلة الحارث بن عبد العزى هي وحدها التي نعمت من بركات الرضيع محمد، بل إن قبيلة بني سعد بأسرها قد لمست مكرماته، ونالت من وجوده بين ظهرانيها خيراً عميماً: فقد هطل المطر في تلك السنة، فانحسر الجفاف عن باديتهم، وامتلأت مراعيهم بالعشب، وحمل نخيلهم أضعاف ثماره، وكثرت أنعامُهُم وخيراتها. فصارت بركات الرضيع موضع أحاديث أبناء القبيلة جميعاً، وحُبُّه مِلءَ قلوبهم، فلا يتمنون شيئاً أكثر من بقائه في ربوع مضاربهم. .

ولكن سرعان ما تكرّ الأيام وتجد حليمة السعدية أن حولَيِ الرضاعة قد قاربا على النهاية، وأن عليها أن تعيد الطفل إلى أهله في مكة، كما كان متعارفاً عليه، فباتت وعائلتها يتحضَّرون للساعة المريرة التي تنزع منهم عزيزاً لم يجُد الزمان بمثله قط.

محمد الطفل

وحانت ساعة الوداع، وتحلّقت عائلة الحارث بن عبد العزى حول الطفل الميمون، والحزن يخيّم على البيت، والوجومُ يحيط بأجوائه، فلا أحد يسمع إلا زفرات وعبرات، ولا أحد يشعر إلَّا بتعاسة وشقاء. إنهم حقاً لا يطيقون الصبرَ على فراقه، حتى هذا

الصغير عبد الله بن الحارث الذي كان يرضع كل يوم هو ومحمد من صدر أمهما حليمة قد أفاق في تلك الصبيحة الباكرة، وهو يصرخ ويبكي على غير عادته في العامين من عمره. وأما السبب في بكائه فأمّه حليمة وحدها تعرفه، إنها أحاسيس الأطفال في سِنِيِّهم الأولى التي تدفعهم للبكاء أو الضحك، من دون أن تكون لنا نحن الكبار القدرة على إدراك تلك الدوافع، اللهمّ إلَّا الأُم التي وحدها يمكن أن تشعر أحياناً بما وراء انفعالات أطفالها، كما هو الحال مع حليمة التي أدركت أن وراء بكاء ولدها عبد الله في تلك الساعة هو حركة العائلة كلها لتوديع أخيه «محمد». ولكن ماذا بيدها أن تفعل، فلو قدّر لها، أو لكل فرد في بيتها أن يحقق ما يأمل، لما تمنَّى أن يفارق «محمداً» أبداً... إلا أن الأمانيَّ شيء، والواقع شيء آخر، والرضيع يجب أن يُعاد إلى أهله في مكة، فما على عائلة الحارث إلا الرضوخ لهذه الحقيقة، حتى ولو كان فيها مرُّ العذاب. وكان الفراق، وحملت حليمة السعدية رضيعها محمداً بين أحضانها، وانطلقت به وهي تشعر في كل خطوة تخطوها نحو مكة كأن الأرض تميد من تحتها.. ولكنها على الرغم من ذلك لم تيأس، فقد ظلَّ في نفسها أمل ورجاء يحدثانها بالخير، وما عليها إلَّا الصبر لترى ما يخبّىء لها الغد!..

وكانت العودة التي تنتظرها آمنة بفارغ الصبر.. فما إِنْ أطلَّت عليها حليمة بطفلها حتى سارعت من مكانها تحتضنه بلهفةٍ وشوق، وتدنيه من قلبها وهي تشد عليه، وتتلمس كل جزء من أجزاء بدنه... فلا تدري أين تقبّله، ولا تشبع من تمرير رأسها على جسمه، ومداعبة أنامله الطرية لوجهها... إن مشاعرها تتدفق في هذه اللحظات وكأنها تحاول أن تعوّض مما فاتها في سنتين، فاندفعت في تلك الإشراقة

الروحانية لا تلوي على شيء في الوجود، فكأنما عواطفها تسيل بين أحضانها، وكأنما دَفْق حنانها يحيلها إلى عالم آخر ليس فيه إلَّا أمومة تذوبُ في حب الأبناء.

ويطول عناق الأم لطفلها، بينما تكون الأم المرضعة في حالة من الذهول وهي ترقب هذا المشهد بكل روعته ومهابته وجلاله، فتأخذها من جرائه رهبة الارتعاش، ولشدة تأثرها تخور قواها، وتخونها رجلاها فتجثو على ركبتيها وهي تشرق بالدمع.. فما تصورت قط أن يبلغ وجْدُ هذه الأم على وليدها مثل هذا القدر، بعدما بدا واضحاً أمامها أن طفل آمنة يستغرق كل كيانها، وأن حياتها لصيقة بحياته، فكأنّها لا تعيش إلَّا له، ومن أجله لا غير.

ويسكن أخيراً غليان قلب أم «محمد» وقد امتلأت اطمئناناً، وقرَّت عيناً.. وتحين منها التفاتة، فترى حليمة على تلك الحالة من التأثر والانفعال، فتتقدم، وتأخذ بيدها، وتدنيها منها، وهي تعتذر عن غفلتها تجاهها، ثم تستغرق في الحديث معها، وهي تسألها عن طفلها، وكيف انقضت مدة الرضاعة عليه، حتى تُفرغ كلَّ ما عندها، وما كانت تحدِّث به نفسها طوال تلك المدة...

وسُرِّيَ عن حليمة، فاندفعت بدورها تخبر آمنة عن كل ما جرى في حياة عائلتها منذ اليوم الأول الذي حلَّ فيه الحبيب محمد ابناً غالياً في بيتها، وما فاضَ فيه من النعم والخيرات عليهم، بل وعلى قبيلة بني سعد بأسرها، وكيف تغيرت أحوال الناس هناك من الجدب إلى الخصب، ومن الجوع والعوَز إلى الشبع والكفاية، وكل ذلك ببركة «ابنها محمد» الذي بات وكأنه قلب القبيلة النابض.

وتمرُّ الساعات والمرأتان مولعتان بالحديث، وكل واحدة ملء

جوانجها الأماني والأحلام العريضة.. فأما آمنة فجلُّ ما تُمنّي به النفس هو أن تقوم على رعاية وليدها، حتى ينشأ فتًى سوياً، بعيداً عن قهر اليتم.. وهذا ما يخيف حليمة أكثر ويجعلها تغصُّ بالكلمات، فقد جاءت والأمل يحْدوها بأن تعود بالطفل. أما وقد رأت ما رأت، وسمعت ما سمعت فتخونها الشجاعة، ولا تجرؤ على البوح بما تتمناه. لقد وقعت حليمة في المأزق، ولكن عندها من الفطنة والنباهة ما يشجعها على إبداء ما تريد، فتتنهّد طويلًا، ثم تقول لآمنة:

ـ لقد رأيت يا سيدتي بأم العين مدى سعادتك، وما دخل على قلبك من السرور لرؤية حبيبنا محمد، وإنّ من حقك على الحياة أن تتمتعي بمشاعر الأمومة، ولكن ما حيلتي، وفوق حبيّ الكبير له أطمع في النعمة أن تبقى في عائلتي؟ ثم ها أنتِ تدركين تأثير البادية ورحابها الفسيحة، وأجوائها النقية على الطفل في أولى سنيِّ حياته، وهذا ما يقوّي بي الثقة، فألتمس رضاك وقبولك لأعود به، وأنا أقسم على بذل قصارى جهدي ليكون بيننا سيداً حبيباً، مصاناً من خالقه وبارئه..

وتوقن آمنة بأن هذه المرأة صادقةٌ فيما تقول، ولا تخفي شيئاً مما في نفسها.. ولكن ماذا بشأنها هي؟ ألم تصبر طويلًا على عواطفها، وتتجالد على الأيام لأجل طفلها؟ فهل بوسعها بعدُ أن تتحمل بُعدَهُ عنها؟.. إنها الآن في حيرة وحرج، أتُراها ترجِّح كفة عواطفها فترفض طلب حليمة؟ أم تُغلِّب مشاعر الإنسانية، فتحقق لهذه المرضعة أمانيها؟! إن الموازنة دقيقة وحرجة: فإما عاطفة الأم لذاتها، وإما مشاعرها حيال غيرها، وكلا الأمرين له معانيه السامية عند أم محمد. ثم ماذا عن جده، ومن حقه أن يكون له الرأي الفصل، فيجعل الله بقول هذا الجد مخرجاً وفرجاً؟

وتظل آمنة على تلك الحال، وهي تغوص في أعماق نفسها تفتش عن الحل، لأنَّ أي قرار تتخذه لسوف يجلب لها الضيق، والألم. فإن هي حبست الوليد عن حليمة فلن تذوق طعماً للنوم أو الراحة لأنها تكون قد ضربت بمصلحة هذه المرأة عرض الحائط، وإن دفعته إليها فيا لَمأساتها في وحدتها!.. وفي غمرة ذلك الصراع تسمو آمنة على كل أنانية، وتغلّب مشاعر الإنسانية فتقرر إعادة وليدها إلى المرضعة، لتسجل على صفحات التاريخ أعظم موقف لأعظم امرأة في مكة. أجل إنه انتصار لآمنة فيه المجد والرفعة وهي تقيم الاعتبار الأوحد لإنسانية الإنسان في تضحيته تجاه الآخرين.. ولا تصدق حليمة وهي ترى آمنة ترنو إليها بعين العطف، مستجيبة لندائها.

إنها النفوس الكبيرة التي تصغر لديها العظائم. ولن يكون بعيداً ذلك اليوم الذي ستظهر فيه آمنة بنت وهب على أنها كانت أعظم إنسانة عندما ستشهد الدنيا بأسرها بعث ابنها محمد ليكون رسول الله، وحاملَ أكملِ الرسالات السماوية وخاتمتها.. ولكن بقي أمر الجدّ، وهو الذي يقلب الموازين، ولكنَّ العناية الربانية تجعل عبد المطلب يوافق بدوره، لأنه يرى في قرار آمنة مثال الصواب، لما يحمل من فوائدَ لحفيده، وأقلها إبعاد هذا الطفل، ولو لمدةٍ حتى يقوى عودُهُ، عن أجواء مكة المشحونة بالضجيج، وبما يطرأ عليها ـ أحياناً ـ من الأمراض الفتاكة.

وأخيراً تذهب حليمة بحملها الثمين، ليكون لها في التاريخ شأن وأي شأن، بسبب مَن أرضعت، ومَن حملت في حِجْرها وهي تعود إلى ديار بني سعد.

أجل لا بدَّ أن يكون لحليمة بنت ذؤيب شأن في التاريخ.. وكيف لا وقد تجلت حقيقتها مثلما تجلت حقيقة آمنة بنت وهب.

فآمنة هي حقاً الأم التي حملت «محمداً»، مثلما حملت اسمها، هذا الذي يرمز للأمانة، فكان التطابقُ المقدَّرُ كاملًا بين الاسم وما ندبت إليه من صون الأمانة التي أودعها الله تعالى في أحشائها، وما أُعدّت له من أمومةٍ للإنسان الذي سوف يملأ الدنيا بفيض أنوار النّبوّة وهدى الرسالة.

وهكذا مرضع «محمد» التي يرمز اسمها إلى الحلم.

وإنه قدرُ الله تعالى في هذه المرأة أيضاً، وهو يرصدها لأن تتجمَّل نفسُها بالقناعة والرضى، بل وبكلّ مزيَّةٍ حسنة، وأخصّها الحلم، هذا الشعور الدافق الذي يعطي للطفل من الذات، ومن الحنان والرأفة والعطف، ما يجعل الغذاءَ الروحي له أهمَّ من الغذاء الجسدي، فكلاهما يجتمعان معاً: غذاء اللبن وغذاء النفس ليكون للحلم معناه.. وهو ما أودعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في حليمة السعدية، وإلا فكيف اتفق أن تحمل هذا الاسم الذي يعني الحلم والسعد معاً. إنه الإلهام من الله ـ تبارك وتعالى ـ الذي جعل أهلها يسمونها بكل عفوية «حليمة» لتكون بحسب تقدير ربِّها هي وحدها من بين المراضع «أم محمد» الرضيع.

إنهما حقيقتان قائمتان في التاريخ:

الأم التي أنجبت محمداً واسمها آمنة.

والأم التي أرضعت محمداً واسمها حليمة.

ومن هاتين الحقيقتين انبثق شأن كل من المرأتين في التاريخ.

وبفضل الله تعالى ورعايته استمرت حليمة وأفراد عائلتها ينعمون بالخيرات طوال تلك المدة التي كان الطفل محمد يعيش عندهم، ويتدرج في رحاب البادية وآفاقها الصافية النقية، فقد عاش أولى مراحل الطفولة على الصفاء والألفة، وعلى محبة أترابه من الأطفال، في مضارب بني سعد، فكانت له ـ كما يفترض أن يكون للأطفال ـ مجالات الحرية في الهواء الطلق، وفي أحضان الطبيعة، بعيداً عن جدران البيت التي تشكل أسوار الضيق والأَسْرِ لأطفال المدينة الحاضرة...

أجل، تلك هي الأجواء التي هيأها الله تعالى لينعم محمد بن عبد الله بطفولة سليمةٍ وسويةٍ... إذ على الرغم من طبيعة البادية القاسية، فقد كانت الحرية متنفس حياته وناموسها، والنقاء توأم عيشه، ينحدر إلى اللعب في الرمال فيجعلها فراشه، ويتمدد تحت أشعة الشمس المحرقة، فيجعلها غطاءه. وقد يقطع أرض الواحة في يومه والنفوس تهوي إليه، أو قد يلحق بقطيع الماشية والرعاة يتنسَّمون ريحه، فإذا جاع أمسكوا له بالشاة يرتوي من حليبها، وإن تعب أناخوا له الناقة يعتلي ظهرها..

ومثل أي طفل عربي، فَرَضَ عليه وجودُه أن يكون في جوف الصحراء. كانت الرمال تحمي محمداً من كسور الجسم إن وقع، ويلفح وجهه هجيرُها إن سرح، فينشأ صلباً، قوياً، متين البنية والأعصاب، لأن قساوة الطبيعة من شأنها أن تصهر معدن الرجال، وتغرس في نفوسهم قوة الاحتمال، والصبر، والتمرّس.

أجل، لقد عاش محمد تلك الطفولة العربية بكل محاسنها وقساوتها، فعرف المرح، وجرَّب الرعي، واعتاد اللسان العربي الفصيح حتى بلغ الخامسة من عمره، فعادت به حليمة ـ على كرهٍ منها ـ إلى أمه وجدِّه، ليتابع مسيرة حياته التي خطَّها الله تعالى له في عليائه.

وقد تركت السنوات الخمس التي عاشها في البادية أعمق الأثر في نفسه فكان يقول من بعدُ لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قرشيٌّ واستُرضعت في بني سعد بن بكر»[1].

عاد محمد إلى أمه لتزوِّده بما تأصل في نفسها من صفات كريمة في بيت أهلها، وبما يتناسب مع أخلاق بني هاشم في مقامهم وسيادتهم في القوم؛ ولتنمِّي فيه حبَّ عشيرته الأقربين، بل وحبّ الناس كافة، ولذلك قررت بعد بضعة شهور أن تأخذه إلى يثرب، ليعرف أخواله من بني النَّجار، ويزور قبر أبيه.. بحيث يتاح لها، هي أيضاً أن تزور مثوى زوجها، وفاءً لذكراه، وهي «الأمينة» الوفية لأيام الزوجية، كما هو وفاؤها للقيم والمثل الإنسانية الرفيعة.

ولم تطل مدة بقائها في يثرب، على الرغم ممَّا لاقت من الحفاوة والإكرام هي وابنُها عند بني عدي بن النجار، أقارب حميها عبد المطلب، وأخوال زوجها المتوفى عبد الله. فقد آثرت آمنة العودة سريعاً، ولمّا يمض شهر على زيارتها تلك، لأنها تعلم أنَّ حماها لا يطيق فراق حفيده، ولأنها هي أيضاً تجد الأمان والاطمئنان في كنف سيد القوم الذي بذل كثيراً من نفسه لأجلها.. ولكنها لم تكن لتعلمَ،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٧٦، حياة محمد، هيكل، ص١١٠.

وهي تودعه في مكة، أنه الوداع الأخير، وأنها مفارقته في هذه الدنيا إلى الأبد. فما إن وصلت راحلتها إلى الأبواء[1]، حتى فاجأها مرض الحمى، وعجَّل في موتها، دون سابق إنذار، فدفنت في تلك المحلة، تغمّدَها الله تعالى برحمته ورضوانه..

لقد دهم الموت أم محمد فصار يتيم الأبوين وليس له من العمر إلا ست سنوات، وهي السن التي يبدأ فيها أول الوعي عند الولد، وبذلك لم يعش معها أكثر من سنة بعد إعادته من مضارب بني سعد. إلَّا أنّ تلك المدة، على قِصَرها، كانت كافيةً لتشبع نفسه بحنان الأمومة، وتطبع في ذهنه صورة جميلة محببة عن هذه الأم التي تعلقت به، وتعلّق بها حتى صارا وكأنهما روح واحدة في جسدين، فكان طبيعياً أن تلتاع نفسه، ويهلع قلبه وهو يراها تُوارى جدث الرحمة، وتغيب عن ناظريه في فجوةٍ غطَّاها الرمل الكثيف؛ فيرتمي فوق قبرها باكياً.. يناديها فلا تجيب، ويصرخ شاكياً فلا ترد.. إنها مشيئة الله السنيّة أن يعيش محمد مثل هذا اليتم في سنٍّ مبكرةٍ، ليكون له آيةً في الكِبَر، وليكون هو نفسه آية لكل يتيم، فلا يكون فقد الأبوين عائقاً له عن متابعة مسيرة الحياة، بل وعن حمل أعظم المسؤوليات.

ماتت آمنة أم محمد..

فحملت أم أيمن البرَّة هذا الطفل اليتيم لترتحل به في جوف الصحراء، وفي قلبها حرقة، وفي عينها دمعة.. ومما يدهش العقول أن تكون هذه المرأة تحمل اسم برَكة حتى تكون نعمة وبركة على هذا

---

(١) الأبواء: قرية بين المدينة والجحفة، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا (هيكل، حياة محمد، هامش ص١١١).

الطفل، فترافقه طوال حياته على اليُمن والبركة فعلًا. فسبحان الله الذي جعل اسم أم محمد آمنة، واسم مرضعته حليمة، واسم مربيته بركة...

محمد اليتيم

لقد بات محمد الآن وحيداً، بلا أم ترعاه وتحنو عليه، ولا أب يربيه ويحميه.

وها هو في جوف الصحراء الواسع الموحش، ولا أنيس له إلّا هذه الجارية الحبشية الوفية، التي تجد نفسها، والمأساة تعتصرها، لا حول لها ولا طول.. فقد بذلت جهودها لكي تسرّي عن هذا الطفل المحزون، وأن تخفف بعضاً من شجونه، ولكنَّ وعيه الذي كان أكبر من عمره بكثير، وإدراكه لما حلَّ به، كان فوق كل مواساتها فظلت الأحزان رفيقه في طريقه.

فيا لله من عوادي[1] الأيام ما أقساها!، وما أشد وقعها على هذا الطفل، تنقضُّ عليه فتسلبه أباه من قبل أن يولد، ثم ها هي تسلبه أمه بين ليلةٍ وضحاها، وتدهمه وهو في غربةٍ، بعيداً عن الأهل والناس! ففي يتمه غربة عن الوالدين، وفي وحدة الصحراء غربة عن الناس، فاجتمعت على محمدٍ غربتان عاتيتان قد تهدّان الرجل الجلد القوي، فكيف إذا أصابتا صبياً في السادسة من عمره.

ويقع الخبر على عبد المطلب كالصاعقة، فيعصر الحزنُ قلبه حتى لتكاد روحه أن تفارقه لولا أن حفيده بين ذراعيه.. ولكن إذا كان

---

(١) عوادي: مفردها عادية، وهي الأيام التي تصرف المرء وتعوقه لما فيها من أشغال وأمور شاقّة.

قدر آمنة أن تموت، وتخلّف محمداً يتيماً من أبويه، فإن جده لن يتوانى أبداً عن عمل كل ما من شأنه أن يطوي صفحة اليتم في حياته، فيجعله في كنفه، ليكون له ابناً حبيباً، ويحوطه برعايته، فلا يجعل لقهر اليتم عليه سبيلًا.

بل وأحاط كلُّ من في البيت محمداً بالمشاعر الصادقة، فكانت ربة البيت، السيدة هالة، زوجة عبد المطلب، خير راعية له بعطفها وحنانها. ذلك أنها، فضلًا عن أصالة محتدها، وما جُبِلَت عليه من إنسانية، كانت قريبة أمه آمنة، فهي ابنة عمها، وقد حزنت على فراقها حزناً شديداً، فأخذت على نفسها أن تكون بمثابة الأم لوليدها محمد. ولذلك قامت على تربيته خير قيام، تعطيه من نفسها ومن حبها ما تعطي أبناءها تماماً، بل وربما كانت الأرجحية له في كثير من الأمور، تنفيذاً لأوامر الشيخ المهيب عبد المطلب، الذي كان يحرص على أن يعامل حفيدهُ معاملةً مميزة حتى عن أبنائه.

وهكذا عاش محمد في بيت صالح تغلب عليه أواصر الحب والألفة، ودوافع الإيثار والتضحية، فلم يشعر بمرارة فقد الوالدين، ولا بقهر اليتم.. ولو لم يكن حب أهل هذا البيت الكريم متوفراً له، لكان حب جده عبد المطلب كافياً وحده، فقد أدناه منه، حتى أنه كان لا يأكل طعاماً إلا إذا حضر، ولا ينام إلا إذا اطمأن عليه في إغفاءته.. فكان حرياً بتلك المشاعر الإنسانية النبيلة أن تبعد عن محمد أي أثر للوحدة، أو للانكماش على الذات، وأن تدفع عنه الانفعالات التي تؤذي الأطفال في مثل عمره عندما لا يجدون حولهم من يعطف عليهم، ومن يطيّب خاطرهم، أو يهتم لأمرهم.

وتلك الرعاية المباركة، التي كانت يدُ الله سبحانه وتعالى توجهها، قد ذكرها القرآن الكريم، وبيّن أن ربَّ محمد هو الذي آواه، وأنعم عليه بالمأوى الطيب الذي يُبعد عنه غوائل[1] اليتم والتشرد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾[2].

نعم إنه فضل الله تعالى على محمد، وقد اختار له بيت جده عبد المطلب ليجد فيه المأوى والكفيل، في تلك الفترة الحرجة من حياته، فكان ما قدَّر الله تعالى أن يكون.

وعاش محمد في كنف جده على تلك الصورة الرائعة من العناية والرعاية، بل وزاد في تألّقها، أن جده الحكيم، وبما أودع فيه خالقُه من حصافةٍ ورجاحة عقل، كان يرى أن في حياة حفيده سرّاً خطيراً سوف يجعل له شأناً عظيماً، ولذلك جعل له منزلة خاصة من دون الآخرين، إذ كان من عادته أن يوضع له فراش في ظل الكعبة، فيتحلّق حوله أبناؤه، وعِلْيَةُ القوم من قريش وزعماء مكة، فلا يجلس عليه أحد إجلالًا له، فكان محمد يأتي، فيشير جده لمن حوله أن يدعوه، وألَّا يعترضه أحد، وهو يقول لهم: «دعوا ابني فوالله إنَّ له لشأناً»[3]، فكان يجلسه بقربه على فراشه، دون أحد من أبنائه، أو غيرهم من الناس..

ولشدّةِ اهتمام سيد مكة بحفيده، أبقى معه الجارية أم أيمن لتعيش في وسط عائلته مثل عيشهم، عزيزة مكرّمة، وذلك لما وجَدَ

---

(١) غوائل: جمع غائلة، وهي الشر والدواهي.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٧٨.

عندها من حب له، ورعاية يقظة. وكانت هي بدورها قد وجدت في محمد المتنفَّس لعواطفها، والملاذ لمشاعرها الإنسانية، إذ كانت وحيدة، محرومة من عطف الأهل، ومن حنان الأبناء، فقيّض الله تعالى ابنَ سيدها المرحوم عبد الله، ليكون بمثابة الابن لها، لا سيما أنها رافقت حياته منذ كان جنيناً في بطن أمه، وشهدت لوعته على فراقها، وحملته إلى جده بعد المأساة، فحق لها أن تلازمه، وأن تكون البرّة به، كما كانت وفية لأهله.

وظلَّ محمد على تلك الحال وهو في كنف جده عبد المطلب، حتى إذا بلغ الثامنة من عمره، فاجأته نكبة جديدة لا تقل عن نكبته بأمه.. فقد حانت الساعة لأن يفارق عبدُ المطلب، ابنُ الثمانين حولًا، هذه الدنيا، وألقي على فراشه يعاني سكرات الموت، وعيناه تنظران إلى السماء تارة، وإلى الباب تارة أخرى، وما إِنْ دخل حفيده محمد عليه، وأسرع يرتمي فوقه ويحضنه وهو في فراشه، حتى فاضت روحه إلى خالقها، وكأنه كان ينتظر وصول هذا الطفل ليلقي عليه آخر نظرةٍ في هذه الحياة الدنيا..

وبكى محمدٌ هذا الجدَّ بمدامع العين، وزفرات القلب، ولعلَّ حزنَهُ الكبير وهو يمشي في قافلة التشييع، وراء نعش جدِّهِ، وإلى أن واروه في التراب، قد جعل حزن الناس عليه أشدَّ من أي حزن عرفوه، بل ويزيد في فاجعتهم على فقد شيخهم، سيد الديار، وحامي السؤدد والذمار[1].

وإذا كانت النكبة قد عمَّت بموت عبد المطلب كل قبيلٍ في

(١) الذمار: كل ما يجب على المرء حمايته والدفاع عنه، كالشرف والمال والولد، الخ.

مكة، إلَّا أن وقعها على بني هاشم كان أقوى وأشد لما كان له في نفوسهم من عظيم المكانة، وجلال المقام... وكان عبد المطلب يتقلّد جميع المناصب في حياته، فكان على بني هاشم أن يستودعوها أبناءَهُ بعد مماته، فأعفي الابن الأكبر الحارث من أيٍّ منها كما أوصى أبوه، لأنه لم يرد أن يرهقه بشيء منها لقلة ماله، وشدة جوده، فآلت السقاية، دون الرفادة، إلى العباس ـ على الرغم من كثرة المال الذي يمتلكه ـ وتولى الزبير أمور الكعبة.. أما ابنه أبو طالب فقد عهد إليه أبوه بكفالة محمد من بعده، مع علمه بقلة ماله وكثرة عياله، «فلا عجب إن كان أنبل أبناء عبد المطلب، وأكرمهم في قريش مكانة واحتراماً، ولا عجب أن عهد إليه عبد المطلب بكفالة محمد من بعده»[1]، ولكنّ فقره هو الآخر، مثل أخيه الحارث، كان السبب في تخلّيه عن المناصب بعد أبيه.

ثم إن أبا طالب بالذات هو أحق بكفالة ابن أخيه محمد من أعمامه الآخرين، لأنه هو وأبوه عبد الله كانا أخوين لأب وأم. فأبوهما عبد المطلب، وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم، فاجتمعت كل الأسباب ليكون أبو طالب من يَلِي أمرَ محمدٍ من بعد جدِّهِ.

---

(١) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ص١١٢.

البحث الرابع

مراحل الشباب والزواج في حياة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

محمد الفتى

آلت كفالة محمد ـ إذن ـ إلى عمه أبي طالب، فاحتضنه هذا العمُّ بكل جوارحه: يؤثره بعطفه ومحبته، ويُدْنيهِ إليه، ويحرص على سلامته وراحته تماماً كما كان يفعل أبوه عبد المطلب من قبله..

وقد أخذ أبو طالب العهد على نفسه بأن ينشّىء ابن أخيه على السجايا الحميدة والصفات الفاضلة والتي تأتي مكمّلة لملكاته الفذّة، وعلامات نبوغه البارزة.. فراح يدرّبه على العمل مبتدئاً برعي الغنم لأهله، ليعتاد الاعتماد على النفس، وتتكون لديه القدرة على مواجهة الحياة بأعبائها، ولا سيما في الصحراء حيث شظف العيش، وقساوة الطبيعة على أشدّهما.. وكان الرعيُ عملًا عادياً لمن هم في مثل سن محمد، لأن الماشية كانت من وسائل العيش الرئيسية، ومصادر الرزق الهامة في شبه الجزيرة كلها، فكان محمد يقوم هو وأبناء عمه بالرعي، ومعاشرة أولئك الأتراب الذين لم توفر لهم ظروف الحياة سبُل اليُسر ورغد العيش.. ولم يتأفف محمد من هذا العمل، بل على العكس، وجد في الرعي، ورعاية الغنم ـ خاصة ـ ما يكسب الإنسانَ مشاعرَ الرقة، والحلم، والعطف على الضعفاء، وهو يقود هذا الحيوان الأعجم الضعيف إلى الكلأ والماء، ويردّ النافر منه إلى

القطيع، فلا يكون شروده سبباً لهلاكه أو افتراسه من وحش عادٍ.. ثم إنَّ اجتماع الرعاة مع بعضهم، وهم في الغالب من أبناء الفقراء، وفيهم أيضاً العبيد والموالي، ومشاركتهم في الأكل والشرب، وتدبُّر أمور القطعان.. كل ذلك ينمي روح التعاون، وملامسة حاجات الفقير، والإحساس بآهات الضعيف، إلى غيرها من المشاعر الإنسانية النبيلة، التي لو تسنَّى ـ لمن يحفل بها في حياته، صغيراً كان أو كبيراً ـ أن يتسلم مقاليد الحكم، لجعل المساواة والعدالة، ورعاية المحتاجين، والنظر إلى شؤون الجماعة ومصالحها، من أولويات حكمه، والعمل على تحقيقها.. بل، ولعلَّ الأمة التي تنصبُّ اهتماماتها على مثل هذه القضايا، تكون جديرةً بتحمل جميع أعبائها ومسؤولياتها، وقادرةً على مواكبة الأمم الأخرى في تقدمها واستقرارها العام، مما قد يساعدها على النهوض والتقدم.. من هنا كانت حكمة الله البالغة التي جعلت النبيين والمرسلين جلَّهم رعاةً، أو عشراء لرعاة، فكان موسى وداود وشعيب عليهم السلام رعاةَ ماشية، وكان أول الذين حدبوا على السيد المسيح عليه السلام واجتمعوا حول أمه في المغارة، وقت مولده، رعاة بيت لحم. وعلى غرار تلك الثلة الصالحة قضى تدبير الخالق الحكيم أن يمارس محمد تجربة الرعي، وهو ما يزال في بدء فتوّته، وإلى أن يبلغ الثانية عشرة من عمره.

ففي تلك السن أراد أن يعمل بالتجارة، ذلك أن الموسرين من أهل مكة، ومن قبيلة قريش بالذات، كانوا يزاولون التجارة بذهابهم في رحلتي الشتاء والصيف إلى بلاد اليمن والشام. وقد ساعدهم على ذلك ثلاثة عوامل: الموقعُ الجغرافي لمكة حيث كانت ممر القوافل التجارية، ووجودُ الكعبة الشريفة مقصد الحجيج من أنحاء شبه الجزيرة كلها، وإقامةُ الندوات وأسواق الشعر والخطابة حيث كانت

تزدهر في تلك الأسواق تجارة البيان والبلاغة إلى جانب تجارة السلع والبضائع..

وكان محمد يرقب مجريات تلك الأمور، فأراد أن يعمل بالتجارة ليؤمن الكسب الحلال الوافر لهذا البيت الكريم الذي يحتضنه ويؤثره على أبنائه.. وقد وجد الفرصة سانحة عندما رأى عمه أبا طالب يتهيأ للخروج في تجارة له إلى الشام، فعرض عليه مرافقته في تلك الرحلة.

وتردَّد عمه في بادىء الأمر خوفاً عليه من التعب، ووعثاء السفر، وهو ما زال غضَّاً، طريَّ العود، وقد لا يستطيع تحمُّل المشاق والصعاب.. ولكنه وجَدَ عنده إرادة وعزماً قويين لمرافقته، فاستجاب لحماسته، ووافق على سفره معه، مؤثراً أن يكون ابن أخيه إلى جانبه، فيتمرّس بأعمال التجارة، ويتدرّب على معالجة المشاكل التي قد تصادف المسافرين، وخصوصاً إذا كان في السفر فوق مشاقّه، السهرُ على الأموال، وتوفيرُ روح التعاون بين الرجال.

وسارت القافلة في طريقها إلى بلاد الشام، وراحت تقطع البوادي والقفار، وحديثُ الركبِ الأقاصيصُ والروايات عن قوم عادٍ، وثمودَ، وقومِ لوط وأصحاب الأيكة.. وما يتداخلُ فيها من الكلام على شؤون التجارة، وأحوال رجال القافلة.. وغير ذلك مما يتسلّى به الركب، ويساعده على اجتياز المسافات الطويلة عندما يتعبون من الأهازيج، والحداء، ومبادلة الأشعار، وكل ما يمكن أن تجود به القرائح، قبل الوصول إلى بلاد الشام في بعدها عن مكة..

وكان محمد يستمع إلى كل ذلك، ويصغي بانتباه، فوق ما

يجود به عمه أبو طالب لكي يُبعد عن نفسه السأم والضجر، ويخفف عنه شدة التعب، حتى بلغتِ القافلة بصرى من أرض الشام، فأناخت رحالها، وانصرف كل واحد إلى القيام بما عُهِدَ إليه من المهام التي ألفوها في تلك الرحلات..

وهنالك، وفي ظل شجرة كبيرة استلقى محمد، واضطجع عمه إلى جانبه يستريحان.. وكان غير بعيد عن تلك الشجرة صومعة أقيمت على الرابية من تلك الناحية التي تنيخ القوافل رحالها فيها.. وكان الرجال يعرفون راهب تلك الصومعة الذي يعيش للعبادة والتأمل، واغتراف ما في بطون الكتب التي يرونها عنده..، وقد توطّدت معرفتهم به نظراً لما كان يقدّم لهم من عونٍ، في بعض الأمور التي يحتاجون لها، كلما نزلوا بالقرب من صومعته.

ووقف الراهب، كعادته، يطل من نافذته على القافلة، فيشدّه دبيبُ هؤلاء الرجال وأصواتهم التي تتعالى وهم على نفس الانهماك والانشغال اللذين اعتادهما كلما أناخت القوافل بالقرب منه. واسترعى انتباهه، في وقفته تلك، هذا المشهد الذي يجذب إليه، رغماً عنه، كلَّ من يرى رجلًا مهيباً، تبدو عليه علائم النبل والشرف، ومسحة الجد والوقار، وقد استرخى إلى جانب فتًى كأنْ لا همَّ له إلَّا حراسته، والاطمئنان إليه بقربه.. وسرعان ما أحسَّ الراهب بأن نفسه تلحُّ عليه في رؤية هذا الفتى، وقد ظهر له وكأن نوراً يشع من وجهه.. فبعث في دعوة أبي طالب وفتاه لزيارته.

ولم يتوانَ أبو طالب عن تلبية الدعوة، بعدما رأى ابن أخيه قد أخذ قسطاً وافراً من الراحة، فذهب إلى الصومعة، وجرى العناق بينه

وبين الراهب بحيرا. ثم جلسا يتجاذبان أطراف الأحاديث كعادتهما، ولاسيما سؤال الراهب عن الأحوال في قلب شبه الجزيرة، وما يفعل اليهود هناك، وبخاصة في يثرب حيث صار لهم ذلك النفوذ القوي، الذي استطاعوا من خلاله استغلال كلِّ شيء من حولهم، يمكن أن يؤمن لهم مصالحهم، كما هو دأبُهُم في كل مكان يحلّون فيه!..

وكان الراهب بحيرا يعرف أن أبا طالب على الحنيفية الإبراهيمية، وأنه يؤمن بحقيقة وجود الله تعالى، وحكمته في خلائقه، وعظمته في جلاله وعزته، وذلك بخلاف العرب الذين يعبدون الأصنامَ ويتخذونها آلهةً لتقرّبهم إلى الله زلفى، وأن عبادتهم تخالف فطرة الإنسان، ومنطوق العقل. ولذلك كان الراهب يكبر أبا طالب كلما التقاه، ويزداد احترامه له وتقديره لصدق تفكيره كلما جلسَ إليه يحادثُهُ..

ويحاول الراهب بحيرا، بعدما جال في آفاق علمه، وما اطلع عليه من الإنجيل والتوراة ـ كما كان يتحدث به إلى أبي طالب ـ أن يصل إلى هدفه الذي يريد، فجعل اهتمامه ينصب في السؤال عن هذا الغلام الذي يرافقه في سفره.. فأخذ أبو طالب يعرّف عن ابن أخيه، وما يزدان به من خصال حميدة وصفات كريمة على الرغم من حداثة سنه، وما يمتاز به عن أترابه من المواهب التي أودعها الخالق العظيم في نفسه.. حتى إذا اكتملت لدى الراهب بعض المعلومات التي يريدها، مالَ إلى «محمد» يستحلفه ـ عن قصد ـ باللات والعزى ـ على عادة العرب في إيمانهم ـ أن يجيب، بلا أدنى حرج، عما قد يسأله عنه!..

وجاء جواب «محمد» القاطع وهو يردّ على هذا الراهب بألَّا

يسأله شيئاً باللات والعزّى، وأقسم بالله أنه ما أبغض شيئاً بُغضَه للأصنام، وعبادتها من قوم جاهلين!. . . .

وطابت نفس الراهب بحيرا، وهو النصراني المؤمن، إلى ما أبداه هذا الفتى. فقد حلف بالله أنه يبغض الأصنام، وحَلِفُه دليل على فطرة سوية لم يخالطها شِرْك أو وثنيّة.

أجل لقد أنكر «محمد» على الراهب استحلافه له بأوثان جامدة لا تملك نفعاً ولا ضرّاً، بل واستحلفه بدوره بالله ألا يذكرها له، فازداد به إعجاباً. . فقال له:

ـ بالله ألا أخبرتني عما أسألك!.

فقال له محمد: الآن، سل عمَّا بدا لك. .

وراح الراهب بحيرا يستوثق منه عن أمورٍ قد تكون مرَّت في حياته. . . وعمَّا كان يشعرُ به حيال تلك الأمور. . وماذا كان يفعل أثناءها!. .فكان محمد يردُّ عليه بكل صدق وثقة، ودونما مواربة في جوابه أو كلامه، وكأنه شيخ مجرّب خَبَرتْه السنون، وصهرته الأيام، وليس فتىً في الثانية عشرة من عمره. .

ورأى الراهبُ بحيرا ـ أخيراً ـ وبما انتهى إليه في ذلك اللقاء، بأن علامات النبي الذي سيبعث في آخر الزمان هي أكثر ما تنطبق على «محمد». . ولكنه لم يجرؤ على البوح بقناعته تلك علناً وصراحةً، لأن ذلك قد يشكل خطراً على الفتى، بل وعليه هو نفسه، من بني يهود الذين يعرفون العلامات التي وردت في كتبهم وتدلُّ على النبي المنتظر. فآثر أن يشير على أبي طالب ألَّا يألو جهداً في رعاية ابن أخيه والحفاظ عليه، لأنه سيكون له شأن عظيم في مقبل أيامه. . ثم نصحَهُ

أن يعود به إلى مكة لأن في عودته خيراً له من التجارة والأموال، وذلك عندما قال له: «فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهودَ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليَبْغُنَّهُ شرّاً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده»[1].

ونتساءل: ما الذي دفع الراهب بحيرا لأن يبدي تخوفه على هذا الغلام، ويجعله ينصح عمّه بأن يعيده إلى مكة يا ترى؟

إنَّ من الثابت في التوراة والإنجيل ـ قبل التحريف الذي أدخلته عليهما الإسرائيليات ـ أن نبياً يُبعث بعد عيسى ابن مريم عليه السلام. فكانت صفات هذا النبي وعلاماته ومميزاته مما يجدونه مكتوباً عندهم في الكتابين المقدسين، ومما يعلمه الأحبار والرهبان ـ من اليهود والنصارى ـ فإذا اجتمع علم الكتاب وإيمان الإنسان ـ لصاحب كل ذي علم ـ فإن هذا العالم المؤمن يهدي إلى الحقيقة الجليلة التي تنضح بالصدق، تماماً كما فعل العالم بحيرا، وهو يشير بأمارات النبوة وبالعلامات التي تدلُّ على أن هذا الفتى «محمد» هو الذي أعدَّه الله تعالى ليكون من أنبيائه المختارين بل وخاتم النبيين..

إذن، فالحدث الهام في لقاء الراهب بحيرا بالغلام العربي الهاشمي محمد بن عبد الله هو إيمان هذا الراهب النصراني بحقيقة النبوَّة المحمدية، عملًا بالبشارة التي أنزلت في الكتب السماوية. وأما الحكمة الإلهية من هذه البشارة، فتكون بالتأكيد على أن النصرانية هي التي تبشر بالإسلام، لأنهما ـ في الأصل ـ دين الله الواحد الأحد، الدين الحنيف الذي دعا إليه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وحمله

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٩٤.

المرسلون من الله (تعالى) إلى أهل الأرض . . فالنصرانية المؤمنة هي الأَوْلى بأن تبشّر بأحمد الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. ولذلك كان على أهل العلم من النصارى أن يكونوا أوْلَى الناس بمعرفة «محمد»، وبمعرفة الشأن العظيم الذي سيكون له في الناس، انطلاقاً من عقيدتهم الحقة.

أما ما قيل عن الغمامة التي توردها كتب السيرة، وأن الراهب بحيرا قد رآها وهي تظلل الشجرة التي يستلقي تحتها محمد، فإن المؤرخين المسلمين يجعلونها سبباً لدعوة الراهب بحيرا الفتى محمداً والتحدث إليه. وسواء أكانت الشجرة أم الغمامة، أم هما معاً، فإن ذلك يشير إلى الأمر الذي شاءه الله تعالى وهو أن تكون النصرانية هي المبشِّرة بالنبي محمد ﷺ، عملًا بما أُنزل في الإنجيل، وأن النصرانية والإسلام يجب أن يتلاقيا على هذه الحقيقة، بل وعلى كل الحقائق الأخرى المتعلقة بالإنسان والحياة والكون، لأنهما من الينبوع الواحد.

وسيَّان بعد ذلك إن صحَّت رواية الغمامة أو لم تصح، وسواء أكان القصد اعتبارها معجزة أم غير معجزة، فالحقائق الثابتة تبقى هي، هي. . رافقتها المعجزات أم لم ترافقها، وإن كانت المعجزات التي تحصل هي البراهين والشواهد على قدرة الله تعالى، وقد آتاها لأنبيائه ومرسَليه لتكون الدلالات على مكانتهم العظيمة، والبراهين التي يقدمونها للناس على صدق الدعوة التي يحملونها إليهم من رب العالمين. .

ومعجزة الغمامة سواء حصلت أو لم تحصل ـ والله أعلم ـ ليست هي المعجزة الوحيدة في حياة محمد. فقد سبقتها البشارة به في

التوراة والإنجيل.. وأما شأنه العظيم، فإن حياته كلها تتبدّى لكل منصفٍ أنها كانت ذات شأن عظيم، وبخاصة منذ بدء بعثه، ونزول الوحي عليه بهذا القرآن الذي يبقى معجزة الله الدائمة، الحية بين أيدي الناس وفي حياتهم، والتي ستبقى إلى حين قيام الساعة. فالقرآن حقيقة راهنة لا مجال لنكرانها. كما لا مجال للإنكار أن هذه المعجزة الحسية هي التي لا تزال تتحدى الثقلين، الإنس والجان، على أن يخرقوها، أو أن يأتوا بمثلها، وما يزال الثقلان عاجزين عن ذلك، وسيظلان عاجزين عن ذلك مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١).

أجل، إنَّ قدرة الله تعالى تتجلّى في إتيان المعجزات على أيدي النبيين والمرسلين، لتؤكد صدقهم، وصدق الدعوات التي يحملون، فيراها الناس بأم العين، ويؤمن من آمن عن بيِّنة ويكفر من كفر عن بينة.. وقد رأى الناس في زمان النبيين المعجزات التي أثبتت رِفعةَ شأن الذين أنزلت عليهم، ثم ذهبت وقائعها الحية مع الزمن، إلَّا معجزة واحدة منها ظلت قائمةً كبرهان قاطع، ودليل حسّي ملموس، لأنها المعجزةُ الوحيدةُ التي شاءها الله تعالى أن تعيش في كل زمان، حتى تكون هي بذاتها، ووفقاً لما قضى به العزيز الحكيم، الحيّزَ الذي يحتضن بين دفّتيه الرسالةَ السماوية الأخيرة إلى العالمين، فلا تنقضي مدتُها في أي زمنٍ، ولا تتغيّر أو تتبدل على الإطلاق.. بل وشاء الله ـ سبحانه ـ أن تكون معجزة القرآن ـ التي نتحدث عنها ـ هي الحافظةَ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

لذكر غيرها من المعجزات التي رافقت حياة معظم النبيين والمرسلين، حتى يظل لتلك المعجزات شأنها العظيم، وتبقى هي المنارات التي من شأنها أن تنير ظلمات الكفر والإلحاد التي تلفّ الناس في ابتعادهم عن الله، ربِّهم وخالقهم، سبحانه وتعالى عمَّا يشركون. وهكذا حفل القرآن المبين بتلك المعجزات ومنها:

كانت معجزة أيوب عليه السلام بأنْ أحيا الله تعالى أولاده الذين ماتوا ثم رزقه مثلهم.

وكانت معجزة نوح عليه السلام بإغراقِ الأرضِ بالطوفان، ونجاةِ المؤمنين في السفينة التي أوحى إليه ربّهُ ببنائها.

وكانت معجزة موسى عليه السلام عندما ضرب البحر بعصاه فانفلق كالطود العظيم ليعبر منه بنو إسرائيل إلى برِّ الأمان من ظلم فرعون وجنوده الذين كانوا يلاحقونهم. ثم إغراق هؤلاء وهلاكهم على بكرة أبيهم.

وكانت معجزة مريم ابنة عمران عليها السلام عندما كان رزْقُها ينزل عليها من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ وهي معتكفة في محرابها على العبادة، فكان إذا دخل عليها زكريا وجد عندها فاكهة الصيف أيام الشتاء، وفاكهة الشتاء وقت الصيف، فيسألها: أنَّى لك هذا يا مريم؟ فتقول: هو من عند الله.

وكانت معجزات عيسى ابن مريم عليه السلام: بأن يكلم الناس في المهد صبياً، ويبرىء الأكْمهَ والأبرصَ، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى.

وتلك وغيرها، مما لا يُعدُّ ولا يُحصى، كلها من صنع الله العلي

القدير. . فليس المهم، بعد ذلك، أن تظلل الغمامة «محمداً» أو أن لا تظلله أية غمامة، ما دامت قدرة الله تعالى ترعاه، وعينه الساهرة تصنعه، وتعدّه للأمر الجلل. وهو ما أثبته التاريخ، وصدق به علم الراهب بحيرا، عندما بُعث محمد وصار له الشأن العظيم.

على كل حال، فقد كان ذلك اللقاء المبارك. وغادرت القافلة بُصرى من أرض حوران، حيث سارع أبو طالب إلى بيع تجارته، دون أن يتوغل في بلاد الشام خوفاً على ابن أخيه من بني يهود، وقفل راجعاً به إلى مكة ـ كما نصحه بذلك الراهب النصراني المخلص ـ غير عابىء بما أصاب من مال قليل في تلك الرحلة، ما دامت أموال الأرض كلها لا تعدل شعرة في رأس حبيبه محمد، وما دام يحافظ على العهد الذي قطعه لأبيه عبد المطلب في أن يكفل حفيده ويرعاه ويصونه، ويفي بما عاهَدَ عليه نفسه أمام ربه بأن يحميه حتى آخر رمق من حياته. .

أجل بمثل هذه الروح العالية عاد أبو طالب إلى مكة، وقد بات محمد مدار اهتمامه، كما كان ـ دائماً ـ مثار عطفه وحبه. وكان محمد يرقب مدى هذه الرعاية الفياضة من عمه، ومقدار هذا الحنان الكبير الذي يغدقه عليه، فيحسّ بالاطمئنان والأمان في كنف هذا العم العظيم. . ولكن ليس أمان نفسه ما يهمه، بقدر ما يهتم لحياة عمّه، فكثرة عياله وقلة ماله كانت مما يقضُّ عليه مضاجعه فلا يجد معنًى للراحة، وهذا البيت الذي يُؤويه لا يتوفر له العيش الهانىء ولا يرفل بالبحبوحة واليسر. إنَّهُ يعلم بأنَّ الفقر يقهر عمّه، لأنه الجواد الكريم المضياف، بل والأكرم في قريش مكانة واحتراماً. . ولكنها ظروف الحياة التي لا تكون مؤاتية ـ في كثير من المجالات ـ لمثل هؤلاء

الأشراف، الأباة، الأخيار أمثال عمّه!.. من أجل ذلك صار همُّ محمد اليومي البحث عن عمل أفضل من الرعي، لكي يوفر من المال ما يُذهِبُ عن عمّه بعضَ ضائقته، ويجعله يتغلب على تلك الظروف التي يعاني فيها العسر.

وكانت التجارة مقصده في تلك المرحلة من حياته. فاتصل ببعض تجار مكة، يعرض رغبته في العمل معهم، ولكن ليس لقاء أجر بل لقاء ربح يناله من عمله. ولم يشأ أن يعمل بالأجر، وبذلك هو لم يكن أجيراً لأحد قط[1].. فلقي الترحيب من أولئك التجار، وهو أمر طبيعي، لأن أهل مكة جميعهم، تجاراً وغير تجار، يعرفون محمد بن عبد الله الذي يمتاز بالصدق والأمانة، ويتحلّى بالخلق الحسن، والسلوك الطيب منذ حداثة سنه، ونضوج فتوته. أجل، راح محمد يعمل في التجارة داخل مكة، ولكن سرعان ما بدأت حقيقة التجار تتكشف له، إذ وجَدَ أكثرهم لا يقيمون وزناً إلا للأرباح وكسب الثروات، أما كيف يدخل المال عليهم، وبأية طريقة يعملون، فهذا لا اعتبار له في نظرهم. إنهم لا يأنفون من اللجوء إلى المضاربات، وإيقاع الخسائر الفادحة بالبسطاء منهم. ولا يتورعون عن احتكار السلع، ورفع الأسعار لسلب الناس مزيداً من أموالهم.. يتاجرون بلا وازع من ضمير، ويتحكمون في لقمة عيش المساكين، ويستغلون الفقراء بلا رادعٍ أو خوفٍ من حاكم، ما دامت تحميهم قوة الأموال ونفوذ العشيرة!...

وهذا هو حال بعض التجار في كل زمان ومكان، وليس في

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢١، مطبعة صادر.

عهد مكة القديم. إذ إن أصحاب المشاريع الاقتصادية الكبرى، وأصحاب رؤوس الأموال ـ في أيامنا ـ هم الذين يؤثرون في تنصيب الحاكم، وصنع القرار، والتحكم بمصائر الشعوب. وكل ذلك تحت شعار الحرية الاقتصادية في النظام الرأسمالي الذي يباح فيه لكل صاحب نفوذ أن يمتص دم الفقراء، ويستغل عرق المستضعفين، ليشبع نهمه من الثروات والجاه. . .

تلك الأوضاع التي كانت سائدة في مكة، والأساليب المخزية التي يمارسها التجار، قد أثارت سخط محمد واشمئزازه، لأن النفس الإنسانية الأبية ترفض كل ذلك وتعافُه. فمثل محمد لا يرى أن يكون التاجر إلا إنساناً قانعاً، عادلًا، رحوماً، يعامل الناس بالأمانة، ويجني الأرباح بالاعتدال.

ولقد أراد محمد التخلي عن المتاجرة، والعودة إلى رعي الغنم، إلا أن حاجة أحد تجار مكة، وهو السائب بن أبي السائب، إلى إنسان شريف وأمين، يساعده في تجارته الواسعة، قد دفعته لأن يعرض على محمد العمل معه. . وكان هذا التاجر شريفاً على خلاف غيره من تجار مكة. ووجَدَ فيه محمد الرجلَ الذي يمكن الوثوق به، بعدما تبين له أنه أقام تجارته على الاستقامة والقناعة، ولا يتلاعب بالكيل والميزان، ولا يستحلّ الطمع والغش، مثله في بيع المفرّق كمثله في الجملة، سواء بسواء في النزاهة والمعاملة. . فأعجبته تلك الخصال، وراح يعمل معه على النهج القويم في البيع والشراء.

ولم يكن اهتمام محمد منصباً على العمل والكسب وحدهما، بل كان يجد في نفسه توقاً دائماً إلى معرفة كل ما يدور في محيطه،

وفي نوادي بني قومه. ولا يقل هذا التوق لديه عن حب معرفة ما في هذه الدنيا بأسرها، وما في هذه السماء التي تتطلع إليها الأبصار، دون أن تنفذ إلى أعماقها البصائر... كان إذا جاءت الأشهر الحرم يذهب مع أقاربه إلى الأسواق المجاورة لمكة بعكاظ ومجنَّة وذي المجاز، حيث تقام إلى جانب أسواق التجارة بالأموال أسواق الأدب، وندوات البلاغة والبيان.. فيشهد المباراة بين الشعراء، وإنشاد المعلقات، ويستمع إلى ما تحفل به من صناعة البيان في الفخر، والكرم، والغزل، وما تمتلىء به من التباهي بالأنساب والشجاعة والاعتزاز.. وكان يستمع إلى خطب الخطباء، وفيهم يهود ونصارى، حيث يفتخر هؤلاء بتعاليم موسى وعيسى عليهما السلام على وثنية العرب، ويتباهَون بدين الله على عبادة الأصنام والأوثان، فيرى في آرائهم خيراً من المعتقدات الأخرى، وقرباً من الحقائق التي يستشعرها في نفسه.. ولكن ما كان يَعجَبُ منه، هذا الاختلاف بينهم، وإصرار كل طائفة على أنها وحدها على الحق، وما عداها على الباطل. فكان يقول في نفسه: إن كان هؤلاء من أهل الكتاب، فلِمَ إذن هذه العداوة والبغضاء؟! ولِمَ هذا الحسد والتعصب والحقد على بعضهم البعض؟! إنهم، وكما يظهرون للعيان، كأنهم أعداء أَلِدّاء، ولو أمكن لفئةٍ أن تقضي على الأخرى لما قصَّرت في ذلك، فهل هذا من الدين الذي يدعون إليه؟!... أبداً لا يمكن أن يكون ذلك صواباً منهم، أو يتوافق مع أديانهم!...

أجل كان محمد يسمع ويرى في تلك الندوات من الحوار والجدال والنقاش، ما يجعل الناس على مذاهب شتى، وعلى فرقةٍ في المعتقدات والدعوات، وعلى تشتت في الآراء والنزعات.. فكان يتفكّر في ذلك كله، ويزنه بميزان عقله وقلبه فلا يجد فيه الحقيقة التي

تجمع الناس، وتؤلف فيما بينهم.. أو الحقيقة التي يمكن أن يتنسَّم طريقَها الصحيحَ من شاء الاهتداء إليها..

وكانت الأحوال التي يعيشها أبناء قومه هي أيضاً ما يشغل باله ويثير اهتمامه!.. كان ينظر إلى البيئة المكية فيجدها حبلى بالمتناقضات.. فقد كان في ذلك البلد، الذي يعد صورة جامعة لما عليه البوادي والحضر في شبه جزيرة العرب، عادات الجاهلية، وتقاليدها الفاسدة والسليمة على حدٍّ سواء.. ففي مكة كان يعم الفساد والفسق، ويغلب النفاق والظلم. وجلُّ أهلها يتعاطون الموبقات، ويستسيغون المتَع والملذات عن طريق الإكراه أو الرضاء، ويحلون الربا والسلب. يكرهون البنات، اللواتي كان وأدهنّ أمراً مألوفاً. أما القبلية والعصبية فإن حياتهم تقوم عليهما. وليس ما يمنع من نصرة ابن العشيرة ولو كان ظالماً، وخذلان غيره ولو كان مظلوماً..

ولكن إلى جانب تلك المساوىء، كان لديهم خصال حميدة مثل الكرم، والشجاعة والإيثار، والصبر على المكاره، والثقة بالنفس، والاعتزاز بالنسب، والحفاظ على الشرف، وما إلى ذلك من المزايا الحميدة التي يتحلَّى بها العربي في بقاعه الصحراوية الجافة.. فكان أن تكونت لديهم حياة مجتمعية تشكل خليطاً من الأعراف الحسنة، والأعراف السيئة، يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، وترافق حياتهم جيلًا بعد جيل. ولكن طابع تلك الحياة الغالب، الذي يصطبغ بروح الصحراء، كان الانفلات من كل قيد، والانطلاق في غياهب جاهلية ظلماء، تحتاج إلى من يقودها إلى ضياء فجر جديد، ونور عهد وليد..

في تلك الأجواء عاش محمدٌ فتوته، فتفتحت مداركه على وعي كلّ ما يحيط به، وعلى التفكير بالغثّ والسمين منه.. مما عزَّز في نفسه البحث عن النواميس التي من شأنها أن تُصلح الحياة والناسَ!...

محمد الشاب

كانت عوامل التغيير قد بدأت تترسّخ في نفس محمد وهو ينتقل من مرحلة الفتوة إلى مرحلة الشباب. وكانت دوافع التغيير قوية وعديدة لديه، أقلُّها هذا السخط على عبادة الأوثان، وهذه الحسرة على ضلال الناس، وضياعهم في حمأة الفساد الذي عمَّ حياتهم، وطغى على أنماط العيش عندهم... وكان دأبُه التأمُّلَ والتفكّرَ، ينتظر هبوط الليل ليهجر فراشه، ويخرج إلى الفلاة، حيث يرتحل بعقله وحواسه ومشاعره إلى الخالق عسى أن يهديَه إلى الحقيقة التي ينشد.

وهنالك، وغير بعيد عن الكعبة، وقريباً من جبل عرفات، وفي جبل النور بالذات، كان يختلي محمد بنفسه، وهو وحيد تحت قبة الكون الواسعة، يمضي ساعات طويلة في جوف الليل البهيم، أو في ضوء القمر يتأمل في صفحات هذا الكون، وما ينطوي عليه من أبعاد وأسرار، ويتفكر في شأن هذه الخلائق ودقة صنعها، وانتظام سيرها، ويدقق في شؤون الناس، فيراهم بعيدين عن التبصّر بعظيم خلقهم، لا يحفلون بما حولهم من دلائل وبيّنات على قدرة الخالق العظيم، والمدبر الحكيم، الذي خلق هذا الكون، وخلق هذه الحياة، وخلق هذا الإنسان.

... فكل شيء في هذا الوجود لا بد له من خالق، وكل شيء

في هذا الوجود يحتاج إلى قدير يرعى شؤونه، ويدبِّر أموره، وكل شيء في هذا الوجود يحتاج إلى حكيم يهديه، وكل شيء في هذا الوجود يحتاج إلى قوي عزيز مهيمن، يلجأ الخلق إليه في سرّائهم وضرّائهم.

إذن، فما هي تلك الأباطيل التي تقوم عليها حياة الناس في مكة، وفي جزيرة العرب، وهم يتخذون الأوثان والأصنام آلهة؟ وما هي تلك الحماقات في عبادة جمادٍ من حجر أو شجر، والإنسان قادر على أن يدمِّره أو أن يغيِّره بمعبودٍ آخر في كل حين؟!..

لا، ليست هذه هي الحقيقة!.

الحقيقة المطلقة هي حقيقة وجود الله تعالى، وهو رب السماوات والأرض.. والعرب يقرون بحقيقة وجود الله، إلَّا أنهم يشركون بعبادته الآلهةَ المزعومةَ، ويجعلون له أنداداً بغير علم!.. إذن فهو الضلال عن الحقيقة المطلقة!

والحقيقة المطلقة هي ما كان محمد يريد الاهتداء إليه، فاستمر في حياته على التأمل والتفكير، فكان اليقين يزداد في نفسه يوماً بعد يوم بأن كلَّ شيءٍ باطلٌ ما خلا وجهَ الله الخالق العظيم.. ويترسَّخُ هذا الاعتقاد عنده إيماناً ثابتاً، ويقيناً قاطعاً.. وهذا ما كان يدفعه، ويشدّه إلى الخروج في جوف الليل، من أجل النجوى، وملاحظة هذا الوجود بأسره..

وأما في النهار فكان يعود إلى عمله اليومي، داخل مكة، في التجارة، دون أن يتخلّى عن مبدئه القاطع في توجيه الناس، وبث روح التوعية فيهم، لكي يتمكنوا من الانتقال إلى حالةٍ أفضل مما هم عليه،

وذلك من خلال قناعته بالتغيير الذي ينشده، ولا سيّما أنه يعطيهم المثَلَ من نفسه، إذ هو ـ كما يعرفونه حق المعرفة ـ ليس لديه، قطعاً، أية نزعة أو رغبة لأن يجاري أبناء مجتمعه في صغائر الأمور التي ألِفوها، وفي أنماط العيش التي اعتادوها.. فهُم في غفلةٍ عن الغاية التي من أجلها خُلقوا، وفي بُعدٍ عن استعمال هذا العقل الذي أودعه الخالق في كيانهم، ليتخلوا عن الجهل والضلال، وسوء الفعال التي تحكَّمت فيهم، وجعلتهم ينقادون للعصبية، وللأهواء التي تنأى بهم عن القيم الرفيعة، والمثل العليا التي من شأنها أن تغيّر منهج تفكيرهم، وأن تقودهم إلى حياة أفضل وأسمى..

إنهم ـ إجمالًا ـ يحتاجون إلى هزة عنيفة، تعيدُهم إلى الوعي، فيدركون حقيقة وجودهم.

فما هو السبيل إلى ذلك؟!

هذا ما كان محمد يجهد في البحث عنه في خلواته في غار حراء وتأملاته في رحاب الكون، ويضني النفس في الاهتداء إليه..

أما المقاصد التي كان يرومها فهي كبيرة وبعيدة.. وما عليه في هذه المرحلة إلَّا أن يثابر على جهوده في التوجيه الذي أخذه على نفسه، وبخاصة توجيه الشباب في مكة، الذين يكدحون في طلب لقمة العيش، ويجدّون في العمل والرعي لكسب قوتهم.. فهؤلاء الشباب هم أمل المستقبل، على سواعدهم تبنى المجتمعات، وبكفاحهم تنهض الأمم.. وإنَّ عليه أن يغرس في نفوسهم حُب الفضائل، والأخلاق القويمة، والتصرف بما يحفظ كرامتهم، ويوطد عزائمهم على العمل الجاد، النافع لهم ولأبناء قومهم.. لاسيما أنه قد جعل من

نفسه مثالًا للشباب في النظر إلى الحياة بجديّة، والابتعاد عن كل ما يسيء إلى كرامة الإنسان ويحط من قدره وقيمته.

وإذا كانت كُتب السيرة قد أغفلت هذا الجانب الموجِّه في حياة محمد، وصرف اهتمامه إلى الشباب، من دون نسيان الكهول والعقلاء، فإنَّ حياته كلها، سواء في شبابه، وقبل البعثة أو بعدها، هي أكبر عنوان على أنه كان القدوة الصالحة في المجتمع المكي، كما يظل هو الأسوة الحسنة لكل من يطَّلع على دقائق سيرته، وتفاصيل حياته..

ولذلك فإنه، وهو في عزّ الصبا والشباب، كان إصلاح أحوال الناس ورعاية شؤون القوم من الاهتمامات الدائمة لديه. فإن وَجدَ هؤلاء القومَ على أمر جامع، ذهب إليه، وأدلى بما يراه صواباً، وينصح لهم بما ينفعهم، ويعود عليهم بالخير..

وكان موقفه منهم أشدّ في الكريهة[1] منه في غيرها، حتى يُبعد عنهم غلواءَ النفوس، وهياج العواطف وقِصَر النظر، ويمنع، بقدر ما يستوعبون، آراء التهور والتسرّع، التي تؤدي في معظم الأحيان إلى أذيتهم، وإلحاق الخسارة بهم، كما حصل في حرب الفجّار.

حرب الفجّار

وهي تلك الحرب الفاجرة التي دارت بين قيس عَيْلان من جهة، وبين قريش وكنانة من جهة أخرى، وكان مسبّبها البرّاض بن قيس الكناني. لقد كان شقياً، اعتدى على رجل من هذيل وقتله، فأخرجه حرب بن أمية من جواره، ففرَّ إلى ملك الحيرة النعمان بن منذر، فالتقى عنده عروة بن عتبة، من بني هوازن.

---

(١) الكريهة: الشدّة أو الحرب.

وكان ملك الحيرة يبعث كل عام بقافلة من الطيب إلى سوق عكاظ وغيرها من أسواق العرب لتبيع حِملها وتعود بما يحتاج إليه من الجلد والحبال وأنسجة اليمن المزركشة. وكان يعترض قوافلَه بلعاء بن قيس لأنه قد قتل أخاً له، مما جعل النعمان يبعث بقافلته بصحبة رجل من العرب حتى يجيرها ويبيعها له.. وبحكم وجود البرّاض الكناني عنده، فقد عرض عليه نفسه ليقود قافلته في حماية قبيلة كنانة. ومثله عروة الهوازني فقد عرض هو الآخر نفسه لقيادة تلك القافلة، على أن يتخطى بها إلى الحجاز طريق نجد.. فاختار ملك الحيرة عروة، مما جعل البرّاض يحقد عليه، ويلحق به فيغتاله.. فرأت في ذلك قيس عيلان سبباً للثأر لأحد أبنائها الذي قتله النعمان.

وقد هاجت حرب الفجار في شهر رجب، أحد الأشهر الحرم وهي: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم ورجب، عندما أتى الخبر إلى قريش، وهم في عكاظ، بأن هوازن وقيساً قد عزمتا على الثأر منها.

وكانت العرب تحرّم القتال في الأشهر الحرم، حتى يكون للناس الأمان في الحج إلى الكعبة، كما كانت تحرّم القتال عند البيت الحرام. فرأى أبو طالب أن يلجأوا إلى جوار الحرم حتى لا تُنتهك حرمة الأشهر الحرم، وقال: «هذا ظلم، وعدوان، وقطيعة رحم، واستحلال للشهر الحرام، ولا أحضره مع أحدٍ من أهلي»[1]. فقال عبد الله بن جدعان، وحرب بن أمية: «لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم»[2]، ولكن حرب بن أمية (أبا سفيان) ـ وخلافاً لما عزم عليه ـ

(١) تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٥.

(٢) المصدر السابق.

عاد وحضر تلك الحرب، وكان هو قائد قريش وكنانة[1].

وكان المعتدون أسرع، فلم تدرك قريش الحرم لتلوذ فيه، فوقع القتال. وكان الظفر في أول النهار لقيسٍ على كنانة، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس. ولكن قريشاً أبت إلَّا أن تركن إلى البيت العتيق، فأنذرتهم قيس وهوازن باستئناف الحرب بعكاظ العام المقبل.

وقد امتدت تلك الحرب على مدى أربع سنوات. وخاف الشيوخ والعقلاء أن تحلَّ اللعنة على العرب بسبب تلك الحرب الفاجرة، فعُقد الصلح على حسب العُرف الجاري يومئذٍ، وهو أن يدفع من كانوا أقلَّ قتلى، دية العدد الزائد على قتلاهم من الفريق الآخر. وقد دفعت قريش دية أحد عشر قتيلًا.

وقعت حرب الفجار ومحمد على عتبة السادسة عشرة من عمره الشريف، لأنه كان قد أمضى أربع سنوات في الرعي والتجارة بعد سفره مع عمّه إلى الشام. وكان من الطبيعي أن يعيش أجواء تلك الحرب، فمقت فجورَها، وعابَ مَن أهاجها. وقد رأى فيها ـ كغيره ممن يعظمون حرمة الكعبة ـ حرباً فاجرةً تخزي وتجلب العار.. فهي إثم في مكانها لأنها انتهكت حرمة البيت الحرام، وهي إثم في زمانها لأنها انتهكت حرمة الأشهر الحرم، وهي إثم في فعلها لأنها قتلت الناس... فكان خليقاً به ألَّا يشارك فيها لا من قريب، ولا من بعيد. ويؤكد ذلك أن عمه أبا طالب قد لعنها ومنع بني هاشم من الدخول فيها، فكان محتوماً أن يلعَنَها محمد كليّاً..

---

(١) وِفقاً للروايات الأخرى غير اليعقوبي.

وكان محمد ما يزال على دأبه من الانصراف للتأمل والتفكير ـ كما رأينا ـ ليهتدي إلى المنهج الذي يبدأ به التغيير في مجتمعه. وهذا التوجه من شأنه أن ينأى بصاحبه عن أمور الدنيا العادية، وأن يرتفع به عن المشاغل الروتينية التي تهم الناس وتجعل الحياة وكأنها رتيبة، وعلى وتيرة واحدة.. لقد كان يتوق إلى تغيير الأوضاع، مثل توقه إلى الكمال، ولذلك لعن حرب الفجّار وأنكر على المشاركين فيها فِعالَهم، وكيف لا، ونحن قد عرفنا بأن الله تعالى يوجّهه، ويرعى خطاه، ليُعدَّه لليوم العظيم، ويكون صاحب الشأن العظيم كما كتب في اللوح المحفوظ. وإذا كان بعض كتّاب السيرة يوردون أنه شارك في تلك الحرب، بصورة أو بأخرى، وأنه هو بعد بعثه ﷺ كان يذكر ـ متأسفاً ـ مشاركته فيها، فالحقيقة أن ذلك كله محض إدخال على سيرة محمد، أو محض تخيُّل من أصحاب تلك السير. لقد أبوا إلَّا أن يشارك محمد في حرب الفجار لأنه في عز الشباب، فتأبى عليه شجاعته، ويأبى عليه إقدامه إلَّا أن يحضر أيام تلك الحرب كما يتوهمون!..

والعجب!.. كيف تتحدث كتب السيرة تلك، عن خُلُق محمد العظيم، وعن حفاظه على سمعته وكرامته وهو في ريعان الشباب، فلا يقرب شيئاً ـ مثل رفاقه في مكة ـ من المتع واللذائذ... ثم يقولون: إنه شارك في حرب الفجار؟! إنه إقحام في غير محله، وهو باطل عند رب العالمين...

ولم تكن حرب الفجار لتستغرق إلَّا أياماً من كل عام، يعود بعدها الناس، وأهل الحرب أنفسهم إلى ممارسة الحياة، ومزاولة الأعمال كالمعتاد، فكانت مكة تستعيد نشاطها التجاري وحيويتها في

استقبال القوافل، ورحيلها عن أرضها إلى أن جاء الوقت الذي انتهت فيه تلك الحرب اللعينة، إلَّا أنها خلفت في نفس محمد أكبر الأثر: فقد كرهها، ومقتها في أيامها ودهمائها في انتهاك حرمة الكعبة، وحرمة الأشهر الحرم.. وشأنهما كبير عند الله تعالى، وعند عباده من ذوي النفوس الصافية. وقد ظهر دور محمد بارزاً في وقف تلك الحرب، والعمل على تهدئة النفوس، حتى يتحقق الصلح بين المتقاتلين ـ كما حصل ـ. وذلك بما ينسجم مع طبعه الإنساني، وتطلعاته إلى مناخ جديد، ووضع مختلف عما هو سائد في بيئته. وكان محمد قد بلغ بداية العشرين من عمره، عندما دعاه واجبه الأخلاقي والإنساني ليكون عنصراً فاعلًا في وقف تلك الحرب فأكبرَ قومُه فيه رجاحة عقله، وسداد رأيه، وازدادوا له حباً وتقديراً.

حلف الفضول

انتهت حرب الفجار، واطمأنَّ الناسُ إلى أجواء مكة، ومعاودة مزاولة تجاراتهم فيها.. فجاء رجل من زبيد ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائل من دون أن يدفع له ثمنها. فلجأ الزبيدي إلى الأحلاف (عبد الدار، ومخزوم، وجمح، وسهم، وعدي بن كعب) يستجيرهم في حقه، فأبوا أن يعينوه على العاص نظراً لمكانته بين أطراف هذا الحلف.. بل وانتهروا رجل زبيد وهدَّدوه بالويل ينزل عليه إن أصرَّ على المطالبة بما يدّعيه!.

ولكنَّ الرجلَ سكت على مضض وانتظر طلوع الشمس من صباح اليوم التالي، فصعد على جبل أبي قبيس، والناس مجتمعة حول الكعبة، وراح ينادي بأعلى صوته، مستصرخاً قريشاً أن ترفع الظلم عنه..

وثارت الحمية في نفوس الأباة من قريش: فلا يجوز أن تسلب الأموال بجوار بيت الله الحرام، ولا أن تضيع الحقوق في كنفه. فهب الزبير بن عبد المطلب ودعا إلى نصرة الرجل، فاجتمع بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة[1]، في دار عبد الله بن جدعان، فأولَمَ لهم، وغمسوا أيديهم في ماء زمزم، وتحالفوا وتعاهدوا أن يكونوا على الظالم حتى يرتدَّ عن ظلمه، ومع المظلوم حتى يُردَّ إليه حقه، فسمَّت العرب ذلك الحلف «حلف الفضول»، لدخول أصحابه في فضائل الأمور.

وذهب أصحاب الفضول إلى العاص بن وائل، فخاف، وأعاد للزبيدي بضاعته. وبذلك قال الزبير بن عبد المطلب معتزّاً:

إنَّ الفُضولَ تَعَاقَدوا وتَحَالَفوا ... ألَّا يُقيمَ بِبَطْن مكَّةَ ظالِمُ
أمرٌ عليه تَعَاقدوا وتوافقوا ... فالجارُ والمعتَرُّ[2] فيهِمْ سالِمُ

وقد حضر محمد حلْفَ الفضول، ودعا إليه، وشارك في عقده، لأنه الأبيُّ الذي يكره الظلم، وينصر المظلوم، فكان محبباً إليه، وظل يذكره بعد بعثته ﷺ فيقول: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أحبّ أن لي به حُمر النَّعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»[3].

ومن مآثر الفضول أيضاً أنه كان للمتعاقدين نفس الموقف مع

---

(١) البداية والنهاية، ج٢، ص٢٩٣.
(٢) المعترَّ: الرجل الشديد، أو الواقع في الشدة وأصلها العِتْر وهي الشدة.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٤١ و١٤٢، أعيان الشيعة، ج٢، ص١٣، البداية والنهاية، المصدر السابق.

رجل من خثعم، فقد قدم ذاك الرجل مكة ومعه ابنته، وهي فتاة رائعة الجمال فرآها نبيه بن الحجاج، فخطفها وغاب بها. . .

ونادى أبوها: من يعينني على هذا الرجل؟ فأشاروا عليه بأصحاب الفضول.

ولبّى هؤلاء نداء الاستغاثة، ووقفوا على باب دارة ابن الحجاج مشرعي السيوف، فنزل صاغراً على أمرهم، وأعاد الفتاة إلى أبيها من دون أن يمسها بسوء. .

ورأى أصحاب الفضول في حلفهم الجامع أنه أعاد لقريش هيبتها، ولمكة مكانتها، بعد أن خبا وَهْجُ تلك المكانة بموت هاشم وعبد المطلب. فتفرقت بعدهما الكلمة، ورغب كل قبيل أن يكون صاحب الشأن والنفوذ، مما أضعف هيبة قريش، وأطمع العرب فيها، بعد أن كانت منيعةً، عزيزة الجانب، بعيدة عن أن يطمع فيها طامع، فجاء الفضول وردَّ لها ذلك الاعتبار.

مقدمات الزواج

وتتوالى الأيام، وقَدَرُ محمدٍ ينقله ـ بإذن الله ـ من حدث إلى حدث. . فيشارك في الحياة العامة، ويعيش مع الناس بأفراحهم وأتراحهم، ويقف معهم في معالجة قضاياهم وشؤونهم، بما يوثّق عُرى التعاون والتضامن، ويشدُّ من أواصر الألفة والمحبة بينهم، فكان ـ فعلًا ـ الصادقَ الأمينَ في كل قولٍ أو فعلٍ، لا تزيده الأحداثُ والسنون إلَّا ثقةً بالنفس، ومرورُ السنين إلَّا تمرُّساً بأعمال الخير، وتعلُّقاً بأهداب الفضيلة. . ولذلك نجده وقد بلغ من العمر الخامسة والعشرين، قد حبس نفسه عن الزواج، ولا همَّ له إلَّا التفكير بشؤون

الأقربين، والناس أجمعين، والعمل على الإصلاح في مختلف المجالات.. وكلها أمور جلَلٌ كانت تأخذ عليه مجامع نفسه، وتستغرق وقته..

لقد آثر محمد أن يعيش حياتَهُ بنقاء، وطهر، وصفاء، بعيداً عن هموم الجسد ومتاع الدنيا وزخرفها.. وكل ذلك عن قناعة ورضى، لأنه لو فكّر في الزواج ورغب فيه لكان خطب أكرم فتاة في قريش، وتزوج أرفعَ بنات العرب حسباً ونسباً، وأغناهنَّ جمالًا ومالًا.. ولكنَّ التماسه الخير العام، والنفع العام، وتطلعه إلى عظائم الأمور كانت أهمّ من حاجاته الجسدية، بل وجعل لها الأولوية في حياته على ما عداها...

وكان أبو طالب ينظر إلى ابن أخيه، وقد بلغ ريعان الشباب، وعزَّ الفتوة في تلك السن، فيتفكّر في أمره، وفي عزوفه عن الزواج، فيتساءل: هل إن فقر محمد وقلة موارده هما عائقه عن الزواج؟ مع كونهما ـ على حد علمه ـ مصدر غنًى لنفسه، ولا يمكن أن يشكّلا حائلًا له دون هذا الأمر أو غيره.. أم أنه نسيجٌ فريدٌ في تفكيره لا تلحُّ عليه متطلبات الحياة المادية، فيسلوها، ويكتفي بما يكسب من الرزق الحلال ليعينه به على حاجات عياله؟!

ويرى أبو طالب أنه مهما كانت الدوافع لدى ابن أخيه، فلا يجوز أن تصرفه عن الزواج، والتطلع إلى حياة اجتماعية من شأنها أن تخفف من ثقل همومه الفكرية والنفسية.. وبمثل هذا التوجّه، ولمَّا علم بأن خديجة بنت خويلد تجهز قافلة لتسير بتجارتها إلى الشام، بادر بعرض الأمر على ابن أخيه، للخروج بتلك القافلة، لعلَّ في ذلك

ما يفتح له أبواب الرزق على مصاريعها، ويهيّىء له سُبلًا جديدة في الحياة عسى أن تنقلَهُ إلى وضع جديدٍ فيه الخير والفلاح! فقبل محمد مبادرة عمه، وترك له أن يتدبَّر الأمر مع صاحبة القافلة..

وكانت خديجة بنت خويلد قد تزوجت رجلًا مات عنها، فعادت وتزوجت، من بعده، برجل من بني مخزوم، ذي ثروة طائلة، ولحكمة شاءَها الله ـ تعالى ـ توفي هو الآخر، فورثت عنه مالًا كثيراً، راحت تستثمره في التجارة، حتى صارت القوافل التي تسيّرها تُعتبر من كبريات عيرِ قريشٍ كلها، وقد تفوقها أحياناً كثيرة... وقد دأبت خديجة على استئجار الرجال للعمل بتجارتها، أو إدخالهم فيها على سبيل المضاربة، فمن رضي بالأجر استأجرته، ومن أرادَ المضاربة أعطته المال مقابل جزء من الأرباح التي يحصّلها، على أن تتحمل وحدها الخسائر المالية ـ في حال حصولها ـ بينما يخسر المضارب جهوده.. وكانت على قدر كبير من الدراية والحكمة، فما سيّرت قافلة إلى اليمن أو الشام، إلَّا وبعثت معها موالي لها، أو من تثق به من الرجال حتى يكون عينَها الساهرة على تجارتها. وليس ذلك إلَّا من قبيل الزيادة في الحرص، لئلا يضيع المالُ، بسبب تهوّر بعض التجار، أو سوء النية لدى من تسوِّلُ لهم أنفسهم الغشَّ أو الاحتيال..

ودخل أبو طالب على خديجة يعرض عليها أن يخرج ابن أخيه محمد في قافلتها إلى الشام، لأن متاجرته في مكة لا ترضيه، لاسيما أنه قد عافت نفسه تجار مكة ومطامعهم، فلعلَّ في ذهابه بتلك القافلة ما يغنيه عن أعباءَ كثيرةٍ تثقل على نفسه!...

وكانت خديجة تصغي بغبطة وارتياح، فلما أكمل أبو طالب حديثه، قالت له:

ـ أهلًا بك يا كريم القوم، ومرحباً بابن أخيك في تجارتنا. فوالذي نفس خديجة بيده لأنا الخاسرة إن رددت هذا الطلب. فما محمد إلّا الأمين، وإنه ليؤتمن على الأنفس، فكيف على الأموال؟

قال أبو طالب:

ـ ولكن أليس العقد والاتفاق والشرط بأولى، فإما أن تقرضيه مالًا فيكون مضارباً، وإما أن تجعليه شريكاً في تجارتك هذه؟[1].

فقالت خديجة:

ـ يا أبا طالب لو سألت ذلك لبعيدٍ بغيضٍ فعلنا، فكيف وقد سألتَه لحبيب قريب؟[2] يا أبا طالب لك أن تختار له ما تشاء.

قال أبو طالب: يا ابن أخي، انطلق على بركة الله.

وانطلق محمد بالقافلة، ومعه ميسرة مولى خديجة، وقد أوصته بأن يقوم على خدمته، وأن يساعده في كل أمر يحتاج له.. ومرَّت تلك القافلة بالأماكن نفسها التي عرفها يوم أن جاء مع عمه أبي طالب منذ ثلاث عشرة سنة خلت. وكان طوال الطريق يستعيد تلك الذكريات التي غبرت، حتى بلغت القافلة بُصرى، فحطَّت رحالها هناك، لأنها كانت واحة القوافل التجارية الآتية من صحراء العرب إلى بلاد الشام. وأراد محمد أن يأخذ قسطاً من الراحة فقصد الشجرة الوارفة إياها، وقرب الصومعة نفسها، حتى يستظل هناك، تماماً كما فعل من قبْل. ويلتقي هذه المرة براهب نسطوري كان في تلك الصومعة، فيجالسه، ويحادثه، ويحاوره بما عنده من علم الكتاب... والراهب يعجبُ به،

---

(١) البخاري، ج١٦، ص٩.

(٢) هيكل، حياة محمد، ص١١٩.

ويُكبِرُ فيه خُلُقه، ورصانته، وعمق تفكيره حتى غادرت القافلة وهو يدعو له بالتوفيق، ويوصيه بالحذر، والتيقُّظ في كل ما يفعل وأينما يذهب. . وكان ميسرة يسمع ما يدور بين محمد والراهب النسطوري، وما يبديه هذا الراهب من اهتمام بالاستفسار عن حياة محمد، فيعجب لمدحه صفاته ولقوله له بأنه سيكون له شأن عظيم. . فيزيده ذلك تعلقاً به، وإخلاصاً له. .

وباع محمد في بلاد الشام تجارته، واشترى ما رغبت به خديجة من بضاعة، محققاً بذلك أرباحاً طائلة فاقت ـ كما كان يقول ميسرة ـ أضعاف الأرباح التي كانت تجنيها أية قافلة أخرى لخديجة بنت خويلد. وبهذا النجاح والتوفيق عاد بقافلته، وقد ملأ الفرح قلوب رجالها، فجادت القرائح بالأخبار والروايات، وصدحت الحناجر بالأناشيد والأراجيز طوال الطريق، حتى وصلوا مشارف الديار، وهم في شوق إلى الأهل والعيال. .

ودخلت القافلة مكة وقت الظهيرة، وكانت أخبارها قد تناهت إلى خديجة، فخرجت إلى علِّية دارتها، تتأمل مشهد الإبل وهي تقبل نحوها، وقد أثقلت خطاها الأحمالُ فوق ظهورها، وطول المسافات التي قطعتها، فتسرُّ بهذه النعمة التي أفاضها الله عليها، وتمجِّد ربَّ الكعبة، التي بفضل بركتها، قد وصلت إلى ما وصلت إليه من غنًى وجاهٍ. وكانت عيناها لا تحيدان عن محمد وراحلته تتهادى به في مقدمة القافلة، وبدون أن تدري وجدت نفسها تندفع إلى فِناء الدار لاستقباله، وقد لوَّحت حرارة الشمس لون وجهه الجذّاب، من غير أن تؤثر على ما يعتمر به من قوة، ومن ثقةٍ تتبدى على ثغره الباسم. وكأنما هيبته قد عقلت لسانها ومنعت عنها النطق، فلم تزد على أن

ترحب به قائلة: «حمداً لله على سلامتك يا محمد»، فردّ عليها التحية بابتسامة عريضة انفرجت عن فمٍ ذي أسنان مفلّجة[١] كأنها حبات اللؤلؤ الفاخر في العِقد الثمين..

ولم تدَعْ خديجةُ الدهشةَ تغلبها، فوقفت تتأمله وكأنها تراه لأول مرة، فإذا بها أمام شاب يتّسم بقامةٍ معتدلة، لا بالقصير اللاصق، ولا بالطويل الشامخ، عريض الصدر، بعيدٍ ما بين المنكبين، قويِّ الزندين، رحْب الراحة، ممتدّ الأطراف، في جسمه صلابة الرجل العربي، الذي عالجته قساوة الصحراء ومنحته القوة والبأس.

كانت المرأة تتأمَّلُ هذا الخَلْق السوي، فتقول في نفسها: «سبحان رب الكعبة ما أجمل هذه الملامح، وما أنقى هذه القسمات»، فقد حباهُ خالقه بما يزيد في روعة خَلْقه: فهو أدعج[٢] العينين، أزجّ[٣] الحاجبين، يتناسق ذلك كلُّه مع أنفه الأقنى[٤]، وخدّه الأسيل[٥]، ويتآلف مع جبينه الواسع، وعنقه المتين.. وتعاودُ خديجة تمجيدَ الخالق ـ بينها وبين نفسها ـ على ما ترى من جميل خلقه في محمد، ثم لا تلبث أن تدعوه للدخول، فيتقدم أمامها بخطى وئيدة، رافعاً قدميه عن الأرض رفعاً سوياً كأنه يقتلعهما اقتلاعاً. فترقب سيره بانتظام، غير متخايل ولا متمايل، بل يجلله الوقار من رأسه إلى أخمص قدميه..

---

(١) مفلجة: منفرجة.

(٢) أدعج: شديد السواد مع السعة.

(٣) أزجّ: رقيق طويل.

(٤) قنا الأنف: ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه.

(٥) خد أسيل: طويل ناعم كالسيف.

ويجلس محمد ـ كعادته ـ متجملًا بأدب الرجل الكامل واحتشامه، فكأنما لا وعَثَ[1] ولا سفر، اللهمّ إلا تأخير لباس رأسه قليلًا فوق شعره الكثيف الأسود، وهذا العرق الذي يغطي جبينه وينساب على صفحة وجهه كحبات الندى الصافي، فتنبعثُ منه رائحة الطيب والمسك ـ كما تشمُّ خديجة ـ وهي تقدم له شراباً يبرِّد غلّته.

وراح محمد يخبرها عما جرى معه في رحلته، وما أصاب من أرباح، وما حَمَل من سلع ومتاع حتى انتهى من مجمل التفصيلات التي تعنيها معرفتها.. فلماً همَّ بالذهاب، قامت تودعه على اليُمن والبركة وملء جوانحها الشوق لمعاودة رؤيته...

وطلبت خديجة على عجَلٍ مولاها ميسرة، ليخبرها بأدقِّ التفاصيل عن كل ما سمع ورأى في مرافقته محمداً أثناء سفره إلى الشام، فقال ميسرة:

ـ مولاتي، إن الحديث يطول كثيراً، وقد يستغرق أياماً عديدة، ولكن ما أستطيع قوله هو أنَّ محمداً إنسان عظيم، فما رأيت في حياتي قطُّ مثيلًا له: في صدقه، وأمانته، وحسن معشره، ومعاملته، وفي رقة حديثه، وقوة بأسه، وصلابة رأيه.. إنسان متواضعٌ، جُلُّ نظره إلى الأرض لشدة تواضعه، يسبق من يلقاه بالتحية، ويبادر أصحابه بالمصافحة.. دائم التفكير، طويل السكوت، وكأن شيئاً عظيماً يكمن في أعماق نفسه، لا يتكلم في غير حاجة، وإن تحدّث فإنه يتكلم بجوامع الكَلِم، وبلهجة الصادق، الواثق. وإن خلُقه لدمث، وإنه لأجود الناس كفّاً وأجرؤهم قلباً، وأوسعهم صدراً. بل إنه يا سيدتي

(١) الوعث: المشقة وكل خصلة مكروهة.

أوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرةً. من رآه هابَهُ لشدة وقاره وجلالهِ. يتصرف بالعزم والحزم، ويأخذ كلّ أمرٍ بجديّة.. لا يخالطه أحدٌ إلَّا وأحبَّهُ، وتمنَّى دائماً أن يكون إلى قربه، لما يجد فيه من عطف، وكثرة جود، وميل إلى مساعدته.

لله يا سيدتي هذه الرحلة الكريمة التي حظيتُ خلالها بمرافقة هذا الرجل العظيم! إنكِ لتَرينه دائماً ليس بالجافي ولا المهين.. لا يحفل بالدنيا وما فيها عندما يخلو إلى ذاته، متأمّلًا، متفكراً، وناظراً إلى السماء كأنما يريدها أن تتكشف له عن أسرارها.. أما رعايته للقافلة ورجالها فإنه لشد ما يحرص على الرزق، ويعظّم النعمة. كان يوجِّه الرجال دائماً بالنصح وبالحزم، لا يراعي أحداً إلا في الحق، فلا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا رضي غضَّ طرفه خشوعاً كأنما يعتذر من خالقه. لا يتحدث إلا بهدوء وروية، وقد يضرب بإبهامه اليسرى باطن راحته اليمنى. وإذا أشار فبكفه كلها، وإذا تعجَّب قلَّب كفَّه بحركة جامعة، معبرة.

فهذه صفات محمد يا سيدتي، التي رأيته عليها وقد أكون قصّرت في تبيانها أو في التعبير عنها.

وسكت ميسرة، فقالت له خديجة:

وماذا بعدُ يا ميسرة، قُلْ، قُلْ، ولا تسكت.. لأني أريد أن أعرف من أخبار محمدٍ الشيء الكثير..

قال ميسرة:

ـ أمهليني يا سيدتي لأرتاح قليلًا، فلا وكرامتك لن أنسى لقاءَهُ مع ذلك الراهب النسطوري في بصرى!..

قالت: عجّل، وهاتِ ما عندك!

قال: وصلنا إلى بُصرى من ناحية حوران، وبعد أن أناخت القافلة وانصرف رجالها، كلٌّ إلى شأنه، مالَ محمدٌ يستظل تحت شجرة كبيرة، بالقرب من صومعة للرهبان. وإن هي إلَّا فترة وجيزة، حتى رأيت راهباً ينزل من الصومعة، علمت فيما بعد أن اسمه نسطورا[1]، أو هو راهب نسطوري.. لا أدري، فالمهم أنني لا أعرف ما دفع هذا الراهبَ لأن يأتيه، فيجلس إليه، ويحادثه طويلًا بما عنده من علم الكتاب، حتى أيقنت ـ وبعد أن استمعت إلى حديثهما ساعات عديدة ـ أن محمداً، الذي أقوم على خدمته، رجل ذو شأنٍ عظيم. فما كان الراهب يُبديه له من التقدير والاحترام، وما كان يخبره به عن عداوة اليهود لنبيٍّ سوف يبعثه الله في آخر الزمان، كل ذلك وغيره جعلني يا سيدتي أوقن بأن محمد بن عبد الله رجلٌ لا كالرجال، وإنسانٌ غير سائر الناس، فهو إنسانٌ مميزٌ ليس في صفاته وحسب، بل وفي كل شيء.. وأعتقد أن ذلك الراهب قد استشفَّ فيه، وهو يراقبه، سرّاً جعله ينزل إليه، ويحدِّثه بمثل ذلك الاهتمام الشديد..

وظل ميسرة يتحدث إلى سيدته، وهي تستمع إليه بكل رغبةٍ وإلحاح في معرفة كل ما وقف عليه في تلك الرحلة، حتى انقضت ساعات فقامت خديجة، ولديها يقين قاطعٌ بأنَّ محمد بن عبد الله ليس خير رجال قريش وحسب، بل هو أجلّ وأشرف قدراً من أي إنسان عرفتْه، أو قد تعرفُه في قريشٍ، وفي العرب جميعاً.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٩٩.

وخلت خديجة تلك الليلة إلى نفسها فرأت «أنها أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنَّ شرفاً، وأكثرهن مالًا، وأحسنهن جمالًا. وخيرة شباب قومها كان حريصاً على الاقتران بها لو يقدر عليه»[١] فقد خطبها عظماء قريش، وبذلوا لها الأموال، أمثال: عقبة بن أبي معيط، والصلت بن أبي يهاب، وهشام بن عمرو، وأبو سفيان بن حرب[٢]، فرفضتهم جميعاً. وقد آلت على نفسها عدم الزواج إذ كانت قد تزوجت أول مرة من أبي هالة النباش بن زرارة التميمي فمات عنها، ثم عادت وتزوجت عتيق بن عابد المخزومي[٣] الذي لم يلبث أن مات هو الآخر، فعاشت وحيدة، قانعةً بما كان نصيبها من الزواج، ومسرّية عن نفسها بأعمالها التجارية..

في بضع ساعاتٍ، استعادت خديجة بنت خويلد كل ما جرى لها خلال الثماني والعشرين سنة[٤] التي انقضت من عمرها، حتى انتهى بها الحال إلى هذه الليلة، فإذا بها تجفل من الشعور برهبة الوحدة، وتلحّ عليها الحاجة إلى من ينتشلها من حياة جوفاء لا أنيس

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٢٠١، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢، ص١٠٧، السيرة الحلبية لدحلان.

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج١، ص١٠٨.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص١٩٨ و١٩٩.

(٤) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢، ص١١٥ حيث أورد: رواه عن ابن عباس كل من: أنساب الأشراف (قسم حياة النبي ص٩٨)؛ وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص٣٠٣، وسيرة أعلام النبلاء ج٢ ص١١١، ومختصر تاريخ دمشق ج٢ ص٢٧٥، والبحار ج١٦ ص١٢ عن الجنابدي؛ ورواه في مستدرك الحاكم ج٣ ص١٨٢ عن ابن إسحاق، دون أن يذكر له قولًا آخر. وسيرة مغلطاي ص١٢، والمحبر ص٢٧٩، وتهذيب الأسماء ج٢ ص٣٤٢، وتاريخ الخميس ج١ ص٢٦٤، والسيرة الحلبية ج١ ص١٤٠..

فيها، ولا عشير عمر يملأ عليها حياتها ويشعرها بقيمة وجودها.. وبحسِّ المرأة التي يدغدغها الأمل بحياة جديدة تحمل في طياتها الرجاء والطمأنينة، قامت خديجة إلى المرآة، ولكنها وهي تنظر إلى جمال وجهها، تقطع بالرأي أن الجمال وإن كان محبباً في المرأة، إلَّا أنه باهت إن لم يقترن بنبل الصفات ودماثة الخلق، فالجمال الحق هو جمال الأخلاق، ويأتي بعده أي جمال آخر.

وتستمرىء خديجة تلك المحاورة مع نفسها، لأنها تصل تفكيرَها بهذا الشاب الذي انجذبت إليه، والذي هو محمودٌ بصفاته في بني قومه، كما هو «محمد» في مجمل حياته..

إنها صادقة مع نفسها وهي تواجه حقيقة مشاعرها.. فقد أحبت محمد بن عبد الله، وما في الحب الصادق الطاهر ما يمسّ كرامة الإنسان، بل على العكس هو قوام هام في الحياة لبني البشر، وناموس من النواميس التي أنشأها الخالق العظيم من عليائه ونشرها أشعة تربط بين القلوب المتحابّة، وتشد المحبين إلى بعضهم بعضاً.. فكان على الإنسان من ذكر وأنثى، أن يجعل لمثل هذا الحب الصادق الشريف مكاناً في قلبه، فإن فرغ قلبُه، وخلا وجدانُهُ من هذا الشعور عاش حياةً أقربَ إلى الخواء والوحشة منها إلى الطمأنينة والأنس.. إن بذرة الحب مزروعة في قلب كل إنسان، فإن تعهدها بمكنوناتها، اندفقت لتكون الكلمة التي يعبّر فيها عن عاطفته، والشعور الذي يحنو به على غيره، والإخلاص الذي تزدان به حياته.. فكلمة الحب التي كوَّن الله ـ تعالى ـ معطياتها وأدواتها، كانت من أجمل ما خَلَقَ ـ سبحانه ـ للإنسان: فهي شعور يتدفق، وبصر يلمع، وبصيرة تشع، وأذن تطرب، وقلب يطمئن..

وبكلمة الحب، وبالحب، تعارف الناس وتكاثروا. وبتأثيره عمروا الأرض وتعاقبوا. ولذا أراده الخالق العظيم صلة دائمة بين مخلوقاته، وصلةً سنيّة لعبادته، فجاء في الحديث القدسي: «وجبت محبتي للمتحابين فيَّ». وقال الرسول الأعظم: «اللهم اجعل حبَّك أحبَ إليَّ من نفسي وأهلي». وقال ﷺ: «من أحبَّ لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان». ولو لم يكن محمد بن عبد الله ﷺ أحبَّ الخلق إلى الله سبحانه وتعالى لما أوجب محبَّته علينا جميعاً، بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1] وحديثه القدسي تبارك وتعالى: «قل لصفوة خلقي وخلفائي في أرضي، عليهم أن يقتفوا أثرك، ويقتدوا بك، حتى يبرهنوا باتباعك حبهم لي»[2].

ومن عجبٍ أنَّ في الناس من يزهد في الحب، ويريد أن يعيش في ظلمات قهر النفس وفراغ القلب، من دون أن يعرف الحُبَّ بمعانيه السامية الجميلة، لأنه يعتقد أن الحبَّ والميوعة توأمان لا يفترقان. فهذا وأمثاله ليسوا حُجَّةً على الحقيقة نستعملها لظُلم الحب الذي هو ـ من منطلقاته الجميلة ـ لا يعني إلَّا نُشدان الحق والخير والجمال.. فإذا نشرنا ألوية الحب في النفوس، ورعيناه في القلوب، فإنه سيُنبت فينا بلا ريب الصفاءَ والهناء وحبَّ الحياة، وفوق ذلك كله، وأعلاه: حُبَّ الله ورسوله.

أجل، إنَّ الحُبَّ نِعمةٌ ربَّانيَّة، وهبةٌ إلهية، ليعرف به عبادُ الله ربَّهم تبارك وتعالى ويحبُّوه، وليعرفوا به ملائكتَه ورُسُلَه وأنبياءه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) أحمد بن حنبل، ج٥، ص٢٢٩.

ويحبوهم، وليَعرفوا أنفسهم ويحبُّوها، وليعرف الناسُ الناسَ فيحبّ بعضهم بعضاً، وليعرفوا هذه الدنيا ويعمروها، وليعرفوا الحياة الآخرة فيحبوها ويعملوا لها..

وهذا الحب الذي أودعه الخالق الكريم في القلوب هو الذي دخل قلب خديجة بنت خويلد، عندما التقتْ بمحمد بن عبد الله لدى عودته من رحلته، فأمِلت أن تكون له زوجاً[1]، حتى تستشعر معنى السعادة في حياتها، بعيداً عن اعتبارات السن، والغنى، وسائر الاعتبارت الأخرى التي تقيم للفوارق المادية وزناً بين الناس في كثير من الأحيان... وشتّان بين تلك الفوارق وبين هذا الحب العظيم الذي ملأ كيانها وأضفى عليها سعادة لا توصف... ومع ذلك، فقد وقعت خديجة في الحيرة عدة أيام ومشاعرها تتقلّب بين حياء المرأة من الجهر بحبها، وبين أن تجهر بهذا الحب على الدنيا بأسرها. ولكن أليست هي «الحرة العاقلة اللبيبة» فهل يعيبها أن تعرض على محمد الزواج بها؟ وهل مثلها من ترى غضاضةً في ذلك؟

ولئن كان يغلب على المرأة الحياءُ عادةً، فلا تجرؤ على البَوح بمكنون صدرها لمن تحبه، إلَّا أن الصداقة قد تلعب دورها في مثل هذه الحالة، ولذا آثرَت خديجة أن ترسل صديقتها نفيسة بنت منية إلى محمد، لتقف منه على رأيه بالزواج، فإن آنستْ به مَيْلًا، أفضتْ له صراحةً بما جاءت لأجله..

وذهبت نفيسة ـ مشكورة ـ في مهمتها، ولكنها ما إن وقع نظرُها عليه حتى تملَّكَتها رَهبةٌ غريبة، فسكتتْ..

وقعت نفيسة في الضيق وهي تقف وجهاً لوجه أمام إنسانٍ لم ترَ

---

(١) بعض المؤرخين قال: ان سنها كان ٣٥ والبعض قال: ٤٠.

مثيلًا له في حياتها، لما حباه ربُّهُ من الهيبة والوقار، إذ أخذها نوع من الرهبة، فوقفت ساكتة وقد أعياها النطق..

ورأى محمد ارتباك المرأة، فأشاح بوجهه عنها بعض الشيء، ثم جعل يلاطفها بما يزيل كل أثر للارتباك أو الحرج من نفسها.. ولكنَّ المرأة ظلَّت تصابرُ على نفسها إلى أن هدأ روعها، فانبرت تُطْرِي صفاته الكريمة، ومحامدَه في بني قومه مما اضطره لأن يقاطعها ويطلب إليها أن تكفَّ عن ذلك، لأنه لا يحب أن يطريه الناس، فتجرأت عندها ـ وهي تبدي عذرها إن رأى أنها تتطاول في الكلام ـ لتسأله عن رأيه في الزواج بالمرأة التي يريدها أن تكون شريكة حياته، لاسيما أنه قد بلغ عزَّ الشباب، والأشراف وذوو السؤود، من قريش، ومن العرب، يطمعون في مصاهرته...

وكان محمد ينصت إلى المرأة بجدية واهتمام.. فهو في قرارة نفسه لا يطمع في بنات الأشراف أو ذوات السؤدد، ولا في جمالٍ أو مالٍ، بقدر ما يريد الإنسانة التي تتمنطق بالعفة والطهارة، وتسمو بالشرف والوفاء، وأن تكون ذات الخلق الحسن، وأن تعايش أفكاره في بحثه عن الحقائق المطلقة.. فإن لقي المرأة التي تتحلّى بهذه الصفات، فإنه لا يتأخر عن اقترانه بها، لتكون شريكته في الحياة..

وتحدث محمد إلى نفيسة بنت منية بما يفكّر فيه، وبما يتوخّاه في الإنسانة التي يودّ أن يربط حياته بحياتها، من صفات ومزايا. فقالت نفيسة: وإن كفيت ذلك كله يا سيدي، وفوقه الشرف والمكانة في النساء، والثروة والغنى في الحياة؟

فلما سألها عمَّن تكون، ومن تقصد، أفصحت له بالقول: إنها خديجة بنت خويلد يا سيدي، وما ترومه في المرأة إنما يتوافر فيها، ولأجل صفاتها ومزاياها العفيفة فإنها تدعى بـ«الطاهرة»[1]، ويقال لها «سيدة قريش». وقد ردَّت الأشراف ممن جاؤوا يخطبونها؛ وهي التي أوفدتني يا سيدي، إن كنت ترى في نفسك ميلًا للزواج بها..

ورأى محمد بأن خديجة بنت خويلد، وهي تبعث من يعرض عليه الزواج بها، إنما هي امرأة تستحق الإكبار لصدقها وطيبتها، ولذلك لم يزد على أن يشكر لنفيسة مساعيها الحميدة، ويوصيها بأن تبلغ هذه السيدة مدى تقديره لها، وأن تعهد بأمنيتها إلى الله، فإن شاء أن يجمع بينهما برابطة الزواج المقدس، فإنه لا رادَّ لما سبق في قضائه وقدره.

زواج محمد ﷺ من خديجة بنت خويلد

وجاء محمد إلى خديجة في بيتها. وكان اللقاء الذي انتظرته هذه المرأة «الطاهرة»، فأفضت إليه بما تكنُّه له من حبّ طاهرٍ شريف، ومن احترام وتقدير.. وأفضى هو إليها بدوره بمشاعره تجاهها. وكان التوفيق بما يريدُ الله تعالى، فتواعدا على الزواج.

وذهب أبو طالب وإخوته وأبناؤه، ونفر من قريش إلى عمرو بن أسد، عمِّ خديجة، ووليِّ أمرها، يخطبونها، لأن أباها كان قد قتل قبل حرب الفجّار[2]، فآلت ولاية أمرها إلى عمها، الذي رحَّب بالسعاة

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص٢٩٤، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ الترجمة النبوية ص١٥٢.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص١٣٨، البداية والنهاية ج٢ ص٢٩٦، تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص٣٠٣ عن الواقدي وغيرها.

إلى هذا العمل الطيب لما يتمتع به محمد من عظيم محبة في نفوس الناس، تقديراً لأخلاقه، ومواقفه في بني قومه.

وحَلَّ موعد عقد القران، واجتمع كبراء مكة، وأشراف قريش، فوقف أبو طالب يلقي خطبة الزواج، فقال: «الحمد لرب هذا البيت الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، ومعدن معدٍ وأصلِ مضر، وجعلنا حضنة بيته وسوّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وباركَ لنا في بلدنا الذي نحن فيه، وجعلنا الحكام على الناس».

ثم راح شيخ القبيلة يتابع، منوِّهاً بمزايا ابن أخيه محمد قائلًا: «ثم إن ابن أخي هذا ممن لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يقاس به رجل إلَّا عظم عنه، ولا عدْلَ له في الخلق، فإن كان مُقِلًّا في المال، فإن المال رِفدٌ جارٍ، وظلٌّ زائلٌ وأمرٌ حائلٌ. ومحمد مَنْ قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله اثنتا عشرة أوقية ونصفاً ذهباً، وله ـ وربِّ هذا البيت ـ بعد هذا نبأ عظيم، وحظ كبير، ورأي كامل»[1].

وقام ورقة بن نوفل بدوره يتحدث ـ لا لأنه ابن عم خديجة ومن أقربائها، بل لأنه كان مخوَّلًا عند بني قومه بعقد القران ـ ويُشهد الحاضرين على هذا الزواج، فقال: «الحمد لله الذي فضَّلنا على ما عددت وكما ذكرت يا أبا طالب، فنحن سادة في العرب وقادتها،

---

(١) الكافي ج٥ ص٣٧٤ و٣٧٥، المناقب ج١ ص٤٢، السيرة الحلبية ج١ ص١٣٨ و١٣٩، تاريخ اليعقوبي ج٢ ص٢٠، تاريخ الخميس ج١ ص٢٦٤، السيرة الحلبية لدحلان ج١ ص٥٥، وغيرها.

وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردُّ أحدٌ من الناس فخركم ولا شرفكم. وقد رغبنا في الاتصال بحبكم وشرفكم. فاشهدوا يا معشر قريش أنني زوَّجت خديجة بنت خويلد إلى محمد بن عبد الله على المهر المتفق عليه، وعلى الوفاق المأمول»..

وقام عمرو بن أسد، عم خديجة ووليُّ أمرها يعلن القبول وعقد الزواج.. وهو الزواج الذي يشاؤه الله تعالى ويباركه من عليائه، قبل أن يكون لأحدٍ من الناس يدٌ فيه..

ودخلت السيدة المصون بيت الزوجية، لتكون رفيقة الحياة الوفية الصادقة، والمرأة الفاضلة المخلصة، التي لا ترى قيمة لوجودها إلا بقرب زوجها محمد، ولا تعرف السعادة إلا بظل هذا الزواج، الذي وهبها، بدوره، كلَّ ما تستأهل من الحب، والوفاء، والرعاية، وحسن العشرة.

وكما كرَّست خديجة كل حياتها لزوجها، فقد جعلت كل أموالها بين يديه، يتصرف بها كما يريد من دون أي حسيب أو رقيب. وأولته كامل الحقوق والسلطة التي يملكها الإنسان على أمواله الخاصة.. ولكنَّ محمداً الذي لا يغرّه متاع الحياة الدنيا بأسره ـ وليس المال فقط ـ لم يستعمل ثروة زوجه إلَّا لأعمال البر والخير. فقد تابع تجارتها كما في السابق، يديرها، ويشرف على تسيير قوافلها، وفي الوقت عينه لا يتوانى عن تقديم المال، وبذل العطاء، فلا يجد صاحب حاجةٍ إلَّا ويقضي له حاجته، ولا ذا مسغبةٍ[1] إلَّا ويشبعه، ولا ذا متربة إلَّا ويرفعه.. وهذا ليس جديداً عليه، لأنه كان ـ دائماً ـ المثالَ في العون والرحمة والإحسان.

---

(١) السغب: الجوع.

ولم ينسَ ـ وفي طبعه الوفاء ـ عمَّه أبا طالب وأعباءه من كثرة العيال وقلة المال، فأراد أن يردَّ بعضاً من الصنيع الجميل لهذا العم الجليل الذي أحبّه ورعاه، وقرَّبه حتى على أبنائه، فذهب إلى عمه العباس بن عبد المطلب ـ وكان ذا غنًى كبير ولكنه حريص على ماله أشدَّ الحرص ـ يحثُّه على أن يعيل بعضاً من أبناء عمه أبي طالب، فقبل أن يكفل منهم جعفراً.. أما محمد فقد أخذ ابن عمه عليَّ بن أبي طالب ليكفله ويرعاه، في كنفه، وكنف خديجة الفاضلة، التي كانت تشهد ما يقوم به زوجها من أعمال البر والخير، فتطيب له نفسها، وتشجعه راضيةً.. ولذا نراها تقبل على احتضان ابن عمه عليٍّ كالأم الرؤوم، ويزيدها بِرّاً به ما تجد فيه من النجابة والنبوغ، وما يُرضي زوجها وهي ترى مدى حبه الكبير له، واهتمامهِ به.

وتمرّ السنون وتنجب خديجة من زوجها محمد ابنين اثنين وأربع بنات. أما الابنان فهما: «القاسم (وبه كان يُكنّى) وقد توفاه الله تعالى بعد مشيه، وعبد الله (الملقب بالطيب والطاهر) وقد توفاه الله تعالى أيضاً وهو ما يزال صغيراً، وأما البنات فهن: أم كلثوم، وزينب، ورقية وفاطمة»[1].

وإذا كانت المحنة التي تحلّ بالأبوين من جراء فقد الأبناء عظيمة، وتصيبهما في الصميم، فإن محمد بن عبد الله لم يجعل من

---

(١) انظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج٢ ص١٢٦ عن المقدسي، عن سعيد بن أبي عروة، عن قتادة، كما ورد في (البدء والتاريخ) ج٥ ص١٦، وج٤ ص١٣٩؛ وفي السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٠٢: «أن أكبر بناته ﷺ رقية ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة»، بينما يورد ابن إسحاق ترتيب بناته ﷺ على النحو التالي: زينب، رقية، أم كلثوم، وفاطمة عليهن السلام ـ في المرجع نفسه لابن هشام ـ.

فقد وَلَدَيْهِ ـ رحمهما الله ـ مأساةً تخيّم بظلالها على بيته، بل تغلَّب على المصيبة تلو الأخرى، بما كان يواسي به نفسَهُ وزوجَهُ، وبما كان يحيط به عائلته من حنان ورحمة، جاعلًا الاهتمام منصبّاً على تنشئة بناته، وتربيتهن على خصال هذا البيت القرشي النبيل، ولاسيما أن في وجودهنَّ ما يعوض من فقد الولدين العزيزين، ويجعلهنَّ قرَّة العين للأب العظيم والأم الطاهرة.

إعادة بناء الكعبة

وهكذا عاش محمد تلك الفترة من حياته يقوم على رعاية عائلته، دون أن يصرف اهتمامه عن متابعة الحياة العامة، والمشاركة في شتى شؤون الجماعة، وذلك فضلًا عما يشغل باله للاهتداء إلى الحقيقة التي ينشدها حثيثاً في أعماقه.. ويظل على مثل هذه الحركة الدائبة الهادفة، حتى يبلغ الخامسة والثلاثين[1] من عمره الشريف. وتكون قريش في هذه الحقبة بالذات مشغولة بأمر الكعبة، تريد هدمها، وإعادة بنائها بعد أن طغى عليها سيل جارف انحدر من الجبال حولها، وضرب بناءها، وصدع جدرانها. ولكنها كانت تخشى من الإقدام على الهدم، لما للكعبة من حرمة وقدسية ليس في نفوس قريش وحسب، بل وفي نفوس العرب أجمعين، وذلك منذ أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فقد كانت ترى أنَّ من الإهانة لها أن يبقى البيت الحرام مصدعاً، ولكنها لا تدري ما السبيل للتخلّص من هذا المأزق؟ ولمَّا لم يكن أمامها من خيار إلَّا بناء البيت، فقد أقرت الهدم والبناء معاً، واشترطت ألّا ينفق مال في سبيل الكعبة إلا إذا كان مالًا

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٠٤، البداية والنهاية ج٢ ص٣٠٣.

طيباً، لا يخالطه أي خبث في دية دم هدر، أو ربا مال أخذ، أو مهر بغي استحل، وذلك لكي يتقبل الله ـ تعالى ـ العمل، ويكون خالصاً لحرمة البيت العتيق..

ولئن كان هذا التوجه يدل على ما تقتضيه الفطرة من خوف الله تعالى الخالق العظيم، والمدبّر الحكيم، وعلى إيمان العرب بحقيقة وجود الله تعالى ـ وإن كانوا يجعلون له أنداداً ـ إلَّا أنه يدل أيضاً على بقاء شيء من تعاليم الحنيفية عند العرب، خصوصاً عند قريش، وعند بني عبد مناف بالذات.

المهم أن قريشاً أقرَّت أخيراً إعادة بناء الكعبة بنيةٍ وعزم صادقين، فقسمت جوانبها أربعة أقسام فيما بينها: فكان شق البابً لبني عبد مناف وزهرة، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وما انضم إليهم من قبائل قريش، وظهر الكعبة لبني جمح وسهم، وشق الحِجْر لبني عبد الدار بن قصي وبني أسد بن عبد العزى بن قصي، وبني عدي بن كعب بن لؤي، وهو القسم الذي يطلق عليه الحطيم[1].

وحانت ساعة العمل.. ولكن، لا أحد يُقدم على ضرب أول معول في جدار الكعبة لشدة الخوف والرهبة.. وأخيراً تجرَّأ الوليد بن المغيرة المخزومي وقال للقوم: «أنا أبدأكم في هدمها». ثم تناول معوله وبدأ بالهدم وهو يقول: «لم نزغْ[2]، اللهم إنا لا نريد إلا الخير».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٢٠٧.

(٢) لم نزغْ: لم نمِلْ عن دينك ـ اللَّهُمَّ ـ ولا خرجنا عنه، انظر المصدر السابق.

وبقي الناس ينتظرون، بل وباتوا تلك الليلة يتربصون ما الله فاعلٌ بالوليد، حتى إذا أصبح ولم يُصبه شيء، اندفعت قريش إلى الهدم، لئلَّا يفوتَ بطناً من بطونها مثلُ هذا الشرف العظيم، ولذا كنت ترى بينهم:

أبا طالب والعباس وحمزة ومحمداً وأبناء عمومته من بني هاشم (أصحاب السقاية).

وأبا سفيان بن حرب وأبناءهُ من بني أمية (أصحاب الراية).

والحارث بن عامر وأهل عشيرته من بني نوفل (أصحاب الرفادة).

وعثمان بن طلحة وعشيرته من بني عبد الدار (أصحاب السدانة).

ويزيد بن زمعة بن الأسود من بني أسد (وهو صاحب رياسة الشورى).

وعتيق بن أبي قحافة وعبد الله بن جدعان من بني تيم (أصحاب الأشناق والديات والمغارم).

والوليد بن ربيعة وابنه خالداً، وعمرو بن هشام من بني مخزوم (أصحاب القبة والأعنة).

والخطاب وابنه عمر وسعيد بن زيد بن نفيل من بني عدي (أصحاب السفارة).

وصفوان بن أمية وإخوانه من بني جمح (أصحاب الأزلام والقداح).

والحارث بن قيس وعشيرته من بني سهم (ولاة الأموال المحجرة لآلهة قريش).

وانكبَّ هؤلاء وغيرهم، على العمل بجهد وإخلاص حتى انتهى الهدم إلى الأساس، حيث وجدوا حجارةً خضراً، آخذاً بعضها ببعض، فراحوا يبنون عليها. فلما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيه. وكل قبيلة تريد أن يكون لها الشرف بأن تضعه في مكانه. وكان بنو عبد الدار أكثر الناس اشتداداً في هذا الأمر ومطالبة للاستئثار به. فلما رأوا معارضة القوم لهم، ووقعوا في الخلاف، جاؤوا بجفنة[1] مملوءة دماً وغمسوا أيديهم فيه، مُقسمين على منع أحدٍ غيرهم من رفع الحجر الأسود ووضعه في مكانه، وقد تعاقد معهم على ذلك بنو سهم وبنو جمح، فسمّوا لعقة الدم[2].

واحتدم الخلاف بين قريش، وراح لعقة الدم يلوِّحون بالقتال والحرب، حتى قام بعد خمس ليالٍ، أبو أمية بن المغيرة المخزومي ـ وكان أحد أجواد قريش وأسنَّهم ـ يدعو إلى اجتماع داخل الحرم، لكي يتشاوروا في الأمر، لئلّا تقع قريش في قتال يلفُّها جميعها، ولا تُعرف عواقبه الوخيمة عليها.. وطال الجدال والنقاش داخل الكعبة حتى أشار أبو أمية على المجتمعين بأن يحكّموا أول من يدخل عليهم من باب الصفا (باب السلام).. وارتضى الجميع بهذا الرأي، وهدأت العاصفة في النفوس فجلسوا ينتظرون.. وكالخاطرة العابرة رأوا محمداً أول داخل عليهم من الباب، فهتفوا: هذا الأمين، رضينا به

---

(١) جفنة: قصعة أو وعاء كبير.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٠٩، والبداية والنهاية ج٢ ص٣٠٣.

حكماً وعدلًا . . فلما أخبروه بالأمر، جال بأنظاره في جوانب الكعبة، ثم توجَّه بقلبه ووجهه نحو السماء، وهو يناجي ربَّ هذا البيت أن يكون له هادياً. وما هي إلا لحظات، حتى نظر محمد إلى القوم، وقال لهم: هلمَّ إليَّ ثوباً . . ثم أخذ الحجر بيديه ووضعه في الثوب، وطلب منهم أن تأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب وأن يرفعوه إليه، وأسرع هو يعتلي الجدار، ويتناول منهم الحجر الأسود ويضعه في مكانه، ثم يرصف فوقَهُ بعض الحجارة، حتى استوى في مكانه، كما كان على عهده السابق؛ والكل ينظر إليه مقدّراً أنه أخذ حقهُ، وأنه راضٍ عما أخذ وأعطى . . هكذا، وبحكمته المعهودة، حسم محمد نزاعَ القبائل من قريش، فعادت إلى العمل، حتى أتمت البناء، وعادت الكعبة إلى سابق عهدها من المتانة والقدسية والطهارة، لتكون البيت الحرام، في البلد الحرام، موئلًا للأمن، ومزاراً للحجيج من أقطار الجزيرة كلها، فلا يقربه عقوق، ولا يدنسه آثم.

ورأت قريش في تدبير محمد، وهو يساوي بين قبائلها وبطونها، وفي عمله وهو يمنع الاقتتال ويحجب الدم، ما يزيده رفعةً في المكانة وتقديراً في النفوس. فاعتبرت ما قام به مأثرة كريمة تضاف إلى مآثره الحميدة، التي جعلته الرجل الحكيم، والصادق الأمين، عند أهل مكة، وعند العرب أجمعين.

وتدور الأيام وتكبر بنات محمد فتتزوج زينب بابن خالتها أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس، وتتزوج رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة ابنيْ عمهما أبي لهب (عبد العزى بن عبد المطلب). أما فاطمة، وكانت ما تزال في فجر طفولتها، فعاشت في كنف أبَوَيْها ورعايتهما هي وعلي وزيد بن حارثة، وهذا الأخير كان مولى للسيدة

خديجة فوهبته لزوجها، فأعتقه، وتبنّاه، فصار يُدعى به: زيد بن محمد..

انصراف محمد ﷺ إلى التحنّث

وكان قد مرَّ خمسُ سنوات على بناء الكعبة عندما رأى محمد، أن يتخلى عن كثير من الشؤون التي تشغله، فاستأجر من يعمل في تجارة زوجته، ويقود القوافل إلى الشام واليمن، بينما اكتفى هو بتدبير أعمال هذه التجارة داخل مكة.. وكانت خديجة تشجّعه على ذلك بعدما رأته في الآونة الأخيرة يكثر من الصمتِ والتفكر، ويحب الانفراد بنفسه، بعيداً عن هموم الناس، ومشاغل الحياة.. فقد كانت تلك الزوجة الطاهرة المعطاء ترقبه، وترى ما يثقل عليه من هموم النفس، وأعباء الفكر.. وقد بذلت قصارى جهدها كي تخفف عنه، فكانت تحيطه بكل آيات المحبة والوفاء والإخلاص، وتحنو عليه بكل مشاعر الرقة واللطف والإيناس، ولكنَّ ذلك ـ على الرغم من وجاهته ـ لم يؤثر في توجهات زوجها، وما يتطلع إليه، وهو ما من شأنه أن يكون ـ كما تحسُّ وترى ـ أبعد من أن يخطر على بال أحدٍ من البشر.

وكانت السيدة خديجة على حق فعلًا، فما يشغل بالَ زوجها صار معروفاً لديها، إذ كثيراً ما كان يحدثها عن سفاهة أحلام الذين يعبدون الأصنام والأوثان التي تصنعها أيديهم أو يعبدون الأشجار التي تقطع وتحرق، أو يتخذون آلهة من التمور التي تباع وتؤكل.. فهل هذه عبادة يقبلها العقل البشري؟

ثم ها هُمُ اليهود والنصارى، وعلى الرغم مما هم فيه يختلفون،

فإنهم يعيّرون العرب بتلك العبادة الفارغة، الجوفاء، ويسخرون من تلك الآلهة الصماء البكماء.

بل إن في العرب أنفسهم من يرفض الوثنية وأصنامَها ويبحث له عن دين جديد، كما رأينا فيما سبق، فهذه القضية المحورية، كانت بتقدير الزوجة الحكيمة هي الشاغل الأهم في تفكير زوجها، لاسيما أنه كان يعلم بكل ما يدور في بيئته، من غير أن يجدَ فيه شيئاً يمكن أن يروي غليل فؤاده، أو يقنع عقله.. فهو يبحث عما هو أجلُّ وأعظم من كل ما يسمع ويرى ويحسُّ به كامناً في أعماق نفسه، إلَّا أن الغيب يطويه عنه ويحجبه عن بصيرته فلا يهتدي إلى سرّه القدسي، ومن أجل ذلك كان انصرافه إلى التأمل والتفكر.. وكان قد دأب منذ مدة على الانقطاع عن الناس والاختلاء إلى نفسه، شأنه في ذلك، شأن أهل الحكمة والرأي من العرب الذين كانوا ينقطعون للعبادة فترة من كل عام، يقضونها بعيداً عن الناس، حيث يختلون إلى أنفسهم التواقة للاهتداء إلى حقائق الحياة.. وكانوا يسمون هذا النوع من الانقطاع: التحنث.. وهو الأمر الذي انجذب إليه محمد عندما اختار خير مكان يصلح للانقطاع والتعبد.. ففي الناحية الشمالية الشرقية من مكة، وعلى بُعد نحو ميلين عنها يقع جبل النور وفي أعلى هذا الجبل كهف يقال له غار حراء، ليس من حوله إلَّا صخور تملأه بأجمعه.. وإذا أراد أحد الصعود إليه فإن عليه أن يسلك طرقاً متعثرة، ترتفع به رويداً رويداً، وقد يستغرق ذلك ساعة من الزمن، ثم ينحدر بسيطاً من قمة الجبل، ويمرُّ عبر فتحة ضيقة بين صخرتين كبيرتين، قد لا يجتازهما إلَّا بصعوبة، فيجد نفسه أمام الغار الذي لا يزيد طوله على أذرع، وعرضه على ذراع وثلاثة أرباع الذراع، فإذا دخله انقطع عن كل

شيء، فلا يرى إلَّا مكة والسماء، ولا يسمع حسيساً أو أنيساً إلا صوت الريح عندما تهبُّ، لأن المكان مقفر لا يؤمّه طير أو حيوان، ولا يأتيه من الناس إلَّا من يقصده. . .

وفي جبل النور، وفي غار حراء بقمة هذا الجبل، كان محمد ينقطع إلى عبادته وتحنُّثه. إذ كان يذهب إليه في شهر رمضان قبل بضع سنوات، مكتفياً بالقليل من الزاد والماء يحملهما معه في رحلة التأمل الرمضانية، مع سراج لا يكاد يُضيء ظلمة الغار. . وكان لا يترك مكة قبل أن يطوف حول الكعبة، ويتبرك بها، ثم يوزع الهبات والمعونات التي اعتاد توزيعها منذ زواجه. وبعدها يقطع المسافة الوعرة، ليدخل إلى غاره، وهمُّه الأوحد الاهتداء إلى نور الحقيقة والتماس الحق. .

وليس صعباً على «محمد» بالذات الاهتداء إلى الحق الذي ينشد. . فقد جبلَهُ خالقه على الفطرة السليمة، والطوية النقية، والصفاء الوجداني، والتفتح الذهني. . وهذه وغيرها مما أودَعَ الله تعالى في خلقِهِ، كانت تكفيه لأن يدرك هدفه الأسمى. . ولو لم تكن لدى «محمد» مقومات الهداية إلى الحق، لما أمكنه أن يرى كل شيءٍ في جاهلية الناس من حوله ليس حقاً بشيء. .

أجل، كان في خَلْقِ «محمد»، وفي تكوينه العقلي والوجداني ما يمكنه معه أن يهتدي إلى حقيقة وجود الله تعالى، الذي لا إله إلا هو، الإله الواحد في السماوات وفي الأرض، والربُّ العليُّ الكبير الذي له ملك السماوات والأرض. .

وهذا ليس بدعاً في خَلْق الإنسان!. . فمن قبل اهتدى أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى معرفة حقيقة وجود الله تعالى من خلال تأمّله

في الكون.. وأدرك منذ تفتح وعيه سفاهة عبادة الأوثان وعاب قومه على عبادتها، كما أنكر عليهم عبادة الكواكب والنجوم، التي لم يرَ فيها إلَّا أجراماً تطلع ثم تأفل وهي تجري إلى مستقر لها، فأعلن على الملأ براءته مما يشركون، وتوجَّه إلى الله تعالى فاطر السماوات والأرض حنيفاً، مائلًا عن حياة المشركين وعباداتهم.. وكذلك يحيى عليه السلام فقد آتاه ربُّهُ الحكمَ صبياً، وعيسى عليه السلام إذ قال لقومه وهو في المهد ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾(١).

وها هو «محمد» يهتدي إلى الشرع التعبدي الحق، إلى الحنيفية التي كان عليها أبوه إبراهيم عليه السلام بعد آلاف السنين، وإن كانت علائم هدايته قد أيقنتها نفسه منذ زمن طويل، إلَّا أن تعاليم الحنيفية وكيفية ممارسة عباداتها، وظهورها بمظهر الجلاء والوضوح التّاميْن هو ما كان «محمد» يبحث عنه ويريد الاهتداء إليه.

وكانت الحقائق قد بدأت تتكشف له منذ أن بدأ يجيء إلى غار حراء، فكان يرى في نومه الرؤى الصادقة التي تزيح الأستار من أمام بصيرته، فتبدو له أنوار الحقيقة ساطعة مثل فَلَق الصبح.

إنها هداية «محمد» الذاتية.. ولكنها بفضل الله ـ تعالى ـ، فهو سبحانه «دبَّر لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعدّه لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ: دبَّرَ له هذه العزلة ـ في غار حراء ـ قبل تكليفه الرسالةَ بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون،

(١) سورة مريم، الآية: ٣٠.

حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله»[1].

وكانت زوجته خديجة تعرف ذلك كله، فتحار في أمرها، وتخاف على زوجها من التعب النفسي، والانشغال الفكري، فكان يطمئنها ويهدىء بالها، فتقبل ما يقوله راضيةً، قانعةً، لأنها تعرف زوجها حق المعرفة، فهو لا يفكر إلَّا صواباً، ولا يعمل إلا حقاً..

تلك كانت حال «محمد»، وبخاصة في السنوات الخمس الأخيرة التي انقضت على إعادة بناء الكعبة. فما أن ولج سن الأربعين من عمره الشريف حتى كانت نفسه قد امتلأت برؤاه الصادقة التي تُنبىء بالهداية إلى الحق، وكان توجهه بكليته إلى ملكوت الله العظيم حتى يكون بكامل الاستعداد لتلقي النور الذي ينزل عليه من الحق، من الله الواحد الأحدِ خالقِ الكون، وخالق الحياة والإنسان، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2].

---

(١) الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص٥٥، عن: رحمة للعالمين ١/ ٤٧، وابن هشام ١/ ٢٣٥ و٢٣٦، في ظلال القرآن ج٢ ص١٦٦.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٤.

الفصل الثاني

ظهور الإسلام في مكة

البحث الأول

بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنبوة والرسالة

مراتب الوحي

قسَّم بعض الفقهاء مراتب الوحي إلى سبع، وإن كانت كل مرتبة قد تتداخل مع الأخرى، بحيث لا يمكن الفصل التام بين بعضها بعضاً..

المرتبة الأولى: الرؤيا الصادقة

والرؤيا تكون في النوم. ولكنها تحدُث وتقع صادقة في اليقظة، ويراها صاحبها في الواقع تماماً كما رآها في المنام.. وأول ما نزَلَ الوحي على النبيّ ﷺ كان بالرؤيا الصادقة، وذلك عندما رأى روح القدس جبريل عليه السلام عياناً، وهو يدعوه للقراءة:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]..

والرؤيا الصادقة قد توجب أحياناً التكليف، مثل الذي أراه الله سبحانه للخليل إبراهيم عليه السلام في قصة الذبح والفداء..

المرتبة الثانية: النفث في الرُّوع[2]

كان الوحيُ يأتي الرسول ﷺ بما كان يُلقيه جبرائيلُ عليه السلام في

(١) سورة العلق، الآية: ١.

(٢) الرُّوع: سواد القلب، الذهن، العقل.

روعه وقلبه. بدليل قوله ﷺ: «إنَّ روح القدس نفثَ في روْعي أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتَّقوا الله وأجملوا في الطلب»[1].

وفي هذه المرتبة كان التكليف من الله سبحانه لروح القدس جبرائيل عليه السلام أن يلقي في نفس محمد وفي قلبه وعقله ما يريد أن يوحي به لرسوله الكريم. فيكون جبرائيل الوسيطَ لإلهام «محمد» بأمرٍ من الله عزَّ وجلَّ.

المرتبة الثالثة: المخاطبة وجاهة

والمخاطبةُ هنا هي مخاطبة الملك جبرائيل للرسول ﷺ وجاهة حين كان يتمثل له رجلًا. فيظهر أمين الوحي جبريل عليه السلام على النبي محمد ﷺ بصورة رجل بهي الطلعة، يجلس إليه ويلقِّنه ما أُنزل به من الوحي، فيعيه بقلبه وعقله.

والمعروف عنه ﷺ أنه قال: كان جبرائيل عليه السلام يأتيني بصورة دحية الكلبي (وهو رجل جميل كانت صورته محبَّبة إليه ﷺ).

المرتبة الرابعة: الاتحاد في الروح

لقد كان جبرائيل عليه السلام ـ وهو الروح الأمين ـ يختلط بالنبي ويمازج نفسه، فيتّحدان مع بعضهما.. ثم ينقل الملكُ الوحيَ مخاطباً به نفس محمد ﷺ، فتأتي المخاطبة قوية شديدة الوقع، ذات تأثير عجيب، بحيث تجعل النبيَّ ﷺ لشدَّتها يتصبَّب عرقاً، ولو في البرد القارس، فيثقل جسمه، حتى ليكاد أن يرضّ عظم اليد أو الفخذ إذا توكّأ عليها وهو على تلك الحالة..

---

(١) ابن ماجه، باب التجارات، ص٢.

المرتبة الخامسة: نزول جبرائيل على صورته الحقيقية

كان جبرائيل عليه السلام ينزل بالوحي في صورته التي خلقه الله تعالى عليها. فيبلغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء أن يوحيَه الله تعالى إليه.. كما جاء في سورة النجم، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾[1] وشديد القوى هو جبرائيل عليه السلام.

المرتبة السادسة: التلقّي المباشر

في هذه المرتبة حصل الوحي مباشرة من الله تعالى، ليلة العروج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. إذ كان التلقّي عن الله تعالى، من دون أي وسيط، كما في تكليمه موسى عليه السلام وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾...

المرتبة السابعة: الوحي من وراء حجاب

في هذه المرتبة كان الله تعالى يكلِّم رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من وراء حجاب، وبصورةٍ مباشرة أيضاً، وبدون وسيط. وقد حدث ذلك للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء والمعراج ـ كما سنرى ـ وهذه المرتبة كان قد اختُصَّ بها من قَبلُ موسى عليه السلام كليمُ الله، وقد تأيدت بنصِّ القرآن الكريم..

وفي الحقيقة إن هذا التقسيم لمراتب الوحي لا يتعدَّى كونه نوعاً من التوضيح الذي يقرِّب للأذهان الطرق التي كان يتلقى فيها محمد بن

---

(١) سورة النجم، الآيات: ١ ـ ٥.

عبد الله ﷺ رسالة الإسلام من الله تعالى إلى الناس كافة. وهي لا تعدو كونها مراتبَ روحية حتى ولو رأى الرسولُ ﷺ جبرائيل عليه السلام على حقيقته وعلى الصورة التي خلقه الله تعالى عليها، لأن جبرائيل نفسه مخلوق روحاني. ولا يمكن للإنسان العاديِّ أن يدرك هذه المراتب باعتبارها جوهراً روحيّاً، بل يمكن له تصورها فقط، كما لا يمكن لإنسانٍ أن يعرفها إلَّا إذا عايشها، أمثالُ المصطَفَين الأخيار من رُسُل الله ـ جلّ وعلا ـ.

وما دامت تلك المراتب ذات جوهر روحي، فإنها تكون متداخلة بعضها ببعض، كما في المرتبتين السادسة والسابعة، أو في المرتبتين الثالثة والخامسة. والتي لخَّصها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

نزول الوحي

كان محمد قد بلغ الأربعين سنة.. وقد ذهب منذ أن أطلَّ شهر رمضان، كعادته إلى غار حراء للتعبد والتحنّث. وقضى الشهر حتى كاد يبلغ أواخره. وفيما هو نائم في غاره ليلة السابع والعشرين منه[2] إذا به يرى في المنام مَلَكاً يقول له:

إقرأ!

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٢) انظر: الرحيق المختوم، ص٥٦ حيث ورد ما حرفيته: «وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم ـ نزول الوحي ـ بأنه كان يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا. ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و١٢ يوماً».

قال محمد: وما أقرأ وأنا لست بقارىء؟!

قال الملك: اقرأ هذا القرآن الذي أتنزل به إليك من ربك الأكرم، بقول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وتلاها محمد ﷺ وقد نقشت في قلبه.. فانصرف عنه الملك.

وكانت هي بداية الوحي، وبعث محمد ﷺ نبيّاً، ورسولًا من رب العالمين إلى الناس أجمعين.. وقد تلقى محمد ﷺ الوحي عن ربه بنفس صافية، وقلب مطمئن. فمِن قبْل كان ربُّه تعالى يرصده، ويربيه التربية الصالحة، ويُعدّه الإعداد التام بحيث يستطيع أن يكون في مستوى الحدث العظيم الذي ينتظره. وبسبب هذا الإعداد الإلهي كان الوحي، وكان التلقي.

أجل كان التلقي باطمئنانٍ كامل «لأن الله ـ تعالى ـ إذا اتخذ عبداً رسولًا أنزل عليه السكينة والوقار فكان الذي يأتيه من قبل الله ـ جلَّ وعلا ـ مثل الذي يراه بعينه»[2]. ثم إن ما يزيد في اطمئنان محمد ﷺ اليقين الثابت الذي زرعه الله تعالى في قلبه وهو: «أن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يوحي إلى رسوله إلَّا بالبراهين النيرة، والآيات البينة، الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من عند الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها»[3].

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢ ص٢٩٧، عن تفسير العياشي، ج٢ ص٢٠١؛ والبحار ج١٨ ص٢٦٢.

(٣) مجمع البيان، ج١٠ ص٣٨٤.

وقد تنزَّل الملكُ بالآيات المبينة التي تهدي محمداً ﷺ لقراءة القرآن باسم ربه تعالى الذي خلق الإنسان وعلَّمه ما لم يعلم، كما في هذا التعليم الرباني الذي كان به ابتداء الوحي على النبيّ محمد ﷺ.

وإذا كان أمر النبوة عظيماً، وعبئها ثقيلًا، والجبلة البشرية ضعيفة، فإن محمداً ﷺ قد أفاق من نومه وفي نفسه ثقل العبء العظيم، وخصوصاً أنه لا يرى أمامه الملك الذي استقرأه، ولا أحداً غيره.. أفاق وخرج من الغار فإذا المكان كله، كما يعهده من الصفاء، والسكون، والصمت الرهيب. ولمّا لم يجد أحداً نزل يريد العودة إلى مكة. حتى إذا صار وسط الجبل إذا بصوت كأنه قصف الرعد، يشق عنان السماء وهو يستوقفه ويقول له: «يا محمد! أنت رسول الله، وأنا جبريل»[1].

فأي ملك هذا الذي يسمعه ويراه؟ إنه على صورة قد سدَّ بها الخافقين[2]، فلا ينظر في أية ناحية في الآفاق الشاسعة من السماء إلَّا ويراه فيها.. بل إنه يتطلع إليه فإذا هي الصورة نفسها المحببة إليه، التي رآها في المنام عندما أمَرَه أن يقرأ باسم ربه الخالق الكريم، العظيم. وثبت في مكانه لا يتقدم، ولا يتأخر، وجبرائيل الملك على حاله في آفاق السماء حتى انصرف عنه.. وغرق محمد ﷺ، وهو في وقوفه، في بحار التفكير.. ولكنه قلَّب الأمر على مختلف وجوهه فكان لا يأتيه إلَّا الجواب القاطع: إنه الحق.. إنه الوحي من الله تعالى يتنزل به جبرائيل الأمين، فلا يتلقاه في رؤياه الصادقة في المنام

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٢٥٣.
(٢) المشرق والمغرب.

وحسب، بل وجهراً، وفي اليقظة.. وإنه الوحي الذي يحمل التبليغ بالنبوة والرسالة.. فهو إذن العهد إليه من الله تعالى ببعثه نبياً ورسولًا..

ومثل هذا العهد من شأنه أن يثير في المعهود إليه كوامن الخوف من العبء الثقيل الذي تدركه نفسه فور تلقيه التبليغ. وقد يزيد في هذه المخاوف ـ بعض الشيء ـ صورة الملك الذي يحمل الوحي، وهو يتمثل أمامه بصورة بشري يسدُّ آفاق السماء، مما لا يترك مجالًا للنفس ـ حتى ولو كانت نفس محمد ﷺ ـ إلَّا أن تستشعر حقاً ببعض الخوف من هول ما ترى. ومن قبل فقد خاف موسى عليه السلام عندما أمره ربه تعالى أن يلقي عصاه، فلما ألقاها ورآها حيةً تسعى أوجس خيفة منها، فقال له ربه تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[1]!

فالخوف هو من كوامن الضعف البشري، لأنه مظهر من مظاهر غريزة حب البقاء، ولا يخاف عادة إلَّا من يدرك النتائج والعواقب التي تترتب على أمر معين، فكيف إذا كان الأمر عظيماً، من الرب العظيم؟.

ولكنَّ تلك المخاوف التي أحسَّها محمد ﷺ في تلك اللحظات، سرعان ما قابلها في نفسه شعور بالاطمئنان إلى ربه، وشعور بالرضى من الخالق الكريم وهو يحمّله العهد الذي لا ينتدب إليه إلَّا أنبياءه ورسله المخلصين. ومثل هذه المشاعر السامية من شأنها أن تريح النفس من أعباء الخوف، ومن أية أعباء أخرى، مهما كان ثقلها عظيماً.

---

(١) سورة طه، الآية: ٢١.

ومشى محمد ﷺ في طريق العودة إلى مكة والوحيُ يلفُّ كيانَهُ. ودخل على أهلِهِ مسروراً، مؤمناً، ولكنه متعب الجسم، منهوك القوى، لا يرغب في تلك الساعة بشيء أكثر من الركون إلى الراحة، والنوم في سباتٍ عميق، فطلب إلى زوجِهِ خديجة الطاهرة أن تهيّىء له فراشه، وتغطّيه جيداً وهو يقول لها: «زمّلوني، زمّلوني».

وأسرعت زوجُهُ الفاضلة تلبّي أمرَهُ. ثم جلست إليه، كعادتها بعد رجوعه من عبادته تسألُهُ عن حاله، فأخبرها بنزول الوحي عليه، وبعثه من الله تعالى نبياً ورسولًا، وكيف أتاه جبريل الأمين في المنام أولًا، وكيف رآه جهرة وعلى تلك الصورة العظيمة التي تسد ما بين الأرض والسماء، وما نقل إليه عن ربه تبارك وتعالى من آيات كريمة، ومن تبليغ بأنه رسول الله.

وشعرت خديجة بنفس الاطمئنان الوجداني الذي كان يملأ كيان زوجها. لقد أنصتت إليه بكل جوارحها، فما زادها الأمر إلَّا إيماناً وتصديقاً، فرنت إليه بنظرة ملؤها الحب والثقة، وهي تقول: «أبشر يا ابن عمّ، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة! والله لا يُخزيك الله تعالى أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحملُ الكلَّ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الدهر».

وما لبث محمد ﷺ بعد أن أفضى لزوجه بمكنون صدره أن أخلد للنوم مرتاحاً.

ولكن أية راحةٍ بعد اليوم؟ فلئن نامَ في هذه الساعة ـ كما يدفعنا إليه استباق الأحداث ـ فإن يقظة الحياة الحرَّة الكريمة كلها متعلقّة به، وآمالها معقودة عليه، فإنه رسول الله إلى الناس كافة، مسترشدين بالتنزيل الإلهي بأن الله تعالى قد أرسل محمداً ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ

ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1]، وأنه تعالى أرسله بشيراً ونذيراً للناس كافة بقوله العزيز: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وما الهدى ودين الحق إلَّا هذا الوحي الذي بدأت بشائره منذ يوم بعث محمد ﷺ، ليتلقاه قرآناً عربياً جامعاً لحقائق الوجود كلها، وفرقاناً بين الحق والباطل لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]، أجل لينذر به العالمين حتى يعرفوا الحق ويتبعوه، ويعرفوا الباطل ويزهقوه..

فما محمد ﷺ ـ منذ هذا اليوم المبارك ـ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل. وليس أحدٌ أكفأ منه للنبوة والرسالة، فكيف إذا كان خاتم النبيين، وحامل آخر الرسالات السماوية إلى أهل الأرض ـ كل الأرض ـ كما ظهرت حقيقته ﷺ فيما بعد؟ أجل، ليس أحدٌ أكفأ منه لذلك كله، وتاريخ حياته صفحات ناصعة مجيدة تفيض بالمآثر والعظائم التي كرَّست قدرة الإنسان وقيمته في ذاته، ومكرمته عند ربه، وعلى أساس الاعتبار الوحيد: الإيمان والتقوى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[4].

فحياة محمد ﷺ هي حياة الإنسان الذي أكرمه ربُّهُ، ومنَّ عليه بالمحبة، والرعاية والإعداد. وإننا نختار، للدلالة والتبيان فقط، ثلاثاً من الصفات التي منَّ بها الله تعالى على محمد ﷺ في حياته، وهي

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

كفيلة بذاتها، أن تشدَّ كل ذي بصيرة ومنصفٍ إلى التأمل وإدراك ما أرادَ الله تعالى من خلْقِ محمد ﷺ وهديه: فقد وجَدَهُ ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ يتيماً فآواه، ووجده ضالّاً فهداهُ، ووجده عائلًا فأغناه.

إذن، فالمنّة الأولى كانت من الله تبارك وتعالى عندما كان يتيماً فآواه.. فقد رأينا من قبلُ، أن الله تعالى توفَّى أباه وهو ما يزال جنيناً في رَحِمِ أمه، ثم ماتت هذه الأم وهو في السادسة من عمره، ولكنَّ ربَّه ـ عزَ وجلَّ ـ وهو يصنَع له مصيره، قد هيأ له القلوب الكبيرة التي تحبه، والأحضان الدافئة التي تحتضنه، والنفوس الكريمة التي تربيه وترعاه، فلا يكون طفلًا مشرداً، هائماً على وجهه، يقف على الأعتاب متلمساً من يعطيه ما يسدّ به رمق جوعه، أو يكسو عُريه، فينشأ عاجزاً عن تدبّر نفسه، فاقد الأمل والرجاء في حياة كريمة.. فظروف الحياة إجمالًا قاسية على اليتيم، ولولا المشاعر الإنسانية التي عرفت حقيقة اليتم وفداحة أضراره على اليتيم لما كانت تلك المؤسسات الإنسانية التي آلت على نفسها رعاية اليتامى، لكي تؤهلهم للحياة.. ولعلَّهُ بفضل مثل هذه الرعاية، برز في تاريخ البشرية أفذاذ كبار كانوا يتامى، في الصغر، وأعطوا الحياة الإنسانية ما لم يعطها غيرهم في الكبر..

ولو عدنا إلى البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ لوجدناها قاسيةً، جافةً من المشاعر التي تحنو على اليتيم وترعاه. فالاعتبار الأول في تلك البيئة كان للقوة والسيف، وللقبلية والعشائرية، يحكمها الصراع على البقاء، والأنانية الحادّة، بعيداً عن اعتبارات الرأفة باليتيم والشريد، والحدب على الفقير والمسكين، إلَّا من بعض القلوب العطوفة، والنفوس الخيرة.

ولكنَّ محمداً ﷺ لم يعرف ذلَّ اليتم، ولا قهر البيئة، وذلك بفضل جده عبد المطلب، ومن بعده عمه أبي طالب. وقد عاش في كنَف كل منهما عزيزاً مكرَّماً، وأحبَّه كل منهما حبَّ الأب لابنه، بل وكانت له مكانة تميّزه حتى عن أبنائهما إن في الحب، أو في المعاملة، أو في الرعاية.. وهذا هو فضل الله تعالى على محمد ﷺ عندما هيّأ له تلك القلوب الرؤوفة الرحومة التي تصونه، وترفع من شأنه، فتبعد عنه أي شعور باليتم.

فصدق الله تعالى بقوله الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾[1].

والمنة الثانية[2] من الله ـ عز وجل ـ على «محمد» عندما وجده عائلًا فأغناه، فقد هيّأ له كافة الأسباب التي حوَّلت فقره إلى غنى.

لقد كان «محمد» فقيراً حقاً، إذ توفي أبوه ولم يخلّف له من المال إلَّا ناقة، وجارية (هي أم أيمن الحبشية). ولم تُتَحْ له الظروف المناسبة لكسب المال الوفير والغنى، لأن مزاولته للتجارة كانت في حدود ضيقة داخل مكة، فظل في صباه وشبابه فقيراً على الرغم من سعيه الدائب إلى العمل والكدح. ويقيّض الله تعالى له الأسباب التي تبدّل فقرهُ إلى غنًى من خلال تعاطي تجارة زوجه، وإدارة أموالها.

وهنا تكمن الرعاية الإلهية، فقد شاء سبحانه وتعالى أن يربي

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٦.

(٢) لقد آثرنا التطرق إلى هذه المنّة، واعتبارها «ثانية» لأن غناه ﷺ قد جعله الله من طريق مال زوجه خديجة (رضوان الله تعالى عليها) وقبل بعثه، مع أن الترتيب القرآني جاء في سورة الضحى على النحو التالي: «ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالّاً فهدى، ووجدك عائلًا فأغنى».

«محمداً» ويعلّمه معاني الفقر، ثم ينقله إلى حالة الغنى في الوقت المقدّر له لئلا يبقى مشغولًا بهموم الحياة المادية التي تواجهه، كما تواجه كل إنسان غيره، فتصرفه عن التأمل والتفكير، وتحول بينه وبين الاستعداد للأمور الجسام التي ستكون مدار اهتماماته وانشغالاته في مقبل أيامه.

إنها الحياة وأعباؤها المادية.. ولو التفت كل منّا إلى واقع حياته، ووجد نفسه لا يملك شيئاً مما يدفع عنه غائلة الجوع والفقر والمرض، فكيف يجد الحياة من حوله؟ كثيرون عاشوا هذه التجربة، فانحرف منهم من انحرف، وشذَّ من شذَّ، حتى بات عالة على المجتمع.. ولكن بالمقابل فإنَّ هناك من تحلّى بالصبر على شظف العيش ومرارة الحرمان، وتمكنوا من أن يشقوا طريقهم لبلوغ النجاح رغم كل الصعوبات والعثرات.. وهؤلاء هم العصاميون حقاً الذين توكلوا على الله تعالى أولًا، ثم انبروا إلى الكفاح والكدح في الحياة فكانت رعاية الله تعالى لهم، لأنه تبارك وتعالى مع العبد، ما دام العبد مع ربه، ومع نفسه التي يوجهها لصالح الأعمال.. فبرز هؤلاء العصاميون أفذاذاً في المجتمعات التي عاشوا فيها.

وإن في مسار حياة محمد ﷺ كلها ما يبيّن لنا أنه كان بذاته وبصفاته الشخصية عصامياً فوق العصاميين، وفذاً فوق الأفذاذ. ومن أجل هذه المزايا الذاتية كان إعداده ﷺ في علم الله تعالى السابق، على النحو الذي لا يجعل الفقر يرهقُهُ، ويشغله عن الأمور العظام، إذ وجَدَه عائلًا، شديد الفقر، فأفاض عليه من نعمائه، ومنَّ عليه بجوده وكرمه فأغناه بالمال الوفير، والرزق الكريم. فسبحان الله الذي أجزل

العطاء لمحمد بن عبد الله ﷺ ، ونقله من العول إلى الغنى كما يثبته قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[1].

وأما المنة الثالثة على محمد ﷺ فهي أن الله ـ عز وجل ـ قد وجده ضالّاً فهداه.. وهذه أهم المنن على الإطلاق في حياته الشريفة، لأن فيها الهدى إلى دين الله الحق، وإلى الصراط المستقيم.

فقد نشأ ﷺ في بيئةٍ جاهليةٍ اختلطت فيها المعتقدات والعادات والأعراف ببعضها حتى شكلت تلك الذهنية الخاصة للعربي في صحرائه.. ولشد ما كان يؤلمه ضلال قريش والعرب جميعاً، ولشدَّ ما كان يأخذه العجب من هذا الاضطراب في المفاهيم، وهذا الاختلاف في التصورات بين اليهود والنصارى.. كل ذلك قادَه في تفكيره وتأمله، ومن خلال انقطاعه عن الناس وانصرافه إلى خلواته، إلى البحث عن المنهج السوي الذي يجب أن تكون عليه حياة الناس، بدلًا من الضلال والفرقة والجاهلية التي كانوا عليها..

وما يمكن التأكيد عليه «هو أنه ﷺ كان مؤمناً، موحداً، يعبد الله، ويلتزم بما ثبت له أنه شرع الله تعالى مما هو من دين الحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام، وبما يؤدي إليه عقله الفطري السليم، وأنه كان مؤيداً ومسدداً، وأنه كان أفضل الخلق وأكملهم خَلْقاً، وخلُقاً وعقلًا»[2]، ويؤيد هذا الاتجاه، باهتداء محمد ﷺ إلى دين الحنيفية قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

(١) سورة الضحى، الآية: ٨.

(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢، ص١٩٧ و١٩٨.

وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[2].

وإنه لمن الثابت في السيرة النبوية الشريفة أن سيدنا محمداً ﷺ لم يتعبَّد قطّ للأصنام، بل على العكس فقد عافت نفسه العبادة الوثنية التي يمارسها أبناء قومه، ونفر طبعه من عاداتهم الجاهلية وهم يقدسون الأوثان والتماثيل.. ومن أجل ذلك كان الله تعالى يُعِدُّهُ منذ صغره وهو يودع فيه نفساً صافية، وعقلاً سليماً، وفطرة سوية، ويزيّنه بالفضائل التي كانت تجتمع فيه على النحو الأكمل والأفضل. ومن أجل ذلك أيضاً كان توجُّهه إلى التحنث والتعبّد في غار حراء، وفي أفضل الشهور، وأفضل الأيام عند الله تعالى.. وإذا كان لجهد محمد ﷺ الشخصي في ذلك كله اعتبارُهُ وقيمته، إلَّا أن تسديد الله تعالى له كان الأقوى والأجدى. وها هي النعمة الفيَّاضة تتنزل عليه ﷺ وتقوده إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم، فلا تبقى نفسُهُ حائرة بين شرع إبراهيم، أو موسى أو عيسى عليه السلام، وهي الحيرة التي كانت تقربه من الاهتداء إلى الدين الأكمل، والشرع الأحسن.

نعم لا جدال بأن نفسَ محمد ﷺ كانت تتقلَّب بين كثير من الاعتبارات والقيم والمثل السامية الرفيعة، ولكن الأصالة الكامنة في أعماق نفسه كانت تتوق إلى ما هو أعظم شأناً، وأعلى درجة، وأكمل معنى، إلى الدين الذي ارتضاه الله ـ تعالى ـ لعباده، وإلى الشرعة والمنهاج اللذين تقوم عليهما حياة الناس.. ولذلك فقد كان هدى

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٥.

الله ـ عز وجل ـ لمحمد ﷺ في نهاية المطاف، وعلى النحو الذي شاءه سبحانَه وتعالى وقدَّره له، وهو ما عناه قوله عز وجل: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[1].

يا محمد! أنت رسولُ الله، وأنا جبريل.

هذه هي الكلمات الوجيزة والمعبّرة التي خاطب بها الملك جبرائيل عليه السلام محمداً ﷺ وجهاً لوجه، وبيقظة تامة، لا بالرؤيا في المنام. وكان القصد منها أن يثبتَ في عقله، ويُقرَّ في نفسه أنه هو من اختاره الله تعالى، ربُّ الكون كله، من دون الخلق جميعاً، ليحمل الأمانة الكبرى التي يكلفه بها، فتكون دعوتُه هدىً للناس، ورحمةً للعالمين..

وقد رأينا أنه ﷺ بعدما أتاه الوحي ذهب إلى أهله مسروراً، مستبشراً مطمئناً، إلَّا أن قَطْع مسافة حوالي ثلاثةِ أميالٍ في مسالك وعرة، وهولَ الرؤية لأول مرة للملك جبرائيل عليه السلام قد أتعبَاهُ، فطلب أن يدثروه لينام..

ولكن السيدة خديجة لم تهدأ، ولم تسكن، بل ظلت تدور من حول زوجها ـ بعد هدأته في فراشه ـ في جذلٍ[2] لم تذق طعمه من قبل، وقد أيقنت أن زوجها هو نبي الله، ورسوله. ولكن أليس هذا الأمر حدثاً عظيماً، في بيتها الزوجي؟ وهل يمكنها أن تبقى ساكنةً من دون أن تعرضَ هذا النبأ العظيم على إنسانٍ عالم، يستطيع أن يحيطها بأخبار النبوّة، وما يترتب عليها من الأعباء الثقيلة، خصوصاً أن زوجها

---

(١) سورة الضحى، الآية: ٧.

(٢) الجذل: الفرح والابتهاج.

قد بُعث للقضاء على عبادة الأوثان، والدعوة للدخول في دين الله الجديد؟ وهل يمكن أن تقبل قريش بهذه الدعوة وفيها رجال يغلب على طباعهم الحسد والصلافة معاً، ولا يقبلون بأن يكون محمد ﷺ، أو غيره أعلى منهم مكانة، وأسمى مقاماً، وأعزَّ شأناً؟!..

ورأت الزوجة الوفية أن تذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فهو على النصرانية، وقد بلغ سن الكهولة ونضوج الفكر، وعنده من علم الكتاب ما ليس عند غيره من قريش... فلعلَّ ورقة يوجهها إلى ما يجب عليها أن تعمل تجاه زوجها، وما يتناسب مع جو النبوة، بجلالها وقدرها.

وانطلقت السيدة المخلصة إلى حيث يقيم ابن عمها ورقة، وأخبرته بالوحي الذي أنزل على زوجها محمد ﷺ..

وتفكَّر ورقة بن نوفل بما أخبرته به السيدة خديجة.... ولكي يتأكد من صفات النبي الذي أطلَّ زمانه، قام إلى بطون الكتب يبحث فيها عن هذا النبأ العظيم الذي كانت بشاراته معروفة لدى أهل العلم.. وبعد البحث المضني ـ وبخاصة لمن هو في مثل سنه ـ جلس يلتقط أنفاسه، ثم توجّهَ إلى خديجة قائلًا: «والذي نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتني بما أخبرتِني يا خديجة فقد جاء الناموس[1] الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبيُّ هذه الأمة، فقولي له: فليثبت»[2].

لقد كان ورقة بن نوفل وهو على دين النصرانية، على اطلاع واسع بالديانة التوراتية لأنه ـ كما قيل ـ قد نقل كثيراً عن التوراة إلى

---

(١) الناموس: صاحب السّرّ المطلع على الأمر الأكبر. والناموس الأكبر هو جبريل (يونانية).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام، م١، ٢٥٤.

اللغة العربية وهو يعلم ما في التوراة والإنجيل من خبر النبي الأمي العربي: وقد وعى صفات هذا النبي، بل وعرف اسمه بالذات. وكلّ ذلك لا ينطبق إلا على محمد بن عبد الله، ولذلك قال لزوجه خديجة أنه «نبي هذه الأمة»..

أي ـ والله ـ لقد قال ورقة قول الحق، ولكنه لم يدرك الحقيقة كلها.. فالله تبارك وتعالى لم يبعث محمداً ﷺ نبياً ورسولًا لأمةٍ، ولا لشعبٍ معيّن بالذات، بل بعثه وأرسله لجميع الشعوب، ولجميع الأمم في مشارق الأرض ومغاربها، للناس كافة، وليس لأمة واحدة كما قال العالم ورقة بن نوفل. وهذا ما صححه له التاريخ، ولغيره من أهل الكتاب من الباحثين والعلماء والفقهاء. فقد ثبت، وما يزال الحق ثابتاً وقائماً، بأن محمد بن عبد الله هو رسول الله للناس كافة. وشهد الله من عليائه، وشهدت ملائكته، وشهد المؤمنون الصادقون هذه الحقيقة الناصعة وهي أن محمداً ﷺ ما كان إلَّا بشيراً ونذيراً للعالمين...

ولم يكن ذهاب خديجة بسبب القلق على زوجها، كما قالت به روايات كثيرة.. فهي لم يخامر قلبها الشكّ يوماً بما يقوله محمد ﷺ لأنها على يقين بأنه لا يقول إلا الصدق، ولا ينطق إلا بالحق..

وقد أشرنا إلى بعض دوافع السيدة خديجة في ذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وأولها كان حرصها على عدم التقصير بحق زوجها، وخوفها عليه من قريش. بل لعلَّ هذا الخوف كان وراء هواجسها كلها، لأن الدعوة التي سوف يحملها زوجها ستثير حفيظة المشركين، وتؤلِّبهم على عداوته، مما قد يجعل حياته في خطر.

وهذا وحده يفرض عليها ـ هي بالذات ـ أن تكون مستعدة لاتخاذ الحيطة والحذر حتى تذبَّ[1] عن النبي، وتدفع عن الرسول الأذى. . . إنها خديجة، وهي تريد أن تكون على مستوى الأحداث التي ترافق النبأ العظيم، فلجأت إلى ابن عمها علّه ينير لها الطريق في مواجهة كافة الاحتمالات التي قد تقع. . ولكن ورقة بن نوفل اقتصر همُّه على شيء واحد، وهو التأكيد لزوجة محمد ﷺ بأنه نبي هذه الأمة، وأن عليه أن يثبت في مواجهة الصعاب الكبيرة التي سوف تعترضه في حمل دعوته. .

وعادت السيدة خديجة إلى بيتها، فرأت زوجها ما زال في نومه مطمئناً. . فآثرت الركون والسكون، ونفسها تمتلىء اعتزازاً، وهي تنظر إلى هذا الزوج الذي حباه الله تعالى بأعظم النِّعم، وأجلِّها على الإطلاق.

وطلع اليوم التالي على مبعث رسول الله ﷺ، فرأى أنه ما زال بحاجة إلى النوم والراحة. وإنَّ من حقه أن يأخذ قسطه الوافي من النوم، وقد أمضى ليالي رمضان الطوال في غار حراء ساهراً متعبداً. وإنَّ من حق بدنه عليه أن يذوق طعم الراحة بعد تعب تلك الليالي، ومن ثقل أهم حدث يواجهه في حياته. .

وجلست زوجه الطاهرة تتأمله وترقبه بلهفة، وهو يتدثر بغطائه. لكنها تراه الآن قد ثقل تنفسه، والعرق يبلل جبينَه، ثم رأته يفتح عينيه وهو مصغ منجذب لا يتطلّع إلَّا إلى فوق، وكأنه في عالم غير هذا العالم الأرضيّ، وفي دنيا غير هذه الحياة الدنيا.

---

(١) تذبّ: تدافع.

وأحسَّت وهي تنظر إليه على هذه الحالة كأن قوةً خفية تشل حركتها، وتعقدُ لسانَها، فتظل ثابتة حيث هي بلا حراك.. تدرك وتعي أن أمراً عظيماً يستغرق كل كيانِ زوجها، ولكنها لا تعرف ما هو هذا الأمر، ولا تقدر على فعل شيء حياله، أو القيام بأي شيء يمكنُها معه استيعاب ما يجري.

نفحاتٌ من الإعداد الإلهي لمحمد ﷺ

وأخيراً يرتاح النبي ﷺ، فينظر إليها بابتسامة هانئة راضية، فتشعر أنها تحلَّلت من القيود التي كانت تكبِّل حركتها، فتُقبل عليه قلقةً، خائفة، ولكنهُ يطمئنها أنه بخير، وأن عبء الوحي وهو يتنزل عليه ثقيل، إذ أتاه جبرائيل الأمين عليه السلام بالأمر الجلل، وهو قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[1].

وتستمع السيدة خديجة إلى التلاوة المباركة، فيصرخ بها دافع الإيمان، وقد ملأ قلبها وعقلها، فتنطق بشهادة الحق وهي تقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

إنها الطاهرة الصدوقة. وقد تجلّى صدقها المتأصِّل في أعماقها، منذ أن واكبت سيدنا محمداً ﷺ في حياته. أما الآن فيتجلَّى أيضاً إيمانها النابع من أعماق نفسها الصافية، وفطرتها السليمة، فتعلن هذا الإيمان بالشهادة الحقة، التي تعني حقاً وصدقاً: التصديق بأن لا إله

(١) سورة المدثر، الآيات: ١ ـ ٧.

إلا الله، وحده لا شريك له، وبأن محمداً عبده ورسوله، وحاملُ أمانته إلى خلقه وعباده.

وكان على محمد ﷺ أن يصدع لأمر ربه تعالى: «قم فأنذر»..

أجل، قُمْ يا محمد لتبدأ النذير العام للبشرية، ولتباشر دعوة الناس بألّا يعبدوا إلا الله الذي لا إله إلا هو إلهاً واحداً في السماوات والأرض، وأن يطيعوه ويقدّسوه لأنه هو ـ جلّ وعلا ـ خالقهم، ومالك أمورهم، فلا شرك في عبادته، ولا عذر في معصيته، وإلَّا.. فإن الحساب في الآخرة لآتٍ، وويل لمن كفر، أو أشرك بربه، أو عصاه، فإن عذاب السعير بانتظاره.

ثم على قدر هذا العبء الكبير، كان التوجيه الرباني:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

وحده سبحانه الكبير المتعال، وكل شيء ما خلا الله تعالى صغير وباطل.. فعلى الرسول مهما لاقى في دعوته من القوى المعادية ومن الصعاب والعقبات أن يستصغرها، وهو يستحضر هذا الشعور بأن ربَّهُ هو الكبير، وأنه مهما كبرت العظائم فالله أكبر. إذن فالأمر فوق التصوّر البشري المحدود، لأنه يتناول خلق السماوات والأرض، ويجعل كلَّ ما فيها في قبضة الله تعالى الكبير، يتصرف بها كيفما يشاء، وعلى النحو الذي يشاء.. ولذلك يوجِّه سبحانه وتعالى رسولهُ إلى هذه الحقيقة، ويزوِّده بهذه القوة، التي يواجِهُ بها الناسَ في دعوته، بل وفي كل أمرٍ يُقْدِمُ عليه، فيجعل شعاره في رسالته الشعار إيّاه الذي يقوم عليه الوجود كله وهو: الله أكبر، ولا إله إلا الله..

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

والطهارة لا تعني فقط طهارة الثياب والبدن مع أهمية ذلك في المناعة (الوقاية) من الأمراض التي ثبت أن سبب معظم الأمراض كالحمى والإنفلونزا والطاعون، كما في ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ طهارة للقلب واللسان والعقيدة.. إنها الطهارة الكاملة التي تتناسب مع التلقّي من الملأ الأعلى.. فالرسولُ هو الداعية إلى البشرية كي تتخلص من تلوث عقيدة الكفر والشرك، ومن الشوائب والأدران التي تدنس حياتها. والطهارة الكاملة في نفس الداعي، وفي بدنه، بل وحتى في ثيابه ضرورية كي تبعد الملوَّثين عن تلوثهم، والمدنّسين عن دنسهم.

ولذلك كان التلقي مقروناً منذ بدء الوحي بأداء فريضة الصلاة التي تستوجب الطهارة.. إذ لما نزل التكليف بأن ينذر الرسول ﷺ الناسَ، كانت الدعوة إلى دين الله تعالى، مصحوبة بالعبادة، فلا دين من غير عبادة، ولا عبادة من غير صلاة.. فكان فرض الصلاة، وكان فرض الطهور أي الوضوء[1]. وهو التكامل التعبديّ الذي يشتمل عليه قول الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقد فرضت الصلاة ركعتين في أول البعثة المحمدية. وكانت تقام مرتين في الصباح وفي المساء، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[2].

---

(١) روى الحارث بن أسامة من طريق أبي لهيعة موصولًا عن زيد بن حارثة: أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحي إليه أتاه جبريل فعلّمه الوضوء.. وقد روى ابن ماجه بمعناه، وروي نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس. وفي حديث ابن عباس: «وكان ذلك في أول الفريضة» (انظر الرحيق المختوم، ص٦٧ عن: مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٨٨).

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٥.

أما الصلوات الخمس فقد فرضت بعد الإسراء، فصارت أربع ركعات في صلوات: الظهر والعصر والعشاء، وثلاث ركعات في صلاة المغرب، وظلت ركعتين في صلاة الصبح، على نحو ما هو ثابت ومعول به عند المسلمين، وهم يؤدون صلواتهم وفقاً للسنة النبوية الشريفة، وما أمر به عندما قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلّي».

ومنذ ذلك الحين بدأ رسول الله ﷺ بالصلاة مع أهله، أي منذ ذلك اليوم الذي تنزَّل عليه الوحي ودعاه ربُّهُ تعالى إلى نفض دثاره، والقيام لينذر الناس بأن يتركوا الوثنية والكفر وأن يعبدوا الله سبحانه وحده، بلا أنداد، ولا شركاء.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾.

والرجز معناه الشرك..

ويقال في اللغة: هجَرَه يهجره هَجْراً وهجراناً: ضد وصَلَهُ[1].

فيكون معنى التوجيه الإلهي أن على رسول الله محمد ﷺ أن يقاتل الشرك، ويصرمَهُ من حياة الناس بحيث تتقطع أوصاله في النفوس... والرجز والقذارة والإيمان والنظافة ضدان متناقضان، ولا يمكن للإنسان إلَّا أن يسلك طريق أحدهما دون الآخر، فلا تلاقي بينهما، ولا تقارب.. والأساس في دعوة التوحيد: محاربة الشرك والقضاء عليه، فلا يبقى له أثر لا في القلوب، ولا في العقول، ولا يكون بعد ذلك للبشرية، أن تحتجَّ بأي شيء على الله سبحانه وتعالى، فقد بعث لها رسولهُ ﷺ بالهدى ودين الحق، وما عليها إلَّا أن تهجر جميع معتقداتها السابقة، وتتَّبع دعوة هذا النبي الرسول بقطع كل صلة

(١) انظر معجم البستان، الشيخ عبد الله البستاني، ج٢ ص٢٥٥٤، بيروت ١٩٣٠.

لها مع الشرك وتركه إلى الأبد. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي حارب الشرك واقطع وجوده، حتى يثبت دين التوحيد.

أما هو ﷺ فقد حفظه الله تعالى من رجس الوثنية، فلم يثبت على الإطلاق أنه انحنى لصنم، أو أقام شعيرة عند وثنٍ. وإن سيرة حياته الشريفة كلها تنبىء بذلك، ويؤكدها قوله ﷺ: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم، ولم يدنسني بدنس الجاهلية»[1].

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾.

أي لا تعطِ عطيّةً تلتمس بها أكثر منها وأفضل، لأن الكريم يستقلّ دائماً ما يعطي وإن كان كثيراً. والسرّ في ما ينهى الله تعالى رسولهُ عنه هنا هو أن يكون العطاءُ خالياً من انتظار العوض تعففاً وكمالاً، فهو سبحانه وتعالى قد أمر عباده بثلاثة: العمل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2] والسعي ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[3] والدعاء ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4] أما القبول فهو من شأنه سبحانه وتعالى، وعطاء الرسول ﷺ من صلب العمل والسعي والدعاء.. لأن الدعوة هي في الأصل عطاءٌ من الله ـ تعالى ـ المعطي، فيجب أن تتناسب معها حياة الرسول ﷺ بأن تقوم على العطاء، وبلا منّةٍ، ولذا كان التلازم بين العطاءين مؤدياً إلى الكمال في الرسالة.

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص١٣٠، الدر المنثور ج٥ ص٩٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٥.

(٤) سورة غافر، الآية: ٦٠.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

وهو الصبر الذي يوجه الله ـ تعالى ـ رسولهُ إليه عند كل تكليف من تكاليف هذه الدعوة الشاملة.. فأمام حاملها معركة شاقة، متعددة الجوانب والاتجاهات، ويكفي منها المعركة مع شهوات النفوس، وأهواء القلوب، والأطماع والنوازع المادية التي تغري الناس وتفتنهم. ثم هنالك المعركة مع الأعداء الذين سيقفون بوجه هذه الدعوة ومحاربتها بلا هوادة.. وكل ذلك يتطلب الزاد الضروريَّ وهو الصبر على المواجهة، والصبر على البلاء، والصبر على الاحتمال..

فالتكليف منذ البدء شاق، وصعب جداً لأنه سوف يتناول معالجة الناس من داخل نفوسهم، كما سوف يعالج أمور حياتهم من الخارج، وهذا في جوهر التكليف بالرسالة الخاتمة لتبيان كل شيء، ومن ثَمَّ لمواجهة كل شيء ومعالجته.

دعوة ذوي القربى

هكذا كان التوجيه الرباني للنبي ﷺ: اليقين بأنه ـ سبحانه ـ الكبير المتعال، والطهارة، وقطع دابر الرجز، والعطاء بلا منة ولا استكثار، والصبر والاحتمال... ويبقى المباشرة بالإنذار..وهكذا تلقاه النبي ﷺ الذي كان عليه أن يبدأه، ويباشره في أول النذير العام للبشرية. ولئن كان عليه أن يُعِدَّ العدة لكي يبدأ الدعوة بين الناس، إلَّا أن أهل بيته أوْلى بالإسلام، والإسلام أوْلى بهم. فقد أسلمت زوجه خديجة رضي الله عنها بقناعتها وعفويتها الصادقة، فكان لهؤلاء الذين يعيشون في كنفه، والذين لهم مكانة خاصة في نفسه، حقهم بأن يكونوا قبل كل الناس السبّاقين إلى فضل الله تعالى، والإيمان به، وعبادته. وما

على النبي ﷺ إلَّا أن يباشر دعوته في مهبط الوحي، في داخل البيت النبوي، قبل أن ينصرف إلى مبادأة الآخرين بطرح الدعوة عليهم..

إسلام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه)

وكان علي يعيش ـ كما تقدم ـ في كنف محمد ﷺ، منذ أن كفله وهو صغير، فقام هو وزوجته خديجة على تربيته التربية الحكيمة الرشيدة، فنشأ في تلك البيئة الصالحة التي يتزوّد منها بمكارم الأخلاق، وفضائل العادات وصالح الأعمال. وكان عليٌّ بذاته قد حباه الله تعالى ذهناً متوقداً، وذكاء متوهجاً، وصفاءً في النفس ومتانةً في العود. هذا فضلًا عن المكرمة التي تكرَّم الله تعالى بها عليه، عندما قاد سبحانه خطوات أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف (وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي) إلى البيت الحرام فولدته في جوف الكعبة، يوم الجمعة في الثالث عشر من شهر رجب، وقبل بعث محمد ﷺ بعشر سنوات.. وهذا ما جعل له تلك المكانة المميزة في نفس ابن عمه محمد ﷺ، وفي نفس أهل مكة جميعاً، لما كان للكعبة من قدسية عند العرب.

وفوق تلك النِّعم التي أفاضها الله تعالى على علي بن أبي طالب، كان فضله تعالى أعظم عندما منَّ عليه بالإسلام في مهبط الوحي بالذات.. فقد أجلسه رسول الله ﷺ إلى جانبه وأخذ يخبره بما بعثَهُ الله تعالى به من الدين الحق، وهو يتلو عليه من الآيات البيّنات التي يتنزَّل بها جبرائيل الأمين، مما جعل قلب علي يطمئن بالإيمان، فيصدِّق الرسول ﷺ ويؤمن به، فينطق بشهادة الحق: «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وطابت نفس النبي ﷺ بإيمان هذا الصبي، ابن العاشرة، كما طابت نفسه من قبله بإسلام زوجته الوفية، فعمد إلى تزويدهما بالتعاليم الإسلامية، المتعلقة بأحكام الصلاة، وطريقة الوضوء والطهارة، فصارا يصليان معه في البيت الصلاة المفروضة، وكانت ما تزال ركعتين في الصباح وركعتين في المساء ـ كما تقدم بيانه ـ.

وشاء النبي ﷺ، ألَّا يكون إسلام علي في غفلةٍ عن أبيه، لاسيما أنه عمّهُ، وكفيله في صغره، وحبيبه، وسيد الأبطح، فطلب إليه أن يذهب ويخبر والده أبا طالب بالأمر. فوقف علي أمام الرسول ﷺ، وأجابه بما لم يخطر على بال أحد أن يجيب به صبيٌّ في مثل سنه، وقال: «لقد خلقني الله يا رسول الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله ربي. وإن هذا الدين الذي تدعوني إليه هو دينُهُ الذي ارتضاه لنا نحن عبادهُ، فعليَّ أن أتّبع دين الله من غير أن أشاور أحداً من الناس»!.

ألا إنها نعمة الرضى التي أنعم بها تعالى على عباده الصالحين. وقد أفاض سبحانه من عليائه على نفس عليٍّ ما جعل قلبَهُ الفتيّ يعمر بالإيمان حتى يكون «أول ذكر من الناس آمن برسول الله وصلَّى معه، وصدق بما جاءه من الله تعالى وهو يومئذٍ ابنُ عشر سنين»[1].

إسلام زيد بن حارثة

وكان زيد بن حارثة يعيش هو الآخر في بيت محمد ﷺ قبل البعثة. وكان قدره أن يخطفه فرسان من بني القين بن جسر، وهو ابن

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٦٢.

ثمانية أعوام، ويبيعوه رقيقاً، كما كان يجري في أيام الجاهلية، إلى أن انتهى أمره إلى سوقٍ للنِخاسة في الشام. فاشتراه حكيم بن حزام مع عبيدٍ آخرين، وحملهم معه إلى مكة. فباعه من السيدة خديجة بنت خويلد فلما تزوجت وهبته لزوجها.. وبخلقه المحمدي لم يبقِ عليه رسول الله ﷺ مولى، بل أعتقه وتبنّاه، فصار يدعى زيد بن محمد..

وكان أبوه حارثة بن شرحبيل الكلبي لا ينفك عن البحث حتى يعرف خبرَ ولدِهِ، فلمّا أُخبِرَ به وعرف بوجوده، جاءَ وعمّهُ كعبٌ بيت «محمد» فدخلا عليه، فقالا: «يا ابن عبد المطلب ﷺ يا ابن سيد قومه! أنتم أهل حرم الله، تفكّون العاني[1] وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عندك، فامنن علينا به، وأحسن في فدائه». قال: ما ذاك؟ قالوا: زيدٌ ولدنا... وما كان لمحمدٍ أن يتوانى فدعا إليه زيداً، وخيَّره بين البقاء أو الرحيل مع أبيه، ولكنَّ زيداً رفض أن يترك هذا الإنسان الذي أكرمه، وآثر أن يبقى في الكنف الطاهر الذي لم يُشْعِره بالعبودية وذلِّها منذ أن دخله وعاش بين ظهراني أهله، ولذلك قال من فوره: «ما أنا بالذي يختار عليك أحداً، أنت مني بمكانة الأب والعم»..

واستغرب حارثة موقف ابنه، فقال له: زيد يا بنيّ! أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهلِكَ؟!

فأجهش زيد بالبكاء، وقال لأبيه: ومن قال إني عبدٌ في هذا البيت؟ والله ما جعلني «محمدٌ» عبداً، بل كنت عزيزاً، موفورَ الكرامة عنده وعند أهله الطيبين الطاهرين، بل ولقد دعاني إليه، فصرت ابناً

(١) العاني: المكلّف بما يشق عليه ويتعبه. والعناء: التعب والنصَب.

له، فكيف يتفق ذلك وما تتهمني به من العبودية عنده، فوالله ما أنا بالذي يفارقه أبداً.

ولم يجد حارثة بن شرحبيل وسيلة ليقنع ابنَهُ زيداً بالعدول عن رأيه، فتركه، وانصرف عنه وهو يدعو له بالخير والبركة، فلما رأى النبيّ ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر ونادى في الناس: اعلموا بأن زيداً ابني، يرثني وأرثُهُ، فدعي زيد بن محمد، حتى نزل الحكم الإلهي في التبنّي.. وهكذا تابع زيدٌ حياته النبيلة، ورأى آثار النبوّة تسطع في البيت المحمدي، الذي أحسن مثواه وتنشئته، فأقبل على دين الله عندما دعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام، راغباً، مختاراً سعيداً، ليعيش في ظلال الوحي مؤمناً، صادقاً، يصلّي، ويتعبّد لله العزيز الحكيم وظلَّ على هذا التبنّي حتى نزلت الآيات القرآنية التي تمنع التبني في الإسلام، ـ وذلك في المدينة المنورة ـ بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[1]. عندها ومنذ أن تنزَّل هذا الأمرُ من الله تعالى، لم يعد زيد ابناً لمحمد ﷺ، بل عاد يُدعى باسم أبيه.. زيد بن حارثة.

وقد شَرُفَ زيد بإسلامه وإيمانه، أكثر من تشرّفِهِ بنسبه العربي الأصلي، كما لم يَعُد الرقّ يشوّهُهُ منذ أن أعتقَهُ محمد ﷺ ورعاه في بيته، وقد زوَّجَهُ رسول الله حاضنتَهُ أمَّ أيمن فولدت له أسامة، وكان يكنَّى به ـ وبعدها زوّجه من زينب بنت جحش ـ ولسوف يأتي ـ إن شاء الله ـ البحث في حكم التبنّي، وزواج زيدٍ من زينب.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

إسلام أم أيمن

وكان لا بد أن يتوالى إيمان أهل البيت النبوي الواحد تلو الآخر.

فهذه أم أيمن التي كانت جارية حبشية من قبْل، قد منَّ الله تعالى عليها برحمته، فجعلها ترافق محمداً ﷺ منذ أول يوم أطلَّ فيه على هذه الحياة ـ باستثناء مرحلة رضاعه في ديار بني سعد ـ وتظل إلى جانبه أينما حلّ.. فكانت تنتقل معه من كنفٍ إلى كنفٍ حتى تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها وجاء ﷺ بأم أيمن معه إلى بيته الجديد، لتكون إنسانةً حرَّة، شريفة، بعد أن نفض عنها غبار العبودية، وأكرمها بجواره حتى صارت عنده بمثابة الأم.

وقد آمنت هذه الإنسانة الوفية برسول الله ﷺ وصدَّقته منذ أن صدع بالرسالة، فكانت من خيرة النساء الأوائل اللواتي دخلن في الإسلام، بل وكانت أول امرأة بعد السيدة خديجة آمنت وشهدت شهادة الحق. وقد عاشت في كنف النبي ﷺ تتأدَّب بآداب الإسلام، وتتلّقى معانيه الحقّة الخيّرة على يديه الشريفتين.

إسلام بنات محمد ﷺ

ويتتابع الفيض الإلهي على بيت رسوله محمد ﷺ.. فتأتي بناته زينب ورقية وأم كلثوم لزيارة الأهل، ويكون اللقاء الميمون بين الأبوين وبناتهما، فتتلقى كل واحدة الدعوة من أبيها للدخول في دين الله، فتقبل على الإسلام، وتشهد بشهادة التوحيد، وهي راضية فخورة بهذا الأب العظيم الذي منَّ الله تعالى عليه بالنبوّة والرسالة، وبهذه الأم التي تفضَّل عليها خالقها وبارئها لتكون أول الناس إسلاماً وإيماناً..

ويغمرُ البِشْرُ وجه النبي ﷺ، ويأنس بإيمان بناته، فيطلب إلى زوجه أن تعلِّمهنّ الصلاة والوضوء، فتسارع الأم إلى تلقين بناتها الآيات التي تتلى في الصلاة، والأصول الواجبة التي يقوم بها المسلم في طهارته ووضوئه، حتى أُشبعت نفوس هؤلاء البنات بالإيمان الصادق. فارتاح الجميع، وجلسْنَ حول النبي عليه السلام يشكرْنَ الله تعالى على نعمته الجزيلة، وفضله السنيّ. وقد خيمت السعادة على أجواء هذا البيت الشريف، الذي يستظل بظل الله تعالى، ويتفيّأ بوارف رحمته، وجلال عظمته وقدسيته.

وهكذا كانت بنات محمد ﷺ يترددن على بيت أهلهنَّ للتزود بمفاهيم الإسلام، وفي كل مرة يحل فيها موعد ذهابهن، توصي الأم الرؤوم ابنتيها رقية وأم كلثوم أن تكتما إسلامهما عن زوجيهما عتبة (زوج رقية) وعتيبة (زوج أم كلثوم) ابنيْ عمهما أبي لهب، وأن تنتظرا أمرَ الله تعالى حتى يجد لهما مخرجاً. . أما قلق الأم فمردُّه الخوف من عائلة أبي لهب جميعاً ـ وليس من ابنيه فقط ـ التي لن تقبل بإسلامهما، وقد تعمد تلك العائلة إلى أذيتهما، والنيل من كرامتهما. . أما ابنتها زينب فلا خوف من زوجها العاص بن الربيع، فهو ابن أختها هالة بنت خويلد، وأمه تحبها حباً شديداً، فلا يمكن أن تدع له المجال لكي يؤذي ابنة أختها، أو أن يلومها على عملٍ ارتضاه لها أبواها. ومع ذلك كله فقد آثرت السيدة خديجة أن تبقي ابنتها زينبُ إسلامها سراً، حتى يُعلن النبي ﷺ دعوته للناس.

وبعد أن اطمأن النبي ﷺ إلى إسلام أهل بيته، كان عليه أن يباشر دعوته بين الناس للدخول في الإسلام. وليس أفضل من رحاب الكعبة لهذا الأمر الخطير، فلعلَّ ما للبيت الحرام من قدسية في

النفوس، يساعده على تصديق الناس له والإيمان بما يدعو إليه. . لذلك صار النبي ﷺ يقضي معظم أوقاته بجوار الكعبة للاجتماع إلى الناس ـ كعادته التي ألفوه عليها ـ والاستماع إلى همومهم وتشكّيهم من الأوضاع التي يعيشونها، لأن الغالبية كانوا يشتكون من قساوة الظروف، وشظف العيش في تلك البيئة الظالمة. .

والتقى النبيُّ ﷺ عند الكعبة ـ أعزَّها الله ـ ورقة بن نوفل، وكان قد صار شيخاً هرماً، ضعيفاً، فجلس يتحدث إليه بما بعثهُ الله تعالى به من الدين القيم، دين التوحيد والتعبّد لله الواحد الأحد، الذي لا شريك له ولا ولد. . وكان ورقة يصغي للنبي ﷺ بلهفةٍ، ثم ما كان منه إلَّا أن أمسك برأسه الشريف يقبّله، وهو يقول له: «والذي نفس ورقة بيده إنك لنبي هذه الأمة، لقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى. ولتُكذَّبَنَّ، ولتُؤذَيَنَّ ولتُخْرَجَنَّ، ولتُقَاتَلَنَّ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه».

ولم يكن النبي ﷺ يترك جوار الكعبة، إلَّا في الأوقات التي يذهب فيها إلى شعاب مكة، حيث كان يقضي كل يوم فترةً يخصِّصُها للصلاة والدعاء إلى ربه تعالى أن يعينه على تبليغ الدعوة والقيام بحق الرسالة. . وكان في ترداده إلى الكعبة الشريفة يتحيّن الفرصة التي يُتاح له فيها أن يفاتِحَ الناس بما بعثَهُ الله تعالى به. حتى حانت الفرصة وذلك عندما رأى النقاش محتدماً بين نفرٍ من قريش، وهم يحلفون باللات والعزى على عادة القوم يومئذٍ، فما كان منه إلَّا أن تقدم ينحي باللائمة عليهم، وينهاهم عن الحلف بأصنام جامدة لا تنفع ولا تضر، ويبيّن لهم أن الحلف الحقَّ إنما يكون بالله العلي العظيم الذي تقوم له

السماوات والأرض، والذي ـ سبحانه ـ وحده الإله الحق، وما دونه الكفر والباطل.

وكانت الصدمة شديدة على عقول أولئك النفر. صحيح أنهم لم يَرَوْا «محمداً» يعبد الأصنام من قبل، أما أن يعترض، ويمنع عليهم الحلَفَ بمعبوداتهم، فهذا طعن ليس بدينهم، بل وبدين الآباء والأجداد، وفي ذلك ما فيه من العجب منه!.. بل وكان أشدّ وأقوى ما أخذهم من العجب أنهم لم يعيبوا على «محمد» شيئاً من قبل في حياته قطُّ، فهو الصادق الأمين بين الناس، وهو المثال في القول والعمل بين القوم، فما باله اليومَ يدعوهم إلى ترك آلهتهم وعبادة الله وحده؟!.. إنه لأمر محيّر فعلًا، ولا يدرون له تفسيراً.. ومع ذلك فإن أحداً لم يجرؤ على تكذيبه، أو الردّ عليه، بل آثروا الانسحاب وتركوه وحده دونما أدنى جدال أو نقاش.

أما النبي ﷺ فلم يستغرب هذا الإعراض عنه، فقد كان يعلم أن الجاهلية قد جعلت قلوب الناس قاسية غليظة، وأن عبيد الوثنية، هؤلاء وغيرهم، قد ألفوا ما كان يعبد آباؤهم، فصار من العسير أن يتخلوا عن معتقداتهم البالية، الخرقاء.. فكانوا هم ومَنْ وقف موقفهم، وتصدَّى لمحاربة الدعوة فيما بعد، ممن صدق فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

وكانت تلك الحادثة أولَ خطوةٍ على هذا الدرب الطويل الذي سوف يسير عليه لنبيُّ الإسلام، والذي سوف يُلاقي في سلوكه كلّ عَنَتٍ وجهالة من الناس. فقد قام بعد تلك المحاولة الأولى بمحاولات

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

عديدة مماثلة، إلَّا أنه لم يلقَ خلالها إلا الإعراض نفسه، والنفور عينه، دونما استجابة من أحد، أو اهتمام بما يبديه ويصرِّح به.. وهذا ما أثار في نفسه ﷺ الألم والحزن، وجعله يهفو إلى لقاء الروح الأمين جبرائيل عليه السلام، لعلَّ في لقائه ما يؤنس قلبَهُ، ويفتح أمامَهُ السبلَ التي من شأنها أن تزيح الغشاوة عن عقول هؤلاء القوم، وتمزّق الغُلُفَ عن قلوبهم.

ولكن الوحيَ تأخَّر عليه، وهذا ما زاد في غمه وقلقه.. فرأى أن خيرَ ما يُعينُهُ على تأخر الوحي قد يكون في الذهاب إلى جبل النور، فهناك وفي داخل الغار يجد الأنس لقلبه، والطمأنينة لنفسه، لأنه المكان المبارك الذي اعتادَ فيه الاتصال بربه (تعالى) في تعبّده وتحنُّثه قبل بعثه، وهو المكان نفسه الذي رأى فيه جبرائيل عليه السلام لأول مرة، فصار منذ ذلك الحين يشتاق إليه، ويحنُّ إلى لقائه.. ولو كان الأمر بيده لاستعجله، واستكثر مما يأتي به من آيات الله البيِّنات.

وبمثل هذا التوجه كان النبي ﷺ يصعد إلى جبل النور، ويدخل غار حراء متعبداً، داعياً منيباً، عسى أن يعاوده الوحي.. وكانت المرارة تزيد في نفسه يوماً بعد يوم، إذ إنه فوق تأخّر الوحي كان المشركون قد بدأوا يتقوَّلون عليه أقاويل شتى، وكلها كذب وافتراء، ولا تنمُّ إلَّا عن الاستهزاء والسخرية منه. فقد اتهموه في بادىء الأمر بأن عوارض تصيبه من الجنون، ثم لمّا تأخر الوحيُ عنه، صاروا يقولون: «أرأيتم محمد بن عبد الله.. لقد تركه ربه وقلاه»!. أجل لقد اتخذوا من قول محمد ﷺ بأنه نبيّ ورسولٌ من عند الله الواحد، مادةً للهزء به، فراحت أَلسنة السوء تلوك سمعته وتحاول النيل منه. وقد انقلبت صورته بين ليلة وضحاها من محمد الصادق الأمين إلى

رجل عادي لا يستأهل الجلوس معه، والتحدث إليه.. فكانت تلك الفترة حرجة جداً عليه، وزادت في ضيقه. ولكنه ﷺ لم ييأس، ولم يقنط من رحمة الله تعالى، بل ظل على عهده مع ربه، قائماً على عبادته، والدعاء إليه عزّ وجلّ، حتى مرت خمسة عشر يوماً فإذا الهموم تنزاح عن نفسه، ويأتيه الفرج الذي ينتظره عندما عاوده الوحي الذي يحمل إليه الأدلة والبراهين على حب الله تعالى له وذلك بقوله المجيد:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾[1].

فما أعظم هذه الألطاف الإلهية وهي تتنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ وكلها إيناس وطمأنة لقلبه. فالله سبحانه وتعالى يُقسم بأنه لم ينسَ رسولهُ محمداً، ولم يتركه، أو يتخلَّ عنه.. وقَسَمُهُ ـ عز وجلَّ ـ كان توكيداً بينه هو ـ سبحانه ـ وبين عبده محمد ﷺ على مقدار الصلة الجليلة التي تربط محمداً بربِّه، وهي صلة العبودية القائمة على الصفاء، والصدق واليقين الحق، ولذلك كان قسمُ المولى سبحانه وتعالى بأصفى طرفين من النهار والليل وأشفّهما:

بالضُحى حين ينتشر النور وتنبعث حركة الحياة على أحد طرفي الكرة الأرضية، وما في هذه الحركة من نفع وخير للعباد، وبالليل

(١) سورة الضحى، الآيات: ١ ـ ١١.

الساجي الذي يرقّ ويصفو، ويغطي على الطرف الآخر من المعمورة بالهدوء والسكون، فيرتاح العبادُ من المعاناة التي ترهقهم طوال بياض النهار وضوئه.

أجل، بهذين الوقتين الرائقين الموحيين يُقسم الله ـ عز وجل ـ بأن ربَّك يا محمد ما تركك، وما جفاك، فأنت عبده المخلص، وهو يرعاك، ويكفلك ويحبك.. ومهما كانت النِّعم التي تفضل عليك بها في هذه الحياة الأولى، فإنَّ ما سوف يجزيك به من الأجر والثواب والمكرمة لأكثرُ وأعظمُ في الآخرة. ولا شك في أن الآخرة خير لك من الأولى، إنما سوف تكون راضياً مرضياً في الحالين، فاطمئن إلى رضى ربك تعالى، وحبه لك.

أما ما يتقوَّلُهُ المشركون فهو مجرد ترّهات وسفاهات، لن تحطَّ من دينك وكرامتك شيئاً، فأنت حبيبُ ربك المصطفى، ونبيّهُ المجتبى. وإنّ في حياتك كلها من الأدلة والشواهد ما يثبت حبَّ الله تعالى ورعايته لك: ألم يجدك يتيماً فآواك في القلب المحبِّ، والكنف الكريم؟ ووجدك حائراً في البحث عن الدين الحق وشرعته فهداك إليه؟ ووجدك فقيراً محتاجاً إلى معونة ربك فأغناك؟

فهل بعدُ أجلُّ وأعظم من هذه الفضائل الربانية وهي تتنزل وحياً كريماً على قلب رسول الله؟!..

وبهذه المناسبة الكريمة التي يذكّره فيها ربُّهُ تعالى بتلك النعم التي أنعمها عليه، يوجِّهه إلى ما في البيئة الجاهلية من آفات مجتمعية لا ترعى حقاً لضعيف، ولا تقيم وزناً لسائل أو محتاج، ولا تأبه للمشاعر الإنسانية التي يجب أن تغني البشر بالرحمة والإحسان والشفقة..

إنها بيئة ظالمة تقهر اليتيم، وتحتقر السائل. ولكن هذا الوحيَ الإلهي الذي يتنزَّل على محمد ﷺ هو بخلاف ذلك تماماً. لأنه يهدف إلى وخز الضمير البشري الذي لا يأبه للضعفاء، وإلى إقامة موازين الحق والعدل التي تمنع الجورَ والظلمَ والحرمان، وتعطي كل ذي حقٍّ حقه، ليعيش كل إنسان بكرامته وهدايته.

فالحمد لله الذي يجمع بوحيه إلى نبيِّه بين الإيناس والتوجيه ليكون زادُ هذا النبي قوياً في مواجهة الظالمين..

ويعود ﷺ إلى بيته مشرق الوجه، فتهبّ زوجته الطاهرة وتتلقاه بالبِشْر والحبور، ثم تجلس إليه وتستمع إلى خبر الوحي وقد عاوده بآي الذكر الحكيم بـ«سورة الضحى» التي تنزّل بها الروح الأمين من لدن الرحمن الرحيم، وما تحمل آياتها من الدلائل على أن ربَّ محمد ﷺ ما تركه، وما قلاه، كما تتوهم تلك القلة من المشركين.. بل إن الرعاية الإلهية ما تزال تكتنفه في شؤون النبوة والرسالة، كما تكرَّمت عليه من قبل في شتى جوانب حياته.

أجل عادَ الوحيُ، وأذهب عن نفس النبي ﷺ القلق والحزن، فصار بمقدوره أن يلقى الناس بدعوته العتيدة، لأنه لم يكن، حتى ذلك الحين، قد آمن به غير تلك الجماعة الأولى في الإسلام من أهل بيته، دون أن تتعدَّى زوجَه، وبناته، وابنَ عمه علي بن أبي طالب، وعتيقه زيد بن حارثة، ومربِّيته أم أيمن.

فأما زوجُهُ الطاهرة التي حباها الله تعالى بالنفس الزكية فقد كانت له سكناً، آمنت به وصدَّقته، وأقامت له بيتاً من الأمن، والسلام، فأثابها ربُّها على حسن صنيعها بما اختُصت به دون سائر نساء النبي ﷺ الأخريات،

وهي الرحمة التي تقرُّ بها عينُها في جنة الخلد، عندما أَمَرَ سبحانه وتعالى نبيَّهُ، وعلى لسان جبرائيل الأمين، بأن يُعلِم خديجة رضي الله عنها أن الله تعالى يُقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصب[1] لا صَخَبَ فيه ولا نَصب[2].

وردَّت المؤمنةُ الصادقةُ التحية لخالقها وبارئها، عندما أقرأها زوجُها سلامَ الله ـ عز وجلّ ـ بقولها: «الله السلام، ومنه السلامُ، وعلى جبرائيل السلام»[3].

وأما عليٌّ، الفتى الأشمّ، فقد لازَمَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل مكانٍ يذهب إليه، لأنه أحبُّ الناس إلى قلبه، وأقربُهم إلى نفسه، فكان لا يفارقه أبداً: فإن ذهب إلى ندوات قريش كان معه، وإذا طاف حول الكعبة الشريفة طاف بجانبه، وإن قَصَدَ إلى الشعاب للصلاة كان برفقته، يصلي ويتعبَّد معه حتى صار له بمثابة الظل، يدور في فلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيفما دار، لا تهمه الدنيا ومَن فيها، ما دام ابن عمه، هذا النبي الكريم، محباً له وراضياً عنه.

ولم يكن ليخفى على أبي طالب ما يدور في بيت ابن أخيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وملازمةُ ابنهِ عليٍّ له، أو ما يتحدث به الناسُ عن «ادعائه» النبوّة، وحمل رسالة الإسلام.. فآثر الترقب، والحذرَ حتى تتبيّن له مواقف زعماء قريش، وقادة مكة من تلك الأمور التي يدور اللغط حولها، وذلك قبل أن يفاتح بها ابن أخيه، ويقف منه على جلية الأمر.. ولكن الأيام تمرُّ بسرعة، وليس في أجواء قريش إلا الأقاويل

---

(١) أجمع المفسرون على أن المقصود ـ هنا ـ بالقصب: اللؤلؤ المجوف.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٢٥٧.

(٣) المصدر السابق.

وكثرة الكلام؛ ولذا عزم أبو طالب أن يلحق بابن أخيه إلى شعاب مكة، حيث يعرف أنه يذهب إلى هناك كل يوم، ليقضي بعض الوقت بعيداً عن عيون الناس. . .

حقيقة إسلام أبي طالب

وتوجَّهَ أبو طالب فعلًا إلى الشعاب، وبرفقته ولدُه جعفر، وراح يبحث بين ثناياها حتى اهتدى إلى محمد ﷺ وهو في حالة من الإشراق والانجذاب لا يلتفت معها إلى جانبيه ولا إلى ورائه، بل يركع ويسجد، ثم يقوم متوجهاً بناظريه إلى السماء، حتى لكأن روحَهُ معلقةٌ بالملأ الأعلى. . وكان إلى جانبه ولدهُ عليٌّ يقوم بما يقوم به محمد ﷺ تماماً، مما جعل أبا طالب يؤخذ بهذا المشهد، فيلتفت إلى ابنه جعفر ويقول له: أي بنيَّ، تقدم وصِلْ جناحَ ابن عمك[1]. . أي تقدم وصلِّ عن شمالِ ابن عمك، كما يصلي أخوك عليٌّ عن يمينه. .

وظلَّ أبو طالب واقفاً في مكانه لا يتحرك حتى فرغ محمد ﷺ من صلاته، فأسرع إليه يحتضنه، ويعانقه طويلًا، ثم يعانق ولده عليّاً، وهو يدعو لهما بالخير والبركة. وأقبل النبي ﷺ على هذا العم الحبيب، بوجهه المشرق الوضّاء، ونفسه الزكية الصافية، يسأله عن أحواله وعن عياله، ويُبدي عذره للانشغال عنه، ولاسيما في هذه الفترة الأخيرة، بالأمر الجلل الذي ندبَهُ الله تعالى إليه وهو حمل رسالة الإسلام، والدعوة إلى الله الواحد الأحد.

---

(١) السيرة الحلبية، ج١، ص٢٦٩.

وسأله أبو طالب: وما الإسلام يا ابن أخي؟ فنحن، كما تعلم، «على الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام»[1].

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الدين عند الله الإسلام» فهو دين الله، ودين ملائكته ورسُله، ودين أبينا إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3].

فالوحي الإلهي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعوه إلى اتباع ملة إبراهيم عليه السلام حنيفاً. وما ملة إبراهيم إلا هذا الدين الإسلامي الذي يدعو إليه هذا النبي الذي هو من نسل إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم، وإنه الدين نفسه الذي لا حرج فيه والذي يقوم على تسليم العبد وجهه لله تعالى، وهو محسن، أي صادق الإيمان..

بهذه المعاني التي يكتنزها قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتحدث إلى عمه أبي طالب ويقصُّ عليه خبر بعثته، وما يحمل من رسالة الهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم.

ولم يستغرب أبو طالب النبأ العظيم. فمن قبل عرف أنه سيكون لابن أخيه شأن عظيم، وها هو النبأُ يتأكد والشأنُ العظيم يظهر عندما

---

(١) يراجع: البرزنجي في أسنى المطالب، والإسكافي، والتلمساني في حاشية الشفاء، وسبط ابن الجوزي والقرطبي، والسيوطي وغيرهم.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

بعث الله تعالى محمداً نبياً للهدى، ورسولًا للناس كافة.

ولم يكن جديداً على أبي طالب أن يدعو ابنُ أخيه محمد ﷺ إلى ملة إبراهيم عليه السلام، فأبوه عبد المطلب كان يتعبّد على شرع إبراهيم عليه السلام ويدعو أبناءه ـ وفيهم أبو طالب نفسه ـ إلى عبادة الله العلي العظيم، واتباع ملة إبراهيم، وهو ما حفظه عبد المطلب بدوره عن آبائه[1]، واتّبعه في حياته، والدليل على ذلك قول النبيّ ﷺ: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات، حتى أخرجني في عالمكم، ولم يدنسني بدنس الجاهلية»[2].

وإن أبا طالب ليؤمن تمام الإيمان بصدق محمد ﷺ، وبأحقيّة دعوته في محاربة الكفر والقضاء على الوثنية والشرك.

وإن أبا طالب ليحسُّ بهوان الأصنام التي تعكف قريش والعرب على عبادتها. وإنه ليوازن بين الأمور بمقياس صاحب العقل الحصيف، شأنه في ذلك شأن كل سيد في هذه الأسرة الشريفة من الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فلا يجد أي مجالٍ للموازنة أو المقارنة: ها هنا الإسلام والحق، وهناك الكفر والباطل.

---

(١) راجع الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢ ص١٨٦ حيث ورد: «وممن صرّح بإيمان عبد المطلب وغيره من آبائه ﷺ: المسعودي، واليعقوبي، وهو ظاهر كلام الماوردي، والرازي في كتابه (أسرار التنزيل) والسنوسي، والتلمساني (حاشية الشفاء)، والسيوطي، وقد ألف هذا الأخير رسائل عدة لإثبات ذلك.

(٢) مجمع البيان ج٤ ص٣٢٢، والبخاري ج١٥ ص١١٧ و١١٨، وتفسير الرازي ج٢٤ ص١٧٤، والسيرة الحلبية ج١ ص٣٠، والدر المنثور ج٥ ص٩٨، وسيرة دحلان ج١ ص١٨، وتصحيح الاعتقاد ص٦٧، وتاريخ الخميس ج١ ص٢٣٤، وتفسير البحر المحيط ج٧ ص٤٧.

ولكن آهٍ من قريش! فقد خبر أبو طالب عقليتها الجاهلة، وصلافتها وغرورها واستعلاءها.. فهل يعقل أن يقبل زعماؤها ـ وكل واحد منهم طاغية، متكبر وجاهل ـ أن يتنازلوا عن مكانتهم، ويسلموا قيادتهم لدعوة ابن أخيه؟ أم أنهم، وهو الأرجح، سيقفون له ولدعوته بالمرصاد، يحاربونه بلا هوادة، ويمنعونه بلا تبصُّر، لئلا يكون في نجاح دعوته القضاءُ على امتيازاتهم، وأفولُ سيادتهم في أقوامهم؟.. أبداً لن ترضى قريش بذلك، بل وستؤلّب العرب على ابن أخيه. وإذن فهو لن يقف مكتوف الأيدي، فإما التصدّي لقريش وحلفائها وفي ذلك ما فيه من حرب أهلية قد لا تترك ولا تذر، وإما أن يهادن قريشاً فلا يُعلن إسلامَهُ على ملئها، وبذلك يكون أقدرَ على الإمساك بزمام الأمور، ومناصرة الدعوة برويّة وتعقّل هما من أشد الضرورات لها في هذه المرحلة بالذات..

وبعد هذا التأمل الطويل، والتفكر في الأمور من جميع جوانبها، قال أبو طالب للنبي ﷺ: «إي والله يا ابن أخي، ما أحب إلى قلبي من دينك، فامض لأمرك على بركة الله.. ووالله لا يخلص إليك من الناس شيء تكرهه وأنا على قيد الحياة».. ثم يلتفت أبو طالب إلى ولده عليّ ويقول له: «وأما أنت يا بُني فما أراك إلا آمنت بدين ابن عمك؟» قال علي: إي نعم يا أبت! آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به، وصلّيت معه لله واتّبعته... فقال له أبوه: «أما إنه لم يدعُكَ إلا إلى خيرٍ فالزمه»[1].

لقد رأى أبو طالب ألّا يجهر بإسلامه من أجل مصلحة نبي الله،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٢٦٤.

ومن أجل دين الله. . ولكنه أخذ العهد على نفسه وهو يقسم بالله العلي الكبير أن يناصب العداء كلّ من يقف في وجه الدعوة إلى هذا الدين، وأن يدفع عن الرسول ﷺ كل مكروه ما دام فيه عرق ينبض بالحياة.

وقد يتراءى للبعض أن موقف أبي طالب لم يكن فيه الوضوحُ الكافي، فهو كما ذهبَ إليه أكثرية كتّاب السيرة، وأخذه عنهم المستشرقون، لم يعلن إسلامه ويشهره على الملأ، ولكن بالمقابل لم يثبت أبداً أنه عارض محمداً ودعوته، بل وكيف يمكن أن يرفض الدعوة إلى الدين القيّم الذي جاء يقتلع الشِّرك من جذوره، ويبدد كل ما يتصل به، وهو على الحنيفية ـ كما أوضحناه سابقاً ـ ولنا الحق أن نتساءل:

فهل حبه الكبير لابن أخيه، ودافع عصبية القرابة والقبلية هما وراء عدم وضوحه؟ أم أنه آمن ولكن أراد أن يكتم إيمانه حتى يبقى مسيطراً على الوضع، وقادراً على مساعدة رسول الله ﷺ بكل ما أوتي من قوة؟ أم أنه أراد ألَّا يشهرَ إسلامَهُ حتى لا يقف في الصف المعادي لقريش حتماً، فيكون خصماً لها، وتكون قريش خصماً له، وفي ذلك ما يفقده الحجة تجاه القوم، بل ويفقده عنصر الحماية الذي يفرضه سير الدعوة؟. . .

ولا نعتقد أنه كان للعصبية والقرابة والقبلية أي تأثير على أبي طالب، فإن كان أبو طالب عمَّ «محمد»، فإنَّ أبا لهب ـ عبد العزى بن عبد المطلب ـ هو أيضاً عمُّ «محمد»، ـ وسوف نرى بأنه سيكون أكثرَ الناس عداوةً للنبي ﷺ وأشدَّهم حرباً على دعوته ـ. فيبقى أن حكمة الله البالغة هي التي ألهمت أبا طالب المؤمِنَ أن يشدّ عزم الرسول ﷺ

على المضي في دينه، وأن يعطيه العهد على أن يمنعه من أي شيء يكرهه؛ وهي حكمة الله ـ تعالى ـ عينها التي جعلت أبا طالب مؤمناً بحقيقة وجود الله من قبل بعث محمد ﷺ، فكان دفاعه عن الإسلام وحامله موقفاً ثابتاً لا شأن له بالعصبية، ولا حساب له في ميزان القبلية، وخصوصاً عند إنسان مثل أبي طالب الذي شرف بالحسب الرفيع، والمكانة العالية في العقل والخلق والعمل، فلا يمكنه أي يمالىء على الحق، أو يداهن من أجل عصبية القرابة.

وكذلك الحال بالنسبة للأهواء الشخصية، لأن حُب أبي طالب لابن أخيه «محمد» لا يمكن أن يحجب عنه ـ مهما بلغ ـ رؤية بصيرته النافذة، ورجاحة عقله المعهودة، وحكمته الرشيدة.. ثم إن أقارب «محمد» كانوا يحبونه حباً شديداً. فالعلاقة كانت وطيدة بينه وبين عمه أبي لهب مثلًا، وقد زوج ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدَيْ هذا العم، بل وكان أبو لهب ذاته يكنُّ له قبل البعثة الحبَّ والحنان، وقد قيل إنه أعتق جاريته التي بشّرته بولادة «محمد». وكان دائماً يفاخر به في أندية قريش ومجالسها، ويتحدّث بما يتحلى به من الصفات التي تميزه عن غيره. ومع ذلك فقد وقف موقفاً عدائياً منه بعد بعثه بالنبوّة..

إذن فلا العصبية، ولا المشاعر الشخصية هي التي جعلت كلًّا من ذيْنكَ العمَّين يقف من ابن أخيه موقفاً مغايراً تماماً للآخر!..

فقد بدا واضحاً فيما بعد:

أن موقف أبي طالب كان العضد[1] للنبي ﷺ وقد منعه من أعدائه.

---

(١) العضد: المعين والناصر.

وأن موقف أبي لهب كان الأشد والأدهى في العداوة للنبي ﷺ ودعوته، بل وكان هذا الكافر بمثابة الحية الرقطاء التي تنفث السموم، أو الوحش الكاسر الذي يريد أن يلتهم فريسته.

على أن موقف كل منهما كانت وراءه المعتقدات، والدوافع النفسية.. فأما أبو طالب فكان على ملة أبيه عبد المطلب، وهي ملة إبراهيم ﷺ كما رأينا. ثم إن مزاياه الشخصية، وصفاته الذاتية هي التي أهّلته لأن يكون شيخ الأبطح، وسيداً في قريش، بل وفي العرب.. وأما أبو لهب فكان كافراً، مشركاً بالله تعالى، ولم يتأثر بمعتقدات أبيه عبد المطلب على الإطلاق. وكان همُّه معاقرة الخمرة، والإسرافَ في اللذائذ، يتهتّك في متعه فلا يرعى حرمة ولا يألو ذمة.. هذا فضلًا عن مطامعه في الكسب، وطموحاته في الرياسة على بني هاشم وفي النفوذ على مكة..

إذن فالاختلاف بين عمَّيْ محمد ﷺ كان في المبدأ، وليس في الموقف فقط.

فلا يمكن لمؤمن بالله تعالى، وعلى شرع أنبيائه أن يحارب ديناً هو لله تعالى أو أن يقف ضده، وسواء أكان الداعي لهذا الدين قريباً له أم غريباً عنه.

ولا يمكن لمشرك بالله تعالى، وكافر بدينه، أن يقبل الدعوة إلى الإيمان الحق، أو أن يناصر الداعي، حتى ولو كان أقرب الناس إليه..

فالمبدأ هو الجوهر والأساس في حياة الناس، إما أن يجمع أو أن يفرِّق، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يجمع المبدأ الإسلامي بين

مؤمن وكافر، أو بين حق وباطل، أو بين نور وظلام.. ولذلك كان الاختلاف في المبدأ بين أبي طالب المؤمن، وبين أبي لهب الكافر. وكان الموقف المناصر للإسلام من الأول، والموقف العدائي لهذا الدين من الثاني.. وحيال تلك الحقائق معاذ الله أن يُتَّهم أبو طالب بأن موقفه كان متردداً أو متأرجحاً بين الإيمان والشرك، لأنه لا يمكن لأحدٍ في الدنيا أن يدّعي بأنه لم يكن عوناً لابن أخيه ﷺ الداعي إلى الإسلام، كما لا يمكن لأحد أن يُنكر بأنه كان حرباً على الكفار والمشركين، حتى ولو كانوا أبناء عشيرته الأقربين.

وهذا ما يُثبت أن أبا طالب كان في الحقيقة والواقع من الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ... ودلالات إيمانه كثيرة:

ـ فهو قد عرف من أبيه عبد المطلب أنه سيكون لابن أخيه «محمد» ﷺ شأن عظيم، إذ كان أبوه يصرِّح بذلك ويعلنه على قريش في كل مناسبة.. وهذا الشأن قد حدَّثهُ عنه أيضاً الراهب بحيرا عندما كان محمد ﷺ برفقته إلى الشام وهو ابن الثانية عشرة. ولقد ظهر لأبي طالب فعلًا هذا الشأن العظيم عندما أخبره محمد ﷺ أن الله سبحانه وتعالى بعثه نبياً ورسولًا، لأن «محمداً»، هو الصادق الأمين، فإن قال أو أخبر صدق، كما تدلُّ عليه سيرته قبل البعثة وبعدها.

ـ وهو قد عاهَدَ النبي ﷺ أن يمنع عنه كل كريهةٍ، وفي هذا حماية للنبي ﷺ ولدعوته، ونصرة للإسلام الذي يحمله هذا النبي الكريم.

ـ وهو قد ثبَّت ابنَهُ علياً على دين الإسلام، وأمره بملازمة النبي ﷺ والبقاء بجانبه.

ـ وهو الذي أمَرَ ابنَهُ جعفراً أن يصلّي إلى جانب النبي ﷺ، كما يصلي أخوه عليٌّ بجانبه..

ـ وهو الذي نزحَ إلى الشِّعب، وارتضى العيش جوعاً ومرارةً طوال ثلاث سنوات، عندما هجّرت قريش بني عبد المطلب وبني هاشم إلى البراري المقفرة لسبب واحد وهو أنهم أهل النبي محمد وعشيرته (وسيأتي بحث ذلك إن شاء الله).

ـ وهو الذي أمر ابنه علياً أن ينام محل النبي ﷺ في الشعب إبَّان المقاطعة خوفاً عليه من الغدر.

ـ وهو الذي رفض عروض قريش السخية كي يقنع ابن أخيه محمداً ﷺ بالعدول عن دعوته (كما سنرى).

وهذه الحقائق الثابتة في بطون كتب السيرة النبوية الشريفة، تكفي لتؤكد وتثبت إيمان أبي طالب[1] الذي نصرَ رسول الله ﷺ باليد واللسان، ونظم فيه، وفي دينه من مدائح الشعر ما ملأ بطون الدواوين.. ولو لم تكن هذه هي الحقيقة، لما كانت حكمة الله البالغة قد جعلت رسولهُ محمداً ﷺ يطمئن إلى عمه أبي طالب، ويتّخذه بمثابة الركن الركين الذي يلجأ إليه، بعد ربِّه ـ عزّ وجلّ ـ كلما حزَبتْه الشدائد من عنت قريش واستكبارها..

---

(١) انظر: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣ ص٢٢٨، حيث ورد أن «العلّامة الأمين قد نقل عن جماعة من علماء المسلمين أنهم ذهبوا إلى القول بإيمان أبي طالب، وكتبوا الكتب والبحوث في إثبات ذلك كالبرزنجي في أسنى المطالب (ص٦ ـ ١٠) والأجهوري، والإسكافي، وأبي القاسم البلخي وابن وحشي في شرحه لكتاب (شهاب الأخبار)، والتلمساني في حاشية الشفاء، والشعراني، وسبط ابن الجوزي، والقرطبي، والسبكي، وأبي طاهر، والسيوطي.

بدء دخول الصحابة الكرام في الإسلام

لقد بدأت الألسن تتحدث عن الدعوة داخل مكة، وأمرُ الله تعالى بإنذار الناس قد نزل، وما على الرسول ﷺ إلَّا أن يُلبي نداءَ الواجب المقدس ويباشر الدعوة ولو في نطاق مجاله. فرأى ﷺ أن يبدأ برجال يثق بهم، ويكونون على قدر من الأصالة، والتفكير، والمقدرة على تحمُّل المسؤولية.. ولعلَّ الأوْلى أن يكونوا من الأصدقاء ـ كما يندبنا إليه العقل، ويحثنا عليه الشعور ـ لأنهم أولُ من نختار لنطرح عليهم أمورنا وقضايانا، وبخاصة الهامة منها..

إسلام أبي بكر رضي الله عنه (١)

وبهذا التوجّه ذهب النبي ﷺ إلى أبي بكر الصديق بن أبي قحافة الرجل الذي ألِفَهُ، وربطته به المودة منذ أن زاول التجارة في مكة. فقد كان أبو بكر ممن يتّجرون بالثياب وقد نجح في مزاولة هذه المهنة حتى عُدَّ من أغنياء قريش. وإن صفاته الطيبة هي التي قرَّبتهُ من «محمد» حينئذٍ، لما وجَدَ فيه من دماثة الخلق، ورقة الطبع، وحسن الحديث، وصدق القول، ولطف المعشر.. فنشأت بينهما تلك الصداقة الحميمة، وزادت متانة عندما شهدا معاً حلف الفضول. هذا بالإضافة إلى أنه كانت لأبي بكر مكانة اجتماعية مرموقة بين أبناء قومه، فقد كان أنسبَ قريش لقريش، وأعلم قريش بأنساب العرب، ملمّاً بآدابها وأشعارها خير إلمام.. فإذا أخذنا بعين الاعتبار تقارب

---

(١) أبو بكر هو: عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي، القرشي وكان لقبه «العتيق» و«الصديق» (انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٢٤ ـ ٢٢٨) والسيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢١٧، والطبري، وابن حجر، وابن كثير وغيرهم.

السن بين محمد ﷺ وأبي بكر الذي لم يكن يصغره بأكثر من سنتين وبضعة شهور، لتبيّن لنا أن هنالك عوامل كثيرة قد ألّفت بين الرجلين، ولا سيما حسن الخلق، فكان أمراً طبيعياً أن تجمع بينهما الصداقة والمودة، وأن يكون أبو بكر أول من يخطر على بال النبي ﷺ أن يذهب إليه، ويعرض عليه دعوته..

وهبَّ أبو بكر يَلقى صديقه بالترحاب والمكرمة، ويجلسه في صدر البيت ـ كعادته ـ وهو يحفّه بالبشر واللطف.. وكان النبي ﷺ يعلم بأن أمرَه غيرُ خافٍ على صديقه.. فراح يخبرُهُ بما أُوحيَ إليه من ربه تعالى، وبعثه رسولًا للدعوة إلى دين التوحيد، والقضاء على معتقدات الوثنية والجاهلية.

وكان أبو بكر يستمع إليه بآذان صاغية، ويتذوق طعم آي الذكر الحكيم الذي يتلوه عليه النبي ﷺ قرآناً عربياً مبيناً. ولم يتردّد عندما دعاه ﷺ إلى الإسلام، وعرف الحق، بالاستجابة لنداء الإيمان، فنطق بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وليس من غرابة في هذه التلبية، وهذه الاستجابة الفورية من رجل مثل أبي بكر رضي الله عنه، فقد كان يعرف صديقه محمداً ﷺ حق المعرفة بمزاياه النفسية، وفضائله الخلقية، وقدراته الذاتية التي تؤهله لأن يكون رسول الله. كما كان أبو بكر ـ بدوره ـ يحمل بين جنبيه نفساً صافيةً، قادرة على معرفة الحق واستيعابه، ولذا نراه يُقبل على دعوة الإيمان، بصدقه وإخلاصه، رافضاً كل عبادة للأصنام، كارهاً كل الوثنية وأشكالها.

وطابت نفس النبي ﷺ بإسلام صديقه. وها هما بعد أن كانا رفيقي الشباب، صارا أخوين في الإسلام لا ينفك أحدهما عن لقاء

الآخر، والاجتماع على الإسلام وتعاليمه السمحاء، وآفاقه الواسعة، ومراميه البعيدة في حياة الناس؛ وفي أحد اللقاءات، وفيما كان أبو بكر ﵁ مأخوذاً بحديث النبي ﷺ، إذ يقول له: يا «عبد الله»... فقال: أبو بكر: يا رسول الله، إن أمي سلمى بنت صخر بن عامر أسمتني «عبد الكعبة» وفاءً لنذر كانت قد قطعته على نفسها، لأول طفل تلده. وإنه والحق اسمٌ فيه دلالة من الجاهلية، ولا يأتلف مع إسلامنا القويم، وإنه من رضى الله (تعالى) أن تمنَّ عليَّ باسم: عبد الله، فجزاك الله خيراً يا رسول الله..

وبهذه الروح الطيبة وبتوجيه من النبي ﷺ أخذ أبو بكر على عاتقه أن يفتش بين الأهل والأصحاب عمّن عنده الاستعداد لقبول الدعوة، وقد أوصاه بأن يحتذي حذوه، ويقتدي بأسلوبه في جدال الناس بالتي هي أحسن، لأن ما سوف يلقيه على مسامعهم ليس بالأمر اليسير قبولُه، ومن شأنه أن يحرك لدى كل إنسانٍ انقلاباً نفسياً في تبديل عقيدته الدينية، واتباع عقيدة جديدة تخالف عقيدته السابقة من جميع جوانبها..

إسلام سعد بن أبي وقاص

وكان أولَ سعي لأبي بكر ﵁ دخولُهُ دكان سعد بن أبي وقاص، الذي يعمل في صنعة برْي النبال، وقد حملَ معه بعضاً منها للقنص، لكي يبيعها منه.

ودار الحديث بين الرجلين وتشعَّب، إلى أن قال أبو بكر ﵁:

ـ اسمع جيداً يا سعد ما أقولُهُ لك.. أرأيت إلى هذه الأصنام والأوثان التي تعبدها العرب، وهي جوفاء، صمّاء بكماء لا تنفع ولا

تضر؟ وهل قال أحدٌ يوماً بأن شجرةً أو صخرةً أو قطعةً من خشب ذات عقل وقلب مثل الإنسان؟ إذن أليست عبادتها ضرباً من الخرافات والأساطير؟ بل وإيهام للعقل والذهاب بمحجته؟!

قال سعد: ولكن العرب تعبدها لتقرِّبها زلفى إلى الله!..

قال أبو بكر رضي الله عنه: وهذا هو الشِّرك بعينه، لأنهم يجعلون مثل هذه المعبودات الحقيرة شركاء لله!..

قال سعد: وما العبادة الحق؟

قال أبو بكر رضي الله عنه: إنها عبادة الله تعالى، الواحد الأحد. والدين القيِّم الذي يدعو لعبادة الله وحده، هو الإسلام، وقد بعث الله ـ عز وجل ـ بهذا الدين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولًا للناس كافة.

قال سعد: وهل «محمد» حقاً رسول الله؟

قال أبو بكر رضي الله عنه: أي والله يا سعد، وقد آمنت به، وصدقته، فهلمَّ بنا إليه.

وتوجه الرجلان إلى شعب أجياد حيث كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلّي مع ابن عمه علي بن أبي طالب. فلمّا فرغا من صلاتهما أقبل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على سعد بن أبي وقاص يعرّفه بالإسلام ويبيّن له حقائقه وتعاليمه حتى شهد سعدٌ بشهادة الحق، وصار من المسلمين. وعادَ سعدٌ من شعب أجياد إنساناً جديداً يحس وكأن الدنيا لا تكاد تسعه من شدة سروره وارتياح قلبه.

إسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه

وبينما هو في الطريق وقد صار قريباً من دكانه التقى عثمان بن عفان، فبادره هذا بالقول:

ـ ما هذا البِشْرُ على وجهك يا سعد؟ فقد وجدت الدكانَ مغلقاً..

قال سعد: والله كان مقصداً مباركاً مع أبي بكر بن أبي قحافة إلى صديق حميم..

وتطلّع إليه عثمان محدِّقاً ثم قال: ومن هو هذا الصديق يا تُرى؟ إلَّا أن تكون مودة أبي بكر لمحمد بن عبد الله هي التي قادتكما إليه، خاصة وأن الناس تتحدث عن لقائهما كثيراً هذه الأيام؟!.

ولم يجب سعد بل انصرف عنه وهو يقول في نفسه: ليتك يا عثمان، تؤمن بأن محمداً رسولُ الله..

وذهب عثمان إلى بيته ليجد خالته سعدى بنت كريز قد جاءت لزيارة أمه أروى بنت أم حكيم بنت عبد المطلب (وأم حكيم هذه توأمة عبد الله بن عبد المطلب ـ والد النبي ﷺ).

ولاحظ عثمان مدى انهماك خالته بحديثها، فسألها عما يشغل بالها، فقالت له:

ـ أما والله إنه لخبر مثير يا ابن أختي، فلقد جئت تواً من بيت أبي طالب، وقد سمعته يقول بأن ابن أخيه «محمداً» قد نزل عليه الوحي من السماء، وبعثه الله نبياً ورسولًا..

قالت أروى: أسمعتَ بهذا يا بُني؟ والله لو كان ما يقال حقاً عن بعث نبيٍّ آخر الزمان، فلن يكون هناك نبيٌّ غير محمد بن عبد الله، فما عرفناه إلا الصادق الأمين.

قال عثمان: إن خبره يشيع في أرجاء مكة كلها، وما سمعت أن أحداً من سادة قريش قد تابعَهُ ودخل في دينه.

قالت خالته سعدى: بل سمعت بأن أبا بكر عتيق بن أبي قحافة قد تابعَهُ على دينه..

وكأنَّ هذا الحديث، والتأكيد عليه، كان سبباً في أرَقِ عثمان، فبات يتقلب على فراشه، في تلك الليلة، وهو يفكر بما يدور في مكة، وهو الذي اعتاد ألَّا يفوته شأن من شؤون القوم، إلَّا ويكون أول السباقين إلى معرفته والإحاطة به..

وطلع الصباح وهمَّ بالخروج، فإذا بأبي بكر رضي الله عنه يفاجئه بالطرق على الباب، وقد جاء لزيارته في مثل تلك الساعة المبكرة، فبدا عليه بعض القلق، ولكنَّ أبا بكر رضي الله عنه هدَّأ خاطره، وقال بأنها زيارة وديّة، وقد جاء ليطمئن إليه وإلى أهله، وللبحث بأمر قد يهمُّهُ ويهمُّ قريشاً كلها.

وجلس أبو بكر رضي الله عنه يتحدث عن بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن رسالة الإسلام التي يحملها هدىً للناس جميعاً، وليس للعرب وحدهم. وإنه لشرف عظيم للقرشيين أن يكون هذا الرسول منهم، ويعيش بين ظهرانيهم. وإن عليهم أن يهبّوا معه لحمل الدين الجديد، ونشره في شبه الجزيرة كلها.

وبعد أن أفاض أبو بكر رضي الله عنه بما عنده، قال لعثمان: ويحك يا رجل، والله إنك لتدرك عظائم الأمور، وتميز الحق من الباطل، فهل ترضى ببقائنا على عبادة جوامد يقلِّبها الإنسان كيف يشاء ومتى يشاء، وتغشاها الطيور والحشرات والحيوانات بقذارتها؟ أم أن عبادة الله (تعالى) وحدها هي التي ترفع الإنسان وتكرِّمه في عبوديته لرب العالمين، وخالق السماوات والأرض؟!

قال عثمان: لا والله لا يجوز لعاقل يسمع ويبصر أن يتخذ من تلك الأصنام آلهة يعبدها من دون الله.

قال أبو بكر: وهو الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهو يدعو إلى دين الله العلي الأعلى، وترْك الوثنية والشِّرك.

قال عثمان: فما بال القوم لا يُقبلون على دعوة «محمد»؟

قال أبو بكر: إنها بداية العهد بالإسلام، فلمَ لا يكون لك الفضل في السبق لاعتناق هذا الدين؟

واقتنع عثمان بما يبديه صاحبه، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ ليلقاهما ببشره وأنسه المعهودين، ثم يدني إليه عثمان، ويبيّن له حقيقة الرسالة التي ندبَهُ الله تعالى إلى حملها، والدعوة لإيصالها إلى الناس.. وظل معه يحدِّثه عن دين التوحيد حتى أشبع نفسه أمناً وإيماناً، فدعاه للإسلام وهو يقول له: يا عثمان أجب الله تعالى إلى جنته.

وتملكت كلمات رسول الله ﷺ قلْب عثمان، فأسلم وشهد بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فكان عثمان بن عفان أولَ واحد من بني عبد شمس أسلم وجهه لله تعالى، وصدَّق محمداً ﷺ وآمن به.

إسلام الزبير بن العوام

وذات يوم، وبينما كان الرسول ﷺ في شعاب بني هاشم، أطلَّ عليه الزبير بن العوام، ابن عمّته صفية بنت عبد المطلب، فقام يلقاه مرحباً، ويسأله عمَّا جاء به، فقال الزبير: إنَّ عمته خديجة بنت خويلد هي التي ألحَّت عليه بالمجيء، بل وهي التي دلَّته على مكانه وأصرَّتْ أن يأتيه ويلتقيه. فأخذ الرسول ﷺ بيد ابن عمته، وأجلسه بقربه، في ظل صخرة كبيرة مبدياً له أن عمته ما أرادت به إلَّا خيراً، ولا سبيل إلى

خيرٍ ولا فلاح إن لم يهتد الإنسان إلى عبادة الله الحق، كما تدلُّ عليه الآيات القرآنية المبينة بقوله تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[1]. وعقَّب الرسول ﷺ بعد التلاوة فوراً بقوله: «سبحان ربي الأعلى وبحمده. لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

ورغب الزبير أن يستوضح عن معاني باقي الآيات التي قرئت عليه، فانبرى ﷺ يشرح له ما تحمل آيات «سورة الأعلى» من المعاني الجليلة، والعظات البليغة التي توجب على كل مخلوق أن يقدِّس، ويجلَّ، ويسبِّح اسم الله تعالى، لأنه ربُّهُ وخالقُهُ، الذي خلق كل شيء فسوّاه، فأكمل خلقَهُ في صورته وجوهره بحيث لا يمكن أن يكون لأيّ مخلوق في الأرض ـ وليس الإنسان فقط ـ جبلّةٌ أكملُ مما صوَّره الله تعالى عليها، لأنه بلغ به غاية الكمال الذي يناسبه. ثم إنه الخالق الكريم الذي قدّر لكل مخلوق غرائزه وحاجاته العضوية، فهداه إلى ما خلقه لأجله، وألهمه غاية وجوده، وقدّر له ما يصلحه مدة بقائه، ودلَّهُ على عُرى وضوابط صلاحه..

(١) سورة الأعلى، الآيات: ١ ـ ١٩.

وظل الرسول الكريم عاكفاً على شرح الآيات الأخرى وما تمتلىء به من المعاني السامية التي تفرق بين الإنسان الذي يؤمن بالله تعالى فيكثر من ذكر ربه تعالى، ويعبده، فينال الفلاح، وبين الإنسان الذي يبعد عن عبادة الله ـ العلي العظيم ـ وينسى ذكر ربه، فيكون مصيره النار الكبرى التي يخلد فيها مُهاناً. . . إلى غيرها من المعاني العظيمة الدالّة، التي إن مكّن الله تعالى أيَّ إنسان من فهم حقائقها، فلا يكون له أيُّ خيار إلَّا أن يتّقي الله ربَّه، ويؤمن به إيماناً قوياً ثابتاً، كما حصل للزبير إذ خشع بين يدي رسول الله ﷺ لربه الأعلى، فشهد شهادة الإسلام.

وكان وقت الظهيرة قد حلَّ، فقام الرسول ﷺ يعلّم الزبير الوضوء والصلاة، فيصلّي معه هو وعليّ (كرَّم الله وجهه) ثم ينزلون إلى مكة، فيذهب الزبير إلى أمه ـ عمة رسول الله ﷺ ـ فيخبرها بإسلامه وإيمانه وهو يمتلىء فرحاً وحبوراً.

وعلى هذا النحو كان الدخول في الإسلام يجري، وكانت الدعوة إلى دين الله تعالى تصل إلى الناس في الإطار الفردي الضيق، من خلال الاتصال الشخصي الذي كان يقوم به الرسول ﷺ، أو أحد هؤلاء المسلمين القلائل الذين حملوا دعوة نبيِّهم. . أو ربما من خلال حديث قد يسمعه أحد الناس فيدفعه حب الاستطلاع أو الاستعداد الكامن في نفسه لمعرفة الدين الجديد، فيهديه ربُّهُ ويدخل في الإسلام على يدي رسول الله ﷺ.

ثلة أخرى من الأولين

وبمثل هذه الخطوات الوئيدة والمحسوبة، ووفق الأسلوب

الذي اعتمده رسول الله ﷺ كانت الدعوة تسري في مكة رويداً رويداً، إذ رأى ﷺ عدم توسيع دائرة الاتصال بالناس دفعة واحدة، أو بصورة سريعة حتى لا تحصل مفاجآت غير متوقعة، وهي حتماً ليست في صالح الدعوة، فتتعثر خطواتها، ويتوقف سيرها.. ويذكر في هذا المجال فضل أبي بكر رضي الله عنه الذي كان يواصل جهودَه، ويأخذ بيد عدد من أبناء مكة، فيجمعهم إلى رسول الله ﷺ الذي يبين لهم حقيقة بعثه والدين الذي جاء به، فيهديهم الله ـ تبارك وتعالى ـ على يدي رسول الله ﷺ ويدخلون في الإسلام..

وتتابع دخول الذين استجابوا لنداء الإيمان، في دين التوحيد، فكان أبرزهم: عبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ـ وهو زوج أم سلمة التي تزوجها النبي ﷺ بعد موته ـ والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان وقدامة وعبد الله والسائب أبناء مظعون بن حبيب، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وخباب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة بن قيس، وأبناء الحارث بن معمر بن حبيب بن وهب: حاطب وامرأته فاطمة بنت المجلَّل، وحطّاب وامرأته فُكَيهة بنت يسار ومَعْمر، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف، وامرأته رملة بنت أبي عوف، وعامر بن فهيرة، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية وامرأته أمينة بنت خلف، وخالد وعامر وعاقل وإياس أبناء: البُكير بن عبد ياليل (حلفاء بني عدي بن كعب)، وصهيب بن سنان.

لقد كان الحق والهدى هما الجامعَ لهذه القافلة من الأخيار، فالتقت على حب الله ورسوله، ودخلت في الإسلام طائعة مختارة، تحاذر إثارة عداوة قريش في خروجها على وثنيتها وصنميتها، وتأبى مخالطة زعمائها، الذين أخذ الحقد والضغينة يستبدّان بهم على محمد ﷺ، بعد أن أخذَ خبر بعثه يذيع، لاسيما أنَّهُ من بني هاشم الذين ينافسونهم الزعامة والقيادة والفضل.

ولئن بدا ـ في ظاهر الحال ـ أن عدد المسلمين قد تجاوز بضع عشرات من مختلف الطبقات الاجتماعية في مكة، فإن ذلك لم يَعْنِ شيئاً لقريش، بل رأت فيه مجرد طفرة من أفراد قلائل جذبتهم الأحاديث البراقة عن دين جديد، فانقادوا إلى هوى في نفوسهم، سوف لا يلبث إلا قليلًا ويزول عنهم هذا العارض من حب الاستطلاع.. ولذلك كانت اللامبالاة من قريش، ومن الناس، هي عنوان تلك الفترة في مكة، دونما اهتمام أو اكتراث، لا بدعوة محمد ﷺ ولا بالذين اعتنقوا هذه الدعوة!.. إلَّا من بعض أولئك الذين فرضت عليهم قرابتهم من الرسول ﷺ، أو ألحَّت عليهم الفطرة السليمة في نفوسهم، أن يستشعروا بأهمية الأمر الذي يدعو إليه، فيتخذوا الموقف الذي يناسبهم، ويروا فيه الصواب والحق.. ومن هؤلاء كان العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ الذي كانت أمواله وديونه وتجارته تشغله، فترك الأمور تسير على عواهنها حتى أيقظه من مطامع الدنيا، وفتحَ عيونَه على الحقيقة، صديقٌ له يدعى عفيف الكندي. فبينما كانا يجلسان بجوار الكعبة، إذ استرعى انتباه الكندي رجلٌ قد وقف على بئر زمزم وهو يتوضأ من مائها بطريقة لم يألفها عند أحدٍ من قبل، وإلى جانب الرجل فتى ناهد يفعل فعله، وامرأة

وقفت بخمارها تنتظرهما.. فلما فرغا من هذا الغسل، وقف الرجل وفتاه إلى يمينه، ومن ورائهما المرأة التي يسترها ثوبها الجميل عند مقام إبراهيم، ووجوههم إلى الكعبة وراحوا يركعون ويسجدون، ثم يقفون ويعاودون الركوع والسجود، مما جعلَ هذا المشهد يروق للكندي، فيسأل العباس أن يخبره عما يرى وعمَّا لم يألفه عند أحدٍ في حياته؟!

فقال العباس: أما الرجل فهو ابن أخي محمد بن عبد الله، والفتى هو علي بن أبي طالب ابن أخي أيضاً، وأبوه ـ كما تعلم ـ شيخ مكة والأبطح، والمرأة هي زوج محمد، السيدة في نساء قريش خديجة بنت خويلد.. وإن ابن أخي ليقول: بأنَّ الله بعثه نبياً ورسولاً بدين الإسلام، ومن شعائر هذا الدين طهارة الوضوء، والصلاة كما تراهم يفعلون.

قال الكندي: ولكنني لا أرى أمامهم صنماً أو وثناً!.

قال العباس: إن دين «محمد» يعيب على الناس عبادة الأصنام والأوثان، ويعدّها كفراً وشركاً بالله.

قال الكندي: عجيب أمر «محمد»! أَوَ يترك دين الآباء والأجداد، وها هي الآلهة التي يعبدون تملأ الكعبة، ومكة، بل وكل قبائل العرب عندها آلهة!..

قال العباس: إنه لا يعبد إلَّا الله وحدَه لا شريك له، هو ومن اتبعه على دينه.

وكأنَّ هذا الحديث كان بمثابة وخزةِ ضميرٍ للعباس، فراح يقول في نفسه: ما أراني والله إلَّا راضياً عن هذا الدين الذي يدعو إليه

«محمد». . فقد آمنت به زوجتي أم الفضل. وإنها لتُصلّي وتعبد الله في بيتي، وعلى مرأى عيني، وما طاوعتني نفسي يوماً أن أنهاها عن صلاتها، بل كنت، والله، آنسُ لمرآها، وأنجذب إليها، كما انجذب الكندي إلى رؤية هؤلاء المصلّين على بئر زمزم. . وأم الفضل نفسها لم تُخفِ إسلامها عني، بل وتتردد إلى أسماء بنت أبي بكر، وأسماء تتردد إليها، فتمضيان الساعات في ذكر الله، وفي الدعاء لمحمد بالخير، والعون من ربه. . لا، لن أبقى بعد اليوم متنكراً لذاتي، وكأن شيئاً لا يعنيني إلَّا الانشغال بالأموال والتجارة. . أجل، إن زوجتي أم الفضل هي على الحق باتباعها هذا الدين الذي يتغلغل في نفوس معتنقيه، ليصيرَ أوْلى من الزوج والولد، بل وأوْلى من كل شيء في حياة المسلم. . ولم يفق العباس من تفكيره إلَّا على صوت صديقه الكندي، وهو يسأله عن شروده، فقام العباس يدعوه إلى تناول الغداء في بيته، وهو يقول له:

ـ هيا بنا يا صديقي إلى مائدة أم الفضل، فقد أثابني الساعةَ مرأى ابن أخي محمد إلى رشدي، وكأنما دينهُ قد أيقظ الحبَّ في قلبي إلى أم الفضل، هذه الزوجة المؤمنة، التي أحيت بيتي بالطهارة، وأنا غافل عن صنيعها الجميل. .

وعلى خلاف العباس الذي كانت أمواله الشغل الشاغل له، فلم يكترث لإسلام زوجه بل تركها تحيا بإيمانها الكبير وحدها. . أجل وبخلافه، كان جاره سعيد بن زيد بن نفيل، ومعه امرأته أم جميل فاطمة بنت الخطاب بن نفيل يعيشان معاً في فيء الدين الجديد، بعد أن ألقى الإسلام بظلاله ونعمائه على هذا البيت المؤمن. . ولم يكن إسلامهما إلا حديث عهد، إذ بعد أن دخل هذا الدين بيوت مكة

كلها ـ وذلك بالحديث عنه سواء عن قصد ومتابعة، أو عن غفلةٍ وكراهة ـ جاءت فاطمة يوماً، إلى زوجها، وقالت له:

ـ أتدري يا ابن عمي، إنني ومنذ مدة لا يستحوذ على نفسي إلَّا ما علمت من هذا الدين الجديد الذي يدعو إليه «محمد»، ولم تكن لديّ جرأة على مكاشفة أحد بما يدور في خلدي، فأخفيت الأمر حتى عنك أنت. فهل تعذرني يا ابن عمي وتنصحني؟!

قال سعيد: ولمَ الملامة يا عزيزتي.. ألا يقول محمد بأنه رسول الله، فإن كان صادقاً فهو ـ والله ـ الخيرُ له ولقريش.

قالت فاطمة: لو قال أحَدٌ غيرُهُ بأنه نبيٌّ لما صدَّقت إلا بالبرهان، أما وأنه محمّد الصادق الأمين، فلا مناص من تصديقه.

قال سعيد: أَوَ تدرين أيتها الزوجة الحبيبة بأنَّ أبي قد أودعني وصيَّة لن أنساها، وربما حان وقتها الآن؟! فقد كنت برفقته في جوار الكعبة، وقد جلس إلى ورقة بن نوفل يتحدثان عن نبيٍّ يبعثه الله آخر الزمان، وقد أوصاني يومها بقوله: لئن أظهر الله خاتم أنبيائه، وكتب لك أن تلقاه أو تسمع به يا بنيَّ، فاتّبعه، والزمه، وآمِن به، وأقرئْهُ عنيَ السلام!..

ونظرت المرأة إلى زوجها بدهشةٍ، وهي تعاتبه على إخفاء تلك الوصية عنها، فأخذ سعيد يبرّر موقفه وهو يقول: وهل كنت أظنُّ يوماً بأن نبي آخر الزمان سيكون بين ظهرانينا؟

قالت زوجه: إذن فأنت تصدِّق محمداً بأنه لنبيُّ الله؟!

قال سعيد: ولكنني لم أجتمع إليه، ولم أسمع منه بعد.. فما

رأيكِ إن انطلقنا إليه الآن، فعسى أن نجد ما يطمئن نفوسنا، فنؤمن به، ونكون من المهتدين؟

وبالفعل، قصد الزوجان ـ وقد تاقت نفساهما إلى الحق ـ بيت النبي ﷺ واجتمعا إليه، ثم دخلا في الإسلام راضيين مختارين، فأبلغ سعيدٌ سلامَ أبيه للنبي، فشكره ﷺ وحَمَد وفاءه لأبيه المتوفَّى. ومنذ ذلك اليوم والبركة تحف بيت سعيد بن زيد بن نفيل الذي أسعَدَهُ الله تعالى بالإسلام..

البحث الثاني

المجتمع في مكة ونقطة ابتداء الدعوة

وعلى ذلك النحو من التؤدة بدأ الإسلام في مكة، وانفتحت القلوب المؤمنة إلى دين التوحيد، فدخلت فيه ثلة الأولين من الرجال والنساء.. ولئن ظلَّ عددُها محدوداً ـ إلى الآن ـ ، إلا أنها كانت تؤلف كتلة متراصّة، يجمعها الإيمان الصادق، ويطهّر قلوبَها حبُّ دين الله تبارك وتعالى.. ولئن فرّقت بين أولئك المسلمين دار السكن، إلّا أنهم كانوا يحملون نفس العقيدة الواحدة المتكاملة، وهي كافية بذاتها لكي تصهرهم وتؤلِّفهم في ذلك المجتمع المكيِّ الذي كان يحبل بالتناقضات.

المجتمع في مكة

من الحقائق الثابتة في الحياة الإنسانية أن الأفكار التي من شأنها إحداث انقلاب في حياة الناس، وتغيير أوضاعهم، لا يمكن أن يُكتب لها النجاح مهما كانت درجتها من الصلاح والصوابية، ما لم يكن هنالك الدعاة الذين يؤمنون بها، ويجعلونها عقيدة لهم، ثم يُعَدُّون الإعداد الكافي لحملها وإيصالها إلى الآخرين.. والإسلام، هذا الدين الذي أنزله الله تعالى خاتمةً للرسالات السماوية، هو العقيدة الحق التي تتناول كل شأن للإنسان والحياة والكون. وقد شاءَهُ الله ـ سبحانه

وتعالى ـ أن يكون عقيدة لأهل الأرض جميعاً، فبعث بحكمته السَّنية البالغة محمداً ﷺ رسولًا لحمل هذه العقيدة وإيصالها للناس، كي يؤمنوا بها، ويعملوا بتعاليمها إذا أرادوا إصلاح دنياهم، والفوز في آخرتهم.. فكان على هذا الرسول ـ الذي اختاره ربُّه تعالى لأجَلِّ مهمة وأعظمها ـ أن يُعِدَّ لها الدعاة الصالحين، وأن يهيّىء لهم الظروف والأسباب التي تساعدهم في المسيرة الشاقة لإحداث التغيير العقائدي والمجتمعي في حياة الناس. كما كان عليه أن يبدأ في محيطه، وفي نفس البيئة التي نزل فيها الوحي.. فما هي الأفكار والأوضاع التي كانت سائدة في المجتمع المكي يومئذٍ؟ وما مدى تعارضها أو توافقها مع الإسلام، ليكون له قبول أو رفض من أبناء ذلك المجتمع؟ وهو الأمر الذي سوف ينعكس حكماً على قبائل العرب وأفرادها لما كان لمكة من مكانة في شبه جزيرة العرب...

لقد تميّزت مكة في منتصف القرن الخامس الميلادي بانتقالها من طور البداوة إلى طور الحضر، ولكنه حضرٌ بدائي لم يتخذ شكل المدنية الكاملة في العمارة والتنظيم المدني، ووسائل العيش والتقدم. وكانت تخضع لنظام في الحكم يقوم على اتفاق طوعي، وتفاهم جماعي، وتوزيع للمهام والمسؤوليات أو المناصب تبعاً لما أسَّس قصيّ بن كلاب الجد الرابع لرسول الله ﷺ.

وكان موقع مكة من الناحية الجغرافية في وادٍ بين جبلين: جبل أبي قبيس المشرف على الصفا، وجبل الأحمر الذي كان يُسمى في الجاهلية بـ «الأعرف»، ويشرف بوجهه على قعيقعات، فعاش أهلها بين هذين الجبلين ردحاً من الزمن. إلَّا أن وجود البيت الحرام وما له من مكانةٍ وشرف وأمن في النفوس، جعل كثيراً من قبائل العرب تنتقل إلى

جواره، فراح النطاق الجغرافي لمكة يمتد ويتوسع، والعمران ينمو ويزداد. وحلت البيوت المرصوفة بالحجر، أو المبنية باللبْن، محل الخيام، لتكون سكنى أثرياء مكة وسادتها. وكان البيت الواحد يتألف من عدة غرف، وله بابان متقابلان، لتمكين النساء من الخروج من الباب الآخر، عند وجود ضيوف في الدار.

وإلى ذلك اشتهرت مكة بالنشاط التجاري، فكانت تقام الأسواق فيها خلال أشهر الحج، بجانب البيت وداخل حدود الحرم، فيُهرع الناس إليها ويؤمونها من مختلف أنحاء الجزيرة لقضاء حاجاتهم، ولاسيما التزود بالمؤن والسلع. ومن أهم أسواق مكة كان: سوق العطارين، وسوق الفاكهة، وسوق الرطب وسوق الليل وأمكنة للحجّامين[1] والحلاقين.. كما وجد فيها زقاق للحذائين، وسوق للبزّارين.

وكانت تباع في تلك الأسواق البضائع التي تحملها العير من بلاد أفريقيا وآسيا، فكانت تجلب من أفريقيا: الصمغ والعاج والتبر، وخشب الأبنوس. ومن اليمن: الجلود والبخور والثياب. ومن العراق: التوابل. ومن حاصلات الهند: الذهب والقصدير، والحجارة الكريمة، والعاج، وخشب الصندل، والتوابل والزعفران. ومن مصر والشام: الزيوت والغلال والحرير والخمور.

وهكذا تميزت مكة بالتجارة وأثرى كثير من أبنائها. وقد كانوا يتعاملون بالعملة الرومية البيزنطية، والعملة الإيرانية الساسانية،

---

(١) الحجّام: من يتعاطى الحجامة وهي المداواة بالمحجم: شيء مثل الكأس يفرغ من الهواء ويوضع على الجلد فيحدث تهيجاً ويجذب الدم أو المادة بقوة.

ويجري التداول فيهما على شكل دراهم من الفضة وهي الأكثر شيوعاً واستعمالًا، أو دنانير من الذهب روميّة. وقد جاء في الدراسات أن الدينار البيزنطي كان يزن ٤٢٥ غراماً، ويصرف في ذلك العصر، بعشرة دراهم فضية؛ وكانوا يستعملون في أسواقهم المكاييل مثل: الصّاع، والمدّ، والرطل، والموازين مثل: الأوقية والمثقال.

ولم تكن الصناعة ذات شأن يذكر في مكة، بل كان عند أهلها نوع من الاحتقار للصنعة، فلم يكن يهتمّ بها عادة إلَّا الموالي وأبناء العجم، باستثناء بعض صناعات طفيفة كان يمتهنها العرب، كما يُروى عن خباب بن الأرت أنه كان يصنع السيوف، وأن سعد بن أبي وقاص كان يزاول صنعة النبال. أما صناعة البناء فكانوا يلجأون فيها إلى بنّائين من الروم والفرس.

ومن الناحية القتالية، فقد كانت قريش تُؤثرُ السلم والهدوء عامة، لأن مجتمعها التجاري كان يتطلب التقاء الناس في أجواء من التفاهم وتبادل المنفعة. ولكن على الرغم من إيثارها للسلم، فقد كانت تشكل قوةً حربية يحسب لها حساب، وكانت مشهورة بالشجاعة، والفروسية العربية. والغضبة المضرية معروفة في جزيرة العرب بآدابها وأمثالها.

وهكذا، وبفعل المركز الديني الذي كانت تتمتع به، وما وصلت إليه من مكانة اقتصادية، أضحت مكة أهم مدن الجزيرة العربية، وفاقت صنعاء اليمن في زعامة الجزيرة، بل تفوقت عليها، بعدما استولت الحبشة على اليمن، ثم تملكها الفرس في منتصف القرن السادس الميلادي. ثُمَّ وبعد أن فقدت مملكة الحيرة ومملكة غسان

كثيراً من أهميتهما غدت مكة عاصمة شبه الجزيرة الروحية والمدنية من غير منافس.

ولكن، بالمقابل، فقد كانت الناحية الخُلقية في مكة سيئة للغاية.. إذْ طغت على أبنائها أعراف الجاهلية، وبمختلف ألوانها، فشاع بينهم الميسر، وفشا فيهم الربا، وانتشرت الخمرة ومجالس اللهو والقِيان، وحفلات العزف والطرب وما إلى ذلك من الفواحش والرذائل. وكانوا يمارسون الظلم والقسوة على الضعاف، وغمط الناس حقوقهم، وأكل أموالهم بالباطل. والذي يدلُّ على ذلك كله ما جاء في خطبة جعفر بن أبي طالب الهاشمي ـ وهو ابن مكة الأصيل ـ أمام النجاشي، إذ يقول: «أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف»[1].

في هذه الأجواء الدينية، والاقتصادية والاجتماعية، قام المجتمع المكي، وتوزع إلى طبقات ثلاث تتفاوت في المكانة والمنزلة، في علاقاتها المجتمعية، ونظام حياتها. وقد توزعت تلك الطبقات بين أهل مكة الأصيلين، وحلفائهم من العرب والأحابيش، والعبيد من الرقيق والإِماء.

أما أهل مكة فكانوا يشكلون طبقة الأسياد والزعماء. وقد اشتهرت بيوت كثيرة منهم بالثراء، وسعة الرزق، والرفاهية في العيش أمثال: الوليد بن المغيرة، وعبد العزّى بن عبد المطلب (أبو لهب)، وأبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية، وعبد بن أبي ربيعة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٣٥٩.

المخزومي. أما أبرزهم غنىً فكان عبد الله بن جدعان التيمي الذي كان يشرب في كأس من ذهب، وكان يطعم عدداً كبيراً من المساكين والجائعين؛ كما كان من أثرياء قريش العباس بن عبد المطلب الذي كان يعمل بالتجارة ويتعامل بالربا، حتى جاء الإسلام وألغى هذه الفاحشة كما ألغى كثيراً من الفواحش غيرها، التي حرّمها الله عزَّ وجلَّ.

وكان لمترفيهم مجالس للسمر، وأرائك منصوبة وموائد ممدودة، ونوادٍ أو خيم للشراب يلهون فيها ويسكرون. وكانوا يشتون بمكة ويصطافون بالطائف. كما كانت للأشراف مجالس أمام البيت الحرام، ينشدون فيها الشعر، ويحضرها بعض كبار شعراء الجاهلية مثل لبيد بن ربيعة صاحب المعلقة المشهورة. وكان يوضع لعبد المطلب بن هاشم فراش في ظل الكعبة، فيجلس أبناؤه من حوله دون الفراش إجلالًا لأبيهم، إلَّا حفيدَهُ «محمداً» فقد كان يضعه في حضنه، وهو على فراشه في المجلس، وكم من مرةٍ كان يردد على القوم: «دعوا ابني، إنَّ له لشأناً عظيماً».

وكان القرشيون على اختلاف بطونهم وعشائرهم، هم أهلَ الحرم. وإن مكانته العظمى في النفوس هي التي جعلت العرب جميعاً تعظّم قريشاً، وتدين لها بالسيادة عليها. وسرى الاعتقاد بين العرب بأن زعماء قريش هم أصحاب الأمر، وأولو الحل والعقد في كل ما يتصل بعقيدتهم الدينية.

واستفادت قريش من ذلك أيما فائدة: فمكانتها مرموقة، وسيادتها مطلقة، وحياتها في ظل البيت آمنة مطمئنة، أمّنت فيها على الأموال والأنفس من غائلة العثار والقهر والحرب، فنعمت بحرية واسعة، وجاه عريضٍ. وإضافة إلى ذلك، فقد كان العربُ يسعون

إليها في كل موسم من مواسم الحج، وهم يحملون المتاع والأموال للتجارة والمبادلات، ويقدمون للبيت الهدْي[1] الذي يسوقون، وللأصنام المنتشرة فيها القرابين والنذور، كما كانت قريش تفرض على الداخلين إلى أرض الحرم ضرائب معينة، فيتقبلونها بحكم العقيدة الدينية، غير باخلين بها ولا متأففين من دفعها، مما أمَّن لقريش نوعاً إضافياً من الدخل المستمر.

أما طبقة الأحلاف الثانية فكانت مؤلفة من العرب وغير العرب. فالعرب كانوا من الأحابيش وهم بعض بطون القبائل الضاربة حول مكة أمثال: كنانة، وخزيمة بن مدركة، وخزاعة. وقد تحالفت مع قريش على النصرة والقتال.. وما عداهم من غير العرب فهم الذين جاؤوا للعيش في مكة، فارتبطوا بأشرافها وزعمائها بروابط الحلف والجوار، لأنه كان من عادة العرب التعصب للحليف والجار والذود عنه، وردُّ كل ما يسوؤه، تماماً كما يتعصّبون للعشيرة والقبيلة..

من أجل ذلك، كان الغرباء والدخلاء ـ الذين يفدون على مكة، من العرب والأعاجم للإقامة فيها ـ على حد سواء مع من يتحالفون من سادتها للعيش في جوارهم، وتحت حمايتهم، بحيث يأمنون بمثل هذا التحالف الاعتداء عليهم من القريب والبعيد، ويصبحون بمثابة الأسرة الواحدة لحليفهم السيد: يحاربون من يحاربه، ويسالمون من يسالمه، على أن يكونوا أحراراً في تدبّر شؤونهم الأخرى مثل الكسب، والسعي وراء الرزق والعمل بما يؤمن لهم العيش في هذه الحياة.

---

(١) الهَدْي: ما يُهدى إلى الحرم من النَّعَم. والنَّعَم: جمع أنعام وتُطلق على البقر والغنم لما فيها من خير ونعمة.

أما الطبقة الثالثة فكانت طبقة الرقيق من العبيد والإِماء الذين يشكلون مورداً آخر من موارد الرزق، وسبباً من أسباب الرفاهية التي استمتع بها زعماء قريش، مثل غيرهم من أصحاب السلطان والنفوذ لدى جميع الأمم والشعوب في ذلك العهد، إذ كان الرق يومها نظاماً سائداً، والرقيق يُباعون ويُشروْن ويُستخدمون كما تُستخدَم وتُباع الأنعام وتُشترى. يعملون لحساب أسيادهم دونما أجر، ودونما حرية أو رأي إلَّا ما يأمر به أولئك الأسياد.. شأنهم في ذلك شأن الآلة التي يسخرها المالك لأغراضه: فهم الذين كانوا ينتجون الزرع والضرع، والخير الوفير، ويلدون فوق ذلك ما شاء الله من البنين والبنات، الذين يصبحون بدورهم، وبحكم الرق، عبيداً وإماءً، يسلكون كما يسلك آباؤهم وأمهاتهم حياة الذلِّ والشقاء، مسخَّرين بلا أجر ولا جزاء، اللهم إلا رضاء السيد إن هم أحسنوا، أو غضبه عليهم إن هم أساءوا؛ على أن لا تتعدى مكافأة الرضى أكثر من بسمةِ كبرياء عابرة، أو كلمةِ عطفٍ ساخرة يستنزف بها الأسياد جهدَهم، ويستنهضون بها قواهم.. وقد يبيعونهم بالثمن الذي يفرضونه، أو ربما يمنّون عليهم بالعتق، فيخرجون من ضيق العبودية إلى سعة الحرية، ولكنهم يظلون على كل حال أسرى الولاء لأسيادهم حتى يموتوا. أما حالات الغضب التي كانوا يتعرضون لها، فكانت تنزل بهم ضروباً من الإيذاء، وألواناً من العذاب...

تلك هي صورة الواقع الذي كان عليه المجتمع في مكة عندما بعث الله تعالى محمداً نبياً ورسولًا. وفي هذا المجتمع، وفي ظل تلك الأوضاع كان على الدعوة الإسلامية أن تبدأ أولى خطوات مسيرتها..

ولكن، طالما أنَّ هذه الدعوة ما زالت مجرّد فكرة للتداول ليس

إلَّا . . فلا سبب يدعو قريشاً للقلق أو اتخاذ الموقف الذي يحدِّد اتجاهها نحوها . . وهو ما شاءه ربُّ العالمين، أي أن يظل أهل الشِّرك على جهالتهم وعمايتهم، حتى تتهيأ للنبي ﷺ الأسبابُ والاستعدادات التي تمكِّن من إعلان الدعوة وطرح الأفكار الإسلامية على الناس في مكة أولًا، ومن ثمَّ في أنحاء أخرى من جزيرة العرب.

نقطة ابتداء الدعوة

لقد كان الرسول ﷺ يدرس الأوضاع بدقة وعناية بالغتين، فهو يدرك عبء هذه الرسالة السماوية التي يحمل، ويعلم أن هذا الدين الإسلامي الذي عليه أن يبشِّر به، لن يقبل به أهل مكة، وقريش بالذات . . وسوف يرون فيه خطراً عظيماً عليهم جميعاً، وبخاصة على أصحاب النفوذ والمال، وذوي الشأن والمكانة، لأن من شأنه، إن كثر أتباعُهُ، واستقرَّ في النفوس، أن يغيّرَ الأوضاع والعلاقات التي تعارفوا عليها، وتوارثوها عن الآباء والأجداد جيلًا بعد جيل . . .

ثم إن في هذا الدين ما يُسوِّي بين العبيد والأسياد، وسيكون هذا الأدهى في ذهنية تلك الطبقة «السيدة» التي لن تقبل أن تكون وعبيدَها بمنزلةٍ سواء في الحقوق والواجبات، بل ولسوف ترى أن جميع أمور حياتها لن تستقيم بعد ذلك لا في تجارتها، ولا في رعاية أغنامها، وخدمة بيوتها، وفي كل ما تُسخِّر به أولئك العبيد لتأمين عيشها الهنيء؟! . .

وأبعد من ذلك، فإنَّ زعماء قريش ـ الذين يضربون بالعلاقات الإنسانية عرض الحائط، والذين لا تهمهم إلا مطامعهم وأهواؤهم ـ سوف يعتبرون هذا الدين الجديد مثيراً للفوضى والاضطراب . . بل هو

الفساد الشامل الذي سوف ينتشر بين الرقيق فيغريهم بالثورة على أسيادهم وأولياء نعمتهم.. وهذا هو العنت الفكري عند قريش الذي لن يكون اختراقه سهلًا، والقضاء عليه هيّناً. لقد كانت الصورة المكية جليّة أمام رسول الله ﷺ، ولكن لا بد من الإعداد، فالأمر هو أمر الله تعالى، ولو صادمته البشريةُ بأسرها فلن يتخلَّى عن أمر ربه. وأول ما يجب عليه في هذا السبيل أن يغرس العقيدة في نفوس هذه الجماعة المؤمنة من المسلمين الأوائل..

التثقيف في دار الأرقم بن أبي الأرقم

ولذلك رأى النبيُّ ﷺ أن يتّخذ مكاناً يكون بمثابة المدرسة التي يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام، ويتفقهون بأصول الدين ويتعلمون نهجه القويم؛ على أن يكون المكانُ بعيداً عن الناس، لأن من المهم أن يتجنّب، منذ البدء، الاصطدام، والمواجهة مع بني قومه؛ فاختار لهذه الغاية، دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ وكان هذا سيداً من سادات قريش الذين سبقوا في الإسلام، ودارته على مقربة من الصفا ـ لأنها المكان المناسب الذي يصلح لأن يجمع فيه الرسول ﷺ تلك الطليعة من المسلمين، ويعلّم، ويثقّف، ويربي التربية الإسلامية الصحيحة، ويُعِدّ حَمَلَة العقيدة ودعاتَها..

وكان الرسول ﷺ أول ما يبدأ اجتماعاته في دار الأرقم بن أبي الأرقم بتلاوة الآيات المباركة التي تتناول التبليغ والتذكير، ثم يبين المعاني التي تحملها الآيات من دلالاتٍ، وما تتناول من أمور وقضايا وشؤون... وبعدها يعمد إلى تحفيظ المسلمين الآيات القرآنية التي تناولها في شرحه. وكل ذلك من أجل أن تتكوَّن لدى الدعاة الأوائل

الإحاطة الشاملة بما يمكن أن يواجههم في مخاطبة الآخرين، ودعوتهم إلى اعتناق عقيدتهم الإسلامية.

وقد يتعجب الناس كيف يمكن لهذا النبي الأمي أن يتلقى عن ربه «قولًا ثقيلًا»، وكيف يمكن أن يوصل مثل هذا القول، بمعانيه الشمولية، إلى عقول وإلى قلوبها جماعة تربَّت على القسوة والغلظة في بيئتها الجاهلية السابقة!. ولكن العجب يزول حينما يدرك الناسُ أنَّ النبي ﷺ كان عندما يتنزَّلُ القرآن المبين على قلبه الشريف يحرص أشد الحرص على أن يحفظه بدافع حبه له، وتمسُّكه به، وشعوره بالتبعية العظمى له، فكان يتلوه، ويردد آياته آيةً آية، وهو يحرك لسانه ليعجل به مخافة أن ينسى حرفاً واحداً منه، فجاءه النهي ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[1] ثم جاءته البشرى المطمئنة بأن ربه تبارك وتعالى قد تكفل بتحفيظه هذا القرآن، فيُقرئه إياه أمينُ الوحي، وينطبع في قلبه فلا ينساه أبداً، إلَّا ما شاء الله أن يُنسيه. وهذه الطمأنينة تلقاها الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[2] وهذا يعني أن انطباع القرآن في قلب النبي ﷺ لا يقف عند حدود الألفاظ والعبارات، بل ويتعداها إلى ما تحمل الآيات والسور من أسباب نزولها، ومقاصدها وتشريعاتها، وأحكامها، وما تتناول من شؤون الإنسان والحياة والكون..

وهكذا كان النبيُّ ﷺ يُلقَّى القرآن من لدن حكيم عليمٍ،

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦ ـ ١٩

(٢) سورة الأعلى، الآيتان: ٦ و٧.

فيعكسه على المسلمين عِلماً ومعرفةً، بما يذكي في نفوسهم الروح الإسلامية، ويثير فيها مكامن التفكير والتأمل بآيات الله ـ عزّ وجلّ ـ وآلائه.. وكل ذلك من القرآن، وفي أجواء القرآن، حتى تكون الهداية كاملة، وتهذيب النفس شاملًا، فتغدو حقائق الإسلام ومفاهيمه واضحة للبصائر، راسخة في الضمائر، ثابتة في القلوب... فيبارك الله (سبحانه وتعالى) هؤلاء المسلمين، وهم يتفيّأون بظلال رحمته، ويَحيون بلطائف قرآنه، وينعمون بأنس رسوله. وإنه ـ واللَّهِ ـ لا شيءَ في الوجود يمكن أن يؤمِّن مثل هذا الفيض النوارني إلَّا الإسلامُ، ونبيُّه الكريم.

وعلى هذا النهج القويم كان النبيُ يُعدُّ المسلمين، حتى غدت دار الأرقم بن أبي الأرقم مدرسة الإسلام الأولى بحق، ومجمع العلم والبيان، ودار الندوة والشورى، ومكان الأنس والراحة لنفس الرسول، والصحابة الأبرار، الذين صاروا يصاحبونه على حبِّ الله تعالى وهدايته أكثر مما يصاحبون الأهل، وأبناء العشيرة، فغدَوْا نُخبةً مؤهَّلين لأن يحوطهم ربهم بعنايته، ويجعلهم الطليعة من الأولين الذين يُعِزُّون دينَهُ، وينصرون نبيَّهُ...

وكانت، في الوقت نفسه، دعوة الرسول للناس في مكة دائبة، فلا تقلُّ جهوده في الخارج عما يبذلُهُ داخل المدرسة الإسلامية. كان يدعو إلى دين الله جميعَ الناس، دونما اعتبار للفوارق الاجتماعية، أو السن أو اللون أو الجنس.. إلّا اعتبار الهداية، لأن الناس كلَّهم خلقُ الله، وكلَّهم مدعوون إلى الدين الحنيف.

وما يجدر الوقوف عنده هو أن الذين استجابوا لدعوة الإسلام، في تلك الحقبة، كانوا في معظمهم من الشبان ذوي العزم والإرادة،

وأصحاب الحماسة والإقدام، فألَّفوا تلك الجماعة الشابة المتراصَّة التي كان لها فضل السبق في حمل الدعوة أول نشوئها، والعمل على دخول الإسلام إلى البيئة الوثنية الكافرة التي كانوا يعيشون فيها.

إنَّ في تلبية أولئك الشباب لنداء الإسلام في أول عهده، وإقبالهم على عقيدة التوحيد، وجهادهم في سبيل نشرها، وبذل النفوس والأموال من أجل الحق الذي به يؤمنون.. إن في ذلك لتذكرةً إلى شباب اليوم، ودعوة ملحَّةً صادقة لهم، كي يقدموا هم أيضاً على حمل لواء الإسلام من جديد، كما حمله أسلافهم من قبل، وعلى نشرِهِ عقيدةً للإيمان بالله الحق، ومنهجَ عملٍ، وطريقَ حياةٍ سويةٍ للناس في ربوع الأرض كلها. وهل يظن الشبابُ اليوم أن في حمل الدعوة عبئاً ثقيلًا على عاتقهم، ويخافون أن ينوء كاهلهم بحمل هذا العبء؟! ولكن، أليس الأجرُ على قدر المشقة، فهل ينال الدنيا إلّا من عَملَ لها عملها، وهل ينالُ الآخرةَ إلا من سعى لها سعيها؟! وإن لم يحمل الشبابُ، ـ والشبابُ قبل غيرهم ـ الإسلامَ، فمن يحمله وينشره بين الناس، ولأجل الناس؟.

لا، لا نعجب من واقعنا الأليم، فالإسلام قد صار بحاجة إلى تبشير جديدٍ في جاهلية القرن الحادي والعشرين.. نعم الدين القيِّم، الدين الحقُّ بحاجة إلى تبشير. وليس لهذا التبشير، إلا إيمان الشباب، وصدق الشباب، وعزيمة الشباب، وقوة الشباب وثباتهم. فليس غيرُ الأفذاذ من الشباب مَن هو مؤهَّل وقادر على التمنطق بالمحامد، ومعالي الأمور، وتأتي في رأسها طاعة الله (تعالى) في أمر دينه، ورضوانُهُ في الجهاد من أجل هذا الدين.

يا شباب الإسلام!

أنتم أصحاب القضية، وعليكُم تعوِّل الأمَّةُ وتعتمد.. فكونوا تلامذة محمد ﷺ، وطلابَ عقيدة الإسلام: معرفةً، وفهماً، وإدراكاً ومسؤولية. لأن تلامذتَهُ الأُوَلَ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم وفي خارجها، كانوا في جُلِّهم من الشباب. فقد كانوا فتياناً حقاً، وتراوحت أعمارهم بين العاشرة والأربعين في حسبان السنين البشرية.. أما في حساب الله تعالى فلا العمر، ولا المركز، ولا المكانة لها الاعتبار، بل العمل من أجل الله تعالى وعباده هو الذي يكون مقبولًا، وعليه الأجر والثواب، فما تُقدّموا من خير لأنفسكم تجدوه عند الله تعالى خيراً وأبقى.. انظروا إلى هذه الثلة الأخرى من المؤمنين الأخيار أمثال: المقداد بن الأسود، وعتبة بن غزوان، وعبد الله بن جحش، وأخويه أبي أحمد بن جحش، وأبي حذيفة بن عتبة، وبلال بن رباح، ونعيم بن عبد الله الملقب (النحام)، وعمار بن ياسر.. لقد بدأوا إسلامهم قلةً صغيرة من الشباب، ولكنهم صاروا نخبة المجتمع، وقدوته الصالحة فيما بعد.. فحق عليكم أن تكونوا أنتم خير خلفٍ لخير سلف، ولاسيما أن أبواب الإيمان مشرَّعة أمامكم، فأقبلوا ملبّين.. وكيف لا تكون أبواب السماءِ والأرضِ كلها مُشْرَعَة لأهل الحق والتقوى والقرآن الكريم بين ظهرانينا يهدي للتي هي أقوم، وإلى صراط مستقيم؟! إنَّ لكم في رسول الله ﷺ، وفي صحابته، أسوةً حسنةً لمن كان يرجو ـ منكم ـ الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً. فهلُمَّ أيها الأبناءُ إلى البناء الصحيح، إلى البناء القوي المتين، بناء الفكر الإسلامي، وأنتم تمتلكون كل مقوماته، وأسبابه، وأسسه.. فهو البناء الذي يريده الله ورسوله: فكراً ثاقباً، ونوراً هادياً، وعقيدة راسخة،

ومنهجاً قوياً، حتى تبلغوا به الفوز برضى الله تعالى ونعيمه الخالد. إنَّ الدعوة موجهةٌ لكم أيها الشباب المسلم، قبل غيركم، وإن كانت مفتوحة لجميع خلق الله ـ تبارك وتعالى ـ لأن الإسلام هو دين الله، وما زال الإسلام يدعو الناس إلى رحابه، منذ أن بعث الله ـ تعالى ـ محمداً رسولًا للناس كافة، وسيبقى هذا الدين القيِّم يدعوهم إليه، حتى يرث الله تعالى الأرض ومَن عليها.

أجل إن الرجوع إلى الجذور قد يهدينا سواء السبيل، فأولئك هم شبابُ محمد ﷺ الذين كانوا يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهم، يومئذٍ، لا يتعدون الأربعين من الرجال والنساء، ولكنهم كانوا الدعامةَ المتينة التي تقوم عليها الدعوة، وكانت دارتهم نقطة الابتداء للإعلان عن هذه الدعوة.. ففي خلال السنوات الثلاث، منذ بدء الوحي، كان الرسول ﷺ ومن تابعه على الإسلام، يعملون بتؤدة وأناة، وبسرية وخفاء إلى حدٍّ بعيد، لأن أهلَ مكة كانوا بعيدين إجمالًا عن الاهتمام بأمر محمد ﷺ، ولا يقيمون وزناً لما يدعو إليه هو وأصحابُهُ. فكان الوضعُ هادئاً خلال تلك المدة، ولم تظهر عداوة للمسلمين، إلَّا فيما ابتغاه بعض المشركين من هزء أو سخرية يتخذونها مادة للتسلية أو التفْكهة في مجالسهم وسهراتهم، ودون أن يرتدي تندّرهم طابع الجدِّية في أي حال، حتى ظهرت فئة باغية تدرك تأثير الدعوة، وتتحسس خطورتها على مصالحها فيما لو كُتب لها النجاح.. فأخذ أصحاب الكيد والمكر منها يعملون في الظلام على مناوأة الدعوة، ومحاولة الوقوف في طريقها، ولكن دونما خطر يذكر، لأنهم كانوا ما يزالون أفراداً قلائل، ولم يحزموا أمرهم على العداوة المستحكمة، التي سيشهدها المسلمون ـ فيما بعد ـ ويعانون من جرائها الظلم والجور..

وإذا كان الرسول ﷺ قد أَمِلَ بأن يعرف الناسُ حقيقة رسالته فيقبلوا على الإيمان بها، وإذا كان قد أنذر في بعض المناسبات، كما أمرَهُ ربه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾... إلَّا أنَّ أهل مكة تجاهلوا ذلك بعنجهيّة واستكبار، فظلت دعوته شبه يتيمة تراوح بين السرية في الاجتماعات التي يعقدها أتباعها، وبين الإعلان الحذِر خوفاً من ردّات الفعل المعادية، فلم يحفل بها إلَّا من هدى اللَّهُ وصَدَعَ بالحق المبين. وكانوا قلة في العدد ـ كما رأينا ـ نسبةً إلى أهل مكة، والمقيمين فيها..

غير أن الشيء الهام الذي أحرزته الدعوة خلال السنوات الأولى من عمرها، هو علمُ الناس بها، إذ كانت تسري وبصورة تلقائية من بيت إلى بيت ـ وبخاصة إلى مجالس القرشيين ـ حتى لم يبق أحدٌ في مكة إلَّا سمع بالإسلام، وتحدّث بالوحي الذي ينزل على محمد ﷺ.

نعم سرى نور الدعوة، ولكنه أعشى نواظر أهل مكة، وقريش بالذات، فلم يعلنوا خصومة مكشوفة، بل أضمروا نوعاً من الكيد هدفه الاستخفاف بالدعوة، وتجاهلها، والتقليل من شأنها.. وفي حسبانهم أنها الوسيلة الأفضل التي تبقي الناس غير مبالين، ولا يعيرون محمداً ﷺ وأتباعَهُ أي اهتمام، فتختنق دعوته في مهدها، ويذهب ريحها.

هكذا سيطر الظن الأحمق على قريش فقعدت على أمجادها غير مبالية بالظاهرة الجديدة التي من شأنها أنْ تغزو الأفكار والمشاعر، والتي قد تشكل نقطة تحوّلٍ في حياتها..

ولكن، وعلى خلاف أصحاب الامتيازات، فإن الطبقة المستضعفة التي سلبوها كل شيء: الحرية والكرامة، ولقمة العيش الهنيء ـ حتى مشاعرها الإنسانية كانت عرضة للسلب لو يقدرون على ذلك ـ فعاشت تحت الضغط والظلم والاستعباد... أجل، إن تلك الطبقة وحدها قد رأت في الدعوة الجديدة ما يفتح أمامها أبواب الخلاص، والعدالة الإنسانية، فأقبلت عليها تتنسَّمُ أخبارها، وتتعرَّف تعاليمَها، فتتسارع إلى الدخول فيها، لأنها وجدت فيها روحاً وريحاناً لقلوبها، وإشعاراً بوجودها. وكيف لا تعتنق تلك الطبقةُ العقيدةَ الحقةَ وهي التي تجعلها بشراً مثل غيرها، لا قطيعاً من الناس مثل قطعان الأغنام والإبل التي ترعاها. لذلك كانت الاستجابة عفوية وطبيعية من كل مستضعَف يختزن في قلبه الشوقَ إلى الأمن، وتمتلىء أعماقُهُ بالصرخة إلى الإخاء والمساواة، فاندفع إلى عقيدة التوحيد ملهوفاً، طائعاً مختاراً، لا تُرهبُهُ تحذيرات أسياده، ولا تهديداتهم بإنزال أقسى العذاب والبطش به.

وانقضت السنوات الثلاث، وَوَضْعُ المسلمين على تلك الحالة دونما أي تغيير يذكر. يذهبون للصلاة في شعاب مكة، ويستخفون عن الأعين في دار الأرقم بن أبي الأرقم. يوصون بعضهم بالكتمان، وينبِّهون مَن يأنسُ قلبُهُ إلى الإسلام أن يحاذر من ذيوع أمره، وأن يسير على الوتيرة نفسها التي يسيرون عليها من السرِّيّة والحذر..

وكانت قريش قد بدأت تفيق من غفوتها الوثنية شيئاً فشيئاً.. ولكنها وجدت أن ترصُّدها لأتباع «محمد» ومراقبتهم، وتخويفها للعبيد والموالي لم يعد يجدي نفعاً. فهم يزدادون يوماً بعد يوم، ودعوتهم تتغلغل في النفوس وتنتشر بين الناس وإن ببطء.. ثم إنَّ

«محمداً» نفسه لا يقعد ولا يستكين، بل إنه يتعقَّب أبناءهم من ناحية إلى ناحية، ويلحق بالرعاة إلى البراري، ويتبع الضعفاء في كلّ مكان. وهذا ما جعل كثيرين من هؤلاء يتبعونه ويؤمنون به.

إذن فقد بدأ الأمر يستفحل، ولم يعد الوضع يطاق، فهل تبقى قريش ساكنةً مصرّةً على غرورها، واستخفافها بهؤلاء «الصابئين» الذين خرجوا على دين آبائهم وأجدادهم، أم أنَّ عليها أن تحزم أمرها، وتضع حداً لهذه «المسرحية» التي تدور على أرض بلدها؟!..

مناقشة قريش في أمر محمد ﷺ

وكان من أهم الأعداء للإسلام تلك الطغمة الباغية في قريش أمثال: عمرو بن هشام (أبو جهل)، وعبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)، وأبي سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة... هؤلاء ومَن هم دونهم شأناً كانت الهواجس قد بدأت تتآكلهم، فلا يلتقي أحدٌ منهم بآخر إلَّا وكان الجدال حول دعوة «محمد» سيد الموقف، مما جعلهم يدعون إلى اجتماع يعقد في بيت أبي جهل لمناقشة الأمر، وما عليهم اتخاذه من تدابير.. ووقف أبو جهل يندِّد بهذا «الصابىء» ويحذِّر من أمره، لأنه بات ينذر بالخطر على ساحة مكة كلها، والدليل على بدء خطره هذا الاضطراب الذي يشغل بال الناس، ويشيع القلق والحيرة في أوساطهم، بما يكفي لإنذارهم والعمل حثيثاً على وضع حد لهذه البلبلة...

وحاول عقبة بن أبي معيط أن يقلِّل من شأن المخاوف التي يثيرها أبو جهل، مبدياً أن أتباع «محمد» ما هم إلَّا شرذمة مهينة، وإن

كان فيها بعض المرموقين من قريش.. وتلك الشرذمة لن تقدر على شيء، وأمرها سينتهي عندما تزول «العوارض» التي تزيِّن لمحمد بن عبد الله أنه نبيٌّ، وأنه يحمل ديناً جديداً...

وأثار موقف عقبة حفيظة أبي لهب فوقف يتهمه بالحماقة، وقِصر النظر، إذ كيف يقلل من شأن أولئك «الصابئين» وهو يتناسى مكانة أبي طالب الذي دفع بولديه إلى دين ابن أخيه؟! أو بقدرة أبي بكر وقد حمل دعوة «محمد» على كتفيه؟! بل كيف يتنكر ابن أبي معيط لمنزلة عثمان بن عفان وما له من تأثير في نفوس بني أمية؟!. أما تلك الحثالة من أمثال بلال الحبشي، وصهيب الرومي وعمار بن ياسر وأبيه وأمه، وخباب بن الأرت، وغيرهم، فالويل لهم من تفتح عيون قريش على المعاملة التي يلقونها منها، والهوان الذي يعيشون من ظلمها!

وظل أبو لهب يرعد ويُزبد على هذا الشكل إلى أن قال:

ـ لا، لم يعد السكوت جائزاً و«محمد» يغري كل يوم أتباعاً آخرين له، فإما أن نقوم بعملٍ يوقفه عند حدٍ، وإما أن نخلّي بينه وبين الناس، فيصرفهم عن عبادة آلهتنا، ويقوِّض الأركان التي تقوم عليها مكانتنا بين العرب.

وتدخَّل أمية بن خلف يهدّىء من روع أبي لهب، وينصح المجتمعين بقوله:

ـ رويدكم يا سادة قريش، ولا تعجلوا في الأمر، فإن آخرين أمثالكم ليسوا بيننا، مثل سيد بني أمية، وشيخ بني عبد شمس، وشيخ بني مخزوم وغيرهم... فلا نتخذ موقفاً أو نقطع أمراً من دونهم، فالانفعال لا يُجدي بل الرأي والمشورة.

ولم يُعجب هذا الرأي أبا لهب أيضاً، فراح يقسم باللات والعزى أن ما يدور في مكة إنما هو شرٌّ ووبالٌ عليهم، وأن الصواب هو الوقوف في وجه هذا الفساد الذي يتسرب إلى ديارهم وهم عنه غافلون.

وانفضَّ عقدُ أول اجتماع للكفر ضد الإسلام في مكة، بالتوافق على عقد الاجتماعات والندوات المتلاحقة من أجل اتخاذ التدابير التي تعيد الأوضاع إلى نصابها في بلدهم، ولكنَّ أبا جهل ظلَّ على انفعاله لا يستقر له مقام.. وأما السبب فلأن في نفس الرجل مطامع يخشى عليها أكثر من عقيدة الشرك التي يُظهر الدفاع عنها. فقد كان أبو جهل يأمل بزعامة قريش، وقد جاء سليل بني هاشم هذا يضع العقبات في طريق وصوله إلى مبتغاه، فَلِمَ يدّعي «محمد» النبوّة ويسلب منه ذلك الحلمَ الذي يعيش له، ويجمع الأموال لأجله؟!.. إذن، فعليه أن يؤلِّب القوم ضده حتى يخنق دعوتَه في مهدها، فيبقى الأمل مشرعاً أمامَه. ولذلك لم يصبر على البقاء في بيته، من جراء ذلك الغليان الشديد في نفسه الذي يحول بينه وبين الاستكانة، فيدفعه لأن يهيم في أزقة مكة لا يلوي على شيء. إنَّ في نفسه هموماً كثيرة، ولكنَّ أقواها النيل من «محمد» لإسكات صوته.. وبمثل تلك النوازع والدوافع كان أبو جهل يدور، من مكان إلى آخر، على غير وعي، حتى استوقفه أحدُهُم من ذوي الدهاء، والخبث، وكأنما كان وإيّاه على موعد الحقد عينهِ على النبي ﷺ، فقال له:

ـ إلى أين يا أبا الحكم في هذه العَجَلة، وعَلامَ هذا الاكفهرارُ على وجهك؟

قال أبو جهل: دعني يا رجل، ولا تسلْ عما لا يَعنيك!

قال الرجل: أو تظنُّ فِعلًا أنَّ ما يُقلِقُكَ لا يَعنيني؟ بل هو شأنُنا كلّنا يا أبا الحكم.

قال أبو جهل: وأيّ شيء ترمي إليه يا رجل؟

قال الرجل: أوَ لا تُريدُ أن تعرفَ بأن «محمداً» عند الكعبة، ومِنْ حوله جماعةٌ تلتفُّ إليه، وهو على ما يبدو آخذ بناصيتها؟!

قال أبو جهل: قلت لك دعني وشأني!..

قال الرجل: إذن فليس أمر «الصابئين» ما يهمُّك.. وإلَّا فدونك «محمداً» وأنا بجانبك!..

وما زال ذاك الشرير يُغري به حتى دفعه بهياجٍ نحو الكعبة، ولكن سرعان ما تباطأت خطواته عندما صار على مقربةٍ من النبي وجماعته، فوقف مسمَّراً في مكانه خاسئاً حسيراً لا يحرِّك ساكناً، ولا يقدر على شيء إلَّا أن يرمقه بنظرات ملؤها الغضب والحقد، وهو يتمنَّى في قرارة نفسه لو ينقضُّ عليه ويخنقُهُ بكلتا يديه.. ثم ما لبث أن ارتدَّ على عقبيه، وقفل يريد العودة إلى بيته، من دون أن يأبه لاستهزاء صاحبه وتهكّمه عليه، وتوعُّده له بأن يفضَحَ أمرَه للقوم على ما أظهر من خوفٍ ورهبةٍ لمجرد رؤية «محمد»، وجبنٍ عن مواجهته، وعدم الجرأَة على الدنو منه، وتوجيهِ كلمةٍ نابيةٍ واحدةٍ له...

وكان من سوء طالع سعد بن أبي وقاص في ذلك اليوم، أن يتلاقى بأبي جهل في أحد الأزقة، وهو راجع على تلك الحالة، إذ ما إِنْ رآه أبو جهل حتى تناول حجراً، ورماه به، فشجَّهُ في رأسه.. ثم مضى

وصوتُهُ يُرعدُ بالشتائم والسباب لكل من يلوذ بـ«محمد»، أو يؤازره على أمره..

أما سعد فقد ذهب إلى أهله، يغسلون دمَهُ ويضمِّدون جُرحه.. وقد واساه رسول الله ﷺ عندما التقاه مساءً، في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فأمسك برأسه يمسح بيده الطاهرة المباركة عليه، ويقول له:

«في سبيل الله دمُك يا سعد»..

دعوة عشيرة النبي ﷺ

لم تُرهب الحادثة التي تعرّض لها سعد بن أبي وقاص إخوتَهُ في الدين، ولكنها كانت بداية النذير بالعداوة والأذى، لأن المسلمين عددهم قليل، والمجتمع في مكة بات مؤهلًا لمناصبتهم العداءَ بشتى أسلحة الكراهية، والعصبية، والمال، والنفوذ وغير ذلك مما يمتلك أسياد قريش ومن لفَّ لفَّهم من وسائلِ القهر، فماذا على رسول الله ﷺ أن يفعل حتى لا تكون العواقب وخيمةً على جماعة المسلمين في هذا المجتمع الكافر الوثني؟! إنه يتوكَّل على ربه، وهو سبحانه يهدي خطواته، فما عليه إلَّا المتابعة والمضي في أمره، وعلى الله قصد السبيل.

وكانت الصلاةُ والابتهالُ إلى الله ـ عز وجل ـ الأنسَ لقلب رسول الله ﷺ كلما حزبته الضائقة، وتفاقمت عليه الشدة. وفي إحدى الليالي وبينما هو في تهجُّده وعبادته، إذا به يُحسُّ بثقل الوحي، يتنزَّل عليه، فيتلقَّاه الرسول الصادق الأمين صادعاً بالأمر الجليل:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ

ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(١).

فقد كان من هواجس نفسه ﷺ خوفه على ذويه الأقربين، لو بقوا على الشرك، لأن كلَّ مَن وصلت إليه دعوة الإسلام وأباها فإن مصيره في العذاب الأليم، وهذا العذاب سوف يكون جزاءَ كلِّ إنسانٍ إذا ارتكب الإثم العظيم بالتنكّر للإسلام، أو بمعاداته ومناهضته.. وها هو رسول الله ﷺ يتلقى عن ربه ـ عز وجل ـ البلاغ بأن ينذر عشيرته الأقربين. وإنه في الحقيقة البلاغ الذي يحفل بلطف المولى سبحانه وتعالى لما لنبيّه محمد ﷺ من مكرمة عند ربه. وقد حباه هذا الرب العزيز بهذه المكرمة، حتى تكون له ﷺ الحجّةُ على هؤلاء الأقربين، بما خصَّهم من ذكرٍ في تنزيله الحكيم. ولكن طلب إنذارهم لا يعني أن قرابتهم للنبي هي خصيصة قد تنفعهم بشيء إن لم يؤمنوا بدين الله، ويعملوا بطاعة الله ورسوله. ولذلك فإنه ﷺ لا يملك لهم من الله تعالى شيئاً سوى هذه الدعوة إلى الإيمان، بل وهذا الإنذار بأن يبادروا قبل غيرهم لاعتناق الإسلام، لأنه في الأصل لا وساطة بين العزة الإلهية وبين العباد، وحتى الأنبياء والمرسلون، فإنهم لا يملكون الشفاعة إلَّا لمن ارتضى من عباده الصالحين. إذن فأمر ربه ـ جلّ وعلا ـ له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ لا يحمل أكثر من حب الله تعالى لنبيه وتكريمه، علَّ هؤلاء الأقربين يكونون جديرين بهذا اللطف الرباني.

ودعا النبي ﷺ عشيرته إلى وليمة في بيته. واجتمع أبناء تلك

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢١٤ ـ ٢٢٠.

العشيرة، وفيهم عمُّه عبد العزى بن عبد المطلب، هذا الرجل الذي يُكنّى بأبي لهب، لأنَّ وجهه ـ فيما يقال ـ كان حسناً، وتتلهب وجنتاه بالحمرة مثل جمر النار في تأججه.. وكان هذا العم سرياً من سراة قريش، كثير المال، مسموع الكلمة، ولكنه كان شديد التعصب لوثنيته، وقبيلته قريش وتقاليدها، فضلًا عما تنطوي عليه دخيلتُه من المآرب الشخصية وما في طبعه من الحدة والسفاهة، والاندفاع في الغضب... وكل ذلك على خلاف أبيه، وبني هاشم عموماً.. وهذه الخصائص الذاتية في أبي لهب هي التي جعلته، حين اشتدَّ ذيوع خبر الوحي على النبي ﷺ، يتنكّر لهذا الوحي، ويعتبره بُهتاناً يدّعيه ابن أخيه.

كانت الوليمة عامرةً وقد ضمّت إليها أربعين رجلًا.. وكما توقَّع النبي ﷺ فقد عمد أبو لهب إلى هجمةٍ شرسة عليه، وهو يقول:

ـ هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك، فتكلم ودع الصبأة، ولا تخرج عن دين قومك، ولا تعرِّضهم لغضب العرب قاطبة، وليس لهم بحربهم طاقة، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشرٍّ مما جئتَهم به!..

لقد ظهر أبو لهب ثائراً مهتاجاً، يلقي الكلام على عواهنه، ويتوعّد النبي ﷺ ويتهدده، وهو في حالةٍ شديدةٍ من الغضب: جحوظ في عينيه، وانتفاخ في أوداجه، واستفزاز في صراخه وصياحه، مما جعل القوم واجمين، لا يبدر من أحدهم قول أبداً.. ثم قام أكثرهم ينسلّون سكوتاً وقلقاً على مستقبل العشيرة...

وبعد بضعة أيام دعاهم الرسول ﷺ إلى وليمة أخرى، فما إن فرغوا من تناول الطعام، حتى أخذ المبادرة، لئلا يفوّت عليه أبو لهب

الفرصة، كما في المرة السابقة، فقام يخطب فيهم قائلًا: «الحمد لله، أحمدُهُ وأستعينه وأثق به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، توجه إليهم بالإخلاص في النية، والصدق في القول، فقال ﷺ:

«إن الله بعثني إلى الخلق كافةً وبعثني إليكم خاصة فقال عزّ وعلا: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهما العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأمم، وتدخلون بهما الجنة، وتنجون بهما من النار: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. واعلموا أن الرائد لا يكذبُ أهلَهُ. والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتُبعَثنَّ كما تستيقظون، ولتحاسَبُنَّ عمَّا تعملون. وإنها للجنة أبداً أو النار أبداً».

لقد أبان رسول الله ﷺ، وأبلغ، وأنذر عشيرته الأقربين.. ولكن ماذا كانت ردة الفعل؟ قام القومُ يهمّون بالخروج، بلا سؤال ولا جواب، لولا أن وقف عليٌّ الفتى المقدام، يعلن على سمع أولئك الأقربين وبعدهم استجابتَهُ لأمر الله عز وجِلٍ، واتباعَهُ دعوة محمد ﷺ وهو يقول: «أنا يا رسول الله. أنا حربٌ لمن حاربت، وسلْمٌ لمن سالمت».

وبدل أن تهزَّ صرخةُ الفتى علي ضمائرهم، وتجعل دبيب الإيمان ينساب في عروقهم، إذا بهم يتضاحكون ويتغامزون، وهم يلمزون من أبي طالب.. بل وتقدم بعضهم ليقول له: «ليهنئك القوم يا أبا طالب أن دخلت في دين ابن أخيك» فأجابهم أبو طالب: «فوالله إنه

لعلى الحق، ولكنكم قوم تجهلون»!، وكان مما قاله أبو لهب: «هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم» فقال أبو طالب: والله لنمنعُهُ ما بقينا[1].

أعرضت عشيرة النبي ﷺ عنه، فما فتَّ ذلك في عزيمته شيئاً. وإنْ هي إلّا أيام قليلةٌ حتى صعد على الصفا، وهو ينادي بأعلى صوته: يا صباحاه!..

وكانت تلك الصيحة معروفة عندما يريد أحدٌ أن يخبر القوم بأمر هام. فتداعى أهل مكة إلى الصفا بين قادم بنفسه، أو موفِد أحداً من قِبله.. فلما صاروا جمعاً غفيراً نادى فيهم النبي ﷺ بصوت جهوري:

«يا معشر قريش! يا أهل مكة! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟».

قالوا: «نعم أنت عندنا غير متهم، وما جربنا عليك إلَّا صدقاً».

قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب أليم. يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تيم، يا بني مخزوم، يا بني أسد، يا أهل مكة!.. إن الله تعالى أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين. وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعةً ولا من الآخرة نصيباً إلَّا أن تقولوا: لا إله إلا الله[2]. فآمنوا بالله ورسوله».

وانبرى من بين القوم عمهُ أبو لهب يصرخ ـ بالقحة والغلظة المعروفتين بطبعه ـ قائلًا:

---

(١) الرحيق المختوم، ص٦٩ عن: ابن الأثير، فقه السيرة ص٧٧ و٧٨.

(٢) أعيان الشيعة، ج١ ص٢٣٢، عن الطبري في تاريخه.

«تبّاً لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا»؟!..

وكان قول أبي لهب مثل الصدمة القاسية التي تأتي أكثر ما تأتي.. من الأقربين، إلَّا أنه في الحقيقة كان تعبيراً وتجسيداً عما في نفوسهم من وثنيةٍ وجاهلية تتبدَّى على لسان أحد سفهاء شيوخهم، الذي هو أدنى أبناء العشيرة قرابةً للنبي ﷺ، وهو يشير إليه بكلتا يديه مهدداً، متوعداً.. مما أثقَلَ عليه ﷺ وأهمَّه وأحزنَهُ، فذهب إل بيته محتسباً نفسَهُ إلى ربه تعالى، ولكن سرعان ما تنزّل الوحيُ، يخزي ذلك اللعين أبا لهب ويتوعده بالنار المحرقة على ما قدمت يداه، بقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1].. (لأن امرأته كان في عنقها عقد ثمين، فكانت تقول: «لأنفِقَنَّه في عداوة محمد»)...

هكذا يتنزَّل العقابُ من الله العلي القدير، مالك رقبة أبي لهب، ورقاب عشيرته، ورقاب العالمين. لقد تجرأ على رسول الله ﷺ غير هيَّابٍ ولا وجل، فارتدَّ عليه كيده، وأتاه الوعيد الإلهي بهلاك نفسه في النار ذات اللهب، وإحراق يديه وقطعهما وهما اللتان أشار بهما إلى الرسول ﷺ منددا، متوعداً، متهكماً.. ولن يُغني عنه وهو في العذاب الأليم مالُهُ الذي يُفاخر به في دنياه، وهو الذي جعله يستقوي، على «محمد رسول الله» أكرم خلق الله. فأبو لهب هو من أهل جهنم ـ حكماً ـ وبئس المصير مصداقاً لقول رب العالمين.

---

(١) سورة اللهب، أو سورة المسد.

لقد تمادى ذلك اللعين في غيّهِ فباء بغضب من الله (تعالى) وبلعنةٍ دائمةٍ باقية ما بقي القرآن المجيد ـ الذكرُ الذي حفظه ربُّ العالمين ـ. أما في الآخرة، فسوف يُصلى ناراً ذات لهب، هي من جنس حقده الذي يتلهب في صدره على النبيّ الأكرم ﷺ.

أحقادُ نساءٍ من قريش

وتعزيز الله تبارك وتعالى للنبي محمد ﷺ لم يتنزل في مواجهة أبي لهب وحده، بل وفي مواجهة زوجته أروى بنت حرب بن أمية (أخت أبي سفيان بن حرب) فكان وعيدها هي الأخرى التنكيلَ في العذاب الأليم، ومن صوَر هذا العذاب إبدال عقدها المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة بحبلٍ من ليفٍ مشتعلٍ، يلتف حول عنقها، ويحرقها بلهب حقدها، فوق لهيب جهنّم المخزي...

ذلك أن تلك المرأة اللعينةَ جعلت من زوجها ألعوبة، تديره كيف تشاء، فكانت لا تنفك عن تحريضه على النبي ﷺ للإيقاع به. وكان دافعها إلى فِعالها السيئة تلك حقدَها الدفينَ الذي توارثته عن آبائها بني أمية في مناصَبتهم العداءَ لبني هاشم. وذلك منذ زمن بعيد، يوم أن ظنَّ أميّةُ بنُ عبد شمس أنه قادر على أن ينتزع زعامة قريش من عمه هاشم بن عبد مناف، فثار عليه، في محاولة لقتله أو طرده من مكة. ولكنَّ ثورته باءت بالفشل، وطرده هاشم إلى الشام، ليعيش عشر سنوات في العار الذي جلبه لنفسه.

لقد كان حلم أروى بنت حرب بن أمية إذن أن يغلب أهلُها ـ بنو أمية ـ كل بطون قريش، وأولها بنو هاشم. وها هي ذي ترى في إثارة العداء ضد «محمد» سبيلًا لنفْث سمومها الدفينة، فأخذت في تأليب

زوجها عليه، ودفعه للنيل منه. ولم يكن زوجها وحدَهُ ألعوبة بيديها، بل جعلت ابنَيْها عتبة وعتيبة مثل أبيهما، خاضعيْن لرغباتها. فأمرتهما أن يطلّقا ابنتَيْ محمد رقية زوجة عتبة، وأم كلثوم زوجة عتيبة[1] ـ وكانا قد تزوجا بهما قبل بعثته ﷺ ـ ظناً منها أنها بفعلها هذا تؤذي «محمداً» وتثقل كاهله! ولكنه كان المنة من رب العالمين، حتى لا تبقى ابنتا النبي ﷺ تحت كافرين من عبدة الأصنام، والفرج الذي أزاح عن قلبه ﷺ عبئاً ثقيلًا.. ولم يكن حقد تلك المرأة وقفاً على آل محمد وحدهم، بل عُرفت في قريش كلها بأنها امرأة مشَّاءةٌ بالنميمة، ساعيةٌ للفتنة، لأن نفسها تعشق ذلك وتلذّ به. فكان حقاً أن تحلَّ عليها، وفي محكم التنزيل، اللعنة الأبدية جزاء على فجورها.. وأن يكون نصيبها وافراً من الخزي الذي تستحق، ليس ذلك بما اختصَّتها به الآيات المبينة من وعيد بسعير النار المحرقة في الآخرة وحسب، بل وفي هذه الحياة الدنيا حيث جعلتها الآياتُ المنزلة من المنتقم الجبار سخريةً على الأفواه، وهي ترسم صورتها حاملةً للحطب الذي توقد به النارَ، وفي عنقها يتدلى حبلُ الليف الذي تحزمُ به حطَبَها إلى جانب عقد اللآلىء الذي كانت تتباهى به.. فكان الجزاء من جنس العمل، وكانت الصورةُ السافرة في الرسم القرآني لتلك الخبيثة تحقيراً لها، ولأفعالها، إذ كانت تجمع الشوك، وتضعه في طريق النبي ﷺ أو على باب بيته بحكم سكناها بجواره، لتُعلن لقريشٍ كلها سبْقَها في عداوة «محمد» ونقمتَها عليه. ولقد خُيِّل لأروى بنت حرب بعدما تناقل الناسُ قولَ الله تعالى، وبالتصوير القرآني الذي يُثير السخرية من

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٣٠٧، عن السهيلي.

امرأة معجبة بنفسها، مدلَّةٍ بحسبها ونسبها ـ وبلاغة القرآن من شأنها أن تجذب العرب أهل الضاد، ولو لم يكونوا مؤمنين ـ أجل خيِّل لها بأن محمد بن عبد الله يهجوها بالشعر، فعمدت إلى القريض من أجل ذمِّه وهي تُسمّيه مذمَّماً لا محمداً ـ كما في ظنها ـ فقالت في ذلك:

«مُـذَمَّـمـاً قَـلَيْـنـا، وديـنَـهُ أبَـيْـنـا
وأمْـرَهُ عَـصَـيْـنـا»

وهو قول وإن كان يدلُّ على مقدار الحقد والبغضاء، إلَّا أنه أثار السخرية بها من جديد، وجعلَ النبيَّ ﷺ ـ عندما سمعه ـ يبتسم، لأنه في الحقيقة محمود، ومكرَّم عند خالقه، ومعظّم عند ذوي النفوس السامية من عباده، ومن ثَمَّ يصوِّب معنى قريض حمّالة الحطب فيقول: «انظروا كيف يصرف الله تعالى عني شتْمَهم ولعْنَهم، يشتمون مذمَّماً وأنا محمَّد».

على أن أروى بنت حرب بن أمية هذه ـ والشيء بالشيء يذكر ـ لم تكن وحدها في نساء قريش التي تحرّض على العداوة للنبي ﷺ، فقد كانت هناك نساء كثيرات من أمثال حمّالة الحطب هذه، وكل واحدة منهن لها دوافعُها وأحقادُها. ولكنَّ أبرزَهُنَّ اثنتان:

أم أبي جهل، واسمها أسماء بنت مخرِّبة بن جندل،

وزوجة أبي سفيان بن حرب، واسمها هند بنت عتبة بن ربيعة.

أما الأولى أسماء بنت مخرِّبة فهي امرأة من بني تيم، تزوجت هشام بن المغيرة من بني مخزوم، فولدت له: عمرواً والحارث. ثم لمّا طلقها زوجها، عادت وتزوجت بشقيقه أبي ربيعة عمرو بن المغيرة فولدت له عبد الله والعياش..

وكانت هذه المرأة تعمل بالعطارة التي تأتي من اليمن، وهدفها من تجارتها جمع الأموال كي تمدّ بها أحدَ أبنائها الأربعة في الوصول إلى زعامة بني مخزوم، ومن ثم إلى زعامة قريش.

ذلك كان حُلُمُ أسماء بنت مخرِّبة. فلما ظهرت دعوة محمد ﷺ، رأت فيها ما يبدِّد عليها حلمها الموهوم. حتى إذا دخل ابنها عياش بن أبي ربيعة في الإسلام، ثارت ثائرتها على «محمد» ودينه واستبد بها وجْدُها استبداداً شديداً.. وإنها لفي مقتها وقهرها إذا بها أيضاً ترى أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي يدخل هو الآخر في الدين الجديد، فزادَ ذلك في نقمتها على محمد ﷺ وكراهيتها له.. ويشاء الله تعالى أن يردَّ كيدها إلى نحرها، فبدل أن تُوغِرَ صدور أبنائها الآخرين بالحقد على كل ما يمتُّ إلى دعوة الإسلام بصلة، منَّ سبحانه وتعالى على هؤلاء الأبناء بالإيمان، إلا أحدهم عمرو بن هشام (أبو جهل) فإنه تابع أمَّهُ على عداوتها للنبي ﷺ، لأن مطامع أمه بالزعامة كانت هي نفسها مطامعه الشخصية للوصول إلى السيادة على قريش..

أما المرأة الثانية فهي هند بنت عتبة بن ربيعة وقد تزوجت بسيد بني مخزوم وهو ـ يومها ـ الفاكه بن المغيرة. وكان في نفسها هي الأخرى هوس واضح للزعامة والرياسة. فقد رأت أن بني مخزوم ينهدون إلى زعامة قريش، وأن بني أمية ينافسونهم على ذلك أيضاً، ويريدونها لأنفسهم. ولذلك عاشت بين فكّي رحى الأمل، فإن أصابَها بنو مخزوم، فزوجها الفاكه أولى بها، وإن سبقهم إليها بنو أمية، فتلك قرّة عينها..

وحدث ما لم يكن في حسبان هند.. فقد جاء رجل لزيارة

زوجها، فصرفه الخدم من دون أن تراه لأنها كانت نائمة، وصادف عودة الفاكه ـ في تلك الأثناء ـ إلى بيته، فرأى غريباً يخرج من عنده، ويذهب من دون أن يدركه، فظن به الظنون، فاندفع إلى داخل البيت ليرى زوجته في فراشها وفي اعتقاده أنها تخونه، الأمر الذي جعله يفقد صوابه، وينهال عليها بالضرب، وهو يجرها من زاوية إلى زاوية، ثمّ يعجل بطردها، وهو يقول لها: هيا ارجعي إلى أمك أيتها الخائنة اللعينة.

وأقامت هند عند أهلها، في منازل بني عبد شمس، لا ترى أحداً، ولا تخرج إلى مكان.. وكان أبوها يكظم غيظه وهو يسمع ما تَقذف به ألسنة السوء ابنتَه، حتى لم يعد يطيق اصطباراً، فاقتحم عليها مخبأها، لينازعها في أمرها وهو يقول لها: إيه يا هند! فلئن كان الفاكه صادقاً في دعواه، بعثت إليه من يدس له السمَّ أو يقتله، فتنقطع عنك المقالة، وإن كان كاذباً حاكمته إلى كهّان اليمن.

وأنكرت هند التهمة، وكلَّ ما يدّعيه زوجها، وقالت إنه قد ظلمها بأعزّ شيء تملكه، وهو شرفها.. فلما أيقن أبوها صدقَها دعا الفاكه إلى المحاكمة، واصطحب معه بعضاً من بني عبد شمس في مرافقته إلى اليمن، كما كان مع الفاكه عدد من بني مخزوم.. وهنالك كان الاحتكام إلى أحد الكهان. فلما أعلن هذا الكاهن براءةَ هند، قام أبوها يريد أن يقتل زوجها، فمنعه القوم منه.

وجرى طلاق هند من زوجها المخزومي، ليعود ويتزوجها أبو سفيان بن حرب. وقد كانت لديه هو الآخر مطامع في زعامة قريش أكثر من أي رجل آخر، ويدفعه إلى ذلك ما كان يدفع بني أمية كلَّهم،

في عداوتهم لسلالة بني هاشم.. إذ بالإضافة إلى دافع الثأر الذي يتوارثه الابن عن أبيه، فإن حسدهم للبيت الهاشمي كان أقوى وأشد، لا لشيء إلَّا لأن هؤلاء كانوا يتعاقبون على مناصب الكعبة ورياسة قريش بصورة متواصلة. ولذلك كان التوافق تاماً بين هوى أبي سفيان وهوى زوجته هند، فالتقيا على الأمل عينه بالثأر والرياسة..

ويظهر ذلك جلياً عندما ولدت هندُ ابنَها معاويةَ مِنْ أبي سفيان، إذ رأت فيه السليلَ الذي يستحق الزعامة، فكانت تُسْمِعُ القاصيَ والدانيَ حدْوَها لطفلها، وهي تهز بسريره، وتترنَّم بأملها المنشود، وهي تقول:

ثَكِلتُ نفسي وثَكلتُ بِكري إن لم يَسُدْ فهراً وغيرَ فهر

... فأولئك النسوة الثلاث: أروى بنت حرب (زوجة أبي لهب)، وأسماء بنت مخرّبة (أم أبي جهل)، وهند بنت عتبة (زوجة أبي سفيان)، قد تَلاقيْن على بغض محمد بن عبد الله ﷺ.. فقد كانت لهن أطماع وأهواء فرَّقتهن في التنافس والتسابق على زعامة قريش، ولكن جمعتهن على الحقد للإسلام وداعيته، فكُنَّ من وراء رجالهنّ ـ أزواجاً وأبناءً ـ مسرفاتٍ في الكيد للنبي ﷺ ومحاربته بشتى الوسائل.

ولم تكن حمدونة بنت سفيان أقلَّ كراهية للدين الجديد. لقد أعماها حقد الجاهلية عن رؤية الحقيقة، فوطَّدت نفسها أن تظلَّ على الوثنية والشِّرك.. وقد أظهرت ضلالها يوم أن دخلت حجرة ولدها سعد بن أبي وقاص فوجدته يركع، ويسجد، ويذكر اسم الله كثيراً. فما كان منها إلا أن راحت تصرخ في وجهه، وهي تنحو عليه باللائمة قائلة:

يا ويلتاه! لقد صبأت يا سعد؟!..

وحاول سعد أن يهدىء خاطر أمه، فقال لها:

ـ بل لقد اهتديت يا أماه.. اهتديت إلى الدين الحنيف، الذي يدعو إلى خير بني الإنسان، وإلى البر بالوالدين، وإيتاء ذوي القربى حقَّهم، واليتامى، والمساكين وابن السبيل.

فأي شيء أرفع من هذه الهداية التي يبشِّر بها سعدٌ أمَّه؟ ولو عقلت حمدونة ما تسمع، لكان قلبها امتلأ بالفرح لإيمان ابنها. ولكن كيف لهذه المشركة أن تعقل ما يقوله هذا الابن البار، وهي تنقم عليه «صبَأه»، وتريده أن يعودَ إلى دين الوثنية، وعبادة الأصنام؟ فلمّا لم يُجْدِها صراخها نفعاً، رأت أن تهدّد ابنها، وهي تقسم قائلة:

ـ واللات والعزى لا يهنأ لي مقام في هذا البيت، وأنت بجواري على دينك، أو تعود إلى عبادة آلهتنا.

ولكن أنَّى لهذه المرأة، وإن كانت أمّاً، أن تثنيَ عزم ابنها عن إيمانه، فقال لها:

ـ لا يا أمّاه! لست بتاركٍ دين الله تعالى، وقد رُشدتُ إلى الهداية بعد الضلال، وإلى الإيمان بعد الكفر، فإن لم تُهَدِّئي من ثورة غضبك، وتحاولي أن تتبيّني حقيقةَ ما هداني إليه ربي، فإنه الغضب من الله عز وجل يا أماه، وإني لأشفق عليك من هذا الظلم لنفسك.

وخرج سعد حتى لا يتفاقم الأمر بينه وبين أمّه. فلما عاد في المساء وجَدَها قد أقسمت على ألَّا تذوقَ طعاماً أو شراباً، أو يعود سعد إلى دين آبائه وأجداده. وظلت حمدونة بنت سفيان على تلك

الحالة قرابة يومين، حتى يئس ابنها من إقناعها، فقال لها: أتدرين يا أماه؟ والله لو أنَّ لكِ مائة نفس تخرج نفساً نفساً ما تركتُ دين الله، فلك إن شئتِ، الأكل، ولكِ إن شئتِ الجوع.. (فكان في موقف سعد انتصار للإيمان على الكفر، وكان لسعد الثواب والأجر بإذن الله تعالى)..

مسلمات مؤمنات

ولكن، وفي مقابل أولئك النسوة الحاقدات، كانت في قريش نساء غيرهنَّ، من ذوات الشرف والكرامة، تلاقت قلوبُهنَّ على الإيمان بالله، وتصديق رسوله، فكنَّ من خيار نساء أهل الأرض.

ويذكر من النساء صفيَّة بنت عبد المطلب (أم الزبير بن العوام)، وأسماء بنت أبي بكر، وأم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، وفاطمة بنت أسد (زوجة أبي طالب، وأم علي بن أبي طالب) وأم جميل فاطمة بنت الخطاب (زوجة سعيد بن زيد بن نفيل)..

هؤلاء النسوة، وغيرهن من أخوات الإسلام اللواتي زادهن الإيمان رفعة وقدراً، كان لهنَّ على التاريخ شرف الصدارة وذلك باعتناق الإسلام ـ دين الله الحق ـ عقيدة ونهجاً قويماً، ثم الوقوف وراء الرجال المؤمنين لحمل الدعوة، ونصرة النبي ﷺ، فكنَّ المبروراتِ الكريمات، والسيدات الفاضلات (رضوان الله تعالى عليهن).

هكذا بدأت تترتب النتائج على دعوة عشيرة النبي ﷺ الأقربين. فأما الذين أعرضوا ونأوا عنه، وآثروا أن يظلوا على عقيدة الشرك، وأن يكونوا من قادة الكفر فقد أعلنوا له ولأتباعه العداوة

السافرة، وأما الذين آمنوا به وصدقوه فقد ظلوا أمناء على العقيدة، شهداء على الحق لا يخافون في الله لومة لائم.

الأمر بالصدوع وإعلان الدعوة

ولكن، ومهما تألّبت قوى الشر على النبي ﷺ وعلى الإسلام، فإن الدعوة ستمضي ـ بإذن الله تعالى ـ قُدُماً، ولن يفتَّ في عضد المؤمنين، أو يصرفهم عن واجبهم المقدَّس أية شدة أو قوة.. وهُم، لن يتركوا ساحة مكة يجول فيها الباطل، بظلمه وظلامه، واستبداده بالناس وقهرهم، بل عليهم أن يعلنوا الإسلام حقاً صراحاً، ودعوةً عامةً لا تقف عند حدود عشيرة النبي ﷺ، ولا تقتصر على ملأ قريش، بل تتعداهم إلى الناس كافة، كما أرادها ربُّ العالمين دعوةً إنسانية عالمية، تخلِّص الأرض من الفساد الذي ينتشر في البر والبحر، وتأخذ بأيدي الناس إلى الصلاح، والخير والفلاح.

وكان رسول الله ﷺ يفكّر، ويخطط للعمل على إعلان الدعوة، وها هو الوحيُ يأتيه من عند العليم الحكيم يتنزّل عليه بالنهج الجديد الذي عليه أن يتّبعه، والذي يتناسب مع هذه المرحلة من دعوته، وذلك بأن يسلك طريق الجهر والإعلان، ولكن مع الإعراض عن مواجهة المشركين لأن وقت المواجهة لم يحنْ بعد، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1].

فاصدع: إنَّهُ الأمرُ الذي يحمل المشاقَّ والمصاعب التي سوف يلاقيها النبي ﷺ وأتباعُهُ، والصدوع بالأمر، يدلّل ـ في الوقت نفسه ـ

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٤.

على القوة والنفاذ في هذا الأمر، فلا يُقعِدَنَّ الرسولَ ﷺ والمسلمين شِرْكُ مشرك، ولا عداوةُ كافر، ولا يثنيهم عن عزمهم الاستهزاء، والسخرية، والعذاب، فإنهم سوف يواجهون من هذا العنت والاستكبار الشيءَ الكثير.

ومع الأمر بالصدوع والامتثال، يتنزّل الدعم والطمأنة، فالله تعالى كافٍ نبيَّه من المستهزئين الذين يجعلون مع الله ـ عز وجلّ ـ إلهاً آخر يعبدونه. فهو يعلم سبحانه أن صدْر هذا النبي ﷺ يضيق بأقوال عبدة الأصنام والأوثان، ولكن مجال التسرّي عن هذا الضيق رحبٌ وواسع، فتسبيح الله تعالى، والقيام بالصلاة مع الساجدين، والذكر والدعاء لله العظيم.. أجل إنَّ في هذه العبادة الجليلة ما يحمل على الأنس المبارك، والسكينة المهداة، والارتياح المجزي.. فتأمل هذا الأمر بالصدوع وما يرافقه من ألطاف الباري بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1].

وارتاح النبي ﷺ، لهذا التطمين الربّاني، وراح يتبع الناس في كل مكان من مكة: يلحق بهم في الندوات والأندية، ويمسك بهم في الساحات والطرقات، ويقصد البيوت ويستأذن في الدخول على أهلها. وهو في ذلك كله لم يكن إلَّا هادياً، وداعياً، ومبشّراً ونذيراً..

(١) سورة الحجر، الآيات: ٩٤ ـ ٩٩.

لقد كان ابتداء الدعوة الجامع للمسلمين في دار الأرقم بن أبي الأرقم.. أما الإعلان عنها فيجب أن يمتدَّ نطاقُه بحيث لا يبقى محصوراً بين جوانب مكة، بل يحمله الناس بأحاديثهم وأخبارهم وهم يتنقلون بين أرجاء جزيرة العرب بأسرها، فهو إذاً ترْكٌ للحيّز الضيّق إلى ساح العلن، إلى الدعوة العامة. والدعاة ـ على كل حال ـ جاهزون. إنهم رجال وفتيان ونساء آمنوا بالله تعالى، إلهاً واحداً أحداً، وبمحمد نبياً ورسولًا، وبالإسلام ديناً حقاً، فنذروا أنفسهم ليكونوا جندَ الله المخلصين، وحزبَ الله العاملين، من أجل خير الناس، وصلاح العباد، ونشر الفضائل ومكارم الأخلاق. فإن لاقوا الإعراض والتصدي فتلك جهالة وضلالة من الناس، ولكنهم هُم، من أجل الإنسانية يعملون، وعلى دروب الخير يسيرون. ولسوف يأتي اليوم الذي تظهر فيه أحقية أعمالهم فيهتدي الناس إلى الإسلام، ويوقنون بآيات الله (سبحانه وتعالى)، ومكرماته على عباده، عندما أنزل عليهم هذا الدين العظيم.

إسلام أبي ذرّ الغفاري

ولم يذهب هذا النهجُ الجديد الذي اتَّبعهُ الرسول ﷺ وأصحابُهُ في الجهر بالدعوة، سُدىً وبلا طائل.. فالجماعات والقبائل والأفراد الذين كانوا يأتون مكة للتجارة أو لزيارة بيت الله الحرام حجيجاً أو معتمرين، أو لغير ذلك من الأغراض والغايات، كانوا يعيشون أجواء الدعوة، وقد صارت الشغلَ الشاغلَ لأهل مكة جميعاً.. وهذا ما جعل خبرَها يلازمُ الناس في الحل والترحال، فينتقل من بادية إلى بادية، ومن قبيلة إلى قبيلة، حتى شاع أمر الإسلام بين سكان الجزيرة كلها، القريب منها والبعيد على السواء.

إلَّا أن تلك الأخبار المتناقلة عن الدين الجديد الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ ظلت في نطاقها الإخباري من دون أن تتعداه إلى أي تجاوب أو تفاعل مع ما يجري في داخل مكة.

ويشاء الله تعالى أن تأتي الاستجابة الأولى من خارج مكة، من قبيلة بني غفار. وذلك أن أحد أصدقاء أبي ذر قد عرَّج لزيارته، وهو في طريق عودته من مكة، فاستقبله ضيفاً عزيزاً، وأنزله منزلًا كريماً. وكان من الطبيعي أن يتطرق الحديث بينهما إلى مجريات الأمور في مكة، وما يشاع من أخبارها عن رجل من أهلها يقول بأنه يخاطب بالوحي من الله، فانبرى الزائر يتحدث عمَّا يُسمَعُ هناك، وكيف أن قريشاً في حَيْرَةٍ من الأمر الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله، بين مُعرضٍ ومُعادٍ ـ وبخاصة الزعماء والأسياد ـ، وبين مؤيدٍ ومقبل ـ وخصوصاً الموالي والمستضعَفين ـ.

ولم تكن غاية أبي ذر مجرد الوقوف على أخبار أم القرى، بل إن في نفسه دوافع تُلحُّ عليه لاستجلاء هذه الدعوة الجديدة، ومعرفتها على حقيقتها... ذلك أن مشاعره قد تغيرت تجاه الأصنام، وتجاه «مناة» بالذات، الصنم الذي كان أبناءُ غفار قد بدأوا يعبدونَهُ منذ ثلاث سنوات أو يزيد.. وكان السبب في حيرته وتقلُّب مشاعره، ذلك الثعلب الذي رآه يهجم على اللبن الذي وضعه عند «مناة» ـ على عادتهم في تكريم معبودهم ـ فيلعقه كلَّه، ثم يبوِّل على كعب هذا الصنم، ويذهب شبعاً هانئاً، وهو يرقب من بعيدٍ هذا المشهد.. مشدوهاً.. وبصورة عفوية وخلال لحظات من التأمل، تبدّلت أفكاره ومشاعره، وكأنما صحا من الغفلة التي كانت تغشى بصيرته، ليرى بأن «مناة» ما هي إلَّا عبارة عن صخرة جامدة، صمّاء، لا حياة فيها، فهل

يعقل أن يتخذها الناسُ إلهاً يعبدونه؟ وما نفع هذا الإله، بل وما قيمتهُ، وهو لا يقدر على شيء حتى ولو دفع حيوان ضعيف إلى امتهان كرامته؟ إنها السفاهة، والبلاهة بعينها أن يعبد الإنسانُ صخرةً، لا تعدو كونها حجراً منصوباً على الأرض. وماذا يبقى من قيمةٍ للإنسان في مثل هذه العبادة، وهو على هذا الخَلْق السوي الذي يجعله يتحرك، ويسمع، ويرى، ويتكلم، ويفكر ويشعر، وما إلى ذلك من الخصائص التي تميّزه عن كثير من المخلوقات الأخرى، بل وتجعله سيداً عليها، بحيث يمكنه أن يتصرف بها، وأن يسخِّرها كيفما شاء؟! ثم بدلًا من ذلك كله يسفّ إلى هذا الحدّ الذي يجعله يتخذ من أحقرها وأدناها سيداً له، بل وإلهاً يعبده؟!. إنها الجهالة والعمى حقاً! ولن يقبلَ أبو ذر بعد اليوم البقاء على هذه الوثنية المُخزية ـ أجل المخزية ـ لأنها تخزي الإنسان وتقبِّحه..

لقد نفض أبو ذر، بفطرته السليمة، تلك العبادةَ الباطلةَ من نفسه، وآمن بأنَّ مَنْ خلقَ الإنسان، ومَنْ خَلَق مناةَ وكلَّ ما في جزيرة العرب، وما فوقها من سماء ونجوم وكواكب، هو أحق بالعبادة. ولِمَ لا يكون هذا الخالقُ هو الله الذي تؤمن به العرب، ولكنها تعبُدُ الآلهة الجوامد لتقربها إليه زلفى؟!

وها هي الفرصة تؤاتي أبا ذر ليثبت إيمانَهُ، إن صحَّ أنَّ في مكة نبيّاً يدعو إلى عبادة الله إلهاً واحداً أحداً لا شريك له، فلمَ لا يقتفي أثره، ويقف على حقيقة أمره؟!

ومرَّت أيام، فدعا أبو ذر إليه أخاه أنيساً لكي يذهب إلى مكة، ويتحرَّى أخبار محمد بن عبد الله.

وفي الغداة، ومع الفجر الباكر، انطلق أنيس الغفاري إلى مهمته في أم القرى. وما إن وصلها حتى توجه إلى الكعبة يطوف، ثم جلس إلى جوارها يستريح، قبل أن يبدأ التحرُّش بالناس، واقتناص ما يريد معرفته.

وبينما هو في استراحته، إذا برجل مهيب، مشرق الوجه، على رأسه عمامة وعلى جسمه برْدة، يأتي وبصحبته نخبة من الشباب، تبدو عليهم أمارات النخوة والمروءة، فيطوفون حول الكعبة، ثم يجتمعون في حلقةٍ من حوله، وكأنما يريدون أن يكونوا له سياجاً يحمونه بالمُهج والأفئدة، قبل الأجساد.

لقد كان المشهد أمام أنيسٍ رائعاً بما ينمُّ عن حب هؤلاء الشباب الصادق لسيدهم، وعن مكانته الكبيرة في نفوسهم، فهم يجلسون بين يديه بأدب واحترام، ويملؤون أنظارهم منه بودٍّ وأنس، ويصغون إليه بكل جارحةٍ من جوارحهم. وفيما هو مأخوذ بهذا المشهد، إذا بأحد هؤلاء الشباب يتقدم منه، ويحييه بالخير والبركة، ويسأله إن كان يرغب بالانضمام إليهم، والاستماع إلى ما يقوله رسول الله ﷺ.

وسأل أنيس: رسول الله؟

قال الشاب: أجل، إنه محمد بن عبد الله، نبي الله ورسولُهُ للناس كافة. فهلُمَّ لتنال اليُمنَ والخير بالاستماع إليه.

قال أنيس في نفسه: «فيا لبركة السماء»! لقد جئت محاولًا استطلاع الناس حول محمد بن عبد الله، فإذا بي أمامَهُ وجهاً لوجه.. فقام على الفور، وتقدم يلقي التحية على النبي وصحبه، ثم يجلس مصغياً.

وكان ﷺ يَتْلو الآيات القرآنية التي تنزَّلت عليه من ربه تعالى، ثمَّ يبيّن للحلقة من حوله المعاني التي تحملها، والأفكارَ التي يريد ربُّ العزة والجلال إيصالها إلى عباده، لكي تنفعهم في دنياهم وآخرتهم.

وكان أنيس يُصغي إلى قولٍ لم يسمع بمثله قطُّ في حياته. فالآيات التي تُتلى تفوق كل فصاحة وبلاغة، وليس في لغة العرب ولسانهم الفصيح ما يدانيها بالحلاوة والطلاوة. أما البيان لتلك الآيات فهو أيضاً من جوامع الكلم الذي لا يبلغه ناطق بالضاد غير هذا الرجل، فيقول في نفسه: أما والله، إنَّ ما أسمع من تلاوة أو قول، لا بد أن يكون صادراً عن نبيٍّ حقاً!..

ومضى الوقت سريعاً، والعيون تحدّق بالنبي تريد المزيد، ولكنه أشار إليهم بما يكفيهم الساعة، فقاموا جميعاً يطوفون، ثم يذهبون في جوف مكة وأنظار أنيس تلاحقهم حتى غابوا عنه.

وشعر رجل غفار بأنه أمضى أجمل وقت في حياته، لما أحسَّ فيه من الأنس والاطمئنان... ولقد عرف ما عرف، وعلم ما علم، فهل بعدُ من حاجة لأن يسأل أحداً من الناس؟. لقد سمع ووعى، ومن «النبي محمد» نفسه، وبان له أمره واضحاً كوضوح الشمس في دعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد، وهدي الناس إلى دينه الإسلام.. فهل من شيء يريد أن يستوثق منه أكثر من هذا لينقله إلى أخيه؟! فما عليه إلَّا أن يعود إلى دياره ليوقف أخاه على جلية الأمر، ولذلك كان اعتذاره من النبيِّ حين دعاه للدخول في الإسلام بأنه لا يستطيع أن يتخذ قرارَهُ قبل رجوعه إلى دياره!.

وعادَ الرجل لينقل إلى أخيه، بصدق وأمانة، من أخبار النبي محمد ﷺ كل ما سمع بأذنيه، ووعى بقلبه..

ولم يكن أبو ذر ليمْهلَه حتى يستريح من تعب السفر، بل ألحَّ عليه لكي يبدأه فوراً، وهو يقول له:

ـ أما أنتَ فمتعبُ الجسد يا أخي، ولكنني أنا متعب النفس، فهات وعجّل بما عندك يا ابن أمّي.

قال أنيس: والله لقد رأيتُ محمد بن عبد الله بأم العين، وجلست إليه، وسمعت مقالته. وإنه لا ينطق إلا بجوامع الكلم: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وإنه لينقل الوحيَ عن الله تعالى قرآناً عربياً مبيناً. وإنه يقول بأنه رسول الله الذي بعثه للناس مبشراً ونذيراً. وإنه ليدعو إلى عبادة الله وحده، وإلى دين الإسلام.

قال أبو ذر: وهل رأيت في أم القرى صحْباً صدقوك القول فيه؟

قال أنيس: أما إنني سمعته بنفسي، وقد كفتني لهجته الصادقة، فما رأيت بعدها من حاجة للسؤال عنه.

قال أبو ذر: جزاك الله عني خيراً يا ابن أمي، أما والله لقد زدتني شوقاً لرؤيته.

قال أنيس: ولكن حذارِ معشرَ قريش، فإن الأخبار تسري في كل ناحية وعلى كل لسان، عن مدى كراهية قوم محمد له. وقد لا يتورعون عن إلحاق الأذى بكل من لا يرى رأيهم في الرجل.

وحزم أبو ذر الغفاري أمرَهُ وجاء إلى مكة ليرى النبيَّ الذي يدعو إلى ترك الوثنية والشِّرك، ويحارب عبادة الأصنام التي عافتها نفسُهُ، مثل تلك الصخرة «مناة» وغيرها من الأصنام التي يعكف أبناءُ قبيلته على عبادتها. فلعلَّ في الدين الجديد الذي يدعو إليه هذا النبيُّ ما يوافق الحقيقة التي يبحث عنها.

ووصل أبو ذر إلى مكة وتوجه فوراً للطواف حول الكعبة على عادة العرب عندما يأتون مكة، ثم جلس بجوارها ينتظر. . . وأمضى نهاره بطوله من دون أن يتبيّن له أنَّ أحداً من الذين مرّوا به، أو جاؤوا إلى الكعبة، هو النبيّ الذي جاء يقصدُهُ، فوطَّن نفسَهُ على البقاء في مكانه، ولو أمضى الدهر قاعداً، وساهراً.

ولكن ما إن أسدل الليلُ ستاره، وغطى الظلامُ مكة حتى جاءه فتى مقدام، يقتحم عليه وَحدتَهُ، وهو يُحييه ويقول له: كأنّي أراك يا أخا العرب غريباً عن مكة؟

قال أبو ذر: إي نعم أيها الفتى.

قال الفتى: وما حاجتك للبقاء في الفلاة، فنحن نَقري[1] الضيفَ، ونؤمِّن الغريب.

قال أبو ذر: ونِعْمَ أهل البلد أنتُم، تجاورون بيت الله الحرام، وفيه الأمن للقاعد، والقِرى للعابر وابن السبيل.

قال الفتى: فهلُمَّ إلى منزلٍ مبارك يحفظ الله تعالى سترَه ويطهِّرُ أهلَهُ.

. . . إن في كلام هذا الفتى ما يؤنس الفؤاد ويُريحُهُ. فهو يبدو جمَّ الأدب، صادقَ اللهجة، وفي هذا ما يكفي لوثوق الغريب، فلِمَ لا يذهب معه مطمئناً؟!

وبهذا الشعور قام أبو ذر يسير مع الفتى من دون أن يسأله مَنْ يكونُ، وإلى أين يقوده في هذا الليل البهيم.

---

(١) نقري: نُكثر ضيافته.

وفي الطريق راح أبو ذر يحدِّث نفسه: حقاً إن في قول هذا الفتى لحلاوة.. فالستْرُ عنوانُ الحفظ والصون والكرامة، والطهرُ عنوان النقاوة والنظافة والبعد عن الرجس.. فأيّ بيتٍ ترقى به صفات أهله إلى هذه المدارج من السمو والرفعة إلَّا أن يكون بيت كرامٍ، سادةٍ في الشرف والعزة؟

وظل الرجلُ يسير إلى جانب الفتى، وكلٌّ على صمته حتى دخل به إلى دارة واسعةٍ، وأنزله في مكانٍ مخصّصٍ للضيوف، ثم جاءه بالماء والزاد، وانصرف عنه مودِّعاً، وهو يدعو له بالراحة والنوم الهانىء.

وأمضى أبو ذر ليلتَهُ وهو يغطُّ في نوم عميق، فما أفاق إلَّا مع طلوع الشمس، وهو يُحِسُّ معه بأمان وارتياحٍ لم يألفهما من قبلُ. ورأى إلى جانبه طعام الفطور الذي أُعِدَّ له، فأَيقَنَ أنه نزل ـ فعلًا ـ منزلًا كريماً، وعند أناس أشراف في المحتد والخُلُق.. وأكثر شيء استرعى انتباهَهُ هذا الهدوءُ الذي يخيّم على البيت، فيبعث في النفس السكينة، وينسيها مشاغل الدنيا وهمومها..

وخرج أبو ذر ليمضيَ نهارَه بجوار الكعبة؛ ولكنَّ يومَهُ لم يكنْ بأحسنَ من أمسِهِ، إلّا أنَّ ما يَثْبُتُ في فؤاده من ارتياحٍ يسري بين ضلوعِهِ هو الذي ينسيه القلقَ والملل من الانتظار.. ومرَّ الوقت وجاءه الفتى نفسُهُ في المساء، ليقول له:

ـ أما آنَ للرجل أن يعرف منزله؟!

وأمضى أبو ذر ليلةً أخرى من النوم العميق، والراحة التامة، ليعود في الصباح إلى جوار الكعبة ويجلس مترقباً، ولكن ليس من

جديد. . وكان يحاذر أن يسأل أحداً، كما أوصاه أخوه أنيس، أو أن يكشف أمرَه لأحد، حتى لا يفسدَ عليه غايته. . فلمَّا كان المساءُ، وجاء الفتى يدعوه، مشى معه، وهو يعتزم هذه المرة أن يحدِّثه بأمره، ولكنه وهو في تَرَددِهِ وحيرته بين أن يُفصح عما يرومه، أو يبقى على صمته، إذا بالفرج يأتيه على لسان هذا الفتى عندما قال له:

ـ هل يضيقُ صدرُ الرجل إنْ أمسى فأخْبَرَ، فأفْصَحَ عن مكنُونه؟ فما رجلٌ مثلك سريٌّ [1]من سراة قومه، كما يبدو عليك يا أخا العرب، يمكن أن يَحتَجَّ بالركون إلى جانب الكعبة طوال الوقت الذي أمضيته، إلَّا أن تكون له حاجة في النفس، فعسى أن يُعين الله تعالى على قضائها. .

قال أبو ذر: وهو ما أصبتَ به كبد الحقيقة يا بُنيّ. فوالله إن لفي نفسِ أبي ذر الغفاري حاجةً. . . وإنها لشديدة إلى الحدِّ الذي أكاد أشعر معه بأنها تهدُّ عظامي منذ سنوات ثلاث. . وقد آثرت المجيء إلى مكة والكتمان على أمري لعلَّ فيه طريقاً أسلَمَ للوصول إلى الغاية التي أبتغي. .

قال الفتى: أهلًا بشيخ قبيلة غفار، أما والله فإننا معشر أهل بيتٍ نكتُمُ السرَّ، ونُعين صاحب الحاجة على قضائها، بما يُيسِّر لنا ذلك العلي القدير.

قال أبو ذر: عزيز عليَّ ما تقول أيها الفتى النبيل، فأنتم خيرُ القوم وجيران بيت الله. . وقد نزلنا بدياركم ولا نعرف أصحاب الدار،

---

(١) من كبار القوم.

ولا الفتى المقدام الذي يستقبل ضيفَهُ ويقريه، ثم يغيب عنه، فإنني والله ما عرفتُ شيئاً من ذلك حتى الساعة!

قال الفتى: أما رفيق دربك فهو عليٌّ بنُ أبي طالب.

قال أبو ذر: فأنت إذن ابن شيخ البطحاء في مكة، ولا تخبرني يا بنيّ؟ ثكلتني أمي إن لم تكن الجدّات في غفار تروي الحكايات الطويلة عن بني قومك وسادتهم من قصي إلى عبد المطلب وابنه عبد الله. فأنتم النسب الطيب، وسلالة الشرف والمجد.

قال عليٌّ: وها أنت قد وصلت إلى جوار الأصل الطيب، مهبط الوحي الحق الذي شاء الله تعالى أن يُعزَّهُ، ويرفع مقامه عندما بعث محمد بن عبد الله ﷺ نبياً ورسولًا للناس كافة، فأنت يا شيخ غفار ضيف النبي محمد ﷺ، فحللت أهلًا، ونزلت مرحباً في دار النبوّة.

قال أبو ذر: فداك نفسي يا علي، كم هي المفاجآت التي تُدهشني بها!.. إذ كيف أنزل ضيفاً على بيت النبوّة وأكون سادراً غافلًا لا أعلم شيئاً مما يحيط بي. وإنَّ لقاءه ـ والله ـ هو الضالة المنشودة التي أبحث عنها، وما إقامتي بجوار الكعبة إلَّا لأراه وأسمع منه، فيا لتعاستي وشقائي على ما يصادفني، ولا أدري!

قال علي: بل قُل يا أبا ذر إنها رعاية الله ربِّك التي كانت تدفعك إلى النوم، فتخلد مرتاحاً في جوار النبوة.. إلَّا أنه قد فاتك أن تستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم، وأن تتبيّن أنه يقوم الليل مصلِّياً، متهجداً، عابداً ربَّهُ سبحانه وتعالى.

قال أبو ذر: لا تحاول أن تخفِّف عني يا ابن أخي، إني لأشعر بأن الحسرة تكاد تقتلني..

قال علي: هوِّن عليك يا شيخ بني غفار، فالخير آتٍ إن شاء الله رب العالمين. وإنه حقيق عليَّ أن أقول بأن الله عزَّ وجلَّ قد أكرمنا نحن العرب جميعاً عندما بعثَ فينا رسولًا من أنفسنا، عزيزٌ عليه ما يعاني منه أبناء قومه، بل والناس جميعاً من الجهالة والكفر، والبعد عن الإيمان بالله تعالى.. وإنه والله لا شيء في الوجود كلِّه أغلى وأسمى من الإيمان الصادق، وإقرار الإنسان بعبوديته لخالقه وبارئه، والعمل بطاعة الله ورسوله. فلا حسب ولا نسب، ولا جاه ولا مال، يا «عمُّ» يمكن أن يحقق للإنسان السعادة في نفسه، والاستقرار في حياته إن لم يؤمن بحقيقة وجود الله تعالى، استمع إلى قول الله تعالى في مُحكم تنزيله العزيز: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[1] فبمثلِ هذه الآيات يتنزَّلُ القرآن على قلب محمدٍ ﷺ ليكون بشيراً ونذيراً للعالمين، وليكون الإسلام الذي يحمله نوراً للقلوب وهداية للأبصار.

وكان أبو ذر يُصغي، وأوصاله ترتعد ارتعاشاً مما يسمع، فيقول في نفسه: من أين مثل هذه النجابة والفصاحة، ومن أين مثل هذا الفيض الفكري عند هذا الفتى إلا أن يكون دينه هو هاديه، ورسوله هو معلّمه، فمرحى لهذا الدين، ومرحى لهذا الرسول إن كان تأثيرُهما

(١) سورة الإسراء، الآيات: ٥٣ ـ ٥٦.

يوصل الإنسانَ إلى تربيةٍ قويمةٍ صحيحةٍ مثل تربية علي بن أبي طالب، وإلى نورانية في العقول مثل نورانيّةِ عقله، التي تشع إيماناً وصدقاً وإخلاصاً. وهكذا يصبحُ الإنسان خليقاً بالحياة!..

وعلى مثل هذه الوتيرة من الحديث الممتع ظل الرجلان يسيران حتى وصلا، فاستأذن عليٌّ أن يذهب للصلاة ثم يعود إلى صاحبه أبي ذر الغفاري.. وبالفعل فما كاد بعض الوقت يمضي على الضيف في هجوعه حتى رجع عليٌّ وهو يحمل الطعام بين يديه، ويجلس إلى صاحبه ليُمضيا ليلةً مباركة كانت أجمل الليالي، إذ لأول مرة استمع خلالها أبو ذر إلى صوت النبي ﷺ وهو يتلو في محرابه آي الذكر الحكيم، ويسبّح الله الملك القدوس العزيز الحكيم، حتى الهزيعِ الأخير من الليل.

وكان علي قد اتفق مع أبي ذر على أن يجعله يلتقي في الغداة بالنبي ﷺ.. وأخيراً، وبعد طول انتظار، كان اللقاء؛ فجلس أبو ذر الغفاري يستمع إلى النبيِّ ﷺ وهو يشرح له مفاهيم الإسلام، وحقائق هذا الدين الذي يدعو إلى التوحيد، وإلى القضاء على الكفر والشرك، حتى أيقن أبو ذر من نفسِهِ هدايةً إلى الحق، فوقف بين يدي رسول الله ﷺ يُعلن شهادة الحق، ودخوله في الإسلام طائعاً مختاراً، والرسول العظيم يبتسم له، ويُسَرُّ بإيمانه. وعندما قام أبو ذر يريد المغادرة أرادَ أن يُعربَ عن صدق إيمانه، فقال للنبي ﷺ:

ـ تعلم يا رسول الله بأن قبيلة غفار قد عُرفت لدى العرب بأنها تقطع الطريق وتنهب السابلة. ولكن والله إن رجعت إلى قومي لأقفنَّ فيهم داعياً إلى ما يخلّصهم من تلك العادات السيئة التي ورثوها عن

آبائهم من أزمان طويلة. فادعُ لي يا رسول الله أن يوفقني سبحانه وتعالى على ما عزمت عليه، فأَهدي بني قومي للإسلام، وأنال على ذلك إن شاء الله الأجر والثواب.. فدعا له الرسول ﷺ أن يوفقَهُ ربُّهُ تعالى، وأن يسدد خطاه في ما أخذه على نفسه من عهدٍ فيه الخير والرحمة، ثم حذَّره ألَّا يُفتضَحَ أمرُهُ لقريشٍ ما دام في مكة لئلا تُقدم على أذيته.. ولكنَّ الحمية أخذت أبا ذر فوقف مقسماً بالله العزيز ألَّا يغادر أم القرى قبل أن يصرخنَّ بهذا الدين على ملأ من قريش. وتوجه من فوره حتى أتى البيت الحرام، وهناك راح ينادي بأعلى صوته: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

وشقَّت صرختُهُ عنان السماء. وصعبت على قريش جرأة هذا الرجل الغريب، وهو يقف صارخاً وكأنه يتحداهم في عقر دارهم، ويُعلن كُفرَه بآلهتهم، فما كان منهم إلَّا أن أسرعوا إليه يبادرونه بالوعيد والتهديد، والسؤال عمّا دفعه إلى تلك الوقاحة التي يُظهر، وما شأنه مع قريش حتى يُعادِيَها ويجلبَ عليه نقمتها.

فقال لهم أبو ذر: أما شأني مع قريش، فلا حاجة بكم لأن تسألوني عنه، لأن جمعكم يعرف أن قبيلتي غفار كانت تحالف قريشاً، وتدين لها بالسيادة على البيت العتيق. وأما الوقاحة التي تنعتونني بها، فإنني في غنى عنها، وهي تليق بأهل الكفر من أمثالكم، فإنه قد بدا واضحاً على وجوهكم أنكم لا تعرفون أية قيمة للحق، ولا أي سبيل للرشاد.

وما كاد أبو ذر يلفظ آخر كلمةٍ مما يقوله لهم حتى هجموا عليه هجمة رجل واحد، وراحوا يوسعونه بالضرب واللَّكم بالأيدي

والأرجل، حتى لم يعد يحتمل، فخارت قواه ووقع مغشياً عليه.

وكان العباس بن عبد المطلب يقف غير بعيدٍ عن القوم، وهو يستمع إلى ما يجري، فعندما رأى تلك الجماعة تمسك بتلابيب[1] الرجل وتحاول أن تقضي عليه، عجَّل إليهم كي يخلِّصه، وما زال يدفعهم بكل قواه حتى أمكنه أن يفرقهم عنه وهو يصرخ فيهم قائلًا:

ـ ويحكم يا أبناء قريش، كيف تعتدون على هذا الرجل من ديار غفار، وهي طريق قوافلكم إلى الشام. فوالله ما أظنُّ إلا حقدكم على «محمد» هو الذي أفسد عليكم الرأي فأصبحتم كالعميان، وجعلكم لا تدركون ما تفعلون. اذهبوا ودعوا الرجل وشأنه لئلا تكون تجارتكم في خطر!.

وعلى الرغم من هذا التحذير فقد تنطَّح بعضهم مهدداً بقتل الرجل، لأنه بنظرهم مارق صابىء. ولكن العباس عاد ينهرهم، حتى أمكنه إبعادهم، فتقدم من أبي ذر يسعفه، ويحمله إلى بئر زمزم ليغسل رأسه ووجهه بالماء الطاهر، وهو يُبدي له ـ في محاولة لمواساته والتخفيف عنه ـ أسفه واعتذاره عن رعونة هؤلاء الزمرة الذين أخذتهم حمية الوثنية فباتوا لا يدرون ما يفعلون.. وما زال به حتى هدأ روعه، فقام أبو ذر يشكره ويودعه، ثم يمتطي راحلته للذهاب إلى دياره، إلَّا أن العباس أبى إلَّا أن يركب، ويرافقه إلى خارج مكة، وهناك عاد أبو ذر يشكر له حُسنَ صنيعه، ويسأله أن يقرىء رسول الله ﷺ السلام، ويطمئنه عن حاله وأنه بخير من الله تعالى..

وأكرَمَ الله تعالى أبا ذر الغفاري، «فأسلم على يده نصفُ قبيلته

---

(١) التلب: موضع القلادة في العنق.

فكانت قبيلته غفار»[1] أول الناس إسلاماً من خارج مكة. وقد عاهدوا الله سبحانه أن يكونوا على الدين والإيمان، وأن ينصروا النبيَّ عندما يدعوهم لنصرته.

وهكذا بدأ الإسلام يمتد إلى خارج مكة رويداً رويداً، فوصل إلى أبعد من ديار بني غفار، عندما دخل فيه أفراد قلائل من قبائل متفرقة، أمثال: عمرو بن عبسة السلمي، وضمّاد أزد شنوءة.

إسلام عمرو بن عبسة السلمي

كان عمرو بن عبسة، ومنذ أيام الصبا، يقصد الأسواق والمشاهد العامة ليستمع إلى أهل الفكر والشعر، وإلى مباريات الخطابة، وطرح الجدال في العقائد الدينية. وكان أكثر شيء يستميله تلك المناقشات التي كانت تدور بين رهبان النصارى وأحبار اليهود، وادعاء اليهود بأنهم ينتظرون نبياً أطلَّ زمانُهُ، وهو ما كانوا يستفتحون به على المشركين أيضاً. فكان عمرو يتمنى لو تدوم أيامه ليعيش زمنَ هذا النبي، ويشهد مواقف الأنبياء. فلمّا انتشرت أخبار الدعوة الإسلامية في أنحاء عديدة من الجزيرة، جاء إلى مكة يطلب النبيَّ الذي يتحدث عنه الناس، وقد رأى زمرة قرشية، قريباً من الكعبة، ممن يجتمعون على إضاعة الوقت بدون طائل، والتسلية باغتياب الناس، وتوزيع النعوت والألقاب على هواهم، فآثر الابتعاد عنهم، والركون إلى الحرم.. وفيما هو في هجعته، إذا به يرى رجلًا ذا عمامة، ويبدو عليه الوقار والهيبة، قد جاء يطوف حول الكعبة، وقد

(١) طبقات ابن سعد ج٤ قسم ١ ص١٦٣. وتاريخ الإسلام الذهبي ج٢ ص١٠٠.

التف حوله عددٌ من الرجال، مما جعل تلك الزمرة تترك أحاديثها وتشرئب بأعناقها نحو هذا الرجل وهي تقول: انظروا إلى زعيم «الصابئين» لعلَّه جاء يستجدي السماء كي تخاطبه!. عندها عرف عمرو أنه «محمد بن عبد الله»، وأن هؤلاء الذين يطوفون معه هم من أتباعه، فظلَّ في مكانه لا يحرك ساكناً، إلى أن فرغ النبي ﷺ من طوافه، ودخل البيت الحرام لبعض الوقت، ثم انصرف غير عابىء بما تلذعه به ألسنة السوء من السخرية، فقام عمرو يتبعه، فلما أدركه في أحد طرقات مكة، تقدم يُحيّيه ويطلب محادثته على انفراد، بعيداً عن عيون الناس، فرحَّب به النبي ﷺ ودعاه إلى منزله.

وبالفعل، وفي بيت النبوّة، وفي أجواء الحذر، كانت هدايةُ عمرو بن عبسة السلمي، ودخوله في الإسلام على يدي رسول الله ﷺ.

وكأنما أراد عمرو أن يطمئنَّ على هذا الدين الجديد الذي اعتنقه، فقال للنبي ﷺ:

ـ وكيف تعملُ يا رسول الله لنشر هذا الدين، وقريش تقف لك بالمرصاد؟

وأطرق النبي ﷺ هنيهةً، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

(١) سورة هود، الآيات: ١٢١ ـ ١٢٣.

واطمأنَّ عمرو لقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فسأل النبي ﷺ أن يزيده نوراً ومعرفة بهذا الدين، فأقبلَ عليه ﷺ يزوده بالقيم الإسلامية التي من شأنها أن تشبع نفسه بالإيمان الصادق، وتوثِّق عرى هذا الإيمان في قلبه وعقله. ثم دعا له بالخير والثبات على عهده مع ربه..

وبمثل هذه العفوية الصادقة جاء عمرو بن عبسة السلمي ليحظى بهدي الله عز وجلَّ، فوجد الهداية الكاملة التي تاقت لها نفسه، فاستحقها.

إسلام ضمَّاد أزد شَنوءةَ

كان ضماد رجلًا طيبَ القلب، فهيماً، مدركاً. ولكنه اتَّخذ عادةً سيئة، جعلها مهنةً له في حياته. فقد كان مشهوراً بين العرب بأنه راقٍ، وأنه يرقي من به مسٌّ من الجنون، أو من غلب عليه السحر، وأنه كان يؤيَّد من السماء، فيشفي من يرقيه..

تلك كانت حال ضماد عندما جاء إلى مكة يشتري العطارة التي يستعملها في مهنته، فدفعه المشركون، بحكمة الله البالغة، إلى الدخول في الإسلام...

لقد عرفه بعض السفهاء من قريش، الذين يدورون في الأزقة متسكعين هاربين من الحياة، على عادة من استهوته البطالة، وشدّته الرذيلة إلى أحضانها، ففقد قيمته الإنسانية، وأضاع غاية وجوده..

وكان أولئك السفهاء قد رأوا ضمَّاداً وهو يدخل دكان العطارة، فأغواهم الشيطانُ، وحبَك بعقولهم الفارغة التآمر على النبي ﷺ.

ولعلَّ ما دار بين أولئك السفهاء من حوار كافٍ بذاته للتدليل على مدى الضغينة التي صارت قريش تكنّها للرسول ﷺ ودعوته.

لقد بادر أحدُهُم رفاقه قائلًا:

ـ ما رأيكم بهذا الأبله ضماد بن أزد شنوءة، ألا ترون أنه يبتاع العطور والروائح ليرشَّها في أنوف المسحورين؟

ـ قالوا: نعلم ذلك، ولكن ما قصدك يا هذا؟ وبكل الخبث والدهاء اللذين يملآن كلامه، قال:

ـ ويحكم أيها الأراذل، ألا ترون شفاءً لمجنون قريش على يديه؟

قالوا: بل الويح لك، هيا وهاتِ ما عندك أيها اللعين!

قال: أما إنكم لأبالسة في ثوبٍ قرشي، وكأنَّ أمر «محمد» لا يعنيكم بشيء؟

قالوا: أفصحْ عما تُدبِّر ونحن معك!..

قال: فالآن لندع المهاترات جانباً، وندخل في الجدّ.. وما أنصحكم به هو ألَّا نتركَ هذا الرجل حتى ندفع به إلى «محمد بن عبد الله» بعد أن نُغريه بالمال، فيصدّقنا، ويذهب إليه طالباً أن يرقيَه، فنكون قد سخرنا من «محمد» وأشعنا في الناس أنه استدعى ساحراً ليشفيه!..

تلك كانت نواياهم الخبيثة، والمؤامرة التي أرادها أولئك السفهاء.. وقد صدَّقهم ضمّاد، فقادوه، من حيث لا يدري، إلى بيت النبي ﷺ، وهنالك تركوه بعد أن أشاروا إليه بالدخول، ثم ولّوا مدبرين. فتقدم ضمّاد يطرق الباب، فإذا به أمام رجل جليل يستقبله،

ويدخله مرحباً، مما جعل ضمّاداً يُفاجأ، ويرى بخلاف ما كان يتوقع، ومع ذلك فإنه لم يُخفِ ما جاء لأجله، فقال:

ـ قد بلغني، وأنا اليوم في مكة، أن رجلًا عندكم قد غُلب على أمره بما لا يستطيع دفعه عن نفسه، وإنني أعالج أمثاله بالرقى والتمائم فأين الرجل صاحبكم، إن كنتم تريدون له شفاءً؟!

ورأى النبي ﷺ على هذا الغريب سذاجةً ظاهرة، وأنه كان ضحية مكر وخداع فأدخله، وهو يقول:

«إن الحمد لله، نحمده ونستعينه. من يهْد الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له».. وردَّدها النبي ﷺ ثلاث مرات على مسامع هذا الرجل.. ثم سأله إن كان فيما قاله ما يضير؟

قال ضمّاد:

ـ لا والله، بل هو قول رجل حكيم. ولكنني سمعت منك عجباً، فأنت تذكر الله إلهاً واحداً لا شريك له، فأين آلهة العرب وهي شركاء لله؟!

قال النبي ﷺ: الحق الحق، إنها أباطيل. كلها أباطيل.

ثم راح ﷺ يتلو على مسامع هذا الرجل سورة الإخلاص بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝٢ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٣ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٤ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، ومن بعدها «سورة الفلق» بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وكان ضمّاد يستمع وهو مشدود إلى التلاوة، فسأل: ولكن ما معنى الفلق؟

وهنا أشار النبي ﷺ إلى أحد الصحابة بقربه، أن يجلس إلى هذا الرجل، ويشرح له ما يتيسَّر من معاني الآيات القرآنية، فلعلَّ الله سبحانه أن يهديهُ، ويخلصه من غواية الشيطان الذي هو عدو لبني آدم أجمعين..

وتقدم الصحابي من ضماد، ملبياً أمر الرسول ﷺ ثم جلس إلى جانب الرجل، وقال له:

أما الفلق فمعناه الصبح. والله سبحانه وتعالى هو ربُّ الصبح ينشره على الخلائق فيبدِّد بنوره الظلمة، ويكشف عن كل خافٍ ومستور، فتنجلي أمام أبصار هذه الكائنات التي خلقها الله (تعالى) الأشياءُ التي يجب أن نعرف كيف نتعامل معها..

ومن معاني الفلق أيضاً: الخلق كله، أي كل ما يفلق الله سبحانه وتعالى عنه سرَّ الوجود والحياة.. وقد قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1].. فهل تدرك يا أخا العرب معاني هذه الآيات التي تلوتها عليك؟.

وسكت ضماد هنيهة، ثم قال: أجل، ولكن كيف نستعين بالله من شر خلائقه؟

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٩٥ و٩٦.

قال الصحابي: إنه لأمر سهل عند الإنسان الذي يؤمن بحقيقة وجود الله تعالى. فهو يدرك أنَّ الله قادر على كل شيء. وأنَّ وجودَ الخير والشرّ حتميٌّ في حياتنا.. فعندما نقول: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[1] فإننا نتوجه إلى ربنا تبارك وتعالى فنستعينُهُ بأن يؤمِّننا من الشر الذي قد تأتيه بعض الخلائق الظاهرة مثل الناس، أو بعض الخلائق الخافية علينا مثل الجن، أو نستعينه من شر الحيوانات والحشرات والزواحف التي قد يسترها الظلام، أو أي شيء غيره، فتهجم علينا وتوقع بنا الأخطار والأضرار. أما عندما يفلق الله (تعالى) الإِصباحَ، ومعها النورُ الذي يملأ الأرجاءَ بضياء الشمس فتستطيع أن نتبين ونبصر كل غامض مستور، فنحاول أن نتلافى شروره. ولذلك فإن الاستعاذة برب الصبح معناها الاستعانة برب النور والضياء، كي يُبعد عنا الشر والأذى من خلائقه، ويُبقي لنا خيرها الذي يفيدنا وننتفع به.. وهذا التوجيه لا يمكن أن يعمل به إلَّا المؤمن الصادق، الذي يوقن بأن الله (تبارك وتعالى) هو الذي يفتح بصيرته على الحق، ويغلق عن قلبه غشاوة الضلال، وأنَّ عليه أن يدعو ربه ويستعين به وبأن ربَّه يستجيب له، فيمدّه بكل أسباب العون ويخلد إلى رعاية الله (تعالى) وحفظه...

قال ضماد: قد والله أُشبِعَتْ نفسي، ولكن ما معنى النفاثات في العقد؟

قال الصحابي: فأما النفاثات في العقد فهن الساحرات، الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس وإيهام الأعصاب، بحيث

(١) الخير كل ما يعود على الإنسان بالنفع والشر كل ما يعود عليه بالضرر.

يظهر لمن يَقصدُهُنَّ أن الشيء الذي يراه هو حقيقة، بينما هو في الواقع أبعد ما يكون عن الحقيقة. . فالسحر، أيها الرجل، ما هو إلَّا تخيّلٌ من قبل الرائي، وهو لا يغيِّر من طبيعة الأشياء شيئاً على الإطلاق. فإذا رأيت ساحراً يقلب المنديل حمامة فهذا مجرد تخيل فقط، ولكن بفعل القوة التي يمتلكها من يدعي السحر ويؤثر فيها على الأعصاب ويخدع الحواس فتجعل صاحبها يرى المنديل حمامة، بينما المنديل يبقى منديلًا ولا يتغيَّر أبداً. وهكذا فعل النفاثات في العقد، تلجأ إلى التأثير فتعقد التمائم، وتشدّ العقد في الخِرَق، وتحيك حولها الخيوط، وتُتَمْتِمُ وتثرثر بكلام غير مفهوم من أجل أن تخدع من يلجأ إليها. . وأفعالها تلك، إنْ هي إلَّا كذب بكذب، مما يخدع الإنسان، ولا ينفعه بشيء، بل ربما يضرُّ به. ولذلك يوجهنا رب العالمين أن نستعين به من شر تلك الساحرات حتى لا نقع في الخداع الذي قد يجرنا إلى أذى أنفسنا، وأذى غيرنا، فنقعد بعده ملومين، متحسرين. «والنفاثات في العقد» مثال حي لكل مخادع كاذب يغوي الناس بالأباطيل، بحيث لا يختلف في ذلك عما تفعله الشياطين، وكل ذلك مجلبة للشرّ والأذى. فالإنسان المؤمن يدعو ربَّه كي يعينه، ويبعده عن كل هذه المخاطر والمزالق، وربُّهُ تعالى يتكفل بعبده المؤمن، فيكفله ويحفظه من شر النفاثات في العقد، ومن كل شر آخر قد يتعرَّض له. . .

وسكت الصحابي قليلًا ثم قال:

ـ وهذه الأفكار وغيرها هي ما يُلقِّننا إياه النبي ﷺ لأنها أفكار الإسلام الذي أنزله الله تعالى خيراً للعالمين، ورحمةً منه سبحانه لعباده.

وفي أجواء الإيمان الناصعة هذه، أمضى ضمّاد تلك اللحظات

السعيدة من حياته. يسمع تلاوة القرآن، ويتبيّن معاني المفاهيم الإسلامية حتى فتح الله سبحانه قلبه على الإيمان فوقف أمام الرسول ﷺ وهو يقول:

ـ إليَّ يدك يا رسول الله أبايعك على دين الحق الذي أنت عليه. وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله.

فتقدم المسلمون يهنئونه على أن هداه الله تعالى إلى النور المبين. وأراد أحدهم أن يلاطفه فقال له:

ـ كيف رأيت السحرَ والرقى يا ضمّاد؟

قال ضمّاد: أما والله إنَّ في قريشٍ لقوماً كاذبين، يتّهمون هذا النبيَّ الهادي المهديَّ بنعوتٍ هو براء منها، بينما هم أجدر أن يُنعتوا، بالخزي والعار.. لقد أكرم الله تعالى نبيَّه ورسوله، وإنه للصادق البار، وإنهم للمفترون المارقون.

وإن دلَّت قصة ضمّاد على شيء، فإنها كغيرها من القصص التي كان المشركون يتقوَّلونها مع إعلان دعوة الإسلام، تدل على حقارة ووضاعة الأساليب التي كانوا يستعملونها في محاربة هذه الدعوة، كمثل تلك الزمرة من سفهاء قريش التي حاولت أن تنفث حقدها على النبي ﷺ فظنت أنها اتخذت ضمّاداً مطيّة لذلك، إلَّا أن رجل أزد شنوءة كفر بأصنامهم وعبادتهم كما كفر بألاعيبهم، وآمن بالإسلام ورسوله ليرتدَّ كيد المشركين إلى نحورهم، فيكونوا من الأخسرين.

وهكذا وبمثل تلك الألاعيب راحت قريش تبتدع كل يوم جديداً في محاربتها للدعوة، والحؤول دون استفحال أمر المسلمين في الداخل، ومنع الاتصال بهم من الخارج.

أجل لقد كانت الأوهام تعشش في رؤوس أهل الشرك، فتجعل المخاوف تسيطر عليهم، وتصوّر لهم بأن المخاطر باتت تحيط بهم من كل جانب ولاسيما أن الواقع أمامهم يثبت ما للإسلام من تأثير على النفوس حتى ليحيل أتباعه كتلةً متراصّة، تتمنطق بقوة الصبر، بمقدار ما تتآلف بقوة الدين.. وإلَّا فكيف هذه المساواة بين أبي بكر ـ نسّابة العرب ـ وبين بلال بن رباح العبد الحبشي، أو بين عثمان بن عفان ـ صاحب المال والوجاهة في بني عبد شمس[1] وبين عمار بن ياسر ـ مولى بني مخزوم.. ثم أليس الإسلام هو نفسه الذي لم يجعل فارقاً ولا ميزة في الأخوة الإسلامية بين أبناء الأسياد والمكانة أمثال علي بن أبي طالب (وأبوه شيخ قريش والأبطح)، والأرقم بن أبي الأرقم، وأبي عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، وغيرهم وغيرهم من جهة.. وبين المستضعَفين والعبيد والموالي أمثال: عامر بن فهيرة (مولى الطفيل الأزدي) وصهيب بن سنان الرومي، وأفلح بن فُكَيْهة وسواهم، وسواهم من جهة ثانية.. هؤلاء الذين أعزهم الله تعالى بالإسلام، فتحررت نفوسهم من ربقة العبودية، وتخلّصت أجسادهم من التعب والشقاء؟ وهل كان الفضل في ذلك إلا لله ولرسوله، ولإخوانهم المسلمين الذين كانوا يجمعون المال ليفتدوهم به من أسيادهم، ويخلصوهم من العذاب الذي مارسوه عليهم زمناً طويلًا، وجعلوهم يعيشون على هامش الحياة بلا كرامة، ولا إنسانية في شيء، حتى جاء الإسلام، وانتشلهم من موبقات الجاهلية، فأصبحوا بنعمة الله ـ تعالى ـ أبراراً، وبعون إخوانهم أحراراً.

---

(١) عبد شمس والد ربيعة وأمية، وعثمان هو ابن ربيعة.

وليس الخوف على مكانة قريش من الزوال، ولا الرغبة في الإبقاء على استعباد الضعفاء من العبيد والموالي، كانا وحدهما وراء وقوف رؤوس الشِّرك في وجه الدعوة الجديدة، وفي تأليب الناس ضد النبي ﷺ، بل كانت لديهم دوافع أخرى كثيرة لا تقل أهمية في نظرهم:

فالإسلام ـ كما باتوا يعلمون ـ يحارب الفساد في المجتمع، ولا يسمح بوجود بيوت الدعارة والتبذّل، ولا بأوكار المتع الرخيصة.. في حين أن الرايات الحمراء المنصوبة على بيوت البغايا تنتشر علناً في أوساطهم ويؤمها أكثر أسيادهم وكبرائهم ـ ومنهم من كان يتخذها مورداً للغنى والثروة ـ فهل يتخلون عن أماكن ملذاتهم وشهواتهم؟! ثم أين الكبرياء والغرور.. وأين الجشع للمال، والمقامرة، والربا... وأين الحمية القبلية والأحلاف.. بل وأين دين الآباء والأجداد، والقرابين والنذور إلى «هبل».. وقد جاء الإسلام ليقضي على كل ذلك؟!... مع كل ما ألفوه من عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم الجاهلية الموروثة....

فإذا أضيف قلق قريش ـ بعامة ـ من خسارة مناصب الكعبة، فيما لو تَركت الإسلام يسود، فمعنى ذلك أنها قادمة على أسوأ كارثة، وهي فقدان سيادتها على العرب، وضياع مكانتها وسلطانها!...

إذن فالامتيازات التي كانت تتمتع بها قريش هي التي تطغى على تفكيرها وتسيِّر اتجاهاتها. ولعلَّ أهم ما في تلك الامتيازات التي كانت تتمسك بها هو طمعها في المال ورغبتها في امتلاكه. فقد كان المال وحده أهم المقاييس التي تقيس بها الطغمة الفاسدة في قريش أقدار الناس ومكانتهم، فبمقدار ما يكون لدى الإنسان من المال، يكون له حظ من الشرف والسؤدد. وقد سيطرت عليهم تلك الأفكار حتى

راحوا يقولون: أيُنزَّل القرآن على محمد بن عبد الله، ويُترك الوليد بن المغيرة كبيرُ قريش في الجاه والمال، أو يُترك عروة بن مسعود الثقفي الذي عنده المال والسلطان في الطائف؟ أجل كانت قريش ترفض فكرة نبوَّة محمد ﷺ وتتمنَّى لولا نزّلَ القرآن على رجل من القريتين عظيم: ابن المغيرة، أو ابن مسعود! وقد أبان الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز مقالتهم تلك فقال عزَّ وجل:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

تلك كانت مقولاتهم، وذلك كان توجُّههم في الحياة الدنيا، فالمالُ والجشع والطمع كانت تغلب على طباعهم، ومن كانت عنده عادة سيئة يتوهم أن هذه العادة لا بد من أن تكون عند غيره، ولذلك وبهذه النظرة رأوا أن يُغروا محمداً ﷺ بالمال والجاه والسلطان، لعلَّ ذلك يكون الوسيلة الناجعة التي تصرفه عن دعوته وتثنيه عنها، فتصبح قريش قادرة عندئذٍ على خنقها في المهد، والقضاء على مَن تسوِّل له نفسه أن يتحدث بالإسلام!..

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣١ ـ ٣٥.

البحث الثالث

عروض قريش وطلب المعجزات

عرض قريش المالَ والمُلْك على النبي ﷺ

وبمثل تلك الأوهام والظنون حزمت قريش أمرَها وعزمت على مقابلة محمد ﷺ ومفاوضته على مقدار المال الذي يريده، وعلى المناصب التي يرغب في تقلُّدها.. ولكنْ من يذهب إليه من طغمة قريش التي تجتمع وتفكّر، وتدبِّر على هواها، وكيفما يحلو لها؟ إن أحداً من تلك الطغمة لا يجرؤ على الوقوف في مواجهة محمد ﷺ ـ وجهاً لوجه ـ حتى ينقل إليه ما يريدون. فقد كانوا يدركون ما للنبي ﷺ من هيبة ووقار، وما يمتلك من سطوة عليهم بفعل نزاهة حياته، وخلقه العظيم، فإن جاءه أحد يفاتحه في الأمر فقد يردُّه خاسراً خاسئاً، فتفسد الخطة التي دبّروها، وتبقى الدعوة الإسلامية على حالها. وهكذا وبسبب الجبن الذي يسيطر عادة على ذوي المطالب الدنيئة، لم يجرؤ أحد من زعماء قريش أن يرضى بالذهاب إلى محمد بن عبد الله، فظلَّت اجتماعاتهم تتوالى، وعنوانها التصايح والتشاتم، لولا أن النضرَ بن الحارث أدرك هذا الوضع، واقترح أن يكون عتبة بن ربيعة سفيرهم إلى «محمد» لما له من حكمة ورأي لا يدانيه فيهما أحد من الحضور.. وارتفعت الأصوات في الاجتماع

الذي كانوا يعقدونه مؤيدة النضر، مما فرض على عتبة أن ينزل عند رغبتهم، ويتحمَّل مشقة السفارة لمفاوضة «محمد» على الأمر الذي اعتزموه.

ودخل عتبة بن ربيعة على النبي ﷺ متردداً، ثم جلس والارتباك بادٍ عليه، إلى أن تجرَّأ أخيراً، وأفصح عما جاء لأجله، وهو يقول: «يا ابن أخي، إنك منّا حيث قد علمتَ من الشرف في العشيرة، والمكان في النسب. وإنك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينَهم، وكفّرت به مَن مضى مِن آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها»[1].

فقال الرسول ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع».

قال عتبة: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تُريدُ به مُلكاً ملَّكناك علينا. وإن كان هذا الذي يأتيكَ رِئْياً[2] تراه ولا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نبْرئك منه».

ومرَّت لحظات حاسمة كان يتوقف عليها ليس مصير السفارة بين قريش والنبي ﷺ وحسب، بل ومصير الحق والباطل إلى أبد الدهور.. فلئن كانت العروض التي تريد قريش أن تُغدقها عليه كبيرة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣١٣.

(٢) الرّئْي: ما يتراءى للإنسان من الجن. أو هو: المسّ.

جداً ـ وقد لا يأنف إنسانٌ من قبولها ـ إلَّا أن محمداً ﷺ وهو مبعوث الحق قد رفضها بكل أناة وتؤدة، ودونما أية مجاملة أو تفكير، فما قاله كان القول الفصل، وهو لا يختار على الدعوة الإسلامية شيئاً. فما محمد إلَّا رسول قد خلت من قبله الرسُل، وهو أمين على الرسالة التي يحمل، وكفؤ لها، وهو لن يدع أمرَها حتى يقضيَ الله ـ تعالى ـ أمراً كان مفعولًا.. ولذلك نجده مشفقاً على بني قومه من ظلم الشرك الذي يُغرقون به أنفسهم، فلا يخاطب عتبة إلا بالقول الحق، وهو يتلو عليه قول الله تعالى من سورة السجدة:

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ
يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن
قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ
مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ
جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ
وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا
ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞ قُلۡ
يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ۝١١ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ
صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ

ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(١).

وما إن انتهى رسول الله ﷺ من هذه التلاوة المباركة حتى خرَّ ساجداً على يديه وركبتيه، وهو يُثني على الله تعالى ويحمده. ثم قام من سجوده يسبّح بحمد ربه ـ عز وجلّ ـ ويشكره على أنعمه وفضائله على عباده، وهو في ذلك كلِّه يتناسق في القول والفعل مع القرآن، ومع فضلِ ربه (تبارك وتعالى)، الذي يعيش في ذاته، وفي كل جارحةٍ من جوارحه، فيحيا بذكر الله تعالى حامداً، شاكراً، عزيزاً، كريماً..

وكان عتبة بن ربيعة يستمع ويصغي، فيَعي.. حتى إذا أنصت إلى قوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إذا بالقشعريرة تتملكه، والرعدة تأخذ بمجامع كيانه، فيهتزُّ من الخوف والرهبة مثل الطائر المبلَّل.. ولم ينتشله من تلك الحالة التي سيطرت عليه إلَّا تهدئة الرسول له، ليعود ويسأله عمَّا إذا كانتِ التلاوة واضحة المعاني والدلائل. فأومأ بالإيجاب، من دون أن ينبس ببنت شفة!... عندها تركه رسول الله ﷺ لنفسه كي يقرر ويختار بين الباطل الذي جاء يعرضه، وبين الحق الذي انتصب يقابله، وهو الحق من ربه الذي سوّاه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، هو ومن أوفدوه إليه، فلعلّهم يميّزون هذه العطايا العظيمة من خالقهم،

(١) سورة السجدة، الآيات: ١ ـ ١٥.

فيعودون إلى أنفسهم ويقررون على ضوئها الموقفَ الصواب.

وأُرتجَ[1] على عتبة، فآثر البقاء على صمته، لأنه عاجز عما يجيب، وهو يشعر في قرارة نفسه بتفاهة ما جاء يعرض على «محمد» إزاء ما أسمعَهُ، وأبانَهُ له، ووعظَهُ به.

واستعجل عتبةُ خطاه وهو لا يدري ممّ يهرب: هل من هذا النبيِّ الذي لم يأتِ لا من قريبٍ ولا من بعيد على ذكر المال أو المُلك أو الجاه وتلك العروض السخيفة التي جاء بها إليه؟! أم أنه يهرب من الحق الذي جابهه به فأخرسه؟!. أم أنه يهرب من نفسه الأَمّارة بالسوء، التي أوكله إليها «محمد» فانتصبت تصدّهُ عن الحق، وتجعله ـ على الرغم من الخوف الذي اعتراها ـ لا يتناول يَدَيِ الرسول ﷺ ويعلن إسلامه؟!.

إنه لا يدري فعلًا، ولكنه يستحث الخطى إلى جماعته التي تنتظره على أحرّ من الجمر، فقد يكون في وصوله إليهم ما يُزيح عن صدره هذا الهلعَ، الذي يكادُ يُرديه، ويذهب به إلى الموت.

وما إن دخل عليهم، وهو على تلك الحالة، حتى قالوا لبعضهم بعضاً: لقد عاد أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به... أما هو فقد ارتمى في مقعده خائر القوى، مشيراً ألَّا يستعجلوه، لكي يتمكن من التقاط أنفاسه، قبل أن يخبرهم بما جرى معه... وإنْ هي إلَّا لحظات، وهدأ الرجل، فانبرى يقول لهم:

ـ يا معشر قريش! لقد حمَّلتموني فوق ما أطيق. أما والله لقد

(١) أرتج: أي أُغلق عليه الفهم وصعب عليه الجواب.

سمعت قولًا ما سمعت مثله قطُّ.. يا معشر قريش! أطيعوني، واجعلوها لي.

وظنَّ الملأُ أن عتبة قد خرج على إجماعهم، فراحوا يرشقونه بنظرات حائرة، إلَّا أنه قطع عليهم كل الظنون، بما قد تتهمه به عيونهم وهو يقول لهم:

ـ يا معشر قريش! خلوا بين هذا الرجل، وما هو فيه، واعتزلوه. فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت نبأٌ عظيم. فإنْ تُصبْهُ العربُ فقد كُفِيتُموهُ بغيركم، وإنْ يظهرْ على العرب فملكُهُ مُلكُكُمْ، وعزُّهُ عزُّكُم، وكنتم أسعدَ الناس به.

لقد أراد عتبة بن ربيعة أن يكون نَصوحاً، إلَّا أنهم جفلوا مما يقول، ورأوا فيه نوعاً من الهذيان استبدَّ به، فقالوا له:

ـ لقد سحرك يا أبا الوليد بلسانه!..

ولم يكن أمام عتبة إلَّا أن يقول:

ـ والله ما هو بالسحر ولا بالكهانة. ولكنه رأيٌ رأيتُهُ فاصنعوا ما بدا لكم.

وتفرق المشركون وقد سُقط في أيديهم[1].. فهذا عتبة بن ربيعة، أحد كبراء قريش وسادتها لم يفشل في إقناع «محمد» وحسب، بل عاد إلى أترابه يحاول إقناعهم بعدم التعرض له، لأنه سيكون له نبأ فيه عِزّهُ وعزُّهم... فما هو أمر محمد بن عبد الله؟

---

(١) سُقط في أيديهم أو أسقط في أيديهم: تحيّروا.

هذا ما كان يشغل ـ دائماً ـ بالَ جماعة الكفر، وها هو يتأكَّد لهم من جديد.. فيذهب كل واحدٍ منهم إلى بيته مهموماً، ورفيقه القلق، لينزويَ في عزلةٍ محمومة من التأفف والتذمّر مما لاقاه في يومه، ومما قد يكون عليه في غده؟!..

وما كادت تلك الليلة تنقضي حتى عاد رؤساء الكفر للاجتماع على غَيِّهم من جديد، وقد رأوا أن يكون اجتماعهم عند الكعبة، حتى يلتقي جمعُهم بمحمدٍ ﷺ، فبعثوا قائلين: إليه إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك، فائتِ إليهم..

وكان أحبَّ شيءٍ على قلب النبي ﷺ أن يجتمع بأهل مكة، وزعماء العشائرِ ـ بخاصة ـ حتى يبيّن لهم خطَلَ الرأي الذي يركبون، ويدنيهم من الحق الذي عنه يبعدون. ولذا جاء ملبياً دعوتهم وفي نفسه أمل بكسر شوكة العداوة بينه وبينهم، إلَّا أنه وجدهم ـ ويا للأسف ـ ما يزالون على الضلال، وعلى الموقف عينِه، وهو إغراؤه بالمال والسلطان بديلًا عن النبوّة. وقد انبروا يردِّدون على مسامعه نفس الكلام الذي سمعه من عتبة بن ربيعة البارحةَ تماماً، وكأنَّ ما نقله إليهم رجُلُهم عنه، وعن قرآنه، كان أبعد ما يكون عن تفكيرهم، ومطامعهم الفارغة في هذه الحياة الدنيا..

لقد جلسوا قبالتَهُ جميعُهم، ينمّقون ألفاظهم بمعسول الكلام حيناً، وبالوعيد المبطَّن حيناً، وهم لا يدركون أنَّ كل ما يقولون حجةٌ عليهم.. فقد كانت الشكاية منه وعليه ﷺ،.. فيا لهم من عُتاةٍ ظالمين، ماكرين، يريدون أن يخادعوا رسول الله ﷺ بإظهار المحبة له، وتسييده عليهم، وما يخدعون إلَّا أنفسهم.. ويحاولون

أن يتملَّقوه بالملك والسلطان، أو بالشفاء مما أصابَهُ، أو بالتأسف على ضياع قريش ومكانتها، حتى إذا وجدوه على صدق ثباته، وأحقية دعوته، لا يجدون مفراً من الإشارة والتلميح له بالعداوة والبغضاء!..

أجل، لقد حاولوا بشتى أساليب الدهاء والمراوغة أن يثنوا «محمداً» عن أمره، وهو ﷺ لهم بالمرصاد، لا تفوته كلمةٌ مما يقولون، ولا نيّة مما يبيّتون.. فلما أراد الردَّ عليهم كان أول ما بادر به دفْعَ التهمة الظالمة الغاشمة التي يحاولون إلصاقها به، وهي ما يعتريه من مسٍّ ـ لا سمح الله ـ فجاء جوابه بسيطاً، هادئاً، رصيناً، إذ لم يزد على أن قال ﷺ: «ما بي ما تقولون!».

كان قولُهُ ينضح بالصدق الصراح، لأنه لا ينفي عنه تهمةً باطلةً وحسب، وبل ويَجْبَهُ ادعاءهم الجائر ويصمهم بأنهم كذبةٌ، ظالمون، مخادعون، بينما هو بالمقابل الصادق الأمين الذي يعرفونه حق المعرفة..

«ما بي ما تقولون».

هي كلمة قالها رسول الله ﷺ.. ولئن كانت هي الكلمة التي تخزيهم، وترفع الحيفَ الذي يريدون إنزاله به خداعاً ونفاقاً، إلا أنها في موازين الحق، الكلمةُ التي تثبت لهم، ولكل الناس، بأن محمداً هو لنبيُّ الله ورسولُهُ، ولا يمكن لنبي أو رسول، مبعوث من رب العالمين، إلَّا أن يكون طاهراً، مطهَّراً من جميع الأدران، ومعصوماً من جميع العوارض التي تصيب بني البشر، وتجعلهم يخطئون، وبذلك لا يمكن أن يكون لدى «محمد» مسّ من الجنون.. إذن، فهو

الكفر القبيح بعينه من هؤلاء المعاندين، المستكبرين والتعدي على قدسية الرسالة التي يحملها من لدن العليم الحكيم، فويلٌ لهم مما يظنون، وويلٌ لهم مما يُبيِّتون!..

هي كلمة قالها رسول الله ﷺ «ما بي ما تقولون»!.. وهي وإن كانت في موقعها، وعلى أحقّيتها، إلَّا أنها أيضاً الحجة البالغة التي يلقيها عليهم، وهي أن الله تبارك وتعالى يضع رسالته حيث يشاء، وقد اختار محمداً لمَا وصل إليه من صفات الكمال، ليكون رسولهُ الأمين المبين، فكيف يتهمونه بما لا يقبل عقل أو ضمير؟! بل كيف تطاوعهم قلوبهم على مثل ذلك الاتهام ـ الباطل ـ وهو يؤكد لهم أنه في دعوته لهم للدخول في الإسلام لا يريد إلَّا وجهَ الله تبارك وتعالى، وحرصه على هديهم إلى هذا الدين القويم. وهو ينذرهم بقوله ﷺ: «ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم. ولكن الله بعثني ـ تعالى ـ إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1].

إن الرسول ﷺ يبلِّغ عن أمر ربه.. ولكن، هل بين تلك الجماعة من قريش ـ التي اجتمعت على الكيد له ـ من يريد أن يسمعَ، أو يدرك ما يبلّغ؟ لا! بل ووصلت بهم السخافة إلى أن يسفّوا إلى حدٍّ يثير الاستغراب!.. إذ على الرغم مما قاله لهم، ظلوا على الوتيرة نفسها يريدون مبادلة عروضهم بالنبوّة، بل ويلحّون في

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣١٦.

مفاوضته على أن يقايضوا بدين الله، دينَ الوثنية والجاهلية. ألا إنهم جاهلون حقاً!..

طلب قريش المعجزات الحسيّة[1]

لقد تعامت قريش عن الحق الذي يدعوها إليه النبيُّ ﷺ، وأصرَّ زعماؤها المشركون على عدم ترك دينهم ودين آبائهم ـ ومتى يا ترى كان الكفر أو الشِّركُ ـ في ميزان الحق ـ ديناً للعباد ـ إلَّا عند مَن باعوا دينهم بدنياهم؟! فها هم أولئك المفسدون، ولمَّا لم يجدوا إلَّا خيبةَ الأمل مما راودتهم به نفوسهم الشريرة ـ من إغواء سيد الخلق محمد ﷺ وصرفه عن دعوته ـ فقد عمدوا إلى المكيدة التي كانوا دبروها، والمؤامرة التي أحكموا فصولها بدقة متناهية، وهي في ظنهم الضربة القاضية التي لن تدعَ أي مجال له كي يفلت من أيديهم.

وأما تلك المؤامرة الدنيئة فكانت ترمي إلى إيقاعه في العجز، وإظهاره بالثوب البشري الذي لا يقدر على شيء مما يريدون. وذلك بأن يطالبوه الإتيان بمعجزات حسية تثبت أنه نبيٌّ مرسل وإلَّا فلا شأن له في ما يدَّعيه، وبذلك يستحق ما يمنّون به أنفسهم، ويكون سبيلًا للخلاص منه إلى الأبد، لأن الناس سوف ترى، وتسمع بعجزه، فلا يعود أحد يكترث لأمره..

وكانت خطتهم في تنفيذ المؤامرة تقوم على توزيع الأدوار فيما بينهم، بحيث يسأله من يريد أن يسأل، ويطلب منه من يريد أن يطلب، ويهدد من يرغب أن يهدده، وكلهم على اتفاق حول ما

---

(١) المعجزات الحسية: أي المحسوسة التي تقع عليها إحدى الحواس الخمس. وسمّيتْ واقعاً لأنها تقع تحت طائلة الحس.

يطرحون ويعلنون.. وقام أحدهم يصرخ بأعلى صوته:

ـ يا محمد! لقد أفسدت كل أمر بيننا وبينك، ولم يبق أمامنا إلا أن نقتلكَ، ونخلّصَ مكة والعرب من شرِّك.

وأجاب الرسول ﷺ محتسباً: حسبيَ الله ونعم الوكيل..

وانبرى رجلٌ منهم يُتقنُ المكر والخداع، منتهراً ذاك الرجلَ الذي يهدّدُهُ بالقتل، ثم توجَّه إلى المجتمعين بقوله:

ـ لا يا قوم! إن «محمداً» منا حيث تعلمون، ولا أحد منا يُضمر له شرّاً أو عداوة أو بغضاء، ولكننا نريد أن نُحاجَّهُ في أمره، فإن أصدقنا القولَ، وأقنعنا بهذا الأمر الذي يدعو إليه، اتّبعناه، وكان لنا فيه العزة والشرف.

وكانت تلك هي المقدمة للخبث الذي بيّتوه، وبعدها راحت تلك الفئة من شياطين قريش تتبارى في طلب المعجزات، فقال قائل:

ـ يا محمد! ليس أحدٌ أضيقَ بلداً منا، ولن نؤمن لك إلَّا إذا سألت ربك أن يسيّر هذه الجبال من حولنا، ويبسط لنا في أرضنا، ويُجريَ لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام، ويبدل لنا هذه الصحراء القاحلة من حولنا بجنات وقصور، وكنوز من ذهب وفضة.

وأردف آخر قائلًا:

ـ واسأل ربك يا محمد أن يحييَ لنا مَنْ مات من آبائنا، وليكن بينهم قصيّ بن كلاب، فإنه كان شيخَ صدق. فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن بُعثوا وصدّقوك، صدقناك نحن وعرفنا منزلتك عند الله.

ورانت فترة من الصمت، والكل يتطلعون إلى ما يجيب به

«محمد»... فما كان منه ﷺ إلَّا أن أظهرَ لهم حقيقةَ ما بعثَهُ ربُّهُ تعالى به، وطلب إليهم أن يقبلوه لخيرهم، وإلَّا فالحكْم بينه وبينهم لله تعالى، وذلك بقوله ﷺ: «ما بهذا بعثتُ إليكم.. إنما جئتكم من الله ربي بالهدى، ودين الحق، وقد بلَّغتكم ما بعثت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبرْ لأمر الله تعالى حتى يحكم بيني وبينكم».

فالرسول ﷺ، وبالأمانة التي يحمل، يصبّر نفسه على ابتلائه بهم، ويترك لله مولاه أن يحكم بينه وبينهم.

عندها صرخ أحدهم ساخراً:

ـ نعلم أنك لن تأتي بما طلبه منك القوم.. وإنا معشرَ قريش لواثقون من عجزك!.. ولكن لِمَ لا تسألُ ربك أن يُنزل علينا العذاب من السماء كما تزعم، أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا؟.

فيا ويلهم!. ماذا يطلبون؟

إنهم يطلبون أن ينزل عليهم العذابُ من السماء قِطعاً كبيرة متراكمة، أو أن ينزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من عليائه ومعه الملائكة حتى يروهم أمامهم ويشاهدوهم بالعين المجرَّدة.

أجل هذا ما يطلبون!.. نستغفر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونعوذُ به من هؤلاء الأشرار، فما أجرأهم قولًا على الله ورسوله؟! أتُرى هو الجهل الذي ران على عقولهم، أم هو الضلال الذي أعمى قلوبهم، فجعلهم على تلك الرعونة من الاستكبار والصلافة؟ ألا يدرون بأن العذاب واقع بالمشركين لا محالة، ولكنَّ تقديره يعود إلى الله العزيز القادر المقتدر، فهو ـ سبحانه ـ إن يشأ يُعذبْهم في هذه الحياة الدنيا، وإن

يشأ يُعذبْهم في الآخرة؟!... فالأمر كله بيد الله عز وجلَّ، وقد أهلَكَ سبحانه وتعالى غيرهم كثيراً من الأمم الغابرة أمثال قوم نوحٍ وعادٍ وثمود ومدين ولوط.. إلَّا أن حكمة الله تعالى البالغة قد قضتْ بأن يبعثَ محمداً ﷺ رحمةً للعالمين بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، والتي يبيّنها لهم رسول الله ﷺ نفسه بقوله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»[2]، فلولا حقدهم على «محمد» لكانوا أدركوا معنى تلك الرحمة وأن وجوده بينهم هو الذي يمنع عنهم العذاب المهلك المدمر.. أجل لو أدركوا ذلك لكانوا سعَوْا إليه طائعين، معتذرين، نادمين.. ولكن المكابرة، هي التي كانت تحول بينهم وبين الاهتداء إلى الحقيقة، فوقعوا في الغي والضلال، وفي التطاول على العزة الإلهية..

وبتلك الجاهلية الحمقاء استمرت تلك الجماعة من قريش في مباراة التعجيز التي تخوضها ضد النبي ﷺ، فقام أحدهم يقول:

لماذا لا ينزل على «محمد» مَلَكٌ يشهد بنبوّته، ونحن ههنا قاعدون؟.

أجل، وبدون دراية بالعواقب يطلبون أن ينزل على الرسول ﷺ ملك من السماء يدعو معه ويصدقه. ولكن سنة الله تعالى قد قضت بأن الملائكة حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم، إنما ينزلون لتحقيق أمر الله تعالى فيهم بالهلاك الساحق، فهي إذن الجهالة الجهلاء من شياطين قريش، فوق ما تحمل من الحماقة والكفر..

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) متفق عليه.

وكأنْ لم يكْفِهم كلُّ ذلك الذي طلبوه، وكلُّ ما أبدوه من عنتٍ وجهالةٍ، فانتصب أحدهم ممعناً في السفاهة وهو يقول:

ـ يا «محمد»! ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فتشتري به وتربح؟ وبالأرض التي تجدب فترحل عنها إلى أرض مخصبة؟ ولم لا يكون لك بيت من زخرف فلا تلتمس بعد ذلك المعاش مثلنا؟. أَوَ لست تقول بأنك نبيٌّ، والأنبياء يجب أن تكون لهم منزلة تمنعهم من تعاطي الأعمال كما يفعل سائر الناس؟

وبماذا كان على الرسول ﷺ أن يجيب غير أنه بشر، وأنه يسعى إلى كسب معاشه ومعاش عياله بعرق جبينه، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلَّا ما شاء الله تعالى.. فهذه سنّة الله في خلقه، والأنبياء هم خلْق الله، تسري عليهم السنن والنواميس الإلهية بلا فرق ولا تمييز. إنهم بشرٌ ومحمد ﷺ واحد منهم. وقد شاء ربُّ العالمين أن يجتبيه ويصطفيه لحمل رسالته الأخيرة إلى الناس، فبعثه بشيراً ونذيراً لقوم يؤمنون.. فهو إذن لا يعلم ما يبسط له ربُّه من الرزق وما يقْدر، لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير ولما مسَّه السوء بشيء.. وهو لا يملك أن يختار عاقبة فعله بحيث إن رأى العاقبة المغيبة خيراً أقدم، وإن رآها سوءاً أحجم، إنما هو يعمل، والعاقبة تجيء كما قدَّر له الله ـ تعالى ـ في غيبه المكنون.. وهذا كله نقيض ما يفكّر به أو يطلبه هؤلاء القرشيون. إنهم لا يدركون أن الرسول بشرٌ مثلهم، ومثل سائر الناس، غير أنه يتلقى أمْر ربه ليبلِّغه، فيكون بشيراً ونذيراً لقوم يؤمنون، وبالتالي فإنه لا يمكنه أن يخرقَ السنن التي صنعها الله تعالى، إلا ما شاء الله أن يجعله معجزةً للناس، حتى يكون في خرق السنن ـ

أي في تلك المعجزات ـ ما هو في صالح الدعوة التي يحمل، والرسالة التي يبلِّغ..

وما كاد الرسول ﷺ يبيّن حقيقة بشريَّتِهِ، وأنه يعيش كما يعيش غيره من بني البشر، إلَّا ما اختصّ بالرسالة التي نُدب لحملها، وبُعث لأجلها، حتى اشرأبت عنق رجل آخر من المشركين، وهو يقول له:

ـ يا «محمد»! لقد بلغنا أنه يُعلّمك هذا الذي تقوله لنا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا لا نؤمن بالرحمن أبداً، وقد أعذرنا إليك، وإنا والله ما نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكَك أو تهلكَنا.

إنه افتراء جديد من المشركين على الله ورسوله، إذ كيف يتهمون الرسول ﷺ بأن ما يقوله لهم إنما يعلّمه إياه رجل من اليمامة، بينما آيات القرآن البيِّنات التي يتلوها عليهم تدحض بلفظها وبلاغتها كل ادعاء مثل ادعائهم.. ثم ما هذه السفاهة وهم يعلنون أنهم يكفرون بالرحمن.. ألا يعلمون أنه سبحانه هو الرحمن الرحيم، وقد وسعت رحمتُهُ كل شيء، ولولا هذه الرحمة الربانية التي تطالهم من جملة العباد لكان الويل قد حلَّ بهم منذ زمن بعيد وذهبوا إلى جهنم وبئس المصير؟! ولذلك كان جواب الرسول ﷺ ناصعاً نقيّاً يبيّن حقيقة الرحمن، وأنه هو ربُّه لا إله إلا هو، وربُّ السماوات والأرض وما بينهنَّ، وأنه على ربه يتوكل في كل أمر وفي كل شأن، وأن إليه مآبه، ومرجعه في النهاية، مثل كل خلق الله..

وظنَّتْ تلك الجماعة من قريش أنه أرتجّ[1] على محمد ﷺ.. وأنَّه لم يعد قادراً على أن يجيبهم بشيء، ولذلك راح يتذرع بأنه يتوكل

(١) أرتجّ عليه: استغلق عليه فهمه أو حار في أمره.

على ربه، ويفوض أمره إليه، وذلك في اعتقادهم ليس إلَّا هرباً من الردّ عليهم.. وبمثل هذا الوهم الكاذب، أخذتهم العزّة بالإثم، فقال بعضهم:

ـ إن كان محمد يعبد الرحمن ويدعونا لعبادته، فإن الملائكة بناتُ الله وهم أحقُّ بالعبادة، ولو شاء الرحمن ما عبدناهم..

وإن مثل هذا الضلال الذي ركب عقولهم فساروا عليه لا يحيدون عنه، يبيّنه القرآن الكريم بقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾(١).

ولم يكتف شياطين قريش بكل ذلك بل إنَّ من المعجزات والخوارق التي ألحوا عليها: أن يرقى في السماء!.. ولن يؤمنوا لرقيّه حتى يأتي بكتابٍ يقرأونه!.. ويبيّن القرآن الكريم هذا الطلب المعجز كما يبيّن موقف الرسول ﷺ منه، ومن كل ما طلبوه، وذلك بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٩ ـ ٢٤.

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1].

بل ويؤكد ربّ العزة والجلال أنه لو نزّل على رسوله كتاباً في قرطاس[2] ولمسوه بأيديهم لقالوا: هذا سحر مبين، كما ورد في التنزيل الحكيم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3]. فتصوّر ما يُبطنه أولئك الكفَرة الفجَرة، وكيف يكيدون للرسول ﷺ، فهم يطلبون أن ينزِّل عليهم كتاباً مكتوباً على رقٍّ، ويكون فيه تصديقه على أنه نبيٌّ.. ولكن ولو نزَّل الله (تعالى) عليهم كتاباً فلمسوه بأيديهم (والملامسة فيها تأكيد وإثبات للشيء، وأبلغ من المعاينة والمشاهدة، وأنفى للشك) لما صدَّقوا، ولقالوا: إنَّ ما نلمس بأيدينا ونقرأ بأعيننا هو سحر ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[4].

هكذا كانت حلبة الصراع التي أرادت قريش أن تصرفَ فيها «محمداً» ﷺ عن دعوته!.. ولكنها في الحقيقة كانت مواجهة بين الرسول الذي آمن بالله وملائكته وكتُبه ورسله، وبين الكفار والمشركين الذين لا يؤمنون إلا بالأصنام والأوثان. فقد أرادوا أن يعجزوا رسول الله ﷺ حتى ينفوا عنه النبوّة والرسالة، ويتخلّصوا منه ومن دعوته، فاستعملوا كل أسلحة التعجيز وطلبوا الخوارق، إلَّا أنه ﷺ تصدّى لهم بالآيات القرآنية التي كان يتلوها عليهم فتصفع وجوههم،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٢) القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧.

وتخرس ألسنتهم.. ولكن من غير أن يرعووا، أو يهتدوا إلى الحق المبين..

ولقد بدا واضحاً للرسول ﷺ، منذ الوهلة الأولى، أنه ما مِنْ أحد في تلك الجماعة يَنُمُّ قوله أو طلبه عن عقل أو رشد، أو عن فائدة تُرجى منهم، ولذلك قرر بعد جدال ونقاش طويلين أن يتركهم، وينصرف عنهم إلى حيث يدعوه الواجب المقدس في متابعة أمر الدعوة. لعلَّ الله تعالى يهدي على يديه من هو أحق بالهداية من أولئك القوم المشركين.. ولكنه ما إن قام يهمُّ بالذهاب حتى اعترضَهُ عبد الله ابن أبي أمية بن المغيرة المخزومي (وكان ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب) قائلًا له:

ـ أتدري يا محمد! لقد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم. ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك، ويتبعوك فلم تفعل. ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل. ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب فلم تفعل. فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سلّماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم يأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأيمُ الله، لو فعلتَ ما ظننت أني أصدقك[1]!.

لقد كانت نيات هؤلاء القوم لا تخفى على النبي ﷺ، ولكن أحدَ أبالستهم يُفصح عنها علناً، وبكل لؤم واستكبار. فما كانوا يطلبون المعجزات لكي يؤمنوا، ولكن لشيء واحد، وهو إحراج «محمد»

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣١٨.

وإظهار عجزه على الناس. وكفى بذلك الإبليس ـ عبد الله بن أبي أمية المخزومي ـ شرّاً أنه هو الذي انبرى من بين تلك الطغمة الباغية ليعلن عن نياتها الخبيثة التي كانت تبيّتها للإيقاع برسول الله ﷺ . . . فقد بدا واضحاً في كلامه أنه لو رأى الرسول بأم العين يصعد إلى السماء، ثم يأتي ومعه جمع من الملائكة يصدقونه بأمر نبوته ورسالته، فإنه لن يصدقه أبداً!. . ومثلُهُ ـ حتماً ـ كل تلك الجماعة التي سعت لإظهارِ عجزِ النبي ﷺ، ومعها من سار سيرتها، ودار في فلك شرْكها وجاهليتها. . . وإذا كانت تلك حال زعماء قريش المعتدين، فما على الرسول إلا البلاغ المبين. . وقد أبلغ وأنذر، وإنما هو ينذر من اتبع الذِّكر وخشي الرحمن بالغيب، وهؤلاء لا ينفع معهم ذِكر، ولا يخشون الرحمن، بل إنهم ليكفرون بالرحمن. . فقد تبين أنه كلَّما زادهم رسول الله تذكيراً، أمعنوا غلوّاً ومكابرة في طلب المعجزات والخوارق، ولو شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأتى بها، وأنزل بالمشركين من جرائها العذاب الأليم. ولكنه شاء ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُمهل المعاندين لكي تتوضّح معالم الإسلام الجديد التي قوامها الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، ولطفه بعباده، ورحمته بخلائقه، والإيمان بجميع النبيين والمرسلين الذين بُعثوا ليُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن ثمَّ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فعليها.

أجل إن إيصال الإسلام إلى الناس، بمفاهيمه الجديدة هو أهمُّ وأبعدُ أثراً على مسار البشرية، من تأثيره على زمرةٍ من قريش ما تزال ترفض هذا الدين. . ولذلك كانت القناعة راسخة في نفس الرسول ﷺ الزكية، بأنَّ تغيير زمان الكفر والشِّرك يحتاج إلى جهود مضنية، وصبر طويل على الأباطيل التي يقذفها أهل الباطل في وجه

الدعاة للصلاح والفلاح.. وإذا كان كفار قريش قد حبكوا مكيدتهم في طلب المعجزات والخوارق[1]، فإنَّ الأمرَ لله تعالى، إذ إليه ـ سبحانه ـ يرجع التقدير في خرق النواميس، وإتيان المعجزات بحسب ما تقتضي حكمتُه السنيّة.. فالدعوات التي حملها الأنبياء والمرسلون فيما سبق تأيدت بالمعجزات والخوارق التي كانت تتوافق مع زمان كل نبي وأوضاع البيئة التي كان يعيش فيها، ولذلك مكّن الله العزيز الحكيم لنبيّه موسى عليه السلام أن يُعجز أساطين السحر الذي كان يسيطر في زمانه على العقول والنفوس، ويؤثر في الناس ومجرى حياتهم. وأذن للسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام أن يُحيي الموتى، ويشفي الأبرص والأكْمَهَ، بسبب ظهور الطب في أيامه ظهوراً عجيباً. كما أجاب دعوتَهُ وأنزل عليه مائدة من السماء لتثبيت الإيمان في نفوس تلامذته حتى يكون هذا الإيمان سلاحهم في حمل تعاليم الإنجيل بصدق وإخلاص.. وطمأَنَ ـ سبحانَه ـ قلب أبي الأنبياء إبراهيم صلى الله عليه وآله وسلم إلى أحقية البعث والنشور عندما أمره أن يذبح أربعةً من الطير، ويقطع أبدانها إلى أجزاء متفرقة، ثم يوزعها على الجبال من حوله، فلما فعلَ ودعاهنَّ إليه، عادت الطيور بأشكالها التامة حيّة تطير، وترفرف فوق رأس إبراهيم عليه السلام وبين يديه[2]. وأكَّدَ ـ عز وجلَّ ـ قدرتَهُ على إحياء الموتى، والبعث، ـ الذي ينكره المشركون ـ عندما مرَّ عزيرٌ على قرية خاويةٍ مدمَّرة ـ هي بيت المقدس ـ فقال: كيف يُحيي الله هذه بعد موتها؟ فأماته الله ـ تعالى ـ مائة عام ثم أحياه وقال له: كم لبثت؟ قال

---

(١) المعجزة أو الخارقة: معناها الخروج على المألوف، أو المعهود من الأمور حتى يأتي الفعل وكأنه خارق للطبيعة..

(٢) انظر معجزة الطيور في الآية ٢٦٠ من سورة البقرة.

يوماً أو بعض يوم. قال: بل لبثت مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه (لم يتغيّر، ولم يفسد)، وانظر إلى حمارك ميتاً وعظامهُ نخرة، ثم انظر كيف نعيد تركيبها ونكسوها لحماً؟.. فلما قام الحمارُ ونهق، قال حينئذٍ عزيرٌ: أعلم أن الله على كل شيء قدير[1]..

فتلك المعجزات وما فيها من خرق للنواميس والسنن، قد جعلها الله العلي القدير لوقتها وزمانها، على الرغم من أنها كانت تحمل من المدلولات والعظات ما يبقى على الزمان. أما النبي محمد ﷺ فقد جعل له الخبير العليم معجزة حسية في زمانه، وهي معجزة الإسراء والمعراج التي أثبتها القرآن الكريم، كما أثبت غيرها من معجزات الأنبياء والمرسلين ـ وقد تقدم ذكرها بإيجاز ـ. ولكن ـ بالإضافة إلى معجزة الإسراء والمعراج ـ فقد شاء رب العالمين أن يجعل للنبي محمد ﷺ معجزة ثابتةً، دائمةً أبد الدهر، غير محصورةٍ بزمانه ومكانه، وغير مقصورة عليه وعلى أبناء عصره، بل تكون لكل زمان ومكان، وللناس، جميع الناس، بحيث تكون في متناول كل إنسان: يمكنه أن يلمسها بيديه، وينظر إليها بعينيه، ويقرأها بلسانه وشفتيه، ثم لتكون ذكرى وتذكِرةً لكل من ألقى السمع وهو شهيد.. وما هذه المعجزة الحسية الدائمة، إلَّا القرآن الكريم، كتاب الله (تعالى) الذي هو في متناول أيدينا، وأيدي علماء أهل الأرض الذين يقتبسون منه العلم والمعرفة والهداية والذي هو في متناول كلِّ إنسانٍ يطلبه. نقول عن هذا القرآن إنه معجزة لأنه يتحدَّى الإنس والجنَّ جميعاً أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وكان التحدي منذ

(١) انظر معجزة إحياء عزير في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة.

نزل هذا القرآن على قلب محمد ﷺ، وسيبقى قائماً إلى الأبد.

ومعجزة القرآن قد ظهرت لقريش، بل وللعرب جميعاً. وكان رسول الله ﷺ يتلو آيات هذا القرآن المبين على مسامع أهل الفصاحة والبلاغة، الذين نزل بلغتهم. وقد حاولوا بكل جهودهم أن يبدّلوا من آيات القرآن، أو يحرّفوا بعضاً من كلام الله تعالى، لكنهم وقعوا في اليأس والفشل، لأنهم قصَّروا عن ذلك وعجزوا عجزاً مطلقاً.. بل وتأكد لهم أنهم أمام المعجزة التي تقهر كيدهم، وتحبط تآمرهم، وما ذلك إلَّا لأنها نزلت من الحق، وبالحق ومن أجل الحق.. فلما تبيّن لهم ذلك العجز ولم يستطيعوا الخوض في معارضة القرآن، ارتدّوا إلى طلب المعجزات الحسية فكان جواب محمد ﷺ أن المعجزات الحسية التي نزلت على موسى عليه السلام (كالعصا وغيرها) وعلى عيسى عليه السلام (كإحياء الموتى وغيرها) إنما هي من عند الله، وما أنا إلا نذير مبين. وردّ اللّهُ سبحانه عليهم بقوله القاطع: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]. ويبقى القرآن الكريم هو المعجزة الحسيّة الدائمة التي يطّلع عليها الناس إلى يوم الدين.

بعثة قريش إلى أحبار اليهود

وظن كفار قريش أنهم قد أعجزوا النبي ﷺ فعلًا، لأنه لا يستطيع أن يأتيَ بشيء من المعجزات التي سألوها.. فذهبوا بعد نهارٍ طويل إلى بيوتهم ينامون قريري العين بهزيمة محمد بن عبد الله ـ كما

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.

غلب عليهم الوهم ـ ولكنها كانت بضعة أيام فقط، ووجدوا أن محمداً لم يرحل عن مكة، ولم ينزوِ في بيته ـ كما كانوا يتوقعون ـ بل استمرَّ على نهجه ودأبه، وأتباعُهُ من ورائه، في الدعوة إلى دين التوحيد، وتسفيه عبادة أهل الكفر والشِّرك.. وهذا ما أعادَ القلق إلى نفوس زعماء قريش الضالِّين، فراحوا يبحثون عما يصنعون!..

ولن يعدمَ مثلُ أولئك الأشرار وسيلةً أو حيلة لنصب مكائدهم، وإظهار حقدهم.. ولذلك أوفدت قريش اثنين من رؤوس أشرارها وهما: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، إلى أحبار اليهود في يثرب، لأنهم أهل كتاب، وقالت لهما: «سلاهم عن محمد، وصِفا لهم صفته، وأخبِراهم قوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم عِلم، ليس عندنا، من علم الأنبياء»[1].

والتقى مشركا قريش بأحبار اليهود في يثرب، وكان الجدال، الذي أعقبه خلوة تدارس فيها الأحبار الأمر حتى انتهوا إلى قرارهم، وهو أن تسأل قريش «محمداً» عن ثلاثٍ، فإن عرف خبرَها فهو نبيٌّ مرسل، وعندها على قريش أن تكتم الأمرَ عن الناس، وأن تتدبَّرَ حسم الموقف معه، لأنَّ في دعوته خطراً قد يستفحل، ويقوِّض كل ما لقريش من مكانة عند العرب!.

هكذا كانت الوصية المنكرة من أحبار اليهود إلى أهل الشرك والكفر.. وقد حملها النضرُ وعقبة، وراحا يغذّان السير على راحلتيهما إلى مكة، حتى إذا بلغا مشارفها، وجدا بانتظارهما جماعةً من رؤوس الحقد، وفي طليعتهم أبو سفيان، وأبو جهل، وأبو لهب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣٢١.

وغيرهم، ممن هم من ألدِّ أعداء الدعوة الإسلامية، وأكثرهم بغضاً لنبيّ هذه الدعوة، إذ لم يطيقوا الصبر على البقاء في بيوتهم، فخرجوا بعد أن قدّروا مجيء رجُليهما، يجمعون بعضهم بعضاً لكي يلاقوهما، ويطمئنوا منهما على الأخبار من اليهود. . .

وانعقد نادي قريش، فور بلوغ خبر الوصول، والكل يتحرّق لمعرفة أنباء الفرج. . . فراح النضرُ وعقبةُ يستفيضان في الحديث عما جرى معهما في رحلتهما إلى يثرب، حتى وصلا إلى الغاية التي يريدها المجتمعون، فقالا:

لقد أوصانا أحبار اليهود أن تسألوا «محمداً» عن ثلاث لا رابعة لها:

ـ عن فتية في الدهر الغابر وكان أمرهم عجباً. . .

ـ وعن رجل طاف في مشارق الأرض ومغاربها. . .

ـ وعن سر الروح[1]. . .

وكأنما نزلت هذه الأخبار عليهم رَوْحاً وريحاناً، فقالوا:

ـ هي المعجزات من الكتاب الذي يستظهر به علينا محمد، إنا نظن أنه لن يقوى على معرفتها. . وإنَّ لنا معه، من بعدها لشأناً!. .

وقرَّ رأيهم على دعوة «محمد» للاجتماع به عند الكعبة، وعلى الملأ من أهل مكة. فجاءهم، وسألوه أن يبين لهم أخبار الفتية، ورجل المشارق والمغارب، وأن يكشف لهم عن ماهيّة الروح؟ وتفكَّر بما طرحوه عليه، فاستمهل حتى الغداة، أو لبعض الوقت، لأنه لا يعلم من أخبار الماضي إلَّا ما ينبّئُهُ به ربُّه العليم الخبير.

---

(١) الروح لا يعرف ماهيتها وكنهها إلَّا الله سبحانه وتعالى.

ولم يوافق ردُّه هواهم، فراحوا يتصايحون وهم يتهمونه بشتى الاتهامات الباطلة، حتى وقف أحدهم أخيراً وقال:

ـ أجيبوا الرجل إلى ما يريد، فإنه يبدو عاجزاً مهموماً. ولعلَّه يريد أن يسأل ربَّهُ عمَّا سألتموه، فلِمَ لا ندعُ له الفرصة التي لن تُجديَهُ نفعاً؟!.

وتركهم رسول الله ﷺ وذهب كعادته للصلاة، والدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يبيّن له من آياته العظمى ما يُجلي تلك المسائل التي طرحوها عليه، فيقرّ في الأذهان أن الله سبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب والشهادة، وأنه لم يكُ لمحمدٍ، ولا لأحدٍ من الخلائق أن يعلم إلَّا ما يعلّمه إياه ربُّه، فما العلم أولًا وأخيراً إلَّا من عند الله عز جل، وهو صاحب الشأن، إن شاء ـ سبحانه ـ أعلَم نبيَّهُ أو منَعَ عنه.

ومضت عدة ليالٍ، ولم يتنزَّل الوحيُ على النبي ﷺ. وكان رجالٌ من قريش يصادفونَهُ في طوافه، أو في طرقات مكة، فيعترضون طريقه، ويسألونه عمَّا طلب القوم منه، فكان لا يردُّ، بل يؤثر الانصراف عنهم.

ولما ظنَّ المشركون أن التعجيز قد أصابَ أهدافَهُ، وأن هذه جولتهم الأخيرة مع محمد بن عبد الله انصرفوا إلى الدِّعة، وإلى طلب الملذات في الحانات تحت الرايات، كعادتهم كلما ظنوا أن النصر حليفهم.

ويظهر الفارق هنا بين نبيٍّ يقضي لياليَهُ في طاعة الله ربِّه، وفي طلب الرحمة والهداية للناس، بعيداً عن همومه الشخصية، وعن أي غاية لنفسه.. وبين تلك الطبقة الباغية من قريش التي كانت تمضي لياليها في أوكار الحانات، تحتسي من كؤوس الخمر ما يذهب بعقولها، وتصيب من المتع الرخيصة ما يأتي على آخر ذرة من كرامتها..

حفلة ساهرة مع رؤوس الشِّرك

هؤلاء ثلاثة من شيوخ عشيرة قريش: أبو سفيان، وأبو جهل، وأبو لهب، يلتقون على إحياء ليلةٍ ساهرة، احتفالًا بالغلَبة على «محمد»، فيذهبون إلى حانة يهودي ماكرٍ ـ اعتادوا ارتيادها ـ لأنه يعرف كيف يؤمِّن لزبائنه الخمور والجواري، وكيف يوفر لهم اللذائذ والمتع، وكيف يتحايل عليهم ليقنص أموالهم، كدأب بني اليهود في كل زمان ومكان.

ودخل رجالات قريش الثلاثة، فأقبل عليهم صاحب الخيمة (ذات الراية الحمراء) يرحب بقدومهم، هاشّاً، باشّاً. ثم يصرخ بإحدى الجاريات:

ـ أسرعي يا ابنة اللعينة، وهيِّئي الطنافس لأسيادِ قريشٍ، ثم هاتي الكؤوس النظيفة، وأنا أتكفّل بالخمور المعتّقة التي تدير الرؤوس، وتلذها النفوس.

وتهيأت أسباب اللذة أمام تلك الزعامات القرشية، فمال اليهودي المتبذِّل على أذن أبي جهل وهو يُسِرُّ له:

ـ لك عندي يا سيدي جاريةٌ جديدةٌ، آيةٌ في الروعة والجمال..

قال أبو جهل: وأين هي يا ابن شلومة؟ أنرغب في الكلام أم في الجمال!.

قال اليهودي: اصبر قليلًا، وسترى..

ثم أقبل على الآخريْن، يمنّيهما بالغواني الجميلات مثل صاحبهما، وانصرف ليتدبَّر أموره، ثم يعود إليهم.. فما كان من

أبي لهب إلَّا أن ابتلَعَ جرعةً كبيرةً من خمرته، وهو يقول لصاحبيه:

ـ كأنّا بهذا اليهودي الخسيس لا يبقي لنا مالًا ولا شرفاً.

فنظر أبو سفيان إليه نظرة احتقار، ثم التفت إلى أبي جهلٍ، وقال ساخراً:

ـ أرأيت يا أبا الحكَم هذه الرجاحة في العقل عند أحدٍ مثل صاحبنا أبي لهب؟

ثم خاطب أبا لهب قائلًا:

ـ عجيب أمرك يا هذا، وما تبدي في هذه الساعة، أم نسيت أنك بين خمرة ابن شلومة وجواريهِ، فكيف خطر ببالك الحديث عن المال والشرف؟ هيّا ودَعْ كل أمْر إلَّا اللذة والمدامة.

ويعقّب أبو جهل على رأي صاحبيْهِ فيقول:

ـ لا حاجة للإنكار يا أبا سفيان. فإن ما قاله أبو لهب هو عين الصواب.. وأنا أقسم باللات والعزّى أن هذا اليهودي لا يدفع لنا بجواريه إلَّا ليَسلُبْنَ منّا الألباب، ويُفرِغْن ما في الجيوب. وإننا نعرف ذلك تماماً، ولكن نحن به راضون، وبحلاوته مسرورون.

ولم يجد أبو سفيان بداً من أن يتخلَّص من الهزيمة التي ألحقها به أبو جهل فقال:

يا صاحبيَّ! إنها لمتعةٌ وقد نشأنا عليها، وإنها للذَّة تسري في دمائنا، فما لنا عن طلبهما من محيص[1].

وظلَّ هؤلاء الثلاثة يعبّون الخمرة، والغانيات بين أيديهم حتى

---

(١) محيص: مهرب.

ساعة متأخرة من الليل. . وعلى الرغم من أنَّ أبا سفيان كان قد سكر حتى الثمالة، إلَّا أنه رفع رأسه عن كتف غانيته، ثم تناول كأسَهُ بيده، وهو يقول متباهياً:

ـ أما إنكما لمعشر سوءٍ أيها الرجلان! لقد نسيتما أننا ما جئنا الليلة بالذات إلا لنحتفل بعودة الأمان إلى نفوسنا وديارنا، والاطمئنان إلى غدنا. والفضل في ذلك كان لأحبار اليهود الذين أمدّونا بالنصح لنتخلص من «محمد بن عبد الله»، فما رأيكما يا صاحبيَّ؟.

وكأنما ذكرُ «محمدٍ» أخرج أبا جهل من سكره، فانعكف[1] عن غانيته، ثم رفع كأسه وهو يقول:

ـ ما أطيب كلامك يا ابن عم! ولسوف تعلم العرب أننا نحن الأسياد في قريش، وأنَّه كان لنا الباع الأكبر في تأليب الناس على «محمد» والقضاء على دعوته!. .

ثم التفت أبو جهل إلى نديمه الآخر وهو يقول له متهكماً:

ـ ولكن ما بال أبي لهب لم يرفع كأسه ويُبدِ سروره، أم تُراهُ حزيناً على ابن أخيه مما سيحلُّ به؟!

فما كان من أبي لهب وهو يسمع ذلك إلَّا أن حمل كأسه، وشمخ بأنفه متغطرساً، ثم قال:

ـ ويْحكما من خبيثين! أتحسبانني أتخلى عن زعامة بني المطلب وفيَّ رمق من الحياة؟. أم نسيتما أنني أفنيت العمر وأنا أطلب هذه الزعامة وأعمل لأجلها؟!. .

---

(١) يقال عكف عنه وعكف عليه وهما ضدّان.

ولم يعقّب أبو لهب أكثر من ذلك لأنه لا يريد أن يهدرَ الوقت، فعادَ إلى مجونه، غير عابىء بما يدور حوله، بينما انكفأت نظرات صاحبيه عنه، وهما يتهامسان، ويسرّان لبعضهما بالقول:

ـ أحقاً يستأهل مثل هذا السكير الماجن زعامة بني عبد المطلب؟

ثلاثة.. ذوو عربدة، وفسق، وفجور.. لفَّهم الليل في حانة يهودي على الخمر والسكر، والانغماس في الرذيلة والموبقات، وهم يظنون ـ ظناً فقط ـ بأنهم ألحقوا وأمثالهم الهزيمة بالنبي ﷺ، وصرفوا الناس عن اتّباع دعوته، فتداعوا إلى سهرة المجون تلك، يحتفلون بانتصار موهوم، مكذوب!

ولكن هيهات لثلاثة سُكارى!..

بل هيهاتِ لأهل الشرك والكفر جميعاً أن يحققوا في نهاية المطاف المآرب التي يطمحون إليها في محاربة دين الله! إنهم لا يعلمون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالغٌ أمْرَه، مهما عمل أهل الأرض، ومهما رسموا من الخطط، أو وضعوا من الأدوات، أو عقدوا من التحالفات، أو سخّروا من العقول والأموال.. فعندما يكون المؤمنون مع ربهم ـ ولا يمكن للمؤمن إلَّا أن يكون مع ربه ـ ويعزمون بالنية الصادقة والعمل المخلص على تحقيق أمر الله (تعالى)، فلا قوة في العالم تقف في وجههم، لأنهم من أجل الحق يعملون، ولا بد من أن ينتصر الحق، لأن سنَّة الله تعالى في خلقه أن يغلب الحقُّ الباطلَ، ولن تجد لِسنَّة الله تبديلًا، ولن تجد لسنّة الله تحويلًا.

وانقضت خمس عشرة ليلةً على نوم شياطين قريش، هانئين، مرتاحين.. بينما بات الرسول ﷺ تلك الليالي ساهراً، ونفسُهُ معلّقةٌ

بالملأ الأعلى يرجو الله ويستعينه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبيّن له ما سألوه، ويهديه سواء السبيل. وإن تقدير الباري عزَّ وجلَّ غيرُ تقدير خلائقه كلهم.. وها هو جبرائيل الأمين عليه السلام يتنزَّلُ ـ بعد تلك المدة ـ بوحي ربه ليلقِّن الرسول الكريم الآيات التي تردُّ على طلبات المشركين، ومَنْ هم وراءهم من أحبار اليهود.

تفسير المعجزات التي طلبوها

وما كادت شمس صباح ذلك اليوم تطلع، حتى كان الناس قد اجتمعوا إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو على الصفا، ينادي: واصباحاه.

ووقفت جموعُ أهل مكة تستمع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحمد الله تعالى ويثني عليه، ويذكّر الناس بأنه لا يعلم الغيب، ولكنه وحيٌ يُوحى إليه ثم يتلوه عليهم بقوله تعالى:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾(١).

لقد قدَّم الرسول الكريم بهذا التوجيه والإرشاد من قول ربه تعالى، لكي يؤكد للناس أنه لا يقول شيئاً من عنده، بل هو وحيٌ يوحى إليه من كتاب ربه الذي لا مبدِّل لكلماته.. ثم راح يُخبر الناسَ بما سألته قريش عنه...

قصة أهل الكهف

فقد سألته قريش عن فتية في الدهر. وفيهم قال الله عز وجل:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾(١).

وظل رسول الله ﷺ يتابع على مسامعهم تلاوة آياتِ ربه التي تقصُّ عليه نبأ أولئك الفتية (كما وردت في القرآن الكريم من الآية ٩ إلى الآية ٢٦ من سورة الكهف) إلى آخر تلك القصة وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾(٢).

وتدور هذه القصة من القصص القرآني حول بعض الفتية الأشداء الذين آمنوا بالله (تعالى)، إلهاً واحداً أحداً لا شريك له ولا ولد، بينما كان الوسط، الذي يعيشون فيه، كله كافراً مشركاً. فلما ظهر أمرهم، ولم يعد لديهم أي سبيل للالتقاء مع قومهم: لا في العقيدة، ولا في المشاركة بالحياة اليومية، لأن الاتجاهات مختلفة، والمفاهيم متضاربة، والعداوة لهم سافرة، والخوف على أنفسهم ودينهم من الحاكم بات يهددهم.. عندها آثروا الاختفاء فأوَوْا إلى كهفٍ في قريتهم، يختبئون فيه، ويدعون ربهم أن يرحمهم، ويهيّىء لهم من أمرهم رشَداً إلى ما يحفظ عليهم دينهم وإيمانهم..

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٩ ـ ١٢.

(٢) سورة الكهف، الآيات: ٢٣ ـ ٢٦.

وحلَّت عليهم الرحمة الإلهية السنيّة، فناموا في هدأة الإيمان، ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة وتسع سنينَ، يقلّبهم مقلّب الأحوال من جنب إلى جنب، حتى ليحسبهم الرائي أيقاظاً وهم رقود، أو ليحسبهم نياماً كالأيقاظ، وإلى جانبهم كلبهم قد بسط ذراعيه في فناء الكهف وكأنه يحرسهم، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منهم.. وكل ذلك بتدبير الله تعالى كي لا تهترىء أجسامهم في رقادهم، ولئلا يعبث بهم عابث من الناس أو الوحش أو الحشرات...

وفجأة تدبُّ فيهم الحياة من جديد، فيستيقظون، ويفركون أعينهم، تماماً كما يمكن أن يفعل أي واحد ينام ليلَهُ، ويفيق في صباحه، ولكنهم يحسُّون بأن نومهم كان طويلًا، فيسأل بعضهم بعضاً: كم لبثنا؟

ـ فقالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم.

ويشعرون بالجوع، فيبعثونَ أحدَهُم بالنقود التي كانوا يستعملونها في زمانهم لكي يذهب إلى المدينة ويأتيهم بالطعام، وهم يحذّرونه ألَّا ينكشف أمره حتى لا يلحق به الكفار ـ والفتية يعتقدون أنهم دخلوا الكهف البارحة ـ فيعثروا عليهم ويقتلوهم، أو يعيدوهم في ملّتهم وعندئذٍ لا يفلحون أبداً.

ووجد الفتى أن المدينة قد تغيرت معالمها وأن أهلها مؤمنون، مثله ومثل رفاقه بالله الواحد الأحد، فلما سأل كيف دخل الإيمان إلى هذه المدينة علم أن الزمن قد دار، وأن بضع مئات من السنين قد تعاقبت، وأنه كان ورفاقه نياماً خلال تلك الحقبة الطويلة، وقد بعثهم الله العزيز الحكيم بعدها أيقاظاً صحاحاً، على نفس الهيئة التي كانوا عليها منذ دخولهم الكهف.

وهنا يعلن الفتى أمْره للناس، فيعرفون أنه ورفاقه هم الذين فروا بدينهم، في عهد أحد الملوك الظالمين، ولم يدرِ أحدٌ أين ذهبوا، بينما ظل الخلَف يتناقل قصتهم عن السلَف.

وهكذا بعثهم الله (تعالى)، وأعثر[1] عليهم الناسَ ليعلموا أن وعدَ الله ـ عزَّ وجل ـ بالبعث حق، إذ كما أنامَ سبحانه وتعالى هؤلاء الفتية، ثم أبقاهم على حالهم طوال ثلاث مائة وتسع سنين، فهو قادر على أن يحيي الموتى عندما يبعثهم يوم القيامة، فيقومون من الأجداث ينسلون ـ وكلٌّ آتيه فرداً ـ على نفس الخلقة التي كان عليها في الحياة الدنيا..

وقد تنازع أهلُ تلك المدينة أمر الفتية بعد موتهم من جديد لمعرفة الشرع الذي كانوا يتعبدون عليه فيبنون لهم البنيان الذي يتوافق وشرعَهم، فقال بعضهم: نبني من حولهم البنيان الذي يسترهم، ربُّهُم أعلمُ بهم. ولكنَّ أصحابَ الرأي منهم قالوا: لنتخذنَّ عليهم مسجداً.

وتتعاقب الأجيالُ من جديد، وتبقى قصة الفتية عبرةً وعظةً قائمةً في النفوس. ولكنَّ الناس يختلفون في عددهم فيقولون: ثلاثة رابعهم كلبهم.. ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم. ويقولون: سبعة وثامنهم كلبهم. والحقيقة أن ذلك في علم الغيب. فالله سبحانه وتعالى أعلم بعدَّتهم، وما يعلم عددهم من الناس إلَّا قليل. ولكنَّ العبرة ليست في عدد أولئك الفتية، ولا في المدة التي لبثوها في كهفهم، بل العبرة في أمرين: الأول صدق الإيمان الذي جعل الفتية يلوذون بدينهم فراراً وهم يتوكلون على ربهم في أمرهم. والثاني سنّة الله تعالى في الخلق

(١) أعثر: جعل الناس يعثرون عليهم. والفعل عثر متعدٍّ إلى مفعول واحد وبزيادة الألف يصبح متعدياً إلى مفعولين.

عندما قدَّر الموتَ والبعث والحساب، فيوقن الذين ينكرون البعث أنَّهُ حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَن في القبور. . وهنا التذكير المفيد: فهل يوقن كل من يقف على قصة هؤلاء الفتية الصادقة بأمر البعث والنشور؟!. .

وتبقى قصة أهل الكهف، بمدلولاتها الإيمانية، خالدة خلود القرآن الذي حفظها كما تنزَّل بها الوحيُ من الله العلي الكبير على قلب محمد ﷺ. وقد تلاها رسول الله آياتٍ بيّنات على مسامع أهل مكة يومئذٍ لعلَّهم يهتدون، كما يتلوها اليوم قارىء القرآن على مسامع الناس أجمعين لعلَّهم أيضاً يؤمنون!

قصة ذي القرنين

وقد سألوا الرسول ﷺ عن الرجل الذي طاف في مشارق الأرض ومغاربها. فعاد بعد قصة أهل الكهف، يتلو عليهم ـ من ذكر ذلك الرجل، الذي كانَ داعيةً إلى الله، وعقيدة التوحيد ـ قرآناً مبيناً بقول الله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[1].

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٨٣ ـ ٨٨، والعين الحمئة: الحارّة.

هذا ما كان من ذي القرنين (كما يسميه القرآن الكريم) مع أولئك القوم الذين وجدهم يعيشون في بلادٍ تغرب عندها الشمس، مما يعني أنه بلغ البحر من ناحية الغرب حيث تختفي الشمس عند المغيب، فأوحى له ربُّهُ إمَّا إنْ يعذّبَ، وإما أن يعامل بالحسنى، فأمَّا من رفض دعوته إلى الإيمان والتوحيد، فقد نالَ ما يستحق من العذاب على كفره، وأما من آمن وعمل صالحاً، فقد عامله بالحسنى، وأرشدَهُ إلى السبل اليسيرة التي يحفظ بها إيمانه وحياته.. وبعد أن انتهى من الأوضاع عند أولئك القوم تركهم وتابع نحو المشرق فوجد قوماً غيرهم يعيشون في سراديب[1] من الأرض، لأنَّ الله تعالى لم يجعل لهم من دون الشمس ستراً (بناءً، أو ظلالًا تحميهم من حرّها)، فتركهم وتابع سيرَهُ حتى بلغ مكاناً بين سدّين، ومن ورائهما قوم لا يكادون يفقهون القول وقد حاق بهم العذاب من قوم يقال لهم يأجوج ومأجوج كانوا يأتونهم طغاة ظالمين، فيفسدون عليهم العيش، وينكّدون عليهم الحياة.. وفي أخبار ذي القرنين في مسيره نحو مطلع الشمس، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ

(١) سرداب: بناء تحت الأرض، أو قبو والجمع سراديب.

ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾(١).

هذا ما أبلغه رسول الله ﷺ لقريش، ولأهل مكة عن الرجل الذي بلغ من الأرض ناحيتي المغرب والمشرق..

وقد تداولت التفسيرات هذه القصة بتوسع، ومفادها:

أن أحد ملوك حِمير (الذين كانت أسماؤهم تبدأ بـ«ذي» مثل: ذي نؤاس، ذي يزن) وكان اسمه أبو بكر بن أفريقش، قد سار من بلاده اليمن بجيوشه إلى ساحل البحر المتوسط، فمرَّ بتونس، ومراكش وغيرهما من البلدان المجاورة، وبنى مدينة أفريقية فسميت القارة كلها باسم تلك المدينة المأخوذة من اسمه أفريقش.. وأما لقبه في القرآن الكريم بذي القرنين فلإثبات أنه من ملوك حمير، وأنه بلغ قرنَي الشمس، أي ناحيتي المغرب والمشرق في إحدى المناطق الواقعة في بلاد الشرق.

وعلى ذلك فإن ذا القرنين اليمني ليس هو الإسكندر المقدوني، أحد القادة الإغريق المعروف في التاريخ، والذي كان يلقب أيضاً بذي القرنين لاتساع فتوحاته في المشارق والمغارب. فالمقدوني كان على الوثنية، بينما ذو القرنين اليمني كان رجلًا مؤمناً صالحاً، وقد مكّن الله تعالى له في الأرض، فقام بفتوحات كبيرة بلغت إحداها المغرب، والأخرى المشرق، والثالثة بلاد السدّين.

---

(١) سورة الكهف، الآيات: ٨٩ ـ ٩٨.

وتفصيل ذلك أن أول فتوحاته قد بلغ مكاناً رأى الشمس تغرب فيه، وقد يكون ذلك المكان على شاطىء البحر المتوسط، أو شاطىء المحيط الأطلسي ـ أو عند مصب أحد الأنهار الكبيرة ـ حيث تكثر الأعشاب ويكثر الطين اللزج الذي هو الحمأ، وحيث تكثر البرك وكأنها عيون ماء.. فرأى الشمس تغرب هناك، «وجدها تغرب في عين حمئة».. وقد وجد في تلك الأمكنة قوماً منهم الكافرون، ومنهم المؤمنون، فأولاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ سلطةً عليهم، ليحكم بينهم بما أنزل الله، وهو العدل السوي: بأن يعذِّب الظالم الآثم، والكافر على فعالِهِ السيئة، وذلك في دنياه هذه، قبل أن يُردَّ إلى ربه فيعذبه عذاباً شديداً نكراً.. وأما المؤمن الذي يعمل صالحاً فله في الدنيا جزاء الحسنى والمعاملة الطيبة، والتكريم، والتقدير الذي يستحق على إيمانه وعمله الصالح، وأما في الآخرة فستكون حالته أحسن بكثير لأن العناية الإلهية سوف تحيطه باليسر في آخرته، فينال جزاءً أوفى، رضواناً من ربه ـ تبارك وتعالى ـ وفوزاً بجنات النعيم.

وسارَ ذو القرنين من تلك الناحية في الغرب نحو المشرق، ووصل إلى أرض مكشوفة، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار، مما ينطبق على وصف الصحارى أو السهول الواسعة غير المزروعة، وغير المشجرة.. وقد تعامل مع أولئك القوم بما يتناسب وأوضاعهم الفكرية والحياتية، إلَّا أنه هداهم إلى شرع الله تعالى وعدْله ـ شأنه في كل أرض كان يحلُّ بها ـ كي يغيِّروا نمط عيشهم، وتستقيم أمورهم..

ثم تابع فتوحاته حتى بلغ مكان قوم عند حاجزين طبيعيين أو تقاطعٍ بين سدّين، فوجدهم متخلفين لا يكادون يفقهون شيئاً من القول

إلَّا ببطء فعرضوا عليه، في مقابل خرْج من المال يؤدّونَهُ له، أن يخلِّصهم من ظلم يأجوج ومأجوج القوم المفسدين الذين يغيرون عليهم من الفرجة بين السدّين فيعيثون فساداً في أرضهم، من دون أن تكون لديهم قدرةٌ على صدّهم، أو دفعهم عما يفعلون بهم.

ولم تكن عند ذي القرنين أطماعٌ في جمع المال، بل كان يسعى في الأرض لاقتلاع الكفر والفساد، وإقامة الحكم الصالح، فلم يقبل من أولئك القوم الخرْج الذي عرضوه عليه، بل طمأنهم إلى دفع الشرّ عنهم بما مكّنه ربُّهُ، وهو خيرٌ ـ بإذن الله ـ على أن تكون لديهم الجلادة على العمل المضني الشاق ـ وغايته من ذلك أن يغيّر ما في نفوسهم من تخاذل وتكاسل ـ وذلك بأن يعينوه على صنع قطع الحديد، ونقلها ليراكمها فوق بعضها بعضاً، ويسد بها الممرَّ الذي يَعبُرُ منه الغازون.

وبدأ العمل، واشتدت السواعد بعد لينها، وقويت النفوس بعد ضعفها، فاستطاع ذو القرنين ـ بإذن الله ـ أن يجمّع الحديد ويراكمه فوق بعضه بعضاً إلى أن ارتفع إلى موازاة قمتي الجبلين، حتى صارا، بمثابة صدَفتين تطبقان على الحديد بينهما. ثم أشعل ناراً حامية شديدة كي تلين الحديد وتشده إلى بعضه. ثم أمر بالنحاس فأذابَهُ وصبَّهُ فوق الحديد المحمّى ليسدَّ كل فراغ بينه، ويجعله متراصّاً متماسكاً وكأنه جزء لا يتجزأ من ذيْنك الجبلين، فلا يعود باستطاعة قوم يأجوج ومأجوج اختراقه، ولا الصعود والهبوط منه إلى الناحية الأخرى.

ونظر ذو القرنين إلى هذا الردم من الحديد الذي أقامه ـ وهو عمل رائع حقاً ـ فلم تأخذه العزة بنفسه، بل ردَّ الأمر إلى ربِّه العلي القدير، فقال: «هذا رحمة من ربي».

ثم أردف: فإذا جاء وعد ربي، وقامت القيامة فإنها لا تذر جبالًا، ولا حواجز، ولا سدوداً، ولا بنياناً، ولا يبقى شيء على هذه الأرض، التي تغدو عارية منبسطة. وإنَّ وعد ربي حقٌّ بحلول ذلك الانقلاب الكوني الذي يجعل كل شيء دكّاء[1].. وهو ما أورده القرآن الكريم على لسان ذي القرنين، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

هكذا وبالقرآن الكريم الذي يتنزَّلُ وحياً من رب العرش العظيم، كان رسول الإسلام يبيّن للناس على الصفا ـ بالقرب من الكعبة المشرَّفة ـ ما كان من خبر أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين.

وكانت الأسئلة تنهال عليه، إما بدافع التعجيز، وإما بدافع الفهم ومعرفة معاني الآيات التي يتلو، والنبي ﷺ لا يكلُّ، ولا يتعب في توضيح كل ما يسألون عنه، والردّ على كل ما يبدونه، حتى حان موعد المسألة الثالثة التي طرحتها عليه قريش..

ماهية الروح

وكانت قريش قد سألت النبي ﷺ: ما هي الروح؟ فجاءتها الإجابة آيةً مبينة يتلوها رسول الله ﷺ على مسامعهم بقول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

وكانوا يفقهون لغة القرآن لأنه نزل بلسان عربي فصيح، فما

---

(١) الدكاء: الرابية والمقصود (دكاً أو دكاء) مستوياً مع الأرض. ودكّه: هدمه أي سوّاه مع الأرض.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

استطاعوا أن يتهموا النبي ﷺ بتقصير، أو عدم تبيان لأمر الروح.. فقول الله ـ جلّ وعلا ـ في ماهية الروح واضح، ولا يحتمل جدالًا ولا تأويلًا.. إنها من أمْر الله، وقد أغلق ـ سبحانه ـ علْمها على كلِّ عباده، فلا شأن لهم بالسؤال عنها، ولا شأن لهم بعلم سرِّها.. إذ العلم الذي يُؤتونَهُ يبقى قليلًا جداً، وجزئياً من علم الله الواسع الكبير. ولذلك تبقى الروح وكثيرٌ غيرها ـ مما لا يعلمُهُ إلَّا الله سبحانه وتعالى وحده ـ أسراراً لا قبلَ للعقل البشري بإدراكها، أو الوقوف عليها. وهذا ما يجعل من هذه الآية معجزةً تضاف إلى معجزات القرآن التي تضع الإنسان في مواجهة عدد من الآيات التي يوردها هذا الكتاب المجيد ليستدل ـ الإنسان ـ على ضعفه، وقلة حيلته، فلا يضل عن الإيمان بالله تعالى، ولا يستكبر عن طاعة ربه، والامتثال لأوامره ونواهيه...

ولمَّا لم يعد أمام القوم من سبيل لمناقشة محمد ﷺ تفرقوا في كل ناحيةٍ لا يلوون على شيء...

أما رسول الله ﷺ فنزل إلى الكعبة الشريفة يطوف، ويصلّي، وهو يحمد ربهُ تعالى، ويشكره على ما أظهَرَ له، وأعانهُ عليه. ثم يذهب إلى بيته ليرتاح من تعب ذلك اليوم، ويستعدَّ لأيام أثقل عبئاً، وأشدَّ وطأة.

وتفرَّق زعماء قريش بعدما أُجيبوا عما سألوا، فهل يرعوون؟!..

لقد كان خليقاً بهم أن يؤمنوا، ويصدقوا محمداً ﷺ بعدما سمعوه يخبرهم عن أنباء الماضي السحيق، التي ما كان له أن يعرفها

لو لم يتنزَّل عليه خبرها قرآناً كريماً بلسان عربي فصيح. ولقد كان جديراً بهم أن يتفكروا بذلك، ويدركوا أن ما أبانَهُ محمد ﷺ لم يكن من عنده، وليس بمقدوره أن يعلمه إلَّا أن يكون وحياً من ربه ـ تبارك وتعالى ـ ولكن هل فطنوا إلى شيءٍ من ذلك؟! أم أنهم فطنوا، ووعوا تلك الأخبار التي تُعتبر بذاتها معجزةً، ولاسيما ما تلاه من قرآنٍ عن الروح، الذي ينبىء ليس بعجزهم وحدهم بل وعجز الثقلين عن معرفة ماهية الروح؟! لقد استمعوا.. وربما فقهوا أو لم يفقهوا.. فانصرفوا يلوذون بالخسران والهزيمة بعدما أمَّلوا الربح والنصر..

أجل! لم يؤمنوا لا بالتبليغ، ولا بالإنذار، فصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(١) وقوله عز وجل: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾(٢)، فقد كتبوا على أنفسهم أن يبقوا منغمسين في حمأة الضلال، فويل لهم مما صنعت أيديهم، وويلٌ لهم مما ظلموا به أنفسهم!..

الاستماع إلى قراءة القرآن

ولكن على الرغم من إعراضهم عن النبي ﷺ فقد بقي من تأثير ذلك اليوم بعضُ الشيء في النفوس. فقد أيقن بعضٌ من كهّان المكر أنَّ ما تلاه «محمد» على مسامعهم لم يكن سحراً، ولا كهانة، ولا رجماً بالغيب.. بل كان ـ حقاً ـ قولًا متناسقاً في جرْسه ووقعه، متآلفاً في معانيه وعظاته، بما يدلُّ على أنه قولٌ عُلويٌّ، وليس من قول

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٥ ـ والوقر: الثقل في الأذن.

البشر.. إذن فقد أمكن لهؤلاء أن يتذوقوا حلاوةً في التلاوة لم يعرفوها من قبلُ، وهي التي جعلت في نفوسهم ميلًا للاستماع إلى القرآن، هذا الكتاب الذي تتمنطق آياته الكريمة بقوة المبنى والمعنى، وبصدق الأدلة والبيّناتِ التي تلقيها حجةً على الناس جميعاً، وليس على نفرٍ من قريش وحدهم.. فإذا كفروا من بعدُ فيكون كفرهم ـ مع البيّنة، وإقامة الحجة وإظهار الدليل ـ كفرَ عنادٍ، وكفرَ نفاقٍ.. المهم أن التأثيرَ في النفوس قد حصل، وهذا ما دفع بأولئك البعض من قريش لأن يتحيّنوا الفرص للاستماع من جديد إلى تلاوة الآيات القرآنية.

ففي ليلة ظلماء غطى سوادها مكة، وبدون علم من الأتراب الآخرين، أو من أحدٍ غيرهم خرج وحده كلٌّ من: أبي سفيان بن حرب، وأبي جهل عمرو بن هشام، والأخنس بن شريق إلى جوار بيت «محمد» ليختبىء، متخفّياً، ويجلس منصتاً.

وكان النبيُّ ﷺ يقوم آناء الليل على الصلاة والتهجد وعلى قراءة القرآن، فجاء أولئك النفر يستمعون، غير متنبِّهين للوقت وهو يمرُّ سريعاً حتى بانت طلائع الفجر، فهبَّ كل واحد يريد العودة إلى بيته لئلا يُكتشف أمره، ويُفتضح سرُّهُ.

وكم كانت دهشتهم كبيرة وهم يتلاقون مع بعضهم قرب بيت «محمد»، فوقفوا واجمين وقد عقد الخجل ألسنتهم، فلم يبادل أحدٌ أحداً بتحية، أو بأي كلمة، حتى تجرّأ أبو سفيان وقال:

ـ ويحنا من مغفَّلين، فما لنا ولهذا الوقوف المخزي؟ ألا ترون أن الناس بدأوا ينتبهون من رقادهم، وقد يتساءلون عن وجودنا في هذا

المكان، وعن الذي جمعنا في الفجر عند بيت محمد بن عبد الله؟

قال عمرو بن هشام: وما أتى بك إلى هذه الناحية يا أبا سفيان؟

فقال له: إنه الشيء نفسه الذي جعلك وصاحبَك ههنا.

وقطع عليهما الأخنس الجدل قبل أن يستفحل، فقال: لا نلومَنَّ أنفسنا بما فعلنا، ولكن لنتعاهد على ألَّا نعود إلى مثلها مرة أخرى.. وطمأن كلٌّ منهم الآخر ألَّا يعود للاستماع إلى «محمد» مهما كانت ميوله ودوافعه. ثم انصرفوا عن بعضهم مستعجلين.

ولكن هيهاتِ لأي منهم أن تسكن نبضات قلبه وهي تحنّ إلى الذكر الحكيم. فلو تُركت النفوس وفطرتَها لانقادت إلى خالقها طائعة. ولكنّ الإنسان، هو الذي ينقضُ الفطرة التي فطره الله عليها، فيدسُّ في نفسه الشرَّ، ويترك للشيطان أن يملأها بالوسوسة والغواية.. ولذلك ينبهنا القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة عندما يعبِّر عنها بظلم النفس، أي أن الإنسانَ هو الذي يظلم نفسه بالشرك والكفر، فيجعلها موضعَ الحساب وتلقّي اللوم على ما حملت، وتوطَّن فيها، وذلك عندما يطغى عليه الشيطان فيحوّله عن فطرته السليمة إلى عبدٍ له يأتمر بغوايته وينقاد لإضلاله.

لقد تعاهَدَ أولئك الثلاثة في فجر ذلك اليوم، على الابتعاد، عن سماع القرآن.. ولكن ما إن جَنَّ الليل حتى هبَّ كل واحد من فراشه، وراح إلى المقعد الذي اقتعده البارحة.. وتلاقوا من جديد، ودار ما دار بينهم، ثم ولَّوا وقد تعاهدوا على عدم الرجوع إلى ما كانوا فيه. إلَّا أن الفجر الثالث جمعهم من جديد، وفيه قدّروا مدى الخطأ الذي يرتكبون إن ظلوا على تلك الحال، التي من شأنها أن تجعل قريشاً

تخزيهم، وترذلهم، لأنها سوف ترى فيهم حماقة أخرجتهم على وحدة الكلمة وثبات الموقف. ولذلك أقسمَ أبو سفيان والأخنس باللات والعزَّى على ضبط النفس، وعدم خداع بني قومهم.. إلَّا أن أبا جهل أبى أن يستوثق من أَيمانهم إلا عند هبل، كبير آلهة قريش. فتوجهوا من فورهم إلى الكعبة ـ أعزها الله ـ وعلى قدمي هبل انحنوا يمرّغون جباههم، وهم يحلفون بألَّا يعودوا للاستماع إلى القرآن، بل وأن يلغوا فيه، إلى أن يتم لهم دحرُ «محمد» والنصرُ عليه.. وقد بيّن الله تعالى موقفهم ذاك بقوله العزيز:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1].

لقد جفّت قلوب أولئك النفر من قريش ـ ومن هم على شاكلتهم ـ من نداوة الإيمان، وغابت من وجوههم مسحة الهداية، فراحوا يحاربون القرآن، ويتقوّلون فيه أقاويل شتى، كانت كلها لغواً بلغوٍ.. إلَّا أنهم لم يستطيعوا مع ذلك، أن يسكتوا الصوت الصارخ في أعماقهم، وهو يقرّعهم على التمادي في الغي والضلال، فكان لا يجتمع أحدٌ مع غيره من جِلْدته، إلَّا ويكون الحديث عن القرآن وحلاوة سماعِهِ. حتى أن الأخنس لم يتورع مرةً عن مصارحة أبي جهل بحقيقة مشاعره، فيقول له:

ـ يا أبا الحكم! هلا أخبرتني، ولكن بصدق؟

ـ قال أبو جهل: وبماذا تتهمني يا أبا ثعلبة؟

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

ـ لا، وحق اللات والعزى ما هو باتهام، وإنما هي الرغبة في معرفة ما ترى في القرآن الذي يتلوه «محمد»!..

قال أبو جهل: أما إنك خبيث وماكر يا أبا ثعلبة.. فأيّاً يكن الشيء الذي في نفسك، لا أخفي عليك أنني كنت أستمع إلى «محمد» مأخوذاً. ولكن ما يحيّرني أنني قد فهمت أشياء، وغابت عني أشياء، وإنَّ نفسي لتوّاقة لأن أجلس إلى هذا الرجل فيبيّن لي ما عمِيَ عليَّ من معاني قرآنه.

قال الأخنس (والغصَّةُ تكاد تخنقه وهو يبتلع ريقه):

ـ وإنّي والله مثلك يا أبا الحكَم، ففي القرآن معانٍ صعبٌ علينا إدراكها، إن لم نعرف أسباب نزولها وأحكامها، وما تحمل من البراهين والعظات..

وبعد بضعة أيام التقى الأخنس بن شريق بصاحبه الآخر أبي سفيان بن حرب، ودار بينهما الحديث نفسُهُ عن فصاحة لغة القرآن وبلاغته، وحلاوة سماعه، ولكنَّ أبا سفيان لم يكن همُّهُ قرآن «محمدٍ» بقدر ما كان همُّهُ حقده عليه وعلى دعوته، لأن العداوة المتأصّلة في نفوس بني أميّة ضد بني هاشم إنما هي على الرئاسة في قريشٍ. فأجاب صاحبه قائلًا:

«لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا.. حتى إذا تحاذينا الركب وكنا كَفَرسَيْ رهانٍ، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء، فهل ندرك مثل هذه المرتبة؟ واللات والعزى لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه».

القرآن عنصر الدعوة الأساسي

يتبيّن مما قاله أبو سفيان بن حرب أن الدوافع وراء عداوة المشركين لمحمد ودعوته عديدة ومتنوعة ـ كما أشرنا مراراً ـ وهي التي جعلتهم يبتعدون عن القرآن، ولا ينتفعون بآياته التي تزكّي النفس بالتهذيب والاعتزاز، وتصقل العقول بالوعي والانفتاح. إذن فلا القرآن وما يحمل من عظات للبشر، وتعاليمَ تسمو بالإنسان إلى معارج الإيمان والرقي والتقدم، ولا فصاحة مبناه، وروعة بلاغته وبيانه.. لا شيء من ذلك كله كان ليفتح عقولهم وقلوبهم لهذه الدعوة التي يحتضنها بين دفتيه، والتي من شأنها أن تنقلهم من الجاهلية والبداوة إلى العلم والحضارة.

وعلى خلاف ذلك تماماً كان حال المسلمين.. فقد كانوا يعايشون القرآن، وينعمون بنفحاته الطيبة، ويتفيأون في ظلال أحكامه وتعاليمه المجيدة.. يَحْيوْنَ بالاستماع إلى تلاوته وقراءته، وفي التفكّر بجلال قدره وقيمته، وينهجون على شرعه قولًا صادقاً، وسلوكاً قويماً، وعدلًا سوياً، فيرتقون به إلى أعلى درجات الإنسانية: في صلابة العقيدة، وأحقية القول والفعل، وفي صدق النيّات والإخلاص لربهم، وهداية عباده.

وهذا هو الفارق الكبير بين المسلمين والمشركين، وإن كانوا من البيئة ذاتها، والمجتمع نفسه، ويتشاطرون وإياهم أسباب الحياة ومقومات الوجود نفسها. ولكن أين أهل الكفر من أهل الإيمان، ولكلٍّ عقيدةٌ ووجهةُ نظر مختلفةٌ عن الحياة والإنسان والكون؟ فكان محتوماً أن يوجد التضارب في الأفكار، والتضادّ في الاتجاهات، والتفاوت في المسارات.

وكان النبي ﷺ يعزّز هذه الحقائق التي تميّز المسلمين عن المشركين، والتي يعود الفضل فيها للقرآن الكريم. لقد أراد منذ البدء أن يكون تعاطيهم مع المشركين من خلال هذا القرآن، ولكنَّهم أبوْا النصح، وتمنّعوا عن الاهتداء.. إلَّا أن ذلك لم يَفُتَّ في عضد رسول الله ﷺ وفي استقامته على نفس المنهج الرباني الذي يمكن أن يربيهم عليه، لو استقاموا على الشريعة!. فما رصدوا له موقفاً كي يثنوه عن عزمه، وما طرحوا قضية أو مسألة كي يحاجّوه ويجادلوه إلَّا وجعل القرآنَ بينه وبينهم. فالقرآن يدور على لسانه كما ينبع من قلبه، وأحبّ شيء إليه أن يستفيض في إسماعهم قول الله الحق تذكرةً في خلدهم، أو على ألسنتهم. فقد كان ﷺ يدرك ما للقرآن الكريم من أثر عظيم في النفوس، ويسعى لأن تكون حياة المسلمين، بمعايشتهم القرآن، مثالًا يُحتذى به من أبناء مكة، مما قد يجذبهم للانقياد إلى الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، فيقبلون على الإسلام بفضل القرآن... ولذلك رأى الرسول الأعظم أن يتّبع أسلوباً جديداً في إيصال القرآن إلى مسامع أهل مكة عبر الأثير[1] الذي ينقل الأصوات، فيتلقّاه الناسُ في البيوت والمجالس، والطرقات بصورة تلقائية، وبدون أي استعداد نفسيٍّ مسبقٍ ـ ينطوي على خلفية العداوة لهذا القرآن ـ وعلى أن يتم ذلك جهراً عدة مراتٍ في اليوم ـ إن أمكن ـ. فلما عرض الأمر على الصحابة، في دارة ندواتهم وحلقاتهم، هلَّلَ الحاضرون وكبَّروا، لأنَّ في مثل هذا الجهر بالقرآن إعلاناً للناس أن المسلمين يريدون الحق، ويعملون للحق، والحق ـ في كل حال ـ

(١) مادة في الجو، ليس لها وزن، تتخلل الهواء والأجسام، ويكون امتداد الصوت والحرارة عبر تموجاتها.

واحد لا يقبل التجزئة لا في أسسه وقواعده، ولا في أهدافه ومقاصده.

وأبدى كل من الصحابة كامل الاستعداد لقراءة القرآن جهراً وعلانية على ملأ قريش، وعلى أهل مكة في وضح النهار، حيث يحظى القارىء بهذا الشرف الرفيع. وأبى عبد الله بن مسعود إلَّا أن يكون هو البادىء، ولينال المكرمة الربانية التي يعدهم بها الرسول العظيم، وليس ذلك بسبب أنانيةِ عبد الله وأثرتِه، بل طمعاً في نيل رضوان الله تعالى، وخوفاً على هؤلاء الإخوة من أذى قريش..

ولم يوافق إخوته المسلمون على أن يُعرِّض عبد الله حياتَهُ للخطر، فإنَّ فيهم من له عشيرةٌ تحميه وتمنعه من القوم. فإن قام قرشيٌّ يجاهر بالقرآن، فقد لا يتعرَّض لما قد يتعرض له عبد الله.

وتأثَّر عبد الله بن مسعود بهذا الموقف، فدمعت عيناه، لأنه أراد أن يبعد عن الدعوة حرباً قبلية قد تتذرع بها قريش أو غيرها من قبائل مكة، ولا همَّ بعدها ما يناله من الأذى والاعتداء حتى ولو كان القتل في سبيل الله، فوافق النبي ﷺ ودعا له بالتوفيق.

وهنالك على مقربةٍ من الكعبة الشريفة، ارتقى عبد الله بن مسعود مرتفَعاً من الأرض وراح يقرأ بأعلى صوته، سورة الرحمن، بالقول الحق المبين:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ

بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1].

كان صوت عبد الله بن مسعود[2] يتهادى، ويمتد في سماء مكة، فيسمعه شيخها ووليدها، مما جعلهم يهتاجون لمعرفة من هو هذا القارىء الذي يتحدى مشاعرهم، ويخرج على طاعتهم. وكان أكثرهم دهشة عقبة بن أبي معيط الذي وقع عليه الخبر كالصاعقة، إذ ما كاد يسمع باسم ابن مسعود حتى امتقع لونه، وشحب وجهه، لأنه ما كان ليدور في خلده يوماً، أن يكون خادمُهُ وراعي غنمه ـ وهو ما عليه من قِصَر القامة، ونحالة الجسم، ودقة العظم ـ الإنسان الذي يتحدّاه، غير آبهٍ بولايته عليه، أو بما لَهُ من مكانةٍ بين القوم، وبما عنده من المال. لقد أحسَّ بأن هذا الراعي قد أخزاه، فاندفع يريد قتله، ومثله كثيرون كانوا قد خرجوا في طلب ابن مسعود لما أنالَهُمْ من المهانة، بحسب تفكيرهم القاصر!..

وتلاقت جماعات الحقد في الطريق، فانهالوا على عقبة بن أبي معيط بالسخرية، فسكت لأنّ ما بيده حيلة، على ما يجري، حتى

---

(١) سورة الرحمن، الآيات: ١ ـ ١٣.

(٢) كانت زوجة عبد الله بن مسعود، واسمها ريطة بنت عبد الله بن معاوية الثقفية، من المسلمات الأوائل الفاضلات، إذ كانت تنفق على أولادها وزوجها من صنع يديها. وقد أتت رسول الله تسأله قائلة: إني امرأة ذات صنعة فأبيع، وليس لي ولا لِوَلَدَيّ ولا لزوجي شيء، ويشغلونني فلا أتصدق، فهل لي في النفقة عليهم من أجر؟ فقال ﷺ: «لكِ في ذلك أجر ما أنفقتِ عليهم، فأنفقي عليهم» (انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج٥ ص٤٦١).

وصلوا إلى عبد الله، فانقضّوا عليه يشبعونه شتماً وإهانةً ويوجعونه ضرباً ولكماً، وهو لا ينثني عن ترداد ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والاستمرار في قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وأخيراً وقع عبد الله مغشياً عليه، فتناول عقبة بن أبي معيط حجراً كبيراً ليهوي به على رأسه، لولا أن أمسكَهُ أميةُ بن خلَف قائلًا:

ـ ويحك يا رجل! أتريد أن تدنِّس يديك بقتل راعٍ للغنم نتنِ الرائحة. دعْ عنك الأمر إنه ميت لا محالة!.

وذهب الكفار وفي ظنهم أنه فعلًا قد مات، أو على وشك الموت.. فجاء فتيان من المسلمين يحملون أخاهم الشجاعَ، الصابر، إلى دار الأرقم، حيث كان النبي ﷺ ما يزال بانتظاره مع الصحابة..

وسارعوا في إسعاف الجريح، والدم ينزف من فمه وأنفه، وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل. هذا ما كنا نخشاه على أخينا عبد الله.

ولمَّا أفاق واستعادَ وعيَهُ، كانت أولُ بادرةٍ بحثَهُ بناظريه عن رسول الله ﷺ، فرآهُ فوق رأسه تعلو ثغرَهُ رحمةٌ ومؤاساة، فأحسَّ بقواه تعود إليه، فنهض وهو يقول:

ـ والله يا رسول الله ما رأيتُ أعداءَ الله أهونَ عليَّ منهم اليوم. ولو أجزتني لآتِينَّهم غداً بمثلها.

ويتلقى عبد الله من إخوانه التهانيَ التي تعبّر عن مشاعرهم الصادقة، إلَّا أن أكثرها بركةً كانت من رسول الله ﷺ وقد اعتبرها عبد الله وساماً يرفع من قدره على مدى الحياة، عندما أثنى ﷺ على

فعله الجريء بما يرضي الله ـ عز وجل ـ بقوله له: «حسبُكَ.. وقد أسمعتهم ما يكرهون».

ولم يكن اختيار الرسول الحكيم لابن مسعود، لكي يجهر بالقرآن على الملأ من قريش، إلَّا عن حكمة وتقدير، ويتجلّى هذا الاختيار بجوانب عديدة أبرزها:

ـ أن يثبت للمشركين أن القرآن هو زاد المسلمين وسلاحهم، يجعل ضعيفهم قوياً، ويزيد قويَّهم قوة، ولذلك كان اختياره لابن مسعود بالذات لأنه في نظر أعداء الدعوة من الأضعفين في المسلمين (على ما كان الكفار يصنّفونهم).

ـ أن يجعل المشركين يقتنعون أخيراً بأنه لا مكانة في الإسلام لعصبية أو قبلية، أو تمايز طبقي، بل إن بناء الشخصية الإسلامية يقوم على التقوى والعمل الصالح، ولذلك فلا فرقَ بين أن يجهر بالقرآن عبد الله بن مسعود أو أي مسلم آخر أمثال علي بن أبي طالب، أو عثمان بن عفان، أو عبدالله بن عبد الأسد (أبي سلمة) أو أبي عبيدة بن الجراح أو غيرهم.

ـ أن يوقن المشركون بأن القرآن هو كتاب المسلمين، الذي يجسد، في نفوسهم، وفي أعمالهم، الروح الإسلامية التي تميزهم عن سائر الناس، فكان حريّاً أن يجهروا به تعبيراً عن تلك الشخصية الإسلامية المميزة.

ـ ثم إن هذا القرآن هو المعجزة الذي تحدَّى بها ربُّ العزة والجلال الثقلين، فلمَ لا ينصبُّ هذا التحدي على رؤوس مشركي مكة فيوقنون أنه بالقرآن، وبالقرآن وحده يبرز الإيمان ليتحدى الكفر، والحقُّ ليتحدى الباطل..

أجل، هذه بعض الجوانب التي شاءَ الرسولُ الأعظم أن يُفهمها لقريش من الجهر بالقرآن... بل وليعلم زعامة الكفر بأن الكلّ في الإسلام ـ ولا فرق في ذلك بين راعي الغنم ونبيل القوم ـ جندٌ لله سبحانه وتعالى، ولكل جندي من جنود الله من القوة الذاتية ما يؤهله للتضحية في سبيل الله بكل غالٍ ونفيس، حتى الشهادة.. ومن هنا كان ذلك البون الشاسع بين المسلمين الأوائل الذين كانوا على النهج القويم عينِهِ من الإيمان والاستقامة، وبين طغاة قريش وما تحبل به نفوسهم من غطرسة جوفاء، وصلافة رعناء، وما تمتلىء به قلوبهم من قساوة، حتى أنها قد تكون أشدَّ قسوةً من الحجارة!.

فهل تدرك قريش كل ذلك؟! كلا إنها لا تعي شيئاً من هذا القبيل ـ على الأرجح ـ لأن الجاهلية كانت تقودُ حياتها، فسيطرت على أفكارها، ومعتقداتها وتصوراتها حتى أعمت البصائر وأصمّت الآذان.. فماذا فَعلَ عبد الله بن مسعود غير أنه كان يتلو سورة الرحمن من القرآن المجيد التي تبيّن للناس وللجانّ آلاء[1] الرحمن، وتدعوهم للنظر بهذه الآلاء؟ ثم أليست سورة الرحمن ترشد إلى رحمة الله، الرحمن الرحيم، وقد وسعت رحمته كل شيء؟.. فأي خطأ ارتكبه قارىء القرآن؟ إلَّا أن يردّد قول الله العلي القدير حتى تشيع في أجواء مكة نفحات الإيمان، وتُسدَلَ عليها أستار الرحمة، وفي ذلك خير لهم أجمعين؟! فهل جزاؤه يكون ذلك الأذى الذي أقدمت عليه قريش؟ تبّاً للكفر ما أقساه، وللضلال ما أشنعه، وتعساً لهؤلاء القوم الذين ضاعوا بين عبادة الأوثان، وسفاهة الأحلام!.

---

(١) الآلاء: النِّعم.

ولم تمرَّ حادثة ابن مسعود بلا أثر... فقد رأى فيها القرشيون ذريعةً جديدة للتملّق إلى النبي ﷺ واستمالته، ولذلك جاءه نفر من الأغنياء والمستكبرين يعرضون عليه أن يطرد الفقراءَ من أتباعه أمثال: عبد الله بن مسعود، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وعمار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وغيرهم من الموالي والمستضعَفين، في مقابل أن يدخل زعماء قريش في الإسلام، أو على الأقل أن يجعل لهؤلاء الزعماء مجلساً غيرَ مجلس مواليهم وعبيدهم، لأنهم يأنفون من وجودهم قبالتهم، أو بجانبهم، ولا يرضون إلّا أن يتميّزوا عنهم!...

أجل، هذا ما جاؤوا يعرضونه على رسول الله ﷺ، وهو إثبات قاعدة التمايز الطبقي، أي بما يتناقض مع قاعدة من قواعد الإسلام الثابتة، وهي أنه لا فضل لغنيٍّ أو فقيرٍ، أو قوي، أو ضعيف، إلَّا بالتقوى.. فما أغباهم! إنهم ـ إلى الآن ـ لم يدركوا أن تلك المظاهر التي يتمسكون بها لا تعبّر إلَّا عن قيمٍ زائفةٍ أو زائلة.. وأن التفاضل بين الناس يكون بمدى الإخلاص لله تعالى وطاعته، وفي تقوى الإنسان، والعمل على تزكية نفسه وحسن التعامل مع الآخرين، وخدمة الجنس البشري، وفيما عدا هذه القيم الإنسانية وأمثالها التي ينادي بها الإسلام، فهو الهوى والسفَه والبطلان! ولذلك ردَّهم الرسول ﷺ خاسرين، خاسئين. وتنزَّل قول الحق الذي يدحض افتراء المستكبرين بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

لقد كانت المفارقة في الأفكار والتوجهات واضحة وضوح الشمس في وسط النهار. فالمسلمون ضعيفهم وقويهم، فقيرهم وغنيهم ـ إلى آخر مثل هذه المفردات في القاموس البشري ـ هم أهل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وجنده، ما داموا على هُدىً من ربهم، مخلصين له الدين ولو كره المشركون.. أما هؤلاء المشركون فهم ـ في الحقيقة ـ أعداء الله لأنهم أعرضوا عن دينه القويم، ورفضوا دعوة رسوله الكريم، وذلك من أجل تعلقهم بأهداب الدنيا، واتخاذ كل ما يمتُّ إلى وجودهم بصلة، بمثابة سلعة للمتاجرة. ولو أنهم دخلوا في الدين الجديد لجعلوه سلعةً إضافية في سوق الدعوات، يبيعون منها ويشترون بما يتوافق مع استغلالهم للآخرين، ومع رغباتهم وشهواتهم. ولذلك فقد لفظهم الإسلام بتدبير العزيز الحكيم، لأن مشيئة الله الحق لا تجعل الخبيث يستوي والطيب، والخير يتساوى والشرّ، والنور يتماثل والظلام.

عروض جديدة من قريش على أبي طالب

وإزاء الواقع الذي تشهده قريش في مواصلة العمل للدعوة الإسلامية، والسعي إلى نشرها، رأت أن تلجأ إلى الأسلوب الذي جرّبته مع «محمد» من قبل ولم يُفلح، وهو التأثير، هذه المرة، على عمّه أبي طالب. فهم يرون بأنه الشيخ الحكيم، وأمْر بني قومه يعنيه أكثر مما يعنيهم، لأن لهم عليه حق رعاية مصالحهم وشؤونهم، مثلَ ما له عليهم حق الطاعة. وهو وإن أظهر الحماية لابن أخيه، إلَّا أنه لا يهون عليه أن يتفرق الشمل، ويتضعضع الكيان!. ولذلك مشى إليه معظم رؤوس الشِّرْك، ومنهم عتبة وشيْبة ابنا ربيعة بن عبد شمس،

وأبو سفيان (صخر بن حرب بن أمية) وأبو البختري (العاص بن هشام) والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وأبو جهل (عمرو بن هشام) والوليد بن المغيرة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر، والعاص بن وائل السهمي، والمطعم بن عدي بن نوفل وغيرهم من ذوي النفوذ والمال في قريش.

وجاء هؤلاء في حشدٍ كبير إلى مجلس أبي طالب، ودخلوا عليه يعرضون شكواهم من ابن أخيه «محمد» قائلين:

ـ يا أبا طالب! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا. ولقد عرضنا على ابن أخيك مالًا إن كان يريد المال، وجاهاً إن كان يسعى وراء الجاه، وملكاً علينا إذا كانت غايته الملك. وإننا والله ما زلنا عند عروضنا. وقد جئناك حتى تتدبَّر الأمر، وترفع هذه الظلامة عن آلهتنا، فلا يعيبها «محمدٌ» علينا، ولا يفرّق شملنا!..

لقد مشوا إليه، وهم يتوهمون أنهم سيثيرون فيه النخوة والحميّة على وحدة الكلمة، وعدم تفرقة الصف، وأنهم سوف يجعلونه يغيِّر رأيه، ويعيد النظر في مواقفه من ابن أخيه. أمّا ما يُبطنون من الحقد على «محمد» ودعوته، فهذا ما تخفي صدورهم، ولن يمكن لأبي طالب أن يعلمهُ!..

وعلى عكس ما كانوا يظنون، فإن نيّاتهم لم تكن لتخفى على شيخ البطحاء، ورجل الحكمة والموقف.. صحيح أنهم يبدون أمامَهُ نوعاً من الذلة والانكسار. وهم يسألونه أموراً عامة، ويعتبرون المسّ بها أمراً مُنكراً ومكروهاً، لأن حياتهم كلها تقوم عليها، إلَّا أنهم ـ كما كان يقول أبو طالب في نفسه ـ من أشد الناس مكراً وخداعاً.. ولذلك رأى الرجل الحكيم أن الموقف دقيق وحسّاس، وأنه لا يجوز أن

يصدهم بالشدة، كما لا يستطيع، ولا يقبل أبداً، أن يجاريهم في العداوة لابن أخيه، خصوصاً أنه على يقين بأن خصومتهم لرسول الله هي محض افتراء وتَجَنٍّ على الحق. من أجل ذلك آثر أبو طالب أن يقول لهم قولًا رقيقاً، وأن يردّهم رداً جميلًا، حتى عميت عليهم حقيقة الموقف، فخرجوا من بيته وهم يُسائلون بعضهم بعضاً: هل إن أبا طالب معنا وضد ابن أخيه، أم أنه ضدنا وهو على دين ابن أخيه؟!.

لقد تركوا أبا طالب وهم حيارى، لا يعرفون حقاً اتجاهاته وميولَه. ولكنَّ الشيء الوحيد الذي تأكد لهم، بعد هذا اللقاء، هو بقاء الرجل على حماية «محمد»، وإصراره على منعه من كل مكروه.. وهذا ـ في رأيهم ـ ما يزيد الأمور تعقيداً، ويجعل الحالة أكثر سوءاً.

أما من جهته، فقد ذهب أبو طالب إلى ابن أخيه، يباحثه في أمر القوم، وما يبدون من شكاية على أحوالهم، وما يعرضون عليه، مجدداً، من المال، والجاه، والسلطان، مقابل أن يتخلَّى عن دعوته، ويعيد لقريش وحدتَها، وسالِفَ عهدها من الاستقرار والأمان..

واستمع رسول الله ﷺ إلى قول عمّه. وتفكَّر في هذا الضلال الذي يُصرُّ عليه أولئك القوم، على الرغم ممّا بشَّرهم به من عزٍّ في الدنيا، وفوزٍ من الله تعالى في الآخرة إن هُمُ استجابوا لنداء الإيمان الذي يدعوهم إليه.. ولكن! ماذا بعد بيده إن هُمُ استحبوا الكفر على الإيمان، وأمعنوا في الغي والاستكبار؟.

ولذلك، وبأنفة النبي، وعزة الرسول، نظر محمد ﷺ إلى عمه أبي طالب نظرة الواثق المطمئن، وقال له:

«يا عمُّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري

على أن أترك هذا الأمر، ما تركتُه، حتى يُظهره الله، أو أهلك دونه»[1].

ذلك هو عزم رسول مبين!..

وتلك هي وقفة تاريخ مجيد!.

وكلاهما: العزم الرسولي، والوقفة التاريخية، ما كانا ليصدرا إلَّا عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ، ولاسيما في ظل تلك الظروف، وفي وسط تلك البيئة، التي كان يعيش فيها الرسول الأعظم.

إنه محمد المبعوث من ربِّ العزة والجلال لينفذ على التاريخ بآفاق الإيمان الرحبة، وليقدم للإنسانية معاني جديدة لم تعرفها عهود البشرية من قبل، إلَّا في حدود تلك المعاني التي سبق بها النبيون والمرسَلون.. وهي، هي نفسها الآفاق، والمعاني، بل والقيم، والمثل، والأفكار التي تقوم على المنهج الرباني، وعلى الهدي الإلهي لبني الإنسان، منذ آدم عليه السلام وحتى آخر بشري على هذه الأرض.. لأنها تتناول حياة الإنسان في تركيب خلقه، وفي قوله، وفي عمله، وفي كل ما يتعلق بوجوده على هذه الأرض، بل وفي انسجامه مع الكون في انتظامه، حتى تكون له الطريق التي يعبر بها إلى الحياة الآخرة، وإلى ما ينتظره من حُسن المآب، وعظيم الجزاء.

إذن، فالإسلام يتوخَّى أولًا، وقبل كل شيء، الأخذ بيد الإنسان حتى ينتشله من كل ما يعيق فطرته السليمة، وتفتّح مداركه،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٨٥.

وصحوة ضميره، وتطلّعه إلى عمارة الأرض، وإقامة العلاقات الصحيحة مع غيره في الأخوّة الإنسانية. ومتى أمكن لهذا المنهج أن يسود على مناهج الأرض، صار بمقدور الإنسان أن يطمئنَّ إلى رضوان الله ـ تبارك وتعالى ـ وأن يُعدَّ العدّة للحياة الأبدية..

ولذلك كان محمد ﷺ حامل الرسالة الخاتمة التي توافق العقل البشري في آخر مراحل النضوج الفكري.

ولذلك كان محمد ﷺ صانع التاريخ الإنساني الأكمل في تناوُله لحقيقة الإنسان وقيمة خلْقه.

ولذلك كان حريّاً بهذا المبعوث، وهذا الإنسان، أن يزدري تلك العروض التي تقدمها قريش، والتي تحسبُها هي على أساس ميزان الأرباح والخسائر، بينما لا شيء في حسبانه هو إلا السيرُ على هدى الله تعالى، والامتثال لأوامره ونواهيهِ. وحسبه أنه يتوكل على ربه في كل شأن، وعلى الله فليتوكل المتوكلون..

وعلى هذه الاعتبارات قال محمد ﷺ كلمته لعمّه أبي طالب.. وهي الكلمة التي أقسَمَ فيها بالله تعالى ـ وخصَّ الشمس باليمين لأنها الآية المبصرة، التي يتجلّى فيها النهار، وخصَّ القمر بالشمال لأنها الآية الممحوَّة التي يطغى عليها ظلام الليل ـ ليؤكد بهذا القسم الجليل إدراكه لحقائق هذا الكون الواسع الذي خلقه الله تعالى، وهو الخالق العظيم، والصانع المجيد، وليثبت أيضاً في روع الناس أنه يؤمن بحقيقة وجود الله تعالى، وأنه يدعو إلى عقيدة التوحيد التي وحدها كفيلة إن استقرت في القلوب، وفي العقول، أن تُقيل البشريةَ من عثراتها، وتوقظها من غفلتها وجهالتها، لتحملها من ثَمَّ إلى بَرِّ الإيمان والأمان.

ولذلك اهتزَّ كيان أبي طالب، الشيخ الوقور الجسور، لسماع كلام ابن أخيه وهو يرفض كلَّ متاع الدنيا ومغرياتها.. وأيقن أن معرفته السابقة به، لا تعدو كونها معرفةً جزئية، لم تلامس مزايا «محمد» الشخصية، وصفاته الذاتية، بل وإنَّ معايشته لابن أخيه ـ على شدة عمقها ـ بمثابة نقطةٍ في بحاره المليئة بالحق، والخير، والإيمان... فكان حقاً على كيانه أن يهتزَّ وأن تمتلكه القشعريرة في تلك اللحظات، التي ما أفاق من تأثيرها، إلَّا ورأى نفسه قد اندفع يحتضن النبي ﷺ إلى صدره، وهو يقول له:

«امض يا ابن أخي على أمْرك، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُكَ لشيءٍ أبداً»[١].

وخرج أبو طالب من عند ابن أخيه، والإيمان بدين الله تعالى، وبتصديق محمد ﷺ يملأ عقله وقلبه وكلَّ كيانه، فيعبِّر عن ذلك قائلًا:

واللّهِ لن يَصِلُوا إليكَ بِجَمْعِهِمْ ... حتَّى أُوسَّدَ[٢] في التُرابِ دَفينَا
فاذهبْ لأمرِكَ ما عليكَ غَضَاضَةٌ ... أَبْشِرْ وقَرَّ بِذاكَ مِنْكَ عُيونَا
وَدعَوْتَني وعَلِمْتُ أَنَّكَ ناصِحي ... فَلَقَدْ صَدَقْتَ وكُنْتَ قَبلُ أمينَا
وعَرَضْتَ دِيناً قد عرفْتُ بأنَّهُ ... مِنْ خيرِ أَديانِ البَرِيَّةِ دِينَا[٣]

فيا لإيمان أبي طالب الدفين في قلبه، يُعْلِنُهُ في هذه الساعة،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

(٢) توسّد الشيء: جعله تحت رأسه. والمقصود: حتى يأتيه الموت.

(٣) الرحيق المختوم، ص٨٦.

ويدوِّنه على صفحات التاريخ عنواناً، ودليلًا على صدق دينٍ هو «من خير أديان البريّةِ دينا».

لقد عاهدَ أبو طالب رسول الله ﷺ أن يحميه، ويذود عنه حتى يُوسَّد في التراب، ويُدفن تحت الثرى، وأنه سيظل على هذا العهد الثابت القاطع ولو تألبت عليه قوى البغي والشر كلُّها..

أما رسول الله ﷺ فقد مضى على ما هو عليه في الدعوة إلى دين الله تعالى، بعد أن رفض كل عروض قريش المادية الزائلة، لا يبالي بالحماقات التي يتقوّلونها عليه، ولا بالعقبات التي يضعونها في طريقه.. ثمَّ شرى[1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذِكْر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا[2] فيه، وتواصوا بالكيد له.. ولكنهم لم يجدوا، بعد جولات من السفه عليه وعلى أتباعه، وبعد مداولات ومشاورات طويلة، إلَّا العودة إلى أبي طالب من جديد، على أن يحملوا معهم هذه المرة ما يُغري شيخَهم، فيترك نصرة ابن أخيه.. فذهبوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة وكان أنهدَ فتى في قريش وأكثرَهم جمالًا، وأنطقَهم شعراً.. ودخلوا على أبي طالب، وقالوا له:

«يا أبا طالب! إنَّ هذا الفتى، أنهدُ فتى في قريش وأجمل، فَخُذْه، فلك عقلُهُ ونصْرُهُ، واتخذه وَلداً فهو لك، وأسلمْ إلينا ابن أخيك، هذا الذي خالف دينك، ودين آبائك، وفرَّق جماعة قومك، وسفَّهَ أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل»[3].

---

(١) شرى: كدَّ واشتدَّ.

(٢) تذامروا؛ حضَّ بعضُهم بعضاً وتبادلوا التذمر. وتضاغنوا: تبادلوا الأحقاد والضغائن.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٨٥.

وعقلت[1] الدهشةُ لسانَ أبي طالب ـ إلى حين ـ وهو يسمع ما يعرضون عليه، فغاص في تفكيره وهو يسائل نفسه:

ما هذه الجهالة الجهلاء التي حلَّت برؤوس هؤلاء القوم؟! وأية حِطَّةٍ ومهانةٍ ملأت نفوسهم حتى بلغ بهم الصلَف إلى هذا الحدِّ الذي لا يقبله عاقل في الوجود؟! ثم من يظنون أبا طالب حتى جاؤوا يقايضونَه على محبته لابن أخيه بمحبة فتى غريب عنه؟! أو حتى يقايضوا بين يديه نبياً من الأنبياء ذوي العزم بشاعرٍ يهيم في كل واد؟! فأية مساومة رعناء، وأية مبادلة خاسرة جاء بها هؤلاء القوم؟! بل وهل يمكن مقايضة النبوّة التي هي تكليف من رب العرش العظيم لعبده ورسوله محمد ﷺ بأي شيء مهما علا في المقام أو غلا في القيمة؟ فلِلّه درّهم، هؤلاء البغاة ما أجرأهم على الله ورسوله، وما أشدَّ ظلمهم على العقل والفطرةِ والدين!..

وبعد طول تفكيرٍ وتعجبٍ، رفع أبو طالب رأسه من إطراقه، والإِنكارُ بادٍ على قسمات وجهه، ليقول لهم:

«والله لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً»[2].

لقد ردَّهم شيخ الحكمة والرأي لا بغضب وانفعال، ولكن بمنطق غلب على كل منطقهم.

وخرجت تلك الجماعة، وظلَّ المطعم بن عدي (ابن نوفل بن

---

(١) عقلت: ربطت.

(٢) المصدر السابق. وأغذوه لكم: أغذّيه وأربّيه.

عبد مناف بن قُصي) في مقعده، فقال لأبي طالب:

ـ لقد أنصفك قومك يا عم، وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً!

فقال له أبو طالب بحنقٍ وغضبٍ: إخرس أيها الوقح، قد ثكلتْك أمُّك. والله ما أنصفوني. ولكنك أنت قد شططت وزللت، وقد أجمعت على خذلاني، ومظاهرة القوم عليَّ. فاغرب عن وجهي ـ يا قبحك الله ـ واصنع ما بدا لك[1].

وشِعْرُ أبي طالب يملأ كُتبَ السيرة وهو يعرِّض بالمطعم بن عدي، وبمن خذله من بني عبد مناف، وبمن عاداه من عشائر قريش، على منْعِهِ رسول الله ﷺ وحمايتِهِ ومن ذلك قوله[2]:

ألا قُل لِعَمْرٍو والوليدِ ومطعمٍ ... أَلا ليتَ حَظّي من حِياطَتِكُمْ بَكْرُ
أَخُصُّ خصوصاً عبدَ شمسٍ ونوفلاً ... هما نَبَذانا مثلَ ما يُنبَذُ الجَمْرُ
هما أَغمزا[3] للقوم في أخويْهما ... فقد أصبحا منهم أكفُّهُما صِفْرُ
هُما أَشْرَكا في المَجدِ مَنْ لا أَباً لَهُ ... من الناسِ إلّا أن يُرَسَّ[4] لَهُ ذكْرُ
وتَيْمٌ ومخزومٌ وزهرةُ منهُمُ ... وكانوا لنا مولى إذا بُغي النَصْرُ
فوالله لا تنفكُّ منا عداوةٌ ... وما منهُمُ ما كان من نَسْلِنا شَفْرُ[5]

---

(١) الرحيق المختوم، عن: مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص٦٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٨٦ و٢٨٧.

(٣) أغمز فلان في فلان: إذا استضعفه وعابَهُ.

(٤) يرسَّ: يذكر في خفاء.

(٥) شَفْر: أحد، والمعنى: ستبقى العداوة لهم ما بقي من نسل بني هاشم أحدٌ.

فقد سُفِهَتْ أحلامُهُمْ وعُقولُهُمْ وكانوا كَجَفْرٍ بِئْسَ ما صَنَعَتْ جَفْرُ[1]

لقد تمنّى أبو طالب أن يكونُ حظه منهم على قدر بكرٍ من الإبل لأنه أنفعُ من حياطتهم له.

ثم وصف تلك العداوة والبغضاء التي تتحكم في نفوس بطون قريشٍ كلها حسداً من بني هاشم، وبني المطلب، والتي لن تذهب ما بقي شَفرٌ (أحدٌ) من نسلهم.. ثم انطلق يسفه أحلامهم وعقولهم، لما أوصلهم إليه سوء التفكير...

... لقد أثقل محمد ﷺ في دعوته على قريش حتى أغرقها بالهموم، فراحت تبذل الجهود تلو الجهود، والمحاولات إثر المحاولات حتى تتخلّصَ من الورطة الشديدة التي هي فيها، فلم تفلح، فصار لا يستكين لها بال، ولا يهدأ لها أوار[2] وهي تُمنى بهزائم حقدها وضلالها. وكان أكثر ما يحيّرها موقف أبي طالب الذي يسدُّ عليها المنافذ كلما مشت إليه لتكلمه بشأن ابن أخيه. فماذا تصنَعُ، وهي ترى أن الكيل قد طفح مع هذا الشيخ، إلَّا أن تأتيَ إليه من جديد، ولكن لتُظهر هذه المرة الغضب والشدة علَّ في هذا الأسلوب ما قد ينفع!..

ومن جديدٍ، جاء أولئك الظالمون أنفسهم لأبي طالب قائلين:

يا أبا طالب! إنَّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا. وإنا قد استنهيناك

---

(١) الجفر: القبيح الرائحة من النبات، وفي المثل: «إنَّ جفرك إليَّ لهارٍ» أي شرَّك إليَّ متسرّع.

(٢) الأوار: الحر والعطش. والمقصود الضيق والشدة.

من ابن أخيك فلم تَنْهَهُ، وإنَّا والله لن نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيبِ آلهتنا، حتى تكفَّهُ عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين»[1].

إذن فقد أعلنوها حرباً سافرةً عليه وعلى ابن أخيه..

ولكن ما ظن هؤلاء القوم بالرجل؟

هل يعتقدون أن تهديدهم يخيفه، وهم يعرفون أنه شيخ البطحاء؟

وهل وعيدهم يثنيه عن نصرة محمد ﷺ وهو على يقين بأنه يحمل دعوة الحق؟ إنه لن يتخلَّى عن هذا الرسول، وعن حمايته والذود عنه مهما كلفه الثمن غالياً.. لقد أخطأ عتاةُ قريش التقدير، وليفعلوا ما بدا لهم، فإنه ماضٍ على موقفه، مثلما أنَّ ابن أخيه ماض في دعوته. ولذلك جاءهم جواب أبي طالب صارماً بما يخذلهم وكأنّي به يقول لهم:

ـ قاتلكم الله من قوم قساة ظالمين. عرضتم عليَّ الشكاية وعرضتم عليَّ المساومة، وكانت عروضاً قبيحةً ما كنت لأستسيغ سماعها، أو لأقبل بمناقشتها لولا مصلحة القوم. وها أنتم قد أتيتم تهددونني بالقتال وتريدون إشعال نار الفتنة في قريش. فلا والله لا أُعينكم على هذا أبداً، ولن أتوانى عن إخماد الفتنة التي بدأت تذرّ بقرْنها في العشائر، وأن أُهلك كلَّ من تُسوّل له نفسُه نشْر الكراهية في صفوف القوم، فاصنعوا ما بدا لكم.

---

(١) الرحيق المختوم، ص٨٥، والسيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٢٨٤.

لقد كان الموقف حرجاً ودقيقاً وخطيراً. ولكن أبا طالب عرف كيف يتخلص منه، إنما بثمنٍ غال بذله من قلبه ومن نفسه..

ولقد أحسَّ الشيخ بالعبء الكبير الذي يثقل كاهله.. ولذا نراه، بعد خروج القوم، يحمل همومَهُ على كتفيه، ويذهب بحثاً عن ابن أخيه، فعسى أن يجد لديه ما يُبعد الخطرَ الذي بدأت قريش تلوِّح به، ويوقف النزاع الذي تسعى إليه!..

ولقي أبو طالب النبيَّ ﷺ في داره، فأخبره بما جاء به القوم من تهديد ووعيد، وما تبدي قريش من صلابة في مواقفها، وعنتٍ في آرائها التي قد تجرُّ إلى ما لا تُحمد عقباه، حتى وصل معه إلى أن يسأله الرأفة بحالِهِ وبِهِ، وهو يقول له:

«فأبقِ عليَّ وعلى نفسك يا ابن أخي، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق»[1]!..

لقد أثَّر كلام الشيخ في النبي ﷺ فأطرق مفكراً، يقلّب الأمور على مختلف وجوهها:

فهؤلاء المشركون ذوو بأس وشدة، وهم لن يتورعوا عن إشعال الفتنة بين قريش، وإشهار القتال عليه وعلى أصحابه.. وبالمقابل فإن المسلمين ما زالوا قلائل، ضعافاً، ولن يستطيعوا مواجهة بطونِ قريش كلها في الحرب التي تعلنها..

ثم إن ربه (تعالى) لم يأذن له بعدُ بالقتال، لكي يُشهر في وجوههم السلاح نفسه الذي يحاولون الاعتداد به..

---

(١) الرحيق المختوم، ص٨٦.

تلك الصورةُ بدت واضحةً للنبي ﷺ بسواد ظلالها.. ولكن أيّاً تكن العواقب فإنه لن تكون مهادنةٌ مع قريش في الجهر بالحق، والعمل لأجل دين الله عز وجل..

إنما بقي أمر عمِّه!.. هذا الشيخ الذي تتراكم الهموم على كاهله، لما يُلاقي من عنتٍ بسبب وقوفه إلى جانبه، وحمايته له.. أجل! إن عمَّه بات ينوء تحت أعباء العنت القرشي، والاستكبار الجاهلي، وهو يدفع ثمن ذلك من نفسه وأعصابه، فماذا يقدر أن يصنع له في ظلِّ هذه الظروف الحرجة، المَقيتة؟ لا شيء، إلّا أن يطيّب خاطره، ويكله إلى ربِّه، ثم ليتحمل هذا العم الصبور ما يمكن أن يتحمل من صلافة قبيلته، بل ومن جهل الناس، فإنها الضريبة التي يدفعها الرجال العظام ـ دائماً ـ في سبيل الحق الذي به يؤمنون.. ولذلك كان صريحاً مع عمّه، وأبدى له كلَّ ما يجول بخاطره، وأنه لن يهادن في محاربة الكفر والضلال، ولن يخلي الساحة لقريش أبداً. بل سيمضي في مسيرته إلى ما شاء الله ربُّه، وقدَّر له.

ولكن ماذا على أبي طالب أن يفعل، وهو يدرك أن تهديد قريش لا يمكن أن يُحمل إلَّا على محمل الجد والتحدي؟. وهل عليه، حيالَ هذا الواقع الأليم، الذي أوصَلَهُ إليه استكبار بني قومه، إلَّا التحرك السريع؟.

لقد حَزَب[1] الأمر ـ هذه المرة ـ أبا طالب، فما وجَدَ أمامه إلَّا اللجوء إلى العشيرة، فهي في النهاية الملاذُ الأخير في بيئةٍ قاسيةٍ،

(١) حزبه الأمر: أصابه واشتد عليه. والفعل حزب لا يتعدى بحرف.

جاهلةٍ، همُّها الأوحد أن تنال حظوتها من الدنيا، ثم يأتي بعد ذلك كل شيء، متراخياً في الزمن، متفاوتاً في المقاصد. . .

وبَعَثَ أبو طالب مَنْ يطوفُ على عشيرته الأقربين من بني هاشم والمطلب، يدعوهم للاجتماع، فجاؤوه في الغداة ملبّين، ولم يتخلف منهم إلا نفر قليل، وفيهم المسلمون والمشركون، لأنهم جميعاً على حد سواء في تقديرهم لشيخهم، وكبير الشرف فيهم. ووقف أبو طالب يُعلن على ملئهم عزمَ قريشٍ على قتاله، وقتال محمد ﷺ، ويبيّن لهم الأخطار التي قد تترتب على ذلك، وأنه ما دعاهم إليه إلّا ليقرروا بأنفسهم ماذا يفعلون. . وظلّ أبو طالب يبيّن لهم ما آلت إليه الأحوال حتى قال لهم:

ـ فوالله، يا أهلي وعشيرتي، ما جاء محمدٌ إلا بالحق من ربِّه. وقد قالَ بالأمس قول الفصل بألَّا يترك أمر ربِّهِ تعالى أو يهلك دونه، فما تقولون به، وهل تمنعونَهُ من قريشٍ، وتذودون عنه بما لِيَ ولَهُ عليكم من حق؟!

فأجابوه برأي واحد قاطع: والله يا شيخ البطحاء لا نعملُ إلَّا بما قطعت. . ولسوف ترانا عدوّاً لمن عاداه، وحرباً على من حاربَهُ، نذبُّ عنه بالأفئدة والنفوس قبل المال والسلاح، ونحميه ونمنعُهُ قبل الولد والعيال. .

لقد لبّى بنو هاشم، وبنو المطلب ـ الذين حضروا ـ نداءَ شيخهم أبي طالب، وعاهدوه على الوفاء له وللنبي ﷺ، إلَّا واحداً أبى إلَّا الخروجَ على إجماع العشيرة، وأعلنَ بُغضَهُ وعداوتَه لمحمد ﷺ. وما كان هذا الخارجُ إلا أبا لهب ـ طبعاً ـ على الرغم من أنه العمُّ

القوي الذي كان يمكن أن يعضد دعوة ابن أخيه رسول الله ﷺ، والأخُ الذي كان يمكن أن يستقوي به أخوه أبو طالب في ندائه لعشيرته الأقربين. . ولكنه ـ ويا للعار ـ كان منذ البدء، ألدَّ الأعداء، فلم يكن غريباً منه أن يقف ضد رأيهم جميعاً، ضارباً بأواصر القربى عرْض الحائط، ومُمعناً في ظلمه لنفسه، إذ ما كاد يرى تلك الاستجابةَ المشرّفةَ من ذويه، حتى هبَّ مغاضِباً، وخرج شاتماً كلَّ من تسوّل له نفسه نصرة «محمد»، أو الوقوف بجانبه! . .

البحث الرابع

أذى قريش للمسلمين

وعزمت قريش على تنفيذ ما هدَّدت به.. وقرّ رأيُها على المبادأة بملاحقة الضعفاء والموالي من أتباع محمد ﷺ وسَوْمِهم أسوأَ أنواع العذاب حتى يفتنوهم عن دينهم، بحيث تكون رمضاء[1] مكة ولهيبُ رملها الحارق مطارحَ للعذاب.. أما الآخرون ممن لهم عشيرة تحميهم، فسوف يتركونهم إلى الحين الذي يشنّون فيه حرباً شعواءَ على المسلمين جميعاً.

وقد اعتمدت قريش لذلك تعبئةً عامة فأطلقت دهاقنتها، يوغرون الصدور، ويحثون الأجلاف على ملاحقة المستضعفين من المسلمين أينما وجدوا، وبدأت الهجمة من العتاة والصعاليك ـ على حد سواء ـ يحومون حول فرائسهم، مثل الجوارح الكاسرة، فلا يتمكّن القرشي من مسلم إلَّا وثب عليه، وأنشب مخالب حقده في جسده، أو قد يلاحقه مثل حيّةٍ رقطاء خرجت من وكرها في الرمضاء تفتش عن فريسةٍ تزدردها، فما إن تجدها حتى تغرز فيها أنيابها الملأى بالسم الزعاف[2]..

(١) الرمضاء: الأرض الحامية من شدة الشمس.

(٢) السمّ الزعاف: السمّ المميت.

وكانت شرارة الفتنة في ديار بني جمح، عندما اعترض أحدُهم طريق أمية بن خلف، واستوقفه مستهزئاً، وهو يقول له:

ـ أصبأتَ يا أمية؟!

وصُعِقَ أمية منكراً على الرجل ما يسمع، وملحّاً عليه إظهارَ ما يتهمه به، فقال له: والآلهةِ التي أعبد، ما علمت رجلًا تهاون في بيته مثلك يا أمية، حتى استغفلك عبدُك الحبشي، فصبأ على دين «محمد».

وثارت ثائرةُ ابن خلف، فتولَّى عن الرجل واندفع عادياً إلى داره، وهو يصرخ: يا للعار! يا للعنة! أأمية يُعيَّر بالصبأ؟! واللات والعزى لن يكون هذا أبداً وفيَّ رمقٌ من حياة!

نكبة بلال بن رباح

واجتمع عليه بنو جمح وأتوا بعبده الحبشي بلال بن رباح ليقيموا في تلك الدار الملعونة عرساً للشيطان الرجيم. فقد طرحوا هذا المسلمَ المستضعفَ عند أقدامهم، مكبَّل اليدين ثم راحوا يتعاقبون على تعذيبه ضرباً بالسياط حتى نالوا منه فوق ما يحتمل. وكان أشدّهم حنقاً أمية الذي كان يضرب عبدَهُ بلالًا، بكل قواه، وهو يزعق قائلًا:

ـ لأسومنَّك أيها العبد «النتن» عذاباً لم تسمع به قريش في ديارها، ولا العرب في مضاربها..

ثم أمرهم أن يجروه منزوع الثياب، مصفَّدَ اليدين والرجلين بالحديد، ويطرحوه على الرمال الملتهبة في بطحاء مكة، والهاجرةُ على أشدِّها. ولم يكتفوا بذلك، بل أتوا بصخرة كبيرة، ووضعوها

على صدره، ثم وقف أمية بن خلف فوق رأسه، وهو يضحك بملء شدقيه ـ وكأنه قد شفى غليله منه ـ وهو يقول له:

ـ والآن أيها العبد «اللئيم»، أتكفر بدين «محمد» حتى أرفع عنك هذا العذاب؟

وكان الألمُ قد أخذ من بلال كل مأخذ، وجعله غير قادر على أن يردَّ بشيء، ولكنه وهو يسمع أمية يأمرُهُ أن يكفر بالدين الذي اهتدى إليه، لا يجد إلَّا أن يجود بنفسه في سبيل الله تعالى، فيرفع بناظريه نحو السماء وهو يوحِّد الله تعالى ويقول:

أَحَدٌ.. أحَدٌ... (أي أن الله تعالى واحدٌ أحدٌ لا شريك له).

ويغلي الدم في عروق أمية، فيثب إلى الصخرة فوق صدر بلال ويعتليها، وهو يقول:

ـ ادعُ «إلهكَ» ليخلِّصك، وابعث إلى «محمد» لينقذك.. وإنك إن فعلت فإن ذلك لن يغنيك عن العذاب شيئاً، إلَّا أن تذكر آلهتنا بخير أيها «الوقح اللعين».

ولم تفلح محاولات أمية، رغم قساوتها، في صرف هذا المؤمن، الصابر على الأذى البليغ، عن ترداد الكلمة الحق: أَحَدٌ.. أحَدٌ.. مما دفع بالكافر لأن يأتي بأم بلال ويطرحها إلى جانب ابنها، ثم يضع رجلَهُ فوق عنقها، وهو يقول لبلال:

ـ والآن أيها الحبشي «النتن»، أتَرَى مَنْ هذه؟ إنها أمّك حمامة ملقاة تحت قدميّ، والتراب يعفِّر وجهها، ولن أدعَها تنجو من سوء العذاب إلَّا أن تترك الصبأ وتعود إلى ديننا ودين آبائنا.

لقد كان الكرْب والشدة يحيطان ببلال وأمِّه من كل جانب. ولو

أنه استجاب لطلب الكفر ـ ولو باللسان ـ لما لامَهُ أحد. ولكن كيف للظلم وإن اشتدَّ، وللقسوة وإن عنفت، أن تنال من إيمان المؤمن الصادق.. لقد كان بلالُ بن رباح مستعداً للموت، ولا يُسمِع هذا اللعينَ الكافرَ أمية بن خلف كلمةً واحدةً تشفي غليلَهُ. أما أمُّه فيحتسبها عند ربها، وهو ـ سبحانه ـ كفيل بأن يثيبها على ما تستحق من الأجر، ولذلك ظل الإيمان قوياً في نفس بلال، وكلمة توحيد الله ـ عز وجل ـ تتردّد على شفتيه: أحد.. أحد..

ومضت عدة أيام وبلال وأمُّهُ على تلك الحال حتى شارفا على الهلاك. ولكنَّ الله (تعالى) وهو الغالب على أمره، قد شاء أن يمنَّ على عبدَيْهِ بالخلاص، فجاء أبو بكر رضي الله عنه وطلب من أمية بن خلف أن يرأف بهما، فثار اللعين في وجهه، وهو يقول له:

ـ بل أنت من أفسَدَ العبد الحبشي يا ابن أبي قحافة، فإنْ كنتَ تريد نجاتَهُ، فاذهب إليه وليكفرْ بدين «محمد» الذي فُتِنَ الناسُ به!..

وردَّ عليه أبو بكر رضي الله عنه بقوله:

ـ بل أبادلك عليه بغلام أسود عندي، فهو على دينك، وإنه أشدُّ جلَداً من هذا المسكين، فسأعطيكَهُ به.

وتفكَّر أميَّة فوجدها صفقة رابحة. فموت هذا العبد الحبشي لن يفيده بشيء، فوافق، وتمت المبادلة التي شاءها الله سبحانه، لينجوَ بلال من سوء العذاب الذي ألحقه به ذلك المشرك اللئيم. ثم أعتقَهُ أبو بكر رضي الله عنه فصار بنعمة الله مسلماً، حراً.. أما أمُّه فقد جمع لها المسلمون المال الذي افتدوها به، فتخلصت من جور أمية بن خلف، وصارت هي الأخرى من المسلمات الحرائر.

استشهاد ياسر وزوجته سمية

وكانت المحنة الأخرى في ديار بني مخزوم، وقد وقعت على بيت ياسر بن عامر العبسي.. فمِن قبلُ لجأ ياسر إلى سراة بني مخزوم، محالفاً أبا حذيفة بن المغيرة ليدفع عنه عاديةَ بطون قريش الأخرى، وقد زوَّجهُ أبو حذيفة أمَةً له، سمية بنت خياط، فولدت له ولدين هما: عمّار وعبيد الله... وسارت بهم الحياة في كنف بني مخزوم رقيقة، لا جدب ولا عسر حتى تقدم العمر بالأب، واكتملت رجولة ولده عمار.

فلما أشرق الضوءُ الساطع على مكة، وبعث الله ـ تعالى ـ محمداً رحمة للعالمين، كان عمار من بين بضعة وثلاثين رجلًا قد أسلموا في دار الأرقم.

وعرض عمار الإسلام على أبوَيْه، فأسلما. وكتم هذا البيت المؤمن إسلامَهُ حتى ذلك اليوم الذي تنادت فيه قريش تحضُّ على تعذيب المسلمين. فجاءت الوشاية إلى بني مخزوم تحرّضهم على عمّار وأهله، فحملوهم معاً إلى الأبطح، ليطرحوهم في تلك الفلاة، تحت وهج الشمس وحرّ الرمال التي تحرق أجسادهم، وهم صابرون يئنون من الجوع والعطش والألم..

ومرَّ رسول الله ﷺ يحاول أن يؤاسيهم، فما كان من الرجل الكافر، الذي كان يتولى تعذيبهم، إلَّا أن اشتدَّ عليهم بالضرب وهو يخاطب أم عمار قائلًا:

ـ انظري أيتها الجاحدة، فهذا نبيكم «محمد» قد جاء ليخلّصكم، ولكنْ هيهات أن يكون لكم أي خلاص وما زال فيَّ رمقٌ

من حياة! وكانت أم عمار في شبه غيبوبة، فلما سمعت ذكر النبي ﷺ فتحت عينيها، وقالت بنفس ذائقة الموت:

ـ انظر ماذا حلَّ بنا يا رسول الله!

فأجابها الرسول الكريم، وقلبه يتفطر أسىً عليهم:

ـ «صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة»[1].

فقالت تلك المؤمنة بنفس مطمئنة راضية:

ـ والله إني لأشمُّ رائحتها يا رسول الله.

وكما كان متوقعاً فقد مات ياسر، من شدة التعذيب على الرمضاء، شهيداً. إذ قد خانَته سنُّه المتقدِّمة، فلم يقوَ على الاحتمال، فقضى جوعاً وعطشاً على يد الظالمين، ليكون أولَّ شهيد في الإسلام.

وحان دور زوجته سمية عندما جاءها أبو جهل يستهزىء بها، ويأمرها بأن تسبَّ «محمداً» وتكفر بدينه، فما كان منها إلَّا أن بصقت في وجهه، وهي تقول له:

ـ قبَّحك الله أنت وآلهتَك يا ابن هشام.. أمّا محمد فهو رسول الله..

وطار صواب أبي جهل فأمسك بحربته وطعنها، لتلاقيَ ربَّها شهيدةً، وتلحقَ بزوجها مستبشرة بالجنة التي وعدهم بها رسول الله ﷺ، فتكون مثل زوجها أول امرأة قُتلت شهيدةً في الإسلام، بلا ذنب اقترفته، إلا أنها تقول: ربي الله..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣٤٢.

ولم يعد أبو جهل يكتفي بضرب عمار بعد موت أبيه وأمِّه، وهو مقيّد على رمال الصحراء الملتهبة، بل اشتدت قسوته عليه، فكان يأمر أن يأتوه بالصخرة فيضعها على صدره، أو يأمر أن يدلّوه في برميل من الماء الذي يغلي من شدّة حرِّ الشمس ووهجها، وكل ذلك ليرتدَّ عن دينه، بينما عمار يجالد، ويحتمل، حتى خارت، بعد أيام، قواه من شدة العذاب، فاغتنمها اللعين أبو جهل فرصةً مؤاتية، وأخذ برأسه وهو يقول له:

ـ أتريد الخلاص يا عمار، إذن تسبَّ «محمداً» وتقول في اللات والعزَّى خيراً.

وبلا وعي أو إدراك صار عمار يردّد ما يقوله فرعونُ قريش حتى ظنَّ أنه انقاد لإرادته، فطلب أن يفكّوا قيوده، ويخلوا سبيله، ليَرى أهلُ مكة جميعاً، وليس «محمد» وأتباعه وحدهم، كيف أنَّ القوة مع المسلمين تجعلهم يتركون «الصبأ»، ويعودون إلى عبادة الآلهة التي تعبدها قريش..

ولكن خسىء الظالمون، وخسىء أبو جهل، فما إنْ أبلَّ عمار من الشدة التي حلّت به، حتى ذهب من فوره إلى النبي ﷺ باكياً، نادماً، معتذراً عما أُكرِه على قوله، وهو تحت وطأة تلك النكبة التي أفقدته الوعي، فسأله رسول الله ﷺ.

«فكيف تجد قلبك يا عمار؟».

قال: أجده مطمئناً بالإيمان يا رسول الله.

فقال له الرسول الأعظم: «يا عمار! إن عادوا إلى مثلها فعُدْ»..

وبحال أولئك المسلمين الذين عُذِّبوا في سبيل الله، فصَدرت

على ألسنتهم كلماتٌ لا تتعدى الشفاه، ولا أثَرَ لها في قلوبهم التي ظلت مطمئنة بالإيمان، نزل قول الله تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1].

أجل! «إلَّا من أكرِهَ وقلبُهُ مطمئن بالإيمان». إنها إحدى القواعد في الإسلام التي تدلُّ على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وهو وحده يعلم ما في السرائر وما تكنُّ الصدور. فمن أُكرهَ على التلفظ بالكفر، فتلفّظ به ولكن قلبه مطمئن بالإيمان، لا معصية عليه. ذلك أن الدين يُراعي الإنسان في جميع حالاته من القوة والضعف، والإرادة والإكراه، والقصد والخطأ وغيرها من الحالات التي قد يتعرَّض لها الإنسان، في مواجهة الحياة. إذ لا سبيل للحكم على الإنسان وإدانته في حالات إتيان المحرَّم إذا ما ألجأته إليه القوة أو التهديد، أو العنف أو أي أسلوب من أساليب الإكراه المادي أو المعنوي.

والله تعالى وهو الخبير اللطيف بعباده قد سنَّ لنا في كتابه العزيز هذه القاعدة التي تصلح في كل زمان ومكان، والتي توجب الحكمَ على الإنسان بميزان العدالة الكاملة التي تأخذ بعين الاعتبار الفعلَ ومسبباته، والظروفَ التي أحاطت به، والدوافع التي كانت وراءه، لا أنْ يُحكَم عليه لمجرد الظواهر بلا أدلة أو بيّنات. وعلى هذا فإنّ كلَّ من يدفَعُ غيره لارتكاب المحرّم أو المنكر أو أي جرم، يكون هو المسؤول إذا ثبت أنَّه مارس عليه إكراهاً أو خداعاً، بل ويتحمل

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

العقاب مثل الذي مارس الفعلَ الجرمي وأشدّ، لأنه بفعله يكون قد ظلم المكرَهَ وظلم نفسه. ومحاسبتُهُ تكون بإنزال الحكم الشرعي الذي يستأهله، لردعه عن ظلم الآخرين، ودفعهم إلى مخالفة الأحكام، والقواعد، والنظم النافذة، ولاسيما الأحكام الشرعية المستمدة في الإسلام من الكتاب والسنة. من هنا كانت هذه القاعدة هي إحدى الركائز الأساسية في الإسلام، التي تخاطب الإنسان، وتحثه على إحقاق العدل في جميع أحكامه. ولا نظنُّ أنَّ مجتمعاً ساده العدلُ إلا وصلُحت فيه أحوال الناس.

غيرهم من المعذبين

ومن المعذبين الأوائل: خباب بن الأرت، وصهيب الرومي، وأبو فكيهة.

فأما خباب فهو تميمي النسب، خزاعي الولاء، وحليف بني زهرة. جرى عليه السبْيُ في الجاهلية فاشترته امرأة من خزاعة وأعتقته. وكان قيناً يصنع السيوف، ويعدُّ خباب قديم الإسلام، إذ كان من بين الأوائل الذين أسلموا قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم.

وقد أراد المشركون استدراجَهُ للنيل منه، فجاءه يوماً العاص بن وائل متحرِّشاً، مفترياً، يحتجّ بسيفٍ له عند خباب ليصلحه، وقد أبى أن يدفع أجر تصليحه إلَّا أن يكفر بدينه، فقال له خباب:

ـ لا والله لا أنكر دين الله تعالى. ولسوف تموتُ وتُبعث يا هذا فانظر ما يكون منك؟

قال العاص:

ـ فإني إن متُّ وبُعثتُ جئني ولي مالٌ وولدٌ، فسأعطيكَهُ!..

وكانت تلك هي الحجة على خباب، فأخذه المشركون من دكانه، واقتادوه للتعذيب، فكانوا يُحمون الحجارة بالنار ويكوون جسدَهُ بها، أو كانوا ـ إن أرادوا تسلية أكثر ـ يضعون حول رقبته حبلًا ثم يوثقونه بصخرة وهم يهددونه بالشنق أو يرتدّ عن دينه، ولكن خباب ظل ثابتاً لا يستجيب لمأربهم حتى افتداه إخوته المسلمون بمالٍ جمعوه له، فتخلّص من ظلم الكفار وبطشهم.

ولم تكن الأساليب الوحشية الرعناء التي مارسها المشركون على صهيب بن سنان الرومي أقلَّ بعذابها من تلك التي ألحقوها بخباب، إلَّا أن الله سبحانه وتعالى منَّ عليه بالعتق من الجور بعدما افتداه المسلمون، هو الآخر بالمال، فعاش حراً، كريماً منيعاً. وقد كنّاه رسول الله ﷺ بعد عتقه بأبي يحيى قبل أن يولد له ولد. ومما يشهد لصهيبٍ، في صدق إيمانه، جرأتُهُ على المشركين، فقد مرَّ يوماً، وهو بصحبة عمَّار وخباب، بجماعة منهم، فراحوا يستهزئون بهم، ويقولون: انظروا إلى جلساء محمد!.

فما كان من صهيب إلَّا أن ردَّ عليهم بلا خوفٍ ولا وجل:

ـ بل نحن جلساءُ نبي الله ورسوله. آمنّا وكفرتُم، وصدَّقناه وكذَّبتموه. ولا خسيسة مع الإسلام ولا عزَّة مع الشِّرك.

وأما أبو فكيهة واسمه أفلح، فقد كان عبداً لبني عبد الدار. وقد أوذي من أجل إسلامه إيذاءً شديداً، إذ كان الكفار يعرُّونهُ من ثيابه، ثم يربطون برجليه حبلًا ويسحبونه على الرمال في حرّ النهار. فيكتوي جسمُه، وهم يقولون له:

ـ أين هو ربك؟

فيجيب بإيمانه الصادق:

ـ الله ربي وربُّكم وربُّ آبائكم الأولين.

وقد رأوا أن يتخلّصوا منه، فأوثقوا عنقه بحبل وراحوا يجرّونه، حتى إذا ظنوا أنه مات تركوه تحت وهج الشمس. ولكنَّ الله سبحانه وتعالى منَّ عليه بالحياة، فاشتراه أبو بكر من أسياده، وأعتقه في سبيل الله.

تلك بعض النماذج من العذاب التي كانت قريش تستعملها ضد ضعفاء المسلمين،.. وقد قامت بحملةٍ مركَّزةٍ تنمُّ عن الحقد الدفين على دعوة الإسلام، والتصميم على القضاء عليها. وكان الظلم الذي يمارسونه على أتباعها بمثابة شغْلهم اليومي، لا يتخلون عنه إلا لسأمٍ أو ضجر، كما يشهد عليه قول عمر بن الخطاب ـ قبل إسلامه ـ لامرأةٍ مسلمةٍ اسمها لبيبة، كانت جارية عند بني مؤمل بن حبيب بن عدي، فكان عمر يأتي ويعذبها، حتى إذا ملَّ، قال:

ـ إني لم أترك إلَّا ملالةً[1].

وعلى الرغم من تفاهة المشركين، وأساليبهم الوحشية، إلَّا أنه لشدَّ ما كان يأخذهم العجب بالروح الإسلامية، وهم يرون المسلمين يجمعون في كل مرة المال ليفتدوا به المستضعَفين منهم، ثم يُعتقونهم فيصيرون أحراراً.. وها هوذا أبو قحافة ـ والد أبي بكر ـ يعبِّر عن هذه الحقيقة عندما قال لابنه:

---

(١) الرحيق المختوم، ص٨٠، عن: رحمة للعالمين ج١ ص٥٧؛ السيرة لابن هشام ج١ ص٣١٩. ملالةً: من المَلل.

ـ يا أبا بكر! إني لأراك تُعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك فعلْتَ ما فعلْتَ، وأعتقتَ رجالًا جلداءَ يمنعونك، ويقومون دونك؟

فقال له أبو بكر رضي الله عنه:

ـ إني والله أفعل ما أفعل في سبيل الله.

فيردُّ عليه أبوه محتدّاً:

ـ ولكنَّ هذا الأمر يغضب بني قومك.

فيجيب أبو بكر: إنني أبتغي مرضاة الله ـ تعالى ـ ورسوله. وإني أدعوك إلى الله فتَنْجُو!.

ولم يكن المسلمون الآخرون، من ذوي المنعة بمنأى، هم الآخرون، عن سفاهة المشركين، إذ قلّما كان أحدهم يلتقي رجلًا مسلماً إلَّا ويقول له:

ـ لقد صبأتَ يا هذا، وتركت دين أبيك وهو خير منك، لنُسفِّهنَّ أحلامَك، ونُخَطِّئنَّ رأيَك، ولنضَعنَّ[1] شرفَك!..

وإن كان المسلم يعمل في التجارة، قال له المشرك:

ـ ولنُكسِدَنَّ تجارتك، ولنُهلِكنَّ مالك!..

ولم يكن في المشاحنات الكلامية، أو الهزء والسخرية ما يشفي غليل الحاقدين من قريش، ولكن الخوف من الفتنة واندلاع القتال، كانا وراء كبح جماح عصبيتهم وغضبهم، فيقفون عند حدود المهاترات وتوعد المسلمين بالنيل منهم. ويدل على هذا الخوف تحذيرُ هشام بن الوليد لأبي جهل وأتباعه، عندما جاؤوا يشتكون أخاه

---

(١) ولنضعنَّ: نحقِّرنّ. والمصدر: الضعة.

ويستأذنونه بمعاقبته على دخوله في الإسلام، إذ أنذرهم ابن الوليد بأن يكتفوا بعتابه من دون المساس به بشيء، وإلَّا فالعاقبة قد تكون وخيمة، كما يتبين من قوله لهم.

ـ هذا لكم، فعليكم به فعاتبوه، وإياكم ونفسَهُ، فأقسم لئن قتلتُموهُ لأَقَتُلَنَّ به أشرفَكم!

وتركوه وهم يندِّدون بموقفه قائلين:

ـ اللهم العنْهُ، فلو أصيب أخوه بأيدينا، لقتل أشرفَنا رجلًا!

واستدامت صلافة قريش، وامتدَّ أذاها واستهزاؤها بالمسلمين حتى طاولَ الأمرُ الرسولَ ﷺ نفسَهُ، وذلك حين تصدَّت له جماعةٌ أثناء طوافه حول الكعبة، فراحت تهزأ به برعونة، علّها تنال منه ما يبرّد لهيب حقْدها!..

وكان معه أبو بكر رضي الله عنه، فتقدَّم من تلك الجماعة في محاولة لثنْيها عن سوء فعْلها، والابتعاد عنه ﷺ لأنه ما بُعث إلَّا لهدي الناس وصلاحهم، أفيكون جزاؤه من بني قومه الاستهزاء والإهانة! مما لا يقبله أي عقل أو عُرف؟!.. ولم يتركوه يكمل حديثه إذْ أخذت عتبةَ بنَ ربيعة الحميةُ الوثنية، فتقدم يصفعه على وجهه، ثم انهالوا عليه بالضرب المبرح، من دون أن تسوّل لأحد نفسه المساسَ بالنبي ﷺ الذي اندفع في وسطهم ليمنعهم من صاحبه.. ولم يتركوا أبا بكر رضي الله عنه إلَّا والدم يسيل منه.

وطار الخبر إلى بني تيْم ـ قوم أبي بكر ـ فأقبلوا غاضبين حانقين، إلا أنهم لم يدركوا تلك الجماعةَ الغاضبة لأنها كانت قد تفرقت في أزقَّة مكة، بعد فعْلها الشنيع.

وأقسم بنو تيم، أن يقتلوا عتبة بن ربيعة بصاحبهم إن مات. . ثم حملوه إلى بيته لتلقاه أمُّه سلمى بنت صخر، ساخطة، مولولة. فلما استعاد وعيه من الصدمة كان أول ما سأل عن النبي ﷺ، وهو يقول:

ـ أين رسول الله، وماذا فعلوا به؟

وكانت عنده أخته أم جميل ـ وهي ممن هدى الله تعالى إلى الإسلام ـ وقد جلست بقربه تضمد جراحه، فقالت له:

ـ هذه أمّك تسمع. .

قال لها:

ـ فلا شيء عليك منها. .

عندها قالت له أخته:

ـ إن رسول الله بخير والحمد لله.

قال:

ـ فإن لله عليَّ ألّا أذوق طعاماً أو شراباً حتى آتي رسول الله.

ولم تُنكر عليه أمُّهُ ذلك، ولكنها نصحتْ له بالتروي إلى أن يسكن الناس. فلما همَّ بالذهاب، أبت تلك الأم إلَّا أن ترافق ولدها خوفاً عليه من جرحه، ومن الناس، فاحتضنته وأختَه في الطريق حتى دخلوا على رسول الله ﷺ، فهبَّ يستقبلهم، وهو يسأل صاحبَهُ عن حاله، فقال أبو بكر:

ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله. . والله ما بي من بأس إلَّا ما نال مني أولئك القوم في رأسي. . وهذه أم الخير قد برَّت بابنها الجريح، فعسى أن ينقذها الله بك من النار.

وأجلس النبيّ ﷺ أم الخير بجانبه، وراح يحدِّثها عن دين الله، حتى انشرح صدرها للإسلام، فأعلنت بين يَدي رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله..

ولاح البِشْر في وجه النبي ﷺ، فنظر إلى أبي بكر فإذا بالفرح يغمره، ولكنه لم يستطع أن يحبس دمعة نزلتْ على خده لشدة تأثره بإسلام أمِّه، فهبَّ يقبِّل يَديْ هذه الأم التي أعتقها الله تعالى من النار، وهو يقول لها:

ـ لقد فزت بالخير يا أم الخير..

إسلام حمزة بن عبد المطلب

واستمرت الحملة على المسلمين حتى لم يفلت أحد إلَّا وأوذي بصورة أو بأخرى إمّا في نفسه، أو في ماله، أو في عزيزٍ عليه، بل وصَلَ الأمرُ بالمشركين للاعتداء على النبي ﷺ نفسِه، وذلك أنه جاء يوماً، فطاف حول الكعبة ثم ذهب، وجلس في طريق المسعى، على صخرة نائية، يتأمل ويفكر كعادته.. فيراه أبو جهل أثناء مروره، مصادفةً، من تلك الناحية، فيميل نحوه، ويأخذ بالشتم والسخرية، والرسول ﷺ لا يجيب صاحب النقص بمثل نقصه، لأن خلُقه القرآن، ـ وهو من قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام، كان يأنف سمع الشتيمة وينكرها ـ فلم يردَّ على أبي جهل بل ظل ساكتاً، مشيحاً بوجهه عنه، فلما طالَ لجاجُ[1] هذا الفاسق بسفاهته، لم يجد النبي ﷺ بدّاً من القيام والابتعاد عنه..

---

(١) اللجاج: التمادي.

وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان، قد وقفت ترقب، وتسمع سفاهَ أبي جهل، وترفُّعَ النبي ﷺ عن مخاطبته، فثارت مشاعرها، وتمنَّت تلك الإنسانة لو تكون لديها القدرة لتهجم هي على هذا الحقير أبي جهل وتنشبَ أظافرها في وجهه. ولكنها وهي المسكينة، لم تجد متنفساً لغضبها، وحزنها على رسول الله ﷺ، إلا البكاء.. وبينما هي تتأوَّه وتذرفُ الدموعَ إذا بحمزة بن عبد المطلب يمرُّ بقربها، فيسألها عمّا يُبكيها، فأخبرته بما حصل للنبي ﷺ وما آذاه به أبو جهل.

وكان حمزة عائداً من رحلة قنص.. وقد عُرِف عنه أنه لا يأتي أهلَه قبل أن يذهب إلى بيت الله الحرام، فيطوف حول الكعبة، ثم يروح يتجول في مكة، متنقلًا من مكان إلى مكان، وكلما مرَّ بنادٍ لقريش، وقف وتحدَّث إلى الناس..

كان حمزةُ يستمع إلى شكاية تلك المولاة، ومدى تأثُّرها على النبي ﷺ، فأحسَّ كأنَّ شيئاً يعتصر قلْبه، ويُنسيه كل أمر إلا العثور على عمرو بن هشام، فاندفع يبحث عنه إلى أن عثر عليه بين نفرٍ من جماعته بني مخزوم، فتقدم منه، وأهوى عليه بضربةٍ شديدة من قوسه كانت كفيلةً أن تشجَّ رأسه، وهو يقول له:

ـ ويْحك يا عمرو!.. أتشتم «محمداً»، وأنا على دينه، أقول ما يقول.. فرُدَّ عليَّ ذلك إنِ استطعت[1].

«فقام رجال من بني مخزوم ينصرون أبا جهل، فقالوا لحمزةَ: ما نراك إلا صبأْت؟ فقال حمزة: وما يمنعني؟ وقد استبان لي منه أنه

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣١٢.

رسول الله، والذي يقوله حق؟ فواللَّهِ لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين[1].

لقد ثار حمزة بن عبد المطلب، «أعز فتى في قريش وأشدّهم شكيمة»[2] عندما علم بالتعدي على ابن أخيه ظلماً وعدواناً... وكان في ثورته تلك تعبيرٌ رائع عن العهد الذي قطعه بنو هاشم على أنفسهم، في منع «محمد» وحمايته.. وتأكيدٌ من حمزة بالذات على اعتزازه بنفسه، واعتداده بشجاعته، إذ لم يلبث بعد أن ضرب أبا جهل بقوسه أن استلَّ سيْفَهُ من غمده، ووقف قِبالة أولئك النفر، يتهددهم بالموت الزؤام، إن سوَّلت لأحدٍ نفسُهُ أن يقاتله..

وهنا تدخّل أبو جهل، فصاح في جماعته؛ «دعوا أبا عمارة.. فإني والله قد سببْت ابن أخيه سبّاً قبيحاً»[3].

وتوجّه حمزةُ بعد ذلك إلى داره وفي نفسه ألفُ حيرة عما دعاه ليعلن أمام الناس بأنه على دين محمد!.. وجاء الليل وبات أرِقاً لا يغمض له جفن، ولا يهدأ له أوار.. إنه فعَل ما فعَل، وليس بنادم، ولكن ما السبيل للحفاظ على كرامته؟! فهو علَمٌ في قريش، وإذا قال شيئاً فإنه يُلزم به نفسَه، لأنه يكون حجةً عليه، بل وحجةً على بني هاشم، الذين عرفهم القومُ أهلَ قولِ صدقٍ، وثباتِ موقفٍ، فماذا عساه أن يفعل؟!..

وعند الفجر، وفي ساعة الصفاء والسكون، إلَّا من أصوات

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣ ص١٥٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٢ ص٧٢. والشكيم: الأبيّ الذي لا ينقاد.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣١٢.

ديَكة مكة، تصيح مُؤْذِنةً باقتراب طلوع صباح جديد، جاءه الإلهام، فقال في نفسه: «اللهمَّ إن كان ما صنعتُه خيراً، فاجعل تصديقَه في قلبي، وإلَّا فاجعل لي مما وقعتُ فيه مخرجاً»..

لقد سلَّم حمزة أمْرَه لخالقه، فذهب في الصباح، وطاف حول الكعبة المكرَّمة وهو يتضرع إلى ربه أن يسدِّد خطاه ويشرح صدره للحق، ثم قصد دار ابن أخيه محمد بن عبد الله.

واستقبله النبي ﷺ وهو يرى القلقَ بادياً عليه، فأجلسه بقربه يسأله عما ألمَّ به، محاولًا أن يسرّيَ عنه، وهو يُكبر فيه تلك الهمة العالية في تلقينه أبا جهل درساً لن ينساه في حياته..

وسُرَّ حمزةُ وهو يجد ارتياحاً لدى ابن أخيه عمَّا فعله بالأمس، فانشرحت أساريره، وهو يتطلَّع إلى هذا الوجه الصبيح، الذي لم تزده الأيام إلَّا كمالًا وإشراقاً، فاندفع ينفّس عن مكنون صدره، وما يحتبس بين ضلوعه من فساد الأوضاع في مكة، ومن زعامة قريش بالذات، من دون أن ينسى حادثته مع أبي جهل البارحةَ وما أعقبها من أرق وحيرة إلى أن قال: هذا ما جرى يا ابن أخي، وقد بتُّ لا أعلم أرُشْداً أتيتُ، أم عصبيَّةً كادت توقع فتنة؟! فحدثْني حديثاً طويلًا، وأَبِنْ ليَ مِن نُصحك ما يهديني، فوالله أشتهي يا ابن أخي أن تحدِّثني..

وأقبلَ الرسول الكريم على عمِّه حمزة، بصفائه الروحي المعهود، وبطُهره النفسي المشهود، يذكّره، ويعظه.. ويبيِّن له من آيات الله ـ تعالى ـ ما يؤنس القلب، ويهدي العقل.. وهذا العمُّ يصغي إليه بانتباه، ويعي كل ما يقول بروح نقية طاهرة، حتى شَعَر بأن الإيمان يهزُّ قلبه، وإذا به يأخذ يَدي الرسول الكريم فيضعهما على صدره ويعلن قائلًا:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله...». ثم لا يلبث أن يهبَّ واقفاً، كمثل عادته في كلِّ أمرٍ جَلَل وهو يقول له:

«فأظهرْ يا ابن أخي دينَك.. فوالله ما أحب أنَّ لي ما أظلّته السماء وأنا على ديني الأول»[1].

وقال حمزة حين أسلَمَ قصيدة منها[2]:

حمدتُ الله حين هَدى فؤادي ... إلى الإسلامِ والدينِ الحنيفِ
لدينٍ جاءَ من ربٍّ عزيزٍ ... خبيرٍ بالعبادِ بِهِمْ لطيفِ
إذا تُليَتْ رسائِلُهُ علينا ... تحدَّرَ دمعُ ذي اللّبِّ الحصيفِ
رسائلُ جاءَ أحمدُ مِن هُدَاها ... بآياتٍ مبيَّنَةِ الحُروفِ

تلك كانت نتيجة الإيذاء الذي تعرَّض له النبي ﷺ من أبي جهل.. وهي النتيجة الحاسمة التي كانت تأتي دائماً عندما تثور قريش وتندفع للاشتداد على المسلمين.. فكلما كانت تمعن في العداء للإسلام، كان ذلك يزيد من إقبال الناس على هذا الدين، ولاسيما من ذوي النفوس العالية، وأصحاب الشهامة، الذين يرفضون الظلم أيّاً كان مصدره، ويكرهون العنت، أيّاً كان مسبِّبُه.. كما حدث لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

ولم يكن دخول حمزة في الإسلام حدثاً عادياً، بل يشير المقدسي إلى أثره الكبير فيقول: «فلما أسلم حمزة عزَّ به الدين والنبي ﷺ وسرّ رسول الله ﷺ بإسلامه كثيراً»[3] كما وأخرج

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص٧٢ ـ ٧٣، والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣١٢.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣١٢.
(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ج٣ ص١٥٣ عن: البدء والتاريخ ج٥ ص٩٨.

الطبراني في «الكبير» بإسنادٍ رجال ثقات عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريف، حليف بني زهرة، أنَّ حمزة لمَّا أسلم عزَّ به رسول الله ﷺ والمسلمون، وثبّت لهم بعض أمرهم، وهابت قريش، وعلموا أن حمزة سيمنعُهُ[1].

ولأن إسلام حمزة كان بتلك الأهمية للدين، فإنه هزَّ كيان المشركين، لمَا رأوا فيه من إنذار بسوء العاقبة التي باتت تنتظرهم، ولماذا؟ لأن حمزة كان يمثل قوة قائمة بذاتها، وهذه القوة قد انحدرت الآن من صفوفهم لتقفَ في الجانب المعادي، بل في صفّ عدوِّهم الأوحد «محمد»، فاندفعوا يُحرِّض بعضهم بعضاً للاشتداد على النبي ﷺ، والمضيِّ في إيذائه.. وكان عمُّه أبو لهب هو وزوجه وأولاده ممن يفعلون ذلك، إذ لا يمرُّ يوم إلا ويطرحون القذارة على بابه بحكم جوارهم منه، فكان يقول؛ «أيُّ جوار هذا يا بني عبد المطلب!».

وإنَّ رؤوس المشركين ليجتمعون يوماً عند هُبَل، تلبية لدعوة من أبي سفيان صخرِ بن حرب، وهو يقدم قرباناً لكبير آلهتهم على ما أصابت تجارة له في اليمن من ربح، فيأتي النبيِّ ﷺ ليطوف ـ كعادته ـ ويصلّي في الكعبة الشريفة.. فانتظروه حتى صار قائماً في صلاته، فقال أبو سفيان:

ـ مَن يذهب ويُخزي هذا الرجلَ الذي أقضَّ مضاجعَنا، ونغَّص عيشَنا، وأفسد علينا أمورَ حياتنا؟!..

قال حموه، عتبةُ بن ربيعة: أنا له.

---

(١) موسوعة عظماء حول الرسول، ج١ ص٦٥٢ عن: مجمع الزوائد، والسيرة لابن هشام، وتفسير الطبري، والطبقات الكبرى لابن سعد.

قال له صهرُه أبو سفيان: لا يا عمّ!.. فإن زوجتي هنداً لا ترضى أن أزجَّك في موقف مثل هذا، وإنها لا تغفر لي إن جرى لك أي مكروه، فدع عنك هذا الأمر للشباب، وهم أجدر منّا به..

وردَّ عليه عتبة بنبرة وحدَّة: بل إنَّ ابنتي هنداً ستفخر بي، حين تعلم أني قد أنزلتُ «بمحمدٍ» الهزءَ والسخرية...

ولكنَّ أبا سفيان منعه من ذلك لكِبرِ سنِّه، وقال له:

ـ لن أدعك تفعل أيها الشيخ القرشي..

وهنا أخذت الحمية أبا جهل، فقام يتناول بضع بقايا الذبيحة (القربان) ويندفع نحو النبي ﷺ فيلقيها عليه، وهو ساجدٌ بين يدي الله عزّ وجلّ.. ثم عادَ إلى مجلسه، والقوم يصفقون له هاتفين، هازجين.

الكفّار يضحكون ويسخرون، والنبي ﷺ لا يحفل بفعلهم الشنيع، بل يقوم من سجوده، ويذهب إلى بيته، لتلقاه ابنتُه فاطمة الزهراء عليها السلام على تلك الحالة، فتحزن وتبكي، ثم تأخذ ثوبه للغسل وهي ترنو بناظريها إلى السماء، وتقول:

«اللهمَّ هذا عبدك ورسولك، فارحمه يا أرحم الراحمين، وأنزِلْ بأعدائه اللعْنةَ التي يستحقون»..

وراح رؤوس المشركين، يتربصون بالنبي ﷺ ويرقبون تحرُّكه، فلا يتركون سانحة تمرُّ، إلا ويحاولون أذيّته، ومثالهم عقبة بن أبي معيط الذي كان يأخذ المِكْتَل[1]، فيجعل فيه عذرةً[2] ثم يذهب

---

(١) المكتل: وعاء يُحمل فيه التمر وغيره.

(٢) عذرة: لطخة أي وسخاً.

ويضعه على باب رسول الله.. فبَصُرَ به يوماً طليب بن عمير بن وهب بن عبد مناف بن قصيّ ـ وأمُّهُ أروى بنت عبد المطلب ـ فأخذ المِكْتل منه، وضربه به على رأسه، فشكاه عقبة الخسيس إلى أمّه، وهو يقول: قد صار ابنك ينصر «محمداً».

فقالت له:

ـ ومن أولى به منّا، أموالنا وأنفسنا دون «محمد».

محاولات أخرى للنيل من النبي ﷺ

واستفحلت الضغينة بعد ذلك الحادث في قلب عقبة بن أبي معيط.. إلى أن رأى النبيَّ عند الكعبة وحدَه، فتقدم من ورائه خلسةً، وتناول ثوبَه من قُربه، ولفَّه حول عنقه وهو يحاول أن يخنقه به، ولكنه سرعان ما تركه مبتعداً عنه، عندما رأى جماعة من فتيان المسلمين، تُقبل نحو الكعبة، بحثاً عن رسول الله..

وبعد فشل تلك المحاولة من ذاك اللعين عقبة، أعلن أبو جهل بدوره عزمه على النيل من النبي ﷺ، وهو يَعِدُ رؤوس المشركين بأنه سيتربَّص بـ«محمدٍ» ويضربه بحجر كبير يشجّ رأسه.. فارتاحت نفوس أولئك الشياطين للنبأ، الذي يمنّيهم بالخلاص، وهم يقولون لبعضهم بعضاً: لئن قَتل صاحبُنا «محمداً» فقد كفانا شرَّه، وإن ثَأَرَ بنو هاشم بقتْل أبي الحكم، نكون نحن قد نجوْنا...

.. ولا غرابة من موقف أولئك الأنجاس، وهم يشجعون أبا جهل، الجهولَ، على ما ابتكرت نفسُهُ اللئيمة، حتى يجعلوه مطيةً لتنفيذ مأربهم من «محمد»، فإن أصاب فيكون نجاحه نجاحاً لهم جميعاً، بينما يرتد فشلُهُ عليه وحده... فصاروا يرقبون ما يفعل أبو جهل وهو يلاحقُ

النبيَّ من مكان إلى مكان، حتى استفرَدَ به يوماً عند الكعبة، فانسلوا إلى أماكن متفرقة، ليروا ما يكون من أمر صاحبهم هذا. حتى إذا بدأ النبي ﷺ صلاته عند مقام إبراهيم عليه السلام، ظهر أبو جهل، وهو يمشي على رؤوس أصابعه، وبيده حجرٌ يريد أن يضربه به.. ولكنه ما إن اقترب منه حتى أجفل وارتدَّ على عقبيه هارباً، لا يلوي على شيء، مما جعلَ خيبة الأمل التي لم يتوقعوها تصيبهم في الصميم، ولذلك لم يطقْ أبو سفيان بن حرب البقاء في مخبئه فاندفع يعترض أبا جهل، وهو يخزيه بقوله:

ـ قُبّحتَ من جبان! أبَعْدَ أن حاذيتَهُ، وكدتَ تقف فوقه، تتخاذل ثم تفرُّ مذموماً، مدحوراً، فيا لتعاسة قريش بك!..

وبجهد جهيدٍ نطق لسان أبي جهل، وهو يقول له:

ـ إياك يا أبا سفيان وكيدك الذي أعرف، وآلهة قريش ما إن دنوْت من الرجل حتى أحسستُ بأنَّ يدَيَّ قد يبستا على الحجر، وعرض لي دونه فحلٌ من الإبل، وإنّي ما رأيت مثلَ هامتِه، ولا رقبتِه، ولا أنيابِه، فهمَّ أن يأكلني.

وصدق الله العظيم حيث قال:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1].

فهل كان لنبيُّ الرحمة إلَّا قارئاً القرآنَ، وداعياً الرحمانَ وهو يصلّي؟ وهل كان فحلُ الإبل الذي تراءى لأبي جهل ـ وهو من الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ إلَّا ملكاً بعثهُ الله ـ عز وجلّ ـ على

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٥.

تلك الصورة ليكون حجاباً ساتراً للنبي ﷺ فلا يصل إليه أذى مشركٍ بربِّه، كافرٍ بعبادته؟!

ومن أبالسة قريش الذين مردوا[1] على الحقد، كان الأسود بن يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ـ ابن خال النبي ﷺ ـ كان إذا رآه، يقول له: أما كُلِّمتَ اليوم من السماء يا «محمد»؟ وكان إذا رأى فقراء المسلمين يقول لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون الأرض من بَعدنا؟!.

ومنهم أيضاً الحارث بن قيس بن عدي بن سعد السهمي، وأمُّه تدعى الغيطلة. كان يتخذ الحجر إلهاً يعبده، فإذا أعجبه حجرٌ غيره تخلَّى عن إلهه الأول وعبد الحجر الثاني وفيه نزلت الآية الكريمة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2]..

ومنهم أميَّةُ وأبيُّ ابنا خلف.. وكانا على شرِّ ما كان عليه أحد من أذى لرسول الله ﷺ وتكذيبه.. جاء أبيٌّ إليه ﷺ بعظْم فخذٍ ففتَّه في يده وقال: يا «محمد»! أتزعم أن ربَّك يحيي هذا العظم بعدما أرمَّ؟!.

فقال له: «نعم ثم يبعثك الله وإياه ويُدخلك في النار». فنزل الوحي، بقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ

---

(١) مرد: داوم على الأمر.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣ ورميم: بالية.

ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

ومنهم العاصُ بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص، وكان من أشد المبغضين للنبي ﷺ، إذ لمَّا توفي ابنُهُ القاسمُ (رضوان الله عليه) أظهر العاصُ حقدهَ الدفين على أشد ما يكون من التشفي والكراهية، وهو ينعت رسول الله ﷺ بأنه «أبتر» أي لا يعيش له ولد ذكر، فأنزل الله تعالى الآيات البينات في سورة الكوثر بقوله الحق: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[2] وهنا الدلالة العظيمة.. فرب السماوات والأرض ومن فيهن يواسي رسوله الكريم ويعده ـ وإن وعد الله حق ـ بأن يعطيَه نهر الكوثر في الجنة، لتكون حياضهُ مشرعةً لأهل الجنة. بينما يتوعد مبغضه العاصَ بنَ وائل أن يكون هو الأبتر بحرمانه من الجنة التي هي أمنية العاقل، وبغية المؤمن... (وأن لا يبقى له ولد على الشرك فيسلم جميع أبنائه فينقطع نسله من حيث شركه). فيا سبحان الله ثلاث آيات فقط، تكوّن سورة قرآنية تامة، ولكنها تُحقُّ الحقَّ، وتُزْهِقُ الباطلَ...

ومنهم نبيه ومنبِّه ابنا الحجاج السهميان، اللذان لم يقلّا عن جماعة الكفر في الرغبة للنيل من النبي ﷺ، فإذا لقياه قالا له:

ـ أما وجد الله من يبعثه غيرَك؟ إنَّ ها هنا من هو أسنّ منك وأيسر..

---

(١) سورة يس، الآيات: ٧٧ ـ ٨٢.

(٢) سورة الكوثر، الآيات: ١ ـ ٣.

أما عن النضر بن الحارث فحدِّث ولا حرَج.. كان قد قدم الحيرة وتعلّم فيها أحاديث ملوك الفرس، وعباداتها، وأقوالَها في الخير والشر، وفي عناصر الكون.. فقد كان لا يعرف مجلساً أتاه «محمد» يدعو فيه إلى عبادة الله ـ تعالى ـ ويحذّر الناس عاقبة ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم التي أعرضتْ عن عبادته سبحانه وتعالى، إلَّا ويذهب النضرُ إليه ليقصَّ ما تعلّم من أساطير فارس وديانتها ثم يقول: بماذا محمدٌ أحسنُ حديثاً مني؟.. وكانت قريش تذيع أحاديث هذا الكافر ـ من طريق الرواية ـ للدعاية ضد رسول الله ﷺ واتهامه بالنقل عن غيره من أخبار الأمم الأخرى وأن ما يخبر به ليس «إلَّا أساطير الأولين» وفي النضر بن الحارث وأمثاله من الكافرين نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

هؤلاء، وغيرهم أمثال: زهير بن أبي أمية، وطعيمة بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، ومالك بن الطلاطلة، وركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، كانوا من أشد الناس عداوة لرسول الله: يشتمونه، ويستهزئون به، ويكذِّبونه... وقد توجهوا إليه مباشرة، بشتى أنواع الأساليب الدنيئة، وأقبح طرق المساوىء. فما زاده ذلك إلَّا قوة وثباتاً، وما زادهم إلا خِسَّةً وخُسراناً.. لقد بعثوا إليه رجلًا غريباً، جاء يستعديهم على أبي جهل الذي ابتاعَ منه إبلًا قدم بها مكة، من دون أن يدفع له أثمانها، فدلّوه على محمد ﷺ. فتقدم الرجل الغريب من النبي ﷺ وقال له: «يا أخا العرب، إني رجل من إراش،

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.

قدمت بإبل لي إلى مكة فابتاعها مني عمرو بن هشام، ولم يدفع لي أثمانها، فرحت أستعدي القوم عليه، فأرسلوني إليك، وقد جئتُ طالباً إنصافي، فهل لك أن تعيد لي حقاً يوشك أن يضيع»..

وعرف النبي ﷺ ما يدبِّره له الكفار من مكيدة، ولكنه لم يكن ليتوانى قطُّ عن نصرة الضعيف، فاصطحبَ الرجل حتى أتى دار أبي جهل، وطرق عليه بابَه، فخرج ليرى من الطارق، وإذا به أمام محمد ﷺ وجهاً لوجه، والرسول الكريم يقول له:

ـ أعطِ هذا الرجل حقَّه.

وتلعثم أبو جهل وحار بما يجيب، ولكنه، بعد قليل من التفكير، نزل على أمر النبي ﷺ صاغراً وأدَّى للإراشي حقوقَه، وهو يقول للنبي ﷺ:

ـ دعني يا ابن عبد الله.. فإني لا أطيق مواجهتك، ولا مجاهرتك بما في نفسي.

وعرف الكفار بما جرى، فقالوا لصاحبهم:

ـ ويحك يا أبا الحكم! إنها للسبّة تلاحقك، فما سمعنا بمثل ما صنعْت.

فقال لهم: أَتَدعونني وشأني؟ فإني لا أطيق بعدُ تهكُّماً ولا شماتةً، أوَ تدرون ماذا تفعلون؟ إنه ما إن طرق «محمد» بابي وفتحت فرأيته، حتى أحسست أن روحي قد فارقتني. إذ رأيت فوق رأسه سيفاً مسلولًا نحوي، فلو أبيْتُ لتقدَّم مني ذلك السيف وقطع أوداجي[1]..

---

(١) الودج: عرق في العنق.

وكأنما حوَّلت تلك الحوادث أبا جهل أضحوكةً للقوم، لا يتوانون عن السخرية والاستهزاء به، فوق ما يعيّرونه به من الجبن والخذلان، بل واتهامه بالتخيلات التي تنبىء عن المسّ والخوف، كأن يقولون له:

ـ أترى يا أبا الحكم، فلعلَّ الأشباحَ قد صارت حليفة ابن عبد الله، ولكن لا تطلُع على أحدٍ غيرِك من قريش؟ أم أنه قد أصابك المسُّ، فهو يصدُّك عنه؟!.

وطال الأمر بالتهكم على أبي جهل، وهو يسكت على مضض، حتى لم يعد قادراً على الاحتمال فانتفض في وجوههم وهو يقول: ويحكم يا سادة قريش كفاكم إهانة وشماتةً بي، فمَن يملك منكم شجاعة، فدونه «محمد» وليأْتِهِ، ولنرَ ما يكون من أمره!.

كانت الهجمات والحملات ـ وما تحمل من ألوان الأذى والعذاب ـ تترى على المسلمين، فيلاقون من جرائها آلاماً نفسية حادة، وهذا ما كان يشقُّ على النبي ﷺ، فيتفطّر قلبه أسىً على أصحابه، لأنه غير قادر على أن يرفع الظلم عنهم، بسبب عدم تكافؤ القوى، وضغطِ الظروف غير المؤاتية للمقاومة.. وأهم من ذلك أنه لم يؤمر بعدُ بالقتال، وأن عليه الترقب والانتظار حتى يأتي الله أمراً كان مفعولًا... ولكن تبقى المواساةُ هي السبيل الذي يمكن أن يتخذه ﷺ للتخفيف عن الصحابة الأبرار، فجعل من نفسه ملاذاً لهم: يحنو عليهم حنوّ الأم على وليدها، ويعطف عليهم عطْف الأب الشفوق الرحيم، ويدعوهم إلى الصبر الجميل، والإكثار من الصلاة والدعاء لما فيهما من راحة نفسية للمؤمنين، وما إلى ذلك من النفحات

النبوية الطيبة، التي آتت أُكُلَها بفضل الله ـ تعالى ـ فصارت، وهي تصدر عن محمد ﷺ بالذات، زاداً للمسلمين يقوون به على احتمال كل مكروه، والصبر على كل شدة.. على أنه وإن كان الاقتناع بعدالة الصبر، وجزائه الأوفى، من المفاهيم الثابتة في نفوس المسلمين، ولئن كانوا يعملون لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، فإنه يظل في النفس الإنسانية ـ بالمقابل ـ مَواطن للضعف، تحدو بالإنسان أن ينشد الخلاص مما يعاني من الآلام، وما يقاسي من المصائب، كما هي الحالة التي وصل إليها معظم المسلمين في تلك المرحلة، والتي يعبِّر عنها خباب بن الأرت عندما جاء رسول الله ﷺ يشكو ممّا هم فيه، وهو يقول: ادعُ الله تعالى يا رسول الله!. وهنا يرى الرسول الأعظم أن ينحو منحى آخر ولو فيه بعض القسوة.. صحيح أن الدعوةَ وآلامَ الصحابة صنوان في نفسه، إلَّا أنه لا بد من شحنة تقوّي العزم في النفوس على الضعف، لأن معركة المؤمنين ضد أهل الكفر والباطل ما تزال في بدايتها، وليس لها إلَّا هُم وحدهم، فلا يمكن أن يتخلّوا عن خوض غمار هذه المعركة مهما كان الثمن الذي يدفعونه غالياً.. ولذلك نظر ﷺ إلى خباب وقال يعظه: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفرُ له في الأرض ويجعلُ فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمْشط بأمشاط الحديد فما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه. والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلَّا اللَّهَ والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

---

(١) رواه البخاري، رياض الصالحين، رقم ٤١.

الفصل الثالث

المهاجرون إلى الله (تعالى)

البحث الأول

الهجرة تداركاً للفتنة

وكثرت شكاوى المسلمين، وصاروا يخافون أن يُفتنوا عن دينهم من شدة غلواء قريش، واشتدادها في الأذى عليهم. فلمّا رأى رسول الله ﷺ ـ حيال هذا الواقع المرير ـ ما يصيب أصحابَه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانه من الله، ومن عمّه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرضُ صدق، حتى يجعل الله فرجاً مما أنتم فيه»[1].

الهجرة الأولى إلى الحبشة

وحلَّ شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث النبي ﷺ الموافقةِ لسنة خمسَ عشرة وستمئة (٦١٥) ميلادية، وكان فيه خروج للمسلمين في أول هجرة لهم، ابتعاداً عن أعين الكفار وأذاهم، وكانت عدة أولئك المهاجرين الأوائل اثني عشر رجلًا وأربعَ نساء، وهم: عثمان بن عفان ـ وبرفقته زوجته الفاضلة رقية بنت رسول الله التي تزوجها بعد أن طلقها عتبة بن أبي لهب، وقد ولدت لعثمان، في

(١) الرحيق المختوم، ج١ ص٣٧ عن ابن إسحاق.

الحبشة، عبد الله، فكان يُكنَّى به؛ وأبو حذيفة بن عتبة ـ ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ـ، ومصعب بن عمير، والزبير بن العوام، وعبد الرحمان بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد ـ ترافقه زوجه بنت أبي أمية ـ، وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن مسعود، وعامر بن ربيعة العنزي ـ وبرفقته امرأته ليلى بنت أبي هيثمة ـ، وأبو سبرة بن أبي رُهْم، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن وهب بن بيضاء ـ من بني الحارث[1] ـ.

وفي هؤلاء المهاجرين، نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[2].

ومن يتفكَّر في هذه الآيات يجد أنها تحمل ما يكفي من المواساة لأولئك المهاجرين؛ فهم يخافون الهجرة إلى بلاد ليس لهم فيها دار ولا عقار، ولا طعام لهم ولا سقيا، فكان لا بد من مواجهتهم بما هو أخوف من الهجرة، وأكثر إيلاماً على النفس، وليس أشدّ من الموت داهية يخافها الإنسان أو يكرهها ـ مع أنه حق على رقاب العباد ـ فإذا كانت الهجرة من شأنها أن تذيقهم مرارةً في القلب، وشظفاً في العيش، وخوفاً على المصير، فإنَّ ذلك يبقى أهون من الموت.. ولكن، مهما كان عبءُ الهجرة ثقيلًا فهو ليس بلا مقابل، فالهجرة في سبيل الله لها ثوابها العظيم عنده سبحانه وتعالى، ولذلك تنزَّلت الآيات المباركة، التي تحمل مع المواساة، الوعد بالثواب، بقوله تعالى:

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٦٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٦ و٥٧.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] . . إذن، فلا يَخَفِ المهاجرون في سبيل الله من غربةٍ، ولا شدّةٍ، ولا عوزٍ، فإذا صبروا وهم على ربهم يتوكّلون، آتاهم الفرجَ والرزق في الدنيا، ونالوا ثوابَ هجرتهم، وصبرهم، وتوكلِهم في الآخرة.

وكان خروج المسلمين سراً متسللين، منهم الراكب ومنهم الماشي، حتى انتهوا إلى البحر، فوجدوا سفينة فأقلّتهم، فخرجت قريش في أثرهم حتى جاؤوا البحر فلم يجدوا أحداً منهم[2].

وإثباتاً لأمر الله تعالى، نزل المهاجرون في أرض الحبشة آمنين من أي خوفٍ أو حقد، أو بطش قد يلاحقهم به الكفار في مكة. . ولقد يسَّر الله ـ الرزاق الكريم ـ سبلَ عيشهم، فوجد البعض عملًا يكسب منه رزقه، ومن لم يستطع أن يجد له عملًا، أعانه إخوانه من ذوي اليسر والغنى (كما كان يفعل عثمان بن عفان، صاحب المال والنعمة)، فعاشوا متآلفين في وحدتهم الإسلامية، متماسكين، يذود بعضهم عن بعض غوائل الأيام، في ظل حياة كريمة، متواضعة. ولم يكن لهجرة تلك الثلة من المسلمين أية أصداء في أرض الحبشة الواسعة، إنْ بسبب قلة عددهم، وإنْ بسبب ما قد يلفت الأنظار إلى هجرتهم، ووجودهم. . ولكنْ، وإن لم تظهر لتلك الهجرة دلائل

---

(١) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٨ ـ ٦٠.

(٢) السيرة الحلبية، ج١ ص٣٢٤، الطبري ج٢ ص٦٩؛ اليعقوبي ج٢ ص٢٩.

معيَّنة هنا، إلَّا أن برهانها قد سطع في مكة، وغايتها قد أذهلت قريشاً؛ إذ ثبت لديها أنَّ المسلمين أشدُّ حرصاً على دينهم مما كان يعتقد زعماؤها ـ الأغبياء ـ، وأنهم متفانون في سبيل هذا الدين، ومستعدون لاحتمال الخسائر والمشاق لأجله؛ وإلَّا كيف يهجرون أهليهم، ويتخلّون عن ديارهم، ويتركون أعمالهم وموارد أرزاقهم؟!

ولكنَّ هذا السلوكَ الإسلامي ـ في الإخلاص للدين والتضحية للحفاظ على العقيدة في النفوس ـ هل تدرك قريش معانيَه، فتظهر لها الحقيقة، وهي أن الإسلام قد أنزلَهُ ربُّ العالمين ليُظهرَه على الدين كلِّه ولو تألّبت عليه أعتى قوى الشر، أو قامت في وجه أتباعه ومريديه أشدّ العقبات والصعاب؟ أجل، إنه السلوك الإسلامي الذي يمثل الالتزام في ذراه[1] الإيمانية والإنسانية، فيترجمه المسلمونَ واقعاً حسياً بالهجرة هرباً من الفتنة، ومع ذلك فقد ظلت قريش على الوتيرة عَيْنها في ملاحقة المسلمين بالأذى المعنوي والماديّ، ما دام عتاتُها في طغيانهم يعمهون.. وها هُم يتخذون من الهجرة ذريعةً أخرى، يضيفونها إلى ذرائعهم السابقة، فلا تقتصر أعمالهم الإجرامية على المسلمين المستضعَفين، بل تتعدى إلى هؤلاء المسلمين الذين غلب عليهم الحِلم والمروءة في حياتهم الخاصة، وعلت بهم المكانة والشرف في القوم، فلا يتوقعون منهم مناوأة أو مقاومة تُذكر، لأنهم يأتمرون بأوامر نبيِّهم، الذي ينهاهم عن العراك والقتال..

ولا تقف دروس الهجرة عند هذه الحدود، بل إنَّ لها دلالات أخرى ـ وربما أهم ـ في حسبان القيم الإنسانية؛ فالرسول الأعظم لم

---

(١) الذرى: القمم العالية.

يكن اختيارُه بلادَ الحبشة مهاجرَ للمسلمين إلَّا بعد طول أناةٍ وتفكير، ليثبت في ضمير العالم كله أن أرض الحبشة، التي تغلب عليها النصرانية، هي أوْلى من أية بقعةٍ أخرى في الأرض لاحتضان أبناء دين الله، فلا يَلقوْن فيها أذىً ولا افتراءً، ولا يعانون تعذيباً أو جهالة. . إن الرسول الأعظم محمد بن عبد اللّه ﷺ أرادَ أن يبرهن للدنيا أن أرضَ الأديان السماوية هي أحق بالمؤمنين، واستقبالهم بالأمن والسلام، ولذلك لم يأمر المسلمين بالمهاجرة إلى قبائل العرب في البادية، حيث الحميّة ـ بالسليقة ـ لطلب الجوار، أو إلى أرض امبراطورية فارس، التي تتمتع بالسطوة والهيبة والسلطان، ولا حتى إلى أرض الامبراطورية الرومية ـ مع أن فيها النصرانية ـ التي تعطي للرعايا الرومان الأولوية على مختلف الأفراد والجماعات غير الرومانية، بما لا يطمئن على مصير المهاجرين إلى تلك البلاد، وربما إلحاق الظلم بهم، ومن هنا كان اختيار النبي ﷺ لأرض الحبشة، دون غيرها من الأمصار الأخرى، «لأن فيها ملكاً لا يُظلم أحدٌ عنده» كما أبانَهُ ﷺ. .

ومن الأهداف الأخرى للهجرة، التي أرادها النبي ﷺ ضاربة في عمق الزمن، ويجدر بالناس التوقف عندها، وتقديرها كلما تقدمت العصور، أنها تجعل الشعوب تتعارف فيما بينها مما يفتح ـ في التعايش مع بعضها ـ مدارك التسامح والألفة والتعاون، ليس بين أهل الأديان السماوية وحدهم، بل وبين أبناء البشر جميعاً. .

أما الهدف الأهم والأسمى من هجرة المسلمين ـ عندما تكون الهجرة في سبيل الله، أي: عندما تكون غايتها الحفاظَ على عقيدة المسلم، وسعيه للرزق الحلال، والحفاظ على كرامته الإنسانية ـ فهو الهدف الإيماني إذ «كما أن الإيمانَ فرض على كل أحد، فقد فرض

الله ـ تعالى ـ عليه أيضاً هجرتين: هجرة إلى الله ـ عز وجل ـ بالتوحيد، والإخلاص، والإنابة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة والتوبة، وهجرة إلى رسوله ﷺ بالمتابعة والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه[1].

بمعنى أن الهجرة لله ورسوله بأبعادها الإيمانية غير الهجرة التي لا تبتغي إلَّا أعراضَ الدنيا وحدها دونما حسبانٍ لتأثيرها على دين المسلم، والتزامه بأحكام الشرع في مختلف أنماط حياته، كما هي الحال اليوم، في حياة غالب المسلمين الذين يهاجرون إلى ديار الاغتراب، لسبب أو لآخر، حيث ينسون التزامهم الديني، وينغمسون في أجواء البلاد التي يهاجرون إليها، فيجرفهم ـ ويجرف أبناءهم ـ زخرفُ الدنيا ومتاعُها، بما يضيّع عليهم دينهم وآخرتهم.. من هنا يتبين كيف أن للهجرة معانيها التي تضرب في عمق الزمن، فلا تقتصر على عصر دون آخر، ولا تطالُ الأهداف الدنيوية دون الأهداف الإيمانية للمسلمين بخاصة، وللناس بعامة..

ومن أين لزعامة المشركين في مكة ـ يومئذٍ ـ أن تعي تلك الأبعادَ والمرامي لهجرة المسلمين، فلم يروا في تلك الهجرة ما يتخطَّى تفكيرهم الضيق، وهو أنها بداية تتيح لأتباع «محمد» الخروج من مكة، واللحاق ببعضهم بعضاً، حتى يتجمَّعوا، ويؤلفوا قوة منيعة من الرجال والمال والسلاح. ثم يعودون إلى مكة بتلك القوة، فتدور

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٥٩.

الدائرة على قريش، ويحل بها الويل والثبور، وتنزل بالآلهة التي تعبُدُها عظائمُ الأمور!.. هذا ما رآه كفار قريش من هجرة المسلمين، فقد خافوا أن تكون العواقب وخيمة عليهم، فمضوا على نفس الدأب في العنت والإرهاب، بل وبأشدَّ مما مضى، حتى تُوهَنَ عزائمُ من بقي من المسلمين في مكة، فلا يحقق «محمد» شيئاً من الهجرة التي فتح أبوابها لأتباعه!..

إسلام عمر بن الخطاب

وقد برز في تلك الفترة عمر بن الخطاب من أشدّ المتحاملين على الدعوة الإسلامية. فقد كان في طباع الرجل غِلْظة، وقلَّما تدخل الرحمة إلى قلْبه. كما أنه كان صاحبَ خمرة، يحبها ويسعى لمعاقرتها. وتلك الطباع قد حملته على ملاحقة المسلمين، ومشاركة جماعته في أذيَّتهم، وقد بلغت به الحماسة أن يُعلن على الملأ، أنه لم يعد قادراً على احتمال بقاء محمد بن عبد الله في مكة، وأنَّ على قريش أن تقتلَه، وتفرغَ من أمره.

وبينما كان في جلسة منادَمة، انبرت شلَّةُ السكارى تحرِّضه على أن يتولى هو بنفسه قتْلَ «محمد»، لأنه أقدر الناس على ذلك.. وما زالت به تلك الصحبة الخبيثة حتى أهاجته، فهبَّ خارجاً من الخمارة، ولكنَّ نعيم بن عبد الله النحام، «وهو رجل من قومه من بني عدي بن كعب، كان قد أسلم، وكان يستخفي أيضاً بإسلامه فرقاً من قومه»[1]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١ ص٣٦٧؛ (وقيل: إن الرجل أراد أن يُبعد عُمَراً عن النبي ﷺ، إذ لعلَّ في ذهابه إلى بيت أخته، ما يصحِّيه من سكره، ويهدّىء ثورة انفعاله). وفرقاً: فزعاً.

استوقفه في الطريق، ليسأله عما يهيجهُ، فاعترف له عمر ـ تحت وطأة السكر ـ أنه ذاهب للقضاء على «محمد»، فما كان من نعيم إلَّا أن قال له:

ـ لقد غشّتْك نفسك يا عُمر! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت صاحبَهم؟! أفلا ترجع إلى أهلك وتقيمُ أمرَهم؟!

فقال عمر:

ـ وما قولك يا هذا؟

قال نعيم: إنها أختك يا عمر! فاطمة بنت الخطاب، وصهرك سعيد بن زيد[1] قد صبآ، وصارا على دين «محمد».

وبدون أن يعقِّب، طار عمر على جناح السرعة إلى بيت أخته، بعد أن طار كل أثر للخمرة من رأسه، وشاء المدبِّر العالم أن يكون خباب بن الأرت هناك وهو يتلو في تلك الساعة آياتٍ من الذكر الحكيم، فيسمع عمر، عندما يبلغ صحنَ الدار، التلاوة، مما يجعله يرغي ويزبد في صراخه، فيسرع أهل البيت ويخبّئون الصحيفة احترازاً منه، ثم يقفون قبالة الباب في محاولة لتهدئته، إلَّا أن ذلك لم ينفع، لأنه استمرَّ في اندفاعه، وانقضَّ على صهره سعيد، يريد البطش به، لولا أن زوجَه ألقت بجسدها عليه، فنزلت ضربة عمر على رأسها وشجّته، وجعلت الدماء تسيل منه.. عندئذٍ هانت على سعيد نفسه، فصرخ غاضباً:

---

(١) هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي.

ـ نعم لقد أسلمنا يا عمر، وآمنّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك..

وبمثل لمح البصر أحس عمر كأن قوة خفية تردعه عن هذا الرجل، وتقذفه إلى مقعدٍ بقربه، فيهوي بجسمه عليه، وكأنه لا يصدق ما يجري معه، وما يحلّ به من فتور في همّته، وخوار في قواه، جعله يستكين على تلك الحالة؛ ولكنه سرعان ما خرج على صمته، وطلب أن يعطوه ذلك الشيء الذي كانوا يقرؤونه فمانَعتْ أختُه، وهي ترنو إليه برقَّة وحنان، قائلة:

ـ بل لا تمسُّ صحيفةً فيها قولُ الله رب العالمين، حتى تغتسل وتتطهَّر. إنه قرآن كريم لا يمسُّهُ إلا المطهّرون.

وكأنَّ تلك القوة الخفيَّة، التي حجبته عن صهره، ما تزال تلقي بثقلها على هذا الغليظ الطبع فلم يحتجّ على قول أخته، بل سألها برويّةٍ وهدوء:

ـ وكيف تكون طهارتكم؟

ثم انتبه لما أصابها منه، فقام يرجو زوجها أن يأتيه بالماء ليغسل هو الدم عن وجهها، ويضمّد جرحها. فلما فرغ من ذلك عاد يسأل عن كيفية الطهارة، فقام صهره سعيد، وأتى له بثوب نظيف، ثم أخذه حيث يغتسل، لتكتمل طهارة بدنه مع طهارة الثوب الذي قدمه له.. وعاد عمر بعد الاغتسال، ليجد رجلًا غريباً يجلس إلى أهل البيت، فلم تدعه أخته يعقب بشيء بل بادرته بالقول:

ـ إنه خباب بن الأرت يا أخي، وهو من أتباع النبي ﷺ، وقد كان يقرأ علينا القرآن، إلَّا أننا أشرنا عليه بالاختباء خوفاً من سورة

الغضب التي كانت تستبدُّ بك عندما أتيت إلينا، فهل ترى حيْفاً في ذلك؟

فالتفت إليه عمر وقال له:

ـ اجلس يا خباب ولا تخف..

وكانت المفارقة أن عمر هو الذي يطلب الآن أن يأتوا بالصحيفة ليقرأَها خبابُ على مسامعه فأخذ خباب، بعد أن تناولها من سعيد، يقرأ قول الله تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[1] وارتعدت فرائص عمر مما يسمع على الرغم مما كان يداخله من استحسان لحلاوة القول في هذه الصحيفة وبلاغة تعابيره، مما جعل أخته تقول له: أرأيت أنه ليس من كلام البشر، إنه حقاً يا أخاه قولُ الله تعالى، وإنه لقرآن كريم يهدي للتي هي أقوم.

وتجيش العاطفة الإسلامية في نفس خباب، فينسى من هو عمر بن الخطاب، فيقول له:

ـ فاللَّهَ اتّقِ يا رجل، وكن من أتباع دين الله تعالى ويهدكِ ويُنجِك من عذاب شديد!

وتعاودُ فاطمة النصحَ لأخيها، وهي تلمسُ فيه غلبة البرِّ على الشقوة، فتقول له:

---

(١) سورة طه، الآيات: ١ ـ ٨.

ـ فعسى أن يهديَك الله سبحانه وتعالى يا أخي، وينصرَ بك الإسلام.. ويثني سعيدٌ على قول زوجته، ويرجو لعمر أن يكون من أنصار الإسلام ودعاته، لاسيما أنه سمع من رسول الله ﷺ كلاماً يوحي بنصرة عمر لدين الله.

واطمأنَّ عمر لكلام هؤلاء المؤمنين، مثلما اطمأنت نفسه إلى القرآن الذي سمع تلاوته، قبل قليل، فهبَّ يتّشح بسيفه، ثم يسأل صهره عن مكان «محمد» علَّه يجد الخيرَ على يديه؛ ولكنَّ سعيداً خاف بل وأخذه الظنُّ بعيداً لأنه يعرف هذا الرجلَ، وشدةَ انفعالهِ ولاسيما في حالة الغضب؛ فيسكت ولا يجيب عمرَ بشيءٍ.. إلَّا أن التفاتة خباب كانت أكثر استشفافاً لدخيلة عمر، فلم يساوره الشك في السؤال عن مكان النبي ﷺ، ولم تداخله أية خشية عليه من هذا الرجل، فقال له:

ـ إنني أعرف مكانه، فهيّا بنا إليه..

وحين بلغا دار الأرقم بن أبي الأرقم تقدم عمر، بعد أن استأذنَ رفيقَ دربه، ليكون هو الطارق بنفسه، فلما رأوه من ثقب الباب، أجفل بعض الصحابة لمجيئه، فما كان من حمزة بن عبد المطلب إلَّا أن قال لهم:

ـ لقد جاءنا هذا الرجل سعياً على قدميه، فإن كان يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً رددناه عليه، وقتلناه بسيفه.

وأمر النبيُّ ﷺ بفتح الباب. وتقدم يتصدى لهذا العدو اللدود، وهو يأخذ بمجمع ردائه، ويجذبه جذبة قويةً، ثم يأخذ بتعنيفه عمَّا يحمله على أن يفعل ما يفعل بحق المسلمين وكيف يتجرّأ على

المجيء متقلّداً سيفه.. إلى أن يقول له: «فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله ـ تعالى ـ بك قارعة»[1].

واهتزَّ كيان عمر.. فقد كان لبضع ساعات يريد قتل «محمد بن عبد الله» وها هو الآن يرتجف بين يديه ويحسّ بكلامه ينفذ إلى أعماقه، وكأنه يريد أن يُلقي به إلى جحيم من النار، ثم لا يلبث أن ينتشله ويدعو له بالرحمة، فيظل ساكناً في وقفته، لا يبدي قولًا أو حركة، اللهم إلَّا تلك الزفرات التي تنم عن استسلامه.. فيدعوه رسول الله ﷺ إلى الجلوس والاستماع، فيجلس كطفلٍ وديع، وينظر إلى هؤلاء الفتيان من حواليه، فلا يجد بينهم إلَّا قريباً له، أو صديقاً، أو عشيرَ عُمْرٍ، فيقول في نفسه: ما بالي أراني في غربةٍ بين هذا الجمع وكنا من قبل ردفاً مردوفاً[2]؟ أم أنني قد نأى بي المزار فبعدت عنهم بجاهليةٍ ما إخال فيها إلَّا الندامة والأسى؟!. أهكذا أنت يا عمرُ بينما هُم قد هداهم ربهم، فآمنوا بهذا النبي وصدَّقوه! إنه وأيمُ الله لفوز كبير قد أحرزوه، وسبقوني إليه!.

وانتشله رسول الله ﷺ من تفكيره، وهو يعاود عتابه الذي بدأه به قبل قليل عن قسوته وشدته على المسلمين، لينفذ، من ثمَّ إلى ما يريد له من الهداية والرشد، ودعوته إلى عبادة الله الواحد الأحد، الرحمن الرحيم بعباده، والكفر بالآلهة التي تعبدها قريش، لما فيها من امتهان لكرامة الإنسان، والحطّ من قدره، وهو يتلو عليه، بين الفينة والأخرى من آيات الله (تعالى) ما يفتح مدارك العقل المغلقة، ويرشد

---

(١) القارعة: القيامة، وسميت بذلك لأنها تقرع بالأهوالِ وتصيب بالكوارث.

(٢) ردفاً مردوفاً: أي يتبع احدهم الآخر.

النفوس التائهة. وكان لكلام رسول الله ﷺ التأثير البالغ، والسريع، فإذا بعمر ذي البأس والعنفوان، يشعر وكأنه تحوّل إلى إنسان آخر، ليس له همٌّ في هذه الدنيا إلا أن يكون مسلماً، فوقف بين يدي رسول الله يشهد بأن: «لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

وسُرَّ الجميع بإسلام عمر بن الخطاب فقاموا يهنئونه على هذا الفوز العظيم، والدخول في دين الله الحق.. ولشدة تأثره بما سمع من رسول الله ﷺ، لم يقبل إلَّا أن يخرج ويذيع إسلامه على ملأ قريش بأسرها.. وبالفعل، وما إن انفض الاجتماع، حتى توجَّه إلى بيت عمرو بن هشام الذي هو من أكثر الجماعة القرشية حقداً على الإسلام وأهله، والذي صحَّ فيه لقبه أبو جهل لما تمتلىء به نفسه من جهالةٍ للحق، وعمىً للبصيرة..

وما إن أطلَّ أبو جهل، ورأى على وجه صاحبه ما ينبىء بنذير شؤم حتى اكفهرَّ وجهه من العبوس، إلَّا أنه غالبَ مشاعره، لأنه لم يجدً مبرراً لعدم دعوته للدخول، فما كان من عمر إلا أن ابتدره بالرفض وهو يقول له مباغتاً:

ـ ما جئت لأدخل يا عمرو، ولكن لأخبرك بما تكرهه وتبغضه، فقد آمنت بالله عز وجلَّ، وصدَّقت محمداً ﷺ بالنبوّة والرسالة. وما رأيت إلّاك أوْلى بمعرفة هذا النبأ قبل غيرك من بني قومك المشركين، فأبلغهم بما علمت، وحاذرِ الكتمان..

وكأنما نزل خبر إسلام عمر على هذا المشرك الحاقد كالصاعقة، فانتفض مرتدّاً إلى الوراء، وهو يصفق الباب في وجهه، ويتمتم بالشتيمة والسباب، مما أهاجَ عمرَ فراح يصرخ، ويتحدّاه أن يخرج إليه ليقاتله، وهو يقول له:

ـ هيا أيها الكافر اللعين، اخرج إليَّ، أم أنك لا تُظهر شجاعتك إلَّا بين أولئك الكافرين من أمثالك، وأنتم تجتمعون على الغي والحقد؟ ألا قبّحكم الله من قومٍ مفسدين!..

وأنَّى لكافر لفَّه الجبن في ثنايا زوايا بيته، أن يجرؤ على مواجهة هذا الفارس الذي قد هداه الله (تعالى) للإسلام، فزاده دينُهُ ـ من فوره ـ بأساً وشجاعة.. فقد غاب أبو جهل وراء بابه، لأن الحنق[1] القاتل قد أخمده، فارتدَّ إلى ظلمات نفسه ليقبع في مخازيها السحيقة، ولأن اللؤم الدفين قد أعياه فانطوى على جراح قلبه في أحقاده المقيتة.

وذاع خبر دخول عمر بن الخطاب في الإسلام، فذُهلت قريش!

وما كان ذهولُها إلَّا لأنها فقدت نصيراً قوياً في محاربة «محمد»، حتى لترى وكأن النصرة كلها قد ذهبت من يدها، ولكنها ظلَّت على إصرارها للنيل من «محمد»، فهو من «فَتَنَ» عمر كما «فَتَنَ» من قبله حمزة بن عبد المطلب فخسرت بطلين من الأبطال كانت تعول عليهما.. بل وسوف لن يدع أحداً من فتيانها أو فرسانها إلَّا ويجعله تابعاً له، ما لم تجعل القضاءَ عليه هدفَها الأوحد، فيصير هيّناً عليها التخلص من أتباعه، ولو كان فيهم حمزة وعمر، ومن ثم يسهلُ أمر اجتثاث دعوته من جذورها..

وراحت قريش تدبّر المؤامرة تلو المؤامرة، والمكيدة تلو المكيدة لنيل مآربها، إلَّا أنها لم تحصد إلَّا الفشلَ والندم، بل ويرتدُّ فشلها دائماً ربحاً على «محمد» والمسلمين، ولذلك رأت أن تعمَدَ إلى

---

(١) الحنق: الغيظ.

نمطٍ جديدٍ لم يألفه من قبل هؤلاء «الصابئون» ولن يخطر على بال أحد منهم شيءٌ مثله!.

عودة المهاجرين

وكانت خطة المشركين عاجلة في تنفيذ المؤامرة الجديدة، عندما بعثت من يفشي بين المسلمين في الحبشة الأخبار الملفقة بأن اتفاقاً قد جرى بين قريش ونبي المسلمين، وهو ألَّا يتعرضَ لآلهتها بتحقير، أو يذكرها بسوء، مقابل أن تكفَّ هي ـ قريش ـ عن عداوة المسلمين وإيذائهم.

وسرت الشائعات بين المسلمين عن عودة الهدوء والأمان إلى ربوع مكة، وأفلحت عيونُ[1] قريش ببث الأخبار الكاذبة، حتى اقتنع بعض المسلمين بأن الاتفاق قد حصل، وأنه لم يعد لديهم سببٌ يبقيهم في ديار الغربة.. هذا في حين لم تنطل تلك المكيدة الخبيثة على المسلمين الآخرين، بل وجدوها حيلةً مبتكرة، وفناً جديداً من أفانين الكذب والتآمر التي يبتدعها شياطين قريش، ويرمون من ورائها إلى أغراض بعيدة ودنيئة.. فحاول هؤلاء أن يثنوا من عزم إخوانهم على العودة، والعدول عن رأيهم، ولكنَّ محاولاتهم لم تجد آذاناً صاغية، لأن الحنين إلى الديار، ورؤية الأهل والأقارب، كان أقوى تأثيراً في النفوس، فودَّعوا إخوتهم، وقفلوا راجعين إلى بلدهم مؤمّلين..

ولكن المفاجأة كانت بانتظارهم عندما وصلوا إلى مشارف مكة، إذ لم يجدوا شيئاً مما سمعوا، وما قيل لهم.. لأن الأوضاع ما تزال

---

(١) عيون: جمع عين وهو الجاسوس.

على حالها فلا اتفاق بين النبي ﷺ والمشركين، ولا مهادنة أو شفقة من قريش على المسلمين، بل كانت خطة مدبَّرة، لحمل المهاجرين على العودة من الحبشة، ليذيقهم المشركون مُرَّ العذاب مثل سائر المسلمين، وبذلك لا يفلت أحد من الصلف القرشي ـ إلَّا من بقي بعيداً في غربته!..

ووقع المسلمون العائدون في الحيرة.. فرأى بعضهم أن لا مناص له من الرجوع إلى أرض الحبشة، إن أراد الفرار بدينه. بينما ارتأى البعض الآخر البقاء في بلده، والنزول إلى مكة في حماية من يجيره من أقاربه أو أصدقائه، ولو كانوا من المشركين.. فدخل عثمان بن عفان في جوار أبي أحيحة، سعيد بن العاص بن أمية، ودخل أبو حذيفة بن عتبة بجوار أبيه. ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة.

وإذا كان لمثل ذلك الجوار الذي التجأ إليه أولئك المسلمون دوافعه وهي عديدة ومعروفة، إلَّا أنهم لم يلبثوا إلَّا قليلًا، حتى راح كل واحد يعمل على إبراء نفسه من الجوار الذي أتعبَهُ وأشقاه، خصوصاً وهو يرى نفسَهُ آمناً في ذهابه وإيابه في مكة، بينما إخوته المسلمون يتعرَّضون لأسوأ أنواع الإهانة، ولأشنع أساليب الأذى...

ولعلَّ في ما كان يعانيهِ عثمان بن مظعون، ما يدلُّ على الندم والأسف الذي ينغِّص عليه أيامه، فلا يستطيب أي مقام، وفي النفس لومٌ دائم، وفي الضمير تقريع لا يكف، فيحدّث نفسه:

ـ أأكون في ذمة مشرك؟! إن جوار الله ـ تعالى ـ أعزّ وأبقى.

ويقرر عثمانُ التخلُّص من جوار الوليد، فيخرج باحثاً عنه في

كل مكان حتى وجَدَه في مجلسٍ يغصُّ بالناس، الذين جاؤوا يستمعون إلى لبيد بن ربيعة، وقد أتى مكة لينشد شعْرَهُ على أهلها. فدخل، وجلس ينصت مثل الآخرين، بانتظار نهاية المجلس.. حتى إذا سمع لبيداً يقول، وهو يعتزُّ بإنشاده:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ

وقف عثمان وسط الجمع، مبدياً استحسانه لذكر الله تعالى، وهو يقول:

ـ صدقتَ والله يا ابن ربيعة!.

ويُسَرُّ لبيدٌ لقوله، فيعيد ويكمّل قائلًا:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله بَاطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وهنا ينتفض عثمان ويصرخ في وجهه:

ـ كذبت هذه المرة، فنعيم الجنة لا يزول.

ويتوقف لبيد عن الإنشاد، وهو يستشيط غضباً لهذه الوقاحة التي لم يعرفها في مجالس شعره، ثم يتطلع إلى القوم الذين يتحلقون من حوله، وكأنه يستحثُّهم على التخلص من هذا الرجل، فيقوم البعض يطيّب خاطره، ويسترضيه، وهو يرجوه ألَّا يعيرَ اهتماماً لهذا الصعلوك عثمان بن مظعون الذي «صبأ» ولا شأن له عندهم، وأنه لولا جوار الوليد بن المغيرة له، لما كان تجرّأ ودخل إلى مجلسهم.. إلَّا أن لبيداً ظل على غضبه، مما دفع بعض الأراذل للاعتداء على الرجل المؤمن، عثمان بن مظعون، والنيل منه بلطمةٍ على عينه اليمنى أدت إلى ورمها على الفور. ولم يتوقفوا عن ضربه، لولا تدخل الوليد بن المغيرة، وإبعادهم عنه، وهو يقول لهم:

ـ دعوه فإنه من ذوي الأرحام فينا.

ثم التفت إلى عثمان، وهو يقول له بشماتة وسخرية:

ـ ما كان أغناك عن هذا! أرأيت ما حل بعينك اليمنى؟

ويدرك عثمان ما يرمي إليه الوليد، فيجيبه من فوره:

ـ بل، والله، إن عيني اليسرى تشتكي ما أصاب أختَها في الله.. وإنني والله أردُّ عليك جوارك منذ الساعة يا عمّاه!

وظنّ الوليد أن الألم الذي حلَّ بعثمان هو الذي يدفعه إلى مثل هذا الحنق، وطلبِ رد جواره، فيسأله ألَّا يتسرَّع، وأن يهدأ، بقوله:

ـ لا تتعجل يا ابن أخي، وخير لك أن تبقى في جواري.

ولكنَّ عثمان بن مظعون يرفض هذا البقاء بأنفةٍ وإباء، فيقول للوليد:

ـ لا! لن أعود إلى غير جوار الله، ولن أستجير بغير الله عزَّ وجلَّ.

فلما رأى الوليد بن المغيرة إصرار عثمان قال له: إذن فانطلق إلى الكعبة، فاردد عليَّ جواري علانية، كما أجَرْتك علانية. فانصرف معه ورد عليه جواره على مرأى الناس ومسمعهم[1].

ومثل هذه الحادثة وغيرها كانت من النتائج التي ترتبت على تلك المكيدة التي نصبتها قريش للردِّ على هجرة المسلمين إلى بلاد الحبشة. إذ لما عادَ بعض المخدوعين هجمت عليهم بزبانيتها[2] هجومَ الذئب الكاسر على فريسة وقعت بين أنيابه، في محاولة جديدة لتمزيق

---

(١) البداية والنهاية، ج٣ ص٩٢.

(٢) الزبانية: الشرطة في الدنيا، وفي الآخرة خزنة جهنم.

شتاتهم، فلعلَّ في ذلك ما يعيدهم عن «صبئهم» الذي وقعوا فيه!..

ولئن كان ذلك بعضاً من أفاعيل قريش الشنيعة التي كانت كلُّها حقداً وغدراً، إلَّا أنها ـ والحمد لله ـ لم توصلها إلى ما تصبو إليه وتشتهيه... فالعداوة والاستهزاء والأذى صارت من الأمور المألوفة.. والمسلمون باتوا يعرفون أنه لن يطلعَ نهار عليهم أو يأتي ليلٌ، إلَّا وسوف يلقَوْن من المشركين ما يُسيء إليهم.. ولكنَّ ذلك كله لا يعني لهم شيئاً مقابل الدعوة وحاملها، فقد وطّنوا نفوسهم على الاحتمال منذ اليوم الأول الذي دخلوا فيه في الإسلام، وعاهدوا الرسول على المضي في حمل هذا الدين وإيصاله للناس، وها هم للعهد حافظون، وعلى هدي الله (تعالى) ورسوله سائرون، وإن كان المجتمع المكي لم يستجب لهم، على الرغم مما يبذلونه لأجل خلاصه من الآفات التي تنخر بنيانه، وسلامته من الأمراض التي تفتِّت كيانه.

وكان متوقّعاً ألَّا يتجاوب ذلك المجتمع الفاسد مع دعوة الإيمان، وزمام أموره بين يدي عصبة من المشركين، المستكبرين، الذين استحبوا الكفرَ على الإيمان، والضلالَ على الهدى، فلم تفلح معهم دعوات الحق، بل ظلوا يزدادون غيّاً وضلالًا، من غير أن يحققوا شيئاً من غاياتهم ومطامعهم، لأن الدعوة استمرت، ولو ببطء، والدعاة ثبتوا على الصبر والاحتمال...

إنما كان هناك شيء واحد يمكن أن يُعدَّ نجاحاً للمشركين، وهو التهديد بخطر القتال الشامل بين بطون قريش.. وسكوت المسلمين على هذا التهديد، مما جَعَلَ أولئك المشركين يتمادون في تلك الأساليب الرعناء التي ينالون بها من المسلمين!..

وإذا كان المسلمون قد ألفوا مثلَ تلك الأخطار التي تتهددهم، ورضخوا لها مرغمين خوفاً على دينهم وخوفاً من وقوع حرب أهلية، إلَّا أن وقْعها على الرسول الأعظم كان الابتلاء بعينه، لأنها كانت ظلماً بظلم، بل ويزيده ﷺ ابتلاءً أنه غير قادر على ردّ الظلم، في ظل تلك الظروف الحرجة التي تتهدد الدعوة من أصلها، فلا يجد عزاءً إلَّا بهذا الثبات للمسلمين، ومضيّهم على الاحتكاك بأهل مكة، حتى يأتي الله أمراً كان مفعولًا..

الهجرة الثانية إلى الحبشة

وإذا كان الصبر والاحتمال زادَ المسلمين قوةً وثباتاً، إلَّا أن خبزهم اليومي بات قهراً تعجنه قريش وتنضجه على نار حقدها وجهالتها.. الأمر الذي يفرض ـ إزاءَ هذا الواقع المرير ـ إيجاد مخرج للمؤمنين، فعادَ النبي ﷺ يأمرهم بالهجرة ثانية إلى بلاد الحبشة، ويستحثهم على الخروج من مكة، تفادياً لتلك الرعونات التي تنزل عليهم ظلماً وعدواناً!..

ويجد المسلمون أنفسهم أمام المصير المحتوم، وهو إرغامهم على الهجرة، فيذعنون لأمر نبيّهم، وفي العيون دمعة، وفي القلوب لوعة، لأنَّ ما يحزنهم أكثرَ هو فراق هذا النبي الكريم، وبقاؤه مع عدد من الصحابة، يتحمّلون وحدهم صلافة المشركين، ورعونة المستكبرين، فيأتيه عثمان بن عفان رضي الله عنه مهموماً، مكلوماً[1]، وهو يقول:

ـ يا رسول الله، لقد كانت هجرتنا الأولى، وهذه الثانية التي تأمرنا بها إلى النجاشي، ولستَ معنا..

---

(١) مكلوماً: مصاباً بالجرح وسواه.

فيقول له الرسول الأعظم ﷺ:

«أنتم مهاجرون إلى الله ورسوله، لكم هاتان البُحرتان جميعاً»[1].

ويودع عثمان النبيَّ ﷺ ويقول: حسبنا الله، ونعم الوكيل..

وينطلق في هذه الهجرة الثانية ثلاثة وثمانون رجلًا، وإحدى عشرة امرأةً قرشية، وسبعُ نساءٍ من غير قريش، يقصدون جميعهم بلاد الحبشة فراراً بدينهم، وخوفاً من فتنة قريش لهم. وكانوا يخرجون أفراداً، حفاظاً على عنصر السرّيّة[2].

ولم يكن رسول الله ﷺ ليرتاح إلى مصير المهاجرين إلَّا بإمرة أحد يثق به، فطلب إلى ابن عمِّه جعفر بن أبي طالب أن يهاجر إلى الحبشة، ويحرص على رعاية المسلمين هناك؛ ثم بعث بعد مدة برسالة إلى ملك الحبشة مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء فيها «قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقْرهم...»[3] ويقيم هؤلاء المهاجرون، مع مَن سبقهم في الهجرة الأولى، أحراراً، آمنين، مطمئنين إلى جوار ملك عادل، أكرمَ وفادتهم، وأحسن معاملتهم، بعدما عرف بأمر مجيئهم، مرتحلين عن قومهم الذين يناصبونهم العداء، ويسلبونهم الأمن والراحة.. وجن جنون قريش وهي ترى المسلمين ينأون عن أذاها، فلا يبقى في مكة إلَّا تلك الجماعةُ التي تقدر على الصمود في

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج١ ص٢٠٤ والبُحرة: الروضة العظيمة.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج٢ ص٢١٧، والبداية والنهاية، ج٣ ص٧٢.

(٣) البداية والنهاية، ج٣ ص٨٣، البحار ج١٨، ص٤١٨ أقرهم: أحسن ضيافتهم.

مواجهة عداوتها، لشدة بأسها، وحماية عشائرها.. وزادها حدةً في الغضب أن تناهت إليها الأخبارُ من عيونها في الحبشة، بأن الملك قد آوى المهاجرين، وأمَرَ أن يعاملوا بالحسنى، فلا يُعتدى على أحد منهم، أو يُبخس حقاً، أو يُظلم من قريب أو بعيد.. فتنادى الدهاقنة، وائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا برجلين إلى النجاشي، لإقناعه بطرد المسلمين من بلاده على أن يغروه هو وبطارقته بالأموال والهدايا النفيسة، فبعثوا عبد اللّه بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص[1].

ولا ندري أيهما أكبر: الرَّهَجُ[2] في قريش، وهم يحمّلون هداياهم.. أم ما حملت نفسا مبعوثيهما من الإفك والاحتيال والمداهنة وهما ينطلقان ـ بأوزارهما وأوزار بني قومهما ـ ليزرعا الفتنة عند النجاشي؟!

وقد عمد ذانك الخبيثان منذ وصولهما إلى التقرب من بطارقة الملك، وتقديم الهدايا لهم، لأجل استمالتهم حتى تتمّ الاستجابة لرغباتهما، وتقديم العون لهما، كي يمكنهما تنفيذ المهمة التي ألقتها قريش على عاتقهما.. وإنْ هي إلَّا أيام معدودة، وتمَّت الخطة التي رسمها البطارقة مع موفدَيْ قريش، فأدخلوهما على النجاشي، وهما يحملان الهدايا الثمينة، ويتملّقانه بأشد أنواع التذلل، وتقديم فروض الولاء، بما جعله يُسَرُّ لذلك الإطناب والمديح، ويسأل عن الحاجة التي ألجأت زعامة قريش إليه، فقال عمرو بن العاص:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣٥٦ و٣٥٧ عن ابن إسحاق.

(٢) الرهج: الفتنة والشغب.

«عفوك أيها الملك العظيم.. إنه قد ضوى[1] إلى بلدكم منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، بل جاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا جلالتكم.. وقد بعثنا إليكم فيهم أشرافُ قومِهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردُّوهم إليهم، فهم أعلمُ بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه..».

ولئلا يسترسل الرجل في كلامه، فقد قاطعه النجاشي، مشيراً إليه بالتوقف، ثم أومأ إلى عبد الله بن أبي ربيعة ليبدي ما عنده، فقال:

ـ إني لا أزيد شيئاً على ما قال صاحبي يا مولاي، وقد أتينا نرجو عطف جلالتكم، وردّ أولئك السفهاء إلى بني قومهم..

وحارَ النجاشي... فما كان يعلم عن أمر المهاجرين من مكة إلَّا أنهم جماعة ضعفاء، قد لحِقَ بهم الظلم والقهر، فآثروا الاحتماء بجواره، نأياً عما يصيبهم وينزل بهم.. ومن منظار الملك العادل، أحبَّ أن يقف على رأي بطارقته وأعوانه، فكان إجماعهم على ما يؤيد أقوال مبعوثَيْ قريش التي هي من أكبر قبائل جزيرة العرب، وأكثرها مكانة ورفعة.. وإنها ما قصدت عاهل الحبشة المفدَّى إلَّا حرصاً على حكمه، فلا يترك في بلاده نفراً من الأغراب مفسدين، اتخذوا من الهجرة ستاراً لينشروا ديناً ما سمعوا به في آبائهم الأولين!.. وإنَّ الأمر في نهاية المطاف يعود لمليكهم العزيز، الذي يمتلك كل الحكمة والرأي والتدبير في كل شأنٍ!.

أُفٍّ لمثل هذا الكذب، وويلٌ لهذا البهتان، يُفترى بهما على ملك عادل، تملُّقاً ورياء، وممن؟ من بطارقته الذين فعلت الهدايا

---

(١) ضوى: لجأ أو أتى ليلًا.

فعْلها في نفوسهم، فانصاعوا للرشوة وصاحبَيها، وتركوا الحقيقة ونزاهتها.. لقد كان الأوْلى بهم، أن يقدموا لمليكهم النُّصْح، وذلك بأن يستمع إلى المسلمين، ويقف على رأيهم، ليأتي حكمُه عدلًا وصواباً، ولكنهم لم يفعلوا، بل تواطأوا وتآمروا، فقالوا لسيدهم ما قالوا... ولكنْ ما ظن هؤلاء البطارقة بمليكهم؟ إنه حقاً سيدٌ في القول والرأي، فلم يأخذ بما أشاروا عليه، بل وازن بين الرسالة التي جاءته من النبي في مكة، وبين ما سمع هنا في الحبشة، فما وجَدَ إلَّا مكيدةً ودهاءً، ولذلك نراه ـ وهو رجل عدل وصلاح ـ ينتهر أعوانه وبطارقته فيقول لهم غاضباً:

ـ لقد أخطأتم جميعكم ولم تقولوا صواباً.. فلا والله لا أسلِّم قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، وقد اختاروني دون سواي، حتى أدعوهم إليَّ وأعرف من خبرهم ما يطمئنُّ إليه قلبي.. فإن وجدتهم على مثل ما يقوله رَجُلا قريش كان لي شأنٌ معهم، وإن كانوا على خلافه، كنتُ لهم مانعاً، وأحسنتُ جوارهم..

ثمّ أرسل النجاشي في طلب المسلمين على أن يكون على رأسهم جعفر بن أبي طالب، موفدُ «محمد» إليه، فلما دخلوا عليه في مجلسه، بادرهم قائلًا:

ـ يا معشر المهاجرين.. لقد جاءني من قريش من يقول بأنكم فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في ديني، بل اتَّبعتم رجلًا جاء يدعو إلى الفرقة بين أبناء قومه، ويعيب عليهم دينَ آبائهم وأجدادهم، فماذا تقولون بالذي تُتَّهمون به؟!..

وتقدم جعفر بن أبي طالب يلقي على ملك الحبشة، ومَنْ ضمَّ مجلسُهُ

الواسع، خطبتَه التاريخية التي تفرق بين الحق والباطل، وهو يقول:

«اعلم أيها الملك، أنَّا كنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنامَ، ونأكل الميْتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف»[1].

وسكت جعفر هنيهةً، ثم تابع قائلًا:

«وبقينا على ذلك حتى بعث الله ـ سبحانه ـ إلينا رسولًا منّا، نعرف نسبَه، وصدْقه، وأمانته، وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونتركَ ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الأصنام والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلَة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرَنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً. وأمرنا بالصلاة والعبادة لله رب العالمين. وفقَّهنا بتعاليم الإسلام، وحثَّنا على اتِّباع مكارم الأخلاق، فلا نأتي بقولٍ أو فعلٍ إلَّا في سبيل خير الإنسان، ورفعته وصلاحه. فصدَّقناه وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا. فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحلَّ ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلمَ عندك أيها الملك»[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٥٩ و٣٦٠.

فأشرق وجه النجاشي، وقال لجعفر رضي الله عنه:

ـ وهل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شيء تقرأه علينا؟

قال جعفر: نعم. وكانت تلاوته من سورة مريم بقوله تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦
فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا
سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠
رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ
وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ
هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١
فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ
ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا
مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ
ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا
تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ
ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ
شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ
بَغِيّٗا ٢٨ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩
قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا
كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ
يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ

أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾(١).

فلما سمع النجاشي وفهم ما قرأه جعفر، زادَ قلبه اطمئناناً، فسأل البطارقة:

فماذا تقولون؟!

فقالوا:

«هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع..».

.. لم يستطع أولئك البطارقة أن يدجِّلوا ويخادعوا، وكلمات الحق تُتلى عليهم صادقةً من لدُن عزيز حكيم، يتلوها مؤمن موقن مثل جعفر بن أبي طالب، فطَأطأوا لها الرؤوس، وأقروا بعظمتها وأحقِّيتها، ولم يجرؤوا على النّيْلِ من الحقيقة بشيء بعد أن أخفقت الرشوة وصنّاعُها. ولا ندري أكان ذلك خوفاً من الله (تعالى) في صحوة ضمير ووجدان، أم خوفاً من هذا الملك العادل الذي يُلهَمُ الحقَّ، فينطق به بلا محاباة ولا مواربة؟! إنها أمور في علم الله (تعالى) الذي يعلم ما تكنُّ الصدور، ولكن بدا واضحاً أن البطارقة أُخذوا لسماع القرآن، فقالوا حقاً، وهذا ما جعل وجهَ الملك يعلو بالبِشْر والسرور، فعاد يقول:

ـ «إن هذا والذي جاء به موسى وعيسى ليخرج من مشكاة واحدة»..

---

(١) سورة مريم، الآيات: ١٦ ـ ٣٤.

ثم التفت إلى موفَدَي قريش، وقال لهما:

«انطلقا، والله لا أسلِّمهم إليكما»..

وخرج المسلمون ظافرين، منتصرين، وقد علت كلمة الحق على الباطل، لأن كلمة الحق تصدر دائماً عن الحق، فأنَّى لحفنةٍ من قريش، أن يكون لها شأن في ميدان الحق، فخرج رجلاها يجرّان أذيال الخيبة والحسرة تأكل قلبيهما على ما أصابهما من الذل والهوان.

ولكن هل يهدأ بالدهاة المقام، أو يغمض جفنٌ لأصحاب المكائد، بعد أن داسهما الفشل بأرجله؟ أبداً... ولذلك قضى عمرو بن العاص ليلتَهُ مؤرقاً، وهو يفكر بأن يستغلَّ حظوةً سابقةً له عند ملك الحبشة، عسى أن تغيِّره فيما لو عادَ إليه يتملقه، ويخادعه، فصمَّم على الذهاب إليه وطلب مقابلته على انفراد:

وحاول عمرو بن العاص في خلوته القصيرة مع النجاشي أنْ يحرّضه على المسلمين، وهو يدّعي بأنهم يقولون بحق عيسى بن مريم قولًا عظيماً، وأنهم ينكرون أنه ابن الله.. وما كان من ملك الحبشة إلَّا أن استبقاه في مجلسه، ثم بعث بطلب جعفر بن أبي طالب ﵁ ليسأله على الملأ:

ماذا تقولون ـ أيها الرجل ـ بحق عيسى بن مريم، وهل تنكرون أنه ابن الله؟

قال جعفر ﵁:

نقول فيه الذي جاء به لنبيّنا.. إنه يقول: هو عبدُ الله ورسولُه وروحُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول.. وما كلام «محمد» رسول الله إلَّا تصديقٌ لقول رب العالمين:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا

كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[١].

وما كاد جعفر ينتهي من هذه التلاوة المباركة، حتى أخذ النجاشي عصاه، وخطَّ بها على الأرض خطّاً ـ وقد بلغتْ منه المَسرَّةُ أكبرَ مبلغ ـ ثم قال: «والله ما عدا عيسى بن مريم قال مثل هذا القول[٢]. وليس بين ديننا ودينكم أكثر من هذا الخط. اذهبوا فأنتم شيوم (آمنون) في أرضي، من سبَّكم غُرم، ما أحبَّ أن لي دبراً (جبلًا) من ذهب وإني آذيت رجلًا منكم، ردّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليَّ ملكي، ولا أطاعَ الناس فيَّ، فأطيعَ الناس فيه»[٣].

«فخرجا من عنده ـ مبعوثا قريش ـ مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به»[٤].

وكان عمرو بن العاص أشدَّ حنقاً من صاحبه: مصفرَّ الوجه، عاقد الجبين، يكاد الغيظ والكمد يخنقانه.. فما عرف في حياته مثل هذا الفشل الذريع الذي لاقاه بالأمس واليوم.. وما عرف رجلًا أذكى ولا أقوى حنكة من هذا الذي يُسمى جعفر بن أبي طالب! إذ كيف أمكنه أن يأسرَ عقل النجاشي بمثل هذه السهولة؟! وهل إلَّا قرآنه، الذي يقرأه، هو الذي يعطيه مثل هذه القوة، وتلك الحكمة؟..

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٣٤ ـ ٣٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣٦١.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج١ ص٣٦٢، البداية والنهاية ج٣ ص٧٥ عن ابن إسحاق.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق.

وعاد موفدا قريشٍ إلى مكة، وهما يتجرعان كأس الفشل، لِتَذوقها قريش بدورها علقماً أشدَّ مرارة، وخيبةَ أملٍ أقوى حسرةً، بعدما رأت أن المهمة التي بعثت بها هذين الرجلين قد باءت بالخسران، كما في جميع محاولاتها من قبل، وسقطت كافة مكائدها التي نصبتها لوأد الدعوة الإسلامية في مهدها، ومنعها من الظهور.. وقد لجأت منذ أن أعلنت حربَها على هذه الدعوة إلى أسلحة متعددة:

سلاح استمالة النبي ﷺ لإغوائه بعروض واسعة من المال والجاه والسلطان والحكم!..

وسلاح التعجيز، بما طلبت إليه أن يأتي به من معجزات وخوارق تشهدها بأم العين..

وسلاح الدعاية ضدّه، باتِّهامه زوراً وبهتاناً بأنه رجل مسحور، أو بأنه كاهن وساحر ومجنون، وضد الدين الذي يدعو إليه، عندما جنَّدت النضر بن الحارث، ليقول للناس بأن الآيات التي يتلوها «محمد» عن أخبار الماضي، وقصص الأمم الغابرة إن هي إلَّا أساطير الأولين!..

وسلاح الاستهزاء، والأذى، والعذاب، تصيب به المسلمين كافة، أسياداً ومستضعَفين، وتطال به النبيَّ ﷺ نفسه، رغم حمايته من بني هاشم وبني عبد المطلب..

وسلاح التكذيب والافتراء وعدم تصديق النبي ﷺ بأن جبرائيل يتنزل عليه بالوحي من ربِّ العالمين.

وسلاحُ محاربة القرآن والدعوة إلى عدم سماعه، بل واللغو فيه...

وكان ذلك كله عبثاً، ولم يُجدها بأي نفع.. أما السبب فهو هذا القرآن الذي يفعل فعلَهُ في النفوس، والمثال الحيّ الأخير موقف نجاشي الحبشة، الذي لولا سماعه لآيات هذا القرآن، لما كان ردَّ لها طلباً، ولا رفض لها هدايا.. إذن فالحرب يجب أن تكون على هذا الكتاب!..

عودة إلى محاربة القرآن

لذلك عادوا للتآمر على القرآن المجيد.. إذ كانوا يرون بأن النبي ﷺ يجلس أحياناً عند المروة، فيأتيه غلام للفاكه بن المغيرة اسمه «جبرا»، وهو على دين النصارى، فراحوا يزعمون أن جبرا هذا هو الذي يعلّم «محمداً» ما «يدّعيه» وحياً من السماء، لأنَّ كل ما يحدّث به من أخبار الماضي، أو ما يعدُ به من أمور الدنيا والآخرة ـ وهو أميّ لم يقرأ ولم يكتب ـ لا يعدو كونه من تعاليم النصارى التي يأخذها الرهبان من التوراة والإنجيل، ويعلّمونها لأتباعهم مثل هذا الغلام النصراني..

وزيادة في العنت والضلال، ولإيهام الناس بصحة دعواهم الكاذبة، جعلوا الفاكه بن المغيرة يهجمُ على غلامِهِ «جبرا» هجمةً شرسةً من التعذيب النفسي والجسدي حتى يعترفَ بأنه هو الذي يعلّم «محمداً» ما يقوله للناس، فلا يجد هذا المسكين ما يدفع التهمة عنه إلَّا أن يقول:

ـ لا والله، بل هو الذي يعلّمني ويهذّبني، وأنا لا أحسن إلَّا قراءة الكتب الأعجمية، وما بي من علمٍ بقراءة العربية أو كتابتها.

ويبيّن الحقُّ تبارك وتعالى دعوى المشركين الباطلة بقوله

الـكـريـم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

ولو تفكَّر أولئك الكفار الفجرة قليلًا، لوجدوا سخافة ادّعائهم وزعمهم، فاللغة التي يعلمها «جبرا» قراءةً وكتابة، وهو الذي يضيفون إليه التعليم، ويحيلون إليه القول، كانت أعجمية، ولذلك لم يقل القرآن المبين لسان الذي يلحدون إليه «عجميٌّ»، بل قال: «أعجمي» لأن العجمي هو المنسوب إلى إيران وإن كان فصيحاً، والأعجمي هو الذي لا يفصح وإن كان عربياً، ألا نرى إلى سيبويه إذ كان عجمياً، ولكنَّ لغة الضادّ كانت لسانه؟!..

وهنا يأتي التساؤل ـ لشدة الاستغراب والاستهجان ـ: كيف وصل الغباء بأولئك الملحدين من قريش، في افتراءاتهم على القرآن الكريم، لأن يقولوا: إنَّ الذي يعلّم «محمداً» القرآن هو هذا الغلامُ النصرانيُّ «جبرا»، أليس هو أعجمياً؟ فهل يمكن لهذا الأعجمي اللسان أن يعلّم غيره كلاماً عربياً فصيحاً؟! هذا مستحيل!... ثم أليس القرآن قولَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي يتنزَّلُ بلسانٍ عربي مبين؟! أليس القرآن معجزاً للإنس والجن فلا يقدرون على معارضته ولو بسورة واحدة حتى ولو كانت هذه السورة من ثلاث آيات؟!

أجل، إنه عجيبٌ أمر أولئك القوم!.. فكأنما صدَّقوا الكذبة التي ابتدعوها هم أنفسُهم، فأطلقوا مثل تلك الشائعات الزائفة التي لا تُصدّق، ولا يقبلُها لضعفها، عقلُ مُنصف. لذلك، ولمَّا تبين لدعاة الشرك والكفر أن زعمَهم ذاك وترويجَهم له لم يأتيا بأية نتيجة، جاء

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٣.

نفرٌ منهم إلى محمد ﷺ، وفيهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، يعرضون عليه أمراً جديداً أكثر غرابة وبلاهةً، وهم يقولون:

ـ يا محمد! هل تأتي بكتاب لا ينهى عن عبادة اللّات والعزى، ومناةَ وهبلَ، وليس فيه ما يعيب آلهتَنا، ولا يسفه أحلام من يعبدونها؟ فإن لم تفعل، فأتِ بقرآن غير هذا أو بدّله بكلام من عندك تذكر فيه آلهتنا بخير، فنذكر إلهك بخير، وتعبدُ آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة!.. وطردَهم النبي ﷺ شرَّ طردة، وما كان له إلَّا أن يطرد هؤلاء الكافرين، لأنه هو مؤمن بالله الواحد الأحد فلا يعبد ما يعبدون، ولأنهم كافرون لا يعبدون ما يعبدُ، ولأن عبادتهم، التي جاؤوا يسوّون بينها وبين عبادة الله الحق ليست إلا هرطقة عقلية.. وكفى بهم، وبالناس من أمثالهم، أن يُذلّوا بها أنفسهم، وأن يهينوا بطقوسها كرامة خلْقهم.. وكان التنزيل المبين بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾(١).

وألحُّوا عليه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، أو أن يبدِّله بقول من عنده، فأنكر الرسول ﷺ عليهم ذلك إنكاراً شديداً، وبيَّن لهم أن القرآن هو قول الله تعالى، يَنزل عليه بالوحي، فلا يمكنه أن يأتيَ بمثله، وأنَّ ما يدْعونه إليه، كفرٌ وعناد.. فنزل في ذلك قولُه تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ

(١) سورة الكافرون.

أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(١).

واجتمع الرسولُ بأولئك الظالمين يتلو عليهم الآيَ الحكيمَ الذي يَردُّ دعواهم؛ ولكن بدل أن يستحوا من قول الحقّ الذي يفضح افتراءهم، عادوا يعرضون عليه مجدداً، أن يُنزّل كنزاً من السماء أو أن يأتي معه ملَك لكي يصدِّقوه، وفي ذلك نزل قول الله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾(٢).

هكذا كانت تتحرّكُ عقول دهاة قريش، لا لشيء إلَّا لمضايقة النبي ﷺ، وإرغامِه على أن يترك بعضَ ما يوحى إليه من ربِّه.. ولكن هيهات، هيهات وزادُهُ الوحيُ الذي يطمئنه بألَّا يغتمَّ ولا يضيق صدره بما يقولون.. «إنَّما أنت نذير»، لهؤلاء، ولكل من يكذِّب بآيات الله. وهذا الإنذار ليس فقط من أجل تخويفهم بما ينتظرهم من العذاب الأليم، بل إنه رحمة من الله القادر، الجبار، المهيمن، يفسح في المجال الأرحب لعباده وخلْقه، ولو كانوا من الكافرين، كي يرعَوُوا عن الضلال، ويهتدوا إلى الحق، فيتوبَ عليهم، وتشملهم رحمته الواسعة،

(١) سورة يونس، الآيات: ١٥ ـ ١٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢.

وتكون لهم جنة عرضها السموات والأرض. فسبحان الله الرحمن بعباده، الرحيم بأوليائه، وإلا لماذا هذا التوكيد على ترك الكفر؟.

إنها عظمة القرآن وهو يحذّر، وينذر طغاة قريش، بل وينبّه جميع بني آدم بألَّا يجدِّفوا[1] على الحقّ الذي يتنزّل عليهم من ربهم، ويأمرهم بأن يتَّقوا العذاب الأليم الذي ينتظرهم من جراء هذا التجديف، والافتراء على الله كذباً، ثم يدعوهم إلى هداية القرآن، والانضواء تحت لواء الإسلام، وهو السبيل الوحيد للنجاة في الدنيا، والفوز في الآخرة...

ولكن ماذا فعل عتاة قريش، على الرغم من كل ما يواجههم به القرآن، وكلِّ الأدلة والحججِ القاطعةِ التي يدفع بها أقاويلهم وافتراءاتهم؟ لقد أوصدوا على نفوسهم كلَّ منافذ الحق، وأغلقوا على قلوبهم كلَّ مسارب الإيمان، وطمسوا على عقولهم بالضلال والوهم، وكل ذلك لأنهم لا يريدون أن يستجيبوا لدعوة محمد بن عبد الله ﷺ، ولا لآيات القرآن الكريم التي تبين الحقائق وتهدي إليها، والتي تقدم لهم من العظات ما يقود إلى النور المبين..

نعم لم تستجب قريش، بل ظلَّتْ على جهالتها، ممعنةً في الكفر، باذلةً كل ما تستطيعه من جهود لمحاربة الرسول، لأنها تعتبره خارجاً عليها وعلى دينها ودين آبائها.. بينما ظلَّ هو على عهده مع ربِّه يدعوها إلى الحق، ويجادلها بالموعظة الحسنة، مذكّراً وواعظاً، مبشِّراً ومنذراً دون أن يجدي معها شيء من ذلك!..

---

(١) يجدّفوا: يكفروا ويكذّبوا.

المقاطعة والحصار في شعاب مكة

وماذا بعدُ أمام قريش وقد ثبت لديها باليقين القاطع أن كل ما قامتْ به كان محضَ أباطيل، لأنه لم يوصلْها إلى الغايات التي ترجوها؟

وماذا عليها لو أقرّت بصدق ما يدعو إليه محمد ﷺ فتكون لها بهذا التصديق هدايةٌ إلى نور الحق، الذي ما فتىء النبيُّ ﷺ ينشر ظِلاله على ربوعها، ويعمل على جذْب نفوسها الحائرة إلى هذا النور، حتى يخلّصها من أحقادها السامة، ويشفيها من أمراضها القاتلة؟ بل وماذا عليها لو اعترفت بأحقيّة الإسلام الذي يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، فتنضوي تحت لواء الإيمان بوحدانية الله ـ تعالى ـ وتدخل في هذا الدين راضية قانعة؟..

وهل بقي أمام قريش إلَّا مثل هذا الإيمان الحق الذي يجعلها تدرك حقيقة وجود الله الواحدِ الأحدِ، الفردِ الصمد، وتفرّق بين الألوهية المطلقة وخرافةِ الأصنام، وأوهامِ الأوثان التي تتخذها آلهة لتقرِّبها زُلفى إلى الله؟..

لا، ليس أمامها إلا أن تهتديَ إلى الإسلام ،هذا لو كانت لها عقول غير عقولها، ونفوس غير نفوسها، وقلوب غير قلوبها.. ولكن، وهي قريش، وفيها تلك الفئة الطاغية الباغية من الذين يتسلمون زمام الزعامة، فإنها على كفْرها باقية، وعلى وثنيتها قائمة.. ولم يحن الوقت، الذي تدفعها فيه قوة الإسلام إلى الإذعان والرضوخ لأمر الله تعالى.. ومن أجل ذلك، فإنها لن تُهادِن في حربها الضروس على محمد ﷺ ودعوته، وهي، لن تعدَم الوسيلةَ والحيلة،

والأسلوب والخطَّة، للمضيِّ في تنفيذ سياستها الرعناء التي تظن بأنَّها لا بُدَّ من أن توصلها لتحقيق مآربها الوهمية.

وها هي قريش، وحيال فشل مختلف الخطط والوسائل، والأساليب التي استعملتها ـ سابقاً ـ ضد النبي ﷺ وصحبه الكرام، نجدها تعمد إلى ابتكار نمطٍ جديد من أنماط عداوتها، فتفكِّر في مقاطعة شاملة، لا تقتصر على «محمد» وحده، بل وتشمل بني هاشم وبني المطلب جميعاً، لأنهم يحمونه ويمنعونه منها.

واجتمعوا في خيف[1] بني كنانة من وادي المحصب، وكلفوا منصور بن عكرمة[2]، أن يكون كاتب الصحيفة التي تعاقد فيها شيوخ الكفر، وأسياد الوثنية على قطع كل الصِّلات مع بني هاشم وبني المطلب: فلا يُنكِحون منهم، ولا يُنكِحون إليهم، ولا يبيعونهم ولا يَبْتاعون منهم شيئاً، ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلِّموا إليهم «محمداً».

وبعد الانتهاء من هذا التعاقد الخبيث، أمروا بصحيفتهم التي وقَّع عليها أربعون رجلًا ـ من قريش ـ فعلَّقوها في جوف الكعبة، توكيداً بذلك الأمر على أنفسهم..

وانحاز بنو هاشم وبنو المطلب ـ مؤمنهم وكافرُهم ـ إلى رسول الله ﷺ إلَّا أبا لهب فإنه ظاهرَ قريشاً على أهل عشيرته، وحُبِسَ ﷺ ومن معه في شعب أبي طالب ليلة هلالِ المحرَّم سنة سبع من البعثة[3]... ولا بدَّ هنا من الاعتراف لقريش بقدرتها على الثبات

---

(١) الخيف: ما ارتفع عن مسيل الماء.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص٦٧؛ أعيان الشيعة ج١ ص٢٣٥.

(٣) زاد المعاد، ج٢ ص٦٧.

والاستمرار في نهجها العدواني، إذ كانت تعني كل موقف وقفته من دعوة الإسلام، وتدرك آثار كل سياسة اعتمدتها. ولذلك فإنها لم تكن قطُّ عبثية التفكير، أو ساديَّة التصرف، في هذه المقاطعة التي تفرضها، والتي هي في الحقيقة أشدُّ أنواع الأسلحة التي تستخدمها لمحاربة محمد ﷺ والإِسلام، لأنها تؤدي حتماً إلى إخراج بني هاشم، وبني المطلب ـ حماةِ محمد ـ من مكة، فلا يكون أمامهم إلَّا التشرّد في البلدان والأمصار، فترتاح بذلك من نفوذهم إلى الأبد.. أو تجعلهم يعيشون في البراري والفلوات، بلا رزق يصيبونه، أو زادٍ يتبلّغون به، فيموتون جوعاً وعطشاً...

وكان في ظن قريش أن حُماةَ «محمدٍ» ليسوا في وارد التشريد في الأمصار، أو اللجوء إلى البراري والقفار، وأنهم لن يقبلوا بشيء من ذلك أبداً لأنه يقوّض أركان وجودهم ويدمِّر حياتهم بأسرها.. وهذا ما سوف يضطرهم إلى التخلّي عنه، لأنه لا يُعْقلُ أن يُضحّوا بأنفسهم، كباراً وصغاراً، مقابل فرد واحد منهم!.. ولو كان هذا الواحد «محمداً»!..

أما بالنسبة إلى «محمد» بالذات، فسوف يجد نفسه وحيداً، بلا نصير أو معين، وعندها لن يكون أمامه إلَّا الإِذعان لقريش، والتخلي عن الدين الذي يدعو إليه.. أو أنه ـ على أبعد تقدير ـ سوف يبقى مشرَّداً، من غير احتكاكٍ بالناس، فتضمحل الدعوةُ التي يحمل، ويزول خطرها على مكانة قريش وعلى الآلهة التي تدعوها فيعود لها سابق عهدها من العز والمجد!...

تلك كانت تصورات شياطين قريش من سياسة المقاطعة التي أقرّوها، ونفذوها بالفعل، ولكن هل حققت تلك المقاطعة الأغراض والمآرب التي أرادوها؟

لا، ونعم...

لا، من حيث الجوهر..

أما من حيث المظهر، فنعم..

فمن حيث الجوهر، لم تؤدِّ سياسة المقاطعة إلى القضاء على الدعوة الإسلامية، لأن المسلمين ظلُّوا على إيمانهم ثابتين، ومن يمنعون محمداً ﷺ من بني هاشم، وبني المطلب ظلُّوا على عهدهم قائمين في حمايته والذود عنه.. إذن فالدعوة باقية، ولا يمكن لإرهاب قريش، ولا لظلم شياطينها، كما لا يمكن لأية قوة في العالم، أن تقدر على غلبة أمر هو لله سبحانه وتعالى..

فكيف إذا كان هذا الأمر هو دين الله، الإسلام، والرسالة التي أرادها الخبير العليم في نهاية مطاف الرسالات إلى الأرض، الرسالةَ الخاتمةَ، الكاملة، المتكاملة التي تقدِّم للإنسان معاني الحقائق المطلقة عن الحياة، والوجود البشري، بل والكون بأسره، والتي أنزلها الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ ليكون محمد ﷺ هو حاملها ومبلِّغها؟!. وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن لسياسة قريش الرعناء ـ سواء بالمقاطعة أو بغير المقاطعة ـ أن توقف الدينَ الذي يهدي إلى صراط الحميد المجيد؟! أو هل يمكن لحامل الشعلة الإلهية أن يرضخ لضغوط تلك السياسة فيطفىء النور المبين لمجرد تشريد، أو جوع، أو قهر أو مقاطعة؟!

أما وأيمُ الله[1] لا يكون شيء من ذلك أبداً.. فإن محمداً ﷺ

(١) أيمُ الله: يميناً بالله. تقال للقسم بالله.

هو رسول الإسلام، وهو كلما اشتدَّ عليه الكفر وأعوانه، ازداد صلابةً وإيماناً.. وإنَّ في مقاطعة قريش لدافعاً جديداً له إلى الثبات والعزم، فلا يزيده بغيُها إلَّا اعتصاماً بحبل الله تعالى، وتمسّكاً بدينه القويم، وتصميماً على إظهار أمر ربه... ثم إنَّ من ورائه أصحابَهُ الذين لا يزيدهم الظلم إلَّا إيماناً وصلابةً وصبراً. بل ومعه أبناء عشيرته الذين يصهرهم القهر والجوع والعطش كتلة واحدة مع صحابته، فلا بأس بما يصنع الظالمون بهم.. إنهم يحتملون مشاقَّ المقاطعة، وفظاعة قسوتها، ويقنعون بما قدَّر الله تعالى لهم من ألم، وعذاب، واضطهاد؛ المهم أن يبقى المسلمون والدعوة الإسلامية صنوين، بها يحيوْن، ومن أجلها يعملون، وفي سبيل الله ربهم وبارئهم، أقسى أنواع المشاق يتحملون.. وأن يبقى أولئك الأباة ممن يحمون «محمداً» ويعاضدونه في أمره، على سلامة الصحة والأبدان، فلا تطالُهم المقاطعة بما يبخسهم حقوقَهم في الكرامة والنبل والشرف في القوم.

هذا في جوهر الأمر الذي قامت عليه سياسة البغي، فما نالت منها قريش ما توهمت.. إذ لم يُقضَ على الدعوة الإسلامية، بل على العكس أينعت للإسلام ثمراتٌ جديدةٌ وأطيبها هذا التلاحم بين المسلمين وبين عشيرة النبي ﷺ ـ وهو ما سوف يؤتي أُكلَه لاحقاً ـ ومن ثَمَّ هذه التربية النفسية في الصبر والثبات ـ والاحتساب عند الله كما كان يعلّمه النبيُّ للمقاطعين جميعاً... وبذلك خسرت قريش ـ في الواقع ـ ما ظنَّتْ أنه أكثر سياساتها حنكة وتدبيراً وأكثر أعمالها ربحاً...

أما من حيث الشكل، وفي ظاهر عمل قريش، فقد بدا أن

المقاطعة حققتْ أهدافها المرسومة من العنت والظلم، إذ استطاعت أن تُخْرج الرسولَ الكريمَ والمسلمين، وبني هاشم وبني المطلب من مكة ليعيشوا ثلاث سنوات كاملة في الشعاب، وفي الفلاة، فيعانون من ألوان الجوع والحرمان أشدَّها، ومن أشكال الحاجة والعوز أكثرَها...

لقد تركوا ديارهم، وخلَّفوا الأرزاق والمواشي، بعدما منعت عليهم قريش حملها، أو سوْقَها حين خروجهم، إلَّا بعض القوت والزاد، وكان قليلًا، إذ ما لبث أن نفد بعد مدة وجيزة، نظراً لكثرة عددهم، وقد ضمَّ جمع المسلمين، وبينهم جمع بني هاشم وبني المطلب، بشيبهم وشبابهم، وبنسائهم وأطفالهم.. فقد قبعوا في شِعاب مكة في عزلة تامة عن بلدهم الآمن، وفي مقاطعة شاملة عن أهل مكة، والعرب جميعاً.

فأية حالة من الضنك كانت تحيق ـ أيام الصيف ـ بأولئك الذين فُرضت عليهم هذه المقاطعة الجائرة عندما كانت تشتد حرارةُ الرمضاء المحرقة، فلا يجدون مقيلًا إلَّا الرمالَ الملتهبة، والصخورَ الحامية، تلوذ بها أجسادهم النحيلة التي تتهاوى ضعفاً وتتضور جوعاً؟!.

وكيف استطاعوا ـ أيام الشتاء ـ أن يطيقوا البرد القارس، والصقيع القاتل، في تلك الشعاب، ولا غطاء ولا وطاءَ إلَّا بعض الكهوف الضيِّقة، يُدخلون إليها النساء والأطفال والشيوخ، بينما يظل الآخرون في الخارج يلتحفون السماء، ويفترشون الغبراء تحت وطأة تلك الأحوال الجوية القاسية؟!

وكيف يمكن أن نتصوَّر حالة الشيوخ، وقد وهن منهم العظمُ

ونحُلَ الجسم، واشتعل الرأس شيباً، وهم لا يقدرون على تحمل جوع أو عطش، ولا يطيقون حرّاً أو قرّاً؟

أم كيف يمكن أن نتخيَّل حالة الأمهات، وأطفالهن يذوون[1] على صدورهن، فتتحول فلذاتُ الأكباد من زهرات يانعة نضرة، إلى هياكل بشرية لا حياة فيها ولا رمق، غير لهاثٍ يتصاعد من الصدور بشق النفس؟. وكمْ هلكَ من أولئك الأطفال جوعاً وعطشاً، ولا حيلة للأمهات إلا ذرف الدموع، وتصعيد آهات اللوعة!...

لقد هانت الدنيا على أولئك الناس في الشعب، فراحوا يفتِّشون عن وسيلة يستعينون بها على ما يصيبهم، فلم يجدوا إلَّا الحجارة يضعونها على بطونهم الخاوية اتِّقاءً للآلام التي تنهش أمعاءهم، أو الخِرق البالية يعصبون بها رؤوسهم، لتخفيف الأوجاع التي لا تفارقهم...

وكان لنبيِّنا ﷺ هو أول من شدَّ الحجرَ على بطنه، حتى يكون مثالًا يُقتدى به فتخفَّ على الآخرين أوجاعُ أجسامهم، وجراحات نفوسهم. وهو أول من دعا الشباب والرجال لكي يضربوا في البراري سعياً وراء نبات الأرض والأعشاب الصالحة للأكل، يسدُّون بها رمق أكثرِهم حاجةً، وأشدِّهم دنُوّاً من الهلاك، وهي في تلك الشعاب السوداء قليلة، إلَّا من شيءٍ زهيد لا يسمن ولا يغني من جوع!..

وكيف لا تهون الدنيا على المسلمين، وقد كانوا، وما زالوا، أعزَّة على الكافرين الذين سعوا إلى طردهم؟

---

(١) يذوون: يذبلون ويموتون.

وكيف لا تهون الدنيا على بني هاشم، وبني المطلب وهم أصحاب الثروات، والمواشي، وأهل البيوت المفتوحة على مصاريعها، يُقْرون الضيف، ويُطعمون الجائع، وينصرون المظلوم، ويأوي إليهم السائل والمحتاج؟!. بل أليسوا هُمُ الأسياد الذين كانوا يسوسون الناس، فلا أمر يُقطَع في مكة إلا برضاهم، ولا شيء يُقام إلَّا بإرادتهم؟ لقد توارثوا مناصب الكعبة ومقاليد مكة أباً عن جد، حتى صارت لصيقةً بهم طوال حقبات من الزمان.. أفلا تهون عليهم الحياة بأسرها، وقد طردتهم قريش إلى الشِّعاب، ووصلوا إلى تلك الحالة من البلاء؟!

ولكنَّ ما حلَّ بأهل الشعاب، وما أصابهم، كان في مقياس المكرمات وساماً لهم على جبين الدهر، لأنهم ظلوا يحافظون على العهد الذي قطعوه لشيخهم أبي طالب، ويتوشحون بكلمة الشرف التي أعطوها له، في منع محمد رسول الله، رغم كل ما يلاقون من جراء ذلك العهد. لمثلهم تكون العهود والكرامات، وخاتم النبيين وسيد المرسلين، محمد بن عبد الله، هو من هذه الشجرة الطيبة، التي أصلها ثابت في الأرض، وفرعها في السماء!..

لقد تخلّوا عن كل شؤون الدنيا وطيباتها في سبيل عهدهم، والوفاء به، حتى شارفوا على الهلاك دون هذا الرسول الكريم، وما خانوه.. وما تخلّوا عنه!.. فكانوا للناس نبراس النصرة، والالتزام بالوفاء. ويكفيهم شرفاً ما كان يفعله سيدهم أبو طالب، كما يروي عنه ابن كثير في تاريخه: «إذ كان إذا أخذ الناس مضاجعهم طلب إلى رسول الله فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك جميع مَن في الشعب، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته، فاضطجعوا على فراش

رسول الله، أو دعا الرسول أن يأتي مكاناً آخر ينام فيه محافظة على سلامته».

وتظهر مشاعر أبي طالب فيما كان يعاني من المقاطعة، وهم في الشعاب، بقصيدة طويلة، ومنها هذه الأبيات، حيث يقول:

ألا أَبلِغا عنِّي على ذاتِ بَيْنِنا ... لؤيّاً وخُصّا مِنْ لؤيٍّ بني كعبِ
ألمْ تَعلمُوا أنّا وجَدْنا محمداً ... نبيّاً كموسى خُطَّ في أول الكُتْبِ
وأنَّ عليه في العباد محبةً ... ولا ضيرَ مِمَّن خَصَّهُ اللَّهُ بالحُبِّ
أَفيقوا أَفيقوا قبلَ أنَ يُحفَرَ الثَّرى ... ويُصبِحَ مَنْ لم يَجْنِ ذَنْباً كَذِي الذَّنبِ
ولا تَتْبَعُوا أَمْر الوُشاةِ وتَقْطَعُوا ... أواصِرَنا بَعدَ المَوَّدةِ والقُرْبِ
فلسنا وربِّ البيتِ نُسْلِمُ أحمداً ... لِدَهْماءَ مِنْ عَضِّ الزمان[1] ولا كربِ

فأولئك هم أصحاب الشعاب.. الأسياد الكرام الذين طردتهم قبيلتهم قريش ظلماً وعدواناً، فآثروا الحمد على الشتيمة، والعزَّ على الذل، والدينَ على الدنيا، فكانوا ـ في ميزان الحق ـ هم الفوارسَ الأحرار، وأعداؤهم هم العبيدَ المحاصرين...

أما محمد بن عبد الله ﷺ، الإنسانُ البَرُّ، العطوف، الحليم، فهل كان يمكن أن يعايش المحنة التي أصابت أصحاب الشعب إلَّا على أساس أنه رسول الله، والمثال الأعلى للمسلمين ولمانعيه الميامين؟ والقائد الحكيم للناس أجمعين؟ وعلى أنه النموذج الذي يحتذى في الصبر والرضى بقضاء الله العلي الحكيم ما دام مقصدُه

(١) عضّ الزمان: شدته.

الأسمى نشرَ كلمة الله وجعلها هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى؟.

فماذا كان يفعل، وهو من عُرِفَ عنه طوال حياته، متميزاً بتلك الصفات من الكرم والإحسان، والصدق والأمانة، والمروءة والنجدة، والشفقة والعطف، والصبر والجلد؟!... أجل ماذا كان يفعل هذا الإنسان وهذا النبي عندما كان يرى كل مَن حوله وأصحابه، يتحملون ما يتحملون، ويعانون ما يعانون؟..

إنه كان ﷺ يعايش آلامهم فتهون عليه آلامه.. ويحس بجوعهم وعطشهم فيزول من نفسه كل جوع أو عطش.. ويرى حرمانهم وقهرهم فيتألَّمُ قلبه أسىً وحزناً..

إنه كان ﷺ يجلس وحيداً حزيناً، متألماً، فيضرعُ إلى الله تبارك وتعالى متوسِّلًا، راجياً أن يُذهِبَ عن هذه الجماعة، التي تحيط به، كل كرب وضنك[1]، وأن يخلِّصها من تلك المأساة المروعة التي حلَّت بها دونما ذنب اقترفته إلَّا أنها مع الحق، ونصير للحق..

كان يأتي إلى هؤلاء المظلومين، معتصراً آلامه في نفسه، مبدياً ابتساماته المشرقة، التي كانت تفرّج عنهم بعض الهمِّ والألم.. لا يتركهم قطّ، إلا لعبادةٍ أو ابتهال، ثم يقوم بينهم، مواسياً، مشجِّعاً، مبيِّناً مكرمة الصابرين عند الله، وفضائل المعذَّبين في سبيل الله...

لا يدَعُ ساعة من النهار إلَّا ويمنِّيهم بالفرج والخلاص، وهو يضرب لهم الأمثال، عن مخلوقات الله في الأرض، فيذكِّرهم بأنَّ

---

(١) الضنق: الضعف والضيق.

أضعف المخلوقات يرعاها ربُّ السماوات والأرض، وربُّ العرش العظيم، مالكُ الملك وهو على كل شيء قدير، يبسط الرزق لمن يشاء ويقْدر. ومن أجل ذلك، كان على الإنسان أن يتوكَّل على الله وحده، وأن يسلِّم أمره لربِّه، فلا يخاف بعده غائلة الجوع والفقر، ولا يهاب حرمان الأيام والسنين.

نعم كان رسول الله ﷺ يبيِّن لأصحاب الشِّعب تدبير الله ـ سبحانه ـ في مخلوقاته، ويرشدهم لأن يكون لهم هذا النهج من التوكُّل، وهو يقول لهم: «لو توكلتم على الله حق التوكل، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بطاناً»(١).

وبمثل هذا النهج النبوي من الرحمة، والحدب، والإيناس، والتدبير، وبمثل ذلك الدأب الرسولي من المواساة، والتشجيع، والتوكُّل على الله تعالى، أمكن لرسول الله أن يُعين أصحاب الشعب على بلواهم، فكان الزادَ المعنويَّ الذي يمنحهم به: قوةَ الاحتمال، على مغالبةِ الشدة، ومصارعة الضيق والشظف.

تلك هي الأحوال والأوضاع التي كان عليها أصحاب الشِّعب من جراء سياسة المقاطعة التي فرضتها عليهم قريش، والتي وصل الحصارُ فيها إلى حد يفوق التصوُّر، أين منه اليومَ أيُّ حصار قد تقرره بعض الدول لمعاقبة دولة، أو دول غيرها بذرائع تختلقها لذلك.. حيث تبقى منافذ العالم الأخرى مفتوحة على الدولة المحاصرة، فلا يموت شعبها من الجوع، بل ولا يقبل العالم الآخر أن يميت هذا

---

(١) ابن ماجه، باب الزهد. خماصاً: ضامري البطون من الجوع. وبطاناً: ممتلئين من الشبع.

الشَّعبَ بسبب السياسات المتضاربة.. هذا في حين أن سياسة المقاطعة التي اعتمدتها قريش قد جعلت أصحاب الشعب معزولين عن سائر الناس، دون أيةِ علاقات معهم، لا اقتصادية ولا سياسية ولا اجتماعية، على الإطلاق.. اللهمَّ إلَّا ذلك الاختلاط البسيط، الذي كان يُسمح فيه للمسلمين، بالنزول أيام الأشهر الحُرُم إلى الكعبة، فيجد فيه الرسول الكريم سبيلًا للخروج من العزلة المفروضة عليه، فيتصل بقبائل العرب التي تفِد مكة في المواسم، ويدعوها إلى دين الله الواحد.. فكان عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ينزل مع بعض الصحابة، كل يوم من أيام المواسم، ثم لا يلبثون أن يعودوا في المساء إلى الشعاب، من دون أن يتمكنوا من حمل شيء معهم، إذ كانت قريش بالمرصاد، تمنعهم، وتحول دون قيامهم بأية عملية بيع أو شراء، أو قبول هدية، أو سداد دين.. حتى إذا انقضت أيام الأشهر الحرُم، منع عليهم النزول إلى مكة، وظلّوا في الشِّعاب على أحوالهم المتردية...

السعي لخرق المقاطعة

..وقد بلغت قلوب شياطين الكفر من قريش حدّاً من القسوة والفظاظة، جعلهم يجدون في المقاطعة راحةً لهم، وشماتةً بأولئك المحاصَرين!.. فطاب لهم العيش بدونهم، وهنئوا ببعادهم، حتى صار محورَ أحاديثهم وَهَنُ أصحابِ الشِّعاب وضعفُهم، وتفكُّهُهُمْ بالمعاناة التي يلقونها، فلا ينقضي مجلس من مجالسهم إلَّا بعد أن ينتهيَ أولئك الكفرة الفَجَرةُ من الشماتة والسخرية، بما يروي غليلَ أحقادهم...

على أن ذلك الحصارَ، على شدة قسوته، وطول مدته، لم يعد ليروقَ لأولئك البعض من القرشيين، الذين ما تزال في نفوسهم بقايا من الرحمة أو الإنسانية، فأخذوا يبعثون للمحاصَرين شيئاً من الزاد والماء، يحمِّلونه ظهورَ الدواب ثم يقودونها تحت جنح الظلام، وخفيةً عن عيون القوم، ليصلوا بها إلى طرق الشعاب، فيتركونها تسير وحدها حتى يمسكها الساهرون جوعاً!.

ومن أولئك الذين لامسَتْ قلوبهم الرحمة، حكيم بن حزام بن خويلد، إذ لم يعُد يهون عليه أن تبقى عمَّتُهُ خديجةُ بنت خويلد ـ زوجة رسول الله ﷺ ـ بدون طعام، وهي صاحبةُ الفضل عليه، وعلى كثيرين غيرِه، فحمل، مع غلام له، بعضَ القمح يريد إيصاله إلى عمّته، ولكن لسوء الحظِّ، يصادفه أبو جهل في الطريق فيستوقفه معترضاً، مهدِّداً، متوعداً وهو يقول:

ـ ويحك يا حكيم! واللاتِ والعزَّى لا تبرح حتى أفضحَك أمام قريش!

ويمرُّ أبو البختري بن هشام، وهما في ذروة جدالهما، حتى إذا تبين جليَّةَ الأمر، قال لأبي جهل:

ـ وأيُّ ضيرٍ يا أبا الحكم بأن يحملَ حكيمٌ بعضاً من القمح إلى أولئك الذين عزلتموهم عن كل أسباب الحياة، حتى وصل بكم الجورُ لأن تُميتوهم جوعاً؟!.. فخلِّ سبيلَ الرجل ودَعْهُ يذهب لشأنِه!.

ولكنَّ أبا جهل أصرَّ على لؤمه وعناده، مما جعل الموقفَ يحتدم بينه وبين أبي البختري، ويدفعُ بهذا الأخير لأن يتناول لحيَ جملٍ ويشجّه به، ثم يأخذ بركله، إلى أن أمكن للحاقد أبي جهل أن يفلت، ويمضي هارباً، وهو يكيل للرجلين أشنع الشتائم وأقبحَها.

وشاع خبر حكيم.. فجاءَهُ الحاقدون يلومونه، ويتوعدونه بالإيذاء ـ وربما القتل ـ، إن عاود المحاولة لمساعدة «الصابئين».. بينما كان الخبر ذاته حافزاً لغير الحانقين، لأن يحذوا حذو ابن حزام، وهم يشعرون بفداحة الجرم الذي يقترفه زعماء قريش بحق أهل «محمد» وأصحابه.. وكان هشام بن عمرو بن ربيعة أكثرَ الناس ندماً على المقاطعة، فصار يأتي بالبعير، فيحمِّله الطعام والبُرّ، ثم يسير به في جوف الليل حتى يصل إلى طرف الشِّعَب، فيخلع خطامَه من رأسه، ثم يضربه على جنبه ليأخذه المحاصرون ويقتاتون بحمله. فإذا لم يبق عندهم شيء، عمدوا إلى البعير فذبحوه، وجعلوه زاداً للجياع...

وبفضل تلك المساعدات ـ وما كان المسلمون يشترون، في الخفاء، من المؤن في بعض الأحيان ـ أمكنهم البقاء على قيد الحياة، وإلّا لكان أكثرهم قضى جوعاً طوال سنوات الحصار، كما رغب طغاة قريش وجبابرة الكفر.

شقُّ صحيفة المقاطعة

وظلَّ هذا الوضع على حاله، إلى أن قاربتْ سنواتٌ ثلاث على الانتهاء، كانت كافيةً لأن يعاودَ البعضُ من قريش التفكيرَ ومحاسبةَ النفس على المشاركة في القطيعة، لاسيما أن بين المحاصرين مَن هم أقارب وأصهار وأبناء خال ومن ذوي الرحم من بني هاشم والمطلب وغيرهم... ووصلت مثل تلك المحاسبة إلى الشعور بالذنب، الذي يدفع باتجاه نقض الصحيفة التي كانت لا تزال، حتى هذا الوقت، معلَّقة في جوف الكعبة، من دون أن يجرؤ أحد على المساس بها..

وكان أوَّلَ من سعى لنقض الصحيفة هشام بن عمرو بن ربيعة نفسه. فقد رأى أنه طوال مدة الحصار، وعلى الرغم من إصرار قريش على الإمعان والغلوّ في التشدُّد والتعنُّت، فإن المقاطعة لم تُجدها بأيّ نفع، أو تَعُدْ عليها بأية فائدة، اللهم إلَّا التشفي من «محمد» والمسلمين، والاستعلاء على بني هاشم وبني المطلب، الذين صمَّموا على البقاء بجانب سليل بني هاشم حتى النهاية.. فتساءل حينئذٍ: «ولِمَ البقاء على تلك المقاطعة؟».

وراح هشام يسعى في أمر النقض، فذهب إلى زهير بن أمية بن المغيرة المخزومي ـ الذي عُرف بغيرته على النبي ﷺ، واحترامه ومحبته له، لاسيما أنه ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ـ يحدثه في هذا الأمر الذي هو أوْلى الناس بالقبول به، والعمل على تحقيقه، قائلًا:

ـ يا زهيرُ! أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنعم بمباهج الحياة، وأخوالُك حيث علمتَ في الشعاب يكاد الجوع يقتلهم؟!. أما إني لأحلفُ بالله، لو كانوا أخوال عمرو بن هشام ـ أبي جهل ـ ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابَك إليه أبداً...

وتفكر زهير قليلًا، ثم قال لهشام:

ـ ويحك يا ابن العم، فماذا تراني أصنع وما أنا إلا رجل واحد.. والله لو كان معي رجلٌ آخر لَقُمت إلى تلك الصحيفة أنقضها..

قال هشام: قد وجدتُ رجلًا..

قال زهير: ومَنْ يكون؟

قال هشام: أنا..

قال زهير: ابْغِنا ثالثاً..

قال هشام: سوف أجده، فانتظرني..

وذهب هشام إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وكان أيضاً صديقاً حميماً له، يعرض عليه الأمر بقوله:

ـ أرَضيت أن يهلك بطْنان من بني عدي وأنت شاهد على ذلك وموافق؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذا، لتجدونهم إليها منكم سراعاً..

وتساءل المطعم عما عساه يفعل؟! فأخبره هشام بأنه توافق مع رجل آخر على النقض، وأنه ما جاء إليه إلَّا لأنه يتوسم فيه خيراً.. فقال المطعم:

ـ وثلاثة نفر لا يكفون.. نريد رابعاً.

فقال له هشام: انتظرني، وسوف أوافيك به..

ثم اتَّخذ طريقه إلى دار أبي البختري بن هشام، يعرض عليه ويزين له فضل من يقوم بهذا العمل في العرب، وهو يقول له:

ـ فإن قُمتَ لها فأنا عونُك، ومعنا زهير بن أمية، والمطعم بن عديّ..

قال أبو البختري: لو تكون معنا عصبةٌ أخرى..

قال هشام: ذلك لن يكون.. ولكن سأجد رجالًا آخرين إن استطعت...

وراح هشام يبحثُ بين القوم، فما وجد أقربَ إليه من زمعة بن

الأسود بن المطلب بن أسد، فجاءه وكلَّمه، فوجد عندهُ قبولًا واستعداداً، ولكنَّه أبى إلَّا أن يَعلمَ مَنْ هم الآخرون، فسمّاهم هشام له. ثم تركه، ليفتِّش من جديد على من يعينه في مسعاه، فوجَدَ أن ليس أحد يملك عزماً أو شجاعة، مثل هؤلاء القلة الذين لولا الرحم، وصلة القربى ببني هاشم وبني المطلب لما أقدموا على هذه الخطوة، لأنهم كانوا ـ في الأصل ـ ممن يعادون المسلمين أشدَّ العداوة. فعادَ إليهم واحداً واحداً، يدعوهم للحاق به إلى أعلى مكة، حيث اجتمعوا في خطْم الحجون، وتعاهدوا على نقض الصحيفة، على أن يكون زهير بن أمية هو أول من يبدأ بالجهر فيما اعتزموه. . .

وأقبل الصباح، فغدا أولئك النفر إلى الكعبة، فطافوا مع بعضهم سبعاً، ثم وقف زهير بين الناس، يعلن الأمر الذي اتفقوا عليه قائلًا:

ـ يا أهل مكة!. اسمعوا وعُوا. . أما إنَّا لنأكلُ الطعام، ونلبسُ الثياب، وننعم بأسباب الدنيا وأطايبها. . وهنالك في الفلاة، بلا مأوى ولا طعام أو شراب، وبلا فراش وغطاء، بنو هاشم وبنو المطلب، هلكى. . لا يُباعُ، ولا يُبتاعُ منهم؟! أرَضيتم أن يكون أهل لكم في هذا المأزق الكَرِب، وأنتم عنهم غافلون، غير عابئين، ولا مهتمِّين؟! أتراكم قد نسيتم بأنَّ هاشماً كان يطعم الناس في سنوات الجدب والجفاف، ويحمي أهلَكم من الجوع والهلاك؟! حتى إذا قام أحدٌ من سليلته يدعو إلى ما يدعو، تضافرتم جميعكم عليه، وعلى ذويه ومريديه، تذيقونهم مرّ العذاب، وسوء الهوان في مقاطعة أردتموها قاتلة؟!. لا والله، لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!!

وعلا اللغط بين الناس، ودبَّ الشِّقاق. . وكان أبو جهل يراقب

ما يجري بحذر، فلما وجد أنَّ الأمر بدأ يرتدي طابع الجدِّيَّة في الشقاق، صرخ في وجه زهير:

ـ خسئت وكذبتَ يا هذا، والله لا تُشَقُّ الصحيفة!..

وانبرى من بين الجموع زمعة بن الأسود يرد على أبي جهل:

ـ بل أنت الكاذب يا ابن هشام! والله ما رضينا كتابتَها حين أردتم ذلك..

وعلا صوت أبي البختري وهو يقول بدوره: لقد صدق زمعة، فنحن لا نرضى بما كُتِبَ في تلك الصحيفة، ولا نقرّ شيئاً قد فرضوه علينا قوةً وإكراهاً..

وقال المطعم: إن رفيقيَّ ما قالا إلَّا حقاً.. وكذب من ادّعى غير ذلك.. وها أنا أبرأ إليك اللَّهُمَّ من تلك الصحيفة، وما كُتب فيها..

لقد تضافر أولئك الرجال على أبي جهل يسفِّهون رأيه، فحاول أن يشقَّ وحدة أرائهم التي طلعوا بها، ولكنه لم يُفلِح، إذ رأى جميع الناس عند الكعبة قد بُهتوا، وظلوا في أماكنهم صامتين، لا يدرون ماذا يقولون، فقال في نفسه:

«هذا أمر قد قُضِيَ بليل، وتشاوروا فيه بغير هذا المكان»...

وفي هذه الأثناء بالذات، كان قد وصل أبو طالب وبرفقته أخوه حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، وبعض شبان المسلمين. فبادر أبو طالب يسأل:

ـ أما تُخبرون يا قوم ما أنتم عليه مجتمعون؟

قال زهير: لم نعُد نرضى بصحيفةٍ ما كُتبت إلَّا في غفلةٍ منا وطيش..

قال أبو طالب: يا سبحان الله، والله ما قدمتُ من الشعب إلَّا وأنا أحمل خبرَ تلك الصحيفة إلى قريش، وسوف ترونَ من شأنها عجباً!..

قال أبو جهل: قل، فما خبرك يا شيخَ بني هاشم؟

قال أبو طالب: أرى أن يجتمع زعماء قريش كلهم هنا بجوار الكعبة حتى أبلِّغَهم بما بعثني به ابن أخي محمد بن عبد الله بأمر هذه الصحيفة..

وذاع الخبرُ في أرجاء مكة كلها، بأن أبا طالب قد نزل لأمرٍ هام، وهو يدعو للاجتماع به عند الكعبة.. فظنَّ البعض من قريش أن شيخ القبيلة قد جاء يحمل إليهم خبر الاستسلام والرضوخ لرأيهم، بينما أوجس آخرون خيفةً من مجيئه، لأنهم يعلمون مقدار صلابته، وتمسُّكِه برأيه وموقفه.. ومن أجل ذلك تعجّلوا جميعُهم يتدافعون نحو المسجد الحرام، وفي نفس كل منهم شتَّى الظنون. حتى إذا اجتمع الملأ من قريش، قامَ فيهم أبو طالب خطيباً، فقال:

ـ يا معشر قريش، لقد نزل جبرائيل الأمين على ابن أخي «محمد» وأعلمه بأمر الله تعالى في صحيفتكم.. وها إنّي قد جئتكم مع هؤلاء الفتيان لننظرَ فيما آلت إليه هذه الصحيفة، كما أخبرنا به النبي محمد، حتى إذا وصلنا وجدنا من رجالكم شجعاناً قد سبقونا إلى ما جئنا لأجله فبورك الرجال، وبورك سعيُهم في رفع الظلم عنّا، نحن الذين ما عَهِدْتمونا إلَّا أنصاراً للمظلوم على الظالم، وأعواناً

للحق على الباطل.. وإنها لجرأة اجترحها هؤلاء الفتية لعلَّها تردعكم، فترعوون عن باطلكم، وتعودون عن ضلالكم.. وأما ما جئناكم به نحن فهو خبر تلك الصحيفة التي جعلتموها سبباً للقطيعة، وأرادَها الله تعالى برهاناً آخر لصدق «محمد»، والتصديق بما يقول..

فقالوا: هاتِ ما عندك يا أبا طالب!.

فقال لهم:

ـ إن رسول الله «محمداً» يبلغكم بأنَّ الله ربَّه ـ تبارك وتعالى ـ قد أرسل على صحيفتكم الأرَضةَ «فأكلَتْ جميع ما فيها من جور وقطيعة رَحِم وظلم إلَّا اسمَ الله وحده. فإن كان كاذباً خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا»[1] فماذا ترون في هذا يا معشر قريش؟..

لقد كانوا يتوقعون طلبَ الاستسلام، فإذا الأمر بخلاف ما يظنون.. ولكن ماذا عليهم لو فتحوا الصحيفة، والنتيجة مضمونة لصالحهم؟!.. إذ لا يمكن لأرضة أن تأكل كل ما في الصحيفة، ولا تترك إلا جزءاً يسيراً من رأسها، وهو الجزء الذي كُتِبَ عليه عبارة «باسمك اللهمَّ» التي كانوا يستهلّون بها مواثيقهم الهامَّة.. ـ إلَّا أن تكون هذه الحشرة ـ التي لا تكاد تبين ـ تعقل، وتعبد الله، وتريد أن تنصر «محمداً» عليهم.. فيا للسخرية مما يتوهم أبو طالب وابن أخيه!.. إذن فلِمَ لا يرتضون فتْح الصحيفة وسرعان ما تنجلي الأمور؟..

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٦٧.

وبمثل هذه الظنون وافقوا على تفحّص الصحيفة، فقالوا:

ـ قد أنصفت يا أبا طالب..

فدخل أحدهم إلى جوف الكعبة، وعلى مرأى من جميع الحاضرين وقف يشق اللفافة التي كانت تغلِّف الصحيفة.. ولكم كانت دهشة المشركين شديدة، حين وجدوها قد أُكِلَتْ برُمَّتها، إلَّا فاتحتها بعبارة «باسمك اللهُمَّ».. فتناول أبو طالب هذا القسمَ اليسيرَ الباقيَ من الصحيفة، وراح يدور به على المجتمعين فرداً فرداً، ليروا بأم العين، صدق ما قاله لهم، وما بعثه به ابنُ أخيه رسول الله؛ ثمَّ وقف بعدها قِبالةَ أولئك الطغاة القساة، يعنِّفهم بقوله الراجح:

ـ أرأيتم يا معشر قريش كيف أن الله تعالى يُظهر أمْرَه، ويصدِّق نبيَّهُ بأصغر مخلوقاته؟ فها هي الأرضة تُنبىء بالحق المبين، وأنتم أصحاب الحجى والعقول ما زلتم في غيِّكم تعمهون. ألا وإنكم أوْلى بالظلم والقطيعة منا... والله ما كنا لنُقدم يوماً على مثل ما أقدمتم عليه، ولا أن نستسيغ هوانَكم بمثل ما رضيتم هواننا..

ونكَّسَ المشركون رؤوسهم، وهم يرون آيةً عظيمةً من آيات نبوّة محمد ﷺ، ولكنهم كما أخبر الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[1]، ولذلك كانت الصدمةُ للحظات فقط، ثم أفاق أحدهم ـ ممن لم يقدروا على لعق الحسرة التي أصابتهم ـ ليقول:

ـ إنما يأتوننا بالسحر والبهتان!..

---

(١) سورة القمر، الآية: ٢.

فقال له أبو طالب:

ـ ويحك أيها المجدّف الكاذب! أتجرؤ على إنكار الحقيقة، وهذه آثار أسنان الأرضةِ[1] باديةٌ في ما تبقّى من الصحيفة؟ لقد خسئتَ في ادِّعائك الضالِّ، فاصْمُتْ ولا تعدْ إلى مثل هذا الإفك، وإلَّا قطعتُ أنفاسك بسيفي هذا.

وعلا الوجوم، وشاهت الوجوه من قريش..

... فقد توافقوا منذ لحظات على أن تكون الصحيفة هي البرهان الحسي، الذي يحسم كل جدل ويقطعه. والآن وقد حصحص الحق، وظهر ساطعاً مثل نور الشمس، فهل يمكن المضيُّ في المقاطعة؟!.. لم يعد ذلك ممكناً، وقد انتصرت عليهم الأرضة ـ من أضعف الحشرات خلْقاً ـ فتفرقوا يلوذون بجدران بيوتهم من خزي الذل والهوان، بينما راح الذين سَعَوا في نقض الصحيفة ينشرون خبر الأرضة في أنحاء مكة تشبثاً برأيهم، وحفاظاً على كرامتهم!..

أما أبو طالب فقد أوفد فتيان المسلمين، يُغِذّون[2] السير إلى الشِّعاب، ليزفُّوا إلى أهليهم خبرَ نقْض الصحيفة، وزوال الشدَّة عنهم بالعودة إلى ديارهم، مرفوعي الرؤوس.. أما هو فقد جلس يستند إلى ركن الكعبة، وفي قلبه شوق إلى هذا الجوار الطيب، الذي لم يستطع معه أن يمنع نفسه من التأثُّر، فجاشت قريحته ليقول في نقض الصحيفة قصيدةً طويلة، منها هذه الأبيات:

---

(١) الأرضة: دويبة تقرض الأخشاب.

(٢) يغذون السير: يسرعون.

وقد كان في أمرِ الصحيفةِ عِبرَةٌ مَتَى ما يُخَبَّرْ غائبُ القومِ يَعجَبِ
محا الله منها كُفرَهُمْ وعُقوقَهُمْ وما نَقَمُوا مِنْ ناطقِ الحقِّ مُعربِ
فأصبَحَ ما قالُوا مِنَ الأمرِ باطلًا ومَنْ يَخْتَلِقْ ما ليسَ بالحقِّ يكذِبِ

وانتهت المقاطعة، وعادت بيوت العز والكرم في مكة تفتح أبوابها على مصاريعها، فأتى أصحاب الأمس نادمين، آسفين، يبدون الأعذار لأسيادهم من بني هاشم وبني المطَّلب، إلا رؤوسَ الشرك فقد ازدادوا كفراً على كُفرهم وما نقموا من أهل الحقّ إلَّا أنهم يحمون محمداً ﷺ ويمنعونه.

وعاد المسلمون لمتابعة الدعوة بعزيمة أمضى، وبثبات أشدّ من ذي قبل. وكان لهم أن يُعذروا لو استكانوا فترة من الزمن، يستروحون فيها بعض الراحة لشدة ما عانوا خلال تلك السنوات الثلاث المتواصلة، أو لو تفرّغوا بعض الوقت في طلب الرزق للتعويض مما فاتهم.. ولكنهم دعاةٌ، ومسؤولون أمام الله ـ تعالى ـ وهم يتحمَّلون هذه المسؤولية، ويمشون على النهج الذي رسمه القرآن الكريم للرسول ﷺ ولهم، وذلك في قوله تعالى له:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾(١).

ولذلك فلا الراحة ولا الرزق، ولا مطالب الحياة الدنيا بأسرها، توازي عندهم كلمةً تقال لله، وفي سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

فما أسمى هذه الدعوة التي بها يحيون. وما أرفع هذا اللقب

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٤٣ و٤٤.

الذي به يشرفون؛ أما الدعوة فهي عقيدة الإسلام، وأما اللقب فهم أصحاب رسول الله ﷺ، والدعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يحملون مشعلَ الإسلام الذي فيه الخلاص من موبقات الدنيا ومفاسدها، فهل يركنون إلى راحة، ولو كانوا متعبين، ونداء الحق ما زال مُلحّاً: أن هَلمّوا يا أهلَ الإيمان إلى العمل؟.

أبداً، لم يكن ممكناً أن يرتضوا مهادنةً لأنفسهم، والكفار من حولهم لا يزالون على عنادهم مكابرين، وفي النيل منهم ممعنين؟! إنهم مسلمون لله ـ جلَّت عظمته ـ وكفاهم بذلك عزَّةً وكرامةً: عزَّةً في النفوس تقوِّي هممهم وعزائمهم، وكرامةً في الحياة تزيد صلابتهم ومثابرتهم..

وكان في عودة المسلمين إلى سابق عهدهم، بعد ذلك الحصار اللئيم في الشعاب، ما ألَّف القلوب إليهم، وقرَّب دعوتَهم إلى النفوس أكثرَ من ذي قبل ـ وهذا من ثمرات المقاطعة كما قلنا ـ فازداد تفتُّحُ الأذهان على الإسلام، وكثر عدد المسلمين، فاتّسع نطاق الدعوة حركةً، وعملًا، وأسلوباً، وطريقةً..

ولكن، وبمقدار ما كان لهذا النطاق أن يتسع ويمتدّ، بقدر ما كان الاصطدام مع قريش يحتدم ويشتد.. وقد اتخذ هذه المرة شكلًا جديداً من قِبَلِ المسلمين، الذين رأوا أن يجعلوه صراعاً حول الأفكار والمفاهيم التي جاء بها الإسلام، والتي من شأنها أن تنقُض كلَّ أفكار الوثنية ومعتقدات الشِّرك، وما ذلك إلَّا لأن الدعوة الإسلامية، تحمل بنفسها أسسَ الصراع الفكري والنفسي حول العقيدة الدينية قبل كل شيء، لتنطلق من ثَمَّ إلى معالجة شؤون الحياة والناس بروح إيجابية

بناءةٍ، وفق الأحكام والسنن والمعايير التي تحملها آيات القرآن المبين.. ولذلك فإنها تقوم ـ كما صار معروفاً ـ على الدعوة إلى وحدانية الله وعبادته وحده لا شريك له، في حين أن عقيدة قريش تقوم على عبادة الأوثان والأصنام، وتتخذها زُلفى تقرِّبها إلى الله.. كما أن الدعوة تأخذ بزمام سفينة المجتمع لكي ترسوَ بها على قواعد حياتية جديدة، تعمل على اقتلاع النظام الفاسد القائم في المجتمع المكي، وهذا ـ ولا شك ـ يتناقض مع وجود قريش، ومكانتها الاجتماعية..

وكان عونَ المسلمين الأكبرَ في هذا الصراع المحتدم، القرآنُ الكريم، فهو يبيِّن ـ بصورة جليَّة ـ التعارضَ القائم، فَيُنْحي على الكفار باللائمة، ويَنعتهم بوضوح ـ بأنهم وما يؤمنون به من أفكار، وما يدينون به من معتقدات، أكوامٌ من الهشيم الذي مصيره إلى الزوال في نار الجحيم المحرقة، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(١).

ثم يَشُنُّ عليهم هجوماً عاتياً في أنماط عيشهم، وما اعتادوا عليه من ربا، وفواحش، وعادات اجتماعية بالية، كي يجتثَّها من الجذور، ويقتلعَها من الأعماق، وذلك بقول الحق تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٢). ثم يبيِّن لهم خسران الذين يطفِّفون الكيل والميزان، ويتوعدهم بقوله العزيز: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾(٣)

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٣) سورة المطففين، الآية: ٣٠١.

ذلك أنه كان من عاداتهم السيّئة عدمُ أداء الحقوق لأصحابها في معاملات البيع والشراء، سواء بين بائعي الجملة وزبائنهم، أو بين بائعي المفرَّق والمستهلكين، وهؤلاء الأخيرون هم غالبية الناس الذين تهمُّهم المبادلة الصحيحة في سوق العرض والطلب.. فكان أكثر الحيف يقع عليهم، لأن الباعة يستوفون حقوقَهم كاملة منهم، ولكنهم يبيعونهم مطففين، أي يسرقون بعضاً من حقوقهم خلسةً، من دون أن يشعر المستهلكون بما يُسرق منهم. وهو الشأن نفسُه اليوم مع غالبية الباعة والتجار الذين يعتبرون أن سرقة المستهلك، أو إنقاصَ حقه نوع من الحذلقة والمهارة يزيد في أرباحهم، من دون أن يدروا بأن هذه السرقة، التي يتوهمون أنها صغيرة، سوف تكون جمرةً من نار يُؤمرون بإمساكها بأيديهم فتحرقها، وتُكْوَى بها جُلُودُهم فتشويها، لتعيدهم بالتذكُّر إلى ما كانوا يفعلونه في الحياة الدنيا.. فجاء القرآن الكريم يضرب مثل تلك العلاقات الاقتصادية الفاسدة التي لا تصل فيها الحقوق كاملة إلى أصحابها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[1]، تماماً كما جاء يفعل بالمعتقدات الوهمية البالية، بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، وكما يفعل أيضاً بالعلاقات الاجتماعية القائمة على الاعتداد بالشرف والكرامة، بصورة خاطئة، كانت تدفعهم إلى قتل بناتهم ظلماً وعدواناً ـ وهنَّ في المهد ـ لم يرتكبنَ ذَنْباً أو يقترفنَ إثماً، فيسألهم باللغة التي يفهمون: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥

(٢) سورة التكوير، الآيتان: ٨ و٩.

فهذه الآيات الكريمة وغيرها كانت تهدّم البنيان الذي تقوم عليه العلاقات في المجتمع المكّي، وقد اعتمدها المسلمون سلاحاً يمدُّهم به القرآن الكريم، ليكون نهجُهم، في صراعهم الفكري، قائماً على الصراحة والوضوح. وهو النهج الذي اعتمده الرسول ﷺ منذ بادَأَ قريشاً بدعوته، يوم كان فرداً وحيداً، أعزلَ لا نصيرَ له ولا معين، ولا يملك عُدَّةً ولا سلاحاً، إلَّا سلاحَ الإيمان، ونصرة الله تعالى. بل ظهر هذا النهج في دعوته متحدياً، لا يتطرق إليه ضعف، ولا يعوقه عن احتمال التكليف الجسيم عائق. واستمرَّ في كفاحه على مثل هذا النهج من الدعوة، وهذا النمط من الكفاح، منذ أن عادَ ﷺ من الشِّعاب هو والصحابة من ورائه، مما جعل بعض الناس يُقبلون عليه، بعدما أخذ نورُ الإسلام يشعُّ وئيداً[1] بين قبائل العرب البعيدة عن مكة. وهكذا كان الرسول الأعظم يُعدُّ كلَّ السبلِ الفكرية للاتصال بالناس، ويهيّىء الدعاة الصالحين، والأرضية السويّة لانطلاق الإسلام من مرحلة التلقي والتعليم إلى مرحلة التصادم الفكري للتغيير المجتمعي..

(١) الوئيد: الصوت الشديد. والمعنى هنا: برزانة وتأنٍّ وبفاعلية مدوية.

البحث الثاني

نقطة انطلاقة الدعوة

أهمية الاحتكاك الفكري

تلك كانت أهمَّ محاور التفكير بين أهل الكفر والشِّرك في طرف، وبين أهل الإيمان والتقوى في طرف آخر، وهي تتلخص بثلاثة: العقيدة، العلاقات الاقتصادية والحياة الاجتماعية. فأما الكفار، وعلى رأسهم الطواغيت في قريش، فقد ظهرت سفاهة عقيدتهم إلى جانب عاداتهم القبيحة، وأنماط حياتهم السيئة، وزادهم شناعةً وقوفُهم في وجه الدين الجديد، وإصرارُهم على التفكير ذاتِهِ، وهو القضاء على «محمد» قبل كل شيء. ومن ثمَّ إعلانها حرباً شعواء، مدمرة على أتباعه وأقاربه وحلفائه، حتى لا يبقى أحد يجرؤ على ذكْر الإسلام بخير..

وأما المسلمون فكانوا على خلاف ذلك تماماً. لقد اعتنقوا الإسلام عقيدة ونهجاً، فصار شُغلَهم الشاغل؛ أما مدار تفكيرهم فكان دعوة الناس للهدى والإيمان، وتغيير علاقات الحياة من حولهم.. حتى يمكنهم الانطلاق إلى أرجاء الجزيرة، ومن بعدها إلى بقاع بعيدة في الأرض فيسطع نورُ الإسلام، الذي هو وحدَهُ ـ بإذن الله ـ يخرج الناس من الظلمات إلى النور. ولذلك كانت الأفكار والتصورات

متضاربة ومتناقضة إلى أبعد الحدود بين المسلمين وبين أعدائهم من الكفار والمشركين.

وتبرز المفارقات بين تلك الاتجاهات في اجتماعين متقابلين:

اجتماع يتحلّق فيه عددٌ من المسلمين حول نبيِّهم الهادي، بجوار الكعبة الشريفة، وهم على عقيدتهم ومفاهيمهم.. واجتماع آخر، غير بعيد عنهم، يجمع المشركين وهم على باطلهم ومؤامراتهم..

وتطلّع عمر بن الخطاب ناحية أولئك المشركين، فقال للنبي ﷺ: ألسنا على حق إن مُتْنا أو حيينا يا رسول الله؟ فقال له ﷺ: «بلى والله يا عمر. والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متُّم أو حييتم».

لقد استشف رسول الله ﷺ من سؤال عمر بن الخطاب أن المسلمين قد بلغوا المرحلة التي تجعلهم على كامل الاستعداد للقيام بعملٍ جديدٍ يُبرز مكانتَهم، ويُظهِرُ أحقيَّة دعوتهم. وهذا ما يفكّر به رسول الله ﷺ، ويخطط له منذ مدة، بعد أن بقيت الدعوة إلى الآن في إطارها الضيق المحدود، وعلى حالة أقرب إلى التروّي والحذر، بينما في الحقيقة يجب إظهارها نهجاً معبّراً يكون منطلقاً لدعوة عالمية أُنزلت من رب العالمين، لتثبت وجودَها المنظور في بلاد العرب، وتنطلق من ثمَّ إلى العالم كله، باعتبار أن الإسلام هو دين عالمي، لأنه للناس كافة ولأنَّه الدين القيم الذي يدعو إلى التوحيد، ويضرب كل أشكال الوثنية وهو ما من شأنه إعلاء الإيمان على الكفر، وتسويد العقل على الجهل، والعدل على الظلم.. وإن إظهار الدعوة جهراً، وعلى ملأ قريش وحلفائها، فيه الإعلان عن مدى تفاعل الدعوة في

نفوس المسلمين، واستعدادهم للانطلاق بها من المحدودية المكانية التي فُرضت عليها قسراً مدى سنوات متواصلة، بعد أن صاروا ـ بحول الله العلي القدير ـ مؤهَّلين لحمل الرسالة من خلال التعليم الواعي، والثقافة المدركة، وغيرها من مفاهيم التربية والإعداد التي كان الرسول الحكيم يغرسها في نفوس المؤمنين الصافية منذ أن بزغ فجر الإسلام... ولو أقدم على هذه الخطوة الجريئة، فإن من شأن ذلك أن يؤدي إلى نقلةٍ نوعية يمكن أن تفصل في حياة الدعوة بين مرحلتين:

ـ مرحلة الإعداد والتلقي والتثقيف التي سبقت.

ـ ومرحلة التفاعل والبدء بالتغيير والبناء التي ستأتي..

وأهمية المرحلة الجديدة أن التغيير والبناء فيها سوف يكونان على أسس وطيدة وثابتة من الأفكار، والمشاعر والقيم الإسلامية التي تظل قائمة أبد الدهر، يتحرّاها الناس في منابعها الأصيلة من الكتاب والسنَّة، وينشدونها في روافدها وفروعها الأمينة من العلماء والفقهاء المجتهدين، فتكون المنارةَ الوضّاءة لهدايتهم، والبوصلة المرشدة لأمانهم..

أجل هذا ما كان الرسول الأعظم يُعِدُّه، ويخطط له..

ولذلك أمر ﷺ المسلمين، الذين كانوا معه عند الكعبة الشريفة، أن يتوزعوا في أنحاء مكة، لدعوة سائر إخوتهم إلى حضور اجتماع شامل، يعقده معهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم في المساء.

وفي هذا الاجتماع كان الرسول الأعظم محمد والمسلمين الأوائل يقفون وقفةٌ تاريخيةٌ في الإعداد لإعلان التوجّهات الجديدة

الإسلامية التي سوف يكون شأنها عظيماً في حياة الناس. . .

فقد مرت سنوات عدة على مبعثه الكريم. وقد أنزل الله تعالى عليه من الآيات البيّنات ما يجعل الإسلام قادراً على الوقوف في وجه التيارات الفكرية التي تحكم العقول والقلوب، وتؤثر في حياة الناس كافة، لأنها تحملهم على التصديق بما جاءت به الرسالاتُ السماوية السابقة، حول الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى، وألوهيته المطلقة، وربوبيته المطلقة، والفصل بين أحقيّة ما جاءت به تلك الرسالات وما أُدخل عليها من تحريفٍ، ودسٍّ، وتأويل، وافتراءٍ، وجميعها قد أدت إلى تزوير الأحكام الدينية والمقاصد الإنسانية التي حفلت بها الكتب السابقة، مما دفع بالناس إلى الانزلاق ـ بسبب ذلك التزوير ـ إلى تصورات ومعتقدات هي أبعدُ ما تكون عن أصلها وطبيعتها. أي أن من الأهداف المتوخاة التي كان رسول الله ﷺ يرسم أُطرَها، ويبني قواعدها، ويحدِّد اتجاهاتها، كان القضاءَ على سفه الوثنية والشِّرك، وإبطال الأفكار المنحرفة والخبيثة، وتصحيح التعاليم الدينية السائدة، وتصويب كل ما من شأنه معارضة حياة الإنسان في صحتها وسلامتها، ومن ثمَّ العمل على جعلها حياةً معافاة من الأمراض والشوائب والعيوب التي تمسُّها في الجوهر والشكل. .

وقد اعتمد الرسول ﷺ لإيصال تلك المفاهيم إلى المجتمع المكي أولًا، ومن ثَمَّ إلى الناس كافة، الظهورَ الجماعي للمسلمين كخطوة أولى. . على أن تتبعها الخطوات، والخطط الأخرى التي توفِّر الاحتكاك الفكري بين عقيدة الإسلام الجديدة بأفكارها النيّرة الحقة، وبين غيرها من المعتقدات التي لم تحمل للناس إلَّا جفاءً عن الدين

الحق، أو جاهليةً خرقاء رعناء، لا أساس لها ولا برهان، اللهمَّ إلَّا التعصّب الديني الأعمى، والعصبية المتحكمة في العقول والقلوب، وإقامة أنظمة اجتماعية مهترئة همُّها أن يكون الوزن الأكبر للفوارق الاجتماعية، وللتمايز والاختلاف الطبقي، وتثبيت دعائم الجهل والفسق والفساد!.

إذن فالهدف الأول والأشمل كان عند رسول الله ﷺ إحلال الإسلام بديلًا عن كل ما سبقَهُ ليكون: عقيدة، وفكراً، ومنهج حياة للناس.. حتى يمكن على أساس ذلك كله، البدءُ ببناء المجتمع الإسلامي الجديد، الذي يكون تطبيقاً حيّاً للحكم بما أنزل الله.

والواقع أن المجتمع في المفهوم الإسلامي لا يعدو كونَهُ مجموعة من الناس، وما يوحِّد بينهم من أفكار ومشاعر وأنظمة، يتوافقون عليها من أجل المصلحة العامة، والنفع العام، والخير العام لجميع أبناء هذا المجتمع.. وليس من أجل مصالح فردية وعلاقات مجتمعية ضيقة، يكون إطارُها الغاياتِ الشخصيةَ المحصورة، ومحورُها المنفعةَ الفردية الهدامة ـ في أحيان كثيرة ـ لأن من شأن العلاقات والغايات التي تخالف السلوك الإنساني السليم، أن تبعده عن مفاهيمه الإنسانية المحْضة، حتى إذا خرج على رباطه الإنساني والديني الصحيح تعلقت به المفاهيم الفاسدة القائمة فقيّدته، وبعدت به عن التغيير الذي يُطلب من أبناء المجتمع كلما دعتهم الحياة بحركتها الدائمة، إلى تغيير جذري في المعتقدات والأفكار والمشاعر، وفي أنماط العيش ووسائلها، وأنظمة الحكم وأساليبها.

أجل، إنَّ الهدف من الخروج الجماعي للمسلمين هو إحداث

هذا التغيير الذي سوف يؤدي إلى انقلابٍ شاملٍ في المجتمع المكي المحدود، ومن ثمَّ في المجتمعات البشرية الأخرى، وذلك من خلال مرحلتين يمرُّ بهما:

ـ مرحلة تغيير طريقة التفكير حتى يتغير ما في النفوس..

ـ ومرحلة تغيير الواقع عندما يكون هذا الواقع سيِّئاً..

ولا بُدَّ من أن يأخذ التغيير في المرحلة الأولى المدة الزمنية الكافية حتى يمكن الانتقال بعده إلى مرحلة التغيير الثاني الذي يمسي تحقيقه أسهل، باعتبار أن تغيير ما في النفوس قد يكون أصعبَ المهمات التي تواجه دعاة الإصلاح في كل زمان ومكان.

الأسس التي يقوم عليها انطلاق الدعوة

وليس هذا التغيير ـ في مرحلتيه الفكرية والواقعية ـ إلَّا تغييراً للأسس غير السويّة التي بنى الناسُ حياتهم عليها لكي يحل محلَّها ـ جميعاً ـ الأساسُ المقطوع بصحته وصِدْقه، ويكون بدوره المقياس لجميع المقاييس، والمفهوم الأساسي لجميع المفاهيم، والقناعة الأساسية لجميع القناعات.. وبه تتغيَّر القيم كلها: قيم الأشياء، وقيم الأفكار، وقيم الأساليب والوسائل، وقيم الروابط والعلاقات... وبمثل هذا التغيير الذي يقوم على الاحتكاك بين الأفكار وتصارعها مع بعضها بعضاً ـ حتى يسود فيها الصحيح السليم، ويسقط الغثُّ المَهين ـ لا يمكن إلَّا اعتمادُ طريقة واضحة وسليمة. وهذه الطريقة قد وُجدت، وما تزال موجودة لدى المسلمين، وعناصرها معروفة عندهم، فهي تقوم:

ـ على تصورهم الهدف الذي يريدون، وهدفهم الأول والأخير

إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ وجعلها هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

ـ وعلى المنهج الذي يوصلهم إلى هذا الهدف، وهو الحكْم بما أنزل الله تعالى في قرآنه الكريم، وبما سنَّهُ الرسول العظيم بوحي من الله العلي الحكيم، في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(١).

ـ وعلى معرفة المجتمع، معرفة تامة، حتى يمكنَ هدمُ ما يجب هدمه، وبناء ما يجب بناؤه، لأنه في الأصل لا هدم بلا بناء، وإلَّا كان الهدم من أجل الهدم فقط، في حين أن الإسلام جاء للبناء، ولذلك وجب هدم ما يتعارض وهذا البناء الجديد.. أي بناء المجتمع الإسلامي، بل والمجتمع الإنساني، على قواعد العدل والمساواة، والأمن والسلام، وغيرها من القيم التي تحقق إنسانية الإنسان في علاقاته الشخصية، والمجتمعية، وفي تعامله مع العالم بأسره..

وإن هذه التصورات والمفاهيم الإسلامية التي يحملها الدعاة الإسلاميون، هي التي تجعل كلًّا منهم يتميّز عن غيره بالصفات والمزايا التي تظهره:

ـ عارفاً لأمَّته.

ـ مُطَّلِعاً على خفاياها..

ـ خبيراً بطرق توجيهها.

ـ يعرف كيف يخاطبها وكيف يكون موضع تقديرها واحترامها،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

حتى يمكنَه امتلاكُ الزمام.. ولا يكون ذلك للداعية إلَّا إذا كان مثالًا يُقتدى به في سيرته الحميدة قولًا وفعلًا...

وإن انطلاق المسلمين، على هذه الأسس الواضحة، هو الذي يمكّن لرسالتهم، وهي رسالة فكرية انقلابية شاملة، أن تجتثَّ جذور الفساد القائم، وأن تمحوَ الظلم والاستعباد والاستغلال، لتُرسي قواعدَ الإيمان الحق بالله تعالى، وتنظِّم المجتمعات البشرية، وفق ما يتناسب مع تطلعاتها نحو الأفضل والأحسن.

وكذلك كان الهدف ـ بل الأهداف القريبة والبعيدة ـ من عزم الرسول ﷺ على الظهور العلني، بعد حقبة دامت سنوات عدةً من سير الدعوة في تخفّيها ـ بادىء الأمر ـ ومن ثمَّ دبيبها الحذر، ونشاطها المحدود.. ولقد أرادَ الرسول الأعظم أن يكونَ هذا الظهور بدءَ الانطلاق بالدعوة، على أساس تلك الأفكار الإسلامية الصحيحة، وعلى المنهج والقواعد القويمة والثابتة. فجمعَ المسلمين وأبان لهم الطريقة التي اعتمدها، والمنهج الذي رسمه للمرحلة المقبلة والمنظورة من عملهم الدائم، الذي لا انقطاع له، لا سيما أن آيات الله ـ تتْرى[1] في التنزيل، والتعليم الرباني يتزامن مع التنزيل الحكيم...

وكان الليل في هزيعه الأخير، عندما خرج المسلمون من دارتهم العامة في بيت الأرقم ليعودَ الرسولُ ﷺ إلى دارته، فيقوم الليلَ ساهراً، مصلِّياً، متهجِّداً، تالياً القرآن، وهو راضي النفس، عما اعتزم من العمل الذي لا يمكن من دونه للدعوة أن تنطلق، لاسيما أنه في

(١) تترى: تأتي واحدة بعد أخرى.

اجتماعهم قد أعاد على أذهان الصحابة الأبرار وعلى مدار ساعات طويلة، كلَّ ما ينير سبلهم، ويسدِّد خطاهم، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم.. وهو، على كل حال، ما وجَدَ إلَّا دعاةً صادقين، وقادرين على إظهار أمْر الله تعالى.. فقد توطَّد الفكر الإسلامي في نفوسهم، حتى غدا هذا الفكر قوةً منيعةً، قابلةً للتطبيق في معترك الحياة، وصارت لديهم القوةُ على نشر الدعوة، والاستعداد للتضحية في سبيلها.. وهذه الحقائق بالذات كانت هي السببَ الذي دفع الرسول ﷺ لتغيير مسار الدعوة وأسلوبها بعدم الاستمرار في الوضع الراهن، وعدم البقاء على التكتل شبه السري. فقد بات واضحاً أنَّ الدعوة قد اجتازت مرحلة الإعداد، وآن لها أن تنطلق، لأن نقطة الانطلاق ما هي في الحقيقة إلا بدايةٌ لمرحلة الكفاح الفكري، والتفاعل الحضاري.

أما الصبر على الأذى، فهو من مقومات هذا الانطلاق بعدما ذاق المسلمون من ألوانه الكثير، بل وصل إلى درجة، دفعت عبد الرحمن بن عوف أن يأتي النبيَّ ﷺ، ومعه بعض رفاقه، يستأذنونه باستعمال السلاح قائلين: يا نبيَّ الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنَّا صرنا أذلة؟! فمنعهم ﷺ بقوله: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»[1]..

خروج المسلمين تعبيراً عن انطلاق الدعوة

لقد عادَ رسول الله ﷺ، بعد الليل الطويل الذي هيَّأَ فيه

(١) رواه النسائي، والحاكم وابن أبي حاتم؛ وفي كتاب: الدعوة إلى الإسلام: كتاب الوعي، رقم ٣، أحمد المحمود.

الصحابةَ نفسياً للخروج تعبيراً عن انطلاق الدعوة، إلى معاودة الاجتماع بهم، في صبيحة اليوم التالي، في دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ دار العلم والإعداد والاستعداد ـ وعرض عليهم مرةً ثانية طريقتَه في الخروج، فهبّوا جميعاً يلبّون النداء بأعلى همّة، وأشدّ عزم.

إنهم كانوا يتوقون إلى هذا اليوم الذي يخرجون فيه مسلمين، ويمشون بين الناس مسلمين لا حذرين، ولا وجِلين... وإنهم كانوا ينشدون هذا الوقت الذي يظهرون فيه مسلمين غير عابئين بصلف قريش، ولا هيّابين عنتَ جهلها.. فقد كفى المشركون استعلاءً عليهم، وهم يعلمون بأمر النبي ﷺ منذ أول يوم نزل فيه الوحي على قلبه الشريف. كما كانوا يعرفون منذ البداية، وهم يعيشون في بلدٍ مثل بلدهم مكة ـ حيث أواصر القربى على أشدّها بين أكثر من قبيل، وحيث العلاقات المجتمعية، والصلات الشخصية تتفاعل على أكثر من صعيد ـ بأنَّ ما بُعث به محمدٌ ﷺ هو أمرٌ إلهي، واختيار ربّاني لا شأن به لأحدٍ غير الله سبحانه وتعالى، وأنَّ ما يدعو الناس إليه لم يكن لطمع دنيوي، ولا لغاية شخصية به، بل جاء يدعو إلى دين الله الواحد الأحد، دين الحق والهداية، فآمن به أناسٌ من سادةٍ وأشراف، ومن فقراء ومساكين، وأحرارٍ وعبيدٍ، وساروا معه على النهج القويم الذي يزوّدهم كل يوم بجديد تتفتّح عليه عقولهم، وتطمئن إليه قلوبهم.. لقد كان المشركون يعرفون ذلك، بل ويعلمون تمام العلم أن محمد بن عبد اللّه ﷺ كان الهادي، والمعلِّم، والمربّي والمرشد لأصحابه يحرص على حياتهم، ويسهر على شؤونهم، وينمّي روح الأخوة والإلفة فيهم، ويشدّد على أواصر الوحدة والتماسك فيما بينهم حتى صاروا كتلة متراصة..

أجل! كان المشركون يدركون كل هذه الأمور.. ولكن بدل أن تجذبهم تلك الروحُ الإسلامية التي كانت وراء ما وصلت إليه حال المسلمين، نجدهم يشهرون، ومنذ البدء، العداوةَ السافرة للإسلام، ويمارسون على النبي ﷺ وصحابته مختلف أنواع الضغوط، وشتى ألوان الأذى حتى أذاقوهم الأمرّيْن.. بينما كان دأب المسلمين ـ بالمقابل ـ العملَ على تحاشيهم، وتجنب الاحتكاك بهم.. أما الآن وقد أمَرَهم لنبيُّهم الأكرم بخلع ثوب المجانبة والمداراة، فهل يبقون ساكنين مقهورين؟!

وهل يقبلون بأن يظل شرُّ قريش مستطيراً، بينما خير الإسلام مستكين؟.

لا والله لن يكون ذلك، وفي نفوسهم حميّة الإسلام الصادقة.. وفي قلوبهم الإيمان بالله العلي العظيم!.. إذن فلا شيء يمنعهم من الظهور.

وأزفت الساعة، ووقفت مكة كلها تشهد نقطة تحوُّل جديد في التاريخ.

فقد انتظم المسلمون من أمام دار الأرقم بن أبي الأرقم في صفين:

على رأس الصف الأول حمزة بن عبد المطلب.

وعلى رأس الصف الثاني عمر بن الخطاب.

وأمام الجميع آية الله تتهادى في شخص رسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

لقد خرجوا في هذا التنظيم الدقيق الذي لم تعهدْه قريش من

قبل، متوجهين نحو الكعبة المباركة، ليطوفوا على أعين الملأ من المشركين، وليصلّوا، على رؤوس الأشهاد، جماعة واحدةً مؤتمَّةً بنبيّها الكريم. والمشركون واقفون يرقبون ما يجري تحت سمعهم وبصرهم، وهم لا يكادون يصدِّقون ما يرون ويشهدون.. فقد أثَّر فيهم هذا الخروج فأدهشهم، وجعلهم يشعرون وكأن الأرض تميد بهم، فلم يفعلوا شيئاً، بل ظلوا في مواقعهم واجمين، دونما أدنى إشارة إلى تفرقة المسلمين، أو أقلّ تحرُّكٍ لمنعهم ممّا هُم عليه.

ولكن سرعان ما تبدَّل هذا الموقف بشكل مفاجىء، وحصلت ردة الفعل بصورة سريعة وفورية، عندما انتهى المسلمون من صلاتهم عند الكعبة أعزَّها الله، وعادوا ينتظمون ـ كما جاؤوا ـ للعودة إلى دارتهم العامة.. في هذه الأثناء تنادى القرشيون ـ وكأنما صحوا من غفلتهم ـ يحضّون على جمْع الحجارة، واجتلاب الأشواك، ليندفعوا من ثمَّ في هجمةٍ عامة، وشغب عارم، ولا همَّ لهم إلَّا أن يقذفوا المسلمين بالحجارة، ويحثوا[1] التراب والرمال على رؤوسهم، ويتواثبوا على رميهم بمواعين النفايات والأقذار، وضرْبهم بالعصي وحزمات الشوك، حتى وصَلَ بهم الهيجان إلى ذروته ووقع ما وقع ـ من جراء تلك الهجمة العاتية ـ على المسلمين، إلَّا أنهم ـ بفضل الله ـ لم ينهزموا أمام ما يتعرضون له، وما يصيبهم، بل ظلوا على تماسكهم، وأنظارهم مشدودة إلى رسول الله لئلا يصيبه أذى أو ضرر، وكل واحد منهم يريد أن يحميَه بمهجته، لأنه أشرف وأجلّ من أن تمسَّه يد مشرك، أو أن يطاوله حقد حاقد...

---

(١) يحثوا: يصبّوا.

ولم يكن الرسول ﷺ بأقل من الصحابة قلقاً على سلامتهم، فكانت أوامره تقضي بعدم المقاومة، والمحافظة على تماسكهم، وعلى استقامة الصف، كي يتحاشوا ما أمكنهم الإيذاء، وكي لا تزداد الإصابات التي وقعت بينهم، وأدت إلى جرح العديد منهم.. وعمل المسلمون بأوامر رسولهم العزيز على قلوبهم، فأسرعوا يستحثون خطى العودة، بعد أن أمكن لهم تحقيق الغاية التي أرادوها.. فقد خرجوا بدعوتهم مؤمنين، صادقين وكانت انطلاقة الدعوة المباركة...

وإنها، والحق يقال، كانت انطلاقة ميمونة، وناجحة كما خطَّط لها رسول الله ﷺ لكي تستمرَّ بنجاحها حتى يُتم لله ـ تعالى ـ أمرَهُ، ويُظهر دينَهُ ولو كره المشركون.

ويكفي تلك الانطلاقة نجاحاً ـ حتى ذلك الحين ـ أن الحق والباطل قد تقابلا وجهاً لوجه، بشكل جماعي.. ولأول مرة منذ مبعث الرسول ﷺ، فالحق ـ ههنا ـ في صفّ الإيمان وأصحابه، والباطل هنالك في جموع الشِّرك وأعوانه.

وعاد المسلمون إلى دارتهم العامة راضين، مستكينين، فقد أمرهم النبي ﷺ ألَّا يتفرق جمعُهم في ساعةٍ قد تغتنمها قريش فرصةً سانحة، فتثب عليهم، آحاداً وجماعات، في وثبةٍ رعناء لا يعرف مداها إلا الله تعالى، ولا تكون نتائجها إلَّا توقُّف الانطلاقة، وتقهقر الدعوة ولو بصورة آنية.. أما إن بقُوا في دارتهم، ولو لبضع ساعات من الوقت، فقد يجنِّبهم ذلك كثيراً من المزالق والمخاطر، ولن يكون بمقدور قريش مهاجمتهم في عقر دارهم، لأنها تعرف أنهم كلهم فتيان

أشدّاء، ومستعدون للقتال والتضحية في سبيل دعوتهم.. هذا فضلًا عن عدم إقدام قريش على تصرّفٍ طائشٍ من هذا القبيل، لأن من شأنه أن يوقع المواجهة العامة، والاقتتال بين عشائر مكة وبطون قبائلها كافة، بعدما دخل ـ بفضل الله ورحمته ـ أبناءٌ منها في الإسلام..

أجل كان التفكير الهادىء والرصين سيدَ الموقف. ولكن لا بدَّ من الحذر والحيطة، فوقف عددٌ من الشباب الأشاوس، ذوي العزيمة والبطش، وهم يمتشقون السيوف، ويلبسون الدروع، ليكونوا على أهبة الاستعداد لحماية الدار ومن فيها، والذود عنها حتى الموت.

وصدق ظن المسلمين، فلم تقدم قريش، في ذاك اليوم، على فعل طائش، لأن زعماءَها، وقد نفثوا بعضَ ما في صدورهم من أحقاد، آثروا الانصراف، على الرغم مما كان يتآكل نفوسهم من الحسرة وما يتفاعل في قلوبهم من الحنق. أجل، لقد ذهبَ المشركون، وفي نفس كل واحدٍ غصّةٌ تجعله يفكر فيما يجب على قريش أن تفعل، حتى تضعَ حداً لهذه المسرحية التي تجري على أرض مكة، والتي ـ على ما يبدو ـ سوف تستمر إن لم يتمَّ وقْفها عاجلًا!.. ولكن هل تقدر قريش على إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، والدعوة قد انطلقت؟!، والأفكار الإسلامية لا بدَّ من أن تلاقيَ مَن يؤمن بأحقيتها، ويعتنق المبدأ العظيم الذي تنبثق عنه؟.

إسلام سيد قبيلة بني دوس

واتجهت أنظار قريش إلى القبائل، فراحت تقف بالمرصاد لكل من يأتي مكة، فرادى أو جماعاتٍ لمنعهم من الاتصال بـ«محمد».. إلا أن ذلك لم يثن العزيمةَ في نفوس الرجال الشُمِّ عن المجيء،

خصيصاً، للقاء هذا النبي الذي يدعو للإسلام، والاستماع إليه، كما فعل الطفيل بن عمرو الدوسي، سيد قبيلة بني دوس، الذي جاء إلى مكة لهذا الغرض، فيلاقيه بعض المشركين، ويحذِّرونه من الاجتماع إلى «محمد»، لأن قوله كالسحر، يفرّق بين المرء وأهله، ويحول بين المرء ونفْسه. . . وإنهم يخشون على سيد بني دوس وشيخها الجليل، من الوقوع بين يدي ذلك الساحر، فيصيبه من الأذى ما قد يصيبه، بل وتحلُّ بقومه الفرقة، كما حلَّت بقريش، بسبب فعاله! . .

ومن جرّاء تلك الأكاذيب عزف الطفيل عن لقاء رسول الله ﷺ، فذهب إلى الكعبة ليطوف قبل أن يعود إلى دياره. ويشاء العزيز الحكيم أن يكون الرسول في تلك الساعة قائماً على صلاته في ذلك الجوار المبارك، فيسمع الطفيل منه تلاوة وأدعية تنفذ إلى شغافِ قلبه، فيقسم أن يعرف صاحب هذه التلاوة بقوله: «والله لأستعلمنَّ مَن يكون».

فلما سأل عنه، وعرف أنه «محمد بن عبد الله»، الذي حذرته منه قريش، أخذ يلوم نفسه على تسرّعه في إطاعة من جاء ينهاه عن التقائه، وهو يقول:

«واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح. فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل، ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلتُهُ، وإن كان قبيحاً تركته»(١).

ومكث الطفيل حتى غادر الرسول ﷺ فقام يتبعه، إلى أن دخل بيته، فاستأذن بالدخول، وجلس إليه يخبره بأمره، وهو يقول:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٢٢، مطبعة الجلبي بمصر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

ـ لقد ذاع صيتك يا محمد، فَشَدَّني إليك... ولكنَّ قومك لاقوني، وما زالوا بي، حتى عزمتُ ألَّا ألقاك ولا أكلِّمك.. وقد غدوتُ إلى الكعبة لأطوف، ثم أرتحل عائداً إلى دياري. ولكنني حين رأيتك في صلاتك، وسألتُ فعرفتك، لم تطاوعني نفسي إلا أن أَصغي إليك. والحقُّ يقال، لقد سمعتُ منك قولًا حسناً، «فاعرض عليَّ أمْرَك».

واستبشر النبيُّ ﷺ بالرجل خيراً، فأقبل عليه، كعادته في إسماع الناس دعوة الحق والإيمان وهو يتلو عليه من القرآن الكريم ما يجعل الرجل يخشع.. ثم يعود فيبيّن له من معاني الآيات ما يجعله يوقن أمراً عدلًا، وحقاً مبيناً.. فكانت جلسةً مباركةً، أمكن خلالها للرجل اللبيب ـ كما قال عن نفسه ـ أن يستوعب ويعي كل ما يسمع ويرى من رسول الله ﷺ، فأعلن ـ بين يدي رسول الله ـ إسلامه بشهادة التوحيد «أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله»..

وبقي الطفيل في ضيافة الرسول ﷺ يومين آخرين، يتابعه في كل ما يفعل، وما يقول، حتى إذا أنِس من نفسه القدرة على حمل الدعوة قال للرسول ﷺ:

ـ يا نبيَّ الله!.. إن أمري مطاع في قومي، وإني راجع إليهم أدعوهم إلى الإسلام، فعسى الله أن يسدِّد خطاي في هذا الأمر الجلل..

وعاد الطفيل إلى دياره راضياً بإسلامهِ، سعيداً بلقائه رسولَ الله ﷺ.. وأراد أن يبدأ الدعوة بأهل بيته، فجلس إلى أبيه، وكان شيخاً كبيراً، يسامره، ويحنو عليه بما يفيض من حنانه المألوف،

إلى أن قال له: قد تعلم يا أبتاه مدى محبتي لك، وكيانك في نفسي، ولكن أجدُني الآن وكأني لست منك ولست مني!...

وأخذ العجبُ من هذا الشيخ مبلَغَهُ، فقال لولده:

هاتِ يا بنيَّ وأخبرْني..

فقال له الطفيل: لقد هداني الله إلى الإسلام يا أبي، وتابعتُ هذا الدينَ الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ في مكة..

قال أبو الطفيل: أي بُنيّ، فدينك ديني؛ وما أحببت إنْ أظلّتني السماء ولست بقربي.. ولكنْ ألا تخبرني على أيَّة ملَّةٍ هذا الدين؟..

قال الطفيل: إنَّه على ملّة أبينا إبراهيم..

قال أبوه: إذن حدِّثني عنه..

قال الطفيل: عفواً يا أبتاه إن لم أفعل ما ترغب حتى تغتسلَ وتطهّرَ ثيابَك.

قال الأب: ولِمَ هذا الأمر يا بُنيّ؟

قال الطفيل: وهل من عيب أن يبدأ الإنسان بطهارة الجسد لتكون مدخلًا لطُهر النفس الذي من شأنه أن ينزع من أعماقه الأفكار الفاسدة، المترسبة بما يجعله يهجر الرِّجزَ ويرفع من شأنه عند خالقه وعباده؟

قال الأب: لئن كان دينٌ يدعو إلى مثل هذا الطُّهر، فعليَّ حقاً أن أتعلَّمه..

.. ولم يلبث أن قام، فاغتسل ولبس ثوباً نظيفاً ـ كما قال له ولده ـ ثم عاد إليه، يتبيَّن منه حقيقة الدين الذي آمن به.. وما زال

معه، حتى أعلن «أبو الطفيل» إسلامه، راضياً قانعاً.

وكان للطفيل مع زوجته الموقف نفسه الذي اتخذه مع أبيه، إذ أبى عليها أن تقْربَه وهو يعلن لها بأنها ليست منه، وليس هو منها، إن لم تكن على دينه، لأنه دين الحق والهداية. فقالت له امرأته:

ـ وهل كنتُ يوماً إلَّا على دينك، فقل لي ما أفعل؟

قال الطفيل: أول ما عليك أن تبرئي من ذي الشرى (الصنم الأخرق الذي كانت تعبده دوس) وهذا تطهير لنفسك، ثم تتطهرين في جسدك، وثوبك بالغسل والنظافة فألقِّنك التعاليمَ التي تسمو بها النفس الإنسانية عن الوثنية، ويكون لك بعدها أن تهتدي..

وفعلت الزوجة المخلصة ما أمرها به الزوج المؤمن، ثم عادت وملء نفسها اللَّهفةُ للاستماع إليه.. وظلَّت بقربه، تسمع منه، وتؤمن بما يقول، حتى أعلنت النطق بالشهادتين العظيمتين...

وبعد أن اطمأن الطفيل إلى إيمان أهل بيته، كان عليه أن يدعوَ أبناء قبيلته إلى الإسلام وأن يعلّمهم المفاهيم الإسلامية التي علَّمَهُ إياها رسول الله، إلَّا أنهم لم يستجيبوا.. ذلك أن قبيلة دوس كانت غارقةً في أشدّ العادات الجاهلية قبحاً، فلا ترى في الزنا فاحشة، ولا في الرِّبا عيباً، ولا في وأد البنات محرَّماً، بل هي أمور مألوفة اعتادات عليها، مَثَلُها في مجتمعها الضيق، كمثل سائر القبائل الأخرى في الجزيرة العربية، التي تحكمت فيها العادات والتقاليد المتوارثة، حتى عاشت لها وعليها، ولذلك لم يكن غريباً أن ترفض دعوة الإسلام ـ في بادىء الأمر ـ وهي ترى فيها تغييراً جذرياً للقواعد السلوكية في المجتمع الدوسي.

وآلم الطفيلَ إعراضُ بني قبيلته عما يدعوهم إليه، فعاشَ لياليَ طويلة في الأرق والهمّ، حتى رأى أخيراً أن يذهب لرؤية رسول الله ﷺ، فيكونَ له خيرَ ناصح، وموجِّه.

وبالفعل، قصد الطفيل مكة، وجاء رسولَ الله ﷺ شاكياً، فلم يجد إلّا صدراً رحباً يتلقَّى عنه همومَه، ونفساً راضية تخفِّف عنه معاناته، وهو ﷺ في ذلك يطيّب خاطره ويرشده إلى السبُّل التي يعالج بها شأن بني قومه بحيث يأخذهم بالرفق والمودة ويجادلهم بالتي هي أحسن، إلَّا الذين ظلموا منهم، وهم أهل العنت والضلال، الذين يقفون بالمرصاد لدعوات الإصلاح والتغيير..

وعادَ الطفيل إلى بني قومه، يدعوهم بمثل ما أمره لنبيُّه ﷺ، فاستجاب له مع الوقت عدد كبير منهم، كانوا يأخذون على أنفسهم العملَ بجانبه، والسعي معه لهداية الآخرين، حتى يقضي الله أمراً كان مقدوراً..

ولم تتوقف سيرة الطفيل عند حدود الدعوة في بني قومه، بل امتدَّ جهاده لسنوات طويلة.. ذلك أنه بعد الهجرة، وفي حصار خيبر بالذات، جاء مع جماعة من بني قومه يناصرون إخوانهم المسلمين في ذلك الحصار إلى أن أتم الله ـ عز وجل ـ عليهم الفتح، فمنذ ذلك الحين والطفيل بجانب رسول الله ﷺ لا يفارقه، ولا يتأخر عن أية مهمة ينتدبه إليها؛ فلما كان فتْح مكة، طلب إلى رسول الله ﷺ أن يبعثَه إلى «ذي الكفّين» صنم عمرو بن حُمَمَه حتى يحرقَه، فخرج إليه وجعل يُضرم النار فيه: وهو يقول:

يا ذا الكفَّيْنِ لستُ من عُبّادِكا ... ميلادُنا أقدمُ من ميلادكا

إني حشوتُ النار في فؤادكا

وشارك المسلمين هو وقبيلته في محاصرة الطائف.

ويظل الطفيل على صحبته لرسول الله ﷺ حتى ينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى. فهو يواصل جهادَه، ويخرج مع المسلمين، يوم أن ارتدَّت الأعراب عن الدين ويسير في الأفواج لملاقاة المرتدين، حتى يفرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلها، فيذهب إلى اليمامة، ومعه ابنه عمرو فيرى في الطريق رؤيا تأخذ بمجامع فؤاده، فيطلب إلى أصحابه أن يعبّروها[1] له وهو يقول لهم:

«رأيت أنَّ رأسي حُلقَ، وأنه خرج طائرٌ من فمي، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في مخدعها.. وأرى ابني يطلبني حثيثاً، ثم رأيته حُبس عنِّي»[2].

قالوا: والله لا ندري ما تأويلها، وعسى أن يكون خيراً..

وفي الطريق، عاد الطفيل يقول لأصحابه: أما والله فقد عُبِّرتْ لي..

قالوا: كيف؟!.

قال: أما حلق رأسي فوضْعه (توسّدُه)، وأما الطائر، الذي خرج من فمي، فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني مخدعَها، فالأرض تُحفَر لي فأُغيَّبُ فيها. وأما طلب ابني إيّايَ ثم حبْسه عني، فإني أراه سيجهد في أن يصيبه ما أصابني..

ولقد صدق حدسُ الطفيل الدوسي، فإنه لم يلبث طويلًا في اليمامة حتى قتل شهيداً، وجُرح ابنه عمرو جُرْحاً شديداً ولكنه أبلَّ منه

---

(١) عبّر الرؤيا: أعربها وأبانها.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، المصدر السابق، ص٢٤.

وتعافى.. وظلَّ في الجهاد قائماً حتى قُتل هو الآخر شهيداً عام اليرموك في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان كأبيه، مثال الوفاء والإخلاص للإسلام. وقد أنعم الله تعالى عليهما بالشهادة في سبيل دينه القيم، فهنيئاً لهما ذلك المصير المخلّد!.

على أنَّ أهم ما يتميّز به إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي ليس ما حفِلت به حياتُه من جهاد فحسب، بل ولِما كان لإسلامه ومن تابعه من أبناء قومه، من تعبير عن خروج الدعوة الإسلامية من حدود مكة، وانطلاقها في أرض الجزيرة، ولما كان لهذا الانطلاق من تأثيرات جعلت الأَخبار عن الدعوة تتعدى بلاد العرب، فعرفت به الحبشة، كما عرفت به فارس والروم وحيثما كان يقصد التجار من جزيرة العرب، وهم يحملون أنباء الدعوة إلى البعيد..

إسلام وفد نجران

ومن جراء تناقُل تلك الأخبار علم أهلُ نجران ببعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم، فانتدبوا عشرين رجلًا ليذهبوا إلى مكة، ويقفوا على خبر هذه الدعوة إلى دينٍ جديدٍ غير النصرانية..

وبالفعل قدمَ وفد نصارى نجران والتقَى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، فكان يُمناً عليهم.. إذ دارَ الحوار ـ حسب التقدير ـ حول كافة المسائل الهامة، التي كانت ـ ولا شكَّ ـ تتعلق بالوحدانية، والعقيدة، والسلوك الإنساني، وغيرها من القيم الفكرية التي تعالج وجود الإنسان في حياته على الأرض، وبعثه بعد الموت، وتلاقي الرسالات السماوية التي تعاقبت منذ أبينا آدم صلى الله عليه وآله وسلم، حتى الرسالة الأخيرة التي يحملها

محمد ﷺ ويدعو الناس إليها. وجميعها لا تختلف في جوهرها، ولا تتنازع في حقيقتها، ما دامت تستقي من ذات المصدر العلوي الواحد..

نعم حاوَر وفدُ نجران ـ وهم أهل كتاب وعلى علم ومعرفة بالتوراة والإنجيل ـ النبيَّ ﷺ في جوهر العقيدة وما ينبثق عنها.. فأبان لهم حقيقة تعاليم الإسلام، وصِدقَ ما ينطق به القرآن من قول العزيز الرحمن، فكانت عيونهم ـ وهم يستمعون ـ تفيض بالدمع، ونفوسهم تمتلىء بالاطمئنان مما عرفوا من حلاوة الإيمان، فاستجابوا له بقلوبٍ طاهرة، وعفوية صادقة قلَّ نظيرها﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾[1].

لقد آمن أهل نجران، وصَدَقوا بما عاهدوا الله ورسوله عليه. فأذهل إسلامُهُم زعماءَ قريش، فتنَادَوْا يتربَّصون بهم، ويحاولون محاصرتهم في أزقة مكة، والتصدي لهم. وقد تقدم أبو جهل، على رأس تلك الطغمة الكافرة التي ترافقه، وهو يعترض على إسلامهم قائلًا: «خيَّبكم الله من ركْب!. بعثَكم مَن وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدَّقتموه بما قال»[2].

فما كان جواب النجرانيين إلَّا أن قالوا: «سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيراً» (أي لم نرِد لأنفسنا إلا خيراً)[3]؛ وفعلًا كان إسلامهم خيراً لهم، لأنهم نصارى، من أهل الإنجيل، فهم مسلمون لله رب العالمين، وما

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

(٢) هيكل، حياة محمد، ص١٦٩.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٣٢.

إيمانهم بالإسلام الذي يهدي إليه محمد ﷺ إلَّا توكيد لما ورد في الإنجيل، وتثبيت لعهد الله إلى أهل الكتاب بأن يتبعوا هذا النبي الرسول الذي يجدونه مكتوباً عندهم.. ثم إن إسلامهم توكيد للدين الذي ارتضاه الله لعباده، منذ آدم عليه السلام، وإلى قيام الساعة...

وهكذا كانت أصداء الإسلام تترامى إلى البعيد، فيأتي إلى مكة من يهدي الله أمثال شيخ قبيلة غفار، وسيد قبيلة بني دوس، ووفد نجران، فيدخلون في هذا الدين مختارين طائعين.. ولم يكن هذا الامتداد للدعوة الإِسلامية إلى مجالات جغرافية بعيدة عن مكة، إلَّا من جراء تلك الأخبار التي كانت تحيط بحامل هذه الدعوة الكريمة، محمد بن عبد الله ﷺ، الذي ظلَّ ثابتاً على أداء الرسالة التي بعثه الله تعالى بها، وبالمنهج القويم عَينِه الذي استنَّهُ لنفسه ولأصحابه.

وفيما كان الرسول ﷺ ماضياً في نهجه الدؤوب، ولمَّا تمضِ إلا بضعة شهور على انقضاء المقاطعة، إذ بنائبات جديدة تفاجئه بأعز الناس عليه..

عام الحزن

فقد حلَّت السنة العاشرة من مبعث رسول الله ﷺ، الموافقة سنة عشرين وستماية ميلادية (٦٢٠م) وقد ناهز أبو طالب الثمانين، وهي السنُّ التي تؤدي إلى وَهَن العظم، وخوار الجسد وملازمة الأمراض، فوقع بمرض شديد جعله طريح الفراش، ولعلَّ مناوأة قريش له في ذَوْدِه عن ابن أخيه، والمعاناة التي كابدها خلال سنوات المقاطعة الثلاث، من أهم العوامل التي زادت في وهنِه وضعفه حتى وصل إلى هذه الحال التي تُنذر بدنوّ أجله..

ورأت قريش أنَّ أبا طالب قد لا يقوم من رقدته، فلمَ لا تذهب إليه علَّه يُنيلها وهو على فراش الموت، ما أبى عليها في عزّ قوته وسلطانه. . . ولعلَّ مثْل هذا التفكير الذي توافقت عليه زعامة قريش ما يدلُّ على ما كان لشيخهم أبي طالب من مكانةٍ تقهَرُ نفوسَهم، وتزري بمحالهم، وتجعله سيد مكة بلا منازع؛ فجاؤوا إليه في عُصْبَةٍ ضمَّت: عتبة وشيبة ابنَيْ ربيعة، وعمرو بن هشام (أبا جهل)، وأمية بن خلف، وصخر بن حرب (أبا سفيان) وكثيرين غيرهم. . جاؤوا ليعرضوا أمْرَهم من جديد وهم يقولون:

ـ «يا أبا طالب! . . وإنك منَّا حيث قد علمتَ، وقد حضَرَك ما ترى، وتخوّفنا عليك. . وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادْعُهُ، فَخُذْ له منَّا، وخُذْ لنا منه، ليكفَّ عنّا ونكفَّ عنه، وليَدَعنا ودينَنا وندعه ودينَه»[1].

ولكن ما ظن هذه العصبة اللئيمة بشيخها الجليل، وهي تأتي إليه، في محاولة لاستغلال ضعفه ـ بل وانشغال أهله به ـ لتعرض عليه ما تعرض؟! لا، إنه لم يفقد الوعي والحكمة كما تتوهم، فهو لا يزال، على الرغم من وهنه، في أتم حالات الإدراك والعقل، ولذلك جعله عرضُ قريش يسرح في تأملاته بعيداً عن هؤلاء المحيطين به. .

وطاف به التفكير في تلك الأحداث التي عايشها ـ ولا سيما في أواخر عمره ـ وكان فيها لقريش النصيب الأوفى، مما عانى هو وابن أخيه وعشيرته. . ولكنَّ الأمر قد فات، فما انقضى قد انقضى إنما قلقه

(١) هيكل، حياة محمد، ص١٨١، السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٥٨.

الآن ـ وهو يدرك وضعه ـ مما يتراءى له من الشدائد التي سوف تواجه هذا النبيَّ وتجعلُ أيامَهُ أصعبَ بكثير مما لو كان إلى جانبه.. إذاً فماذا عليه أن يفعل، فهل يفاتح رسول الله ﷺ في هذا الأمر ويطلب أن يأخذ منه لقريش؟! أبداً، لن يفعل، لأنَّ ذلك لا ينقض عهده مع النبي وحسب، بل وإنَّ فيه ما يغضب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأن دعوة قريش بألَّا يتعرض «محمد» لآلهتها بسوء، ولا يسفِّه أحلامَها، ممَّا يتناقض تماماً مع ما جاء به ودعا إليه؟! لا، لن يكون من أبي طالب مثلُ هذا الموقف وهو على فراش الموت، بل إنه على يقين بأن نبي الإسلام لن يقبل بمثل تلك الترهات من قريش، فإنْ كانت زعامتها تسعى لهدنة، فهو يقبل بأن يأخذ له من قريش لا أن يعطيها ما تسعى إليه.. وهي ـ على كل حالٍ ـ لن تعطي شيئاً في صالح الدعوة!.. إذن لتذهبْ قريش وزعامتها إلى الجحيم!...

وتتابع الذكريات في رأس الشيخ المريض.. ولكنَّ أجلى صورها وأصدقها أنباءً ذلك الموقف الذي برز فيه «محمد» سيد الخلق أجمع، وهو يلقي الحجة على الدنيا بأسرها عندما قال له «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، حتى يُظهره الله أو أهلَك دونه، ما تركته».. فقال في نفسه: هيهات، هيهات يا قريش، وهذا الرسولُ الأمين ماضٍ في عزمه الأكيد على إظهار دين الله، ولو كرِه المشركون...

ولكنه على الرغم من هذه القناعة، وحتى يكون مرتاح الضمير، فإنه لن يقطع في أمرٍ يعود لرسول الله وحده أن يبتَّ به، فبعث في طلب محمد ﷺ حتى يكلِّمه بما جاؤوا يعرضون عليه.

اللحظات الحاسمة

وحضر رسول الله ﷺ وجلس بجانب فراش عمِّه، فقال له: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف القوم قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك.. وهنا اندفع وفد قريش في عروضه، وفي ما أتوا لأجله هذه المرة تحديداً، والرسول ﷺ يصغي من دون أن يقاطعهم بشيء، حتى انتهوا مما عندهم، فأجابهم ﷺ بهدوء:

«نعم!.. كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»[١].

فقال أبو جهل: «نعم وأبيك.. وعشر كلمات..»[٢].

قال محمد ﷺ: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه»[٣].

إنه هو هو، مطلب «محمد» الوحيد، فهل يعطونه إيّاه، ويشهدون شهادة الحق، فيعطيهم بالمقابل ما من شأنه أن يجعلهم يملكون العرب، وتخضع لهم العجم؟

أجل، هذا هو أمر «محمد»، إنه كلمةٌ واحدة: الإقرار بوحدانية الله تعالى، إلهاً واحداً في السماوات والأرض، لا شريك له ولا ولد.. وكل شيء بعدها قابل للحوار والمناقشة...

وخرجوا على صمتهم، فسألوه متعجبين:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٥٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

ـ أتريد يا «محمد» أن تجعل الآلهة إلٰهاً واحداً، إنَّ هذا لشيء عجاب؟!

فقال لهم الرسول ﷺ: «لا إلٰه إلا الله الحيُّ القيُّوم، وحدَه لا شريك له».

فهبّوا يقول بعضهم لبعض:

ـ ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون.. فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم، واثبتوا على عبادة آلهتكم، حتى يكون الأمر بينكم وبينه!..

وفي هذا الرهط الذين اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أنزل الله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾[1].

وهكذا انصرفت تلك العصبة الضالّة، لتمضي على دين الكفر والوثنية، وتُخلي الساحة للإيمان النقي الصافي، فالتفت العمُّ الحكيم إلى ابن أخيه وقال له:

«والله يا ابن أخي، ما رأيتك سألتهم شططاً»[2].

---

(١) سورة ص، الآيات: ١ ـ ٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٥٩.

موت أبي طالب

ولم ينقضِ على ذلك الاجتماع إلَّا بضعة أيام، حتى توفّي أبو طالب سيد مكة وشيخ البطحاء، الذي دافع عن الإسلام، ومنع النبيَّ ﷺ ـ ومن ورائه المسلمين ـ وتوقف القلب الذي نبضَ بحب «محمد» منذ أن ولدته أمُّه، وحتى آخر لحظة من حياته.. ولقد ارتوى محمد ﷺ من حب عمِّه له في الأعماق، وعايش المواقف الصلبة التي وقفها هذا العمّ من أجل دعوته، أفلا يكون فراقُهُ صعباً عليه، إذ فوق ما يُدخل إلى نفسه من اللوعة والشجن، فإنه ينأى عنه بالأب، والكفيل، والنصير، والحامي؟

غيَّب الموت أبا طالب... وتحركت لموته في نفس الرسول ﷺ كوامنُ العاطفة الصادقة، والمشاعرِ الفيّاضة بالحزن والاسى لفقد هذا العم الكريم: إلّا أنّه ﷺ صبر على هذه النازلة، وهو لا يملك أمامها إلّا التوجّه إلى خالقه، الذي بيده وحده أمر الموت والحياة، يحتسب عنده مصابه الجلل، ويدعو للراحل الكبير بالمغفرة والرحمة.

وإذا كان الرُّسل والأنبياء ـ وأولو العزم منهم بخاصة ـ يتمتعون بنظرةٍ إلى الحياة والموت تختلف عن نظرتنا نحن ـ بني آدم العاديين ـ إلَّا أنهم في الوقت نفسه بشرٌ مثلنا، وعندهم الجبلة الإنسانية التي تجعل قلوبهم تمتلىء بالحزن على فراق من يحبّون، فكيف إذا كان القلب الحزينُ قلبَ محمد ﷺ نبيِّ الرحمة، وقلبَ الإنسان الذي خلقَهُ ربُّهُ عطوفاً رؤوفاً؟ كما يؤكده قوله الشريف «إنما أنا رحمة مهداة»...

وكيف لنفسه الشريفة الزكية ألَّا تألَمَ حيال موت عمِّه أبي طالب، الذي رافقه جُلَّ حياته لحظة بلحظة، وقد كانت معبأةً بالأحداث العظيمة، ومليئة بالتطورات المتلاحقة، وكان هذا العم يشهدها كلَّها، ويعايشها ويتفاعل معها، بذاتية القائد الواعي، وعقلية الشيخ الحكيم؟ ثم ها هو يراه الآن يذهب في الرحلة التي لا رجوع منها، وقد خلَّف وراءه ذلك الفراغَ الكبير، الذي لا يمكن لغيره ـ مهما كانت مكانته ـ أن يشغل إلَّا حيّزاً بسيطاً من ذلك المدى الواسع الذي كان يملأه..

إن فاجعة الموت هي كبيرة ـ ولا ريب ـ على أغلبية الناس، أما بالنسبة إلى رسول الله ـ وهو المؤمن الذي يحتسب أمره إلى الله تعالى ـ فإن الموت ليس فاجعةً، بل هو حقٌّ على رقاب العباد؛ ثم إنَّ الأحبة كثيرون ـ والحمد لله ـ من حوله؛ فهذه رفيقة العمر، وشريكة الحياة، وخدينة[1] البذل والعطاء، زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، أم المؤمنين الأولى، الصادقة الصدوقة، إلى جانبه، ولن تتوانى عن بذل كل ما يمكن أن يخفف من آلامه حيال رحيل عمّه.. وهذا ليس جديداً عليها، فحياتها مع «محمد» تشهد على أنها كانت مثالًا للعطاء، ونموذجاً للوفاء، وعنواناً للزوجة الصالحة؛ وما أدراك ما بذلتْ وما أعطَتْ، فالتاريخ يشهد لها بأنها وما ملكت معنوياً ومادياً، قد وهبته لله ولرسوله، طائعة، مختارة، راضية مرضية.

لقد صارت زوجه الطاهرة ـ بعد أبي طالب ـ الملاذَ الذي يأوي إليه فيبثها أحزانه، وهمومه، فيجد عندها الصدر العطوف الذي يحتمل

---

(١) الخدين: الصاحب والصديق والحبيب. وهي تستعمل للمذكر وللمؤنث.

معه الأثقال، ويخفف عنه الأحمال.. فإن توفّى الله ـ سبحانه ـ أبا طالب فهي إلى جانبه باقية، وعندها من الحب، والبر، والحنان، ما قد يواسيه، ويخفف عنه بعض حزنه..

وبالفعل فقد أقبلت هذه الزوجة، الفريدة في خصالها وصفاتها الكريمة، على رسول الله عليه السلام تجهد في مؤاساته، حتى بات حزنُه شغلَها الشاغل، فلو أمكنها أن تنتزع حزْنَه من أعماقه لما توانت، ولما قصَّرت، فكانت، في حَدَبِها عليه، المعوضَ الذي يعزّيه عن خسارة العم وموته.

موت خديجة رضي الله عنها

أجل، لقد أمكن لأم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أن تقومَ بهذا الدور العظيم... ولكنها ـ ويا للأسى ـ لا تلبث بعد مدة وجيزة من الزمن، أن تذوي هي الأخرى، ويعجز جسمها الرهيف الشريف عن التحمُّل، وينوء بالحمل الكبير من الهموم، فترحل عن الحياة الدنيا، وكأنها كانت مع أبي طالب، على موعد مع الموت، في تلك السنة بالذات.

نعم عادَ الموتُ ليخْتَطِفَ الأنيس والشريك، فتنزل المصيبة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم أشدَّ وأعتى!.. وكيف لا، وكان إذا ما ادلهمَّت الأمور واشتدَّ البلاء لا يرى إلَّا التوجه إلى ربّه والاستغاثة به، ثم اللواذَ إلى زوجه المؤاسية الصبورة التي كانت تقوم بأكبر دور يمكن أن تقوم به زوجة على الإطلاق، وها هو الآن، وبين عشية وضحاها لا يجدها إلى جانبه، أفلا يكون المصاب، تلو المصاب كبيراً؟!..

لقد ماتت خديجة (يرحمها الله) فإلى من يلجأ «محمد» إذا

استوحش من الناس، أو أحبَّ أن ينأى عن كيد الأعداء؟ وإلى من يسكن إذا توارى الأليف وتظاهرت عليه الأرزاء، أو حزبته الهموم؟! لقد رحلت خديجة (يرحمها الله). فغابت الإنسانة التي آمنتْ به إذ كفرَ بنبوَّته الناس، وصدَّقته إذ كذبه الكفار، وواسته إذ آذاه المشركون..

خمسٌ وعشرون سنة مرَّت، كانت خلالها خديجة رضي الله عنها مثالَ المرأة الطاهرة النقية، وعنوان الزوجة الوفية المخلصة.. بذلت من أجله، وفي سبيله، ومن أجل دعوته، وفي سبيل الله، كلَّ ما تملك من مالٍ وفير، وملكٍ كثير، وجاهٍ عريض، وشرف باذخ، وعزٍّ شامخ.. وما أعطت من قلبها، ومن نفسها، أكبر بكثيرٍ مما قدَّمت من مالها..

فكيف لا يكون موتها مأساة؟! وكيف لا يكون رحيلها نكبة.. بل وأي نكبة في حياته؟ وكأنَّ ما كان يلاقي من المصائب والهموم من بني قومه جاء يتوِّجُهُ ـ بعد مرور عشر سنوات ـ ذلك الحدثان الكبيران، فحق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسمي ذلك العام، عام الحزن.. لأنه كان عاماً مثقلاً بجميع ما فيه من المتاعب، والظروف القاهرة التي لو تضافرت على إنسان غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأدّت إلى إضعاف نفسه، ووهن عزيمته، وفقدان القدرة على الاحتمال والمقاومة.. ولكنه هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي ليس كغيره، فلا يمكن لنفسه الشريفة التي ليست ككلّ النفوس، أن تجعل للخطوب غلبةً عليه، أو أن ينتهي ـ لا سمح الله ـ بالتخاذل أمام عظيم بلائها..

لا ـ والله ـ لن يكون من ذلك شيء؛ فهو إلى كونه الإنسان الذي حباه خالقه[1] بالملكات والمزايا والقدرات التي تفرَّد بها عن بني

---

(١) حباه: وهبه.

البشر، كان رسولَ الله، وحاملَ رسالة الله الكبرى إلى الأرض، ورافعَ لواء كلمة التوحيد لله تعالى، والمبعوثَ بالإيمان الحق إلى دنيا الناس، كافة الناس. . .

لا! لا يمكن أن تنال الدنيا وما تحبَلُ به من المكاره من رسول الله ﷺ مهما عظُمَت. فهي لها وقْعها، وآثارها عليه، حقاً. . ولكن المهمة التي هي على عاتقه أسمى، وأعلى، وأجلّ.

ولا يمكن للموت، وإن دهم بجبروته أعز الناس عليه أن يحبِطه، ولا يمكن لآثاره أن تعوقه، أو أن تمنعه عن المضي في دعوته. وإنَّ داهية الموت وإن كانت عظيمة بحد ذاتها، فإنها تبقى خفيفة بظلالها أمام تعنُّت قريش وظلمها. وها هم مستكبروها وجبابرتها يرون في فقد «محمد» النصيرَيْن الكبيرين، نقطةَ ضعف في ساح جهاده، فلمَ لا يتوهمون بأنها الفرصة المؤاتية للاشتداد عليه؟ ولذلك راح اهتمامهم ينصبُّ على أذيَّته في شخصه الكريم، فيتعرض له السفهاءُ في أزقَّة مكة، يذرون التراب عليه، أو يرمونه بالأوساخ والأقذار، أو يقذفونه بالحصى والحجارة، أو ينهالون عليه بالشتائم والسباب.

وكانت ابنتُه فاطمة عليها السلام قد بلغت ريعان الصبا، أي أصبحت في رحلةٍ تجعلها إنسانة جديرةً بأن تشاركَه داخل البيت، وبعد رحيل أمها خديجة (رحمها الله)، ما يعاني من المتاعب والآلام. وكيف لا، وهي بنتُ محمد ﷺ، سليلة الوحي، ومنبت الكرامة والعز والإيثار، وبنت خديجة ربيبة العطف، والحنان، والبذل والسخاء! ولذا كان الرسول ﷺ يأتيها، وعليه آثار السوء من أفعال قريش، فتهبُّ الفتاة المكلومة، المحزونة، لملاقاته وإزالة ما علق بثيابه من تلك الفعال الشنيعة، وهي تَشرق بالدمع. .

وكان الرسول العظيم ينظر إلى ابنته وهي على ما هي عليه: هزيلة الجسم، رقيقة المشاعر، وليس لديها ما تفرِّج به عن نفسها إلا البكاء، فيرى أنها هي أحق بالشفقة، وأوْلى بالمواساة، فكأنه ﷺ يتساءل في نفسه:

تُرى من تبكي فاطمة: أتبكي أمّاً فقدت، أم أباً عَصَفَ به الزلزال؟ وبالفعل، فهل حماقات قريش، ووضاعة أفعالها إلا كالزلزال على نفس الرسول الحرّ الأبيّ؟..

وأيّة حرقة نحسّها في أعماقنا ونحن نرى أكبادنا يبكون؟ وأية مرارة نعانيها في قرارة أنفسنا، وأيّة حرقةٍ تلوّع أفئدتنا من هؤلاء الناس الذين يظلمون أبناءنا ويسببون لهم الآلام ونحن لا نقدر على دفْع الظلم وأهلِه عنهم؟

وأية دمعة لا تقرِّح أجفاننا، وتُحرق عيوننا، ونحن نرى دموعهم الطاهرة البريئة تسيل حدباً علينا، ورفقاً بنا، ونحن لا نملك أن نكفكف تلك العبرات؟!.

ربّاه!.. إنه محمد ﷺ، وهو أكثر الآباء برَّاً ببناته وحناناً عليهنَّ.. وهذه ابنتُه فاطمة المحببةُ الأثيرة، بنت خديجة التي تحمل روحها وريحها، تبكي ألماً، ومرارة، ولوعة أمام ناظريه.. وبكاؤها لا ينقطع وهو يعودُ إليها كئيباً، حزيناً، مثقلًا بما يحمله من تلك الفئة الباغية اللعينة من قريش.

ربّاه!.. إنه محمد صفيُّك وحبيبك، وخيرة خلقك، وأنت اللطيف، الخبير به.. لقد راعى حقَّ مخلوقاتك فما كان يوماً في إنسانيته إلّا عوناً للمظلوم على الظالم، ونصيراً للحق على الباطل. وما

حاد قطُّ عن جادة الصواب، ولا دعا في نبوّته ورسالته، إلّا لهدي قريش التي تظلمه، بل ولهدي الناس كافة.. أفيكون نصيبه من بني عشيرته، وأهل بلده هذا الذي يصيبه في الصميم؟. ثم يكون نصيب ابنته فاطمة عليها السلام أن تعيش المأساة منذ تفتح صباها، ولماذا؟ لأنها ابنته ليس إلَّا؟

سبحانك اللهمَّ!.. فأنت العزيز الحكيم، والمقدّر القادر، وقد قدَّرت على رسولك الأعظم الابتلاء لترفع قَدْره وتزيده أجراً وثواباً...

ولا ضيرَ على حامل الدعوة إلى دين الله أن يكون عرضةً للبلاء.. أما ابنته، فما ذنبها؟.. لا اعتراضَ على حكمك يا رباه.. على كل حال هي فاطمة الزهراء ابنة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي في البيت: بنت أبيها، وأمُّ أبيها، وحاملة وظيفة حنان البنت والأم.. وها هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ منذ عام الحزن ـ لا يدعوها باسمها «فاطمة»، بل «يا أمَّ أبيك».

أجل، إنَّ فاطمة الزهراء ـ ومنذ ذلك الحين ـ هي: ابنتهُ، وهي أمُّهُ، وهي والدعوةُ كلُّ ما بقيَ له من دنياه! ولكن، هل يستطيع أن يفعل لها شيئاً، وتلك الآثار السلبية من قريش تنعكس عليها بصورة دائمة؟ لا شيء إلَّا أن يحتمل، ويصبر، وأن يتوجه بقلبه إلى الله تبارك وتعالى، وكلُّه إيمان بنصره عَز وجلّ، فيقول دوماً لفاطمة رضي الله عنها كلما همَى الدمعُ من عينيها:

«لا تبكي يا بنيَّة، فإن الله مانعٌ أباك» ثم يعظها أن تستعين دائماً بالله العلي العظيم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لها: «قولي إذا أصبحْتِ وإذا أمسيت: يا

حيُّ يا قيومُ، بك أستغيث فأَصلح لي شأني ولا تكِلْني إلى نفسي طرفة عين»[1].

وإنَّه بذلك ليصوِّر حالته تلك التي وصلَ إليها مع قريش، بعد موت عمه أبي طالب، وفقد حمايته له، فيصرِّح على الملأ بقوله: «والله ما نالت منِّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»..

ثم لم يكن حال المسلمين عامةً بأقلّ من حال النبي ﷺ في تلك المرحلة من حياة الدعوة، إذ اعتمدت قريش خطة جديدة ملؤها الخبث والدهاء، تقوم على استفراد المسلمين، لتذيقَهم أمرَّ الأيام التي شهدوها، متعمدّةً عدم التعرُّض لهم جماعات، حذراً من قوَّة تجمّعهم ـ لو أرادوا المقاومة ـ وإنَّ في هذا الاستفراد ما يضعفهم ويبعث في نفوسهم الوهن..

وقد كان يحقق لقريش مآربها واقع الحياة، الذي يفرض على كل الناس، كما يفرض على المسلمين أيضاً، ألَّا يبقوا مع بعضهم، وفي تجمُّع دائم، ما دامت هناك الأعباء العائلية التي تلزمهم بالسعي لكسب الرزق، أو تجعلهم يتفرقون لغايات شتَّى.. هذا فضلًا عن أن واجب الدعوة يستدعي الاتصال بالناس، ولا يمكن القيام بهذا الواجب، بصورة جماعية دائماً، بل لا بد من الاتصالات الفردية إلى جانب المساعي الجماعية، كي يكون للدعوة تفاعلها الذي يريدون..

ولكنَّ الأمر وصل مع قريشٍ حدًّا لا يطاق... إذ كلما مرَّت الأيام، ازدادت تضييقاً على المسلمين، وخنقاً لتحركهم، حتى ضاق

(١) زاد المعاد، ج٢، ص٢٣.

الرسول ﷺ ذرعاً بهذا الواقع المرير، وصارت الدعوة في مكة في وضع يشبه الجمود، ولم تعد تتقدم إلى الأمام، وليس السببُ إلَّا تألّب أهلها عليه، وازديادهم في الغي والشطط يوماً بعد يوم..

إن الدعوة قطعت مرحلة الابتداء، وانطلقت منذ أن خرج المسلمون صفَّين، مُتَحَدِّين قريشاً. والانطلاقة قد أخذت ولا شك مداها، والعرب وغير العرب قد بلغتهم الأصداء التي تصدر عن مكة، وتنبىء عن الأحداث الجارية فيها.

كل ذلك قد جرى فعلًا، ولكن لا بد من خطوة أخرى لأنه إذا لم يُهيَّأ للدعوة الانتقالُ من نقطة الانطلاق إلى نقطة الارتكاز ـ أي إلى إقامة نواة الدولة الإسلامية، التي تنضوي الدعوة تحت لوائها، ويأوي الدعاة إلى ظلِّها وفيْئِها ـ فإن جميع الجهود والتضحيات ستذهب أدراج الرياح، خصوصاً وأن المجتمع المكي على نفس الحال من عدم الاستجابة، بل ومن العداء والمقاومة لكل ما يمت إلى الإسلام والمسلمين بصلة. لذلك كان لا بد من التوجه إلى بلدٍ آخر غير مكة، أياً يكن هذا البلد في شبه الجزيرة، فربما يكون لدى أهليهِ نضوج في الفكر أكثر، واستعداد للإيمان أقوى؟..

إن الإسلام هو للناس كافةً، وهو يدعوهم إلى نوره، وبرهانه، وطريقه المستقيم. وإن عليهم الوقوفَ بجانب الرسول الذي يحمل هذا الدين ضد تلك الحرب الشعواء التي يشنها عليه كفار مكة. فلعلَّ في ذلك، ما يفتح السبل أمام الرائد ـ لتحقيق نقطة الارتكاز ـ في حياة الدعوة.. الذي بُعث بها ليهدي النفوس، وليرفع راية الإيمان خفاقة في دنيا الأرض.

الذهاب إلى الطائف

وكانت الطائف أقربَ بلد إلى مكة. وهي إحدى القريتين العظيمتين ـ كما وصفها القرآن الكريم ـ إذ كانت تنافس مكة في الثروة والنفوذ. ففي حين كان في مكة البيتُ الحرامُ، والتجارة الواسعة، والنفوذ على القبائل كافة، كان في الطائف ثروة ونفوذ أيضاً، لأن فيها بيتَ اللات[1] الذي يزوره العرب. وفيها تجارة السلع وملتقى الطرق لقوافل كثيرةٍ، بل ويزيدُ في مكانتها أن حباها الله تعالى جودةً في المناخ، وخصباً في الأرض، مما ساعد على انتشار زراعة الفاكهة والخضار، حتى صارت الزراعة مورداً اقتصادياً هامّاً لها، إلى جانب مواردها الأخرى.

ولعلَّ في الطائف ـ كما كان يأمل الرسولُ ﷺ ـ أناساً يُقبلون على الإسلام، ويتخذونه عقيدة ودِيناً، فيكونون من أعوانه في نشر أمر الله تبارك وتعالى، وحث الناس على اتباعه.

واعتزم الرسول ﷺ الرحيل، وسافر إلى الطائف في أواخر شهر شوال من السنة العاشرة لمبعثه الكريم.. وهي تلك السنة الحافلة بالأحداث ـ كما رأينا ـ إذ فيها كانت نهاية المقاطعة والخروج من الشعاب، وفيها كان موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنهما، وخلالها ازداد أذى قريش للمسلمين، ونالت من الرسول ﷺ ما لم تنل خلال السنوات السابقة كلها...

وخرج الرسول ﷺ سعياً على الأقدام، وبرفقته زيد بن حارثة،

---

(١) الأصنام، للكلبي، ص١٦.

الذي أَبَى البقاءَ في مكة، بدافعٍ من حبِّه لله ورسوله.. ورغبته في القيام على خدمته، فهو إلى كَونه من المؤمنين الأوائل، كان ابنَهُ بالتبنّي منذ أن جاء أهلُهُ وآثرَ «محمداً» على القرابة والنسب.. فمن جميل صنعه أن يلازمه في هذا السفر، لعلَّه يخفف عنه بعضاً من وعثائه[1]. وكان عديدٌ من الصحابة يرغبون في مرافقة الرسول إلَّا أنه منعهم حتى لا تخلو الساحُ في مكة منهم فيتاح لقريش أن تضرب ضربة قاسية، قد تمكِّنها من إعادة السيطرة على المجتمع المكي بعد أن بدأت سطوتها تتضعضع وتلك السيطرة تضعف أو تكاد..

وفي الطائف، كان أول من قصد الرسول ﷺ سادة ثقيف، وكانوا ثلاثة إخوة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب، أبناء عمرو بن عُمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف[2].

جاءهم الرسولُ ﷺ يحدِّثهم عن الدعوة التي يحمل، وأهميتها في حياة العرب، وحياة الناس أجمعين، ويدعوهم إلى نُصرته، والقيام معه على من خالفه من قومه في قريش، وقد اعتمد النهج نفسَهُ الذي عُرف عنه، من تلاوة آيات الله العظمى، إلى بيان معانيها الرائعة، وإظهار عظاتها البالغة، التي لو تُليت على الحجارةِ لرأيتَها تخرُّ ساجدة إجلالًا لقدرة مُنْزِلها وعظمته.. ولكن، وعلى الرغم مما في الآيات من بيانٍ لقوم يتفكَّرون، لم يستجب سادةُ ثقيف لنداء الإيمان، بل على العكس، ردّوا على محمد ﷺ ـ وهو يبلّغ رسالة ربه ـ بشرّ جواب...

---

(١) الوعثاء: المشقة والتعب.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٦٠.

فقال أحد هؤلاء السفهاء الضالّين: إنني أمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك...

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يُرسله غيرَك؟

أما الثالث ـ ويبدو أنه كان أكثر تهذيباً، وربما أرجح عقلًا من أخويه ـ فقال: والله لا أكلِّمُك أبداً. لئن كنتَ رسولًا من الله ـ كما تقول ـ لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلِّمك[2].

«وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلَّا جاءه وكلَّمَهُ.. ولكنهم ردّوا عليه بكلمة واحدة: اخرج من بلدنا»[3].

هذا ما كان من أشراف ثقيف، أي التكذيب والسخرية. وقد يكون هنالك حيفٌ أو عيبٌ إنْ آثر هؤلاء القوم الضلالة على الهدى، ولم يستجيبوا لدعوة الإيمان كما لو كان في آذانهم وقْر، وعلى قلوبهم أكنّة!.. أما أن تكون الأصالة العربية، وأن يكون الشرف والمروءة من الموات في نفوسهم، فهذا مما يعيبهم أكثر، ويدعو للاستغراب؛ لأن المروءة كانت من صميم حياة العربي في صحرائه، والشرف أعزّ شيء عند من يبلغ مرتبته.. إلَّا سادةَ ثقيف ـ فإنهم على ما يبدو ـ لم يكونوا يحملون من لقب «السادة»، الذي يشرِّف صاحبَه، إلَّا ما يختالون به على الناس.. بينما هم في حقيقة أمرهم ذوو خِسّة ولؤم.. فبدل أن

(١) مرط الشيء: نتفه.

(٢) المصدر السابق، ص٦١.

(٣) زاد المعاد، ج٢ ص٦٨.

يتملكهم شيء من النخوة، ويصرفوا الرجل الذي جاء يدعوهم إلى الإيمان بالحسنى، فإنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فلما أرادَ الخروج تبعوه يسبّونه ويصيحون به، وقد اجتمع عليه الناس في هجمةٍ شرسة عاتية، يضعون الأشواك في طريقه، ويرشقونه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء[1].

وكان زيد بن حارثة الوفي الأمين يحاول أن يذود بجسمه عن نبيِّه الكريم، وهو يثب من ورائه إلى يمينه، ثم إلى يساره، فلا يكون نصيبه إلا الحجارةَ تتساقط عليه من كل جانب «حتى أصابَه شجاج في رأسه»[2] وهو غير عابىء، بل همُه أن يحمي هذا النبيَّ الصابر، ويبعد عنه أذى الظالمين.. بينما في الوقت عينه كان ﷺ يحاول أن يبعده عن الأذى، ويستعجله في المسير، للإفلات من شرور هؤلاء القوم، والابتعاد عن فِعالهم الطائشة.

فيا ألله، يا ربَّ محمد، وربَّ العالمين!.. هذا رسولك وحبيبك محمد أشرفُ خلْقك، وأحسنُهم خُلُقاً، الأسوةُ في إنسانيته، القائمُ في رسالته، يجبره قومه القرشيون على أن يطلب النجدة في ديار العرب، فإذا أتى واحدةً منها، لا يلاقي إلَّا هواناً وجهالةً أعتى، وعداءً ألدَّ لدينِك أنت يا ذا العزة والجلال!..

يا ألله، يا ناصرَ المستضعفين، قد جاء رسولك الأمين يدعو إلى دينك الحنيف، فلا يجد من الجاهليين المشركين، إلا الأذى

---

(١) الرحيق المختوم، ص١١٣.، اختضب بالدماء: تلوّن بلون الدم أي الأحمر. أي صار نعلاه أحمرين من كثرة الدماء النازفة.

(٢) زاد المعاد، ج٢، ص٦٨.

والازدراء.. فهل هذا جزاؤه على دعوتهم؟! لا اعتراض على حكمك يا ربَّ العالمين.

سبحانك اللهمَّ وعفوك! أنت ربنا ومولانا، وربُّ المرسَلين والنبيين، وهذا محمد بن عبد الله، يلوذ بجناب رحمتك من الكفار والمكذبين، فهل تتركه في هذه الشدَّة، وأنت أرحم الراحمين؟!.

سبحانك اللهمَّ وعفوك! إنه الرسول الأعظم، سيدنا، ورائدنا، وحبيب قلوبنا نقف خاشعين لحِلمِك وحكمتك، فأنت الله، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

هكذا وعلى مثل تلك الحال، خرج الرسول ﷺ من الطائف، ليلتقط أنفاسَه بجوار جدارٍ أَسدلتْ عليه شجيراتُ الكرمة ظلَّها، وهي تتدلى على سور بستانٍ فسيح كان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ويلملم شعثَهُ[1] مما أصيب به من اعتداء أهل الطائف وفعلهم الَّلئيم!..

وركن الرسول ﷺ إلى الظل مهيضَ الجناح، مكلومَ الفؤاد.. ثم رفع ناظريه وكفيّه إلى السماء متضرعاً شاكياً بدعاءٍ قائم أبدَ الدهر، تعبيراً عن عمقِ ارتباطه بخالقه، وعبوديته لله العلي القدير، وهو يقول: «اللهم إليك أشكو ضعْفَ قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي. إلى مَن تكِلُني؟ إلى بعيد يتهجَّمني؟ أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحلَّ عليَّ

(١) الشعث: ما تفرق منه ومن متاعه.

غضبك أو أن ينزل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

أجل، كان هذا دعاءَ الرسول الأعظم، الدعاء الذي يفيض بالحزن والأسى، وفيه الاستعاذةُ من غضب الله تعالى وطلبُ العافية والرضى..

ولا يشك مؤمن صادق بأن عينَ الله ـ عز وجلّ ـ كانت ترعى هذا الرسول، الذي يُجاهدُ في سبيل نشر دين الله، وترصده في تحركه، وفي دعواته وأدعيته.. وإن إيذاء محمدٍ رسول الله ﷺ قد أغضب ـ يقيناً ـ ربَّ السماوات العُلى ومن فيهن، فكانت الاستجابة الفورية، بأن أرسل السميعُ البصيرُ جبرائيل الأمين عليه السلام ليواسي محمداً ﷺ في تلك الأزمة النفسية التي أَلَمَّتْ به من عَنَتِ الكفار، قائلًا ما مؤدّاه: «أن يا محمد!.. يا من أرسلك الله رحمةً للعالمين، إن ربك قد سمع قول القوم ورأى فعالهم، وقد بعثني لتأمرني بأمرك، إن شئتَ بعثَ إليهم ملكاً يُزلزل بهم الجبال ويُزيحها، ويرميهم بصواعق، لا تترك لهم ولا لبلادهم أثراً، أو أنه يخسف بهم الأرض، فتبتلعهم»..

ولا يعجبنَّ أحد لنزول جبرائيل عليه السلام، وفي ذلك التبليغ من رب العالمين. فالله تعالى كان يرقب من عليائه مسار الدعوة الإسلامية، كما ترقب عينُهُ كل خلائقه، ـ ولا نزاع في ذلك عند أهل الإيمان ـ وقد أثبت القرآن الكريم كثيراً من الحالات الفردية التي كانت تحصل في إبان الدعوة، وكان العزيز الحكيم يبيِّن معالمها ومدلولاتها

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٦١ و٦٢؛ هيكل، حياة محمد، ص١٨٣؛ زاد المعاد، ج٢ ص٦٨.

ويشرّع أحكامها، فهل يُعقل ألَّا يبعث سبحانَهُ وتعالى ـ أمين الوحي جبرائيل ـ في تلك الساعة، وحبيبُهُ محمدٌ على تلك الحالة من الألم والهوان؟

بلى، والله إنَّ الأمر كذلك، والأهم استجابة القادر المقتدر لدعاء النبيّ الأمين، ترويحاً لنفسه الشريفة، وتوكيداً لأمر المولى تعالى أن ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[1].

إذاً جبرائيل الأمين يسألُه ماذا يريدُ بأهل الطائف، والرسول الأعظم لا يبادل الإساءة بمثلها ـ وحاشا له ـ بل يكون له الموقف المخلد أبد الدهر، الذي يتجلَّى فيه خلقُهُ العظيم، فلا يفكر بانتقام، ولا بردة فعلٍ تجاه أهل الطائف، بل يرجو لهم الخير، فيقول لجبرائيل الأمين: «بلٍ أرجو الله تعالى أن يُخرج من أصلابهم من يعبده ـ على وجه هذه الأرض ـ لا يشرك به شيئاً»[2].

لقد رغب أهل الطائف ـ وعلى رأسهم جماعة ثقيف ـ عن دين الله تعالى، فآذوا نبيّه ورسوله الكريم، فلم يجد هذا الرسول ملاذاً له إلا الله ربَّه، وهو أعلمُ ـ سبحانه ـ بحاله، فتوجه إليه بدعائه، غير مبالٍ بأية صعوبة مهما كانت، ولا عابىء بأي ألم مهما عظُم، ولكن كان يهمه أمر واحد فقط وهو ربُّه، وبَعْدَه تهون عليه الأمور كلها.

إنَّ هذا الاتصال الروحي بخالقه قد جعل الرسول ﷺ، يهدأ بعد التأثر الذي أصابه، فجلس يستريح في فيء الكرمة، وفي ظلال الرحمة الربانية.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج١ ص٤٥٨؛ مسلم، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين؛ زاد المعاد ج٢ ص٦٨.

وفيما كان ابنا ربيعة (صاحبا البستان) يرقبانه من بعيد، وهو يلملم شتات نفسه، ويواسي جراحه وجراح الفتى بقربه، بكل رباطة جأش، وكياسة مونقة، إذا بمشاعر الإكبار تجاهه، تتملكهما، فينادي أحدهما على غلام له يُدعى عدّاساً، ويأمره بأن يقطع العنب، ويأخذه إلى الرجل المتفيئ بظل الحائط مع صاحبه.

ويجيء عدّاس بطبق مملوء بالعنب، ويقدّمه للرسول ﷺ، فيشكره على لطفه، ثم يمدُّ يده إلى حبة من العنب، وهو يذكر اسم الله تعالى عليها، بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

وفعل زيدٌ مثلَ ما فعل النبي ﷺ، وعداس واقف ينظر إليهما... فلما سمع ذكر «الله الرحمن الرحيم» قال مخاطباً الرسول ﷺ:

ـ والله إنَّ هذا الكلامَ ما يقوله أهل هذه البلاد..

ـ وأدرك الرسول أن هذا الغلام ليس على الوثنية، فسأله عن بلده ودينه، فقال له عدّاس: أنا رجل من أهل نينوى، وعلى دين النصرانية.. فقال له الرسول ﷺ: من قرية الرجل الصالح، يونس بن متى؟!.

وبُهِتَ عدَّاس لذكر النبيّ يونس عليه السلام، فقال للرسول ﷺ: وما يدريك ما يونس بن متى؟..

فقال له الرسول ﷺ: «ذاك أخي.. كان نبيّاً وأنا نبيّ».

وانطلق ـ من جديد ـ إيمان النصرانية بالنبوَّة المحمدية نقياً، تعبِّر عنه نفس عداس الطاهرة، فارتمى على الرسول ﷺ متأثراً، يقبِّل

رأسه ويديه، محاولًا الوصول إلى تقبيل قدميه، ولكنَّ الرسول ﷺ يمنعه من مثل ذاك، فيقول له عداس:

ـ دَعني يا نبيَّ الله، أغسل هذه الدماء عن قدميك بدموع مآقيَّ، عسى أن يرحمَني الله، وأكونَ من عباده الصالحين..

ولكنَّ الرسول الكريم يجلسه بجواره، وهو يدعو له بالرحمة، والبركة، فتطرب نفسه لهذا العطف النبوي، وكلامِهِ الذي يعبق بالإيمان، بينما هناك ابنا ربيعة يرقبان ما يجري فيقول الأخ لأخيه:

ـ أمّا غلامُك فقد أفسده عليك..

وهذا ما أزعج صاحب عداس، فصرخ به أن يعود، فقام المسكين يستأذن رسول الله ﷺ ويركض ملبياً أمر سيده حتى إذا وقف أمامه، بادره بقوله:

ـ ويلك يا عدّاس! ما لكَ تقبِّل رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه؟[1].

وبلهجة صادقة يقول عداس: لا يا سيدي، لقد أبى عليَّ أن أقبِّل قدميه، ولقد أخبرني بأمرٍ ما لا يعلمُه إلَّا نبيٌّ.

فقال له سيده: ويحك يا عداس! لا يصرفنَّك عن دينِك، فإن دينَك، خيرٌ من دِينه..

فأجاب عدّاس مخلصاً: أما إنَّه دين الله، فكله خير.

وعادَ رسول الله ﷺ من الطائف ـ من دون أن يجد فيه خيراً ـ إلى مكة، مهبط الوحي، كي يتمكن من الاتصال بقبائل العرب، التي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٦٣.

ستفد إلى البلد الأمين، بعد أن بات موعدُها قريباً بحلول المواسم. . حتى إذا بلغ وادي نخلة، استلقى، وبجانبه زيدٌ علَّهما يأخذان قسطاً من الراحة، لشدة ما نالهما من التعب والإرهاق. .

وهناك، وتحت سماء الصحراء الصافية، وفي هدأة السكون، حيث لا حركة، ولا ضوضاء، ولا حسيس، ولا أنيس، إلَّا توقُ النفس المطمئنة للاتصال بخالقها، في إشراقٍ روحانيٍّ، لا تعيش تسابيحَه إلَّا الملائكة، قام رسول الله ﷺ من جوف الليل يصلّي، فيتهادى صوتُهُ في جنبات البادية، وهو يذكر الله تعالى، ويسبِّحه في عليائه. . فتستجيب له الكائنات التي تعرف حلاوة الإِيمان، وتستشعر حقيقة العبودية، لكي تشاركه في تمجيده للخالق العظيم، ولرب العوالم كلها، وما تحمل، وما تحتضن بين حناياها من العباد ـ التي لا يعلمها إلا بارئها ومصورها ـ ومن مخلوقاته سبحانه في دنيا الأرض من الإِنس والجن. .

ويصلُ صوت الرسول ﷺ في ترتيله القرآني إلى مسامع نفرٍ من جنِّ نصّيبين[1]، وهم في طريق ذهابهم إلى اليمن، فيسترعي انتباهَهُم هذا الذكرُ الحكيم، فيجلسون وينصتون، حتى يخفت الصوت قليلًا، ويهدأ صاحبه، فإذا بهم يخرُّون ساجدين لله تعالى، وقد دخل الإِيمانُ قلوبهم، مستجيبين لنداء الإِسلام، ومؤمنين بصدق رسالة حامله ﷺ. .

ولم يظهر هؤلاء الجنُّ على النبيّ ﷺ، بل اكتفوا بما أنعم الله تعالى عليهم من الهداية، فولّوا إلى قومهم منذِرين، يدعونهم إلى

(١) نصيبين: قاعدة ديار ربيعة.

الإيمان بالدين الحق، فآمن الجنُّ في نصيبين، وصاروا مسلمين.

ولا ندري نحن البشر السرَّ وراء استخفاء ذلك النفر من الجن عن النبي ﷺ، ولكننا نوقن بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ، قد شاءَ أن يواسيَ رسوله الكريم مما حلَّ به في الطائف، فصرف إليه في طريق العودة نفراً من الجن، يستمعون القرآن، ويؤمنون به، ثم أمر جبريل الأمين أن يخبره بأمرهم، وذلك بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

نعم إنَّ في إيمان الجنّ لحِكمةً إلهيَّة بالغةً تتجلى ـ من منظورنا ـ في أمرين: أولًا أن الله سبحانه قد عوَّض رسولَه محمدٍ ﷺ ما فاتَ من إعراض الإنس عن دعوته، فاستجاب له الجنُّ، وثانياً ليقرَّ في الأذهان بأنَّ الإسلام ليس دين الله للناس وحدهم، بل وكذلك للجنّ، وسائر الكائنات في الكون الواسع.. وفي ذلك عظةٌ لقوم يتفكرون..

وتابعَ الرسول ﷺ رحلة العودة حتى إذا وصلَ إلى مشارف الديار، وقف زيد بن حارثة يرجوه ألّا يدخل مكة إلّا بجوار أحد من أهلها، تخوّفاً من غدر الكفار، وما قد يكونون نصبوا له من مكيدةٍ غير متوقعة..

---

(١) سورة الأحقاف، الآيات: ٢٩ ـ ٣١.

وتفكَّر ﷺ وهو يرى هذا الفتى يتعلق بأطراف ثوبه، ويحول بينه وبين النزول إلى مكة، فما وجد في مقالته إلَّا حباً له وخوفاً عليه. ولِمَ لا، ومشاعر زيد الصادقة لا تنبع إلا من نفس صافية. وليس عزيزاً على الله ـ عَز وجلّ ـ أن يحفظ عباده المؤمنين وأن يدافع عنهم وأن يأخذ بيدهم إلى ما يحبه هو ويرضاه.. ولذلك نجد النبيَّ ﷺ يطيّب خاطر زيد، ويقعد على مشارف مكة لا ينزل إليها في تلك الساعة، وهو يقول لزيد: «يا زيد إنَّ الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن الله ناصر دينَه ومُظهر نبيَّه»[1].

وتورد كتبُ السيرة أن رسول الله ﷺ طلب جوار عدة مشركين، وأن أول من أرسلَ بأمره إليه الأخنس بن شريق، فلما طال الوقت ولم يَرِدْ خبر منه، عاد وأرسل إلى سهيل بن عمرو كي يجيره، فرفض لأن قومه لا يجيرون على بني كعب؛ فبعث بعده إلى المطعم بن عدي من يقول له: إنّ محمد بن عبد الله يسألك الجوار حتى يبلّغ رسالات ربِّه.. فأجابه المطعم إلى ما أراد. ولكن الليل كان قد حلَّ، فلم يفعل هذا الرجل شيئاً وطلب إلى النبي ﷺ أن يبيت في مكانه.

ولمّا أصبح الصباح خرج المطعم هو وبنوه الستة وقد تقلَّدوا السيوف جميعاً، فاحتبس الأبناء بحمائل سيوفهم في المطاف عند الكعبة، بينما قبع أبوهم في أحد أركان المسجد، إظهاراً لأمره بإعطاء الجوار، على ما جرت العادة، حتى دخلت جماعة من قريش وفيهم أبو سفيان بن أمية بن عبد مناف. فلما رأوا المطعم وأبناءه على تلك المظاهر أقبلوا يسألونه:

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٦٨ و٦٩.

ـ أمجير أم تابع؟.

فقال لهم المطعم: بل أنا مجيرٌ.

قال أبو سفيان: إذاً لا تُخفَر (أي لا يُنتقض عهدُك ولا يُعتدى على من أجَرْتَه) فقد أجرنا من أجرت.. فهلَّا أخبرتَنا من هو صاحب الجوار؟

قال المطعم: محمد بن عبد الله..

ووقع الخبر على أبي سفيان كالصاعقة، وأُسقِط في يده، فلم يعد قادراً على الرفض، وقد أعطى للمطعم وعْدَه، فإذا نكث فقد ينقلب جوار المطعم إلى عداوة لقريش، فيخسرون فيه عضُداً ونصيراً.. وهكذا لم يُبدِ أبو سفيان ولا أحد من جماعته ممانعة. فأرسل المطعم إلى النبي ﷺ يدعوه للنزول إلى مكة، وفي ظنه أنه ما يزال في مشارف البلد، ولم يدخل بعد... وقيل: إنَّ أبا جهل هو الذي تحدَّث إلى المطعم عن جوار محمد ﷺ..

هذا ما تورده كُتب السيرة!!

ولكن الأمر لم يكن كذلك قطّ، ولم يطلب النبي ﷺ جوار أحد بعد عودته من الطائف، فهو ﷺ كان يعلم تمام العلم، بعد أن بلغ الخمسين من عمره الشريف، ويعيش بين ظهراني أهل مكة جميعاً، أنه ليس للحليف أن يجير على الصميم[1] عندهم، فلا يُعقل أن يطلب جوار الأخنس بن شريق لأنه حليف، كما لا يمكن أن يستجير بسهيل بن عمرو لأن بني عامر لا تجير على بني كعب، ولا

(١) صميم القوم: من أصلهم وخالصهم.

يمكن كذلك أن يطلب جوار المطعم بن عديّ وهو يعرف ما يكنّه له، ولدعوته من حقد..

ثم، وأهم من ذلك كله، أنه لا يُعقلُ أن يطلب رسولُ الله من مشرك أن يجيره، ولو أراد ذلك فرَضاً، لكان بإمكانه أن يرسل إلى أحد بني هاشم أو بني عبد المطلب ـ ممن لم يدخلوا بعدُ في الإسلام ـ أن يجيره، لاسيما وأنهم قد ذاقوا الأمرّين لأجله في حصار الشعب، فلا يمكن ألَّا يهبّوا لنجدته إذا طلبَ ذلك... ثم لماذا طلب الجوار أصلًا وهو يعيش بين أهل مكة ليلًا ونهاراً، ومجرد ذهابه إلى الطائف والعودة منه لا يستدعي أبداً مثل هذا الطلب؟!!.

إذن، فالحقيقة أنَّ النبي ﷺ لم يطلب من أحد من المشركين أن يجيره على الإطلاق.. ولكن الذي حصل، أنه قد وافق زيداً على البقاء خارج مكة، خوفاً من أذى قريش، واتقاءً لردة فعلٍ قد تحصل من سفهائها بعد أن خذلته الطائف، وخذله بنو ثقيف، فآثر الركونَ حتى أسدلَ الليلُ ستارَهُ، وهدأ الناسُ وناموا، فدخل مكة تحت جنح الظلام، وهو يحسب لكل الأمور حسابها. حتى إذا طلع النهار، وصار بين أهله وعشيرته، وبين المسلمين، خرج بين الناس والأتباع والصحابة من حوله، وفيهم أسد الله حمزة، وعمر صاحب الحميَّة، وغيرهما من فتية الإسلام الذين كانوا مستعدين لسفك دمائهم، والشهادة في سبيل الله تعالى، ورسوله الكريم.. بل ولم تقم قريش بشيء جديد بعد عودة رسول الله ﷺ من الطائف، فقد كانت لا تزال على الأساليب الرعناء نفسِها حياله، وحيال المسلمين، ولذلك سارت الأمور على المسافة ذاتها من التباعد بين قريش الكافرة، وبين محمد ﷺ وصحابته المؤمنين..

وعاود الرسول ﷺ سيرتَه الأولى في تبليغ رسالة ربِّه، هو وأصحابه، بلا ملل ولا كلل.. فإذا جادله الكفار بالباطل، أبى إلَّا أنْ يجادلهم بالموعظة الحسنة. ولكنهم إذا ماحكوه القولَ ـ إمعاناً في إيذائه والإساءة إليه ـ فإنه لم يكن ليمتنع عن مجادلتهم بما يجعلهم يرعوون، كما فعل، ذات مرة، عندما كان آتياً إلى الكعبة الشريفة، إذ مرَّ بجماعة من المشركين، ـ وكان بينهم بعضٌ من بني عبد مناف ـ فإذا بأبي جهل يقول لهؤلاء:

ـ انظروا، ذاك لنبيُّكم يا بني عبد مناف!..

فيقول له عتبة بن ربيعة:

ـ وما ننكر أن يكون منَّا نبي أو منكم؟

ويسمع النبيُّ ﷺ تحاورَهما، فيتقدم منهم، ويوجه الكلام إلى عتبة، وهو يقول له:

«أمَّا أنت يا عتبة فوالله ما حميت لله ولا لرسوله، ولكنك حميتَ لأنفك»...

ثم يلتفت إلى أبي جهل ويقول له: «أما أنت يا عمرو، فوالله لا يأتي عليك كثير من الدهر حتى تضحكَ قليلًا، وتبكي كثيراً».

ثم يخاطب أولئك الكفار جميعاً وهو يقول لهم:

«أما أنتم يا معشرَ الملأ من قريش، فوالله لا يأتي عليكم غير قليل من الدهر حتى تدخلوا فيما تُنكرون وأنتم له كارهون».

الحق، الحق، ينطق به رسول الله ﷺ، وهو يُنذر هؤلاء الكَفَرة

الفجَرة بما سيؤول إليه مصيرُهُم، يومَ أن يُظهر الله سبحانه وتعالى دينَه الذي ينكرونه، ثم سوف يدخلون فيه على الرغم من أنوفهم، مكرَهين، مهزومين.. فالموعد آتٍ، لا ريب فيه، فليتمادوا في الإعراض والإنكار، وليتفنّنوا في الأذى والاستكبار.. إنها مرحلة سوف تمرُّ ـ طالت أم قصرت ـ فهي إلى زوالٍ حتماً. وسيرى الذين كفروا أيَّ منقلب ينقلبون..

على مثل هذا النمط في مواجهة الدعوة تتابعت تلك المرحلة بعذابها وقهرها، وحلَّت أيام المواسم من جديد.

وفي أيام معدودة، وفدت إلى أم القرى قبائل العرب، آتيةً من جميع أنحاء الجزيرة، لتشهد منافع لها، ولتقيمَ مناسك الحج...

الاتهامات ضد النبي ﷺ

لقد حاول المشركون أن يكيدوا للنبي ﷺ بشتى الوسائل، إلَّا أنَّ كيدَهم كان يرتدُّ دوماً إلى نحورهم، لأن أمْرَ الله ـ تعالى ـ كان لهم بالمرصاد، فتفسد أمورهم، وتذهب خططهم أدراج الرياح..

ولكن مؤامرات أهل الشرّ وخبائِثَهُمْ لا تنتهي عند حدّ، فكان من المحتوم أن يستمر شياطين قريش في الطغيان والجور، ما دام الأمل لا يزال يحدوهم في الوصول إلى تحقيق ما يصبون إليه!.. ولذلك نجدهم، وفي نزعة جديدةٍ من التآمر على النبي ﷺ، يتداعون للاجتماع في دار الوليد بن المغيرة المخزومي، للاتفاق على خطةٍ محكمة يستطيعون من خلالها ملاحقةَ «محمد» في الموسم القادم، لتفريق قبائل العرب عنه، وتفشيل جهوده وهو يعرض دعوته على الناس..

وتمَّ الاتفاق في بداية الاجتماع على أن يخرجوا برأيٍ واحدٍ حتى لا يكذب بعضهم بعضاً، فيتفرقوا وتذهبَ ريحُهم.. ولكن ما هو هذا القاسم المشترك الذي يمكن أن يكون سلاحَهم في المواجهة؟! أو لعلَّ الأصحَّ، ما هي الاتهامات التي يمكن أن يرموا بها «محمداً»، وتكون مقبولةً لدى العرب، حتى يصرفوهم عنه؟!

وانهالت الاقتراحات من المشركين، فقال حويطب بن عبد العزى:

ـ نقول عنه بأنه كاهن..

وردَّ عليه الوليد بن المغيرة:

ـ هذه لا تنفع! فقد رأينا الكهّان، وما بالرجل زمزمةُ[1] الكاهن، ولا سجَعُه[2].. فتنطَّحَ أبو جهل (عمرو بن هشام) وقال:

ـ نقول بأنه مجنون.

وأجابه الوليد:

ـ وهذه لا تنفع أيضاً! فقد عرفنا الجنون وأهلَهُ، فما هو بخَنْقِهِ ولا تَخَالُجِهِ، ولا وسْوَسَتِهِ ولا تَخْلِيطِهِ[3]..

وتعثّر اقتراح زمعة بن الأسود عندما قال: نقول عنه بأنه ساحر.. إذ سفَّهَ الوليدُ رأيَهُ عندما قال:

---

(١) زمزمة الكاهن: صوته.

(٢) السجع: ضرب من الكلام حيث تأتي أواخر الكلمات على نمط واحد.

(٣) من صفات المجنون.

ـ وهذه لا تنفع كذلك! فقد رأينا السَحَرةَ وشعوذتَهم، فلا هو بنَفْثِهِمْ ولا عقدهم[1]..

واقترح أبو سفيان أن يقولوا عن «محمد» بأنه شاعر، فردَّه الوليد مخيباً قولَه أيضاً..

وهنا وقف أبو لهب محتدّاً، وقد استبدّ به غضبُهُ، الذي اشتُهر به، فصرخ بهم:

ـ ألا ترون يا قوم أننا تفرَّقنا في الرأي؟! فواللات والعزى لن نبرح من هنا، إلَّا وطلعنا على العرب في الغداةِ بما يهزّىء «محمداً» ويزري به في أعينهم.. ولئن تقاعستم عن ذلك لأحملنَّها عليه وحدي قولةً شديدةً منكرة، فلا أترك أحداً إلَّا ونبا عنه.. ورأى أبو سفيان أن يحرّض الوليدَ بن المغيرة، لأنه أوسعهم رأياً وحصافةً، فالتفت إلى أبي لهب، وقال له:

ـ إهدأ يا هذا! فالرأي عند أبي شمس لا يقصِّر ولا يخيب كما عوَّدنا عليه..

لقد اجتمع أهل الشرك والكفر على الضلالة، واللؤم آخذٌ بقلوبهم، ليُلصقوا بالنبي ﷺ أية تهمة من شأنها أن تشوِّه سمعته بين العرب.. ولذلك لم يروا بعد جدال طويل إلَّا أن يمحَضوا ثقتهم للداهية الوليد بن المغيرة المخزومي، فقالوا له:

ـ فقل فيه قولًا يبلغ قومَك أنك منكر له وكارهٌ..

فأشار إليهم بالهدوء، ثم غاص في تفكيره يقلّب الأمر من

---

(١) من أعمال السحرة وصفاتهم.

مختلف جوانبه، ويعاود في ذهنه ما سمع من أولئك الملأ، فلا يجدُ ما يتّهم به «محمداً». . فقد كان يبدو عليه ـ وهو يقدح زناد فكره ـ العبوسُ والتجهُّم، وكلما اشتدّ في التفكير زاد وجهه في القبض والكلوح[1]، إلى أن اشرأبَّ[2] بعنقه، وهو يقول:

ـ يا قوم! «فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول «محمد» شيئاً من هذا»، و«والله إنَّ لقولهِ لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أصله لثابتٌ، وإنَّ فرعه لمرتفعٌ، وإنَّه لَمثمر أعلاه، مُغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته».

وبُهتَ الحاضرون، وكأنَّهم لم يصدِّقوا!. فما بالُ الوليد يمتدحُ قرآنَ محمدٍ وقد أوكلوه ليقولَ فيه قولًا هُزُواً؟! أم أنَّ الرجل جُنَّ ولم يعد يدري ما يقول؟!

وكأنَّما تراءى للوليد ما يفكرون به، فنظر إليهم باستغرابٍ ثم قال:

يا معشر قريش! واللهِ ما أنتم بقائلين شيئاً مما أبديتم إلَّا وعُرف أنه باطل!. . وإن القول فيه أن تقولوا: «إنَّ هذا الرجلَ ساحرُ البيان. لقد جاء بقول سحرٍ، يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجه، وابنه وأخيه، وبين الرجل وعشيرته، فهو رجل مسحورٌ. .»[3].

ولقد أنزل المولى تبارك وتعالى الآيات التي تبيّن الحالة التي

---

(١) الكلوح: التجهم والعبوس.

(٢) اشرأب: استطال.

(٣) انظر: هيكل، حياة محمد، ص١٦٧ و١٦٨.

كان عليها الوليد بن المغيرة، في تلك اللحظات، والانفعال الذي كان يبدو عليه، بقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1].

وران السرورُ على وجوه أولئك الملأ من قريش، فقد وَجَدَ لهم الوليد التهمة التي يلصقونها بـ«محمد»؛ إذ كان سلاحُهُ القرآنَ الذي يعجزهم ببلاغته وفصاحته، فعندما يقولون للناس بأنه جاء بـ«قول سحر»، وبأنه «رجلٌ مسحورٌ» فهذا كفيل بأن يبعدهم عنه، فلا يجني في الموسم شيئاً إلَّا الجهدَ والنصَبَ[2].. وبتلك المقولة التي ابتدعها الشيطان في رأس شيخ بني مخزوم ـ الوليد بن المغيرة ـ قاموا يحيّونه، وينصرفون للاستعداد للذهاب إلى عكاظ لتنفيذ خطة الاتهام التي بيّتوها للنبي ﷺ..

وفي أولئك الظالمين من زعامة قريش، وأمثالهم ممن كان دأبهم محاربةَ القرآن، ومحاربة النبي ﷺ نزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[3].

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١١ ـ ٢٦.

(٢) النصَب: التعب.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

البحث الثالث

الرسول ﷺ يعرض الإسلام على القبائل وأهل النضرة

لقد كان من عادة العرب، كلما حضروا إلى مكة في موسم الحجّ، أن يرتادوا الأسواق لعرْض بضائعهم، فيبيعون ويشترون.. وكان أشهرها ثلاثة: عكاظ، ومجنّة وذو مجاز..

فأما «عكاظ» فهي سوقٌ بين مكة والطائف، على بعد يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة. وأما «مجنَّة» فهي سوق على نحو اثني عشر ميلًا بأسفل مكة. وأما «ذو مجاز» فهي سوق على يمين الموقف من عرفة، وتبعد عنها ثلاثة أميال، فكانت أقربَ تلك الأسواق إلى مكة.

وكان العرب يبدأون بسوق «عكاظ»، فيحضرون إليها مع هلال ذي القعدة، ويقيمون عليها عشرين يوماً، ثم ينصرفون إلى «مجنّة» فيمضون عشرة أيام، فإذا رأوا هلال ذي الحجة علَوْا إلى «ذي مجاز» ليبيتوا ثماني ليالٍ، ثم يرتوون من مائها في اليوم الثامن، ويخرجون إلى عرفة ليبدأوا مناسك الحج، ومن أجل ذلك عُرفت تلك الأسواق عندهم بـ «المواسم».

ولقد امتازت قريشٌ في تلك الأسواق بأن يكون لكل بطنٍ من

بطونها حَكَمٌ في المسائل التي تُعرض، وفي إجراء المصالحات بين القبائل ودفع الديات فضلًا عن المباريات في الشعر والخطابة، وما إلى ذلك من القضايا والأمور التي تتعلق بجوانب عديدة من حياة القبائل ونمط عيشها في الصحراء..

وكانت قريش تنتدب ـ عادة ـ من أولئك الحكّام أبرزَ وجوه سادتها، أمثال:

أبي طالب عن بني هاشم (قبل وفاته)، وأبي سفيان عن بني أمية، والوليد بن المغيرة عن بني مخزوم، والعاص بن وائل عن بني سهم، وعتبة بن ربيعة عن بني عبد شمس.

وعلى مثل تلك الأعراف حلَّ الموسم ذاك العام، فجاءت القبائل من مختلف أنحاء الجزيرة، وخرجت قريش بدورها تتقدمها الرايات والفرسان والحشود على قرع الطبول والأهازيج والغناء، بينما ذهب النبي ﷺ في نفرٍ من الصحابة لا يبتغون جاهاً ولا زعامة، وإنما يرجون لقاء الناس في سبيل أمرٍ واحد، وهو دعوتهم إلى الهداية، والدخول في دين الله ـ الإسلام.

ملاحقة المشركين للنبي ﷺ

ذلك ما كان رسول الله ﷺ قد عقد العزم عليه، وهو أن يغشى الأسواقَ، ويعلنَ على مسامع القبائل بأنه نبيّ مرسلٌ من الله، وأنه أنزل عليه ربُّهُ ـ تعالى ـ قرآناً عربياً يهدي للتي هي أقوَم، ويبشر المؤمنين الصالحين بأنَّ لهم قَدَمَ صدْق[1] عند مليك مقتدر..

(١) قدم صدق: أي سابقة فضيلة. راجع معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن للمؤلف.

وابتدأ الموسم في عكاظ، وانهمك الكل في شؤونهم، بينما أقبل رسول الله ﷺ ـ ومن ورائه بعض الصحابة ـ على الناس، فرادى وجماعاتٍ، يعرض عليهم الإسلامَ والتصديقَ بنبوَّته حتى يكتب الله ـ تعالى ـ لهم الهداية والرشادَ.. إلَّا أن شياطين قريش كانوا يتصدّون له، ويفسدون عليه كل محاولةٍ لإيصال دعوته إلى الناس، كما يتبيّن من هذه الهجمة الشرسة عليه، وهو يحدّث جماعةً عما بعثَهُ ربُّهُ به، وعمّا يحمل الدين الذي يدعو إليه من هدىً، ورحمةٍ للعالمين، إذ انبرى عمُّهُ أبو لهب يكذِّبه وهو يقول:

ـ لا تصدّقوا هذا الرجلَ يا قوم، إنه ابن أخي، وأنا أعرفه حق المعرفة، فإنه لا يعدو كونه رجلًا مسحوراً.. وردَّ رسولُ الله ﷺ تهمة أبي لهب عنه بقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

قال أبو لهب: بل إنه مجنون..

وأجاب الرسول ﷺ بتلاوة قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(٢).

وتنطَّحَ عتبة بن ربيعة، بجانب أبي لهب، ليقول:

ـ بل هو شاعر تتربص به الشياطينُ المنونَ، فتوحي له زُخرفَ القول..

وسفَّه الرسولُ ﷺ رأيَهُ بقرآنٍ كريم يتلوه على مسامع الجماعة:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[1].

ثم بيّن أن المتربّصين به فعلًا إنما هم شياطين الإنس، أمثال هؤلاء الذين يجدّفون على الحق، وأنَّ ما يتلوه هو قرآنٌ كريم يتلقّاه من لدن الله الحكيم العليم، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[2]... وهنا تدخّل أمية بن خلف، وهو يصرخ بتلك الجماعة قائلًا:

ـ أرأيتم يا قوم! إنْ هذا إلَّا سحرٌ مبين، إن هذا إلَّا افتراء يفتريه من عنده يسحر به الناس.

ولم يكن ما قاله أمية بن خلف إلَّا ترديداً لقول الكافرين، إذا تتلى عليهم آيات الله ـ تبارك وتعالى ـ بيّناتٍ، وهي الحقُّ قالوا ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.. فلم يجد ادّعاءً آخر يمكن أن يزوّر به حقيقة الآيات القرآنية ـ ولو تجديفاً على مسامع الناس ـ إلَّا أن يقول: إن هي إلَّا سحرٌ مبين، فجاءه النفيُ القاطع على ادعائه، وقوله الزور والبهتان، بآيات تصفع وجهَهُ، ووجوه من وقف معه من شياطين قريش، عندما ردَّ عليهم الرسولُ الأمين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

وكانت مثل تلك الملاحقة تتكرر كل يوم من أيام سوق عكاظ

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٢١٠ و٢١١.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦.

(٣) سورة الأحقاف، الآيتان: ٧ و٨.

العشرين.. فالرسول المبين يريد أن يوصل دعوة الله إلى آذانِ العرب وقلوبهم، وكفار قريش يبعدونهم عنه بالتكذيب، والتجديف على الحق.. بل كانوا يستعملون أشدَّ الأسلحة وأمضاها في صرف الناس عن رسول الله ﷺ من خلال التأثير في مشاعرهم الدينية، وهم يشيعون بأنَّ «محمد بن عبد اللّه» ما هو إلَّا عدوٌّ للآلهة التي يعبدونها، لأنه يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد، دون الآلهة التي تعبدها العرب، وفي هذا ما فيه من تنكُّرٍ لدين الآباء والأجداد، وتسفيهٍ لأحلامهم، فكان حريّاً بالعرب أجمعين أن يتخذوه عدواً!..

هذا ما كان أئمةُ الكفر يدّعونه، مقابلَ القرآنِ الذي يتلوه «محمد»، والدعوةِ للدخول في الإسلام... وهذا ما جَعَلَ الناسَ لا يكترثون لما يحصل بين الرسول ﷺ ومن يلاحقونه من أولئك الكفار.. فالسوق عامة، واهتمامات الناس تنصبّ على التجارة وتبادل السلع، وتأمين الحاجات، ومَنْ جاء ليدليَ بآرائه وأفكاره فذلك له، ولكلٍّ أن يقول أو يبدي، ما يوافق هواه، لأن سوق الآراء والأفكار لا تقل أهمية عن سوق البضائع.. أمَّا ما يدور بين رجالات قريش فلعلَّه منافسة على الزعامة، وعلى شؤونٍ تخص بلدهم وحدَهم، وليس للعرب من حاجة للتدخل بينهم، حتى لا يجلب المتدخلون العداوة لأنفسهم..

أجل، هكذا كانت الصورة تتراءى في الأذهان.. فتحملُ الظنونُ الناسَ محاملَ مغايرةً لما يدور على ساحة مكة من مجريات للأحداث!.. وكيف لا، وهم يرون تلك الجماعةَ من زعامة قريش لا يتوانون أبداً عن ملاحقة أحد أبنائهم، ليعارضوه في كل أمره، ويصرفوا الناس عنه!..

وكان من حق القبائل ـ أفراداً وجماعات ـ أن تكوّن مثل هذا الرأي بسبب عدم وعيها، وإدراكها لحقيقة ما كان يعلنه رسول الله ﷺ، ويدعو إليه.. ولذلك توهمت ـ أو ظنت ـ أن الأمر لا يعدو كونه نزاعاً على الرياسة في قريش، وهو شأن داخلي لا يجوز لأي قبيلٍ أو قبيلةٍ التدخل فيه، نظراً لما لقريش من مكانةٍ في نفوس العرب..

الرسول ﷺ يطلب أهل النصرة في منازلهم

... وأفلحت زعامة قريش في صرف الناس عن النبي ﷺ، فأملت أن يهدأ ويستكين، متناسيةً الجوهر الذي ينطلق منه تحرُّكه، ألا وهو أنه صاحب عقيدة، وقد نذر نفسه ـ بل وحياته كلها ـ لأجل هذه العقيدة، وإيصال الدعوة التي انبثقت عنها إلى الناس..

أما هو ﷺ فقد رأى بعد ذلك الإعراض أن يعتمد نمطاً جديداً في دعوته، وهو أن يذهب إلى رؤساء القبائل ومشايخهم في منازلهم، لأنهم هم المعوَّل عليهم باعتبارهم أهلَ النصرة أي أنّ المواقف التي يتخذونها تُلزم أبناء قبائلهم، ونادراً ما يخرج أحدٌ على طوعهم؛ فهؤلاء القادة، وبما لهم من نفوذ، قد يكونون أهل النصرة لدعوته، واستجابتُهم قد تكون فلاحاً كبيراً لهذه الدعوة..

ولكن من هم أهل النصرة؟ ولماذا يقصدهم الرسول ﷺ بالذات؟ وما الدور الذي يمكن أن يقوموا به؟

لا ريب بأن المنطلقات التي تقوم عليها حياة الناس، مردُّها إلى الأفكار والمناهج التي تسود المجتمعات خلال حقبة معيَّنة في التاريخ.. وإن تلك الأفكار والمناهج، مهما كانت عميقة ومستنيرة،

ومهما كانت تحمل في طياتها من مقومات لإحداث التغيير في المجتمعات، فإنها تظل مجرد تصورات حبيسة في الرؤوس إن لم تنطلق إلى واقع الحياة للتفاعل معه والتأثير فيه.. ولا يمكن أن تُحدثَ مثلَ هذا التأثير إن لم تدخل في قناعات رجال أقوياء يستطيعون تحويل التصورات إلى سياساتٍ وقرارات، وإلى مناهج وبرامج تملك القابلية للحياة.

والعقيدة الإسلامية، التي زرعت في نفس محمد ﷺ ونفوس أصحابه، استجابة للوحي الإلهي، إنما تزخر بالأفكار النيِّرة والمناهج القويمة.. ويكمن فيها من القوة والقدرة على التفاعل ما يوفّر لدعوتها المناخ لقبولها من ذوي النفوذ لدى قبائل العرب، ثم لتعودَ وتأخذ مداها الرحب ـ الذي يطلقها حقيقة أصيلة، ونهجاً حياتياً، باعتبارها تخاطب العالمين ـ لإقامة الحكم الأمثل الذي يريده الله ـ تعالى ـ في دنيا الأرض..

وإذا كانت مراكز القوى محصورة في شيوخ القبائل إبّان جاهليةِ العرب، بل والجاهليةِ التي كان عليها العالم كله في تلك الحقبة من التاريخ، فإنَّ الأمر لا يختلف عنه كثيراً اليوم إلَّا في توزيع القوى بين فعالياتٍ متعددة تأتي في طليعتها الأحزاب السياسية، وأصحاب الثروات ورؤوس الأموال، فيؤتى من جراء التحالف بين تلك الفعاليات بالحاكم ـ على مختلف مستويات الحكم السياسي ـ والقائد العسكري، والمنظّر الفكري، والداعية الاجتماعي حتى تتكامل السلسلة بالتاجر والصانع وأمثالهما ممن يُعتمد عليهم، ويصيرون من ذوي النفوذ والتأثير.. فهؤلاء جميعاً يشكلون أهل النصرة اليوم، بينما كان الملك، والإقطاعي، وشيخ القبيلة، وأي حاكم قوي أمثالهم، هم

الذين يُعتبرون أهلَ النصرة في الجاهليات القديمة..

إذن فقد أرادَ رسول الله ﷺ ـ الذي يحيط علمُه بأحوال القبائل العربية إحاطة كاملة ـ أن يبدأ تحرّكاً جديداً في ملاقاة أسياد تلك القبائل ومشايخها، الذين يعتبرون أهل النصرة بالفعل، لأن المواقف التي يتخذونها، والآراء التي يعتمدونها تُعتبر مقدسةً لدى أبناء القبائل، فيلتزمون بها، ويعملون بوحيها؛ ونادراً ما يخرج بعض الأفراد على طوعهم، وإذا فعل ذلك أحدهم فإن القبيلة تنبذه، فيرحل ليلوذ بمنازل قبيلةٍ غير أهله وعشيرته..

وعلى أساس مثل هذا التوجه أراد الرسول ﷺ أن يعرض الإسلام على أهل النصرة في منازلهم.. فبدأ في بني كندة، وسيدهم ـ يومئذٍ ـ يقال له مليح، فدعاهم إلى دين الله ـ عزّ وجلّ ـ ولكنهم أبوْا الهدايةَ!..

فأتى بني كلب، في بطنٍ من بطونهم، يقال لهم «بنو عبد اللّه»، فعرض عليهم الإسلام ودعاهم لعبادة الرحمان، فرفضوا ـ مثل بني كندة ـ الانصياعَ لدعوة الحق!..

ثم أتى منازلَ بني حنيفة، وهم أهل اليمامة ـ أصحاب مسيلمة الكذاب ـ فكان موقفهم أشدَّ ممن سبقهم، وردّوه ردّاً غير جميل!..

لقد كان الإنكار للحق من تلك القبائل، وعدم الاستجابة لنداء الإيمان قد طغيا على النفوس، إلَّا أن رسول الله ﷺ لم يداخلْه أي يأس أو قنوط ـ وحاشا ذلك لخاتم النبيين ـ فظل يعمل على الوتيرة نفسِها، فذهب إلى مضارب بني عامر بن صعصعة، يبلغهم رسالة ربِّه.. ويبدو أن هؤلاء أنصتوا إليه ولكنهم طمعوا، إذا انتصر بهم هذا

النبي، أن يجعل لهم الأمر من بعده، فراحوا يفاوضونه على ذلك كما صرَّح به أحدهم، ويدعى بَيْحَرة بن فِرَاس، عندما قال للنبي ﷺ:

«أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟»[١].

وكان الردّ القاطع، الذي لا ريب فيه، وهو يصدر عن رسول الله ﷺ بقوله:

ـ «الأمر لله يضعه حيث يشاء»[٢].

إنه واضحٌ وبديهيٌّ أن الأمر لله وحده، فهو سبحانه يضع أمْره حيث يشاء، ولا يمكن لأحد من أهل الأرض أن يقرر أمراً هو لله سبحانه.. ولكن هل يعرف هذه الحقيقة الذين لا يطلبون إلا الحياة الدنيا؟! ولذلك عاد ابن فراس يقول لرسول الله ﷺ:

«أفنهدفُ نحورَنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. لا حاجة لنا بأمرك»[٣].

هكذا انتهى جدالُ بني عامر بن صعصعة للنبي ﷺ، فلما عادوا إلى ديارهم، سألهم شيخ القبيلة عما كان عليه موسمهم، فقالوا:

ـ جاءنا فتىً من قريش، أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعَهُ، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا[٤].

فلما سمع الشيخ الحكيم قولهم، وضع يديه على رأسه ثم قال:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٦٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

ـ «يا بني عامر هل لها من تَلافٍ؟ هل لذُنَابَاها من مَطلب؟[1]. والذي نفسي بيده ما تقوَّلها إسماعيليٌّ[2] قطُّ، وإنها لحقٌّ، فأين رأيكم؟»[3].

لقد تمنَّى الشيخ الحكيم لو كان لبني قومه رأي حصيف فأدركوا حقيقة ما عرضه عليهم رسول الله ﷺ، ولكنهم أضاعوا الفرصة وفوَّتوا الشرف، فظلُّوا على كفرهم بسبب المطمع إلى الملك والسلطان، وكان خليقاً بهم أن يهتدوا إلى الإيمان بالله وإعلاء كلمة الحق..

وتلك النزعة التي كانت تُسيطر على النفوس، وتذهب بالعقول، يبرزها بنو عامر في طلبهم إلى رسول الله ﷺ أن يكونوا خلفاء له في الأرض على دين الله، وهمُّهم الوحيدُ أمور الدنيا، وشاغلُهم أسبابُ الحياة.. فهل يكون مثل هؤلاء جديرين بأن يحملوا الأمانة الكبرى التي عهدها الله سبحانه لرسوله الكريم، وجعلها من بعده لأوليائه الصالحين وحدهم، دون سائر خلق الله؟

لا، لا يمكن لأولئك القوم، ولا لأمثالهم من أهل الأرض جميعاً ـ إذا كانوا طلاب مجدٍ دنيوي ـ أن يندبوا أنفسهم لنصرة دين الله. ولا يرتضي الله سبحانه وتعالى ـ حسب تقديره ـ مثل هؤلاء

---

(١) هذا مثل يُضرب لما فات، أي فات الأمر ولم يعد يجدي شيء.(انظر: ابن هشام، هامش ص٦٦).

(٢) أي: ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني إسماعيل (انظر: ابن هشام، هامش ص٦٦).

(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، عن: سيرة ابن هشام المصدر السابق؛ السيرة النبوية لدحلان ج١ ص١٤٧؛ البداية والنهاية ج٣، ص١٣٩ و١٤٠.

الناس كي يحملوا أمره والدعوة إليه، ولذلك كان إعراض بني عامر بن صعصعة بمشيئة الله عز وجل.

... إذن، فالرسول ﷺ لا يُلاقي إلا الصدود والإعراض من قبائل العرب. ولكن الموسم لم ينتهِ بعد، ولذا فهو لن يحيد، ولن يتوقف عن متابعة الدعوة لأنه موقن تمام اليقين بأن الغلَبَة للحق وإن طال الزمن، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج بعد الكرب، وأن مع العسر يسراً..

بنو شيبان وردهم الصادق

ومن خلال هذه المتابعة يقصد الرسول ﷺ بني شيبان ومعه بعض الصحابة، وكان أبو بكر رضي الله عنه أول من بادر بالحديث ـ لأنَّ في القوم من يعرفونه ـ فقال:

ـ يا بني شيبان بن ثعلبة! أتعلمون أنَّ لنا فيكم أهلًا، وخلّاناً، وصحبة..

ثم يتوجه إلى رسول الله ﷺ، وهو يريد أن يُظهر فضل هؤلاء القوم بين الناس، فيقول:

ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ليس بعد هؤلاء القوم عِزٌّ، وإنهم غُرٌّ في قومهم وغُرٌّ في الناس.

وبعد هذه المقدمات التي رام فيها أبو بكر رضي الله عنه بعث الثقة في نفوس هؤلاء القوم، عاد يسألهم:

ـ كيف العدد فيكم يا أهل الخلان والصحبة؟

وكان شيخ بني شيبان رجلًا وقوراً يدعى مفروق بن عمرو، فرد على أبي بكر، قائلًا:

ـ إنا لنزيد على ألف، ولا نُغلب من قلة.

قال أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟

قال مفروق: علينا الجُهد، ولكل قوم جدّ.

قال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوِّكم؟

قال مفروق: «إنَّا أشد ما نكون لقاءً حين نغضب. وإنا لَنؤثرُ الجياد على الأولاد، والسلاح على اللِّقاح (أي الإبل)، والنَّصرُ من عند الله يديلنا مرة، ويديل[1] علينا»..

قال أبو بكر: وهل بلغكم أن الله سبحانه بعث فينا، نحن معشر قريش، محمد بن عبد الله، رسولًا مبشراً ونذيراً؟

قال مفروق: لقد بلغنا ذلك، وما عرفناه.

قال أبو بكر: فهذا رسول الله ﷺ بينكم، وفي حيطتكم، وقد جاء يعرض الإسلام عليكم..

وهنا جاء دور الرسول الكريم فراحَ يبيّن لبني شيبان معنى الإسلام، وما يحمل من الفضائل التي تُعلي من قدر الإنسان، وما يدعو إليه من ضرورة ترك الوثنية وعبادة الأصنام، والإيمان، بديلًا عنها، بالله الواحد الأحد.. حتى إذا أفاض في البيان والتبيان دعاهم إلى الله عز وجل وهو يقول لهم: «أدعوكم إلى شهادة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤووني وتنصروني حتى

(١) المقصود: نتداول القتال والنصر بيننا وبين أعدائنا.

أبلِّغ عن الله تعالى الذي أمرني به، فإن قريشاً تظاهرت على أمر الله، وكذَّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»، وكان الرسول يؤيد ما يقول بآياتٍ من الذكر الحكيم، من مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

فقال مفروق: فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان كلامَهم لعرفناه..

فتلا رسولُ الله ﷺ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

فقال مفروق: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أساء قوم كذَّبوك وظاهروا[3] عليك.

وأحبَّ حكيم شيبان أن يُشركه في الرأي شيخٌ آخر من شيوخ القبيلة، فقال: وهذا هانىء بن قبيصة شيخُنا وصاحب ديننا فهو خير من عَلِمَ، وخيرُ من أجابَ، فهات ما عندك يا شيخ هانىء!

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٣) ظاهروا: تعاونوا عليك، أو: ساعدوا عليك.

فقال الشيخ هانىء: «سمعت مقالتك يا أخا قريش، وصدَّقتُ قولك. وإني أرى إنْ تركْنا دينَنا، واتبعناك على دينك لمجلسٍ جلستَهُ إلينا، ولم نتفكَّرْ في أمرك، وننظرْ في عاقبة ما تدعونا إليه، لزلَّةً في الرأي، وطيشةً في العقل، وقِلةَ نظر في العاقبة. وإنما تكون الذلة في العجلة. وإن من ورائنا قوماً نكرَهُ أن نعقِدَ عليهم عقداً، ولكن نرجع وترجع.. وننظر وتنظر»..

ثم التفت الشيخ هانىء إلى المثنى بن حارثة، وهو من زعماء القبيلة أيضاً، وطلب إليه أن يُبَيِّنَ هو الآخرُ رأيه.

فقال المثنى: «قد سمعت أيضاً مقالتك، واستحسنتُ قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به. والجوابُ هو جواب هانىء بن قبيصة. وإنَّا إنما نزلنا بين حيّزين: أحدهما اليمامة، والآخر السماوة، فأما الأول فهو ما يلي أرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى. وإنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى: لا نحدث حدثاً، ولا نُؤوي محدثاً (والمحدِث هنا الذي يحاول تغيير الوضع القائم). ولعل الأمر الذي تدعونا إليه مما يكرهه الملوك. فأما ما كان مما يلي العرب، فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول. وأما ما كان مما يلي بلاد فارس، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول. فإن أردت أن تنصرف ونمنعك مما يلي العرب فَعلْنا».

فقال رسول الله ﷺ مخاطباً القوم «ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه» أو قال ﷺ: «وما يحمل هذا الدين إلَّا من يحيط به من كل جانب»..

ثم نبَّه ﷺ إلى أمر حاسم في تقدير العلي العظيم وهو يقول

لهم: «أرأيتم إنْ لم تلبثوا إلا يسيراً، حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويغريكم بهم، أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟»..

قال النعمان بن شريك، «اللَّهُمَّ إن ذلك لك يا أخا قريش».

وارفضَّ الاجتماع، ولم يدخل بنو شيبان بن ثعلبة في دين الله (تعالى) للأسباب التي أظهرها شيوخهم. ولكنهم كانوا خيراً من القبائل الأخرى، التي عرَضَ الرسول ﷺ عليها الإسلام أمثال بني كندة، وبني كلب، وبني حنيفة، وغيرهم من القبائل التي كانت تجأر بالصدود، لأنها تهفو إلى الحكم والسلطان، أو تظهر الطمع في المكانة والسيادة، أو غيرها من المآرب، التي لا تتفق مع الإسلام ودعوته الخالصة، الخالية ـ وحدها ـ من المطامع والمآرب وما يماثلها من الغايات الدنيوية الزائلة..

ولعلَّ أهم النتائج التي تمخضت عنها الاجتماعات التي عقدها رسول الله ﷺ مع القبائل، ما كان لاجتماعه ببني شيبان من أصداء تعدَّت حيّز المكان والزمان، عندما تنبَّأ ﷺ بأن المسلمين العرب سوف يغلبون الفرس، ويقهرون قوة سلطانهم. ولكنَّ قريشاً قلبت الأمر على عكسه واتخذت منه مادة جديدة للهزء والسخرية عندما راحت تتقوَّل بين الناس: أرأيتم «محمد بن عبد الله»!.. إنه يعد أصحابه بالأماني العجيبة في السيطرة على امبراطورية فارس!

وانتهى موسم الحج وقد أسمعَ رسولُ الله ﷺ صوته لقبائل العرب، وقد بلغت تلك التي عرض عليها الإسلامَ حوالى خمس عشرة قبيلة[1]، ما أراد منها إلَّا أن تكون أهل نصرة لهذا الدين، لأنه

(١) كما جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد.

يتوخى من وراء هذه النصرة الإنسان والمكان والزمان. . .

فأما من ناحية الإنسان فقد كان الهدف تغييرَ الذهنية السائدة ليصير لدى العربي نوع من القبول بفكرة التوحيد، ومن ثم معرفة الإسلام على حقيقته واستشفاف روحيته، إذ كانت المطامع الدنيوية تغلب على كل شيء، وهذا ما يمثِّله، أو يعبِّر عنه بنو عامر بن صعصعة الذين كانوا يعتقدون أنه بمقابل نصرة النبي يجب أن يؤول الأمر إليهم من بعده وكأنَّ النبوّة شأن قابل للتداول بين الناس! . . .

وأما من ناحية المكان، فلم تكن جغرافية الأرض العربية ملائمة كلها لانتشار الإسلام. وما أظهره بنو شيبان كان تعبيراً واضحاً وصادقاً عن تأثير هذا العامل الجغرافي، فربما لو كان بنو شيبان في أرض الصحراء الحرة، بعيدين عن ضغوط فارس وملوكها لكانوا اندفعوا إلى الدخول في الدين الجديد، وكانوا من أول أهل النصرة لهذا الدين، لما أظهره شيوخهم من الرأي والحكمة. .

وأما من حيث الزمان فقد كان طلب النصرة في الوقت الذي كانت فيه كل من الامبراطوريتين الفارسية والرومانية تعبِّىء نفسها لمقاتلة الأخرى (لاسيما بعد انتصار الفرس على الروم) وكان مثل هذا الأمر يشغل بال العرب لما له من تأثير على قوافلهم التجارية لأن انشغال القوتين العظميين ـ في ذلك التاريخ ـ وانصراف كل منهما إلى مواجهة الأخرى، كان من شأن ذلك أن يفسح في المجال لقيام قوة ثالثة، وأرض الجزيرة أصلحُ البقاع مهداً لهذه القوة، والزمان أنسب الأزمان لقيام نواة الدولة الإسلامية.

وبذلك نجد أن الرسول الأعظم كان يحسب لكل الأمور

حسابَها، وكان يضع خططه، ويحدد مراحل سير الدعوة، بما يتوخى فيه الإنسان والمكان والزمان. أما بالنسبة إلى قبائل العرب، فإلى جانب تلك العوامل التي رأيناها، والتي كانت تجعلهم يُعرضون عنه، كان عامل الخوف من قريش هو الأبرز والأهم، أي أنَّ ملاحقة رجال من قريش للنبي، وتأليب شيوخ القبائل عليه، يعتبران من أهم الأسباب المانعة لقبول تلك القبائل الإسلام. فقد كان مثلًا عمُّه أبو لهب يتبعه حيثما توجَّه من منزلٍ إلى منزل، ومن مجلس إلى مجلس، ليصرف الناس عن تصديقه واتباعه. فمن قبيل ما كان ذلك الكافر أبو لهب يصدُّ به الناس عن الرسول ﷺ قوله لهم: «يا بني فلان، إنَّ هذا الرجلَ إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أُقَيْش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه»[1]، وكثيرون مثله كانوا يلاحقون النبيَّ ﷺ وينسجون على مسامع القبائل ما يحلو لهم من الأكاذيب والافتراء عليه، مما كان يدفع الناس للردّ عليه قائلين: «أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك»[2].

إذن، فإعراض القبائل عن الإسلام كان ـ كما أبدينا مراراً ـ لاعتبارات عديدة: « إما تمسُّكاً بديانتها الوثنية، وإما خشية من سلطان قريش ونفوذها، وإما حفاظاً على مصالحهم الاقتصادية في مكة، لا سيما في مواسم الحج وعكاظ»[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٥٦.

(٢) السيرة الحلبية ج٢ ص٣؛ زاد المعاد ج٢ ص٧٣.

(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣، ص٢٧٩.

ومن جراء تلك الاعتبارات الدنيوية انقضت المواسم (في عكاظ ومجنّة وذي مجاز) من غير أن تدخل قبيلة واحدة في الإسلام، بل ولم يُقبل على هذا الدين حتى بعض أفراد قلائل.. وقد عدَّد بعض كتَّاب السيرة القبائل التي أتاها النبي ﷺ أمثال «بني عامر بن صعصعة، وفزارة، وغسان، ومُرّة، وحذيفة، وسليم، وعبس، وبني النضر، وبني البكاء، وكندة، وكلب والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد»[1]. وهذا ما أثلج صدور أهل الكفر والشِّرك من قريش، فعادوا إلى ديارهم فرحين مستبشرين.. ولكن علامَ يستبشرون؟! فإن رغبت قبائل العرب عن الإسلام، بفعل تلك الطغمة الظالمة من قريش، فإن الدعوة لهذا الدين باقية، ومستمرة، ولن يتوقف الرسول ﷺ عن مواصلة جهاده ـ هو وأصحابه ـ مهما تألَّبت عليهم قوى الشر، أو حالت بينهم وبين الناس قوى الضلال والاستكبار.. فالمسلمون مع الحق، والحق معهم، وهما صنوان لا يفترقان.. إنهم يأتمرون بأوامر الله ـ تعالى ـ ونواهيه، فلا بدَّ من أن يكون النصر حليفهم في نهاية المطاف، لأن الغلبة للحق، وإن ظهر أن الباطل استقوى عليه إلى حين، ومن ينصرْ الله ـ تعالى ـ ينصرْه.. ولذلك كانت الصدمة قوية على قريشٍ، وهي ترى النبي ﷺ يعاود سيرته الأولى بعد الموسم، ومن ورائه أصحابُهُ الذين يعملون على المنهج نفسِه، والعزيمة نفسِها، بلا كللٍ ولا مللٍ.. فقد كان ﷺ لا يترك طوافاً حول الكعبة، ولا صلاةً في رحابها الطاهرة؛ ولا يجلس مع أحد إلَّا والدعوة على لسانه ـ مثلما هي في قلبه ـ يصارح الناس

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٧٣.

بها، ويصدقهم القول؛ ويبدي الحجج والبراهين المؤيَّدَة بالآيات القرآنية المبينة، وفيها ما فيها من المعاني والقيم التي تفتّح الأذهان والعقول، وتطمئنُّ لها القلوبُ والأفئدة التي يشاءُ الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يهديها لنور الإيمان. فالدعوة للإسلام باقية حقاً!.. ولكن الجهود التي يبذلها رسول الله ﷺ مضنية، وليس من جديد يمكن أن يخفف عنه الأعباءَ الثقيلة، بل على العكس، كان كل شيء ينذرُ بما يزيد من تلك الأعباء، لأن الأجواء المحيطة بالنبي ﷺ كانت نكَداً من جميع الجوانب: مآسيَ وأحزاناً في حياته الخاصة، وإعراضاً وعدمَ قبول في حياة الدعوة، وظلماً وقهراً في حياة الدعاة..

زواج النبي ﷺ من السيدة سودة

كل تلك الأحمال بأثقالها المادية والمعنوية، كانت كفيلةً بأن تجعل حياةَ النبي محمد ﷺ، صعبة وشاقة.. إنه بشر مثلنا، وليس من يحمل معه، في داخل بيته، شيئاً من همومه الثقيلة إلَّا ابنتُه فاطمة عليها السلام. في حين أنها، وفي السن التي كانت عليها، أوْلى بالرعاية والحنان من أن ترهَق بالهموم وترزح تحت وطأتها. ولذلك، فقد كان من المحتوم أن يُمضيَ ﷺ، في ظل تلك الظروف، أياماً ثقيلة مرهقة ويبيت لياليَ عصيبة مؤرقة، حتى صار الحزن مطبوعاً على وجهه الشريف، وصارت حياته موضع اهتمام الصحابة الأخيار، يتألمون هم وزوجاتهم المؤمنات لحاله، أكثر مما يتألمون من أوضاعهم المملوءة بالشدة؛ فقد كانوا يتفكرون في السبل التي لا تُبقي رسولهم مع ابنته وحيدَيْن مستوحشَيْن لفراق الزوجة والأم، بعد أن توفى الله تعالى السيدة خديجة ونقلها إلى رضوانه وريحانه..

وكانت أكثر النساء المسلمات تحسُّساً بمعاناة النبي ﷺ وفقدانه لفراق زوجه المبرورة الطيبة، السيدة خولة بنت حكيم السلمية، زوجة الصحابي عثمان بن مظعون رضي الله عنهما، التي رأت في زواج النبي من إنسانة مؤمنة، ما قد يعينه على عبوس الأيام. وتشاورت مع زوجها، ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ، تخاطبه مترفقة، متلطفة، وهي تقول له:

ـ يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتْك خلة[1] لفقد خديجة رحمها الله؟..

ولا يخفي الصادق، المصدَّق ﷺ مشاعره حيال ما خلّفته أمُّ العيال وربَّةُ البيت من فراغ وراءها، وما يعاني من مآسي الحياة التي تحيط به من كل جانب، بل يصارح زوجة عثمان بكل شيء، مما جعلها تندفع برأيها، فتقول له:

ـ ألا تتزوج يا رسول الله؟..

فيشير ﷺ: ومَنْ بعدَ خديجة؟

فقالت: إن شئت بِكراً، فعائشة بنت أبي بكر. وإن شئت ثيباً فسودة بنت زمعة، وأنت أعلم الناس بها يا رسول الله.

وأصغى الرسول ﷺ إلى خولة، ولكن آثرَ أن تتركه إلى الغد.. فاختلى ﷺ بنفسه يستعرض، ما قالته هذه المرأة المؤمنة، ويتفكّر في حياة سودة بنت زمعة، الإنسانة التي عاشت بلا زوج، ولا ولد، حتى إذا جاوزت مرحلة الصبا والشباب، حنت عليها الحياة ببارقة أمل مشرقة، فتزوجت ابن عم لها يدعى السكران بن عمرو.. وقد أمضت

(١) الخلة: الهزال والضمور (من الحزن).

معه سنوات قصيرة، كانا خلالها قد آمنا، وبايعا النبيَّ ﷺ، ثم ارتحلا مع المهاجرين إلى أرض الحبشة. ولكنَّ المنية لم تلبث أن اغتالت الزوجَ هناك من دون أن يُنجب من سودة أولاداً، فندبت حظها وعاشت من بعده أرملة، مهيضةَ الجناح[1]، تصبر على قضاء الله وقدره، وتتأسَّى بالإيمان الذي ملأ قلبها. وكانت من المسلمات العاملات في مكة، بعد عودتها من الهجرة.

إن حياة هذه المرأة بما واكبها، جعلت الرسول العظيم يقرر الزواج بها. فلما جاءته خولة بنت حكيم في الصباح، أرسلها في طلبها.. فجاءته على عجل، ولم تصدِّق أذناها ما تسمع وهو ﷺ يعرض عليها نفسه، فتوافق بالإيجاب قائلة:

ـ أمري إليك يا رسول الله..

وطلب إليها الرسول الكريم أن تأتي برجل من قومها ليزوجها. فذهبت إلى ابن عمها حاطب بن عمرو، وجاءت به شاهداً على زواجها من أكرم خلق الله محمد ﷺ.

ودخلت سودة بنت زمعة بيت النبوَّة. فأسبغ الله (تعالى) عليها من نعمائه، ورفع قدرها، وزادها شرفاً وتكريماً بأن جعلها أمّاً للمؤمنين..

وعاشت زوج النبي في كنفه، تقوم على خدمته بكل جوارحها، وهي تصل بذلك حاضِرَها العظيم بماضيها الكريم، وقد تفتحت أمامها آفاق المستقبل المشرق بالإسلام، المضيء بالإيمان والرضوان..

---

(١) مهيضة الجناح: كسيرة.

النبيّ ﷺ يخطب السيدة عائشة

ومثلما أراد الرسول الأعظم أن يثيب امرأة مؤمنة على إخلاصها في سبيل الله تعالى: إيماناً وهجرة، وداعيةً.. فجعل من نفسه رائداً للحدب والبرّ والمؤاساة بزواجه بها، كذلك أراد ﷺ أن يعطي المثَل في الوفاء والاعتراف بحسن الجميل، فطلب من صديقه أبي بكر يَدَ ابنته عائشة..

ذلك أنه كان لأبي بكر فضل السبق في الإسلام.. وقد رأيناه أول رجل راشد قد صدَّق النبي ﷺ وآمن بما دعاه إليه، من دون أي تردد أو إبطاء. ثم راح منذ إسلامه، يعمل على دعوة من وثق به من أهل مكة للدخول في دين الله، فدخل في هذا الدين ببركة سعيه، وعلى يدي رسول الله ﷺ، نفر ذوو مكانة من المسلمين الأوائل؛ وما كان ذلك بالسهل اليسير في تلك البيئة الجاهلية التي لا تريد أن تتخلى عن معتقداتها الوثنية، وهو ما يقدّره النبيُّ ﷺ حق التقدير ويجعل له اعتباراً خاصاً عنده تجاه أبي بكر رضي الله عنه، فيرى أنْ يجزيَه لحسن صنيعه، ثم ليبيِّن للناس فضل أولئك المسلمين الأوائل وتأثيرهم في أبناء عشيرتهم، وأثرهم في تثبيت دعائم الإسلام.. فكان أن اعتزم ﷺ أن يخطب يد ابنته عائشة في سبيل تلك الغاية السامية ألا وهي الوفاء والاعتراف لأبيها بالفضل. وأهمية هذا الأمر أن المرأة التي يتزوجها رسول الله ﷺ تصبح أمّاً للمؤمنين.. وهي مكانة عظيمة ليس للمرأة وحدها بل هي كذلك شرفٌ واعتزاز لذويها، وبخاصة لأبويها. وعندما تنال عائشة تلك المكرمة، فلسوف يهنأ أبو بكر ويعتز، لأنه لا شيء أحب إلى قلب إنسان، ولاسيما المسلم، من أن ينال ولدُه مكانة كبيرة، لها شأنها في الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة، ـ إن شاء له الله تعالى ذلك وقدَّره ـ.

نعم بمثل هذا السموّ الفكري، والغاية النبيلة، بعثَ النبيُّ ﷺ بخولة بنت حكيم ـ وهي البادئة في سعيها لزواجه ـ إلى أبي بكر رضي الله عنه لتنقل ما ارتآه بشأن ابنته.

وتلقَّت أم رومان ـ زوج أبي بكر ـ زائرتها بالتأهيل والترحيب، ولكنَّ هذه الزائرة الكريمة، ومن دون مقدمات، عاجلت، بعد أن ألقت عليها سلامَ الإسلام، مبادرةً بالقول:

ـ ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة يا أم رومان؟.

قالت أم رومان: وما ذاك؟.

قالت خولة: أرسلني النبيُّ ﷺ أخطب له عائشة..

وأجابت أم رومان، والفرحة تملأ كيانها:

ـ ما أحبَّ إليَّ ذلك! ووددتُ من كل قلبي فهيا ارتاحي يا أختاه، وسيعود أبو بكر سريعاً إن شاء الله.

وحضر أبو بكر ولكنه بُهِتَ للنبأ، فقال:

ـ وهل تصلح؟ إنها ابنة أخيه!.

لم يقرر أبو بكر ما يفعل ـ لعلّةٍ في النفس ـ فسكت ولم يزد على ما قال، فقامت خولة تنقل مقالته إلى النبي ﷺ، فبعثها إليه ثانية: بأنك يا أبا بكر أخوه في الإسلام، وأن ابنتَك تصلح له..

ووقع الرجل في حَيرةٍ وحَرَج!.. ذلك أن ابنته عائشة، ومنذ صغرها كانت ذات مزايا تُغري بخطبتها: إذ كانت بيضاء، تغطي وجهها حمرة، وترتفع بهامة ممشوقة عاماً تلو عام. ويزيد في حسنها شعر طويل، تعتني به وتفاخر..

أما من حيث الصفات الخُلُقية فكانت خجولة بطبعها، موفورة الذكاء والنشاط، عصبية المزاج، قد أخذت من طباع أبيها ما تأصّل فيها، فكانت تبدو كأنها شُعلة متوقدة من الجمال والحيوية.

أما الحيرة التي وقع فيها أبو بكر فمردُّها وعدُه إلى المطعم بن عدي ـ ومنذ حداثة سن عائشة ـ بأن يخطبها لابنه جبير، بسبب ما كان بينهما من صداقة حميمة. فلما لم يدخل المطعم ولا ولدُه في الإسلام، لم تتم الخطبة، ولكن ظل الوعد قائماً. وهذا ما أوقع أبا بكر في ذلك التردد، إذ لا يريد أن يُقال عنه بأنه أخلف وعداً قطعه على نفسه. ولكن، وهو المسلم، صار لديه العذر بعدم خطبة ابنته وتزويجها بمشرك.. فإن دخل جبير في الإسلام كان أمر الله تعالى وهو خير، ولا بد من أن يبارك النبيُّ ﷺ هذا الأمر، ويبارك لصديقه أبي بكر شرف الوفاء بالوعد.

ولذلك مضى الرجل ـ وفي رأسه الأفكار متزاحمة ـ إلى بيت المطعم وفي نيّته أن يكون صريحاً معه، فإما دخول ابنه في الإسلام وتزويجه عائشة، وإما التحلّل من وعدٍ قديمٍ لم تعدْ الظروف مؤاتية له.

وجلس أبو بكر إلى صاحبه المطعم، الذي بدا متجهماً منذ رآه يطأ عتبة بيته. فسكت مؤثراً أن يُظهر أهل هذا البيت ما عندهم تجاهه.. ولكن لم يلبث أبو بكر إلَّا قليلًا، وجاءت زوجة المطعم تصبُّ جامَ غضبها عليه لمناصرته «محمداً» وبذلِ أمواله في سبيلِ أولئك العبيد الذين يدخلون في الإسلام.. وما زالت المرأة تغلي في هيجانها، حتى قالت أخيراً:

ـ أما نحن يا ابن أبي قحافة فما لنا حاجة بعد بمصاهرتك، بعدما صبأت أنت وأهلُك. ونخاف على ابننا أن تفتنه، فيصبأ ويدخل في دينك..

وارتاح أبو بكر ببشائر هذا الفرج ينزل عليه، فسأل المطعم:

ـ وما تقول أنت يا أبا جبير؟

فلم يزد الرجل على أن قال: لقد سمعتَ من المرأة يا هذا!.

فقال عندها أبو بكر: أما والله ما جئت إلا لأعرض عليكم خيراً لا تستحقونه. وقد أغنانا الله تعالى بالإسلام ورسوله، فما للمشركين علينا من سبيل!.

وخرج أبو بكر تحُفُّه ظلال العناية الإلٰهية. فالمطعم هو الذي نكث الوعد، وحلَّهُ من أمرٍ كان قد قطعه على نفسه في غفلة من الزمن، فأسرع إلى بيت خولة بنت حكيم ليزفَّ إليها البشرى العظيمة، وهو يقول لها:

ـ لقد فُرجتْ ـ والله ـ يا أختاه، وإني ملتقٍ رسولَ الله ﷺ الآن. إلَّا أنني أحببت أن أعرِّج عليكِ، لأنك صاحبة الفضل في سريان الفضل إلينا.

ولم تقدر خولة أن تمنع عنها الفرح فهبَّت مسرعة إلى النبيِّ ﷺ تسبق أبا بكر إليه. فما كان منه ﷺ إلَّا أن لبس بُردته، وتوجَّه إلى دار الصدِّيق الوفيِّ يطلب يدَ ابنته عائشة.. وفي شهر شوال من السنة العاشرة لمبعثه الكريم تمت خطبته ﷺ على عائشة بنت أبي بكر، وكانت يومئذٍ فتاةً في التاسعة من عمرها.. وخُطبتها في تلك السن المبكرة كانت أمراً طبيعياً، لأن الزواج المبكِّر للفتيات كان معروفاً عند

العرب، وإقدامُهُ ﷺ على خطبة فتاة حديثة السن، لا يخالف ذلك الواقع السائد بل ولا يخالف تكوين الأنثى في تلك البيئة، التي كان فيها نضوج الفتيات الجسدي من أهم العوامل على التزويج الباكر منهنَّ.. وهذا فضلًا عن تلك الغاية السامية التي ذكرناها من قبل، والتي تحمل تكريماً لأبيها أبي بكر، قد لا يصل إليه إلّا من يستأهله من المؤمنين أمثالِهِ.. وإن تكريماً من هذا القبيل، وكما يريده النبيُّ ﷺ يدرك المسلمون مراميه، ويعرفون أهميته حقَّ المعرفة، فارتاحت نفوسهم للخطبة كثيراً، وجاؤوا إلى نبيهم الأكرم يهنِّئونه على ما فعل، ولم يكن هذا الأمر ليحدث إلَّا أن يشاءه الله سبحانه، ذلك أنَّ توجُّهَ رسوله المصطفى ﷺ إلى واقع الحياة ونظرته إلى كل صغيرة وكبيرة بما يرضي الله تعالى، إنما هي الهداية والرضوان.. وبهذا الفضل نجدُهُ ﷺ يعتزل تلك الوحدة في البيت التي فرضها على نفسه فترة من الزمن، إثر وفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، ثم يقبلُ على الزواج بمؤمنةٍ كريمة، وخطبة فتاةٍ كريمة حتى يكون ﷺ ـ وكما شاءَ ربُّ العالمين ـ أسوةً للناس في كل أمر وشأنٍ من أمورهم وشؤونهم.

الإسراء والمعراج(١)

على أن مثل تلك الأمور الخاصة بشخص النبي ﷺ ما كانت لتشغلَه يوماً، أو تشدَّه إليها أكثرَ من الدعوة، ومن العمل على إنجاحها. فكل أسباب المتاع، مثلًا، والراحة ليست بذات وزن أو اعتبار عنده، بل همُّهُ إيصال الإسلام إلى الناس، على الرغم من كل الظروف والأجواء الصعبة التي كانت تواجهه، والتي أتاحت المجال

(١) الإسراء: التنقّل ليلًا، والمعراج الصعود.

لأصحابِ العقول والنفوس المملوءة بالضلال ـ وبعد مرور عشر سنوات على مبعثه الكريم ـ لأن يبقوا هُمُ الأكثرَ عدداً، والأقوى مقاومة وعناداً، ولاسيما أهل مكة الذين رفضوا دعوة الهداية جملةً وتفصيلًا، ومن ثَمَّ أهل الطائف ـ القرية ذات المركز الجغرافي والاقتصادي المماثل لمركز مكة ـ الذين ردّوهُ بشرِّ جواب. وكذلك الأمر مع القبائل التي عرض عليها الإسلام في المواسم، فأبت، وامتنعتْ ـ وإن كان إعراضها أقل من قريش تعنتاً ورفضاً ـ فماذا يفعل بعد هذا كله؟!

إن العبء، ولا رَيب، ثقيل جداً. ولذلك كان الرسول ﷺ دائم التفكير في السُّبل التي تجعل الناسَ يعرفون الدين الحق، ويهتدون إلى الإيمان الصادق، وهذا لا يكون إلَّا أن يُسلَخ كلُّ ما التصق في طباعهم، وجعلهم يرون أنْ لا شيء يعنيهم إلَّا هذه الدنيا، وما فيها...

وكانت الأيام تمر سراعاً وهي تشد على صدر الرسول، بسبب ما يلاقي من إنكار وجحود، حتى كأن الغربة قد استحكمت ما بين الناس والإِسلام، وحالت دون نفوسهم والاهتداء إليه..

وفي هذا الوقت بالذات، وقد بدا للرسول ﷺ أن مجتمع مكة بالذات ـ ومن ورائه جزيرة العرب قاطبة ـ قد امتشق سلاح الجهل، وتشبَّت بقوة الشر لتناصبَه ودعوتَه العداء.. وعندما أخذتْ الهموم من نفس الرسول ﷺ كل مأخذ، تدخَّل أمرُ الله (تعالى) ليواسي محمداً ﷺ، ويطمئنه إلى مصير الدعوة التي يحمل، فوقعت أعظم معجزة عرفها الإِنسان على وجه الأرض، لا لتكون تأييداً لدعوة

الإِسلام، وإثباتاً لحقيقته بأنه دين الله، ولا مقدمةً لنصرة هذا الدين.. فهذه أمور تديرها يدُ الله العلي الكبير.. بل إن تلك المعجزة قد حدثت، في تلك الحقبة بالذات من الزمن، لتكون تأييداً للرسول ﷺ بذاته، وتشريفاً له وحده دونما أية علاقة بالإِسلام.. وكأنما أرادَ الحقُّ عزَّ وجلَّ ـ حسب ما يهدينا إليه تفكيرنا البشري ـ أن يوقع في نفس رسوله الكريم محمد ﷺ أنه إذا كان أهل الأرض لم يحمدوه، ولم يعرفوا قدره، فإن أهل السماوات ـ وبوحي من ربهم ـ يعرفون له القدر الكبير، ويولونه جزيل الحمد.. وإذا كانَ الناس يأبوْنهُ، ويرفضون ما يدعوهم إليه، فإن الله سبحانه وتعالى يجتبيه ويشرِّفه، ويدعوه إليه ليريَهَ من آياته الكبرى ما تطمئنُّ به نفسه، ويرتاح له فؤاده، ويخفّف الأثقال والهموم عن كاهله.

نعم لقد كان أمر الله تعالى ـ في هذا الوقت العصيب بالذات ـ لتكون معجزة الإِسراء والمعراج، إيناساً للرسول المصطفى ﷺ واستجابة لدعائه، حين تفاقمت جفوة الناس، واستفحلت مرارة الأذى، واشتدَّ ظلم العشيرة..

نعم، حدثت معجزة الإِسراء والمعراج، لتكون فريدةً في تاريخ الأنبياء والمرسلين وهم يحملون رسالات ربهم إلى دنيا الناس، ولكنها في الوقت عينه ثاني حدثين يحصل فيهما الاتصالُ المباشر من الخالق، فيخاطب سبحانه وتعالى عبدين من عباده الصالحين في دنيا الأرض..

فالاتصال الأول كان عندما كلَّم الله (تعالى) نبيّه موسى عليه السلام على جبل الطور في سيناء. والاتصال الثاني عندما أسرى الله (تعالى)

بعبده محمد (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام) من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى ليكون قاب قوسين أو أدنى، وليرى، ويسمع ما شاءَ العلي العظيم أن يُرِيَهُ ويُسمعَهُ وليتحدث مِن ثَمَّ عن عروجه بما لم يره، ولم يسمع به أحدٌ أو يتحدث به غيره، من الخلق أجمعين. . .

والسؤال الذي يطرح بهذه المناسبة هو:

متى؟ وكيف حصل ذلك؟. .

أما متى حصل الإسراء والمعراج، فإننا أشرنا إلى الوقت، وأنه كان حين وصلت الحالة بالنبي ﷺ إلى أقصى درجات المرارة والألم، وبعد الأحداث التي تعاقبت منذ السنة العاشرة لمبعثه حتى السنة الحادية عشرة، أي قبل هجرته إلى المدينة بسنتين أو أقل بقليل. .

وأما كيف حصل ذلك، فالقرآن الكريم يثبت أن الإسراء والمعراج قد كانا بالجسد والروح والنفس، وذلك بدليل قوله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

«سبحان الذي أسرى بعبده»، فعبده هو محمد ﷺ، مكوَّن من الجسد والروح والنفس. . ولا يمكن تأويل النصّ القرآني الصريح بما ينافيه أو بما هو بخلافه، أو القول بعكس هذا الوضوح، إذ إنَّ لفظة

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

«بعبده» كافية للتدليل على هذا الوضوح، وعلى هذا العروج بالتكوين الكامل لمحمد ﷺ. فلا بدَّ إذن من اعتبار أن الإسراء قد تمَّ بالجسد وفيه محرِّك الحياة: الروح، وفيه أيضاً عنصر التلقّي والإرادة والتعقل والمعرفة: النفس.. فالقادر على خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان قادرٌ على أن يسري بعبده ليلًا كل تلك المسافة من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في فلسطين بسرعة خارقة عجيبة؛ ومن هو قادر على هذا الإسراء ـ بل ومَن هو على كل شيء قديرٌ ـ لا يُعجزه أن يَعرُج بعبدِهِ إلى السماواتِ العلا ليُريَهُ من آياته الكبرى.

ثم إنَّ الله العلي القدير قد بَيَّن للبشر، سواء في الكتب التي أنزلها، أم في الأحداث التي يجريها في حياة الناس، أنَّه ليس للزمان والمكان، في مسيرة حياة النبيين والمرسَلين، أي شأن للقوانين والنظم التي يعرفها الناس، بل وللسنن التي يسير عليها الكون بأسره، لأنه عزَّ وجلَّ يقول للشيء: كن فيكون، فهو ربُّ الكون، وربُّ السنن، وإرادته السَّنية التي تسيّر العوالم وآفاقها بأسرها، هي التي قالت للإسراء والمعراج: كن فكان..

ولا يجوز للعقل البشري أن يستغرب وقوع هذا الحدث العظيم عندما يتذكر:

ـ أنَّ الله العزيز الحكيم قد أرسل الطوفان الذي أغرق أهل الأرض بكفرهم وعصيانهم، وأنجى نوحاً عليه السلام وأصحاب السفينة وجعلها آية للعالمين.

ـ وأنه هو الله لا إله إلَّا هو سبحانه الذي استجاب لنداء يونس عليه السلام فأنجاه من بطن الحوت.

ـ وأنه هو اللّهُ الذي يسلب الأشياء خاصياتها فمنع نار النمرود أن تحرق إبراهيم عليه السلام، بل وقال لها «يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم».

ـ وأنه هو اللَّهُ الذي أوحى للجبال والطير أن تسبّح مع داود عليه السلام وهو يسبّح بمزماره آياتِ الله العظمى..

ـ وأنه هو اللّهُ الذي أعطى سليمان عليه السلام ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من قبله ولا من بعده، فسخَّر له الرياح ذلولًا تنقله ـ عبر بساط يعتليه ـ حيث يشاء، وسخَّر له الجنَّ ـ خدماً وعبيداً ـ يأتمرون بمشيئته في البناء على سطح الأرض، وفي الغوص إلى أعماق البحار ليستخرجوا له الثرواتِ النادرة، بل وسخَّر له مَنْ عنده عِلْمُ الكتاب ليأتيه بعرش بلقيس ـ ملكة سبأ ـ من بلاد اليمن إلى بيت المقدس قبل أن يرتدَّ إليه طرفه.

ـ وأنه هو الله الذي يحيل الأشياء كما يشاء فجعل عصا موسى عليه السلام حيةً تسعى لتلقفَ ما صنع السحرة، ثم أعادها سيرتها الأولى أي عصا من خشب لا حياة فيها.

ـ وأنه هو اللّهُ الذي يحيي ويميت، ويخرج الحيَّ من الميت ويخرج الميت من الحي، فأوحى للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام السرَّ لأن يُبرئ الأكْمهَ والأبرصَ ويحيي الموتى بإذن الله.

ـ وأنَّهُ هو اللَّهُ الذي أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السماوات العلا ليريَه من آياته الكبرى[1]..

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن معجزات الأنبياء مراجعة: «قصص الأنبياء» للمؤلف.

إذن فالإسراء والمعراج هو معجزة من تلك المعجزات التي أوتيها الأنبياء والمرسَلون.. وهو من حيث كونُه معجزةً إلهيةً، صار التسليم بحدوثه جسداً وروحاً ونفساً تسليماً عقلياً، متعلقاً بمشيئة الله تعالى الذي لا إله إلَّا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه وتعالى عما يشركون. ثم إن العروج، وبالشكل الذي حصل، يحمل في طياته مدلولاتٍ كثيرة للإنسان.. فمن قبيل ذلك أن الإنسان ـ في نطاقه المحدود ـ تمكّن من أن يصنع الطائرات التي تقطع أكثر من ١٣ كيلومتراً في الثانية الواحدة ـ وربما يتضاعف ذلك عدة مرات في المستقبل: أن يكتشف بأن سرعة النور تبلغ حوالى ٣٦٠ كيلومتراً في الثانية الواحدة... «بل يعتقد بعض العلماء: أن الموجات غير المرئية للجاذبية تستطيع أن تقطع العالم بلحظة واحدة من دون حاجة إلى الزمان»[١].

وهنا نسأل: أليس خالقُ الإنسانُ هو الذي وهبه العقل لصناعة تلك الطائرات السريعة التي تخرق جِدارَ الصوت، وتلك الصواريخ العابرة للقارات، ومن ثم تلك الأقمار الصناعية التي يرسلها إلى الفلك الدوار؟!

أليس هو خالق الكون الذي أودعَ في النور خاصية السريان بتلك السرعة التي يجتاز بها ملايين السنوات الضوئية قبل أن يزول؟

«وبعد كل هذا فإنه إذا كان قطع المسافات البعيدة ـ سواء في الأرض أم في الفضاء ـ بهذه بالسرعة المذهلة ليس مستحيلًا على هذا الإنسان المحدود الذي بقي الأعوام الطوال يفكر ويستعد، ويجمع

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣، ص٣١.

الخبرات والإمكانات، فهل يستحيل على خالق الإنسان والكون، ومبدعِه أن يسري بعبده الذي اصطفاه رسولًا للبشرية جمعاء، ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإلى ملكوت السماوات ثم يعيده إلى مكانه الأول؟!»[1].

لا، ليس ذلك مستحيلًا على الله القادر المقتدر، فكان الإسراء والمعراج برهاناً بذاته من أجل لفت أنظار العلماء بالأمس واليوم ـ بل وفي المستقبل ـ إلى أن الإنسانَ قادرٌ بالعلم أن يجترح المعجزات، وما وسائل المواصلات والاتصالات التي نعيشها اليوم ـ الأقمار الصناعية، الإنترنت، الهاتف وغيرها ـ إلَّا توكيد للإسراء والمعراج، ولكن مع الاختلاف أن وسائل الاتصال تلك هي من صنع الإنسان، بينما الإسراء والمعراج تمَّ بواسطة وسيلة نقل من صنع الله ـ الذي هو على كل شيء قدير ـ وقد اخترقت جاذبية الأرض وطبقات الأثير، وطَوَت المسافات فانعدمت أمامها المسافات، وطوت الزمن فانعدم أمامها الزمن الذي يدلُّ عليه تعاقب الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر على الأرض.

هذا وقد حقَّق الله العلي العظيم لنبيِّه الكريم تلك المعجزة في رحلة كونية كانت للأمس القريب غريبةً عجيبةً، وصارت اليوم ـ وبعد غزو القمر، مراراً وتكراراً، وبعد إرسال الأقمار الصناعية إلى كواكب أبعد بكثير من القمر ـ أقربَ إلى الذهن والمعقول، وإن كانت بحد ذاتها وواقعها مُدهِشَةً مُذهِلةً كسائر معجزات الأنبياء والرسل، في عالم التقدير والاعتبار..

---

(١) المصدر السابق.

وإذا كان للعقل الإنساني أن يفهم بعض مدلولات المعراج، فإنه بالإضافة إلى اطمئنان نفس محمد ﷺ، كان للبرهان على الخروج من نطاق هذا الكوكب الأرضي الذي يسبح في الفضاء، ليعرف الذين ينكرون البعث، بأنهم غير باقين في هذه الأرض بعد انحلال أجسامهم، وأنهم لا شك مبعوثون جسداً وروحاً ونفساً، في مكان ما من عوالم الكون التي لا يعلمها إلَّا الله سبحانه ـ والتي بدأت مراصدهم تتبيَّن شيئاً ما من آفاقها بما تتلقى من إشعاعات آتية من ملايين السنين الضوئية ـ فتجعل الناس يتفكرون في خلق السماوات والأرض وفي أنفسهم كما يدعوهم لذلك القرآن الكريم. . . هذا إلى كون الإسراء والمعراج يمكن أن يكون بمثابة الهزة التي تصيب الضمائر والعقول لإيقاظ الغافلين من غفلتهم، وجعلهم يعتبرون، ويقرّون بحقيقة وجود الله تعالى، لاسيما أن العلم يأتي كل يوم بجديدٍ، وهو يشكل الدليل والبرهان على حقيقة الخالق، وحقيقة خلقً السماوات والأرض وما فيهنَّ، وما بينهنَّ، ومن يقدر على هذا الخلق العظيم حاشا أن يعجزه الإتيانُ بالإسراء والمعراج أو بأية آيةٍ من آياته العظمى.

فهذه الدلالات تعبِّر عن الإِسراء على أنه الانتقال من مكان إلى مكان بواسطة لا يقدر عليها البشر، كما تعبِّر عن المعراج الواسطة عيْنِها التي تتحلل من قوانين الجاذبية، والأبعاد، والأعماق، والمسافات والأزمان، وما إليها من القوانين التي تحكم أو تتحكَّم بتصرفات بني البشر، ويقيمون على أساسها حساباتهم وتقديراتهم؛ كما أنها تخرج على مألوف السنن التي تحكم الكون، وتخضع لتقدير الله العزيز القدير الذي يقول للشيء: كُن فيكون. .

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد جعل من الإسراء والمعراج وسيلةَ كشف تدعو الناس للتفكر كلما ابتدعوا وسيلة جديدة من وسائل المواصلات، إلَّا أنها تبقى المعجزةَ التي تفرض على الإنسان الإذعان لها، والرضوخ لحكمها، كما أنها تبقى الآية العظمى التي تثبت في الروع أن الناس، ومهما بلغوا من درجات العلم والمعرفة، فإنهم لا يحيطون بشيء من علم الله إلَّا بما شاء.. وهذا ما يجعل الإنسانَ مدعوّاً في كل وقت، للتوجه الدائم إلى العلم، وإلَّا فقد ميزته التي خصَّه الله تعالى بها عن سائر المخلوقات بما أودع فيه من العقل.. كما أنه مدعو دائماً وأبداً للبحث والاكتشاف حتى يهتدي إلى بعض العوالم التي تمكِّنه من معرفة عظيم صنع الله وقدرته..

ولئن قدر الإنسان أن يفقه سر معجزة الإسراء والمعراج أو لم يقدر ـ وغالب الظن أن هذا السرَّ ما زال في جوانب كثيرة منه مغلقاً على بني البشر ـ فإنها تظل المعجزة، والحدث العظيم الذي لا يمكن إنكاره، ولا التنكر له، ما دام القرآن الكريم قد أثبته وأكده بقول الله تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾
أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا
طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[1].

ولقد نزل في حدث الإسراء والمعراج التكليفُ بالصلوات الخمس حتى تكون الصلة بالله الخالق الرزاق المدبر دائمة، ما طلع نهارٌ وأقبل ليل.

ومثل الإسراء والمعراج، يؤكد القرآن الكريم حدوثَ معجزةٍ أخرى على زمن النبي ﷺ وهو في مكة.. وتلك هي معجزة انشقاق القمر، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[2] ونحن لن ندخل في تفاصيل هذا الحدث وما أعقبه من ترهات المشركين، بل نترك تقديره لكتب التفسير وما أجادت فيه بحوثها من تأكيد للمعجزة الإلهية.

من هنا لم يكن الإسراء والمعراج معجزةً أريد منها قهر الناس أو إقناعهم لحملهم على الاعتقاد بصدق نبوَّة محمد ﷺ ـ كما هي الحال مع معجزات الأنبياء الذين سبقوه ـ وإلا لكانت تلك الخارقة قد آتت أُكُلَها ولوت لها الأعناق، ولكنها حصلت في ظل الظروف الحالكة والصعبة التي كان يعيشها النبيُّ والمسلمون معه، ولاسيما المستضعفون، فشاء العزيز الحكيم أن تكون تكريماً لشخص النبي عليه السلام، وتسليةً وإيناساً له قبل كل شيء، ومن ثم مواساة

(١) سورة النجم، الآيات: ١ ـ ١٨.

(٢) سورة القمر، الآية: ١.

للمؤمنين على ما كان يحلُّ بهم.. ثم إن هذه المعجزة ـ وهذا ما يجب التوقف عنده بإمعان ـ لم يكن لها أن تعطِّل المنهج العقلي الذي اشترعه القرآن.. فقد اقترح المشركون على النبي ـ كما رأينا ـ أن يرقى في السماء، فجاء الجواب من عند الله سبحانه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾. فلما عُرِجَ به إلى السماء بعدئذٍ، لم يُذكر قط أن ذلك كان رداً على التحدي، بل على العكس، وجدنا الروايات تحدثنا عن صعوبة التصديق لذلك الحادث الغيبي والإعجازي.. وعدم التصديق هو ما دفع بالمشركين إلى مزيد من المناوأة والاستهتار، كما ردَّ نفراً من المسلمين من ضعاف الإيمان إلى الكفر!.. ومهما يكن من أمر فإن معجزة تكريم النبي ﷺ قد تركت ثمارَها في نفسه الزكية، المطمئنة إلى رعاية الخالق، فقلَّ اكتراثه لذم أهل الجهل والعنت، ثم نشط بعزم أشدَّ مضاءً إلى متابعة الدعوة التي هي مدار حياته..

على أنه سبحانه وتعالى، وإن لم يشأ ـ جلَّت قدرته ـ أن تحفل حياةُ محمد ﷺ، كنبيٍّ ورسول، بكثير من المعجزات، كما حفلت بها حياة النبيين والمرسَلين الذين كان خاتمهم، فإنه تبارك وتعالى، جعل مقابل كل المعجزات، التي حصلت في زمان معيَّن، وفي مكان معيَّن واطَّلع عليها أناسٌ شهدوا وقوعها، وعايشوا أحداثها.. أجل جعل العليُّ القدير مقابلها جميعاً معجزةً واحدة تلتصق بحياة محمد ﷺ، وتكون حيّةً أبدَ الدهر، تتحلل من قيود الزمان والمكان، لتخاطب الأزمان كلها، والخلائق كلها، إلى يوم الدين... تلك المعجزة هي القرآن الكريم القائم أبداً، الخالد دوماً، تراه وتسمعُه وتحسُّه سائر مخلوقات الأرض ما بقيت حية، فحق أن يكون المعجزة

الخالدة، التي يُقصِّر، وسوف يُقصِّر عنها الإنس والجن كافة.. لأنه ليس لمخلوق أن ينطق بقول كقول الله تعالى، ولا أن يُؤتى حكمةً وموعظة وتدبيراً هي من مثل ما أنزل الله تعالى...

لقد قضى الله المدبِّرُ الحكيم أن يكون الإسراء والمعراج في جزءٍ من ليلة واحدة. وعادَ النبي ﷺ إلى مكة يتفكَّر في السُّبل التي تمكِّنه من أن يوصل للناس هذين الشأنين العظيمَين من شؤون الله (تعالى)، اللذين أكرمه واختصه ربُّهُ بهما وحده، دون سائر عباده المخلصين. فأصبح من تلك الليلة ذاهباً إلى المسجد الحرام، يطوف، ويصلّي، ويجلس منتظراً، حتى جاء نفرٌ من قريش للتفيُّؤ في ظلال الكعبة، وكان بينهم أبو جهل، فتقدم من النبي يريد أن يمارس لعبة الاستهزاء التي ألِفها النبي ﷺ، ولكنه قبل أن يبدأ بنفث سمومه دعاه ﷺ إلى الجلوس ورفاقَهُ لإخبارهم بأمر هام ـ ربما يكون له وقْعه على نفوسهم ـ فاستجابوا من فورهم، وفي ظنهم أن الخبر قد يكون في صالحهم.. ولكنها كانت المفاجأة عندما أخذ النبي ﷺ يقصُّ عليهم كيف أسرى به ربُّهُ تعالى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى، وكيف عرَّج به إلى السماوات العُلا حتى بلغ سدرة المنتهى، إلى أن أتى على آخر ما رأى أن ينبئهم به... فبادره أبو جهل ضاحكاً: وواعجباً، ثم أصبحت بين ظهرانينا؟!.

وتبسَّم النبيُّ ﷺ وقال: نعم.

ولم يصدِّق أبو جهل، ولا أحدٌ ممَّن معه، بل تبادر الشرُّ فوراً إلى ذهنه، فظن أن الفرصة مؤاتية ليفضح «محمداً» في ما يدَّعيه، فقال له: أَوَ تخبر قومَك بذلك؟

قال النبي ﷺ: نعم.

فصاح أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلمُّوا فأَقبِلوا.

وجاء كلُّ من كان في أرجاء الكعبة، ليعرفوا ما يريد الرجل، فدعاهم للاقتراب من «محمد» حتى يسمعوا منه قولًا عجيباً!..

وأنصتَ الجميع.. فأخبرهم النبي ﷺ كيفَ أسرى به الله العلي القدير من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به حتى بلغ سدرة المنتهى، وعندها جنة المأوى..

والنبيُّ ﷺ يتحدث ويُخبر.. والكل سكوتٌ كأنما على رؤوسهم الطير، بين ذاهِلٍ ودهِش، وبين منكرٍ ومكذِّب، إلا فئة قليلة، قد آمنت بصدق ما يقول، لأنها تعرف أنَّ «محمد بن عبد الله» ما قال كذباً قطُّ، وما تحدَّث إلا صدقاً في حياته، فإذا كان لا يكذب على الناس، فهل يمكن أن يجدّف على ربِّه؟! ولا سيما أن من شيمه، ومنذ ما قبل الرسالة، الصدق والأمانة، حتى صار ـ علماً ـ الصادقَ الأمينَ؟ إذن فما يقوله «محمد» لا يمكن أن يكون إلَّا الحق والصدق، عند مَن يعرفونه حقَّ المعرفة، ومن يؤمنون به تمام الإيمان.

وسرى الخبرُ في مكة كسريان النار في الهشيم حتى وصَلَ أسماع المسلمين.. فهلّلوا وكبَّروا على ما آتى الله تعالى نبيَّه محمداً من مكرمة وعزَّة، إلَّا فئة قليلة ارتدَّت، ورفضت أن تسلِّم بتلك الخارقة، يؤتاها أحد بني البشر!. وما ذلك بمستغرب، أن ترتدَّ تلك الفئة!.. ألا ترى إلى ثمار شجرة يانعة ناضجة لا تعرف فاسدها من طيبها، فإذا هبَّت ريح خفيفة، تساقطت التي داخَلَها الفساد ـ في جوفها ـ بينما اشتدت أخواتها الصحيحة تتمسَّك بأمَّهاتها الأغصان؟..

هكذا الحركات الفكرية عندما تعصف بها الأحداث الهامة، فإما أن تزيدها قوة إذا كانت فاعلة ومؤثرة في وجودها، أو سرعان ما تؤدي إلى سقوطها إذا كانت سلبية الأثر والفاعلية في محيطها.. وهكذا أتباع كل الحركات الفكرية؛ فإن الأحداث العظيمة كفيلة بأن تفرز المؤمنين بها، عن صدق، من ضعاف النفوس الذين لا يلبثون أن يتساقطوا من جراء تلك الأحداث كتساقط الثمرات الفاسدة.

وفي الدعوة الإسلامية كان لا بُدَّ من أن يأتي الإسراء والمعراج بمثابة الهزة العنيفة، في أدق ظروف الدعوة، وأكثرها حرجاً حتى يتميّز المسلمون الصادقون، الذين سيحملون مع نبيِّهم ﷺ ـ في مواجهة الأحداث المقبلة ـ المهام الكبرى التي تفرضها الدعوة على عواتقهم. وبذلك يمحِّص الله سبحانه الذين آمنوا عن صدق، من الذين أسلموا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، فيزداد المؤمنون إيماناً، ويذهب الذين يعتريهم الشك كما يذهب غثاء السيل[1].. على أن تلك الردّةَ من أولئك البعض، وإن شكَّلَت حادثة سلبية بالنسبة للمسلمين، إلَّا أن الأمر بذاته كان له وجهٌ آخر إيجابي في حياة الدعوة. وقد أبرز هذا الوجهُ الإيجابيُّ الاعتقادَ والتصديقَ بأن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح، ولو كان بالروح، أو كان مجرد رؤيا رآها النبي ﷺ، لما كان في ذلك غرابة، ولما كان حصل الارتداد... فالإنسان العادي يرى في المنام أحلاماً عديدة ومتنوعة، وقد يرى رؤى غريبة وأحلاماً عجيبة، وهذا أمر طبيعي، لأنه لا يمكن لأحدٍ إلَّا أن تأتيه الأحلام، وهي على كثرتها، وتنوُّعها، تعبّر عن الحالات النفسية التي يعيشها كل

(١) غثاء السيل: الورق البالي الذي يجرفه السيل.

فرد من أبناء البشر، والناس ـ عادة ـ يعتبرونها مجرد أضغاث أحلام. كما أن كتب الديانات وأخبار العظماء والنسّاك حافلة بالأحلام التي يرونها!.. أما في حياة النبي محمد ﷺ فلو كان إسراؤه وعروجه روحياً فقط، أو كان مجرد منام، فما كان أسهل عليه ﷺ من أن يخبر الناس بحقيقته وبأنه أوحي به إليه، أو أنه مجرد رؤيا رآها في المنام.. ولو فعل ذلك لما أثار أية دهشة، ولا ظهرت تلك التساؤلات الكثيرة التي أدَّت إلى ارتداد جماعة كانت من المسلمين.. هذا فضلًا عن أن النبي ﷺ صادق مصدَّق، ولا يمكن أن يقول عن الرؤيا في المنام بأنها حقيقةٌ حسيَّةٌ عايشها بجميع مداركه وحواسه، وعاشها بسمعه وبصره لحظةً بلحظة، وواقعةً بواقعة في اليقظة..

ثم إن أهميّة الإسراء والمعراج، كما تبيّنهما سورة الإسراء وسورة النجم، تكمن بدلالتها على أن النبي محمداً ﷺ هو نبيُّ القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال. فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكةُ بالقدس، والبيتُ الحرامُ بالمسجد الأقصى، وصلَّى الأنبياءُ خلْفه، وكان هذا إيذاناً بعموم رسالته، وخلود إمامته، وإنسانية تعاليمه، وصلاحية دعوته على اختلاف الزمان والمكان..

لقد جاء الإسراء والمعراج ليعلن أن محمداً ﷺ ليس من طراز القادة أو الزعماء الذين لا تتجاوز مواهبُهم، وجهودُهم، ودوائرُ كفاحهم، حدودَ محيطهم، ولا تسعد بهم إلا الشعوب التي يولدون منها، والبيئات التي يعيشون فيها، إنما هو وحدَهُ كان من بين جميع الأنبياء والمرسَلين إلى أهل الأرض، الذي أرسله ربُّهُ للناس كافة، لأجل هداية الإنسانية وإسعادها على اختلاف شعوبها، وطبقاتها،

وعهودها، وأجيالها، فكان خاتمَ النبيين، وسيد الخلق أجمعين..

نعم لقد كان الإسراء والمعراج من الشؤون الربانية في حياة الدعوة الإسلامية، لأنه أكد للمؤمنين كثيراً من الدلالات والمعاني، فصدَّقوا نبيهم الكريم، والتفّوا حولَهُ دعاةً مخلصين.

أما المشركون فلم يصدِّقوا ـ وهذا شأنهم ـ ولكن بعضاً منهم، يقودهم أبو جهل، أرادوا أن يتحرّوا مدى تصديق المؤمنين لنبيّهم، فذهبوا إلى أبي بكر بن أبي قحافة يسألونه عن رأيه في ما يقوله صاحبه «محمد»، فلما أتوه قالوا له:

ـ يا ابن أبي قحافة! هل سمعت ما يقوله صاحبك محمد بن عبد الله؟ إنه يزعم بأنه أُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ثم عرج به ربّهُ إلى الملأ الأعلى في السماوات العُلا! فما تقول في ذلك؟!.

فأجابهم أبو بكر: «والله لئن كان قاله، لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه ـ من الله ـ من السماء إلى الأرض في ساعة من ليلٍ أو نهار فأصدقه فهذا أبعدُ مما تعجبون منه»[1].

وبهذا التصديق دُعي أبو بكر: الصدِّيق.

وهبَّ المشركون، وهم يتبارون في تعجيز النبي ﷺ بالأسئلة عما رأى في «رحلته العجيبة» تلك، حتى إذا تبيّن له خبثُ نيّاتهم، وخطأ ظنونهم، واعتقادهم أن ما يقوله زعْم بزعْم، أعرض عنهم. ولكن بعضهم أصرَّ على أن يقدم لهم برهاناً حسياً لا مجرد ادعاء بادعاء،

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٤٠.

فطلب منه أن يصفَ لهم بيت المقدس ـ لأنهم يعرفون بأنه لم يذهب إليه قطُّ من قبل ـ «فرفع له ـ بإذن الله ـ حتى نظر إليه»[1] فراح يصفه لهم بأدق وصف، كمثل إنسان يعيش في جنباته. فسألوا التجار ومنهم أبو بكر ـ الذين يذهبون إلى بلاد الشام وفلسطين عن صحة وصف بيت المقدس ـ كما قاله النبي ﷺ فأقروا بأنها ـ والله ـ لأوصاف بيت المقدس تماماً.. وأما علم «محمد» بتلك الأوصاف، وهو لم يدخل قط بيت المقدس من قبلُ، فهذا ما لا يدرونه ـ كما قال التجار ـ.. فكان حريّاً أن يُشكِّل بذاته معجزةً لمن حاجَّهُ أو ناقشه في ذلك!..

وحيال عدم تصديقه، فقد رأى النبي ﷺ أن يخبرهم بأشياءَ حسيَّةٍ شاهدها أثناء تلك الرحلة المباركة وهو في طريق العودة، فروى لهم كيفَ مرَّ على عيرٍ لقريش، وفيها بعير لهم نافر، فأرشدهم إلى مكانه وذلك بقوله: «وآية ذلك أني مررت على عيرٍ بالروحاء، فأنفرهم حسُّ الدابة ـ البراق الذي يركبه ـ فندَّ لهم بعير، فدللتهم عليه. ثم أقبلت، حتى إذا كنت بضَجَنان[2] مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء، قد غطوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت مما فيه، ثم غطَّيت عليه كما كان، وآية ذلك أنَّ عيرهم الآن تَصوب[3] من البيضاء[4] ثنية التنعيم[5]، يتقدمها جمل أورق عليه غرارتان[6]

(١) انظر: السيرة لابن هشام، ج٢ ص٤٠، والرواية عن الحسن بقول رسول الله ﷺ «فرفع لي حتى نظرت إليه».

(٢) ضَجَنان: جبل بناحية تهامة، على عدة أميال من مكة.

(٣) تصوب: تنزل من علٍ.

(٤) البيضاء: عقبة قرب مكة من قبل ذي طوى.

(٥) التنعيم: موضع بمكة على فرسخين منها.

(٦) الغرارتان: العِدلان من الصوف والشعر.

مخيطتان تطلع عليكم من طلوع الشمس»[1].

ورأى القوم أن «محمد بن عبد الله» يقدم لهم أدلة حسية، وشواهد مادية، وأنه يسمّي بني فلان، وبني فلان من قريش ذاتها، وأنه دلَّهم على مكان البعير النافر، وأكّد لهم المحلة التي وصلت العير إليها، وهي ثنيّة التنعيم، فلمَ لا يذهبون وينتظرون قدوم القافلة، قبل أن تدخل مكة، وتشيع بين رجالها أخبار «محمد»، فتختلط الأمور ولا تظهر الحقيقة؟ وذهبوا بالفعل ينتظرون، حتى إذا طلعت الشمس، صاحوا: هذه هي العير!.. وتقدموا فرأوا البعير الأورق في المقدمة، فلما سألوا عن البعير الشارد، وإناء الماء.. وأُجيبوا بما أخبرهم به، قالوا: صدق والله، لقد أُنفرنا في الوادي الذي ذكر، وندَّ[2] لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه.. ومع ذلك فقد أبَوا الإيمان فقالوا: «إنْ هذا إلَّا سحرٌ مبين»..

لقد عجزت عقول أولئك القوم عن استيعاب الخارقة، فادَّعوا وزعموا أن ما يقوله «محمد» هو سحرٌ.. وفي الواقع كانوا هم المسحورين.. فقد سحرتهم الوثنية بأباطيلها، مثلما سحرهم الشيطان بضلاله، فأصروا على إنكار حقيقة نبوّة محمد ﷺ وصدْق الرسالة التي يحمل مثلما يصرون الآن على ذلك العنت البغيض.. والسبب ـ دائماً ـ أن الحق الذي يحمله ﷺ، وهو الحق من ربهم وخالقهم، وبه يجبهُهُم النبيُّ الذي لا ينطق عن الهوى، قد صار كذباً في نظرهم!! ولماذا؟ لأنه نظرٌ موهومٌ أخرق، من جماعةٍ وثنيةٍ موهومةٍ خرقاءَ..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ص٤٣ و٤٤.

(٢) ندّ البعير: نفر.

فقد كذبوه وهو يدعوهم إلى صلاح نفوسهم، أفلا يكذِّبونه وهو يحدثهم عن الإسراء والمعراج، وعقولهم أقصر من أن تستوعب آياتِ الله تعالى، وعظاتِه البالغة؟

وراحوا يتقولون عنه في أرجاء مكة بأبشع الأقاويل، ويتهمونه بأشنع التهم، وأقلُّها أن ما يأتيه هو «السحر»!..

ولكنه ﷺ وهو الواثق من ربه، ومن نفسه، لم تعد تلك الأكاذيب والأباطيل لتنكّد عليه حياته، لأن همَّهُ أن يترقب قدوم الناس إلى مكة، وكلِّ مَنْ له اسم أو شرف، حتى يدعوهم إلى دين الله.. وأن ينتظر مجيءَ أيِّ قبيل من العرب حتى يعرضَ عليه الإسلام..

لقاءات مع رجال من الأوس

وإن النبي ﷺ لعلى هذا العزم ثابتٌ، وفي بحثه ساعٍ، إذا به يعرف بقدوم سُويْد بن الصامت (أخي بني عمرو بن عوفٍ ـ أحد بطون الأوس في يثرب)، وقد جاء مكةَ ليحجَّ ويعتمرَ، فيذهب إليه النبي ﷺ، ويلتقيه ثم يطلب إليه أن يستمع إلى قراءة يتلوها عليه، فيقبل الرجل، ويجلس ينصت لقرآن كريم يرتِّله رسول الله. وكان الرجل يسمى «الكامل» لجِدِّه وشِعْره ونسبه، فأعجبه ما سمع، فقال للنبي ﷺ: «والله إن هذا لقول حسَن».

ولم يُفْصح سويد عما جال في خاطره، ولم يُظهر ما خالجه من مشاعر بأكثر مما قال... ولكنَّ قوله ـ على قِصَرِهِ ـ إنما ينمُّ على أنه استحسن القرآن، وأُعجب بسمو بيانه..

وانصرف سويدٌ إلى يثرب، بعد ذلك اللقاء، وما عَرَفه قومه بعد ذلك، إلَّا وهو يردّد ما سمعه من «محمد بن عبد الله»، حتى لم يشكَّ

أحد أنه دخل في الإِسلام.. إلَّا أن العمر لم يطل به، فقد قُتل على أيدي الخزرج، قبل أن يلتقي رسول الله ﷺ مرة ثانية، كما كان يؤمل..

ولقد جاء من بعد سُويد إلى مكة جماعة من بني عبد الأشهل، (من الأوس أيضاً)، وعلى رأسهم أنس بن رافع يلتمسون حلف قريش على خصومهم من الخزرج..

أما السبب في طلب الحِلْف فهو أنه كانت بين قبيلتي الأوس والخزرج عداوة مستحكمة، يغذيها يهود يثرب، من أجل الإِيقاع بين هاتين القبيلتين ودفعهما إلى الاقتتال، كعادة اليهود الدائمة في التفرقة، وإثارة الفتن في أي مجتمع يعيشون في ظله، حتى تكون لهم اليد الطولى، في تحريكه ـ علناً وفي الخفاء ـ وتحقيق الأغراض والمآرب التي يطمعون بها..

وبالفعل فقد استمرَّ اليهود على ذلك النهج الخبيث، وهم يؤججون العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج، حتى كادت الحروب ـ مع ما توقعه من القتلى والخراب ـ أن تقضي على القبيلتين، فصارت كل واحدةٍ تبحث عن طلب النصرة من الخارج. ومن أجل ذلك جاءت الجماعة من الأوس ـ وبينهم فتى يقال له إياس بن معاذ ـ يأملون الحلف مع قريش... وعَرف الرسول الكريم ﷺ بقدومهم والغاية التي من أجلها أتوا، فذهب إليهم يعرض عليهم دعْوتَه، في جلسةٍ إيمانيّة عبقَ فيها الجوُّ بأنفاس القرآن، يرتّلُهُ رسولُ الله على مسامعهم حتى أشبعَ نفوسهم فدعاهم إلى الإِسلام.. فأجاب الفتى إياس بن معاذ:

«هذا والله خير مما جئنا له»[1].

ولكنَّ رئيس الوفد أنس بن رافع انتهرَهُ، فسكت الفتى على مضض، احتراماً لسيده الذي لم يُبدِ استجابةً لدعوة الرسول ﷺ..

ويبدو أن جماعة الأوس لم توفَّق في سعيها مع قريش، فعادت إلى يثرب لتشهد واقعة «بعاث» التي هلك فيها كثيرٌ من أشراف الأوس والخزرج، ونالهم منها ما لم تنلْه حروبُهم من قبل، حتى ضعفوا ضعفاً شديداً..

بيعة العقبة الأولى

فلما كان الموسم، الذي عقب حرب بعاث، وفيما كان الرسول ﷺ يعرض الإسلام على القبائل بـ«منًى»، التقى برهط من الخزرج عدّتُهُ ستة رجال وهم:

أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عُدَس، وعوف بن الحارث بن رفاعة (من بني النجار) ـ ورافع بن مالك بن العجلان (من بني زريق) ـ وقطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة) ـ وعقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام) ـ وجابر بن عبد الله بن رئاب (من بني عبيد)[2].

وكان من عادة اليهود في يثرب ـ وهم أهل كتاب ـ أن يستفتحوا على العرب من الأوس والخزرج ـ وهم أهل وثنية ـ بنبيٍّ قد أطلَّ زمانه، فيقولون لهم: إن نبياً يبعث الآن وسوف نتّبِعُهُ، ونقاتل معه أعداءنا، ونقتلكم قتل عاد وثمود..

---

(١) زاد المعاد، ج٢، ص٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص٧٤، والسيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٧١ و٧٢.

ويشاء العلي القدير أن تتفتَّح مغاليق قلوب هؤلاء الخزرج على نفحات القرآن المبين، وأن يستسيغوا دعوة النبي ﷺ ويصدقوه، فقالوا:

ـ هذا والله النبيُّ الذي توعَّدكم به اليهود فلا يسبُقنّكم إليه..

واستجابوا من فورهم لدعوة الإيمان، فدخلوا في الإسلام وهم يرجون أن يجمع الله بين النبي ﷺ وبني قومهم، قائلين:

ـ إن بين قومنا شراً، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا فلا رجل أعزّ منك.

لقد آمن ذلك الرهط من أهل يثرب بالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً ورسولًا، فانصرفوا إلى بلدهم، راضين مطمئنين إلى ما هداهم الله تعالى إليه. وهنالك راحوا يتحدثون عن الإسلام، وعن رسول الله ﷺ ورسالته، وأخلاقه ومناقبه، حتى عمَّت أحاديثهم يثرب، فلا يقام فيها مجلس، أو ندوة، إلَّا وفيها ذِكْر عن رسول الله ﷺ.

وحلَّ موعد الحج في الموسم التالي أي في السنة الثانية عشرة من البعثة، فجاء إلى مكة اثنا عشر رجلًا: إثنان من الأوس، وعشرة من الخزرج، وقد جمعتهم النية على الالتقاء برسول الله ﷺ، على الرغم من تفرُّقهم في العداوة. وبالفعل فقد تمَّ الاتفاقُ على أن يوافوه سرّاً إلى «العقبة»، وأن يكون ذلك أثناء الليل، حتى لا تكشف قريش الأمر، فتُفسد اللقاء.

فلما عقد الاجتماع، وأبان الرسول ﷺ ما أبان من القرآن، وأنوار الهداية، آمنوا به، واعتنقوا دينه، فطلب إليهم أن يكونوا إخوةً

مسلمين، فلا تفرق بينهم بعد عداوة أو حرب، وأن يبايعوه على عهد الدين والإيمان. . .

وكان هؤلاء الرجال سادةً في الأوس والخزرج، ومبايعتهم تعني الوثوق والحفاظ على العهد الذي يأخذونه نيابة عن بني قومهم. . فإذا كان الرسول ﷺ يطلب مسلمين من جميع الناس، ومن جميع بقاع الأرض، فإنه هنا يطلب المبايعة بياناً للشرع الإسلامي في العلاقات المجتمعية والأسرية، بحيث يحملها هؤلاء السادة إلى بلدهم، كي يقوموا بحقها خير قيام، فيعرف أهل يثرب كم هي عقيدة التوحيد عظيمة، والمناقبُ التي تقوم عليها سامية. .

وبايعوه في ذلك اللقاء على بيعة النساء، أي بيعة الموادعة التي لا تشتمل على حرب، فكانت بيعة العقبة الأولى، أي: «على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف»[1].

وقد عقد تلك البيعة السادة: عن الخزرج: أسعد بن زرارة، وعوف ومعاذ ابنا الحارث (من بني النجار) ـ رافع بن مالك بن العجلان وذكوان بن عبد قيس (من بني زريق بن عامر) ـ عبادة بن الصامت (من بني عوف بن الخزرج) وأبو عبد الرحمان يزيد بن ثعلبة (حليف لهم) ـ العباس بن عبادة بن نضلة (من بني سالم بن عوف) ـ عقبة بن عامر بن نابي بن زيد بن حرام (من بني سلمة) ـ قطبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد (من بني سواد). . ومن

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣ ص٣٠٩.

الأوس: أبو الهيثم مالك بن التيهان (حليف بني عبد الأشهل) وعيوم ابن ساعدة (من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس)[1].

ولكي يزيدهم النبيُّ ﷺ توثيقاً، قال لهم: «فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سُتِرتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذَّب وإن شاء غفر»[2].

مصعب بن عمير في المدينة

وأقام هؤلاء المبايعون في مكة، يؤدون فرائض الحج، فلما أرادوا الرجوع إلى يثرب، طلبوا من النبي ﷺ أن يبعث معهم من يُعلِّمُهم ويُفقِّهُهم بالإسلام، وهم يحسبون أنهم بحاجة إلى بعض الصحابة كي يقوموا بهذا الأمر الجسيم. ولكنَّ النبي ﷺ لم ينتدب لهذه المهمة سوى شخص واحد، إذ طلب ﷺ من مصعب بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصيّ أن يذهب معهم. وأمرَه أن يُقرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، وقال له:

«اذهب معهم يا مصعب على بركة الله»..

وامتثل مصعب لأمر نبيِّه، وارتحل مع القوم إلى يثرب ليقوم بالمهمة الجليلة التي نُدِب لها، فنزل هناك على أسعد بن زرارة، يجمع إليه الناس ويبين لهم تعاليم الإسلام، ويُقرئهم القرآن حتى سُمِّي ـ في يثرب ـ بالمقرىء.. وكان أسعد ومصعب يتعاونان على الدعوة

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٧٣ و٧٤.

(٢) انظر المصدر السابق لابن هشام ص٧٥.

إلى الله الواحد الأحد، ويجتهدان اجتهاداً شديداً في الترغيب بالإسلام، وكان لهما في ذلك أساليب لطيفة، ومداخل محببة إلى القلوب. . إذ بينما هما، ذات يوم في دارٍ لبني ظُفَر، وقد علم بهما سيدا بني عبد الأشهل؛ سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَير ـ وكانا لا يزالان على الشرك ـ قال سعدٌ:

ـ لا أبا لك يا أُسيْد، انطلق إلى هذَين الرجلين ـ يعني أسعد ومصعب ـ اللذين أتيا دارَنا ليقنعا ضعفاءنا، فازجرْهما وانهَهُما عن تسفيه معتقداتنا، فإنه لولا أنَّ أسعد بن زرارة ابنُ خالتي، لكفيتُك ذلك!. .

فأخذ أُسيْد حرْبتَه واندفع مغاضباً يريد الرجلين، فلما رآه أسعد بن زرارة مقبلًا قال لمصعب:

ـ هذا سيد قومه، قد جاءك فاصدق الله فيه. .

وبدون تحية أو سلام قال لهما أُسيْد:

ـ ما جاء بكما إلينا أيها الرجلان، اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة. . .

ورأى مصعب مقدار ما عليه الرجل من الانفعال، فأخذه باللِّين، وطلب إليه أن يهدأ، ثم قال له:

ـ أَوَ تجلس فتَسمع، فإن رضيتَ أمراً قبلتَه، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره. .

ورأى أسيد أن ما يعرض عليه هذا الرجل هو عدل، فقال:

ـ أنصفتَ. .

ثمَّ ركَّز حرْبتَه وجلس.. فأقبل عليه مصعب يتلو على مسامعه القرآن، ويكلِّمه في الإِسلام، فما عَتمَ أن قال أُسَيد:

ـ ما أحسن هذا الكلام وأجلَّه!

ويشاء السميعُ البصيرُ أنْ يهديَ هذا الإنسان، فعاد يقول: وكيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

وأقبل عليه مصعب يشرح له كيفية الاغتسال والطهارة وغيرها مما يليق بالإنسان ليُسلمَ إلى الله تعالى، ثم ينطق بشهادة الحق، بنيّةٍ صادقةٍ وإخلاصٍ لله ربِّ العالمين..

قال أسيد: ولمَ أغتسل؟.

قال مصعب: من أجل النظافة من أدران الشِّرك وأوضار الحياة، لأن ـ في ديننا ـ النظافَة من الإِيمان. والنظافةُ هي في الأصل طهارة: طهارة النفس من الشِّرك، وطهارة الجسد والثوب من النجاسة.. فمن نوى الدخول في الإسلام، وتطهَّرَ كان ذلك بدايةً لإسلامه الذي يعتقه من الجاهلية الحمقاء.

قال أُسيْد: وما شهادة الحق التي أشرتَ إليها؟

قال مصعب: تشهد بأن لا إله إلَّا الله وأن محمداً رسول الله.. ثم تعبدُ الله وحدَه لا شريك له، وتقيم الصلاة..

قال أُسيْد: وما هذه الصلاة التي يجب أن يقوم بها المسلم؟

قال مصعب: فريضة من الله (تبارك وتعالى) يؤديها المسلم بابتهال وخشوع كونه عبداً لله (تعالى)، ومن ثَمَّ ليطلب رضاه ومغفرته ـ سبحانه ـ وهذا، فضلًا عن أن الصلاة تنهى عن الفحشاء

والمنكر، وتُشعر الإنسان بضرورة القيام بواجباته ومسؤولياته في هذه الحياة!..

واستحسنَ أُسيد كلَّ ما قاله مصعبٌ، فتفكَّر رويداً، ثم قام يتحضَّر، ويدخل في الإسلام بنفس طيبة.

وتشاور أُسيدٌ مع مصعب وأسعد بن زرارة بما يقول لصاحبه سعد بن معاذ الذي بعثَهُ لينهرَهما عمَّا يفعلان.. فاتفقوا على خطّةٍ لطيفة كي يغروا أسعدَ بالمجيء، لأنه إن تبعهما لم يتخلّف أحدٌ من قومه.. عندها قام أُسيْدٌ، وذهب إلى سعد، فلما أقبل نحوه حدَّق في وجهه، وقال:

ـ أحلف بالله لقد جاءكم أُسيدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!...

ثم سأله: ما فعلتَ يا أسيْد؟

قال أُسيد: كلَّمتُ الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وما كان جوابهما إلَّا أن قالا: نفعل ما أحببت..

ثم سكت ـ عن قصد ـ.. مما جعلَ صاحبَه يستحثُّه ليُكمل، فقال: ولكن قد حُدِّثتُ أن بني حارثة قد عزموا على الخروج إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه.. ولعلَّ القوم لا يريدون إلَّا أن يحقِّروك، لأنه ابن خالتك!..

لقد أراد أُسيد أن يدفع سعد بن معاذ لملاقاة مصعب، فانبرى يتحدث ـ كما اتفق مع صاحبيه ـ عن إثارة النخوة التي تلزم بحماية الأقربين، وعن عزة النفس التي تدفع للذود عن الكرامة، التي توجب

عدم السكوت عما يدبّره بنو حارثة.. وهذا ما أثار حفيظة أسعد بن معاذ، فهبَّ مسارعاً إلى ابن خالته في دار بني ظفر. فلما وقف على الباب ورأى الجميع آمنين مسرورين أدرك الخطّة اللطيفة برمَّتها، فبادر ابن خالته قائلًا:

ـ والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة، ما رُمت هذا منّي..

ثم تابع بشيء من العتاب يقول له: أتغشانا في دارنا بما نكره؟!

فقال له مصعب:

ـ أَوَ تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبِلتَه، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره..

فجلس سعد وقد وضع سيفَهُ بجانبه، فابتدره مصعب بن عمير يقرأ عليه سورة الزخرف من القرآن الكريم، بقول الله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم».

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ۝٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1]... وظلَّ مصعب يتابع تلاوة سورة الزخرف، ويبين معاني آياتها العظام حتى فتح الله العزيز الحكيم قلب الرجل على الإيمان فقام يغتسل ويتطهَّر، ثم يعود ويشهد بأن «لا إله إلا الله وبأن محمداً رسول الله».

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١ ـ ٦.

وهكذا ومثل سريان النسيم العليل سرى الإسلام إلى نفس سعد بن معاذ، فصار يلازم مصعب بن عمير، ليلَ نهار، حتى تمكَّن من تعاليم الإسلام، فعزم أن لا يترك بني قومه ـ بني عمير بن عبد الأشهل ـ على الوثنية القاتلة.. فلمَّا استكمل استعدادَهُ، دعاهم إليه ليبيّن لهم الأمرَ الذي عزم عليه، فخاطبهم قائلًا:

يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟.

قالوا: «سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نفساً وأمراً».

ومن غير مواربة أو مداهنة أصدَقَهمُ القولَ بأنه اعتنق الإسلام، وأنه يرجو لهم الخير في قبول هذا الدين إلى أن قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله الواحد الأحد، وبرسوله محمد بن عبد الله ﷺ.

قالوا: وضِّح لنا حتى ننظر في الأمر الذي تدعونا إليه.

... ومنذ ذلك اليوم المبارك وسعد بن معاذ يعقدُ وبني قومِهِ حلقاتِ الذكر مع «القارىء» حتى أُشربت نفوسهم الإسلام، فلم يبقَ في ديار قبيلة بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلَّا ودخل في الإسلام حتى صاروا جميعاً مسلمين ـ والحمد لله ـ «إلَّا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى عام الخندق سنة خمس للهجرة»[1].

تلك أرض يثرب... أرض الصدق والإيمان والصفاء..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٨٠؛ الرحيق المختوم ص١٣٢.

الأرض التي أُعدّت ـ بفضل الله ـ لقبول الإِسلام ونصرته، تتلقى الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ فتُقبل عليها لأنه صار فيها مؤمنون من الأوس والخزرج (ابني حارثة بن عمرو بن عامر) وهم أعزّ الناس نفساً، وأشرفهم هممماً، ولم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك.

لقد استجاب جمعٌ كبيرٌ من أهل طيبة ـ البلدة الطيبة ـ إلى مصعب بن عمير، بصورة تقرُب إلى العفوية الصادقة، والتلبية المتزنة، لأنهم كانوا قوماً ذوي فطرة صافية تبحث عن الحقيقة، وتطلبها حتى تتخلص من تفاهة الوثنية، ورعونة الكفر، وحتى تنجوَ من الشر الذي استفحل في حياة القوم، فجعل أيامهم حافلةً بالحروب والاقتتال والعداوة. وكل ذلك بتحريض من بني يهود، الدخلاء ـ في الأصل ـ عليهم...

وبفعل ذلك الإِيمان الصادق كان الإقبال الشديد على دين الله تعالى، الذي من شأنه أن يقضي على تلك العداوة بين الأوس والخزرج إلى غير رجعة.. إذ عندما يدخل هؤلاء العرب في الإِسلام، وهو السلام، فإن نعيق الغربان سوف يتوقف فوق ديارهم، وتحلُّ محله أصداء الألفة، والنداء بكلمة: لا إله إلَّا الله.. فلمَ لا يُقبل الأوس على الإِسلام؟ ولِمَ لا يقبل الخزرج على الإسلام؟ ولِمَ لا تتجاوبُ أصداءُ دعوةِ الحقِ في ربوعهم، فيتذاكرونها مذاكرة لا تتصل بشرف تمسّه أو عصبية جاهلية تنصرها، ولكن بنفوس وقلوب مؤمنة لقوم يطلبون الحق والخيرَ، وأول خطواته إزالة تلك الفرقة التي كانت تشرذمهم، وتهدِّم في كيانهم!.

نعم تلك هي أرض يثرب.. وأولئك هم أهلوها من الأوس

والخزرج الذين استجابوا لدعوة الإسلام، قبل مجيء رسول الله إليهم، وقبل أن يُصبحوا الأنصار الكرام، الذين أعزَّ الله تعالى بهم الدين، وأيَّد بعزمهم رسولَه الكريم بالنصر المبين ـ كما سنرى إن شاء الله ـ.

ومرت أشهر ومصعب يعمل في المدينة بهمة لا تعرف كللًا ولا مللًا.. يتحرك بالقرآن، ويحرك أفئدة الناس وعقولهم بالقرآن.. فآيات الله تعالى تملك في بنيتها معجزة الإقناع لمن يُلقي السمع وهو شهيد. وكان مصعب يزيد سحراً في حلاوتها، وهو يتلوها بصوتٍ رخيٍّ وسط حشود الناس في الأزقة أو في داخل البيوت حتى صارت يثرب تتحرك بالإسلام.. وقد كتب إلى رسول الله ﷺ أن يجمِّعَ بهم، فأجابه ﷺ بكتاب جاء فيه: «انظر من اليوم الذي يجهر فيه اليهود لسبتهم، فإذا زالت الشمس فازدلف إلى الله فيه بركعتين، واخطب فيهم»، فجمَّع بهم مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة، وهم اثنا عشر رجلًا.. فهو أول من جمَّعَ في الإسلام جمعةً[1].

وظل مصعب مقيماً في يثرب على تلك الحال من بث الدعوة حتى حلَّ موسم الحج من العام التالي، فعاد إلى مكة مع جماعة من الأوس والخزرج، ودخل على مجلس رسول الله ليستقبله بالسلام والترحاب، ثم يسأله:

«وكيف تركتَ يثرب يا مصعب»؟

قال مصعب: تركتها إسلاماً والحمدُ لله يا رسول الله...

وعجب بعض الحضور فقالوا:

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٣، ص١١٧ ـ ١١٨.

ـ وكيف ذلك، وكنَّا منذ مدة وجيزة هناك يا رسول الله، وما زال اليهودي يهوديّاً، والمشرك مشركاً؟!

فقال مصعب:

ـ الحمد لله يا رسول الله. ما تركت بيتاً في يثرب إلَّا وفيه ذِكْر الإِسلام..

وكان حقاً ما قاله مصعب. فقد فشا الإِسلام في يثرب، وسرى نورُه في جوانبها بسرعة فائقة، مما جعلَهُ يطغَى على جميع مجالس أهل البلد فتلقى الدعوةُ التجاوبَ، ويزدادُ عدد المسلمين حتى صارت يثرب برمَّتها خليَّةً للتفقُّه بالإِسلام أو التحدث عنه..

بيعة العقبة الثانية

وكانت عودة مصعب بن عمير في موسم الحج من السنة الثالثة عشرة من البعثة، وقد أتى من أهل يثرب ـ في ذلك الموسم ـ ما تقدَّر عدّتهم بخمس مئة[1]: معظمهم من المشركين، لأن المسلمين لم يزيدوا على ثلاثةٍ وسبعين رجلًا، وامرأتين[2] (هما: أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو، ـ من بني مازن من بني النجار ـ وأسماء بنت عمرو بن عدي ـ من بني سلمة ـ). وكانت نفوس هؤلاء المسلمين مشوقةً لرؤية رسول الله ﷺ والتحدُّث إليه، لأن الاجتماع به ﷺ والتزود منه بالمعرفة فرصةٌ قد لا تسنح الظروف بمثلها، أو لعلَّها تكون فاتحة خير عليهم، وعلى بلدهم بهذا الرسول الكريم، وبهذا الدين العظيم.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج١ ـ قسم ١ ـ ص١٤٩.

(٢) زاد المعاد، ج٢ ص٧٥.

وبتلك الروح الجديدة المتوثِّبة، أقام المسلمون منازلهم في منى، مثل سائر الحجيج، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يلقاهم أنَّى يشاء... فلما جاءهم الخبرُ بموافاته ﷺ في العقبة ـ على ألَّا يعلم بأمرهم أحدٌ من المشركين ـ ناموا على عيون الناس، حتى إذا مضى ثلث الليل من أوسط أيام التشريق، بدأوا يتسلّلون إلى مكان الاجتماع، مستخفين عن الكفار من أبناء بلدهم، ومحاذرين كشْفَ قريش لأمرهم ـ كما طلب ذلك إليهم النبي ﷺ ـ.

لقد خرج أولئك المسلمون فرادى في جوف الليل، ولا همَّ لهم في الظلمة الداكنة، إلَّا أن يجمعهم نورُ الحق برسول الله ﷺ... فلما اكتمل عدد أولئك الخزرج (وكانت العرب تسمي به الأوس والخزرج) وقف عمُّ الرسول، العباس بن عبد المطلب ـ وكان قد جاء وحدَهُ مع ابن أخيه، كي يستوثق له من هؤلاء القوم ـ مبادئاً بالكلام، فقال:

«يا معشر الخزرج! إنَّ محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، فهو في عزٍّ من قومه ومنعةٍ في بلده، وقد أبى إلَّا الانحيازَ إليكم واللَّحاق بكم. فإن كنتم ترون أنكم وافُون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترَون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده»[1].

فقالوا: قد سمعنا ما قلت يا ابن عبد المطلب، ونريد أن نسمع للنبي، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربِّك ما أحببتَ[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٨٤.

(٢) المصدر السابق.

وقام رسول الهدى يحمد الله ـ تعالى ـ ويثني عليه، ويحدثهم بما بُعث به من الهدى ودين الحق، وما للإسلام من آثار عظيمةٍ في حياة بني البشر، ولاسيما ما للمواثيق والعهود من أهمية في إقامة الروابط السليمة، والعلاقات الوطيدة بين الأفراد والجماعات، من أجل بناء مجتمع إسلامي هدفه إعلاء كلمة الله تعالى.. وما زال ﷺ يشرح، ويبيّن... حتى كان الهزيع الأخير من الليل، والجميع ينصتون بكل وعي وإدراك، حينئذٍ، سألهم إن كانوا يبايعونه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم؟!...

وسكتوا يتفكّرون، لأنَّ الموقف كان دقيقاً، والسؤال حرجاً، فهبَّ من بينهم البراءُ بن معرور وقال: «نعم، والذي بعثك بالحق نبيًّا لنمنعنَّك مما نمنع به أُزُرَنا (أي نساءنَا)، فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة (أي السلاح) ورثناها كابراً عن كابر»[1].

وعادَ رسول الله ﷺ يمجّدُ ربَّهُ بالحمد والثناء، ثم يوضح بعضاً من معاني البيعة، قائلًا: «تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله ولا تخافوا لومة لائم[2]، وعلى أن تنصروني، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٨٤ و٨٥. والكابر: الجدّ.

(٢) سنن النسائي ج٧ ص١٣٨ ـ ١٣٩؛ صحيح البخاري ج٤ ص١٥٦؛ صحيح مسلم ج٢ ص١٦ و١٧.

وقام أبو الهيثم بن التيهان يستوضح عمَّا سيؤول إليه الحال مستقبلًا، فقال:

«يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال (يعني اليهود) حبالًا، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعَنا»[1]، فتبسَّم رسول الله ﷺ ثم قال:.

«بل الدمُ الدمُ، والهدْمُ الهدْمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[2].

أما ما عناه الرسول ﷺ فهو أن ذمَّتَه ذمَّتُهم، وحرمتَهُ حرمَتُهُمْ، وأنه معهم في الحرب والسلم، وفي الشدة والرخاء، وفي الهزيمة والنصر.. وعلى أيّ حال كانوا، ما داموا حافظين للعهد، وناصرين لدين الله تعالى.

وأدرك العباس بن عبادة بن نضلة ـ أخو بني سالم بن عوف ـ خطورة الموقف، فوقف يخاطب القوم:

«يا معشر الخزرج!.. هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، وعلى حرب ملوك الدنيا. فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالُكم مصيبةً، وأشرافُكم قتلًا أسْلَمْتُموه، فمن الآن فدَعوه. فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٨٥.

(٢) السيرة لابن هشام، المصدر السابق (ويروى أيضاً «بل اللدم اللدم، والهدم الهدم. فاللدم ـ جمع لادم ـ أهله الذي يلتدمون عليه إذا مات، وهو من لدمت صدرها، إذا ضربته. انظر السيرة لابن هشام ج٢ هامش ص٨٥.

نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة»[1].

لقد أراد العباس بن نضلة أن يظهر للقوم جسامةَ الأمر الذي يُقدِمون عليه، وأن ينذرهم بضرورة التمسك بالميثاق الذي يقيمونه على أنفسهم.. ولكن عبد الله بن حزام، وأسعد بن زرارة، وأبو الهيثم بن التيهان، اعترضوه، وقالوا له: «ما لكَ وللكلام ـ يا هذا ـ؟! ثم قالوا لرسول الله: يا رسول الله، بل دمُنا بدمك، وأنفسنا بنفسك، فاشترط لنفسك، ولربك ما شئت»[2].

ومن ثَمَّ كان الموقف الواحد، الذي أعلنوه صراحةً:

«فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَينا بذلك؟!»[3]..

قال الرسول ﷺ: «الجنة»[4].

وتمت الموافقة على مبايعة رسول الله بالإجماع، فطلب ﷺ أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً[5] ليمثِّلوا القوم، ويكونوا المسؤولين عن العهد الذي يعطونه. فاختاروا تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

---

(١) راجع: السيرة لابن هشام، المصدر السابق ص٨٨ و٨٩، والصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣ ص٣١٦ و٣١٧.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج٢ ص٤٥٠؛ البداية والنهاية ج٣ ص١٦٢؛ السيرة النبوية لابن كثير ج٢ ص٢٠١ وغيرها..

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٨٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) سئل علي بن عثّام: لم سُموا نقباء؟ قال: النقيب: الضمين، ضمنوا لرسول ﷺ إسلام قومهم فسموا بذلك نقباء (انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر، ج٩ ص٢٣٨).

وتقدم هؤلاء النقباء وبسطوا أيديهم، فبسط الرسول العظيم يده، وبايعوه:

«على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى قول الحق، والقيام لله، لا تأخذهم في الله لومة لائم»(١).

هؤلاء هم الأنصار

وهنا توجَّه الرسول ﷺ إلى النقباء الاثني عشر فقال لهم:

«أنتم على قومكم بما فيه كفلاء ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، قالوا: نعم»(٢).

وهكذا ومنذ هذه البيعة (المعروفة ببيعة العقبة الثانية) صار المسلمون في يثرب أنصار محمد ﷺ كما كان الحواريون أنصار عيسى ابن مريم ﷺ. وفي هؤلاء الأنصار، الذين كانوا أهل النصرة حقاً وفعلًا لدين الله ـ تعالى ـ ولرسوله محمد عليه السلام أنزل المولى تبارك وتعالى قرآناً كريماً بقوله العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾(٣). وبقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾(٤).

---

(١) الرحيق المختوم، ص١٣٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٨٨ (عن ابن إسحاق، عن: عبد الله بن أبي بكر).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٧٤.

أجل لقد تمت بيعة العقبة الثانية في جوف الليل، وعلى غفلة من قريش، والجميع يحرصون على ألَّا يطَّلع أحدٌ على سرِّهم إلَّا الله سبحانه وتعالى. ولكنَّ قريشاً لم تكن غائبةً تماماً عن مسرح الأحداث في مكة، إذ كانت تبثُّ حول النبي ﷺ الجواسيس والمخبرين، يترصدون حركاته، ويُراقبون اتصالاته، وبخاصة الاتصال بالوافدين إلى مكة من غير أهلها.. لذلك فإن النبي ﷺ عندما خرج مع عمِّه العباس بن عبد المطلب إلى شِعب العقبة، كان أحد أولئك الجواسيس قد تبعَهُ واختبأ وراء صخرة يتنصَّت، ليعرف ما يدور بين النبي ﷺ وأهل يثرب. وظلَّ في مكانه حتى اكتمل عقد البيعة، فقام ينسلُّ بهدوء حتى لا يفتضح أمره، ولكنَّ المسلمين انتبهوا إليه وهو يفر راكضاً، فأرادوا اللِّحاق به، ولكنه ﷺ منعهم من ذلك..

وخشيَ بعض المبايعين من عملٍ طائشٍ تُقدم عليه قريش، إلَّا أنَّ العباس بن نضلة، قطع على القوم أيَّ شكٍ أو خوف وهو يعبّر عن عزمهم وبأسهم بقوله:

«يا رسول الله، والله الذي بعثك بالحق، إن شئتَ لنميلنَّ على أهل منًى غداً بأسيافنا»[١].

ولكنَّ رسول الله ﷺ أجابه: «لم نؤمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»[٢].

ورجع أولئك الأباة الأشاوس[٣] إلى مضاجعهم، غير هيَّابين،

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص٩٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأشاوس: الأقوياء الأشداء.

لا من قريش، ولا من غيرها، فهم أهل الوَغى[1]، وقد ضرستهم الحرب بأنيابها[2]، فلا يبالون بمن يناصبهم العداء..

عاد المبايعون من الأوس والخزرج، من شعب العقبة إلى منازلهم في منى، ليستغرقوا في النوم هانئين، راضين.. وقد جرى كل ذلك والمشركون من أهل بلدهم لا يعلمون به.. لا بما دار في تلك الليلة عند العقبة، ولا بما فعله المسلمون من أبناء قومهم.

فلما طلع الصباح جاءت جماعةٌ من زعماء قريش يعاتبون الخزرج على ما فعلوا، وهم يقولون:

«يا معشر الخزرج إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة، وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا، وأيم الله ما حي من العرب أبغض إلينا من أن ينشب بيننا وبينه الحرب منكم»[3].

وبُهِتَ مُشركو الخزرج، وراحوا يؤكدون لزعماء قريش أنه لم يحصل شيء مما يقولونه لهم. ولكنَّ أولئك القرشيين لم يقتنعوا، فذهبوا إلى زعيم الخزرج عبد الله بن أبي بن سلول، يسألونه عن حقيقة ما جرى في الليلة الفائتة، فدهش ذلك المشرك، كما دهش غيره من قبل، وجعل يقول: «هذا باطل، وما كان هذا وما كان قومي ليفتئتوا أو ليقدموا على مثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني»[4].

---

(١) الوغى: ساحة الحرب.

(٢) أي تمرسوا بها من كثرة ما أصابتهم بالبلايا.

(٣) زاد المعاد، ج٢ ص٧٥.

(٤) المصدر السابق.

ولما أيقن أهل البيعة أن قريشاً ما زالت تتقصَّى الحقيقة، ولسوف تصل إلى جلية الأمر، إن عاجلًا أو آجلًا، ولئلّا ينشب قتال ما بين يثرب ومكة، وقد منعهم الرسول ﷺ عنه، قاموا يستعدون للرحيل، ثم قفلوا راجعين إلى بلدهم مسلمين لله ورسوله..

وتأكدت قريش من خبر البيعة، فسارعت جماعةٌ منها لمطاردة المسلمين، وإعادتهم إلى مكة، فأدركوا سعدَ بن عبادة، والمنذرَ بن عمرو (من بني ساعدة بن كعب). أما المنذر فقد استطاع أن يفلت من القوم بعد أن أعجزهم أمرُه، بينما ألقوا القبض على سعد بن عبادة (أحد نقباء الخزرج)، وهو ما يزال قريباً من مكة، في مكان يسمى أذاخر. واقتادوه ويداه مغلولتان إلى عنقه، وأدخلوه مكة مكتوفاً، وهم يضربونه وينتهرونه.. ولكنه استغاث بجبير بن المطعم، وبالحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، إذ كان يجير لهما مَنْ يَخرجون في تجارتهما إلى الشام، حين مرورهم بيثرب، فجاء هذان الرجلان، وخلَّصاه من أيدي بني قومهم.

إسلام عمرو بن الجموح

واستجابت يثرب بعد العقبة الثانية إلى الإسلام، إلَّا مَن أصرَّ البقاء على الشِّرك، ونفسه تنازعه متردداً مثل عمرو بن الجموح ـ من بني سلمة ـ الذي كان قد اتخذ في داره صنماً من خشب أسماه «مناة»، «كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلهاً تعظّمه وتطهره»[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص٩٥.

فلما أسلم فتيان بني سلمة، ومنهم ابنه معاذ، وكان قد شهد العقبة فكان يأتي كلَّ ليلةٍ وبعض الفتيان إلى صنم أبيه، فيطرحونه في مكان الأوساخ، فإذا أصبح عمرو، وذهب إلى صنمه، صرخ مولولًا: ويلكم مَن عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ ثم يأخذ صنمه، فيغسله ويضع عليه الطيب قبل أن يردَّه إلى مكانه.

وطال هذا الأمر حتى تعب عمرو بن الجموح، فجاء أخيراً بسيف وعلّقَهُ في عنق الصنم، وهو يقول: إن كان فيك خير فامنع نفسك الليلة!.

ونام عمرو كعادته، فجاء الفتيان فأخذوا السيف وربطوا بدلًا منه كلباً ميتاً، ثم حملوا الصنم وألقوه في بئرٍ مهجورة.. وطار صواب عمرو وهو يفتقد صنمه في الصباح فلا يجده، وكم كانت دهشته كبيرةً وهو يراه محطماً في البئر، وقد علق به كلب ميت، مما جعله يعود إلى رشده، فيخاطب ذاك الصنم قائلًا:

والله لو كُنتَ إلهاً لم تكُنْ ... أنتَ وكلبٌ وسطَ بِئْرٍ في قرَنْ[1]
الحمد لله العليِّ ذي المِننْ ... الواهبِ الرزّاقِ ديّانِ الدِّيَنْ
هو الذي أنقَذَني من قبلِ أنْ ... أكونَ في ظلمةِ قبرٍ مرتَهَنْ
بأحمدَ المهدي النبيِّ المؤتمنْ

وآمن عمرو بن الجموح من تلقاء نفسه، ودخل في الإسلام عن قناعة...

هذا في ناحية يثرب..

---

(١) في قرن أي مقترنين أنت والكلب.

أما في مكة فقد بات مؤكداً لقريشٍ أنَّ الأوس والخزرج قد بايعوا «محمداً» وناصروه، فصاروا حلفاءه في الدعوة التي يحمل. وإنَّ من شأنِ هذا الحلف أن يُضيع تلك الجهود المضنية التي بذلتها خلال ثلاث عشرة سنة، للقضاء على هذه الدعوة، أو على الأقل لجعلها محصورة في دائرة مكة فلا تتعداها، ولا تنجرَّ إليها العرب.. أما الآن وإزاء حلف «محمد» وأهل يثرب، فأية جهود قد تفيد أو قد تنفع؟.

ألم تتفتح أمام «محمد» السبل، وتشرّعْ له المجالات، لِيخرج من نطاق دائرته تلك إلى حيث يمكنه إقامة قوة تهدد قريشاً، وتقضي على جميع أحلامها في غلبته، والإجهاز على دعوته؟.

ولكن ماذا يمكن لقريش أن تصنع بعد؟

وهل أمامها إلَّا الاندفاع في إيذاء المسلمين؟..

لا بأس، وليكنْ... فقد صار أمراً عادياً، يواجهه المسلمون كلما طلع عليهم صباح أو هبط ليل. إلَّا أن الشدَّة التي راحت قريش تجابههم بها الآن قد فاقت كل أنواع العذاب، وكل أساليب الظلم التي عهدوها في السابق، بل إن ما تقوم به من أذى بحق المسلمين خلال هذه الفترة القصيرة منذ البيعة، يعادل أذاها خلال سنوات عديدة. ولكن ما العمل الذي يمكن أن يقوم به المسلمون والرسول ﷺ يعلن لهم دائماً أنه لم يؤمَر بعدُ بالمقاومة أو القتال؟!.

ولم يكن ليغيب عن بال النبي ﷺ، بعد افتضاح أمر العقبة الثانية، ما سوف تُقدم عليه قريش من قسوة وظلم واعتداء.. وهو الآن يرى ـ كما قدَّر ـ أن المعركة التي تشنها عليه، وعلى المسلمين، هي أشد من كل ما مضى، وقد جعلتها قريش معركة حياة أو موت..

ولكن ما ظن هذه الفئة الباغية من بني قومه؟

ألا تعلم أن الغلبة سوف تكون، ولا ريب، لأولياء الله المخلصين؟

ولكن مثل هذه الغلبة يلزمها تفكير وتدبير. . وهو لن يألوَ جهداً في تقدير ما يمكن أن يعملَهُ كي يستطيع قهرَ هؤلاء المعاندين الذين يقفون حجر عثرة في سبيل نشر الإسلام، وانطلاقِه إلى مداه الأرحب. .

الهجرة إلى يثرب

القرار بالهجرة

وبكل حكمةِ الأنبياءِ وأناتِهم، وبكل تقديرِ الرسُلِ واحتسابِهم، صمَّم الرسول الأعظم محمد بن عبد الله على القيام بما يحقق له الإفادة التامة من حلفِهِ مع يثرب، ورأى أن الخير كل الخير في هجرة المسلمين إلى بلد المأوى والنصرة..

الهجرة إلى يثرب؟! نعم من أجل خلاص المظلومين وانعتاقهم، وهو من الأولويات المنظورة، عسى الله أن يقيّض في ذلك البلد، فيما بعد، ما يمكنه من تركيز نواة لدولة الإسلام وسؤدده!.. ولذلك جمَعَ بعض الصحابة، وأمرهم بأن يبلِّغوا جميع إخوانهم بقراره في الهجرة إلى يثرب، حيث لهم إخوة في الدين، يُعِزُّونهم، وينصرونهم، ويذودون عنهم بدافع الإيمان الصادق، والعقيدة السامية. ولكن! ليكن الخروج خفيةً، حتى لا تثور ثائرة قريش، وتحول بينهم وبين خروجهم..

وبدأ المسلمون يهاجرون في الخفاء، فرادى وجماعات، امتثالًا لأمْر رسول الهدى، وطلباً للأمن والإيمان.. إلا أن قريشاً كشفت أمرهم، وعرفت تدبير نبيّهم، فاندفعت تحاول منعهم من ترك مكة،

وتردُّ كلَّ من تستطيع ردّه أو تحبس كلَّ من تقدر على حبسه، فتنزل به أشد العذاب، علَّهُ يرتدُّ عن دينه.. وقد بلغ برجالاتها الظلم أن كانوا يحولون بين الزوج والزوجة، فلا يدعونها تخرج معه إذا كانت قرشية، وأن يفرضوا على كل من لا يرغب في البقاء ـ تحت سيطرة قريش ـ إعطاءهم ثروته، وما كسبه في حياته.. ومن قبيل ذلك:

ما حدث لأم سلمة وزوجها وابنها[1]، إذ تروي قصتها، فتقول: لما أزمعَ أبو سلمة الخروج إلى المدينة حملني على بعيره ومعي ابني سلمة في حجري، ثم خرجنا، فلما رآنا رجال بني المغيرة من بني مخزوم تقدموا منا وقالوا لأبي سلمة: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ ثم نزعوا خطام البعير[2] من يده فأخذوني منه.

وعرف بنو عبد الأسد ـ رهط أبي سلمة ـ فجاؤوا بني المغيرة وقالوا لهم: لا والله لا نترك ابننا معها، إذ نزعتموها من صاحبنا.

وتتابع أم سلمة قائلة: واختلف القوم، وما زالوا يتجاذبون ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد. أما بنو المغيرة فقد حبسوني عندهم، بينما ارتحل زوجي أبو سلمة إلى المدينة، بعد أن فرَّقوا بيننا.

وانقضت على أم سلمة سنة وهي تبكي، فرقَّ لها أحد ذويها، وطلب أن يخلّوا سبيلها، فذهبت واسترجعت ابنها من عصبته، ثم خرجت تريد المدينة، فلقيَها وهي بالتنعيم عثمان بن طلحة بن أبي

---

(١) انظر في رواية أم سلمة: السيرة لابن هشام، ج٢ ص١١٢ و١١٣.

(٢) الخطام: حبل يجعل في عنق البعير.

طلحة، فحملَها وابنَها حتى أنزلهما بقرب قرية بني عمرو بن عوف بقباء، فجمعها الله، تعالى ـ إلى زوجها. . .

أما ما كان مع صهيب بن سنان فهو أنه لما أراد الهجرة، قال له كفّار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالُك عندنا، وبلغتَ الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟

قالوا: نعم.

قال: إني قد جعلت لكم مالي.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»[1].

هذان نموذجان عن فعال قريش وغطرستها، واستبداد زعامتها الحاقدة. .

ولكن، على الرغم من ذلك التعدي الكبير من قريش على المسلمين وإيقاعها بهم، فقد ظلَّت هجرتهم تتتابع إلى يثرب حيث ينزلون على إخوتهم في الدين، الذين هبّوا يشرّعون الأبواب لاستقبالهم. ونعطي بعض أمثلة عن نزول المهاجرين على الأنصار للتدليل على مدى الأعباء التي تقبّلها هؤلاء بكلِّ رحابة صدر، وطيبة خاطر. . والاحتفاء بهم. . يقدّمون لهم الطيبات، ويبذلون في سبيلهم، الأموال، راضين، قانعين، حيث فتح الله تعالى للمهاجرين أبواب رحمته، فبدَّل خوفهم أمناً، وذُلَّهم عزاً، وهوانهم كرامة. ولقد

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٢١.

منَّ الله عزَّ وجلَّ عليهم بهذه النعمة، إذ يقول تبارك وتعالى:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾(١).

وهكذا نزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخوه زيد بن الخطاب، وعمرو وعبد الله ابنا سراقة، وخنيس بن حذافة السهميّ ـ وكان صهر عمر على ابنته حفصة ومن بعد وفاة خنيس تزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ ومن لحقهم من أهليهم على رفاعة بن عبد المنذور بن زنْبر في بني عمرو بن عوف بقباء، ونزل حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وأبو مرتد كناز بن حصن وابنه مرتد، وأنسة وأبو كبشه (موليا رسول الله) على أسعد بن زرارة.. ونزل عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وأخوه الطفيل، ومسطح بن أثاثة، وسويبط بن سعد، وطليب بن عمير، وخباب مولى عتبة بن غزوان على عبد الله بن سلمة،، بقباء.. ونزل عبد الرحمان بن عوف في رجال عديدين على سعد بن الربيع، ونزل عثمان بن عفان على أوس بن ثابت بن المنذر، أخي حسان بن ثابت في دار بني النجار...ومثلهم نزل غيرهم في منازل المسلمين من أهل يثرب، الذين كانوا يشعرونهم بأنهم ليسوا مهاجرين بل بين أهليهم وذويهم..

لقد جمعهم الإيمان الصادق، مهاجرين وأنصاراً، ومحبةُ الله ورسوله قد فاضت عليهم جميعاً، فأنزل الله تعالى آيات قرآنية كريمة، تحمدهم، وتعدهم بالخير والرحمة بقوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وتوالت هجرة المسلمين من مكة حتى خلت نواحيها من دبيبهم، وهُجِرتْ دورٌ بأسرها وأُغلِقَتْ أبوابها، وغدت تصفرُ فيها الرياح، كما جرى لدور بني جحش، وبني مظعون، وبني البُكَير، التي هجرها سكانها ـ جميعهم ـ رجالًا ونساءً... وها همُ: عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، (وأبو جهل)، يمرّون ـ وهم يصعدون إلى أعلى مكة ـ بديار بني جحش، فيقف عتبةُ متأمّلًا، وهو يراها خافقةً أبوابُها[2]، وليس فيها ديّار، فيتمثل بقول الشاعر[3]، وكأنَّما يُريدُ أن يتنفَّسَ الصعداءَ، قائلًا:

وكل دار وإن طالت سلامتُها يوماً ستُدركها النَّكْبَاء والحُوبُ[4]

فالتفت أبو جهل، إلى العباس وقال له: هذا عمل ابن أخيك «محمد» فرّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وقطَّع بيننا!.. وسكت العباس على مضضٍ وتابعوا سيرهم، وليس لهم حديث إلَّا عن هجرة المسلمين..

وكان النبي ﷺ ما يزال على حركته الدائبة، وهو يحضُّ المسلمين على ترك مكة حتى لم يبق فيها إلَّا أولئك الذين لم تمكّنهم

---

(١) سورة الحشر، الآيتان: ٨ و٩.

(٢) خافقة أبوابها: كناية عن فراغ البيوت. وليس فيها ديّار: وليس فيها ساكن.

(٣) قال ابن هشام: وهذا البيت لأبي داود الإيادي في قصيدة له.

(٤) الحوب: التوجع.

الظروف من الهجرة، أو الذين حبسهم المشركون كرهاً، وهم قليل، كما ظلَّ إلى جانب النبي ﷺ كل من علي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق (رضي الله عنهما)[1] وبعض من قرابتهما وذلك بأمر من النبي ﷺ!.

وما كان لأحد أن يعرف ما قرَّره النبي ﷺ لنفسه، فكان أبو بكر يأتيه مستأذناً في الخروج، فلا يزيد ﷺ على أن يقول له:

«لا تعجل لعلَّ الله يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر أن يكونه[2]، أي يطمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه. وإنَّ هذا التكتُّمَ من النبي ﷺ قد أزعج قريشاً كثيراً، وأوقعها في حيرة، فلا تدري ما تفعل حياله؛ فقد كانت تأمل أن تنتهي من أمره ـ بطريقة أو بأخرى ـ وتعود إلى سابق عهدها من الرخاء والهناء، .... أما الآن وفي هذا الجو الملبّد بالغيوم الداكنة، فإن زعماءها خائفون.. أجل خائفون من خروج «محمد» إلى يثرب، حيث يمكن أن تصيرَ له قوة يستطيع معها مداهمة مكة، وغلبتهم على أمرهم، ولاسيما أن نصرتَهُ من أولئك الخزرج ـ أهل الحرب والقتال ـ ستكون العامل الحاسم في هزيمتهم.. وعلى فرض أن «محمداً» قد لا يخطط لمهاجمة مكة، فإنه سوف يعمل على قطع الطرق على تجارة قريش، فتحل بها المجاعة!...

هكذا صارت الأفكار تتلاعب بقريش!.. فهي تخاف أن يجمع النبيُّ قوةً لقتالها، كما تخاف أن يقطع طريق تجارتها إذا ما استقرَّ به المقام في يثرب!... ونحن نقول بأنَّ ما فكّرت فيه قريش كان في

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٤.

محله فيما لو فكّر النبي ﷺ بذلك، ولئن فعل فلا أحد يلومه.. ألم تقم قريش من قبل بفرض الحصار عليه، وعلى أتباعه، وأهله من بني هاشم وبني المطلب، فبقوا في شعاب مكة ثلاث سنين بكاملها، حتى لاقوا خلالها أشدَّ ألوان الهوان والحرمان؟.

ألم تصادر الأموال، وتستولي على الدور لتترك المسلمين نهباً للجوع والفقر والمهانة؟ أليست قوافل قريش وتجارتها مصدر القوة التي تحارب بها المسلمين؟! فهل تجيز لنفسها ذلك كلَّه وتأبى على «محمد» شيئاً منه؟

ولكن، في الواقع، هل يُقدم لنبيٍّ الرحمة على تجويع مكة، ولو كانت فيها قريش عدوَّةَ الدين؟!..

خسِئتْ قريش في تفكيرها الأرعن..

فما بالُ دُهاتها قد نسوا محمد بن عبد الله الإنسان الشريف، الفاضل، الذي لم يُقدم يوماً في حياته على عمل إلَّا وكان فيه خير للناس؟ ثم ألم يعرفوا جميعُهم ما يتحلى به هذا الإنسانُ من الصفات الحميدة، والخصال السامية، وهي كفيلة بذاتها أن تبقيَه في المقام الأسمى من قريش، وغيرها؟.

وما بال هؤلاء الدهاقنة قد تناسَوا أنه سليل بني هاشم، الذين كانوا يطعمون الناس في سنوات الجدب حتى يمنعوا عنهم غائلة الجوع، ويحموهم من الموت؟!.. فهل يُعقل أن يُقدم هذا النبيل الأشمُّ، وهو من تلك السلالة الطيبة على تجويعهم، وهم ـ على الرغم من شِركهم، وجهالتِهم ـ ما زالوا أبناء عشيرته الأقربين؟!

وهل أظلمت بصائرهم إلى هذا الحد، حتى جهلوا أن رُسل الله

لا يَظلِمون، ولا يستغلُّون، فكيف بسيد الرسُل محمد بن عبد الله، حبيب الله ـ تعالى ـ ورسوله المصطفى، ونجيّه المجتبى؟.

لقد خسئت قريش حقاً في ظنونها وأوهامها... فهذا الإنسان الذي شهد له ربُّ العرش العظيم بأنه على خلُق عظيم، وهذا النبي الذي أرسله الله ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة مهداة للعالمين، لن يفعل إلَّا ما تمليه واجبات الدعوة ومقتضياتها... إنه يحمل الإسلام إلى الناس، ويبلِّغ عن ربِّه ما فيه هدايتُهم وخيرهم، فمن اهتدى فله الجزاءُ الحسن، ومن ضلَّ فإنَّ جهنَّمَ هي المأوى.. وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

إنَّ أبالسة قريش لا يحبون أن ينظروا إلى «محمد» الإنسان في إنسانيته، ولا إلى «محمد» النبي في نبوَّته، ولا إلى «محمد» الرسول في رسالته.. كل ما يريدونه، ويجهدون في سبيله أن يحاصروه بالعداوة والبغضاء، ويحيطوه بالسوء والإيذاء ـ كما فعلوا منذ مبعثه ـ وها هم الآن، وعلى الرغم من غطرستهم وعنفوانهم، يخافون منه أشد الخوف..

قرار قريش باغتيال «محمد ﷺ»

وهذا الخوف هو الذي أوقعهم ـ بل أوقعوا أنفسهم ـ في أزمة.. والأزمة ـ في نظرهم ـ باتت هجرة المسلمين إلى يثرب... أما السبب فهو «محمد» وحده، الذي أوقعهم في هذه المشاكل كلها!.. إذ لولا «ادعاؤه النبوّة» لما حصل شيء مما يعانون!..

وتتابعت تلك الأزمة، تعصف بحياة قريش على امتداد بضعة شهور، حتى تنادت زعامتها الضالة إلى اجتماع في دار الندوة ـ التي

هي في الأساس دار قصيّ بن كلاب، أحد أجداد رسول الله ـ من أجل التشاور في الرأي، وتقرير ما يتوجب عليهم حيال «محمد» وخصوصاً في أمر إخراجه أو إبقائه.

واجتمع أقطاب الكفر وعلى رأسهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري بن هشام، وطعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر، والنضر بن الحارث، وأبو الأسود ربيعة بن عامر، وحكيم بن حزام، وأبو جهل (عمرو بن هشام)، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف «وغيرهم ممن لا يُعدّ من قريش»[1] وراحوا يستعرضون الحلول التي تريحهم من «محمد بن عبد الله»، وتكفل لهم القضاء على الدعوة التي يحملها.

فاقترح أبو البختري بن هشام: أن يلقوا القبض على النبيِّ ﷺ، وأن يحبسوه ويكبّلوا يديه ورجليه بأصفادٍ من الحديد، حتى يموت داخل السجن.

فقالوا: ما هذا برأي، لو حبسناه فإن دعوته ستبقى، يثِب علينا أهلوه وأتباعه من أجل إطلاق سراحه بالقوة..

فاقترح ربيعة بن عامر: أن يخرجوه من مكة منفيّاً عنها، من غير أن يبالوا أين وقع... فالمهم أن يغيب عنهم، ولا يبقى بين ظهرانيهم..

ولكنهم عدلوا عن أمرٍ كهذا لأنه الأمر الذي يصبو إليه «محمد» بعد أن غدا له أنصار كثيرون في ذلك البلد الذي يضاهيهم أهله بالقوة والمراس على الحرب والقتال..

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٢٥.

وهنا اقترح أبو جهل طريقة للتخلص من «محمد»، وذلك بأن يقتله جماعةُ أفرادٍ من بطون قريش، فيضيع دمُه في قبائلها، ولن يكون للهاشميين ولبني المطلب قدرة على معاداة كل القبائل، وإلَّا دارت الدائرة عليهم. ولذلك فإنَّ من المرجّح أن يسكتوا عن قتْله ويقبلوا بالدية، فتستريح قريش إلى الأبد من هذا الذي أقضَّ مضاجعها، وسلب من جفونها النوم، ومن حياتها طعم الراحة.

وارتاحت قريش إلى الأمل الذي كان يراودها منذ سنوات طويلة، عندما قرر أخيراً زعماؤها الحاقدون أن يجري اغتيال النبي ﷺ، وهو ينام، تلك الليلة، على فراشه في بيته.

وتفرَّق سادة الكفر والشِّرك[1]، وهم يحسبون أن الأمر قد بات على وشك النهاية.. فإنْ هي إلَّا بضع ساعات، وسوف يُقتل «محمد» فتموت معه دعوته، وينتهي أثرها، ويتفرق أتباعُه، فلا يجد المهاجرون مناصاً من العودة إلى بلدهم وقومهم، والرجوع إلى عبادة الآلهة التي «صبأوا» عنها.. كما تعود لقريش الآمالُ والأحلامُ التي كاد «محمد» أن يزهقها، ويقضي عليها داخل صدورهم!.

وعلم النبي ﷺ بالمؤامرة، وما بيّتَ قومه لقتْله، فبعث إلى ابن عمِّه علي بن أبي طالب أن يأتيه على جناح السرعة.

وجاء عليّ، ودخل على النبي ﷺ فوجده على قرآنه قائماً، يتلو

---

(١) ورد في «زاد المعاد» أن الذين اجتمعوا على دار النبي ﷺ لقتله، هم: أبو جهل، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة ابن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبيّ بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج (انظر زاد المعاد، ج٢ ص٧٧).

ويرتِّل آيات ربِّه تعالى، والنور ينبعث من وجهه الكريم، ويعلو قسماته الطاهرة الارتياح والاطمئنان..

وجلس عليٌّ فأدناه النبيُّ ﷺ منه، وقرَّبه إليه، ثم أسرَّ في أذنه بأنه يريد الهجرة إلى يثرب، وأن عليه مهامَّ جسيمة، يخلفه فيها في مكة...

ولم يسأل عليٌّ عن أية مهمة قد يكلفه بها رسول الله، فقد كان على استعداد لتلبية أوامره مهما كانت، ولتنفيذ مطالبه مهما صعبتْ وعزّت... فأخبره النبيُّ بأنّ عليه القيام بثلاثة أمورٍ وهي:

ـ النوم في فراشه الليلة (تماماً كما كان يفعل عليٌّ، عندما كانوا محاصرين في الشعاب، بأمر من أبي طالب رحمه الله).

ـ وأداء الأمانات لأصحابها، وهي كثيرة.. (إذ كان أهل مكة ما زالوا يستودعونه أماناتهم، على الرغم من عداوتهم له، ومحاربته في دعوته.. فيا لمفارقات قريش التي تشي بذبذبة تفكيرها، وتأرجح تصرفها)!..

ـ واستخلافه على الفواطم، وتدبير أمر هجرتهنَّ بعد خروجه ﷺ.

مبيت علي في فراش النبي ﷺ

كان الرسول الأعظم قد فكَّر في عمل يموِّهُ به على قريش، ساعة يخرج من مكة، فرأى أن يؤوي أحداً إلى فراشه، ليوهمَ قريشاً بأنه ينام ـ كعادته ـ في منزله... ولما كان لا بد من إنسانٍ يحبُّ الله ورسولهُ، بحيث يكون له أسمى المقام في الوفاء والإخلاص

والتضحية، فلا يبخل أن يجود بنفسه فداءً لرسول الله ﷺ ولدين الله (تعالى)... ولما كان لا بد من أن يكون هذا الإنسان في أعلى درجات الشجاعة ورباطة الجأش، بحيث لا يتشبَّت بالحياة في آخر لحظة فيكشف عن شخصيته ـ وبذلك يُفسد الخطة التي أعدَّها النبيُّ ﷺ، ويتيح للمتآمرين المجال لملاحقته، قبل أن يتدبَّر أمرَهُ في مكان للاختباء... من أجل ذلك كله، اختار النبيُّ ﷺ عليّ بن أبي طالب لأنه على يقين بأنه هو الإنسان الوحيد الذي تجتمع فيه كل الشروط المطلوبة للقيام بعملية المبيت والفداء.. إذ لم يكن في المسلمين، من يماثله في حبِّه وإخلاصه للنبي ﷺ، وفي حبِّه وإخلاصه للدين الإسلامي، وإلَّا لما كان هو وحده ـ من بين جميع المسلمين ـ الذي اختارَهُ النبي ﷺ، لتلك المهمة الجسيمة، التي يتوقف عليها نجاح خروج النبي من مكة ومهاجرته إلى يثرب..

وكان أمر النبي بالمبيت، عندما قال لعليّ:

«نم على فراشي، وتوشَّح ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»(١).

وصدع عليٌّ رضي الله عنه بالأمر الرسولي من دون رهبة أو وجل.. فلم يتسلل إلى نفسه شبحُ الخوف، ولم تتطرق إلى مخيلته صورةُ سيوفِ قريش وهي مشرعة فوقه، وتهمُّ بالانقضاض عليه، بل تراءى له أمر واحد فقط، وهو نجاة النبي ﷺ، وخلاصه من كيد الكافرين.

لم ينشغل بالُ علي رضي الله عنه في تلك الساعة، إلا بنجاة حبيبه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢ ص١٢٦ و١٢٧.

رسول الله ﷺ فارتمى عليه يقبِّله، ويأسف لعدم مرافقته في الطريق، حتى يذود عنه.

وقام النبي ﷺ إلى صندوق أماناته يعطيها إلى ابن عمه علي حتى يؤدّيها لأصحابها. ثم أشار عليه أن يخرج على عيون الناس، وألَّا يعود، إلَّا وهو يحاذر أن يراه أحد..

وهكذا حصل، فقد أمضى علي عليه السلام بياض ذلك النهار بين الناس قبل أن يعود ويدخل دار النبي ﷺ بمنأى عن عيون قريش. وقد جاء يدنو منه، ويأنس بحديثه، ويتزوَّد بنصائحه، حتى جن الليل، فاندس عليٌّ عليه السلام في فراشه، ثم ألقى عليه بردته، وكأنه استسلم للنوم!..

وكان النبي ﷺ في تلك الأثناء، قد أوى إلى ركن في إحدى حجرات داره، دونما حركة تدلُّ على وجوده، اللهمَّ إلَّا ما تراه عيناه، وهو بين الفينة والفينة، يتطلع إلى الخارج فيرى تلك الجماعة من رجال قريش المتآمرين، وقد أحاطوا بدارته من كل جانب، مدججين بسيوفهم وحرابهم، يترصدون كل حركة حول المنزل، أو في داخله. وكانوا ينظرون من فُرجة إلى مبيته، فيرون في الفراش رجلًا نائماً، فيطمئنون إلى أنه «محمد»، وأنه ينام كعادته قرير العين، لا يدري بما يجري من حوله، وما بيَّت له القوم من أمرٍ للقضاء عليه!...

وبقي النبيُّ ﷺ في مكانه حتى كان الثلث الأخير من الليل، فقام متوكِّلًا على الله ـ عزَّ وعلا ـ وغادر منزله في غفلة من تلك المجموعة الباغية التي ندبتها قريش لمحاصرته، وأعدَّتها لقتله، وهو يقرأ من القرآن الكريم قول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(١).

وكان النبي ﷺ قد أعدَّ قبضةً من تراب، فنشرها عندما خرج صوب المتآمرين. وهو يدعو ربه ويقول: «شاهَتِ الوجوه وأغشيت الأبصار».

...وذلك تقدير العزيز الحكيم، فقد أغشيت الأبصار فعلًا، وشاهت الوجوه حقاً، وجُعل بينهم وبين النبي سدٌّ، فلم يروه ولم يبصروه وهو يخرج من بينهم و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢).

وذهب النبي ﷺ في ظلمة الليل إلى بيت أبي بكر الصديق، فلما فتح الباب ورآه، سأله بلهفة: ما الأمر يا رسول الله؟.

قال الرسول الكريم: إن الله تعالى قد أذن لي في الخروج..

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله.

قال النبي ﷺ: الصحبة.

واطمأنت نفس أبي بكر الصديق، وبان له الآن قصْدُ النبيِّ ﷺ عندما كان يذهب إليه ويستأذنه في الهجرة، والنبي ﷺ يطلب إليه ألَّا يعجل عسى أن يجعل الله له صاحباً..

---

(١) سورة يس، الآيات: ١ ـ ٩.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.

وقام الصدّيق يدبّر الشؤون على عجل، ويوصي أهل بيته بالتكتم وعدم البوح لأحد بأمر خروجه مع النبي ﷺ، ثم غادرا من باب خلفي ليبتعدا عن مكة قبل طلوع الفجر.

الفشل الذريع للمتآمرين

واتخذ النبيُّ ﷺ الطريق المؤدي إلى اليمن، في جنوب مكة، تعميةً لقريش حتى لا تتمكّن من اللحاق به وإدراكه عندما يتكشَّف لها خروجه. وذلك في الوقت نفسه الذي همَّ رجال قريش باقتحام داره، والدخول عليه لقتْله ـ وهم يظنون أنه هو النائم في فراشه ـ ولكن يشاء ربُّ العزة والجلال أن يسمعوا صوت امرأة تتكلم في الدار، فتأخذ الحميةُ أبا لهب (هذا العم الذي قد جاء مع الزمرة اللعينة لقتل ابن أخيه) وتدفعه لأن يقف حائلًا دون دخولهم إلى البيت خوفاً على الذراري والصبيان من يدٍ خاطئةٍ قد تصيبهم!...

وكأنما هاجت بهم النخوة ـ في غفلةٍ من كُفرهم ـ فقالوا متلاومين:

ـ والله إنها للسُّبة في العرب أن يُتحدث عنَّا أنَّا تسوَّرنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا..

ولكنها لم تكن الحمية، ولا النخوة، بل تلك هي مشيئة الله العلي القدير، أن تختلف تلك الجماعة بعضها مع بعض، فيمتنعوا عن الدخول إلى بيت رسول الله ﷺ، ويبقوا منتظرين حتى مطلع الصباح، ليكون له ﷺ متسع من الوقت، ويصل إلى مكان ينوي الاختباء فيه، قبل أن يبدأوا البحث عنه...

فلما تنفس الصبح وانكشف الظلام، اقتحم رجال قريش دارة

النبي ﷺ، وأسرعوا إلى فراشه ليقتلوه، ولكن المفاجأة كانت كبيرة عندما رأوا علي بن أبي طالب يثب من الفراش، ويتصداهم في وجوههم، وهو يصرخ فيهم قائلًا: ما شأنكم يا هؤلاء؟

قالوا: أين محمد؟

قال: أجعلتموني عليه رقيباً؟ ألستم قلتم: نُخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم!..

وظنَّ رجال الغدر من قريش أنها مؤامرة دبَّرها أبو لهب في ليل، حتى يخلِّص ابن أخيه من القتل، فبعث إليه من يخبره بأمرهم، ثم راح يدّعي النخوة على النساء والصبيان حتى أمكن لمحمد الهرب!... فهمّوا به يريدون قتْله، ولكنهم عدلوا عن ذلك، واكتفوا بالإهانات والشتائم التي ترذله، وهم يقولون له:

ـ أنت تخدعنا منذ الليل..

وكان أول ما فعلته قريش صباح ليلة تنفيذ المؤامرة، وحينما تأكد لها خروج محمد ﷺ، أنهم أخذوا علياً إلى الكعبة وحبسوه ساعة وهم يتوعدونه بالقتل، علَّهم يظفرون منه بخبر الطريق الذي ذهب فيه «محمد»[1]، حتى إذا يئسوا، أفلتوه والحسرة تأكل أكبادهم، فأعلنوا على الفور أنهم سيدفعون مائة ناقة مكافأةً لمن يردُّ «محمداً» عليهم. ثم أعدوا فرسانهم لملاحقة النبي ﷺ، وإلقاه القبض عليه، قبل أن يصل يثرب التي لا شك في أنه يقصدها، كي ينضمَّ هناك إلى المسلمين..

---

(١) الرحيق المختوم، ص١٤٩، عن: رحمة للعالمين ج١ ص٩٦.

التخفي في غار ثور

أما النبي ﷺ فإنه كان يعلم أن قريشاً ستجدُّ في طلبه على طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالًا، فآثر أن يسلك الطريق المضادّ له، وهو الطريق الواقع جنوب مكة في طريق المنحدر منها إلى اليمن، كما أشرنا إليه، فانطلق فيه مع صاحبه حتى بلغا سفح جبل ثور فصعدا فيه ليبلغا الغار في أعلاه الذي كان النبي ﷺ يقصده أحياناً للتأمل والانقطاع عن الناس قبل بعثه الشريف. وهذا الغار عبارة عن كهف ضيق لا تزيد مساحته على مترين ونصف المتر المربع، جعله الله ـ تعالى ـ في جوف صخرة ضخمة وتغشى داخله ظلمةٌ خفيفة، يدخله القاصد من فرجةٍ لا تزيد على نصف المتر بغير مشقة، وتقابلها فرجة أخرى ضيقة لا تتسع لجسم الإنسان. وقد دعي بغار ثور نسبة لثور بن عبد مناة لأنه وُلد عنده.

وبالفعل فقد جدَّت قريش في ملاحقة النبي ﷺ وتوزع رجالها في عدة اتجاهات، وأخذوا معهم القافة[1]، ومن بينهم رجل من خزاعة يسمى أبو كرز فسار يتعقَّب أثر النبي، حتى استطاع أن يميز آثار قدميه على الأرض، من آثار قدميْ شخص آخر يرافقه، فاتبعها حتى وصل إلى غار ثور، فقال: ما جاوزا هذا المكان، فإمَّا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو أنهما دخلا تحت الأرض..

وكانت لحظة من أدق اللحظات، وقفت فيها ملائكة السماء تتطلع إلى الأرض، فإذا بأمِّنا الغبراء تحبس ـ هي الأخرى ـ الأنفاسَ،

---

(١) القافّة: مقتفو الأثر.

لأن ما يتقرّر في هذه اللحظة قد يكون: إما شقاء الناس، وإما بزوغ فجر جديد على الإنسانية، فيه تتفتح آفاق العقل والشعور ليدرك الإنسان الحقائق التي تدل على عظمة الخالق، وعلى سمو خلق الإنسان.. نعم لقد حبست الأرض أنفاسها لئلَّا يتغلب الكفر على الإيمان، والباطل على الحق، فكانت تلك اللحظات رهيبةً في عمر الزمان.. وفي داخل الغار كان العرق يتصبَّبُ من أبي بكر، وهو يسمع ما يقوله أبو كرز فيخاف من أن تقتحم عليهما العصبة المطاردة مخبأهما، ولكنه لا يجد إلَّا أن يُمسك أنفاسه، ويبقى بلا حراك، وهو يسلِّم أمره لله العلي القدير..

وراحت تلك الزمرة تدور حول الغار، منهم من يعتلي فوق صخرته، ومنهم من يحدّق في فرجتيه من الجانبين. وبعضهم يذهب بعيداً عنه، حتى إذا لم يجدوا شيئاً، قالوا: ولمَ لا ننظر في الغار؟.

وأية حماقة في ولوج هذا المدخل الضيّق، والعناكب قد نسجت خيوطها على هذه الفرجة، فلا يمكن أن يدخله أحدٌ دون أن تتبدَّد تلك الخيوط الواهية التي تؤلف بيتاً للعنكبوت. ثم إن على الفرجة الأخرى حمامتين قد عشَّشتا وباضتا في عشَّيهما، فهل يُعقل أن يدخل «محمد» هذا الغار، وتبقى خيوط العنكبوت وعشُّ الحمامتين تغطي الفتحتين؟ لا، إنَّ هذا لمن المستحيل.

الكافرون في الخارج يبحثون، والله تعالى يمنعهم من الدخول إلى الغار... أما في الداخل فرسول الله ﷺ يصلّي، ويدعو الله سبحانه أن يكفَّ شرَّ المعتدين، وقد ورد في الصحيحين أن أبا بكر قال: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا.

فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن! فإن الله معنا»[1].

... وبعد أن أعياهم البحث، انصرف رجال قريش، وهم على قناعة تامة بأنه لا فائدة من البحث في تلك الناحية، لأنه لا أثر يدل على أن أحداً دخل هذا الغار منذ زمن طويل!.. حتى إذا اختفت أصواتهم، ولم تعد تسمع لهم حركة، قال رسول الله ﷺ: الحمد لله، الله أكبر..

وفي مؤامرة قريش لقتل النبي محمد ﷺ نزل قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].

وفي قصة الغار نزل قوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

تُرى من هم جنود الله الذين نصَّ عليهم الذكر الحكيم، والذين أيَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهم رسوله الكريم، فلم يرَهُم كفار قريش؟..

---

(١) زاد المعاد، ج٢، ص٧٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

إن من جنوده ـ سبحانه ـ العنكبوت، الحشرة الضعيفة الواهية الخيوط التي لاحظَّ لها من قوة، ولا شأن لها من مقاومة، قد بعثها خالقها وأمرها فنسجت خيوطها على إحدى فرجتي غار ثور!..

ثم إنَّ من جنوده ذلك الطائر اللطيف الخفيف، الحمامة التي عششت، وباضت على الفرجة الأخرى للغار وبأمر ربِّها كذلك!...

بل وإنَّ من جنود الله ـ سبحانه ـ هذا النبات الذي ارتفع وتشابك بفروع يابسة أشبه بالهشيم، تلفُّهُ خيطانُ العنكبوتِ ويعلوهُ الغبار!... وحتى هذا الغبار هو من جند الله ـ عز وجل ـ، إلى جانب ملائكته الذين سخَّرهم لحفظ رسوله، ورصَدَهم لحمايته ورعايته، ومحالٌ على الناس أن يروهم.. أجل، كلُّ أولئك هم الجنود، الذين أيَّدَ الله تعالى بهم محمداً ﷺ وهو في الغار، كما يخبرنا العزيز الجبار في كتابه القرآن، وذلك التأييد لأجل تعمية الكفار الباحثين عنه، فلا يصلون إليه بمكروه...

إن على الناس أن يدركوا بأن الخلائق كلها: الملائكة في السماء، والجن أينما وُجدت، والبشر، والطير، والنبات، والحشرات، وحتى الجماد، والماء والهواء والغازات كلها جنود لله تعالى.. بل وهذه الكواكب والنجوم التي نراها بالعين المجردة، أو التي نرى أضواءها بالآلات الحديثة، ومَن عليها وما عليها، كلها جنود لله تعالى. فكل المخلوقات إن هي إلَّا جنود لخالقها، وهو ـ جلّت عظمته ـ يسخّرها بأمره، ويُسيّرها بإرادته كيف يشاء.

ولعلَّ في الأمثلة التي يعظُنا بها كتاب الله المبين ما يُغني:

ألا ترى ـ في ما خص الحشرات ـ كيف أن الله تعالى أوحى

للنمل ـ كما ورد في سورة النمل من القرآن الكريم ـ أن تتحدث عن النبي سليمان وجنوده، وهو يسمع حديثها، ويفقه كلامها، فيشكر الله تعالى على ما أنعم عليه من معرفة لغة تلك الحشرة؟.

ألا ترى إلى الريح كيف سخَّرها الله تعالى لسليمان عليه السلام تسير بأمره، وتنقله كيف يشاء؟.

ألا ترى إلى الطير والجبال وهي تسبح مع داود عليه السلام بحمد ربهم والثناء عليه جلَّ جلاله؟

ألا ترى إلى الجبل كيف يتصدّع وينهار أمام عيني موسى صلى الله عليه وآله وسلم عندما طلب أن يرى الله ـ تعالى ـ جهرةً؟

ألا وإنه ما من مخلوق في السماوات والأرض إلَّا ويسبح بحمد الله تعالى، ويمجدُهُ في عليائه.. إلَّا الذين كفروا وألحدوا من أهل الأرض، فإنهم يكتبون شهادات ظلمهم لأنفسهم بأحرفٍ من نارٍ تحرقهم في الآخرة..

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

ولقد كان خليقاً بقريشٍ أن تدرك عظمة الله ـ جلَّ جلاله ـ في كل شيء يحيط بها، وأن من آيات الله الدّالة، وبراهينه الثابتة، بعثَ محمد صلى الله عليه وآله وسلم رسولًا للناس كافة. فما كان أجدرها أن تعي آلاء الله تعالى، وأن تؤمن برسالة الإسلام التي يحملها محمد صلى الله عليه وآله وسلم! ولكنها أبت إلَّا أن تنالَ منه، وتحاول قتْله، ولِمَ؟ ألأن الله ربَّهُ، وربَّ قريش، وربَّ العالمين قد أرسله بالهدى ودين الحق؟! أم لأنَّ عَرَض الحياةِ الدنيا قد طغى على عقولها وقلوبها فأعمى منها البصيرةَ وشوّه فيها الفطرة؟!

فهل أرادت قتله لأنها لا تريد نبياً، ولا رسولًا يهديها إلى أن تكون عبادتهم عبادة الأحرار وإيمانهم إيمانَ الأبرار؟! بل شاءت أن تبقى على عبادة الوثنية، وهي عبادة الفجّار.. إلا أن «محمداً» هو وحده من دون رجالاتها الذي يدعو إلى دين العزة والكرامة؟! أجل، إن ما فعلت قريش ينبىء بأنها أرادت عبودية الذل والهوان، وأبت إلَّا أن ترفض دعوة الله ـ عز وجل ـ وأن تصرّ على قتل هذا النبي الذي جاء يهديها إلى الحق المبين، ولذلك جندت كل طاقاتها، وحشدت كل إمكاناتها في سبيل العثور عليه قبل أن يفلت من يدها!.. وقد أرسلت القافة (القصاصين) في كل ناحية يتلمسون آثارَه، ويتعسَّسون أخباره، ولكنها لم تظفر من جهودها بطائل...

لم تقدّر قريش بأن محمداً ﷺ سيُفلت من يديها، أو أنها يمكن أن تُخفق في إعادته إليها وقد جنَّدت كل رجالاتها لذلك! فكان من الطبيعي أن تُمنى بهزيمة وخيبة أملٍ كبيرتين، بعدما أعياها التعب وظهر فشلها... ودون أن تفكِّر ـ ولو قليلًا ـ بأن هنالك مانعاً يمنع «محمداً» منها!... وهل أحدٌ غيرُ ربِّه (سبحانه وتعالى) الذي أيدَهُ بجنودٍ لم يروها كان مانعَهُ وحاميَه؟!.

إن هذا التأييد الرباني هو الذي جعل النبي ﷺ وصاحبه ينعمان بالهدوء والسكينة، وهما ينتظران في جبل ثور حتى تأتي الأخبار من مكة، وكان أول بشائرها قدوم علي بن أبي طالب، وبرفقته ابن خالة النبي ﷺ هند بن أبي هالة، وقد عرفا بمكان مخبأ الرسول ﷺ من عامر بن فهيرة ـ مولى أبي بكر ـ الذي كان يرعى غنمه في شعاب مكة، وقد ساقها إلى الجبل نزولًا على أمر رسول الله ﷺ.

والتقاهما النبي ﷺ يسألهما عمّا وراءهما، فأخبراه بخيبة قريش، فأمر النبي ﷺ هنداً أن يبتاع له بعيرين. فقال أبو بكر الصديق: قد كنت أعددتُ لك ولي يا نبي الله راحلتين، نرتحلهما إلى يثرب، فرفض النبيُّ ﷺ أن يأخذهما، أو يأخذ إحداهما إلَّا بالثمن. ونزل أبو بكر الصديق عند رأيه، فأمر النبيُّ ﷺ عليّاً فأقبضه الثمن، ثم قال لعليٍّ:

«إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا عليّ بأمر تكرهه حتى تُقدِم عليَّ. فأدِّ أماناتي، على أعين الناس ظاهراً. وإني مستخلفُك على فاطمة ابنتي، ومستخلف ربي عليكما ومستحفظُه فيكما». ثم أمره أن يبتاع رواحل له وللفواطم: فاطمة بنت النبي ﷺ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم (أم علي)، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب.. وعادَ فأمره، مؤكداً عليه، أن يقوم صارخاً في الأبطح غدوة وعشية:

«من كان له قِبَلَ محمدٍ أمانة أو دَينٌ فليأت لتُردّ إليه أمانته»..

ودام التخفِّي في غار ثور ثلاث ليال: ليلةَ الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد[1] كان خلالها عبد الله بن أبي بكر يُمضي في قريش نهاره، ويسمع ما يأتمرون وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ، ثم يأتيه في المساء فيخبره الخبر.. وكان عامر بن فهيرة يرعى غنمَ أهل مكة، فإذا أمسى أراحَ غَنمه بجوار النبي ﷺ وصاحبه فاحتلبا. فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي[2] عليه.. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست، بما يصلحهما.

---

(١) العسقلاني، فتح الباري، ج٧ ص٣٣٦.

(٢) يعفي عليه: يغطي أثره.

.. لقد ثارت قريش وأعياها الجهد في البحث عن النبي ﷺ. فلما استولى عليها اليأس، وفلَّ عزمها الإخفاقُ، توقفت عن البحث، بعدما أيقنت أنه لا يمكن أن يكون «محمد» قد بقي في مكة أو في جوارها، بل صار بعيداً عنها، ولا تدري بأي أرض يكون...

وبمرور اليوم الثالث عرف النبيُّ ﷺ أن قريشاً قد سكنت عنه بعضَ الشيء، فأُتيَ إليه بالبعيرين، وحملت أسماء بنت أبي بكر الطعام له ولأبيها، فلما همَّ بالارتحال ولم تجد ما تربط به الزّاد ولا القربة، على جنب الراحلة، شقت نطاقها وعلَّقتْهما بنصفه، وتمنطقت بالنصف الآخر، «فلذلك لقِّبت: ذات النطاقين»[1].

الرحيل إلى دار الهجرة

وحانت ساعة الهجرة، فوقف رسول الله ﷺ يتطلع إلى مكة بنظرة ملؤها الأسى، ثم قال: «والله إني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحبُّ أرض الله إلى الله، وأكرمها على الله.. ولولا أن أهلَكِ أخرجوني منك ما خرجت».. وقال ﷺ: «اللهم إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحبِّ البلاد إليَّ، فأسكنِّي أحبّ البلاد إليك»..

وأرخى الليل سدوله، وكان الوقت في مستهل الشهر القمري، فما إن غابت الشمس حتى كسا الظلام البادية، فانطلق الركب على اسم الله تعالى وبركته، ووجْهتُه يثرب، المدينة التي أرادها رسول الله ﷺ دار هجرته..

---

(١) زاد المعاد، ج٢، ص٧٧.

. . . لا همَّ أن يُخرج المشركون الرسول الأعظم من بلده، فكل البلاد هي أرض الله (تعالى) وذلك تصديقاً لقوله العزيز؛ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1] . . وكل خروج للنبي من مكة لن يكون إلَّا في مصلحة الدعوة التي يحملها هذا الرسول بشيراً ونذيراً للعالمين بألَّا يعبدوا إلَّا الله الواحد الأحد، فإذا حالت رعونة المشركين في مكة دون إيفاء عبادة الله ـ تعالى ـ حقَّها، وكان لا بدَّ من الخروج، فإن ذلك من أجل أن تجد الدعوة سبيلها في أرض الله الواسعة . .

ولقد كانت مغادرة النبي ﷺ غار ثور ليلة الاثنين ٤ ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة لمبعثه، (الموافق ٨ أيلول سنة ٦٢٢ ميلادية)، وقد اتخذ إلى يثرب دليلًا له عبد الله بن أريقط الليثي (أحد بني الدّيل)، وكان لا يزال على شِرْكه، إلَّا أن النبي ﷺ وثق به، وأمن من غدره لأنه كان يعوِّل على ما في طبع العربي من الحفاظ على كلمة شرف يعطيها . . وقد وعدَه الرجلُ بأن يكون دليلًا صادقاً، ويبذل تجاهه كل ما لديه من خبرة واسعة في طرق الصحراء . . . وبالفعل فقد سلك بالنبي ﷺ وبصاحبه دروباً غير مألوفة، إذ أمعن في اتجاه الجنوب بأسفل مكة، ثم توجه غرباً نحو شاطىء البحر الأحمر، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالًا محاذياً للشاطىء مع الابتعاد عنه شيئاً فشيئاً، لكي يتخذ في النهاية سبيلًا قلَّ أن يطرقَه أحدٌ! . . .

وأمضى النبيُّ ﷺ والصدّيق طيلة ذلك الليل، وصدر نهاره على

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

راحلَتيهما، لا يعبآن بمشاق السفر، ولا بمصاعب طرق الصحراء، بقرِّها وقيظها، وبجفافها وبقساوتها، فالغاية في سبيل الله (تعالى) سامية، والتعب والشقاء من أجل الحق هيِّنان.. ولكن لا بدَّ من قيلولة تعيد للمهاجرين أنفاسهما، فاختار رسولُ الله ﷺ صخرة كبيرة، يستروحان في ظلها بعض الراحة مما أصابهما في سيرهما المتواصل منذ مساء البارحة. وفيما هما يَقيلان، رآهما من بعيد رجلٌ من بني مدلج كان ذاهباً إلى مكة. فلما وصلها ورأى أنَّ قريشاً منهمكةٌ في البحث عمَّن يقدر أن يتعقّب النبي ﷺ أعلن بأنه رأى ركباً ثلاثة في محلة كذا.. ولعلَّه يكون «محمداً» وأصحابَهُ.

وسمع سُراقة بن مالك بن جُعْشم ما قاله هذا الرجل، فأومأ إليه بعينيه أن يسكت، ثم حاول أن يضلِّل القوم، فقال: «بل فلان وفلان خرجا في طلب حاجة لهما»[1].

وأما السبب فهو أن سراقة كان من ذوي النفوس التي يغريها الكسب المادي، ولو جاء عن طريق الجريمة. وقد أراد أن يفوز بمغنم النوق المائة، التي أعلنت عنها قريش جائزةً لاسترداد «محمد»!... فأسكت الرجلَ، وموَّه على القوم، ثم لم يلبث أن قام إلى بيته، يتدجج بسلاحه، ويبعث بفرسه إلى بطن الوادي، حتى لا يراه أحد وهو يخرج من مكة.

واندفع سراقة يريد اللحاق بالنبي ﷺ، حتى إذا قطع مسافة طويلة، كبتْ به فرسُه[2] وهو يجدّ في ركوبها، وكاد يسقط تحتها لولا

---

(١) زاد المعاد، ج٢، ص٧٨.

(٢) كبت الفرس: وقعت.

أن تدارك نفسه، وقفز عن ظهرها، فوقف هنيهة يلتقط أنفاسه، ثم عاد يمتطي هذه الفرس، ويعدو بها بأسرع من ذي قبل، تحت تأثير ضربات سوطه، حتى عادت وعثرت مرةً أخرى، ولكنه لم يأبه، بل راح يشتدّ بانطلاقه، علَّه يدرك «محمداً» وصاحبه فيردهما إلى مكة، أو يقتلهما إن قاوماه. ! . . .

وأبصر سراقة من بعيد رجالًا يحتمون بفيء صخرة، فلزَّ[1] فرسه لزةً أخيرةً، وقد بدا له أنه نال الظفر، ولكن الفرس ما كادت تتقدم بضع خطوات إلى الأمام، حتى عثرت عثرة كبيرة هذه المرة، جعلتها شبهَ هامدة في أرضها، بينما كان فارسها قد سقط عن ظهرها وهو يتدحرج بسلاحه. . وقام ذلك اللعين يلملم نفسه من جديد، ثم أخذ بلجام فرسه يشدها به إلى أن قامت من رقدتها، فركبها، ولكنها لم تتقدم إلَّا بضع خطوات وغاصت أرجلها بالرمل وكبت برأسها إلى الأمام، فهوى مجدداً عن ظهرها، إلّا أنه لم يحفل بل استوى قائماً، يريد أن ينفض عنه غبار الأرض، فيتراءى له وكأنَّ هذا الغبار يستحيل دخاناً كثيفاً، ينتصب أمامه ويتطاول نحو السماء، مثل المارد! . . . فأجفل سراقة لهذا المشهد، وداخَله خوف شديد منه، بخاصة أنه قد تملّكه شعور رهيب بأن الله مانعُه من إدراك ضالته، وأنَّه إن أصرَّ ممعناً، فإنه معرض نفسه لخطر قاتل. . . وزاد في رهبته تعثر فرسه به طوال الطريق، وهو الفارس الذي لم يكبُ به جواد ركبه قطُّ، فكان كل ذلك كافياً لأن يجعل هذا الرجل يعقل ويتعظ، فوقف ونادى:

---

(١) لزّ: شدّ.

ـ يا كرام الناس! أنا سراقة بن مالك، انظروني أكلِّمكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه..

فقال له عبد الله بن أريقط:

ـ وماذا تبغي منا؟

قال: يا محمد! ادعُ الله أن يطلق فرسي فأرجع عنك وأردَّ من ورائي، واكتب لي كتاباً أبقيه لنفسي. فقال النبي ﷺ: «اللهم إنْ كان صادقاً فأطلق له فرسَه»، فخرجت قوائم الفرس، ثم أمر ﷺ أبا بكر أن يكتب له كتاباً، فأخذه وعاد أدراجه إلى مكة يثبِّط عزيمة رجال قريش، وهو يقول لهم: ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ها هنا، وقد عرفتم بصري بالأثر، فرجعوا عنه.

ولقد ظلَّ سراقة محتفظاً بالكتاب حتى كان فتح مكة، فلحق برسول الله وهو في الجعرانة، فدنا منه ورفع الكتاب وقال:

ـ أنا سراقة بن جعشم يا رسول الله، وهذا كتابك لي.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا يوم وفاء وبرّ، أدنه»[1].

ويذكر أن سراقة بعد أن أسلم، سأل الرسول ﷺ، قائلًا: يا رسول الله، الضالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال ﷺ: «نعم، في كلّ ذات كبدٍ حرّى (عطشى) أجر»[2].

وتتابعت مسيرة تلك الهجرة المباركة، في أرض تُهامة، وكان

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج٢، ص١٣٥. أدنه: قرّبه.

(٢) المصدر السابق.

أكثر سير الركب في الليل، احتماءً من لظى الهاجرة المحرقة، ولأن في الليل ابتعاداً عن الناس، وعن غدر قريش وصلافتها (قسوتها وكبريائها)، فلا ترى المهاجرَيْن العيونُ، ولا تلحقهما الفرسان، أو يتعقبهما الباحثون.. ومن مدهشات تلك الرحلة أن الظلمة كانت تغطي الآفاق أثناء المسير، فكانت الرواحل لا ترى طريقها بوضوح، حتى لتكاد تتعثَّر في أكثر من موضع.. ولكنَّ رحمة الله تعالى، وعينَه الساهرةَ على نبيِّه، هما الضمان البالغ له، يحميانه من صعاب الطريق وعثراتها، ومن وحوش الفلاة الكاسرة وهجماتها، ومن الحشرات القاتلة وغدراتها، فلا يتعرّض الركب لأي خطر، أو أذى، اللهمَّ إلا وعثاء السفر، وهي مقبولة، ما دامت الهمم عالية، والثقة بالله تعالى كبيرة..

وخلال الطريق، مرَّ الركب المحمّدي على خيمة امرأة تدعى أم معبد الخزاعية (واسمها عاتكة بنت خالد) كانت تطعم وتسقي من مرَّ بها، ولذلك أخذها الحزن عندما سألها هذا الركب عن شيء عندها، فقالت: «والله، لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى، والشاة عازب»[١] فالسنة كانت جدباً، والقومُ مرملين[٢]، مسنتين[٣]..

ورأى النبي ﷺ شاةً واقفة بجانب الخيمة، فسأل المرأة، «ما هذه الشاة يا أم معبد؟».

قالت: «شاة خلَّفها الجهد عن الغنم».

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٧٨.

(٢) العازب: البعيد عن المرئي

(٣) مرملين: كناية عن شدة الفقر ولا يملكون إلا الرمل، مسنتين: أي في سنة قحط والمراد يعانون القحط والجدب.

فقال عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام: «هل بها من لبن؟».

قالت: «هي أجهد من ذلك».

فقال ﷺ: «أتأذنين لي أن أحلبَها».

قالت: «نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها».

فمسح الرسولُ ﷺ ضرعها، وهو يسمي باسم الله (تعالى). ثم دعا بإناء واسع، وحلب فيه حتى امتلأ، وعلتْه الرغوة، وأم معبد واقفة تنظر، ولا تصدق عينيها، وهي تقول في نفسها: كيف لهذه الشاة أن تحلب، وهي أضعف الغنم، حتى أنها لم تقو على أن تسرح في البادية مع الغنم الأخرى؟. وكيف تحلب هذه الشاة وهي لم تلد هذا العام، بسبب الجفاف والجدب اللذين أفقدا الماشية العشب والمرعى؟.

وأبى رسول الله ﷺ أن يشرب قطرة واحدة قبل أن يرتووا جميعاً. فلما شربت أم معبد حليباً طازجاً نقياً لم تذق مثل طعْمه من قبل، عاد رفيقا الدرب فشربا من ذلك الحليب، حتى جاء دور النبي ﷺ فارتوى مثلهم من الخير الذي أفاضه الله تعالى على يديه. ثم عاد فملأ الإناء ثانية من ضرع تلك الشاة وأعطاه لأم معبد، وهي تودعهم بالخير، وجاء في المساء الزوج أبو معبد أكثم بن عبد العزى بن معبد بن ربيعة، يسوق غنمه وأعنزه الضامرة، الهزيلة، فقامت إليه زوجه تستقبله باللَّبن، فعجب وقال لها:

ـ من أين هذا يا أم معبد؟ ولا شيء منه في البيت، والشاة عازبُ، ولا حلوبة في رحلنا؟.

قالت: «لا والله، إلَّا أنَّه مرَّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا»[١].

قال: «والله إني لأراه مباركاً كما تقولين، صفيهِ لي يا أم معبد».

فقالت: «رأيت رجلًا ظاهر الوضاءة، أبلج[٢] الوجه حسن الخلق، لم تُعبْه ثُجلة (ضخامة البطن)، ولم تزر به صعلة (صغر الرأس)، وسيم قسيم[٣] في عينيه دعج[٤]، وفي أشفاره وطف (كثرة الشعر)، وفي صوته صحل وفي عنقه سطع، (طويل العنق)، أحور أكحل، أزج (دقيق الحاجبين طويلهما)، أقرن[٥]، شديد سواد الشعر، وفي لحيته كثافة، إذا صمت علاه الوقار، وإذا تكلَّم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حلو المنطق، فصل لا نزر[٦]، ولا هذر[٧]، كأنَّ منطقه خرزات نظم يتحدَّرن، ربعة[٨]، لا تقحمه[٩] عين من قصر ولا تشنؤه[١٠] من طول، غصن بين غصنين[١١]، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أبلج: مشرق.

(٣) قسيم: جميل الوجه.

(٤) دعج: سعة العين مع سواد.

(٥) أقرن: مقرون الحاجبين.

(٦) أي في قوله الفصل بين الحق والباطل. ولا نزر: أي ليس تافهاً.

(٧) الهذر: الخلط في الكلام.

(٨) ربعة: لا طويل ولا قصير.

(٩) تقحمه عين: تحتقره.

(١٠) تشنؤه: تبغضه.

(١١) غصن بين غصنين: هو ورفيقاه.

تبادروا إلى أمره، محفود محشود (حفد: أسرع)، لا عابس ولا مفند[1]» [2].

فقال زوجها: «هذا والله صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لألتمسنَّ أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلًا»..

لقد ترك الركب المحمدي أم معبد الخزاعية، وسار تحفُّه بركاتُ الله ورضوانُه، يغذُّ السير إلى يثرب التي كانت تنتظره بالإيمان والشوق، وقد دخل حبُّه قلوب المسلمين فيها لمجرد سماعهم بذكره الطيِّب، وبخصاله الحميدة، ومزاياه الجليلة، التي أهَّلته لأن يكون رسول الله، ليس لسكان مكة، ولا لأهل يثرب، ولا لكل العرب.. بل وللناس كافة.

نعم لقد أحبَّه اليثربيون قبل أن يروه، فراحوا ـ بعدما سمعوا بخروجه من مكة ـ يرقبون اليوم الذي يصل فيه إليهم، حتى تستقبله قلوبهم، قبل عيونهم وآذانهم.. إنهم يعلمون أنه خرج من مكة، ولكنهم لم يعرفوا أي طريق سلك. ولو عرفوا لذهبوا إلى ملاقاته، يحمونه بالمهج والنفوس.. إلَّا أنهم في انتظاره، وصباح كل يوم يخرجون إلى منافذ مدينتهم، ويبقون معلَّقي الأنظار في الجهات كلها، علهم يرونه من بعيد، أو أن يخبرهم أحدٌ عنه بخبر...

وبقوا على هذه الحال من الشوق والانتظار، يخرجون كل يوم بعد صلاة الصبح إلى ظاهر بلدهم، يتلمَّسون إطلالتَه، حتى تغلب الشمس على الظلال في تلك الأيام الحارة من شهر أيلول.

---

(١) مفند: في الرأي مخطئ. وفي الهيئة: فيه ضعف وضمور.

(٢) زاد المعاد، ص٧٩.

وانتهت رحلة المهاجرة، ووصل الركب قُباء (على فرسخين من يثرب) وكان ذلك يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول (١٦ أيلول ٦٢٢ ميلادية) فأقام فيها هو وصاحباه أربعة أيام نزل فيها على كلثوم بن الهدم، فيكون قد أنفق ثمانية أيام على الطريق، منذ خروجه من غار ثور إلى أن وصل قُباء.

إنه محمد رسول الله ﷺ، وقد هاجر لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وهو داعية الله، والمساجدُ خير الأماكن والمنابر لذكر الله، لأنها تجمع المسلمين على إقامة أهم فريضة من شعائرهم ألا وهي الصلاة، فضلًا عن كونها أماكنَ لتعليم دينهم، والتفكر والتشاور بأمورهم لنيل رضوان الله عزَّ وجلَّ.. ولذا فإن النبي ﷺ لم يترك الوقت يمرُّ سدىً منذ وصوله إلى قُباء، بل أسَّس خلال الفترة الوجيزة التي قضاها فيها مسجداً، وهو أول مسجد أُسس في الإسلام، وقد بناه رسول الله ﷺ في هذا المكان الشريف، فنزل فيه قول الله تعالى:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

أجل لقد انصبَّ اهتمامه ﷺ من أول يوم على تأسيس مسجد قُباء، في الوقت الذي لم يغِبْ عن باله أمرُ عليٍّ والفواطم، وماذا حلَّ بهم بعد هجرته.. وإنّ قدومَهم العاجل إلى قُباء، قد يجَعَله يرتاح، ويطمئن إلى غدٍ مشرقٍ، يُظهر فيه الله تعالى دينَهُ ولو كره المشركون.

أما عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فكان قد أمضى في مكة ثلاثَ

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

ليال، وكانت كافيةً لأداء الودائع إلى أصحابها، فلما فرغ من ذلك قام يشدّ الرحال، قاصداً يثرب مع الفواطم الثلاث رضي الله عنهن، وتبعهم أيمن ابن أم أيمن، وأبو واقد الليثي، وآخرون من ضعفاء المسلمين، الذين لم يستطيعوا الخروج من قبل..

وقد تعقَّبه ثمانية رجال من قريش، يريدون الفتك به، فاشتبك معهم، وقتل منهم جناح مولى الحارث بن أمية... وتابع سيره حتى بلغ قُباء في اليوم الثاني من وصول النبي ﷺ إليها..

وإذا كان وعثاءُ السفر وما رافقه من جهد في الذود عن حرم رسول الله قد أخذ من علي رضي الله عنه بعض الشيء، إلَّا أنَّ همَّه كان الحفاظ على سلامة هؤلاء النسوة اللواتي حمَّله النبي ﷺ مسؤولية حملهن ـ لشدة معزتهن عنده ـ فصارت سلامتهن أغلى من حياته ـ وكذلك مسؤولية من لحق به أثناء خروجه حتى أمكنه الله تعالى من إيصال الجميع سالمين، موفوري الكرامة... وكان لا بدَّ من أن يؤدي ذلك الجهد إلى ورم في رجليْ علي عليه السلام وتشنُّج في مفاصله وعروقه. إلَّا أنه نسي كل آلامه عندما رأى حبيبه محمداً ﷺ، فاندفعَ نحوه بكل جوارحه[1]، ليتلقاه النبي ﷺ في أحضانه، فيعتنقان، ويشدان على بعضهما بعضاً، حتى خشعت العواطف لاعتناقهما، وذابت المشاعر للقائهما..

ورأى النبيُّ ﷺ ما حلَّ بعليٍّ، فأخذ يمسح موضع الألم بيديه الطاهرتين، حتى أبلّ عليٌّ مما أصابه.

وكان المسلمون في يثرب لا يزالون على انتظارهم، كعادتهم كل يوم. فلما كان نهار الجمعة الموافق للسادس عشر من ربيع الأول،

---

(١) الجوارح: أعضاء الجسم.

كان أول من رأى النبي ﷺ وصحبَه رجل من اليهود، فصرخ بأعلى صوته، من على شجرة نخيلٍ ـ يا بني قَيْلَة (وكانت هذه كنية العرب في يثرب) هذا صاحبكم الذي تنتظرون قد جاء.

وسرى خبر مقدم رسول الله في يثرب، فخرج أهاليها، شيوخهم وفتيانهم، نساؤهم وأولادهم، يستقبلون الوافد العظيم، الذي جاء يحمل لهم الهداية من الله تبارك وتعالى، ويضيء حياتهم بنور الحق والإيمان، ويبشِّرهم برضوان الله تعالى ورحمته. وتدافع المسلمون لملاقاةِ نبيّ الهدى وهم يكبِّرون: «الله أكبر، الله أكبر.. جاء محمد رسول الله.. الله أكبر، الله أكبر.. جاء محمد رسول الله».. وأما اليهود ـ وقد أيقنوا أنه محمدٌ، وليس غيره ـ فقد رأوا صدق البشارة في توراتهم».

وهكذا استقبلت يثرب رسول الله ﷺ بالفرحِ والفخرِ.. وكان التعبير من بناتِ الأنصار، وهنّ يُنْشِدنَ بسرورٍ وحبور:

طَلَعَ البدرُ علينَا ... من ثنيّاتِ الوداعْ
وَجَبَ الشُكرُ علينَا ... ما دَعَا لله داعْ
أيُّها المبعوثُ فينَا ... جِئْتَ بالأَمْرِ المُطَاعْ
جِئْتَ بالخيرِ إلينَا ... مَرْحَباً يا خير داعْ

وبوصول النبي ﷺ إلى يثرب، انتهى العهد المكي، وابتدأ عهد جديد في حياة الدعوة الإسلامية، هو العهد المديني، الذي يعتبر بحق عهد الدولة الإسلامية..

وقد استمرَّ ما قبل الهجرة ثلاثَ عشرة سنة في مكة، ولم يُفرض خلالها من الأحكام الشرعية سوى الصلوات الخمس بعدد ركعاتها، المعروفة الآن في كل صلاة، عند المسلمين..

الفهرس

المقَدِّمة: تكَامُل مُحَمَّد ﷺ الإنساني جعلَهُ رَسُولاً لِلنّاسِ كَافَّة ٧

الفصل الأَوَّل: حياةُ الرّسُول ﷺ الكرِيم قبل البِعْثَة ٤١

البحث الأول: الواقع الجغرافي والاقتصادي ٤٣

الواقع الجغرافي والاقتصادي ومُعتقداتُ العَرَبِ قبل الإسْلام ٤٣

المُعتَقَدَات الدِّينيَّة ٤٩

أما أصنام قريش فأبرزها ٥٥

البحث الثاني: النَّسبُ النَّبَوِيُّ الشريف ٨٣

قصيّ بن كلاب ٨٤

قصيُّ مجمِّعُ قريش ٨٩

اختلاف قريش وقيام الأحلاف ٩٣

هاشم بن عبد مناف ٩٥

المطّلب بن عبد مناف ٩٩

عبد المطلب بن هاشم ١٠٠

عبد الله بن عبد المطلب ١١٣

قصة أصحاب الأخدود ١٣٢

البحث الثالث: مولد محمد ﷺ وطفولته ١٣٩
عام الفيل ١٣٩
مولد محمد بن عبد الله ﷺ ١٤٩
محمد الرضيع ١٥٨
محمد الطفل ١٦٢
محمد اليتيم ١٧١

البحث الرابع: مراحل الشباب والزواج في حياة محمد ﷺ ١٧٧
محمد الفتى ١٧٧
محمد الشاب ١٩٢
حرب الفجّار ١٩٥
حلف الفضول ١٩٩
مقدمات الزواج ٢٠١
زواج محمد ﷺ من خديجة بنت خويلد ٢١٥
إعادة بناء الكعبة ٢١٩
انصراف محمد ﷺ إلى التحنّث ٢٢٤

الفصل الثاني: ظهور الإسلام في مكة ٢٢٩

البحث الأول: بعث محمد ﷺ بالنُّبوَّة والرسالة ٢٣١
مراتب الوحي ٢٣١
نزول الوحي ٢٣٤
نفحاتٌ من الإعداد الإلهي لمحمد ﷺ ٢٤٩
دعوة ذوي القربى ٢٥٤
إسلام علي بن أبي طالب ٢٥٥
إسلام زيد بن حارثة ٢٥٦

إسلام أم أيمن ٢٥٩
إسلام بنات محمد ﷺ ٢٥٩
حقيقة إسلام أبي طالب ٢٦٨
بدء دخول الصحابة الكرام في الإسلام ٢٧٧
إسلام أبي بكر ٢٧٧
إسلام سعد بن أبي وقاص ٢٧٩
إسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه ٢٨٠
إسلام الزبير بن العوام ٢٨٣
ثلة أخرى من الأولين ٢٨٥

البحث الثاني: المجتمع في مكة ونقطة ابتداء الدعوة ٢٩٣
المجتمع في مكة ٢٩٣
نقطة ابتداء الدعوة ٣٠١
التثقيف في دار الأرقم بن أبي الأرقم ٣٠٢
مناقشة قريش في أمر محمد ﷺ ٣١٠
دعوة عشيرة النبي ﷺ ٣١٤
أحقادُ نساءٍ من قريش ٣٢٠
مسلمات مؤمنات ٣٢٧
الأمر بالصدوع وإعلان الدعوة ٣٢٨
إسلام أبي ذر الغفاري ٣٣٠
إسلام عمرو بن عبسة السلمي ٣٤٤
إسلام ضمَّاد أزد شنؤة ٣٤٦

البحث الثالث: عروض قريش وطلب المعجزات ٣٥٧
عرض قريش المالَ والمُلْك على النبي ﷺ ٣٥٧
طلب قريش المعجزات الحسيّة ٣٦٦

بعثة قريش إلى أحبار اليهود ٣٧٨
حفلة ساهرة مع رؤوس الشِّرك ٣٨٢
تفسير المعجزات التي طلبوها ٣٨٦
قصة أهل الكهف ٣٨٦
قصة ذي القرنين ٣٩٠
ماهية الروح ٣٩٥
الاستماع إلى قراءة القرآن ٣٩٧
القرآن عنصر الدعوة الأساسي ٤٠٢
عروض جديدة من قريش على أبي طالب ٤١٠

البحث الرابع: أذى قريش للمسلمين ٤٢٥
نكبة بلال بن رباح ٤٢٦
استشهاد ياسر وزوجته سمية ٤٢٩
غيرهم من المعذبين ٤٣٣
إسلام حمزة بن عبد المطلب ٤٣٩
محاولات أخرى للنيل من النبي ﷺ ٤٤٦

الفصل الثالث: المهاجرون إلى اللَّه (تعالى) ٤٥٥

البحث الأول: الهجرة تداركاً للفتنة ٤٥٧
الهجرة الأولى إلى الحبشة ٤٥٧
إسلام عمر بن الخطاب ٤٦٣
عودة المهاجرين ٤٧١
الهجرة الثانية إلى الحبشة ٤٧٦
عودة إلى محاربة القرآن ٤٨٧
المقاطعة والحصار في شعاب مكة ٤٩٢

السعي لخرق المقاطعة ٥٠٣
شقُّ صحيفة المقاطعة ٥٠٥

البحث الثاني: نقطة انطلاق الدعوة ٥١٩
أهمية الاحتكاك الفكري ٥١٩
الأسس التي يقوم عليها انطلاق الدعوة ٥٢٤
خروج المسلمين تعبيراً عن انطلاق الدعوة ٥٢٧
إسلام سيد قبيلة بني دوس ٥٣٢
إسلام وفد نجران ٥٣٩
عام الحزن ٥٤١
اللحظات الحاسمة ٥٤٤
موت أبي طالب ٥٤٦
موت خديجة رضي الله عنها ٥٤٨
الذهاب إلى الطائف ٥٥٥
الاتهامات ضد النبي ﷺ ٥٧٠

البحث الثالث: الرسول ﷺ يعرض الإسلام على القبائل وأهلِ النصرة ٥٧٥
ملاحقة المشركين للنبي ﷺ ٥٧٦
الرسول ﷺ يطلب أهل النصرة في منازلهم ٥٨٠
بنو شيبان وردهم الصادق ٥٨٥
زواج النبي ﷺ من السيدة سودة ٥٩٣
النبيُّ ﷺ يخطب السيدة عائشة ٥٩٦
الإسراء والمعراج ٦٠٠
لقاءات مع رجال من الأوس ٦١٩
بيعة العقبة الأولى ٦٢١
مصعب بن عمير في المدينة ٦٢٤

بيعة العقبة الثانية ٦٣٢
هؤلاء هم الأنصار ٦٣٧
إسلام عمرو بن الجموح ٦٤٠

البحث الرابع: الهجرة إلى يثرب ٦٤٥
القرار بالهجرة ٦٤٥
قرار قريش باغتيال «محمد ﷺ» ٦٥٢
مبيت علي في فراش النبي ﷺ ٦٥٥
الفشل الذريع للمتآمرين ٦٥٩
التخفي في غار ثور ٦٦١
الرحيل إلى دار الهجرة ٦٦٨

كلمة الناشر

بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام بحوالي ٥٧٠ سنة تحققت نبوءته وأن النبي الذي بشر به رسولًا من عند الله ومنذ ذلك التاريخ ونبي الإسلام يملأ الدنيا ويشغل الناس، وعلى مرّ الأيام وكرّ السنين يتسع نطاق دعوته ويزداد مريدوه.

فمن هو هذا النبي العظيم ولماذا هو وليس غيره وكيف عاش وما هي أسس الإسلام وكيف بدأت دعوته وكيف انطلقت ومن أين ومتى... كل هذه التساؤلات وغيرها يجيب عنها الأستاذ المفكر الإسلامي المعاصر سميح عاطف الزين في الطبعة الرابعة من كتاب خاتم النبيين محمد (ص) مجمع البيان الحديث، الذي جمع فيها سيرة النبي (ص) بموضوعية لم يُسبق إليها حيث راعى فيها جانب الدعوة الاسلامية ومراحلها بصياغة فكرية فريدة، وهذا الجزء الأول من الكتاب حيث يتوقف بنا المؤلف منذ نهاية العهد المكي وبداية العهد المديني إثر الهجرة النبوية التي بها يبدأ التأريخ الإسلامي.

ورغم كثرة ما كُتب واستُكتب وقيل وتُقوِّل على نبي الإسلام، فإن قارئ العصر ليتيهُ بين تلك الآلاف المؤلفة من الكتب. فالقديم منها! إما مغرق في التطويل الممل واللغة المعقّدة الغريبة أو مليء بالإختلافات والخرافات والاسرائيليات وسةى ذلك مما لا يحتمله قارء العصر.

أما الكتب الحديثة فأغلبها موجّه حسب ميول واضعها السياسية أو الطائفية أو المذهبية أو الحزبية... مما عزز الانقسامات الفكرية

بين المسلمين أنفسهم وأراح أعداء المسلمين وقوّى شوكتهم. ولبئس ما اشترى هؤلاء بآيات الله ثمناً قليلًا.

ومن هنا جاءت ضرورة وأهمية كتاب «خاتم النبيين»، حيث اللغة السهلة والشروحات الضافية والمفردات الواضحة، فلا حشو ولا إملال ولا استطراد، والأهم من ذلك كله أن مؤلفه استبعد من الروايات ما ينافي العقل والكتاب والسنة وأنه قرّب السيرة إلى قارئ العصر لغةً وفكراً ولذلك تراه كثيراً ما يخاطب شباب اليوم ويدعوهم إلى الامتثال بالمسلمين الأوائل وقدوتهم ورائدهم الرسول الرؤوف الرحيم خاتم النبيين محمد ﷺ.